التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الأنعام

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقًا)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٥

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر - سورة الأنعام - المجلد الخامس/ مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٧هـ

٧٦٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٣٤-٢

١- القرآن - سورة الأنعام - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٣٧/٣٠٠٣

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٣٠٠٣

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٣٤-٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأنعامِ

سُورة الأنعام

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ سُورةَ الأنعامِ(١).

فعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: (إذا سَرَّك أنْ تَعلَمَ جَهْلَ العربِ، فاقرَأْ ما فَوقَ الثَّلاثينَ ومِئَةٍ في سورةِ الأنعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ إلى قولِه: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾)(٢).

فَضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قالَ: ((نزَلَتْ سورَةُ الأنعامِ بمَكَّةَ ليلًا جُملةً، حولَها سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ، يَجأرُونَ حولَها بالتَّسبيحِ))(٣).

بيانُ المَكيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الأنعامِ مَكيَّةٌ، وقد نقَلَ الإجماعَ على ذلِك بعضُ المفسِّرين(٤).

---

(١) سُمِّيت سورةَ الأنعام؛ لِمَا فيها مِن ذِكر الأنعام مكرَّرًا ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ١٨٧).

وقال السيوطي: (وتسميةُ سورةِ الأنعامِ؛ لِما ورَد فيها من تفصيلِ أحوالِها، وإن كان قد ورَد لفظُ «الأنعام» في غيرِها إلَّا أنَّ التفصيلَ الواردَ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ إلى قولِه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ لم يرِدْ في غيرِها). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢٤).

(٣) أخرجه القاسم بن سلاَّم في ((فضائل القرآن)) (ص٢٤٠)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (١٩٦)، والطبراني (١٢/ ٢١٥) (١٢٩٣٠).

حسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦١).

(٤) ممَّن نقَل الإجماع على ذلك: ابنُ تيميَّة في ((الفتاوى الكبرى)) (١/ ١٦٢)، والشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٢١). =

مَقاصِدُ السُّورة:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الأنعامِ:

١- ترسيخُ العَقيدةِ، وتعريفُ النَّاسِ بربِّهم، وتعبيدُهم له، وإقامةُ الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ، وصِدقِ رسولِه، وعلى اليومِ الآخِرِ(١).

٢- مُحاجَّةُ المشركِينَ وغيرِهم من المُبتدِعينَ، ومَن كذَّبَ بالبَعْثِ والنُّشورِ، ودحْضُ شُبَهِهم(٢).

موضوعاتُ السُّورة:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الأنعامِ:

١- بيانُ أنَّ حقَّ الحَمدِ ليسَ إلَّا للهِ؛ لأنَّه مُبدِعُ العوالمِ، وإبطالُ تأثيرِ الشُّركاءِ مِن الأصنامِ والجنِّ؛ بإثباتِ أنَّه المتفرِّدُ بخَلْقِ العالَمِ، وخَلْقِ الإنسانِ ونظامِ حَياتِه ومَوتِه، بحِكمتِه تعالى وعِلْمِه، وتنزيهُ اللهِ تعالى عن الوَلَدِ والصَّاحبةِ.

٢- موعِظةُ المعرِضينَ عن آياتِ القُرآنِ والمكذِّبينَ بالدِّينِ الحَقِّ، وتَهديدُهم بأنْ يَحُلَّ بِهم ما حلَّ بالقُرونِ المكذِّبينَ مِن قَبْلِهم، والكافِرين بنِعَمِ اللهِ تعالى، وأنَّهم ما يَضرُّون بالإنكارِ إلَّا أنفُسَهم، ووعيدُهم بما سَيَلْقَونَ عِندَ نزْعِ أرواحِهم، ثمَّ عِندَ البَعثِ.

٣- تسفيهُ المشرِكينَ فيما اقْترحُوه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من طَلَبِ إظهارِ الخوارقِ تهكُّمًا، وإبطالُ اعتقادِهم أنَّ اللهَ شاء لهم الإشراكَ؛ قصْدًا منهم

= وقال ابنُ عبدِ البرِّ: (وقد أجمَع العلماءُ أنَّ سورةَ الأنعامِ مكيَّةٌ، إلَّا قولَه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات الثلاث). ((التمهيد)) (١/ ١٤٦).

وقيل: كلُّها مكيَّة إلَّا ستَّ آياتٍ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٧).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠١٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٥/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٥).

لإفحامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ حَقيقةِ مَشيئةِ اللهِ، وإثباتُ صِدقِ القُرآنِ بأنَّ أهلَ الكِتابِ يَعرِفون أنَّه الحقُّ.

٤- ساقتِ السُّورةُ حَشدًا من الأدلَّةِ والبَراهينِ على وحدانيَّة اللهِ، وقُدرَتِه، وأنَّه وحْدَه المستحِقُّ للعبادةِ.

٥- الإنكارُ على المشركينَ تَكذيبَهم بالبَعثِ، وتحقيقُ أنَّه واقِعٌ، وأنَّهم يَشهَدون بعْدَه العذابَ، وتَبَرَّأ منهم آلهتُهم التي عَبَدوها، وسَيَندمُون على ذلِك، كما أنَّها لا تُغْني عنهم شيئًا في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّهم لا يَدْعُونَ إلَّا اللهَ عِندَ النَّوائبِ.

٦- في السُّورةِ تَسليةٌ للنبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثبيتٌ لقلبِه، ودَعوتُه للصبرِ على تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ دون كَللٍ ولا مَلَلٍ، وإرشادُه إلى الاقتداءِ بمَن سبَقَه مِنَ الرُّسُلِ الَّذين صَبَروا على تَكذيبِ أقوامِهم.

٧- بيانُ حِكمةِ إرسالِ اللهِ الرُّسلَ، وأنَّها الإنذارُ والتبشيرُ، وليستْ وظيفةُ الرُّسلِ إخبارَ الناسِ بما يَتطلَّبون عِلمَه مِن المُغيَّباتِ.

٨- بيانُ اختِصاصِ الحقِّ تَعالى بالعِلمِ المغيَّبِ، وقَهرِه، وغَلبتِه على المخلوقاتِ.

٩- بَيَّنتِ السُّورةُ أنَّ الذين يَستجيبونَ لدعوةِ الحقِّ، هم الذين يَسمَعونَ ويتَّعظون ممَّن قُلوبُهم حيَّة، أمَّا مَن ماتتْ قلوبُهم فهم لا يَنتفِعون بموعظةٍ، ولا يَقْبَلون هِدايةً، ومصيرُهم إلى اللهِ وسيُجازِيهم على جُحودِهم وأعمالِهم المنكَرةِ.

١٠- بيانُ أنَّ تَفاضُلَ النَّاسِ بالتَّقوى والانتسابِ إلى دِينِ اللهِ، وإبطالُ ما شرَعَه أهلُ الشِّركِ مِن شرائعِ الضَّلالِ.

١١- النَّهيُ عن مُجالسةِ الخائضين في آياتِ اللهِ ومُؤانستِهم.

١٢- الأمْرُ بالإعراضِ عن المشرِكين، والنَّهيُ عن سَبِّ الأَصنامِ وعُبَّادِها.

١٣- بيانُ أنَّ التَّقوى الحقَّ ليستْ مُجرَّدَ حِرمانِ النَّفسِ مِنَ الطيِّباتِ، بل هي حِرمانُ النَّفْسِ مِن الشَّهواتِ التي تَحُولُ بين النَّفْس وبينَ الكَمالِ والتَّزكيةِ.

١٤- ضربُ المثَلِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع قومِه بمَثَلِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه وقومِه، وكان الأنبياءُ والرُّسُلُ على ذلِك المَثَل؛ مَن تَقدَّمَ منهم ومَن تأخَّرَ.

١٥- المنَّةُ على الأمَّةِ بما أَنزلَ اللهُ مِن القرآنِ هُدًى لهم، كما أَنزلَ الكِتابَ على موسى، وبأنْ جَعَلَها اللهُ خاتِمةَ الأممِ الصَّالحةِ.

١٦- بيانُ فَضيلةِ القرآنِ ودِينِ الإسلامِ وما مَنَحَ اللهُ لأهْلِه مِن مُضاعَفةِ الحَسَناتِ.

١٧- تَخلَّلتْ ذلك قوارعُ للمُشرِكين، وتنويهٌ بالمؤمنين، وامتنانٌ بنِعمٍ اشتمَلَتْ عليها مخلوقاتُ اللهِ، وذِكْرُ مَفاتِحِ الغيبِ.

١٨- ذكرُ أحوالِ العربِ في الجاهليَّةِ، مع بيانِ ما كانوا عليه مِن سفاهةٍ، وسورةُ الأنعامِ أَجمَعُ سُورِ القُرآنِ لذلك.

١٩- في السُّورةِ تَفصيلُ مُحرَّماتِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، ومُحْكَمَاتِ آياتِ القُرآن، والأوامِر والنَّواهي.

٢٠- ذَكَر اللهُ تعالى في السُّورةِ خِلافةَ الخلائِقِ، وتفاوُتَ دَرجاتِهم، وخَتَمَ السُّورةَ بذِكرِ سُرعةِ عُقوبةِ اللهِ لمستحِقِّيها، ورحمتِه ومَغفرتِه لمستوجِبيها.

الآيات (١-٣)

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: أي: يَجعلون له عديلًا من الحِجارةِ، ويُسَوُّون الأوثانَ به، وقيل: يَعدِلون بأفعالِه عنه، ويَنسُبونها إلى غيرِه، وقيل: يَعدِلون بعبادَتِهم عنه تعالى، والعدالةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المساواةِ، وأصل (عدل): يدلُّ على استواءٍ[1].

﴿قَضَى﴾: القضاءُ: إتمامُ الشَّيءِ، أو فَصْلُ الأمْرِ؛ قولًا كان ذلِك أو فِعلًا، ويُعبَّرُ عنه بالموتِ، ويُطلَقُ على الأجَل، وعلى الفَصلِ في الخُصومةِ أيضًا، وأصل (قضي): يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجِهتِه[2].

﴿أَجَلًا﴾: الأجَلُ: غايةُ الوقتِ، سواءٌ في مَحلِّ الدَّيْن، أو انقضاءِ العِدَّة أو غيرِهما، والمدَّةُ المضروبةُ للشيءِ، ويُقال للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أجلٌ: ويُعبَّرُ به عن عُمرِ الإنسانِ، فيُقال: دنا أجَلُه، وهو عبارةٌ عن دُنوِّ المَوتِ، واستيفاءُ الأجَلِ، أي: مدَّةُ الحياةِ[3].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١، ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤، ٦٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥، ٦٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠).

﴿تَمْتَرُونَ﴾: تَشُكُّون، أو تَختلِفون، أو تَتردَّدون، مِن المِرْيَة: وهي الشَّكُّ، وقيل: هي التردُّدُ في الأمْر، وهو أخصُّ من الشكِّ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّ الحمدَ الكاملَ المُستحَقَّ هو له وحْدَه؛ فهو الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ، وجعَل الظُّلماتِ والنُّورَ، ومع ذلك كلِّه؛ فإنَّ الكفَّارَ عدَلوا بربِّهم سواه، وجعَلوا معه شريكًا يُساوونَه به.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه هو الذي خلَقَ جميعَ البشرِ مِن طينٍ، وذلك بخلقِ أبيهم آدَمَ منه، ثم حدَّد مُدَّةَ إقامَتهم في الدُّنيا، وحدَّد كذلك وقتًا لهذه الحياةِ الدُّنيا تزولُ فيه، لا يَعلمُه غيرُه، ثمَّ يكونُ بعدَه البعثُ والانتقالُ للآخِرةِ؛ ليجازيَ العبادَ بحسَبِ أعمالِهم، ومع هذا البيانِ فإنَّهم يشكُّون في أمْرِ البَعثِ والنُّشورِ.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو المعبودُ في السَّمواتِ والأرضِ، يعلَمُ ما يُسرُّه الخلقُ وما يُعْلِنونَه، ويَعلمُ كلَّ ما يَعملونَه، خيرًا كان أو شرًّا، ويُحْصيه، وسيُجازِيهم عليه.

تفسير الآيات:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: جميعُ المحامدِ يَستحقُّها اللهُ تعالى وحْدَه، الذي أَوْجَد بتقديرِه السَّمواتِ والأرضَ. وفي ضِمْنِ ذلكَ تعليمٌ مِن الله تعالى لخَلقِه أنْ يَحمدُوهُ، ويُفْرِدُوه بالحمْدِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠-١٥).

﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾.

أي: وهو الذي جعَل الظُّلماتِ والنورَ، وذلك شامِلٌ للحِسِّي كاللَّيلِ والنَّهارِ، والمعنويِّ كظُلُماتِ الجَهلِ والشِّركِ والمعصيةِ، ونورِ العِلمِ والإيمانِ والطَّاعةِ[١].

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

أي: ومع هذا كلِّه، كفَر به بعضُ عِبادِه، وعدَلوا به سِواه، بأنْ جعَلوا معه شريكًا يُساوونَه به في العبادةِ والتَّعظيمِ، فيُعظِّمون أمْرَه، ويَعبُدونَه كما يَعبُدون اللهَ سبحانه وتعالى[٢].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استدلَّ تعالى بخَلْقِه السَّمواتِ، وتعاقُبِ الظُّلماتِ والنُّورِ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ- أتْبَعَه الاستدلالَ بخَلْقِه الإنسانَ على إثباتِ هذا المطلوبِ[٣]، فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾.

أي: هو سُبحانَه الذي أوجدَ أصْلَكم، وأنشأَ مادَّتَكم- أيُّها النَّاسُ- من طِينٍ، وذلك بخَلْقِ أبيكم آدَم عليه السَّلامُ[٤].

﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤-١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٦-١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).

أي: ضرَبَ لِمُدَّة إقامتِكم في هذه الدَّارِ أجلًا تُبتَلَوْن فيه، ثم يُعيدكم ترابًا كما كُنتم، وضرَب لهذه الدُّنيا وقتًا تَزولُ فيه، لا يَعلمُه إلَّا هو، فتُبعَثون أحياءً، وتنتَقِلون إلى الدَّارِ الآخِرة؛ ليجازيَكم بأعمالِكم مِن خيرٍ وشرٍّ[١].

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

أي: ثمَّ أنتُم مع هذا البيانِ التامِّ، والحُجَّة السَّاطعة- حيث عرفتُم أنَّكم خُلِقْتُم من طينٍ، وأنَّ الآجالَ تَنقضي- تشكُّون في أمْرِ البَعثِ، وقيامِ السَّاعة[٢]!

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقدَّم ما يدلُّ على القُدرةِ التامَّةِ والاختيارِ، وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ذكَر ما يدلُّ على العِلم التامِّ، فكان في التنبيهِ على هذه الأوصافِ دلالةٌ على كونِه تعالى قادرًا مختارًا، عالِمًا بالكليَّات والجُزئيَّات، وإبطالٌ لشُبَهِ مُنكِرِ المعادِ[٣]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وهو المألوهُ المعبودُ في السَّمواتِ وفي الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).
قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾، أي: معلومٌ عند الله، وهنا الأفضلُ أن نقِفَ على قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ ولا نصِل؛ لأنَّ الوصلَ قد يُشعر بالتناقُض، وجهه: أنَّ الأولَ منصوبٌ ﴿أَجَلًا﴾، والثاني مرفوع ﴿وَأَجَلٌ﴾، والحُكم أيضًا مختلفٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٣١١)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

أي: يعلمُ ما تُسرُّونه وما تُعلنونَه؛ فلا يَخفَى عليه شيءٌ[١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

أي: ويَعلمُ جميعَ ما تَعملونَ مِن خيرٍ وشرٍّ، فيُحصي ذلك عليكم، ويُجازيكم به عندَ رُجوعِكم إليه؛ فاحْذَروا معصيتَه، وارْغَبوا في طاعتِه[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾: حَمِدَ اللهُ تعالى نفْسَه أنْ خلَق السَّمواتِ والأرضَ؛ فاللهُ تعالى يَحمَدُ نفْسَه عندَ الأمورِ العظيمةِ، فحَمِد نفْسَه على خلقِه السَّمواتِ والأرضَ، الدالَّة على كمالِ قُدرته، وسَعةِ عِلمِه ورَحمتِه، وعمومِ حِكمتِه، وانفرادِه بالخلقِ والتدبير، وعلى جَعْلِه الظُّلماتِ والنورَ؛ لأنَّ هذه الأمورَ العظيمةَ تُوجِبُ للعبدِ المتأمِّل أنْ يَحمَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ على كمالِ صِفاتِه، وعلى كمالِ إفضالِه وإنعامِه، وتدلُّ دلالةً قاطعةً أنه تعالى هو المُستحِقُّ للعِبادة، وإخلاصِ الدِّين له[٣].

٢- أنَّ الإيمانَ بما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يَقتضي

= ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦-٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

عدمَ مُخالفةِ أمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، بتَرْك واجبٍ، أو فِعلِ معصيةٍ؛ والرغبةَ في الأعمال التي تقرِّبُ مِن الله، والحذرَ مِن كلِّ عملٍ يُبعِدُ منه سبحانه وتعالى، فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ اللهَ يَعلمُ سِرَّه وجَهرَه، استحيا منه، فلم يترُكْ ما وجَب، ولم يفعلْ ما يَحرُم، وإذا لم يُثمِرِ العلمُ بذلك هذه الثمرةَ الجليلةَ، كان علمًا لا فائدةَ منه(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ فيه بيانُ عِلمِ اللهِ تبارك وتعالى بما نكسِبُ؛ أي: بما نَكسِبُه من الأعمالِ، سواءٌ كان كَسبًا دُنيويًّا، أو كسبًا أُخرويًّا، فإنَّ اللهَ تعالى يَعلمُه ولا يَخفَى عليه، ويَترتَّب على هذا ألَّا نكسِب شيئًا حرَّمه اللهُ علينا(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنَّ حمْدَ الله يكونُ على أفعالِه التي يَختارُها، وعلى صِفاتِه الكاملةِ اللازِمة له؛ فهو جلَّ وعلا مستحِقٌّ أنْ يُحمَد، والحمدُ الكاملُ مختصٌّ به(٣).

٢- لمَ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقُل: (المدحُ لله)، أو (الشُّكر لله)، والجواب: إنَّما لم يقُل: (المدح لله)؛ لأنَّ المدحَ كما يَحصُلُ لله تعالى، فقدْ يَحصُل لغيرِه، ألَا ترى أنَّه كما يَحسُن مدْحُ الرَّجُل العاقلِ على أنواع فضائلِه، فكذلك قد يُمدَحُ اللؤلؤُ؛ لحُسنِ شَكلِه، ولَطافةِ خِلقتِه، فيُقال: ما أَحْسنَه! أمَّا الحمدُ فإنَّه لا يحصُل إلَّا لله عزَّ وجلَّ على ما يَصدُر منه من الإنعامِ والإحسانِ. ولم يقُل: (الشُّكرُ لله)؛ لأنَّ الشُّكرَ عبارةٌ عن تعظيمِه بسببِ إنعامٍ صدَرَ منه، ووصَل إليك، وهذا مُشعِرٌ بأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)؛ ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١).

العبدَ إذا ذكَر تعظيمَ الله بسببِ ما وصَلَ إليه من النِّعمة، فحينئذٍ يكونُ المطلوبُ الأصليُّ به وصولَ النِّعمة إليه، فأمَّا إذا قال: (الحمدُ لله)، فهذا يدلُّ على أنَّ العبدَ حمِدَه؛ لأجْل كونِه مستحِقًّا للحمدِ، لا لخُصوصِ أنَّه تعالى أوْصَل النِّعمةَ إليه؛ لأنَّ الحمدَ عبارةٌ عن تعظيمِ اللهِ سُبحانه؛ لأجْلِ ما صدَر عنه من الإنعامِ، سواءٌ كان ذلك الإنعامُ واصلًا إليك أو إلى غيرِك، فيكون الإخلاصُ أكملَ(١).

٣- إنَّما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل: (أحمَدُ الله)؛ لأنَّه لو قال: (أحمد الله) كان ذلك مُشعِرًا بأنَّه ذكَرَ حَمْدَ نفْسِه، ولم يذكُر حمْدَ غيرِه، أمَّا إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقد دخَلَ فيه حمْدُه، وحمدُ غيرِه، من أوَّل خلْق العالَم إلى آخِرِ استقرار المكلَّفين في درجات الجِنان، ودَركاتِ النِّيران، كما قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فكان هذا الكلامُ أفضلَ وأكملَ(٢).

٤- خصَّ السَّمواتِ والأرضَ بالذِّكر في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لأنَّهما أعظمُ المخلوقاتِ فيما يرَى العبادُ؛ لأنَّ السَّماءَ بغيرِ عَمَدٍ، يرونَها، فيها العِبَرُ والمنافعُ؛ والأرضُ مسكنُ الخلائِقِ، وفيها أيضًا العِبَرُ والمنافِع(٣).

٥- الاقتصارُ في ذِكرِ المخلوقاتِ على هذه الأربعِ: (السَّموات، والأَرْض، والظُّلمات، والنُّور)، في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فيه تعريضٌ بإبطالِ عقائدِ كفَّارِ العربِ؛ فإنَّهم بين مُشرِكين، وصابئةٍ، ومجوسٍ، ونصارى، وكلُّهم قد أثبتوا آلهةً غيرَ الله؛ فالمشركونَ أثبتوا آلهةً من الأرضِ، والصابئةُ أثبتوا آلهةً من الكواكبِ السَّماويةِ، والنصارى أثبتوا إلهيَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٤٧٣، ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠٩).

عيسى أو عيسى ومريمَ، وهما من الموجوداتِ الأرضيَّة، والمجوسُ- وهم المانويَّة- ألَّهوا النُّورَ والظُّلمة، فالنورُ إلهُ الخيرِ، والظُّلمةُ إلهُ الشرِّ عندهم؛ فأخبرَهم اللهُ تعالى أنَّه خالقُ السمَّواتِ والأرضِ- أي: بما فيهما- وجاعِلُ الظُّلماتِ والنُّورِ[1].

٦- قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لماذا اختلفَ التعبيرُ؛ في قوله: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿جَعَلَ﴾؛ فهل هو مُجرَّدُ اختلافِ لفظٍ، أو هناك فرقٌ بين الفِعْلَين؟

قيل: إنَّ ﴿خَلَقَ﴾ هنا و﴿جَعَلَ﴾ معناهما واحدٌ؛ وعلى هذا فيكونُ التَّفريقُ في هذا الموضع لمجرَّدِ اختلافِ اللَّفْظ فقط. ويدلُّ لهذا قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقيل: بَينهما فرْقٌ، فالخَلْقُ: إنشاءٌ لذاتِ المخلوقِ وأصلِه، والخَلْقُ فيه معنى التَّقديرِ، فعبَّر به عن السَّمواتِ والأرض، بينما الظُّلماتُ ليستْ ذاتًا، وإنَّما هي وصفٌ للمخلوقِ، وكذلك النُّورُ، وهما ليسَا شيئًا محسوسًا، وإنَّما يَظهرانِ في غيرِهما؛ لذا عبَّر عنهما بكَلمةِ ﴿جَعَلَ﴾ ففي الجَعْلِ معنى التَّضمينِ والتَّصييرِ، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، وتَصييرِ شيءٍ شيئًا. وإنَّما حَسُن لَفظُ الجَعْلِ هاهنا في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾؛ لأنَّ النورَ والظُّلمةَ لَمَّا تَعاقبَا صارَ كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما إنَّما تولَّد مِنَ الآخَر. والقولُ بأنَّ بين اللفظين (خَلَق) و(جَعَل) فرقًا، لا شكَّ أنَّه أبلغُ مِن أنْ نقولَ: إنَّه ليسَ بينهما فرْقٌ، وإنَّما اختلَفَ اللَّفظُ فقط[2].

٧- يُؤخَذُ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ بيانُ سَفهِ الكفَّار، وأنَّهم لا عُقولَ لهم؛ وجهُه: أنَّه بعدَ ظهورِ هذه الآياتِ العظيمةِ، عدَلوا باللهِ عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠).

وجلَّ، وجعَلوا له عَديلًا ونِدًّا، وهذا يَدلُّ على سَفهِهم، وإنْ كانوا أذكياءَ(١).

٨- رُبوبيَّةُ اللهِ تعالى عامَّةٌ للمؤمنِ والكافِرِ؛ لقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾، فأخْبَر سبحانه وتعالى عن نفْسِه أنَّه ربٌّ لهؤلاء، ولا إشكالَ في ذلك؛ فهذه هي الربوبيَّة العامَّة، وهناك ربوبيَّة خاصَّة بالمؤمنين تقتضي الكِلاءَةَ والعنايةَ والحِفظَ والتَّربية، وقد اجتمَع النوعانِ في قول سَحَرةِ فرعونَ: ﴿آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، فالأُولى عامَّة، والثَّانِيَة خاصَّة(٢).

٩- الجَمْعُ بين قولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وبيْن قولِه تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥- ٦]: ففي الآيةِ الأُولَى أنَّ البشرَ مخلوقون مِن طينٍ، وفي الثانيةِ أنَّهم مخلوقون مِن ماءٍ دافقٍ، والجمعُ بينهما أنَّ خلْقَ البَشَرِ مِن الطِّين باعتبارِ الأصل، وأمَّا خلْقُهم من الماءِ الدَّافِق، فباعتبارِ الفَرْعِ المتولِّد مِن الأصْل(٣).

١٠- لا خِلافَ ولا تناقُضَ بين قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؛ فالجمْعُ بين هذه الآياتِ أنَّ أصلَ بني آدمَ ترابٌ صُبَّ عليه الماءُ، فصار طينًا، يَلْزَقُ باليَدِ إذا مسَّه الإنسانُ، ثمَّ صَارَ حمأً مَسْنُونًا، ثم صَارَ صَلْصالًا كالفخَّار له صوتٌ إذا قُرِع(٤).

١١- في قَولِه سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ نُسِبَ الخَلْقُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١- ٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤).

الطِّين إلى المخاطَبين لا إلى آدَم عليه السَّلام مع أنَّه هو المخلوقُ مِن الطِّينِ حَقيقةً- حيث لم يقُل: (هو الذي خَلَق أباكم آدَمَ مِن طين...)-؛ لأنَّ آدَم عليه السَّلامُ هو أوَّلُ البَشرِ، وهُو أبوهم؛ فكانَ كُلُّ البَشرِ راجعًا إلى الخَلقِ مِن الطِّين؛ فأخْرَجَ ذلك مَخرجَ الخِطابِ لهم؛ لأنَّهم ذُرِّيتُه(١).

١٢- ذَكَر اللهُ مادَّةَ ما منه الخَلْقُ بقوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾؛ لإظهارِ فَسادِ استدلالِهم على إنكار الخَلْق الثاني؛ لأنَّهم استبعدوا أنْ يُعادَ خلْقُ الإنسانِ بعدَ أنْ صار ترابًا، وتكرَّرتْ حكايةُ ذلك عنهم في القرآنِ، فقد اعتَرفوا بأنَّهم يَصيرون ترابًا بعدَ الموتِ، وهم يَعترِفون بأنَّهم خُلِقوا من تراب؛ لأنَّ ذلك مُقرَّرٌ بين النَّاسِ في سائرِ العُصورِ، فاستدلُّوا على إنكارِ البَعث بِما هو جديرٌ بأنْ يكونَ استدلالًا على إمكانِ البَعْثِ؛ لأنَّ مصيرَهم إلى ترابٍ يُقرِّبُ إعادةَ خلْقِهم؛ إذ صاروا إلى مادَّةِ الخَلْقِ الأوَّلِ؛ فلذلك قال اللهُ هنا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وقال في آياتِ الاعتبارِ بعجيبِ تكوينِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وأمثال ذلك(٢).

١٣- إعادةُ النكرةِ بعدَ نكرةٍ في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى...﴾ يُفيد أنَّ الثانيةَ غيرُ الأولى، فصار المعنى: ثمَّ قضَى لكم أجلَيْنِ: أجلًا تَعرِفون مُدَّتَه بموتِ صاحبِه، (وهو عُمرُ الإنسانِ)، وأجلًا مُعيَّنَ المدَّةِ في عِلم الله، (وهو يومُ القيامةِ)(٣).

١٤- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ أنَّ مَن مات مقتولًا فقدْ ماتَ بأجَلِه الذي قدَّره اللهُ له؛ لأنَّ الله قضاه، ولا يُقال: (لولا أنَّه قُتِل لم يَمُتْ)؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٣١).

اللهَ تعالى قضَى أن يموتَ بالقَتْل، فهو مقتولٌ بأجَلٍ(١).

١٥- أنَّ الحُكمَ لله عزَّ وجلَّ وحْدَه؛ لقولِه تعالى: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾، ولا أحدَ يُغيِّر في هذه الآجالِ(٢).

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فقيَّد (المسمَّى) بكَوْنِه عندَه، فإنَّ وقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه ملَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، بخلاف ما إذا قال: (مُسمًّى) كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ إذ لم يُقيَّدْ بأنَّه (مُسَمًّى عِنْدَهُ) فقدْ يَعرِفُه العبادُ، وأمَّا أجَلُ المَوْتِ فهذا تَعرِفُه الملائكةُ الذين يَكتُبونَ رزقَ العبدِ وأجلَه وعمَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((...ثمَّ يُبعَثُ إليه المَلَكُ، فيُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ، فيقال: اكتُبْ رِزقَه وأجَلَه وعمَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ))(٣)، فهذا الأجَلُ الذي هو أجلُ الموتِ قدْ يُعْلِمُه اللهُ مَن شاءَ من عبادِه، وأمَّا أجَلُ القيامةِ المسمَّى عندَه فلا يَعْلمُه إلَّا هو(٤).

١٧- في قولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾ ذكَر السِّرَّ؛ لأنَّ عِلمَ السرِّ دليلُ عمومِ العِلم، وذَكَر الجهرَ لاستيعابِ نوعَيِ الأقوالِ(٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ كلامٌ خرَج مخرجَ الخبرِ وأُريدَ به الأمرُ- على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) أخرجه البخاري(٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).

أحد القولين-، أي: احْمَدوا اللهَ، أي: أخْلِصوا الحَمدَ والشُّكرَ للهِ، ولا تُشرِكوا معه في ذلك أحدًا شيئًا؛ فإنَّه المستوجِبُ عليكم الحمدَ بأياديه عندكم، ونِعَمِه عليكم، لا مَن تَعبدُونه من دونِه، وتَجعلونَه له شريكًا مِن خلقِه[1]؛ وإنَّما جاءَ على صِيغة الخبرِ؛ لفوائد: إحداها: أنَّ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُفيد تعليمَ اللَّفظ والمعنى، ولو قال: (احْمَدوا) لم يَحصُل مجموعُ هاتينِ الفائدتينِ. وثانيها: أنَّه يُفيدُ أنَّه تعالى مستحِقٌّ الحمدَ، سواءٌ حمِده حامدٌ أو لم يَحْمَده. وثالثها: أنَّ المقصودَ منه ذِكْرُ الحُجَّة؛ فذِكْرُه بصيغةِ الخبرِ أَوْلى[2].

- وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (أَلْ) في ﴿الْحَمْدُ﴾ لتعريفِ الجِنسِ؛ فدلَّتْ على انحصارِ استحقاقِ جنسِ الحمد للهِ تعالى؛ فتُفيد استحقاقَ اللهِ تعالى الحمدَ وحْدَه دونَ غيرِه؛ لأنَّ هذه الجُملةَ تدلُّ على الحَصْرِ، فالمعنى هنا أنَّ الحمدَ كلَّه لا يستحقُّه إلَّا اللهُ، وهذا قَصرٌ إضافيٌّ؛ للردِّ على المشركينَ الذين حَمِدوا الأصنامَ على ما تَخيَّلوه من إسدائِها إليهم نِعَمًا ونَصْرًا، وتفريجَ كُرُباتٍ[3].

- و (اللامُ) في قوله: (لله): إمَّا للاختصاصِ، وإمَّا للاستحقاقِ، ولا تَنافيَ بين المعنيينِ، وعلى هذا فتكون للاستحقاقِ والاختصاصِ؛ لأنَّ (أل) في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعمومِ، ولا أحَدَ يستحِقُّ الحَمْدَ على العُمومِ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[4].

٢- قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

- قدَّم السَّمواتِ على الأرضِ؛ لشَرفِها وعلوِّ مكانِها[5]، وقيل: لأنَّ خلْقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣).

السَّمواتِ أعظمُ[١].

٣- قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: تقديمُ ذِكرِ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ على ﴿النُّورِ﴾؛ مراعاةً للترتُّب في الوجودِ؛ لأنَّ الظُّلْمةَ سابقةُ النُّورِ[٢]، وفي الحديث: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَلَقَ الخَلْقَ في ظُلمةٍ، ثمَّ ألْقَى عليهم مِن نُورِه يومئذٍ...))[٣].

- وفيه: المخالفةُ في الإفرادِ والجَمعِ، حيث جمَع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وأفْرَدَ ﴿النُّورَ﴾؛ وذلك لمناسباتٍ لطيفةٍ:

فقِيل: لظُهورِ كَثرةِ أسبابِ الظُّلماتِ، ومَحالِّها عندَ الناسِ، ومُشاهَدتِهم لها على التَّفصيلِ[٤].

وعلى حَمْلِ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ على الكُفرِ والباطِل، و﴿النُّورِ﴾ على الإيمانِ والحَقِّ؛ فقِيل: لَمَّا كان الحقُّ واحدًا، والباطلُ كثيرًا؛ فلمَّا كانتِ الظُّلمةُ بمنزلةِ طُرقِ الباطلِ، والنُّورُ بمنزلةِ طَريقِ الحقِّ؛ فقد أُفْرِدَ النورُ، وجُمِعتِ الظُّلمات، ونحوُ هذا ما جاءَ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ حيثُ وحَّدَ وليَّ الذين آمنوا، وهو اللهُ الواحدُ الأحدُ، وجمَعَ وَلِيَّ الَّذين كفروا؛ لتعدُّدِهم وكثرتِهم، وجمَع الظُّلماتِ- وهي طُرُق الضَّلالِ والغيِّ- لكَثرتِها واختلافِها، ووحَّد النورَ- وهو دِينُه الحقُّ وطريقُه المستقيمُ الذي لا طريقَ إليه سِواه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢)، والطيالسي في ((المسند)) (٢٤٠٥)، وأحمد (٦٦٤٤).
حسَّنه الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوزي)) (٥/ ٣١٦)، وصحَّح الحديث الحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٨٨)، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٦٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٩- ١٢٠)، =

وقيل: جمَع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وأفردَ ﴿النُّور﴾ اتِّباعًا للاستعمالِ؛ لأنَّ لفظَ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ بالجمعِ أخفُّ، ولفظ ﴿النُّور﴾ بالإفرادِ أخفُّ؛ ولذلك لم يَرِدْ لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ في القرآنِ إلَّا جمعًا، ولم يرِدْ لفظ ﴿النُّور﴾ إلَّا مفردًا، وهما معًا دالَّانِ على الجنسِ، والتعريفُ الجِنسيُّ يستوي فيه المفردُ والجمعُ؛ فلم يبقَ للاختلافِ سببٌ لاتِّباعِ الاستعمالِ(١).

وقيل: إنَّه جَمَع لفْظَ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ووحَّدَ لفظ ﴿النُّورَ﴾؛ لكونِه أشرفَ، كما قال سُبْحانَه: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾(٢) [النحل: ٤٨].

- وفي إيثارِ ﴿الظُّلُمَاتِ والنُّورَ﴾ بالذِّكرِ دونَ غيرِهما مِنَ الأعراضِ: إيماءٌ وتَعريضٌ بحالَي المُخاطَبين بالآيةِ؛ مِن كُفرِ فريقٍ وإيمانِ فَريقٍ؛ فإنَّ الكفرَ يُشبه الظُّلمةَ؛ لأنَّه انغماسٌ في جَهالةٍ وحَيرةٍ، والإيمانَ يُشبه النورَ؛ لأنَّه استبانةُ الهدى والحقِّ(٣).

٤- قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:

- عطَف بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لاستبعادِ صُدورِ الشِّركِ منهم مع وجودِ ما يَقتضي

= ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٧٧- ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠- ٢١).

وقال ابنُ القيِّم بعدَ أن ذكَر هذا الوجهَ: (مع أنَّ فيه سرًّا ألطفَ مِن هذا، يعرفُه مَن يعرفُ منبعَ النُّور، ومِن أين فاض، وعمَّاذا حصَل، وأنَّ أصلَه كلَّه واحدٌ، وأمَّا الظُّلماتُ فهي متعددةٌ بتعدُّدِ الحُجُبِ المقتضيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا؛ لكلِّ حجابٍ ظُلمةٌ خاصَّة، ولا ترجعُ الظُّلماتُ إلى النُّورِ الهادي جلَّ جلالُه أصلًا، ولا وصفًا، ولا ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنما ترجعُ إلى مفعولاتِه، فهو جاعلُ الظُّلماتِ، ومفعولاتُها متعددةٌ متكثرةٌ، بخلافِ النُّور، فإنَّه يرجعُ إلى اسمِه وصفتِه، تعالى أن يكونَ كمِثلِه شيءٌ، وهو نورُ السَّموات والأرضِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

عدمَه(١)؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبي الدالِّ على أنَّ ما بعدَها يَتضمَّن معنًى من نوعِ ما قَبْلَها، وهو أهمُّ في بابِه، وذلك شأنُ (ثُمَّ) إذا وردتْ عاطفةً جملةً على أخرى؛ فإنَّ عدولَ المشركينَ عن عبادةِ الله مع عِلمهم بأنَّه خالقُ الأشياءِ أمرٌ غريبٌ فيهم، أعجبُ مِن عِلمهم بذلك(٢).

- وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه إظهارُ (الرَّبِّ) في موضعِ ضَميرِه- وهو مِن الإظهار في موضع الإضمارِ؛ حيث قال: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ ولم يقل: (بِه)، مع أنَّ ذِكْر الله تقدَّمَ- لزيادةِ التشنيعِ والتقبيحِ عليهم، وتَفخيمًا لجلالِه، وهي سُنَّةٌ مِن سُنَنِ العَرَبِ في كلامِهم؛ يُعيدون الاسمَ ظاهرًا، وإنْ تقدَّم، دون التعبيرِ عنه بالضَّمير؛ للدَّلالةِ على كمالِ العِنايةِ(٣).

- وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ مُتعلِّقٌ بِقوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وقُدِّمَ عليه؛ لِمَزيدِ الاهتمامِ، والمسارَعَةِ إلى تحقيقِ مدارِ الإنكارِ والاستبعادِ، والمحافظةِ على الفواصِل.

والباءُ في قولِه: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ للتَّعديةِ، ويَعْدِلونَ مِنَ العَدْلِ، وهو التَّسويةُ بين الشَّيئينِ، فيكون المفعولُ محذوفًا؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ حَذَف المفعولَ به؛ لظُهورِه، أي: يَعدِلون به غَيرَه(٤).

٥- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ...﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ بُطلانِ كُفرِهم بالبعثِ، مع مُشاهدتِهم لِمَا يُوجِبُ الإيمانَ به، إثرَ بيانِ بُطلانِ إشراكِهم به تعالى، مع مُعايَنَتِهم لموجِباتِ توحيدِه(٥)، وهذا الاستئنافُ لغَرَضِ التعجُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٢٥- ٥٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).

من حالِ المشركين(١).

- وتَخصيصُ خَلْقِهم بالذِّكرِ مِن بين سائرِ دَلائلِ صِحَّةِ البعثِ- مع أنَّ ما ذُكِر مِن خلْق السَّمواتِ والأرضِ مِنْ أوضَحِها وأظهرِها؛ كما ورَد في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١]- لأنَّ محلَّ النِّزاعِ بَعْثُهم؛ فدَلالةُ بَدءِ خَلْقِهم على ذلك أظهرُ، وهم بشُؤونِ أنفسِهم أعرَفُ، والتعامِي عن الحُجَّةِ النَّيِّرة أقبَحُ(٢).

- والإتيانُ بضَميرِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾؛ ليحصلَ تعريفُ المسنَدِ والمسنَدِ إليه معًا؛ فتُفيد الجملةُ القصرَ في رُكْنَيِ الإسنادِ وفي مُتعلِّقِها، أي: هو خالِقُكم لا غيرُه، مِن طينٍ لا مِن غيرِه، والقصرُ أفادَ نفيَ جميعِ هذه التكويناتِ عن غيرِ اللهِ مِن أصنامِهم(٣).

- بناءً على أن الخِطابَ في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ مُوجَّهٌ إلى الَّذين كفروا(٤)؛ ففيه الْتفاتٌ من ضَميرِ الغائِب- الذي هو قولُه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾- إلى الخِطاب؛ لقصدِ التَّشنيعِ والتَّوبيخِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٤) وإنَّما قيل بتوجُّهه إلى الكفَّار فقط؛ لأنَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ لا يُمكِن أن يندرجَ في هذا الخِطاب مَن اصطفاه اللهُ بالنبوَّة والإيمانِ، وإنْ كان الخلقُ وقضاءُ الأجَل ليس مختصًّا بالكفَّار؛ إذ اشترَك فيه المؤمنُ والكافِرُ، لكنَّه قُصِدَ به الكافرُ؛ تنبيهًا له على أصلِ خَلقِه، وقضاءِ الله تعالى عليه وقُدرتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٤/ ٤٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

٦- **قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:**

- حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتْبي، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ التعجُّبَ حَقيقٌ ممَّن يَمْتَرونَ في أَمْرِ البعثِ، مع عِلمِهم بالخَلقِ الأوَّلِ وبالموت، والمخاطَب بقولِه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ هم المشرِكون[١].

- وجِيء بالمسنَدِ إليه ﴿أَنْتُمْ﴾ ضَميرًا بارزًا؛ للتوبيخ[٢].

٧- **قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾** فيه ذِكرُ الجهرِ بعدَ السرِّ، مع أنَّه مفهومٌ منه بالأَوْلى؛ للمقابلةِ والتأكيد[٣].

٨- **قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾** فيه تعريضٌ بالوعدِ والوعيدِ؛ إذ إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿تَكْسِبُونَ﴾ جميعُ الاعتقاداتِ والأعمالِ من خيرٍ وشرٍّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).

الآيات (٤ - ٦)

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿آيَةٍ﴾: أي: عَلامَةٍ ودليلٍ وحُجَّةٍ على وَحدانيَّة اللهِ، وصِدقِ رسلِه فيما جاءوا به، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ- يُقال: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه- وعلى العَجيبةِ، وتُطلق أيضًا على الجماعةِ، وسُمِّيت الآيةُ مِن القرآنِ بذلك: إمَّا مِن العلامةِ؛ لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، أو مِن الجماعةِ؛ لأنَّها جماعةٌ مِن كلماتِ القرآنِ مشتملةٌ على بعضِ ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن الإعجازِ، والحلالِ والحرامِ، والعقائدِ(١).

﴿قَرْنٍ﴾: أي: قوم وأُمَّة من الناس مُقترنينَ في زمَنٍ واحد، وجَمْعُه قرونٌ، ويُطلَق القرنُ كذلك على الزَّمان، وأهلِ الزمان، وأهلِ مُدَّة كان فيها نبيٌّ، أو كان

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١).

قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الربُّ وحدَه، المعبودُ وحدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلاماتٍ ودلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الربُّ المستحِقُّ أنْ يُعبدَ وحدَه.

الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشرعيَّة الدينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

فيها طَبقةٌ من أهل العِلم، قلَّت السِّنون أو كثُرت؛ قيل: مُدَّتُه ثمانون سَنةً، ولا يَقِلُّ عن ثَلاثينَ سَنةً، وأصل (قرن): يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيء[1].

﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾: أَعطيْناهم، وثبَّتْناهم، وأسْكنَّاهم، وملَّكْناهم، ووَطَّأْنا لهم البِلادَ والأرضَ[2].

﴿مِدْرَارًا﴾: المطرُ المدرارُ هو: المُتتابع الغزيرُ الذي يَتْبَعُ بَعضُه بَعضًا، وأصلُه: تَولُّدُ شَيءٍ عن شيءٍ[3].

﴿وَأَنْشَأْنَا﴾: خَلَقْنا وأحْدَثْنا، والنَّشأة: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه، والإنشاءُ: إخراجُ ما في الشَّيءِ بالقوَّة إلى الفِعل، وأصل (نشأ) يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ[4].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾

﴿كَمْ﴾: اسمٌ له وجوبُ الصَّدارةِ في الكَلامِ، ويجوزُ هنا أن تكونَ استفهاميَّةً أو خَبريَّة، وهي في مَحلِّ نَصبٍ مفعولٌ به مُقَدَّمٌ بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ لا بـ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ وما جرَى مجراهُ لا يَعمَلُ فيه ما قَبْلَه، وهي مُعَلِّقةٌ للفِعل (يَرَى)

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩، ٢٠٢).

عن العَملِ[1]. والرؤيةُ هنا الأقربُ أنّها رُؤيةٌ عِلْميَّةٌ وليستْ بَصريَّةً، فتَنصِب مَفعولَينِ، و﴿كَمْ﴾ وما في حيِّزها سَدَّتْ مَسدَّ هذَينِ المفعولَينِ. وقوله: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ تمييزٌ لـ (كم)؛ وهذا الإعرابُ بِناءً على أنَّ (كم) عِبارةٌ عن الأشخاص، أي: كَثيرًا من القرونِ أهلَكْنا. ويَجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَمْ﴾ عِبارةً عن المصدرِ، فتَنتصبَ انتصابَه بـ﴿أَهْلَكْنا﴾ على المفعوليَّة المُطْلَقَة، والتقدير: كَمْ إهلاكًا أَهْلَكْنا، و﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ على هذا صِفةٌ لمفعولِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكْنا قومًا أو فوجًا مِن القُرونِ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَمْ﴾ عِبارةً عن الزَّمان، فتَنتصبَ على الظَّرفِ، والتقدير: كم أَزمنةً أهلَكْنا فيها، وعلى هذا الوجهِ فـ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ هو المفعولُ به لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنْ﴾ مَزيدةٌ فيه؛ وجازَ ذلك لأنَّ الكلامَ غيرُ مُوجَبٍ، والمجرورَ نكرةٌ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المشرِكين والمكذِّبين لا تأتيهم من حُجَّةٍ وعلامةٍ على وحدانيةِ اللهِ، وصِدقِ رُسلِه إلَّا أعْرَضوا عنها؛ فكذَّبوا بالحقِّ لَمَّا أتاهم من عندِ الله، ولَسوف تأتيهم عقوبةٌ على اتِّخاذِهم هذا الحقَّ ومَن جاء به سُخريةً.

ألم يَعتبِرْ هؤلاءِ بالأُممِ الماضِيَة فيَروا كثرةَ الأُمم التي أهْلَكها اللهُ، مِن الذين

(١) التَّعليقُ في اصطلاح النُّحاة: هو مَنْعُ العامِلِ من العَمَلِ لفظًا لا محلًّا؛ لفَصْلِ ما له صَدْرُ الكلام- مثل: لام الابتداء، والاستِفهام- بَينَه وبين مَعمولِه؛ نحو: ظَنَنتُ لَزيدٌ قائمٌ- كان أصلُها: ظننتُ زيدًا قائمًا- فقولك: (لَزيدٌ قائمٌ) لم تعمل فيه (ظنَّ) لفظًا؛ لأجل المانِعِ لها من ذلك، وهو اللَّام، ولكنَّه في موضع نصب، سادٌّ مسدَّ المفعولين؛ بدليل أنَّك لو عَطفتَ عليه لنصبْتَ؛ نحو: ظننتُ لَزيدٌ قائمٌ وعَمْرًا مُنطلِقًا؛ فهي عاملةٌ في (لزيد قائم) في المحلِّ دون اللَّفْظِ. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن عقيل (٢/ ٤٥)، ((شرح شذور الذهب)) للجوجري (٢/ ٦٥٧- ٦٥٨)، ((جامع الدروس العربية)) لمصطفى الغلاييني (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٣٥- ٥٣٦).

مكَّنَهُم الله في الأرضِ ما لم يُمكِّنْ لهؤلاءِ الكَفرةِ، وجعَل الأمطارَ يَتتابَع نُزولُها عليهم، وجعَل الأنهارَ تَجري من تحتِهم، فأهْلَكَهم بذُنوبهم، وأحْدَث سبحانه بعدَ إهلاكِهم جيلًا آخَرَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تكلَّم اللهُ تعالى أولًا: في التَّوحيدِ، وثانيًا: في المعادِ، وثالثًا: فيما يقرِّر هذين المطلوبَيْن، ذكَر بعدَه ما يتعلَّق بتقريرِ النُّبوَّة، وبدأ فيه بأنْ بيَّن كونَ هؤلاء الكفَّار مُعرضين عن تأمُّل الدَّلائلِ، غيرَ ملتفتين إليها[1]، فقال تعالى:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: ومهما أتى هؤلاء الكفَّارَ والمشركين المكذِّبين مِن حُجَّةٍ وعلامةٍ على وحدانيتِه تعالى، وصِدق رُسُلِه عليهم السَّلام؛ فإنَّهم يُعْرِضونَ عنها، غيرَ مُبالِين بها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في هذه الآياتِ رتَّب اللهُ تعالى أحوالَ هؤلاء الكفَّارِ على ثلاثِ مراتبَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥-١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

فالمرتبةُ الأولى: كونُهم مُعرِضينَ عن التأمُّلِ في الدَّلائل والتفكُّرِ في البيِّناتِ، وهذا في الآية السَّابِقَة، والمرتبة الثانِيَة: كونُهم مُكذِّبينَ بها، وهذه المرتبةُ أزيدُ ممَّا قبلَها؛ لأنَّ المُعْرِضَ عن الشَّيءِ قد لا يكونُ مكذِّبًا به، بل يكون غافلًا عنه غيرَ مُتعرِّضٍ له، فإذا صار مُكذِّبًا به، فقد زاد على الإعراض، والمرتبةُ الثالثة: كونُهم مُستهزِئين بها؛ لأنَّ المكذِّبَ بالشيءِ قد لا يَبلغُ تكذيبُه به إلى حدِّ الاستهزاءِ، فإذا بلغَ إلى هذا الحدِّ فقَدْ بلَغَ الغايةَ القُصْوى في الإنكار، وهاتان المرتبتانِ في هذه الآيةِ، فبَيَّن تعالى أنَّ أولئكَ الكفَّارَ وصَلوا إلى هذه المراتبِ الثلاثِ على هذا الترتيبِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان إعراضُهم عن النَّظرِ المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ سببًا لتكذيبهم، وكان تكذيبُهم سببًا لتعذيبِهم[2]؛ لذا قال تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾.

أي: فقَدْ كذَّبوا بما جاءَهم من عندِ الله تبارَك وتعالى[3].

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: فسوف تأتِيهم أخبارُ استهزائِهم بآياتِ اللهِ، وبالأدلَّة التي آتاهم، وسيجدونَ عقوبتَه وجزاءَه[4].

ثم حذَّرهم اللهُ تعالى مِن أنْ يصيبَهم مِن العذابِ، والنَّكالِ الدنيويِّ، ما حلَّ بأشباهِهم ونُظرائِهم مِن القُرونِ السَّالفةِ[5]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠).

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا منَعَهم اللهُ تعالى عن ذلِك الإعراضِ، والتكذيبِ، والاستهزاءِ، بالتهديدِ والوعيدِ؛ أتْبعَه بما يَجري مجرَى الموعظةِ والنَّصيحةِ في هذا البابِ، فوَعَظَهم بسائرِ القُرون الماضية؛ كقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ لوطٍ، وقومِ شعيبٍ، وفِرعونَ، وغيرِهم[1]، وحذَّرهم مِن أنْ يصيبَهم مِن العذابِ والنَّكالِ الدنيويِّ ما حلَّ بأشباهِهم ونُظرائِهم مِن هذه القُرون الماضيةِ[2]، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾.

أي: ألم يَعتبرْ هؤلاء بالأممِ الماضيةِ، فيَرَوا[3] كثرةَ مَن أفنيتُ، ودَمَّرتُ مِن قبلِهم من الأممِ، الذين وطَّأتُ لهم البلادَ والأرضَ تَوطئةً لم أُوطِّئْها لهم، وأعطيتُهم فيها ما لم أُعْطِهم؛ فقدْ كانوا أشدَّ قوَّةً، وأكثرَ جمعًا، وأكثرَ أموالًا وأولادًا[4].

كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿يَرَوْا﴾ يحتمل أنْ يُراد بالرؤية هنا: الرؤية العِلميَّة، أو الرؤية البصريَّة؛ فالبلاد التي مروا بها مُدمَّرةً رؤيتُها بصريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، والبلاد التي لم يَرَوْها، ولم يمرُّوا بها، تكون رؤيتُها عِلميَّةً، يتناقلها أهلُ الأخبار). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ٩-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾.

أي: وجَعَلْنا المطرَ يَتتابَعُ نزولُه عليهم بغزارةٍ[1].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

مُناسبتُها لمَا قبلها:

لَمَّا ذَكَر نفْعَهم بماءِ السَّماءِ، وكان غيرَ دائمٍ، أتْبَعَه ماءَ الأرضِ؛ لدوامِه، وملازَمتِه للبَساتين والرِّياضِ، فقال[2]:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

أي: وأَجْرَيْنا لهم الأنهارَ من تحتِ أشجارِهم ومساكنِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: فأخَذْناهم بعذابٍ أفناهم؛ بسببِ ما ارتكبوه مِن خطايا، ومنها تكذيبُ رُسلِ الله، عليهم السَّلام[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

أي: وأَحْدَثْنا مِن بعدِ الَّذين أَهلَكْناهم جيلًا آخَرَ[2].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- خَطرُ الإعراضِ عن الآياتِ، وأنَّه يُخشَى على مَن أعرضَ عنِ الآياتِ ألَّا يَهتديَ إليها؛ لِقَوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ توجيهٌ وإرشادٌ إلى الاعتبارِ بالأُممِ السَّالِفة؛ فإنَّ إهلاكَ الأممِ المكذِّبةِ، بعدَ إمهالِهم وتمكينِهم في الأرضِ؛ سُنَّةُ اللهِ، ودأْبُه في السَّابقين واللَّاحقين؛ فينبغي الاعتبارُ بمَن قَصَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١).

قيل المعنى: فعمِلوا مِثلَ أعمالهم فهَلَكوا كهلاكِهم، فاحْذروا- أيُّها المخاطبون- أن يُصيبكم مثلَ ما أصابهم، وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥١).

وقال ابنُ عُثيمين: (هل القوم الآخَرون عصَوْا أو أطاعوا؟ منهم مَن عصى، ومنهم مَن أطاع، ولكن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٥، ٣٦).

الله نَبأَهم[١]، والنَّظرُ في مصارعِ الغابرينَ بعدَ أن يُصبحوا أحاديثَ؛ فهو توجيهٌ قرآنيٌّ؛ ليتنبَّهَ المخدوعون الذين لا يرَوْن- في حياتِهم الفرديَّة القصيرةِ- نهايةَ الطريقِ، فيَخْدَعهم ما يَرون في حياتِهم القصيرةِ، ويَحسَبونه نهايةَ الطريق[٢]!

٣- قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يُوجِب الاعتبارَ، والانتباهَ من نَوْم الغفلةِ، ورقدةِ الجَهالة؛ لأنَّه تعالى بيَّن أنَّهم مع مزيدِ العزِّ في الدنيا بهذه الوُجوهِ، ومع كثرةِ العددِ والبَسْطَة في المالِ والجِسم، جرَى عليهم عندَ الكُفْر الإهلاكُ[٣].

٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنَّ فِعلَ الذُّنوبِ سببٌ لهلاكِ أصحابِها، وأنَّ الله هو الذي يُهلِك المُذنِبين بذُنوبِهم، وأنَّ هذه سُنَّةٌ ماضِية، ولو لم يرَها فردٌ في عُمُره القصيرِ أو جيلٌ في أجَلِه المحدودِ، ولكنَّها سُنَّةٌ تصيرُ إليها الأممُ حين تفشُو فيها الذُّنوبُ، وحين تقومُ حياتُها على الذُّنوبِ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- إضافةُ الآياتِ إلى الربِّ في قولِه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ تُفيدُ أنَّ إنزالَه الوحيَ، وبعثَه للرُّسُل، وتأييدَهم، وهدايتَه للخَلْقِ بهم، كلُّه مِن مقتضى ربوبيَّته، أي: مقتضى كونِه هو السيِّدَ المالِكَ المربِّيَ لخلقِه، المدبِّرَ لأمورِهم على الوجه الموافِق للحِكمة، وأنَّه لا يَقدِر عليه غيرُه؛ فالذين يُؤمنون بالربِّ، ولا يُؤمنون بكُتُبه ورُسلِه، يَجهلون قدْرَ ربوبيَّته، وكُنْهَ حِكمتِه ورحمتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٢).

٢- إضافةُ (الربِّ) إلى ضَمير (هم) في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ لقصدِ التَّسجيلِ عليهم بالعقوق لحقِّ العبوديَّة؛ لأنَّ مِن حقِّ العبد أن يُقبِلَ على ما يأتيه من ربِّه، وعلى مَن يأتيه يقولُ له: إنِّي مُرسَلٌ إليك مِن ربِّك، ثم يتأمَّلَ وينظرَ، وليس من حقِّه أن يُعرِضَ عن ذلك؛ إذ لعلَّه يُعرِض عمَّا إنْ تأمَّلَه عَلِمَ أنَّه مِن عند ربِّه(١).

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ أنَّهم يتَّخِذون موقفَ الإعراضِ عِنادًا وإصرارًا، فليس الذي يَنقُصُهم هو الآياتِ الداعيةَ إلى الإيمان، ولا العلاماتِ الدالَّةَ على صِدقِ الدَّعوة والدَّاعيةِ، ولا البراهينَ الناطقةَ بما وراءَ الدَّعوةِ والدَّاعيةِ من أُلوهيَّةٍ حقَّةٍ، ليس هذا هو الذي يَنقصُهم، إنَّما تَنقُصُهم الرغبةُ في الاستجابة، ويُمسِكُ بهم العنادُ والإصرارُ، ويَقعُد بهم الإعراضُ عن النَّظرِ والتدبُّر(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى حكيمٌ رحيمٌ؛ وذلك لكونِه يأتي بالآياتِ للخَلقِ، فإنَّ هذا من الحِكمةِ الواضحةِ؛ لأنَّه ليس من المعقولِ أن يأتيَ رجلٌ، ويقولَ للناس: إنَّه رسولٌ، ويستبيح دِماءَ مَن لم يُؤمِنْ به وأموالَهم وذُرِّيَّاتِهم ونِساءَهم، بدون أنْ يكون هناك آيةٌ تدلُّ على صِدقه؛ ولهذا قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَن عليه البَشَرُ))(٣)، وهذا مِن جِهة الحِكمة. أمَّا مِن جِهة الرَّحمة؛ فإنَّ الله رحِمَ الخَلقَ بكونِه إذا أرسَلَ إليهم الرُّسلَ آتاهم الآياتِ الدالَّةَ على صِدق هؤلاء الرُّسُلِ، ولو شاءَ لأَرسَلَهم بدونِ آياتٍ، ثمَّ مَن كذَّب أخَذَه، لكن تأبَى حِكمتُه ورحمتُه أنْ يُرسِلَ رسلًا بلا آيةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٦).
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) واللفظ له. من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٥).

٥- أنَّ الإعراضَ عن الحقِّ يَعقبُه التكذيبُ به؛ ففائدةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ التعقيبُ بعد قوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾، يعني: أنَّ الإعراضَ عن الآياتِ أعْقَبه التكذيبُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فيه أنَّ هؤلاء- مع تواتُرِ الآياتِ عليهم- كذَّبوا بالحقِّ، ولم يَستجيبوا له، والتكذيبُ بالحقِّ بعدَ مجيئه أشدُّ من التَّكذيبِ به قبلَ أن يأتيَ، بحيثُ يَسمَعُ الإنسانُ عنه، ولكنَّه لم يتأكَّدْ، فإنَّ هذا الذي أتاه الحقُّ، وكذَّب به، يكون تكذيبُه أعظمَ[٢].

٧- كيف قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ مع أنَّ القومَ ما كانوا مُقِرِّين بصِدقِ محمَّدٍ عليه السَّلام فيما يُخبِر عنه، وهم أيضًا ما شاهَدوا وقائعَ الأُمم السَّالِفة؟

والجواب: أنَّ أقاصيصَ المتقدِّمين مشهورةٌ بين الخَلْقِ، فيَبعُدُ أنْ يُقال: إنَّهم ما سَمِعوا هذه الحكاياتِ، ومجرَّدُ سَماعِها يَكفي في الاعتبارِ[٣].

٨- يُستفادُ من قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ...﴾ الآية، هوانُ المكذِّبين المعرِضين أصحابِ القوَّة والتَّمكينِ مِن البَشَرِ، على الله[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فيه بيانُ عظمةِ اللهِ سبحانه وتعالى وغَيْرتِه؛ حيث أهْلَكَ أولئكَ القومَ مع ما عِندَهم من القوَّةِ والنِّعمةِ؛ قال تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ....﴾[٥].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فيه بيانُ تمامِ قُدرةِ الله

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٣).

تبارك وتعالى وسُلطانِه، والتنبيهُ على أنَّه تعالى لا يَتعاظَمُه أنْ يُهلِكَهم، ويُخلِيَ بلادَهم منهم؛ فإنَّه قادرٌ على أن يُنْشِئ مكانَهم قومًا آخَرين، يَعمُر بهم بلادَهم؛ كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]؛ لأنَّ الأمرَ أمرُه عزَّ وجلَّ، والمُلك مُلكُه، والسُّلطان سُلطانه؛ فهو سبحانه وتعالى يَفعَلُ ما يشاءُ؛ من إهلاكٍ وإنشاءٍ(١).

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ المقصودُ من هذا: تعريضٌ بالمشركين بأنَّ الله مُهلِكُهم، ومنشئٌ مِن بَعدِهم قَرنَ المسلِمينَ في دِيارهم؛ ففيه بِشارةٌ بفَتْح مكَّة، وسائرِ بلادِ العربِ على أيدي المُسلمينَ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فيه التفاتٌ؛ إذ ضمائرُ جمْع الغائبين في قولِه: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ﴿رَبِّهِمْ﴾ مرادٌ منها المشرِكون، الذين هم بعضُ مَن شمِلَتْه ضمائرُ الخِطاب في الآيةِ التي قبْلَها، من قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ ففي العدولِ عن الخِطابِ إلى الغَيبة بالنِّسبةِ إليهم التفاتٌ أوْجَبه تَشهيرُهم بهذا الحالِ الذَّميم، تَنصيصًا على ذلك، وإعراضًا عن خِطابهم، وهو مِن أحسنِ الالتفاتِ؛ لأنَّ الالتفاتَ يُحسِّنه أن يكونَ له مُقتَضٍ زائدٌ على نقْلِ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، المرادُ منه تجديدُ نشاطِ السَّامع(٣).

- وعبَّر بصِيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضية، وفيه دَلالةٌ على الاستمرارِ التجدُّدي(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).

- و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ مزيدةٌ للاستغراقِ، ولتأكيدِ النَّفيِ، وفي قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ﴾ للتبعيضِ(١).

- وفي قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: اختِيرَ الإتيانُ في خبرِ (كان) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الإعراضَ متحقِّقٌ من دَلالةِ فِعلِ الكَونِ (كَانُوا)، ومُتجدِّد مِن دَلالةِ صِيغة اسم الفاعِلِ؛ لأنَّ المشتقَّاتِ في قُوَّة الفِعلِ المضارعِ(٢).

- والاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ دالٌّ على أنَّهم لم يَكُنْ لهم حالٌ إلَّا الإعراضُ(٣).

٢- **قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** الفاء في ﴿فَسَوْفَ﴾ للتفريعِ والتسبُّبِ على قولِه: ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾؛ تأكيدًا لوعدِ المؤمنين بالنَّصرِ، وإظهارِ الإسلامِ على الدِّين كلِّه، وإنذارِ المشركينَ بأنْ سيحُلُّ بهم ما حلَّ بالأُمم الذين كذَّبوا رُسلَهم ممَّن عَرَفوا، وحرفُ التَّسويفِ (سَوْفَ) جاءَ لتأكيدِ حصولِ ذلك في المستقبَلِ(٤).

- وفي قوله: ﴿أَنْبَاءُ﴾ إيذانٌ بغاية العِظَمِ؛ لأنَّ (النَّبأ) لا يُطلَق إلَّا على خبرٍ عظيمِ الوقْعِ(٥).

- قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ جاء هنا تقييدُ الكذبِ بالحقِّ، والتَنفيسِ بـ﴿سَوْفَ﴾، وفي الشُّعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ [الشعراء: ٦]، فحذَف (الحقَّ)، وجاء بالسِّين فقط؛ لأنَّ الأنعام

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٣٥- ١٣٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٠).

مُتقدِّمةٌ في النُّزولِ على الشُّعراءِ، فاستوفَى فيها اللَّفظَ، وحذَف مِن الشُّعراءِ، وهو مرادٌ؛ إحالةً على الأوَّلِ، وناسَب الحذْفُ الاختصارَ في حرْف التَّنفيسِ، فجاء بالسِّين[1]، ويَحسُن أن يُزادَ على ذلك أنَّه لَمَّا كان فِعلُ الاستقبالِ المقرونُ بـ (سوف) أبعدَ زمانًا من المقرون بالسِّين، تَعيَّن الأوَّلُ فيما نزل أولًا، والثاني فيما نزَل آخِرًا[2].

٣- **قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾** استئنافٌ مَسُوقٌ لتعيينِ ما هو المرادُ بالأنباءِ التي سبَق بها الوعيدُ، وتقريرِ إتيانِها بطريقِ الاستشهاد، وهمزةُ الإنكار في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ لتقريرِ الرُّؤْية، و﴿كَمْ﴾ مفيدةٌ للتكثير[3].

- وفيه التفاتٌ من الغَيْبة في قوله: ﴿يَرَوْا﴾ إلى الخِطابِ- حيث قال: ﴿لَكُمْ﴾، دُونَ (لهم)- وفيه تعريضٌ بقلَّة تمكينِ هؤلاءِ، ونَقصِهم عن أحوالِ مَن سَبق، ومع تمكينِ أولئك في الأرضِ فقد حلَّ بهم الهلاكُ؛ فكيفَ لا يحُلُّ بكم على قلَّتِكم، وضِيق خُطَّتكم؟! فالهلاكُ إليكم أسرعُ من الهلاكِ إليهم[4].

- وجاءت لفظة: ﴿مِدْرَارًا﴾ للمبالغةِ في اتِّصالِ المطرِ، ودوامِه وقتَ الحاجة[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٠).

الآيات (٧ - ١١)

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿قِرْطَاسٍ﴾: أي: صَحيفةٍ، أو ورقٍ، أو ما يُكتَب فيه، والجمعُ قَراطيس(١).

﴿يُنْظَرُونَ﴾: أي: يُؤخَّرونَ، وأصل (نظر): تأمُّل الشيءِ ومُعاينتُه(٢).

﴿وَلَلَبَسْنَا﴾: أي: ولخَلَطْنا عليهم، أو أَضللْناهم بما ضلُّوا به قبلَ أن يُبعث المَلكُ، وأصل اللَّبْس: سَترُ الشَّيء، والمخالطةُ والمداخلةُ أيضًا(٣).

﴿فَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونزَل وأصاب، وأصل (حيق): نزولُ الشَّيءِ بالشَّيء(٤).

﴿عَاقِبَةُ﴾: العاقبةُ تختصُّ بالثَّواب إذا أُطلقتْ، وقد تُستعمَلُ - إذا أُضيفتْ - في العُقوبةِ، أو ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّم، وأصل (عقب): يدلُّ على تأخيرِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٢، ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿كَيْفَ﴾: اسمُ استفهامٍ، في محلِّ نصْبٍ، خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، وهو مقدَّمٌ عليها وجوبًا؛ لأنَّ للاستفهامِ صَدْرَ الكلامِ.

و﴿عَاقِبَةُ﴾: مرفوعةٌ؛ اسمُ ﴿كَانَ﴾، ولم يُؤَنَّثْ فِعلُها -حيث لم يَقُل: (كانَتْ)-؛ لأنَّ العاقبة بمَعنى المصيرِ أو المعاد، أو المآل والمنتَهى، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

والجُملةُ الاستفهاميةُ ﴿كَيْفَ كَانَ...﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على إسقاطِ حرفِ الجرِّ؛ إذ التقديرُ: ثم انظُروا في كذا؛ لأنَّ ﴿كَيْفَ﴾ مُعلِّقةٌ للفِعلِ ﴿انْظُرُوا﴾ عن العملِ؛ لأنَّ معنى النَّظَر هنا التفكُّرُ والتدبُّرُ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه لو أَنزَلَ على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كلامًا، مكتوبًا في أوراقٍ، فتأكَّد الكفَّارُ منه، حتى إنَّهم لَمَسوه بأيديهم، لاستمرُّوا في عِنادِهم، وقالوا: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضحٌ، ولاستمرُّوا في تَعنُّتِهم، وقالوا: هلَّا أُنزِلَ مع محمَّدٍ أحدُ الملائكةِ، يكون مُصدِّقًا له ومعاوِنًا، فردَّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّه لو أنْزَل ملَكًا- كما سألوا- لجاءَهم العذابُ عاجلًا، إنْ لم يُؤمِنوا، ولن يُمهَلوا حتَّى يتوبوا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٠١).

ثم بيَّن تعالى أنَّه لا جَدْوى من إرسالِ الملَك إليهم؛ لأنَّه لو أَرْسَل ملَكًا يَشهدُ بتصديقِ النبيِّ، ويأمُرُهم باتِّباعِه، لجَعَلَه على هيئة بَشرٍ؛ ليتمكَّنوا مِن رُؤيتِه، ومِن سماعِ كلامِه الذي يُبلِّغُه عن اللَّه، ويَحصُلَ الانتفاعُ به؛ ولأنَّهم لا يَقدِرون على رؤيةِ الملَك على صورتِه، وفي حالِ كان على شكلِ بشرٍ، فسَيلتَبِسُ عليهم أمْرُه، كما لَبَسوا على أنفسِهم في قَبول رِسالةِ الرَّسولِ البَشريِّ، واستبعدوا أن يكونَ الرسولُ بشرًا مثلَهم.

ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُبيِّنًا له أنَّه قد سُخِر واستُهزِئ برُسلٍ من قبلِه، فعاقبَهم الله جزاءَ تلك السُّخرية برُسُلِه عليهم السَّلام، وقال له: قلْ لهؤلاء الذين كذَّبوا بك- يا محمَّد: امشُوا في الأرض، واطَّلِعوا على آثارِ الأُمم الماضيةِ التي كذَّبتْ رُسلَها، ثمَّ انظروا كيف كانتْ عاقبتُهم، وما الذي حلَّ بهم مِن الهلاكِ، وخرابِ الدِّيار، فخُذوا من ذلِك العِظةَ والعِبرةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم أنَّهم كذَّبوا بكلِّ ما جاءَهم من آيةٍ، تَبع ذلك إخبارٌ فيه مُبالغةٌ مُضمَّنةٌ أنَّه لو جاءَهم أعظمُ ممَّا جاء، لكذَّبوا أيضًا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: وهُم لشِدَّة عِنادِهم، ومُكابرتِهم للحقِّ، لو أَنزلتُ عليك- يا محمَّد-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٦٩).

كلامًا[١] مكتوبًا في صَحيفةٍ، يُعايِنونَه، ويَلمَسونَه بأيديهم، بما يَرفَعُ عنهم كلَّ شكٍّ وريبة[٢].

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: فلو وقَعَ ذلك لقالَ الكفَّارُ ظُلمًا وعِنادًا: ما هذا إلَّا سِحرٌ ظاهرٌ، سَحَرْتَنا به[٣]!

كما قال تعالى مُخبِرًا عن مكابرتِهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

أي: وقالوا أيضًا تعنُّتًا: هلَّا أُنزِلَ مع محمَّدٍ مَلَكٌ يكون مُصدِّقًا له ومعاوِنًا[٤]؟

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: ولو أَنْزلنا مَلَكًا على ما سألوا، لجاءَهم العذابُ عاجلًا،

---

(١) اختار ابنُ جريرٍ أنَّه القرآنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الأنعام)) (ص: ٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥١).

إنْ لم يُؤمنوا، ولنْ يُمهَلوا حتَّى يتوبوا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦-٨].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾.

أي: ولو أنزَلْنا على هؤلاءِ رسولًا ملكيًّا، يَشهَدُ بتصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأمُرُهم باتِّباعه، لجعَلْناه على هَيئةِ رجُلٍ مِن البَشرِ؛ لِتُفْهَم مُخاطبتُه، ويَحصُل الانتفاعُ بالأخْذِ عنه؛ لأنَّهم لا يَقدِرون على رؤيةِ الملَك في صُورتِه[٢].

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

أي: وإذا تَشكَّل بصورةٍ بَشريَّةٍ، فسَيلتبِس عليهم أمْرُه، لا يَدْرون أمَلَكٌ هو أمْ إنسيٌّ، كما لَبَسوا على أنفسِهم في قَبول رسالةِ الرَّسول البشريِّ؛ فلا جَدْوى إذنْ من إرسالِ ملَكٍ[٣].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص:٥١-٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٢)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٣-١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٥-١٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان بعضُ الأقوامِ يقولون على سبيلِ الاستهزاءِ: إنَّ رَسولَ اللهِ يجبُ أنْ يكونَ ملَكًا من الملائكةِ؛ وكان يَضيقُ قلبُ الرسولِ عندَ سَماعِه ذلك؛ ذَكَر أنَّه قد استُهزِئ برُسُلٍ مِن قَبلِه؛ ليصيرَ سببًا للتخفيفِ عن قلبِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ ممَّا يُخفِّف عن القلبِ، المشاركةَ في سببِ المحنةِ والغمِّ؛ فكأنَّه قيل له: إنَّ هذه الأنواعَ الكثيرةَ من سوءِ الأدبِ، التي يُعاملونك بها، قد كانت موجودةً في سائرِ القُرون مع أنبيائِهم؛ فلستَ أنت فريدًا في هذا الطَّريقِ(١).

وأيضًا لَمَّا كانوا في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ قاصِدين التعجيزَ والاستهزاءَ معًا؛ لأنَّهم ما قالوه إلَّا عن يقينٍ منهم أنَّ ذلك لا يكونُ، ابتَدأ الردَّ عليهم بإبطالِ ظاهرِ كَلامِهم بقولِه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، ثم ثَنَّى بتهديدِهم على ما أرادوه منَ الاستهزاءِ، والمقصودُ مع ذلك تهديدُهم بأنَّهم سيَحيقُ بهم العذابُ، وأنَّ ذلك سُنَّةُ اللهِ في كلِّ أمَّةٍ استهزأتْ برسولٍ لها(٢)، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾.

أي: قد سَخِرَت أممٌ برُسُلٍ مِن قبلِك- يا مُحمَّد(٣).

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: فحَلَّ بهؤلاءِ الساخرينِ العذابُ؛ جزاءً لهم بسببِ سُخريتِهم برُسلِهم عليهم السَّلام(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٦) ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:٥٥).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حلَّ بالمكذِّبين المسْتَهْزئين، حين قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وكان المخاطَبون بذلِك أُمَّةً أُمِّيَّة، لم تَدرُسِ الكُتبَ، ولم تُجالسِ العلماءَ- أُمِروا بالسَّير في الأرضِ، والنَّظرِ فيما حلَّ بالمكذِّبين؛ ليعتبروا بذلك، ويتظافَرَ مع الإخبارِ الصَّادقِ الحسُّ؛ فللرؤيةِ مِن مزيدِ الاعتبارِ ما لا يكونُ بغيرِها[1]، فقال سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهم: جُولوا في بلادِ المكذِّبين برُسلِهم، أمثالِكم؛ لتطَّلِعوا على آثارِهم[2].

﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: ثمَّ انظُروا إلى ما حلَّ بهم مِن البَوار، وخرابِ الدِّيار، وفكِّروا في أنفُسِكم؛ كيف أَعْقَبهم تكذيبُهم ذلك الهلاكَ، وخِزيَ الدنيا وعارَها؛ فاعْتَبِروا، واحْذَروا أنْ يَحيقَ بكم مثلُ ما حاقَ بهم[3].

كما قال اللهُ تبارَك وتعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ المعاصيَ سببٌ للعقوبة؛ لقوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾، وأنَّ العقوبة

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٦-١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩-٦١).

بقَدْرِ العملِ؛ ولذلك عبَّر بقوله: ﴿بِهِ﴾ عنها، وهذا مِن عَدلِ الله عزَّ وجلَّ، أمَّا المثوبةُ فالحسنةُ بعَشْر أمثالِها إلى سبعِ مِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة(١).

٢- الأمرُ بالسَّيرِ في الأرضِ للاعتبار، سواءٌ كان بالبصائرِ أو بالأبصار؛ لقوله: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: أنَّه يَنبغي أن نَقرأَ تاريخَ الأُمم السَّابقة، وأفضلُ ما نَقرؤُه منه هو القرآنُ وصحيحُ السُّنة؛ لأنَّ مِن الأحاديثِ الضعيفةِ أو الموضوعةِ عن الأُمم السَّابقة ما لا يُحْصيه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، والعِبْرَةُ بالصَّحيحِ، وما أكثرَ الأحاديثَ التي فيها الأخبارُ عن الأمم السَّابقة(٢).

٣- فضلُ الاعتبارِ، وأنَّه أمرٌ مطلوبٌ؛ لقوله: ﴿انْظُرُوا﴾، وسواءٌ أكان الاعتبارُ بِمَن انتقمَ الله منهم أو بمَن أثابهم، فإنْ كان بمَنِ انتقمَ الله منهم، فالإنسانُ يَحذَر، وإنْ كان ممَّن أثابهم، فالإنسانُ يَرْغَب، وفي هذه الآيةِ الاعتبارُ بمَن انتقمَ اللهُ منه(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أنَّه ليس الذي يَجعلُهم يُعرِضونَ عن آياتِ اللهِ، أنَّ البُرهانَ على صِدقِها ضعيفٌ أو غامضٌ، أو تختلفُ فيه العقولُ؛ إنَّما الذي يَجعلُهم يَقِفونَ هذا الموقفَ هو المكابرةُ الغليظةُ والعنادُ الصَّفيقُ! وهو الإصرارُ مبدئيًّا على الرَّفضِ والإنكارِ، وعدم اعتبارِ البُرهان أو النظرِ إليه أصلًا! ولو أنَّ الله سبحانه نزَّلَ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا القرآنَ لا عن طريقِ الوَحْيِ الذي لا يَرَوْنه، ولكن في ورقةٍ منظورةٍ ملموسةٍ محسوسةٍ، ثم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَمَسوا هم هذه الورقةَ بأيديهم- لا سَماعًا عن غيرِهم، ولا مُجرَّد رؤيةٍ بعيونهم- ما سَلَّموا بهذا الذي يَرَوْنه ويَلْمَسونَه(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا...﴾ فيه بيانُ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين لن يُؤمِنوا ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ؛ لأنَّ مِن أعظمِ الآيات أنْ يُنَزَّل الكتابُ يُشاهدونَه بقرطاسٍ ويَلمَسونَه؛ ومع ذلِك لو نَزَل هكذا سيُنْكرونَه، ويَدَّعُون أنَّه سِحرٌ واضحٌ قدْ سُحِروا به(٢).

٣- فائدةُ زِيادةِ لَمْسِ القِرطاسِ بأيديهم في قوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ تحقيقُ القِراءةِ على قُربٍ، أي: فقرؤوه وهو بأيديهم، لا بَعيدٌ عنهم(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ فيه بيانُ عِلمِ اللهِ تبارَك وتعالَى بما سيكونُ لو كان؛ لأنَّه عَلِمَ ماذا سيكونُ قولُ هؤلاءِ، لو نزَلَ عليهم الكتابُ في قِرطاسٍ(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿وَقالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، فيه دليلٌ على تعنُّتِ المكذِّبين للرُّسل، وتفنُّنِهم في المكابرةِ والعِناد؛ تصلُّبًا في شِركِهم وإصرارًا عليه؛ فهذه الاقتراحاتُ لم تكن طلبًا للبُرهان؛ إنَّما كانت وسيلةً من وسائلِ الإعناتِ، وأسلوبًا من أساليبِ التعنُّت، وخُطةً للمُماحكةِ والمعاندةِ؛ فإنَّهم كانوا كما قال اللهُ سبحانه عنهم في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٦، ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٩).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).

٦- أنَّ المكذِّبين للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُقِرُّون بالملائكةِ؛ لقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾(١).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أنَّ الله ما كان ليُظهرَ آياتِه عن اقتراحِ الضالِّين؛ إذ ليس الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصدَد التصدِّي لرَغباتِ النَّاسِ، مِثلَما يتصدَّى الصانعُ أو التاجر، ولو أُجيبت رغباتُ بعضِ المقترِحين لرامَ كلُّ مَن عُرِضت عليه الدعوةُ أنْ تَظهرَ له آيةٌ حسَبَ مُقْتَرِحِه، فيصير الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُضيِّعًا مدَّةَ الإرشادِ، وتلتفُّ عليه النَّاسُ التفافَهم على المشَعْوذينَ، وذلك يُنافي حرمةَ النُّبوةِ، ولكنَّ الآياتِ تأتي عن مَحضِ اختيارٍ مِن اللهِ تعالى دونَ مسألةٍ(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ بيانُ رَحمةِ الله ولُطْفه بعِباده؛ حيثُ أَرسلَ إليهم بَشرًا منهم يكونُ الإيمانُ بما جاءَ به عن عِلمٍ وبصيرةٍ وغيبٍ؛ لأنَّه لو أرْسَل ملَكًا برِسالتِه، لكان الإيمانُ لا يَصدُر عن معرفةٍ بالحقِّ، ولكان إيمانًا بالشَّهادة، الذي لا ينفَعُ شيئًا وحْدَه، هذا إنْ آمنوا، والغالبُ أنَّهم لا يُؤمنونَ بهذه الحالةِ، فإذا لم يُؤمنوا قُضِي الأمرُ بتعجيلِ الهلاكِ عليهم، وعدمِ إنظارِهم؛ لأنَّ هذه سُنَّةُ الله فيمَن طلَب الآياتِ المقترَحةَ، فلم يُؤمِنْ بها(٣).

٩- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، الفائدةُ في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التنبيهُ على أنَّ عدَم الإنظارِ أشدُّ من قضاءِ الأمْرِ؛ لأنَّ مفاجأةَ الشِّدَّة أشدُّ من نفْس الشِّدَّة(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٤، ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

١٠- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أنَّ البَشَرَ لا قُوَّةَ لهم على رُؤيةِ الملَكِ في صورتِه، وإنَّما رآه الأفرادُ مِن الأنبياءِ عليهم السَّلام؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقْدَرَهم على ذلك(١).

١١- الحِكمةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أمور:

أحدُها: أنَّ الجِنسَ إلى الجنسِ أَمْيَلُ.

ثانيها: أنَّ البشرَ لا يُطيقُ رؤيةَ الملَك.

ثالثها: أنَّ طاعاتِ الملائكةِ قويَّةٌ فيَستحقرون طاعةَ البَشر، وربَّما لا يَعذِرونَهم في الإقدامِ على المعاصِي.

رابعها: أنَّ النُّبوَّةَ فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ؛ فيختصُّ بها مَن يشاءُ مِن عِبادِه(٢).

١٢- قوله تعالى:﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فيه دليلٌ على إمكانِ تَمثيل الملائكةِ بصُورة البَشرِ، وهو صحيحٌ واقعٌ بالنَّقْل المُتواتِر(٣).

١٣- حِكمةُ الله تبارَك وتعالى في إرْسالِ الرُّسلِ مِن البَشر كما في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾؛ من أجْل الرُّكونِ إليهم وقَبولِهم، بل إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَجعَلُ الرُّسُلَ من أوساطِ الأقوامِ وأشرافِهم وأفاضلِهم، حتى يَحْتَموا بهم، ولا يضرُّ أن يَجعلَ اللهُ تبارك وتعالى للرُّسُلِ مَن يَحميهم من أقوامِهم، ويدلُّ لذلك قولُ قومِ شعيبٍ له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود:٩١]؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ إذا كان من القومِ صار له شأنٌ كبيرٌ وهَيْبةٌ(٤).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا...﴾ حُسنُ المحاجَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٣).

في القرآنِ الكريمِ، وهو أنَّه لو جاءَ الأمرُ على اقتراحِ هؤلاءِ لم يكُن على ما اقْتَرحوه، أي: لم يكُن ملكًا؛ لعدم المناسبةِ بين الرسولِ والمُرسَلِ إليهم، فإذا كان رجلًا عادَ اللَّبسُ والاقتراحُ الذي اقتَرحوه؛ لقوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تعليمٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُنَنَ الله في الأُمم مع رُسلِهم، وتَسليةٌ له وتَسريةٌ عنه ممَّا يَلقاه من عِناد المُعرِضين، وعَنَتِ المكذِّبين، وتَطمينُ قلبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى سُنَّة اللهِ سبحانه في أَخْذِ المكذِّبين المسْتهزِئين بالرُّسُل، وتَأسِيَتُه كذلك بأنَّ هذا الإعراضَ والتكذيبَ ليس بِدْعًا في تاريخ الدَّعوةِ إلى الحقِّ؛ فقد لقِيَ مِثلَه الرُّسُلُ قَبْلَه، وقد لقِي المستهزِئون جزاءَهم الحقَّ، وحاق بهم ما كانوا يَستَهْزئون به مِن العذاب، ومِن غَلَبةِ الحقِّ على الباطلِ في نِهاية المطافِ[2]، فكونُه يَعْلَم أنَّ الأمم السابقةَ كذَّبَتْ رُسُلَها، يُهوِّن عليه الأمْرَ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتسلَّى بالمصائبِ إذا أصابتْ غيرَه، وتهونُ عليه مُصيبتُه، وقد أشارَ اللهُ إلى هذا في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، مع أنَّه لو كان في الدُّنيا، واشترَك الناسُ في العذابِ، لهان عليهم ونفَعَهم، وحمَلَهم على الصَّبر، لكنْ في القيامَةِ لا يَنفعُ[3].

١٦- أنَّ السُّخريةَ والاستهزاءَ بالرُّسلِ موجِبٌ للعِقاب؛ لقوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4].

١٧- يُستفادُ من قولِه: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لمسُ قُلوبِ المكذِّبين المسْتَهزِئين من العربِ بمصارعِ أسلافِهم مِن المكذِّبين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٤).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

المسْتَهزئين، وتَذكيرُهم بهذه المصارِعِ التي تنتظرُهم إنْ هم لَجُّوا في الاستهزاءِ والسُّخريةِ والتكذيبِ، وقد أخَذَ اللهُ مِن قَبلهم قُرونًا كانتْ أشدَّ منهم قوةً، وتمكينًا في الأرض، وأكثرَ منهم ثراءً، ورخاءً[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقتْ بطريقِ تلوينِ الخِطابِ؛ لبيان شِدَّة شَكيمتِهم في المكابرةِ، وما يتفرَّعُ عليها من الأقاويلِ الباطلةِ إثْرَ بيانِ إعراضِهم عن آياتِ اللهِ تعالى، وتكذيبِهم بالحقِّ واستحقاقِهم بذلك لنُزولِ العذابِ[2].

- قوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فيه تأكيدُ المعلومِ بالمحسوسِ، أو تأكيدُ المعقولِ بالمحسوسِ؛ حيث قال: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾، وقال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾؛ لأنَّ هذا تأكيدٌ بشَيءٍ محسوسٍ يُنظَر إليه أنَّه في قِرطاسٍ، ويُلمَس باليدِ[3].

- وجاءَ تخصيصُ اللَّمسِ؛ لأنَّ التَّزويرَ لا يقعُ فيه؛ فلا يُمْكنُهم أن يقولوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، ولأنَّ الثِّقةَ باللَّمْس أقْوى؛ لأنَّ البَصرَ قد يُخدَع بالتخيُّل[4].

- وفي تقييدِه اللَّمْسَ بالأيدي- مع أنَّ اللَّمْس لا يكونُ إلَّا بها- إطنابٌ؛ حتى يَجتمعَ لهم إدراكُ الحاسَّتينِ: حاسَّةِ البَصَرِ وحاسَّة اللَّمْس، وفيه كذلك تأكيدٌ لمعنى اللَّمْسِ؛ لرَفْعِ احتمال أن يكونَ المرادُ به (التأمُّل)، كما في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، أي:

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٠).

تفحَّصْنا، ففيه زِيادةُ تعيُّنٍ، ودفْع احتمالِ التجوُّز[١]. وقيَّد اللَّمس بالأيدي أيضًا؛ للإفصاحِ عن مُنْتهى ما اعْتِيد مِن مُكابرتِهم، ووقاحتِهم في الإنكارِ والتكذيبِ[٢].

٢- قوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهارٌ في موضِع الإضمارِ- حيث أظهرَ الموصولَ في موضِع ضميرِه، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقُل: (لقالوا)- وذلك للتنصيصِ على اتِّصافِهم بما في حيِّز الصِّلة من الكُفْر[٣]، ومِن فوائد الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ: القياسُ، بمعنى: أنَّ كلَّ مَن قال قولهم فهو كافرٌ؛ لأنَّه لو قال: (لقالوا) لن نَستفِيدَ أنَّ مَن قال مِثلَ قولِهم يكون كافرًا بالنصِّ، فإذا كان هذا الوصفُ ظاهرًا قِسْنَا عليه كلَّ ما ماثَلَه، أو كلَّ مَن اتَّصف بهذا الوصفِ[٤].

٣- قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فيه بناءُ الفِعل الأوَّل في الجوابِ للفاعِل ﴿أَنْزَلْنَا﴾ الذي هو نونُ العَظَمَة، مع كونِه في السُّؤال مَبنيًّا للمفعول ﴿أُنْزِلَ﴾؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ، وبناءُ الثاني (قُضِيَ) للمفعولِ للجَرْيِ على سَنن الكبرياءِ[٥].

٤- قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تصديرُ الجملةِ بلامِ القَسمِ وحرْفِ التحقيقِ (قد) في ﴿وَلَقَدِ﴾، يدلُّ على تأكيدِ الخَبَر[٦]؛ وإظهارِ كمالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٨، ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٣).

(٦) مِن فوائدِ تَوكيدِ الجُملة بأنواعِ المؤكِّدات- مع أنَّ خبرَ الله تعالى صِدقٌ، سواءٌ اقترن بالقَسَم وأدوات التوكيدِ أو لا-: أنَّ القرآن الكريم جاءَ باللِّسان العربيِّ، واللسانُ العربيُّ يحسُن فيه التأكيدُ إذا اقتضتِ الحالُ ذلك؛ ومنها: أنَّ تأكيدَ اللهِ له بالقسَمِ يدلُّ على أهميَّته، وأنَّه من الأمورِ =

الاعتناءِ بمضمونِ الجملةِ[١].

- وقوله: ﴿بِرُسُلٍ﴾ التنكيرُ والتنوينُ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ والتَّكثيرِ[٢].

٥- قوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

- قوله: ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ مُتعلِّق بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾، وتَقديمُه على فاعِله الذي هو ﴿مَا﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ لُحوقِ الشرِّ بهم[٣].

- و(ما) في قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ موصولةٌ بمعنى (الذي)، وهي مُفيدةٌ للتهويلِ، والجارُّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ عائدٌ إليها، ومتعلِّقٌ بالفِعل ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وتقديمُه عليه لِرعايةِ الفواصِل، وللاهتمامِ به، أي: فأحاطَ بهم الذي كانوا يَستهزِئون به[٤].

= التي لا بدَّ أن يَقبَلها الإنسانُ ويُصدِّقَ بها، ومنها: أنَّه قد يُراد به دفْعُ إنكارِ مَن أنكرَ مدلولَ الخبر؛ ككونِ اللهِ عزَّ وجلَّ يُؤكِّدُ قيامَ الساعةِ بالمؤكِّدات الكثيرة لردِّ إنكارِ المكذِّبين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٨).

الآيتان (١٢ - ١٣)

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٣) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿سَكَنَ﴾: أي: ثبَتَ بعدَ تحرُّك، ويُستعملُ السُّكونُ في الاستيطانِ، وأصل (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحركةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ﴾: في محلِّ رفْعٍ، مبتدأٌ أوَّل، و﴿فَهُمْ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وجملةُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثاني وخبرُه خبرٌ للمبتدأِ الأوَّل؛ ودخلتِ الفاء في ﴿فَهُمْ﴾ لِمَا في ﴿الَّذِينَ﴾ من معنى الشَّرْط. وقيل: ﴿الَّذِينَ﴾ في محلِّ رفْعٍ، خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقديرُ: هم الذين خسِروا، أو: أنتُم الَّذين خَسِروا. وقيل غير ذلك[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهؤلاءِ المكذِّبين ويسألَهم: لِمَن مُلكُ جميعِ ما في السَّموات والأرضِ؟ ثم أمَرَه أن يُجيبَ عن السُّؤال بأنْ يقولَ: إنَّ مُلكَ ذلك كلِّه للهِ تعالى الذي يَستحقُّ العبادةَ وحْدَه، أوجبَ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٥١- ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٤).

سبحانه على نفْسِه الرحمةَ، ليَجمعنَّكم- أيُّها النَّاسُ- جميعًا يومَ القيامةِ الذي لا شكَّ فيه، ثم ذكر أنَّ الخاسرينَ حقًّا هم الَّذين أضاعوا أنفُسَهم، فلم يُؤمنوا.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّ له وحْدَه كلَّ شيءٍ سَكَن في اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو السَّميعُ العليمُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المكذِّبين: لِمَنْ مُلكُ جميعِ ما في السَّمواتِ، وجَميعِ ما في الأرضِ[1]؟

ثم أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَ عن هذا السُّؤالِ، فقال[2]:

﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: ذلك كلُّه مِلكٌ للهِ تعالى، الذي يَستحقُّ العبادَةَ وحْدَه[3].

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾.

أي: أوْجَب على نفْسِه الرَّحمةَ، فوَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ[4].

عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٢-٦٣).

خلَقَ اللهُ الخلقَ، كتَب في كِتابِه، فهو عندَه فوقَ العَرشِ: إنَّ رحمَتي تَغلِبُ غضَبي))[١].

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: واللهِ ليَجمعنَّكم الربُّ سبحانه- أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ الذي لا شَكَّ في وُقوعِه[٢].

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين أضاعوا أنفُسَهم، فعدِموا فائدةَ الانتفاعِ منها؛ بحِرْمانها تصديقَ الرَّسولِ والرِّسالةِ، هم الخاسِرون حقًّا[٣]؛ إذ لَمَّا أعْرَضوا عن ذلك فاتَهُمُ الإيمانُ باللهِ تعالى وبرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وباليوم الآخِرِ الذي هو سببُ الفوزِ في الدُّنيا والآخِرة[٤].

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧١-١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٥-٦٦).

(٣) وهذا بناءً على أنَّ جُملة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ استئنافيةٌ لا تعلُّق لها بقولِه تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وهذا اختيارُ القرطبي في ((تفسيره)) (٦/ ٣٩٦)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة الأنعام)) (ص: ٦٦). وخبره إمَّا محذوف فيُقدَّر، أو خبره جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. يُنظر: المصدران السابقان، و ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤).
وقيل: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١٧٣-١٧٤)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٦-٦٧).

ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ السَّمواتِ والأرضَ؛ إذ لا مكانَ سواهما، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ ذَكَر اللَّيلَ والنَّهارَ؛ إذ لا زَمانَ سواهما، فالزَّمانُ والمكانُ ظرفانِ للمُحْدَثاتِ؛ فأخْبَر تبارَك وتعالى أنَّه مالِكٌ للمكانِ والمكانيَّات، ومالكٌ للزَّمان والزَّمانيَّات[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾.

أي: وله عزَّ وجلَّ مُلكُ كلِّ شيءٍ؛ فإنَّه ما مِن شيءٍ مِن خَلْقِ الله تعالى إلَّا وقد حلَّ واستقرَّ في ليلٍ أو نهارٍ؛ فالجَميعُ خَلْقُه، وتحتَ قَهْرِه وتَصرُّفِه وتدبيرِه سبحانه[2].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: وهو السَّميعُ لجميعِ الأصواتِ والأقوالِ، وهو العَليمُ بكلِّ شيءٍ، المطَّلعُ على الظَّواهرِ والسَّرائرِ، ثم يُجازي كلَّ إنسانٍ بما اكتَسبَ مِن خيرٍ وشرٍّ[3].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾؛ فيه اللُّجوءُ إلى اللهِ وحْدَه تعالى، وعدَمُ الخوفِ إلَّا منه سُبحانه؛ فإنَّنا متى آمنَّا أنَّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ لله، فإنَّنا لن نَلجأَ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولنْ نخافَ إلَّا مِنه سُبحانه؛ لأنَّه مالكُ مَن في السَّموات والأرضِ[4].

٢- اللَّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلْكِ؛ دلَّت على عُبوديَّة الناسِ للهِ دون غيرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٧).

وتستلزم أنَّ العبدَ صائرٌ إلى مالكِه لا محالةَ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فيه استِعطافٌ للمُعْرِضينَ عنه إلى الإقبالِ إليه بالتَّوْبَةِ؛ فإنهم إنْ تابوا وأنابوا قَبِل توبتَهم، وقد قَضى في خَلْقه أنَّ رحْمَته وَسِعتْ كلَّ شيءٍ[(٢)].

٤- جملةُ: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معترِضةٌ، وهي مِن المقولِ الذي أُمِرَ الرسولُ بأنْ يقولَه، وفي هذا الاعتراضِ معانٍ:

أحدها: أنَّ ما بَعدَه لَمَّا كان مُشْعِرًا بإنذارٍ بوعيدٍ، قَدَّمَ له التذكيرَ بأنَّه رَحيمٌ بعبيدِه، عساهم يَتوبونَ، ويُقلِعون عن عِنادِهم؛ كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والشِّركُ باللهِ أعظمُ سوءٍ، وأشدُّ تلبُّسًا بجهالةٍ.

والثاني: أنَّ الإخبارَ بأنَّ للهِ ما في السَّمواتِ، وما في الأرضِ؛ يُثير سُؤالَ سائلٍ عن عدمِ تعجيلِ أخْذهم على شِركِهم بمَن هُم ملكُه؛ فالكافرُ يقول: لو كانَ ما تقولونَ صِدقًا لعجَّل لنا العذاب، والمؤمِنُ يَستبطئُ تأخيرَ عِقابِهم، فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جوابًا لكِلَا الفَريقينِ؛ بأنَّه تَفضَّل بالرَّحمة، فمنها رحمةٌ كاملةٌ، وهذه رحمتُه بعبادِه الصَّالحين، ومنها رحمةٌ مُوَقَّتة، وهي رحمةُ الإمهالِ، والإملاءِ للعُصاة والضالِّين.

والثالث: أنَّ ما في قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ مِن التمهيدِ لِمَا في جملةِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مِن الوعيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧).

والوعدِ؛ فذُكِرَتْ رحمةُ الله تعريضًا ببشارةِ المؤمنين، وبتَهديدِ المشرِكين[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ فيه استدعاءٌ ليُوجِّهوا النَّظَرَ العقليَّ في الموجوداتِ الخفيَّة، وما في إخفائِها مِن دلالةٍ على سَعةِ القُدرة، وتصرُّفاتِ الحِكمةِ الإلهيَّةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ هذا استِدلالٌ على المشْركين بأنَّ غيرَ اللهِ ليس أهلًا للإلهيَّة؛ لأنَّ غيرَ الله لا يَملِكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرض؛ إذ مُلكُ ذلك لخالِقِ ذلك، وهو تمهيدٌ لقوله بعدَه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ لأنَّ مالكَ الأشياءِ لا يُهمِلُ مُحاسبتَها[٣].

٢- قدَّم الله تعالى المكانَ (السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ) في قولِه: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّه أقربُ إلى العقولِ والأفكارِ مِن الزَّمان (اللَّيل والنهار)، والمذكورِ بعدَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤالٌ، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ جوابٌ؛ فقد أمَرَه الله تعالى بالسُّؤالِ أولًا، ثم بالجواب ثانيًا؛ وهذا إنَّما يَحسُن في الموضعِ الذي يكونُ الجوابُ قد بلَغَ في الظهورِ إلى حيثُ لا يَقدِر على إنكارِه مُنكِرٌ، ولا يَقدِر على دَفْعِه دافِعٌ، ولَمَّا كانتْ آثارُ الحدوثِ والإمكانِ ظاهرةً في ذواتِ جميع الأجسامِ، وفي جميعِ صِفاتها؛ لا جرمَ كان الاعترافُ بأنَّها بأَسْرِها مِلكٌ لِلَّهِ تعالى، ومُلْكٌ له، ومَحلُّ تصرُّفِه وقُدرتِه، لا جرمَ أمَرَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩).

بالسؤال أولًا، ثم بالجوابِ ثانيًا؛ ليدلَّ ذلك على أنَّ الإقرارَ بهذا المعنى ممَّا لا سبيلَ إلى دفْعِه البتَّةَ. وأيضًا فالقومُ كانوا معترِفين بأنَّ كلَّ العالَم مِلكٌ للهِ سبحانه، وتحتَ تصرُّفه وقَهرِه وقُدرتِه بهذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

٤- أنَّ للهِ تعالى أن يكتُبَ على نفسِه ما شاءَ؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2].

٥- يُستفادُ من قولِه: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أنَّ رحمةَ الله بعبادِه هي الأصلُ، حتى في ابتلائِه لهم أحيانًا بالضَّرَّاءِ[3].

٦- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ يكونُ الشيءُ لازمًا على الله؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى ألْزَمَ نفْسَه به، وله سبحانه أنْ يَفعلَ ما شاءَ، نحن لا نُلزِمُ اللهَ بشيءٍ، وليس لنا على الله حقٌّ إلَّا ما أوْجَبه على نفْسِه، لكنَّ اللهَ له أن يُلزِمَ نفْسَه بشيءٍ، فكتابةُ الله على نفْسِه الرَّحْمةَ لا تُنافي كمالَه، بل هي مِن كمالِه عزَّ وجلَّ[4].

٧- أنَّ اللهَ يُعبِّرُ عن ذاته بالنَّفْسِ؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ولها نظائرُ؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال عيسى عليه السَّلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، والإنسانُ له نفْسٌ، وليستْ نفْسُ اللهِ كنَفْس الإنسان؛ فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٨).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٨، ٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٩).

٨- في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنَّه لا ريبَ في هذا اليومِ، شرعًا وعقلًا: شرعًا؛ لأنَّ اللهَ أخْبَر به وأكَّده، وضرَب له الأمثالَ. وعقلًا؛ لأنَّه ليس مِن المعقولِ أنَّ الله تعالى يُوجِد هذه الخليقةَ، ويَأمُرها ويَنهاها، ويُرسل إليها الرُّسُل، وتُستباحُ الأنفسُ والأموالُ والذريَّة في القِتالِ في سبيلِ الله، ثم تكونُ النتيجةُ أنَّ الأرضَ تَبلعُهم فقط! هذا يُنافي الحِكمةَ؛ فالعقلُ يُوجِبُ أنْ يكونَ هناك بعْثٌ، حتى وإنْ لم يكُن نصٌّ؛ فكيف والنصوصُ كثيرة؟! ومِن رحمةِ الله عزَّ وجلَّ- وله الحمدُ والفضلُ والمِنَّة- أنَّه يُكثِرُ من إثباتِ يومِ القيامةِ، ويَضرِبُ له الأمثالَ؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ هو الذي يَحمِلُ الإنسانَ حقيقةً على الإيمانِ؛ إذ لولا اعتقادُ المؤمنِ أنَّه سيُبعَث ويُجازى- إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ- ما عمِل أبدًا، ولصارتِ الأمَّةُ موطنًا للسَّلْبِ والنَّهبِ والعُدوان[1].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أنَّ السُّكونَ والحركةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ مالِكَ مَن يَسكُن ويَتحرَّك مالِكٌ للحركةِ والسُّكون، فيكون في هذا دليلٌ على أنَّ أفعالَ العِبادِ مخلوقةٌ لله تعالى، وهذا هو مذهبُ السَّلَفِ وأهلِ السُّنة، وهو وسَطٌ بين مذهبَيِ الجبريَّة والقَدَريَّة[2].

١٠- قد جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كالنتيجةِ للمقدِّمة؛ لأنَّ المقصودَ من الإخبارِ بأنَّ اللهَ يَمْلِك الساكناتِ؛ التمهيدُ لإثباتِ عُمومِ عِلْمه، وإلَّا فإنَّ مُلْك المتحرِّكات المتصرِّفات أقوى مِن مُلْك الساكناتِ، التي لا تُبدي حراكًا؛ فظهَر حُسنُ وقْعِ قولِه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ عقبَ هذا[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٠، ٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥، ١٥٦).

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بـ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ فعَطَف بـ(ثُمَّ) الدَّالة على التَّراخي، وفي غيرِ هذه السُّورة عقَّب الأمرَ بالسَّير بقوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾، فعطَفَ بالفاءِ، الدَّالةِ على التَّعقيبِ المباشِرِ، مع اشتراكِهما في الأمْر بالسَّيرِ؛ وبيانُ هذِه المناسبةِ مِن وجهينِ:

الوجه الأوَّل: أنَّ ما في سُورةِ الأنعامِ وقَعَ بَعدَ ذِكر القُرونِ، في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾؛ فتعدَّدت القرونُ في أزمنةٍ متطاولةٍ؛ فخُصَّت الآيةُ هنا بـ﴿ثُمَّ﴾، بخِلاف ما في غيرِ هذِه السُّورة، إذْ لم يَتقدَّمْه شيءٌ من ذلك؛ فخُصَّت بالفاء[1]؛ فقوله: ﴿ثُمَّ انْظُروا﴾ في سورةِ الأنعام ناسَب العطف فيه بـ(ثُم)، حيثُ لم يَجعَلِ النَّظرَ فيها واقعًا عَقيبَ السَّير، مُتعلِّقًا وجودُه بوجودِه؛ لأنَّه بعْثٌ على سيرٍ بعدَ سيرٍ؛ لِمَا تَقدَّم مِن الآيةِ التي تدلُّ على أنَّه تعالى حَداهم على استقراءِ البِلادِ، ومنازِلِ أهلِ الفَسادِ، وأنْ يَستكثِروا مِن ذلك؛ ليَرَوا أثرًا بعدَ أثرٍ، في دِيارٍ بعدَ دِيارٍ، قدْ عمَّم أهلَها بدمارٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، فذكَر في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: قُرونًا كثيرةً أهلكناهم، ثم قال: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، فدعَا إلى العِلمِ بذلك بالسَّيرِ في البلادِ ومشاهدةِ هذه الآثارِ، وفي ذلك ذَهابُ أزمنةٍ كثيرةٍ ومُددٍ طويلةٍ تمنعُ النظرَ مِن مُلاصقةِ السَّير، فجَعَل السَّيرَ في الأرض في هذا المكانِ مأمورًا

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦٠).

به على حِدَةٍ، والنظرَ بَعدَه مأمورًا بِه على حِدَة؛ فلذلك خُصَّت بـ(ثمَّ) التي تُفيدُ تَراخِيَ المهلةِ بَينَ الفِعلين.

وأمَّا قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾ في بقيَّة الآياتِ فيدلُّ على أنَّ السَّيرَ يُؤدِّي إلى النَّظرِ، فيَقَعُ بوقوعِه، وليس كذلك (ثمَّ)؛ فإنَّ الفاءَ وقعَتْ في الجزاءِ، ولم تقَع فيه (ثم)؛ فسائِرُ الأماكنِ التي دخَلَتْها الفاءُ عُلِّق فيها وقوعُ النَّظرِ بوقوعِ السَّيرِ؛ لأنَّه لم يَتقدَّمِ الآيةَ ما يَحْدُو على السَّيرِ الذي حدَا عليه فيما قَبلَ آيةِ الأنعامِ، فالمواضِعُ التي دَخَلَتْها الفاءُ قُصِد فيها معنى التعقيبِ، واتِّصالِ النَّظرِ بالسَّيرِ؛ إذ لَيس في شيءٍ مِن الأماكنِ التي ذُكِرتْ فيها الفاءُ ما في سَورةِ الأنعامِ مِن البَعْثِ على استقراءِ الدِّيارِ، وتأمُّلِ الآثارِ، والله أعلم[١].

الوجه الثاني: أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ في آيةِ الأنعام عُطِفَ بـ﴿ثُمَّ﴾ المقتضيةِ مُهلةَ الزَّمان؛ لأنَّ سُورةَ الأنعامِ افتُتِحَتْ بذِكْرِ خَلْق السَّمواتِ والأرضِ، وجَعْل الظُّلماتِ والنُّور، وإنَّما ذُكِر هذا مِن الخَلْقِ الأكبرِ؛ ليُعتبَرَ بذلك؛ فإنَّه أعظمُ مُعتبَرٍ وأَوْسَعُه، فكأنَّ الآيةَ في قوَّة أنْ لو قِيل: سِيروا في الأرضِ فاعْتَبِروا لخالقِها، وكيف دَحاها لكم، وذلَّلَها لسُكْنَاكُم، وجعَل فيها رواسيَ أنْ تَميدَ بكم، وفَجَّرَ فيها الأنهارَ، إلى عجائبِ ما أودَعَ فيها، وكيف جعَلَ السَّماءَ سقفًا مَحفوظًا بغيرِ عِمادٍ، وزَيَّنها بالنجومِ؛ لتَهْتَدوا بها في الظُّلماتِ، وجعَل الشمسَ والقمرَ حُسبانًا وضياءً وزينةً للسَّماء الدُّنيا، وكيف محا آيَةَ اللَّيلِ لمصلحةِ العبادِ، وجعَل آيَةَ النَّهارِ مبصرةً، إلى ما لا يُحصَى مِن مَنافِعِها وعَجائِبها لِمَن مُنِحَ الاعتبار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ثمَّ انظُروا عاقبةَ مَن كذَّب، ونُبِّه فلمْ يَعتبِرْ. وأمَّا العَطْفُ بالفاءِ في بقيَّة الآياتِ على الأمْر بالسَّيرِ؛ فلأنَّهم أُمِروا أنْ يَعقُبوا سَيرَهم بالتدبُّرِ والاعتبارِ، وحَصْرِ نَظرِهم واعتبارِهم في

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٢).

المعقَّبِ المذكورِ بعدَ الفاءِ، ولم تقَعْ إشارةٌ إلى اعتبارِهم بغير ذلك[1].

- وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وضَع ﴿المكَذِّبِينَ﴾ موضعَ (المسْتَهْزِئين)؛ لتحقيقِ أنَّ مدارَ إصابةِ ما أصابَهم هو التَّكذيبُ؛ لينزجرَ السامِعون عنه لا عن الاستهزاءِ فقط، مع بقاءِ التكذيب بحالِه، بناءً على توهُّم أنَّه المدارُ في ذلك[2]؛ فوَصفَهم اللهُ بالمكذِّبين دون المسْتَهزِئين؛ للدَّلالة على أنَّ التَّكذيبَ والاستهزاءَ كانَا خُلُقَينِ مِن أخلاقهم، وأنَّ الواحدَ من هذين الخُلُقينِ كافٍ في استحقاقِ تلك العاقبةِ؛ إذ قال في الآية السابقة: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وقال في هذِه الآيةِ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾، وهذا ردٌّ جامعٌ لدَحْضِ ضَلالاتِهم الجاريةِ على سَننِ ضَلالاتِ نُظرائِهم مِن الأُمم السَّالفةِ المكذِّبين[3].

٢- قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استفهامٌ يُفيد التبكيتَ والتَّقرير؛ فالاستفهامُ للتقريرِ، والمرادُ به لازمُ معناه، وهو تبكيتُ المشرِكين، وإلجاؤُهم إلى الإقرارِ بما يُفضِي إلى إبطالِ مُعتقَدِهم الشِّركَ[4].

- وفي تقديمِ: ﴿لِمَنْ﴾ على ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ على الاهتمامِ بالمعبودِ[5].

٣- قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئنافٌ وقَسَمٌ مسوقٌ للوعيدِ على

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٤٥، ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩).

إشراكِهم، وإغفالِهم النَّظرَ، أي: ليَجمعنَّكم فيُجازيكم على شِركِكم، وسائرِ مَعاصِيكم، وإنْ أمْهَلَكم بموجِبِ رحمتِه، ولم يُعاجِلْكم بالعقوبةِ الدُّنيويَّة[1].

- وقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ كلامٌ ورد على لَفظِ الغَيبةِ، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلامٌ ورد على سبيلِ المخاطَبَة؛ والمقصودُ منه التأكيدُ في التَّهديد، كأنَّه قيل: لَمَّا عَلمتُم أنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرضِ للهِ ومُلْكُه، وقد علمتُم أنَّ المَلِكَ الحكيمَ لا يُهملُ أمْرَ رعيَّته، ولا يجوزُ في حِكمتِه أن يُسوِّيَ بين المطيعِ والعاصي، وبين المشتغِلِ بالخِدمة والمُعرِضِ عنها، فهلَّا عَلمتُم أنَّه يُقيمُ القيامةَ، ويُحضِرُ الخلائقَ، ويُحاسبُهم في الكلِّ[2]؟

٤- قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ مَسُوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتقبيحِ حالِهم[3].

- وعبَّر بالفاءِ في قوله: ﴿فَهُمْ﴾؛ لتضمُّن المبتدأِ معنى الشَّرْط، وللإشعارِ بأنَّ عدمَ إيمانهم بسببِ خُسرانهم؛ فإنَّ إبطالَ العَقلِ باتِّباعِ الحواسِّ، والوَهْم، والانهماكِ في التَّقليدِ، وإغفالِ النَّظر؛ أدَّى بهم إلى الإصرارِ على الكُفْر والامتناعِ مِن الإيمان[4].

٥- قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- تقديمُ الجارِّ والمجرورِ (لَهُ) على ﴿مَا﴾ التي بمعنى (الذي)؛ للدَّلالةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحَصْر، وهو حصْر الساكناتِ في كونِها له لا لغيرِه، أي: في كَونِ ملكِها التامِّ له(١).

- وخصَّ السَّاكِنَ بالذِّكر دون المتحرِّك؛ لأنَّ السَّاكنَ من المخلوقاتِ أكثرُ عددًا من المتحرِّك، والسُّكونَ أكثرُ وجودًا من الحركةِ. أو لأنَّ كُلَّ مُتحرِّك يصيرُ إلى السُّكونِ، من غير عَكسٍ؛ فإنَّ كلَّ مُتحرِّكٍ قد يَسكُن، وليس كلُّ ما يَسكُن يَتحرَّك. أو لأنَّ السُّكونَ هو الأصلُ، والحركة حادثةٌ عليه(٢).

- وتقديمُ اللَّيلِ على النَّهار؛ قيل: لأنَّ ما يَسكُنُ فيه هو المقصودُ بالذَّات(٣)؛ فالسَّاكِنُ فِي ذلك الوَقتِ يَزدادُ خَفاءً، فهو كقولِه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وَعَطَفَ النَّهارَ عليه؛ لقصدِ زِيادَةِ الشُّمولِ، لأنَّ اللَّيْلَ لمَّا كان مَظِنَّةَ الاختفاءِ فيه قد يُظَنُّ أنَّ العالِمَ يَقْصِدُ الاطِّلاعَ على السَّاكِناتِ فيه بأهميَّةٍ، ولا يَقْصِدُ إلى الاطِّلاعِ على السَّاكِناتِ في النَّهارِ، فذَكَر النَّهارَ لتحقيقِ تَمامِ الإحاطَةِ بالمعلوماتِ(٤).

- وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ جاءَ الوصفانِ على صِيغَةِ المبالَغة؛ للمُبالغةِ في وصْفِه سبحانه بسَماعِ كلِّ مَسموعٍ، والعِلمِ بكلِّ مَعلومٍ؛ فلا يَخفَى عليه شيءٌ من الأقوالِ والأفعالِ(٥).

- وفي خَتْمِ الآيةِ بهاتَينِ الصِّفتَينِ مناسَبَةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا تَقدَّم ذِكْرُ مُحاوراتِ الكفَّارِ المكذِّبين، وذِكرُ الحَشْرِ الذي فيه الجزاءُ، ناسَب ذِكْرُ صِفةِ السَّمع لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٦).

وقعتْ فيه المحاورةُ، وصِفةِ العِلمِ؛ لتَضمُّنِها معنى الجزاءِ؛ إذ ذلك يدلُّ على الوعيدِ والتَّهديدِ[١].

وأيضًا: فإنَّه لَمَّا ذَكَر أنَّ له ما سَكَن في اللَّيلِ والنهارِ، وذلك يدلُّ على شُمولِ مُلكِه؛ عَقَّبَه بذِكر هاتينِ الصِّفتينِ (السَّمع والعلم)؛ ليدلَّ على إحاطةِ عِلمِهِ بكلِّ شيءٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥- ١٥٦).

الآيات (١٤ - ١٦)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَلِيًّا﴾: أي: ناصرًا، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصلُ (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[(١)].

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدِئِهما، وأَصْلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه[(٢)].

﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: أي: يُردَّ عنه العذابُ؛ والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصل (صرف): يدلُّ على رجْعِ الشيءِ[(٣)].

﴿الْفَوْزُ﴾: الظَّفَرُ بالخَيرِ، مع حصولِ السَّلامةِ والنَّجاةِ، وأصل (فوز): النَّجاة[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾: جملةٌ مِن شَرْطٍ وجَزاءٍ، وقعَتْ صِفةً لـ﴿عَذَابَ﴾ في قوله تعالى في الآيةِ السَّابقة: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقيل: هي جُملةٌ مُستأنَفةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ.

﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ قُرِئَ ﴿يُصْرَفْ﴾ بضمِّ الياءِ وفتْحِ الرَّاءِ على البِناء للمَفعول، وقُرِئَ (يَصْرِف) بفَتْحِ الياءِ وكسرِ الرَّاءِ على البِناءِ للفاعِلِ؛ فعَلَى القِراءة الأُولى: فـ﴿مَنْ﴾ شَرْطيَّةٌ، ومحلُّها على هذِه القِراءة الرَّفْعُ على الابتداءِ، وخبر ﴿مَنْ﴾ فِعلُ الشَّرْطِ وحْدَه، أو جملةُ الشَّرطِ والجزاءِ، والهاءُ في ﴿عَنْهُ﴾ يَجوزُ أنْ تَرجِع على ﴿مَنْ﴾، والتقدير: مَن يُصرَفْ عنه العذابُ ونائبُ الفاعل ضَميرٌ مستترٌ تَقديرُه (هو)، عائدٌ إلى العَذابِ، وأنْ تَرجِع على العذابِ في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والتقدير: مَن يُصْرَفْ هُوَ عن العَذابِ، ونائبُ الفاعل ضَميرٌ مستترٌ تَقديرُه (هو)، عائدٌ إلى ﴿مَنْ﴾. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿يُصْرَفْ﴾، أو للعذابِ.

وعلى القِراءة الثانية (يَصْرِف): فالفاعِلُ مُضمرٌ في (يَصْرِف) يَعودُ على ﴿رَبِّي﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، وهو اللهُ جَلَّ ذِكرُه، والمفعولُ بِه مُضمَرٌ كذلِك، والتَّقديرُ: مَن يَصرِف اللهُ عنه العَذابَ. و﴿مَنْ﴾ على هذا في مَحلِّ رفْعِ مبتدأً أيضًا، ويعودُ عليها الهاءُ في ﴿عَنْهُ﴾ وفي ﴿رَحِمَهُ﴾. ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَنْ﴾ في محلِّ نصْبٍ بـ﴿يَصْرِفْ﴾ على أنَّه مفعولٌ مُقدَّم له، وتكون الهاءُ في ﴿عَنْهُ﴾ للعذاب، والتقديرُ: أيَّ إنسانٍ يَصرِفِ اللهُ عنِ العَذابِ فقدْ رحِمه[1].

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

قلْ- يا مُحمَّدُ-: أأتَّخِذُ غيرَ الله تعالى وليًّا أستعينُ به وأَستنصِرُه، وهو سبحانه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والغنيُّ عن جميعِ المخلوقاتِ؛ فهو يَرزقُهم ويُطعِمُهم، من غيرِ أنْ يحتاجَ إليهم؟!

قل- يا محمَّد-: إنِّي أمَرَني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن أَسْلَمَ له وخضَع، ونُهيتُ أنْ أكونَ مِن المشركينَ، قل- يا محمَّدُ-: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي عذابَ يومِ القيامةِ، ذلك العذابُ الهائلُ الشَّديدُ، الذي مَن يُصرَفْ عنه في يومِ القيامةِ، فقدْ أَسْبَغَ اللهُ عليه رحمتَه، وذلك هو الفوزُ الحقيقيُّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقدَّم أنَّه تعالى بديعُ السَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه مالِكٌ لِمَا تضمَّنه المكانُ والزمانُ؛ أَمَر تعالى نبيَّه أنْ يقولَ لهم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا...﴾ على سبيلِ التَّوبيخِ لهم، أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعِينًا، لا الآلهةُ التي لكُم؛ إذ هي لا تَنفعُ ولا تضرُّ؛ لأنَّها بين جمادٍ أو حيوانٍ مقهورٍ[1]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: أأجْعَلُ غيرَ اللهِ تعالى؛ مِن هذه المخلوقاتِ العاجزةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٤/ ٤٥٢).

وليًّا يتولَّاني، فأستنصرَه وأستعينَ به؟! والمرادُ: لا أتَّخذُ وليًّا إلَّا اللهَ تعالى وحْدَه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لا أتَّخذُ وليًّا غيرَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُبدِعُهما على غيرِ مثالٍ سبَق[2].

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

أي: ولا أتَّخِذُ غيرَه سبحانه وليًّا؛ لأنَّه سبحانه الرزَّاقُ لجميعِ خَلْقِه، من غيرِ احتياجٍ إليهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥-٧٦).

وعن أبي هُرَيرَةَ رضي اللهُ عنه، قال: ((دعَا رجلٌ منَ الأنصارِ؛ مِن أَهْلِ قُباءٍ، النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ فانطلَقْنا معَه، فلمَّا طَعِمَ، وغسلَ يَدَهُ- أو يَديهِ- قالَ: الحمدُ للَّهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، مَنَّ علينا فَهَدَانا، وأطْعَمَنا وسقانا...)) الحديث[1].

وعن أبي هُرَيرَة أيضًا، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ، مرِضتُ فلم تعُدْني! قال: يا ربِّ، كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: أمَا عَلِمتَ أنَّ عبْدي فلانًا مرِضَ فلم تَعُدْه، أمَا عَلِمتَ أنَّك لو عُدْتَه لوجدتَني عندَه؟ يا ابنَ آدمَ، استطعمتُك فلمْ تُطعِمْني! قال: يا ربِّ، وكيف أُطعِمُك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: أمَا عَلِمتَ أنَّه استطعمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه، أمَا علِمتَ أنَّك لو أطعمْتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدمَ، استسقيتُك فلمْ تَسقِني! قال: يا ربِّ، كيف أَسقِيك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: استسقاكَ عَبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أمَا إنَّك لو سقَيْتَه وجدتَ ذلك عِندي))[2].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد-: إنِّي أَمَرني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن خضَع له سبحانَه بالتوحيدِ، وانقادَ له بالطَّاعةِ من هذه الأُمَّة[3].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ونُهيتُ أيضًا عن أنْ أكونَ مِن المشْرِكين[4].

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٦٠)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥٢١٩)، والطبراني في ((الدعاء)) (٨٩٦)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٠٠٣).
قال الحاكم (٢٠٠٣): صحيحٌ على شرْط مسلم. وصحَّحه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦٥)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٢٦): حسنٌ على شرْط مسلم.
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٦-٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى كونَ رسولِه مأمورًا بالإسلامِ، ثمَّ عقَّبه بكونه منهيًّا عن الشِّرك، وكان فعلُ المنهيِّ قد لا يُعذَّب عليه، قال مُعْلِمًا بأنَّ المخالفةَ في هذا مِن أبلغِ المخالفاتِ، فصاحبُها مستحِقٌّ لأعظمِ الانتقامِ[1]، فقال:

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد-: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي- بمعصيةِ الشِّركِ به سبحانه، أو بغيرِها من أنواعِ المعاصي- عذابَ يومِ القيامةِ، ذلك اليومُ الَّذي يعظُمُ هولُه[2].

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾.

أي: مَن يُصرَفْ عنه العذابُ يومَ القيامةِ فقدْ رحِمَه اللهُ تعالى[3].

﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

أي: وصَرْفُ العذابِ يومَ القيامةِ هو الفوزُ الحَقيقيُّ؛ فمَن نجا مِن العذابِ فقدْ ظَفِر ورَبِح[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨١).

كمـا قـال تعالـى: ﴿فَمَـنْ زُحْـزِحَ عَـنِ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّـةَ فَقَـدْ فَـازَ﴾ [آل عمـران: ١٨٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ فيه أنَّ العبدَ لا يَلجأُ إلَّا إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ اللهَ هو الوليُّ، ثمَّ ولايةُ الله عزَّ وجلَّ ولايةٌ مبنيَّةٌ على الحمْدِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1] [الشورى: ٢٨].

٢- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يَقتضي تَنزيهَ القلبِ عن الالتِفاتِ إلى غيرِ اللهِ تعالى، وقطْعَ العلائِقِ عن كلِّ ما سِوى اللهِ تعالى[2].

٣- وصْفُ اللهِ تعالى نفْسَه بفاطِرِ السَّموات والأرضِ في قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُؤيِّدُ إنكارَ اتِّخاذ غيرِه وليًّا يُستنصَرُ ويُستعانُ به، أو يُتَّخذ واسطةً للتأثير في الإرادة الإلهيَّة، فإنَّ مَن فطَر السمواتِ والأرضَ بمحضِ إرادتِه من غيرِ تأثيرِ مؤثِّرٍ، ولا شفاعةِ شافعٍ؛ يجب أنْ يُتوجَّهَ إليه وحْدَه بالدُّعاء، وإيَّاه يُستعانُ في كلِّ ما وراءَ الأسبابِ[3].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أنَّ الله تبارَك وتعالى هو المطعِمُ لا مُطعِمَ سواه، ويَنبني على هذا ألَّا نَسألَ الإطعامَ إلَّا مِن اللهِ تبارَك وتعالى، ولو أنَّنا تَمسَّكْنا بهذا مع التوكُّلِ على اللهِ والاستعانةِ به، لكان رِزقُنا مَضمونًا؛ لقولِ الله تبارَك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[4] [الطلاق: ٢- ٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧، ٧٨).

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في العُدولِ عن اسمِ الجلالةِ إلى قوله: ﴿رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عِصيانَه أمرٌ قبيحٌ؛ لأنَّه ربُّه، فكيفَ يَعصيه[1]؟!

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه أنَّ المعصيةَ سببٌ للعذابِ، والمعاصي على نَوعينِ: معاصٍ لا يَغفرُها اللهُ، وهي الشركُ، ومعاصٍ تَدخُل تحت مشيئةِ الله، وهي الكبائرُ، وهناك معاصٍ أُخرى تُكفِّرها الأعمالُ الصالحةُ، وهي الصَّغَائرِ؛ هذا فيما يتعلَّقُ بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعَبْدِه، أمَّا حقوقُ الآدميِّين فلا بدَّ مِن إيصالِ حقِّهم إليهم، إمَّا باستحلالٍ منهم في الدُّنيا، وإمَّا بأعمالٍ صالحةٍ تُؤخَذُ مِن أعمالِ هذا الظَّالِم[2].

٧- ممَّا يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أنَّ هذا الدِّينَ دِينُ اللهِ الحقُّ لا محاباةَ فيه لأحدٍ، مهما يكُنْ قَدْرُه عظيمًا في نفْسِه، وأنَّ يومَ الجزاءِ لا بَيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ بالمعنى المعروفِ عند المشركين، ولا سلطانٌ لغيرِ اللهِ تعالى فيَتَّكلَ عليه مَن يَعصيه؛ ظنًّا أنْ يُخفِّفَ عنه أو يُنجيَه[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أُمِر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعلِنَ أنَّه لنْ يتَّخِذَ وليًّا من دون اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا واجبٌ عليه؛ لأنَّه رسولٌ وإمامٌ مُقتدًى به، فلا بدَّ أن يُعلِنَ تحقيقَ الربوبيَّة[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧).

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ التأكيدُ على إنكارِ اتِّخاذِ وليٍّ غيرِ الله، وفيها تعريضٌ بمَن اتَّخذوا أولياءَ مِن دونه من البَشرِ بأنَّهم مُحْتاجونَ إلى الطَّعام، لا حياةَ لهم ولا بقاءَ إلى الأجلِ المحدودِ بدونه، وأنَّ اللهَ تعالى هو الذي خلَقَ لهم الطَّعامَ، فهُم عاجِزون عن البقاءِ بدونه، وعاجزون عن خَلْقِه وإيجادِه؛ فكيف يتَّخِذون أولياءَ مع الغنيِّ الحميدِ، الرزَّاقِ الفعَّالِ لِمَا يُريد[1]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فيه تأييسُ المشْركين، وقطْعُ أطماعِهم مِن عودِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى دِينِهم؛ لأنَّهم ربَّما كانوا إذا رَأَوا منه رحمةً بهم، وَلِينًا في القولِ، طمِعوا في رُجوعِه إلى دِينهم، وقالوا: إنَّه دِينُ آبائِه[2].

٤- صِحَّةُ النَّهيِ عمَّا لا يُمكن أن يقعَ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فشِركُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُمكِن أن يقَعَ شَرعًا، ومع ذلك نُهِيَ عنه. والحِكمة مِن ذلك -فيما قيل- من وجوه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّه قد جَرَت العادةُ في القرآنِ أنَّ اللهَ سبحانه يأمُر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وينهاهُ؛ ليَشرَعَ ذلك الأمْرَ والنهيَ لأمَّتِه على لِسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه هو القدوةُ لهم، والمشرِّعُ لهم بقولِه وفِعلِه وتقريرِه.

والوجه الثاني: دعوتُه إلى الثَّباتِ على الإخلاصِ، وإنْ كان الشِّركُ لا يَقعُ منه.

والوجهُ الثالث: طَمْأَنَةُ أُمَّتِه إذا نُهوا عن الشِّركِ، بأنَّ ذلك ليسَ بمستنكَرٍ، وليس فيه بأسٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ إمامَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يكونَ مِن المشركين[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٩).

٥- ممَّا يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الأمرُ بالإسلامِ نهيًا عن الشِّرْكِ، لم يَكتفِ به، بل صرَّحَ به؛ جمعًا بين الأمْرِ والنَّهْيِ من هذا الربِّ الكريمِ، الذي يَدْعو إحسانُه وكرمُه إلى ولايتِه، ويَنهى تمامُ مُلكِه وجبروتِه عن شيءٍ من عداوتِه[1].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ إثباتُ الرحمةِ لله، وهي رحْمةٌ حَقيقيَّة، وليست عِبارةً عن الثَّواب، أو إرادةِ الثَّواب، لكنَّها ليستْ كرحمةِ المخلوقِ التي يكون فيها نوعٌ من الضَّعْف، بل هي رحمةُ الخالقِ الذي هو فوقَ عِبادِه عزَّ وجلَّ[2].

بَلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استفهامٌ للإنكارِ على سبيلِ التَّوبيخِ لهم، أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعينًا، لا الآلهةُ التي لكُم[3].

- وقدَّم المفعولَ الأوَّل ﴿أَغَيْرَ﴾ على الفِعل وفاعلِه ﴿أَتَّخِذُ﴾، ولم يقُل: (أَأَتَّخِذُ غيرَ اللهِ وليًّا)؛ لأنَّ الإنكارَ إنَّما حصَل على اتِّخاذِ غيرِ اللهِ وليًّا، لا على اتِّخاذ الوليِّ، والعربُ يُقدِّمون الأهمَّ فالأهمَّ الذي هم بشأنِه أعْنَى؛ فكان قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أوْلى مِن العِبارةِ الثَّانيةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[4] [يونس: ٥٩].

- وأُعيدَ الأمرُ بالقَولِ في قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾- وكان سبَق في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦).

قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّموَاتِ...﴾ - اهتمامًا بهذا المقُول؛ لأنَّه غَرَضٌ آخَرُ غيرُ الذي أُمِرَ فيه بالقولِ قَبْله(١).

٢- قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فيه تَخصيصُ الطَّعام بالذِّكرِ من بين أنواعِ الانتفاعاتِ؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليه، أو لأنَّه مُعظمُ ما يَصِلُ إلى المرزوقِ من الرِّزقِ(٢).

- قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فيه تعريضٌ بهم فيما يُقدِّمونه إلى أصنامِهم مِنَ القَرابينِ، وما يُهرِقونَ عليها من الدِّماءِ(٣).

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فيه تعريضٌ؛ إذ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَصدُرْ منه امتناعٌ عن الحقِّ، وعدمُ انقيادٍ إليه، وإنَّما هذا على طريقِ التعريضِ على الإسلامِ، كما يأمرُ الملِكُ رعيَّتَه بأمرٍ ثمَّ يُتْبِعُه بقولِه: أنا أوَّلُ مَن يفعلُ ذلك؛ ليحملَهم على فِعل ذلك(٤).

٤- قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النَّهيُ مقصودٌ منه تأكيدُ الأمرِ بالإسلامِ؛ لأنَّ الأمْرَ بالشَّيءِ يَقتضي النهيَ عن ضِدِّه، وهذا التأكيدُ لتُقطَعَ جُرثومةُ الشِّركِ من هذا الدِّين(٥).

٥- قوله: ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ شَرْطٌ مُعترِضٌ بين الفِعلِ ﴿أَخَافُ﴾ ومَفعولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٩).

﴿عَذَابَ﴾، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه الجُملةُ قَبْلَه، أي: إنْ عَصيتُ ربِّي فإنِّي أخافُ عذابَ يومٍ عظيمٍ، وفيه مُبالغةٌ في قَطْعِ أَطماعِهم، وتَعريضٌ لهم بأنَّهم عُصاةٌ مُستوجِبون للعَذابِ[١].

- وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أُضيفَ العَذابُ إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ تهويلًا له؛ لأنَّ في مُعتادِ العربِ أنْ يُطلقَ اليومُ على يومِ نَصْرِ فريقٍ، وانهزامِ فريقٍ من المحاربينَ، فيكون اليومُ نَكالًا على المنهزِمين؛ إذ يَكثُر فيهم القتْلُ والأَسْرُ، ويُسامُ المغلوبُ سوءَ العذابِ، فذِكرُ (يوم) يُثير مِن الخيالِ مخاوفَ مألوفةً، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ جعْلُ إضافةِ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ كنايةً عن عِظَم ذلك العذابِ؛ لأنَّ عظمةَ اليوم العَظيمِ تستلزمُ عِظَمَ ما يقَعُ فيه عُرفًا[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مُؤكِّدٌ لتهويلِ العذابِ[٣].

- وفيه كنايةٌ وأسلوبٌ بديعٌ؛ إذ المقصودُ مِن هذا الكلام إثباتُ مقابلِ قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كأنَّه قال: أرجو إنْ أطعتُه أنْ يرحمَني ربِّي؛ لأنَّ مَن صُرِف عنه العذابُ ثَبتَتْ له الرحمةُ؛ فجاءَ في إفادةِ هذا المعنى بطريقةِ المذهبِ الكلاميِّ، وهو ذِكرُ الدَّليلِ ليُعلَمَ المدلولُ، وهذا ضربٌ من الكنايةِ، وأسلوبٌ بديعٌ بحيثُ يدخل المحكومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٧).

وهذا الوجْهِ على قولِ البَصريِّين الذين لا يُجيزونَ تَقدُّمَ الجَوابِ على شَرْطِه، وأمَّا على قولِ الكُوفيِّين، فيكون ﴿أَخَافُ﴾ جوابَ شَرطٍ مُقدَّمًا؛ وإنَّما قدَّمَ ذِكْرَ الخَوفِ في قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾ على شَرْطِه ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الذي شَأنُه أنْ يَتقدَّمَه؛ لأنَّه هو الأهمُّ المقصودُ بالذِّكر. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٧).

له في الحُكمِ بعنوان كونِه فردًا مِن أفراد العُمومِ، الذين ثبَت لهم الحُكمُ؛ ولذلك عقَّبَه بِقَوله: ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، والإشارةُ بـ(ذلك) موجَّهةٌ إلى الصَّرْفِ المأخوذِ من قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أو إلى المذكور، وإنَّما كان الصَّرْفُ عن العذابِ فوزًا؛ لأنَّه إذا صُرِف عن العذابِ في ذلك اليومِ فقدْ دخَل في النَّعيمِ في ذلِك اليومِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٢).

الآيات (١٧ - ١٩)

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَمْسَسْكَ﴾: أي: يُصِبْك، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، وأصل (مسس): جسُّ الشيءِ باليدِ[١].

﴿الْقَاهِرُ﴾: أي: الغالبُ، العالي، والقهرُ: الغلبةُ والتَّذليلُ معًا، وأصلُ (قهر): يدلُّ على غلبةٍ وعلوٍّ[٢].

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾: أي: أُلْقِيَ إليَّ، ويُطلَقُ الوحيُ والإيحاءُ على إلْقاءِ المعنى إلى صاحبِه، والإشارةِ، والكتابةِ، وأصلُ الوحي: يدُلُّ على إلْقاءِ عِلمٍ في إخفاءٍ، وكلُّ ما ألْقَيتَه إلى غَيرِك حتَّى عَلِمَه فهو وَحْيٌ كيف كانَ[٣].

﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾: أي: لأُبلِّغكم وأُخوفِّكم؛ فالإنذارُ: هو التَّخويفُ، والتهديدُ، والإبلاغُ، والإخبارُ الذي فيه تخويفٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨-٨٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

مُشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

﴿أيُّ﴾: مبتدأٌ[١]، و﴿أَكْبَرُ﴾: خبرُه، و﴿شَهَادَةً﴾: تمييزٌ، واسمُ الجَلالةِ ﴿اللهُ﴾ خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: أكبرُ الأشياءِ شَهادةً اللهُ. ويجوزُ أنْ يَكونَ مبتدأً، والخبرُ مَحذوفٌ؛ والتَّقديرُ: اللهُ أكبرُ شَهادةً. وقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، والتقدير: هو شَهيدٌ؛ فعَلَى هذا يكون قولُه: ﴿قُلِ اللهُ﴾ جوابًا لـ﴿أَيُّ﴾ مِن حيثُ اللَّفظُ والمعنى. ويجوزُ أنْ يكون لفظُ الجَلالة ﴿اللهُ﴾ مُبتدأً، و﴿شَهِيدٌ﴾ خبَرَه، ودلَّتْ هذِه الجُملةُ على جَوابِ ﴿أَيُّ﴾ من طَريقِ المعنى، أيْ: إنَّها دالَّةٌ على الجوابِ، وليستْ هي الجواب. وجملةُ ﴿اللهُ شَهِيدٌ..﴾ في مَحلِّ نَصْبٍ؛ لأنَّها مقولُ القولِ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ يُصبْك اللهُ بضُرٍّ، فلن يُزيلَه ويَرفعَه عنك إلَّا هو، وإنْ يُصبْك بخيرٍ، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثم بيَّنَ سبحانه كمالَ قدرتِه، وعظيمَ سلطانِه، وأنَّه هو الذي قهَر كلَّ شيءٍ، وأنَّه هو العالي على خَلْقَه ذاتًا وقدْرًا وقهرًا، ذو السُّلطةِ التامَّةِ على عِبادِه، وهو الحكيمُ الخَبير.

---

(١) و(أيٌّ) اسمٌ مُبهَمٌ نَكِرةٌ، وهي بَعضُ ما تُضافُ إليه؛ فإنْ أُضيفَتْ إلى الزَّمانِ فهي زمانٌ، وإنْ أُضيفَتْ إلى المكانِ فهي مكانٌ؛ فإنَّها إلى أيِّ شَيءٍ أُضِيفتْ كانتْ منه؛ وهي هنا اسمُ استفهامٍ مُضافٌ إلى ﴿شَيْءٍ﴾، فصارتْ هذه الكلمةُ صادِقةً على جوابِ الاستفهامِ، وهنا جوابُ الاستفهامُ ﴿اللهُ﴾، فاقْتَضى إطلاقَ اسمِ (شَيْءٍ) خَبرًا عن اللهِ تعالى. يُنظر: ((شرح المفصل)) لابن يعيش (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٦- ٥٦٧).

ثمَّ يأمُر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يسألَ المكذِّبين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادةً على صِدقِ ما جاءَ به؟ وأمَرَه تعالى أنْ يُجيبهم: أنَّ أكبرَ الأشياءِ شهادةً هو اللهُ تعالى، هو الذي لا يجوزُ أن يقَعَ في شهادتِه السَّهوُ والخطأُ والكذِبُ، وهو الشهيدُ جلَّ وعلا بيْنه وبيْنهم، وهو سبحانه قد أوْحَى إليه هذا القرآنَ؛ ليُنذِرَهم به من العذابِ، ويُنْذِرَ كلَّ مَن بلَغَه القرآنُ، ثم أمَره أنْ يسألَ هؤلاء المكذِّبين: هل هم يَشهَدون أنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً غيرَه تستحقُّ أن تُعبَد؟! فإنْ شَهِدوا بذلك فليقلْ لهم: إنَّه لا يَشهَدُ معهم، إنَّما هو مَعبودٌ واحدٌ هو الذي يَستحقُّ العبادةَ سبحانه وتعالى، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَرِيءٌ ممَّا يُشرِكون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَبْطلَتِ الآياتُ السَّابقةُ استحقاقَ الأصنامِ الإلهيَّةَ؛ لأنَّها لم تَخلُقْ شيئًا، وأوجبتْ عبادةَ المستحِقِّ الإلهيَّةَ بحقٍّ؛ أبطلتْ هذه الآيةُ استحقاقَهم العبادةَ؛ لأنَّهم لا يَملِكونَ للنَّاسِ ضَرًّا ولا نفعًا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾.

أي: وإنْ يُصِبْكَ اللهُ- يا محمَّدُ- بشِدَّةٍ وعُسرٍ وضِيقٍ، مِن شَظَفِ عيشٍ، أو مَرضٍ، أو غمٍّ أو همٍّ، أو غيرِ ذلك مِن أنواعِ الضُّرِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٣).

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: فلنْ يَرفعَ، ويُزيلَ ذلك الضرَّ عنك إلَّا اللهُ تعالى وحْدَه(١).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾.

أي: وإنْ يُصِبْكَ اللهُ تعالى- يا محمَّدُ- بأيِّ خيرٍ كان، كالصِّحَّةِ والعقلِ، والمالِ والأهلِ، والأمْنِ وغيرِ ذلك(٢).

﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ، لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يَمتنِعُ منه، ومِن ذلك خيرُه وعطاؤُه؛ فلا يَقدِرُ أحدٌ على ردِّه عمَّنْ أرادَه له سبحانه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رفَعَ رأسَه مِنَ الرُّكوعِ قال: ربَّنا لكَ الحمدُ مِلْءَ السَّمواتِ والأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شيءٍ بعدُ، أَهْلَ الثناءِ والمجدِ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبدٌ، اللهمَّ لا مانعَ لِمَا أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنعتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ))[1].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال له: ((... واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أنْ يَنفعوك بشَيءٍ، لم يَنفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه اللهُ لك، وإنِ اجتَمعوا على أنْ يَضُرُّوك بشيءٍ لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليك...))[2].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى انفرادَه بتصرُّفِه بما يُريدُه من ضُرٍّ وخيرٍ، وقُدرتَه على الأشياءِ، ذَكَرَ قَهْرَه وغَلبَتَه، فقال[3]:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: واللهُ سبحانه هو المستعبِدُ خَلْقَه، العالي عليهم؛ ذاتًا وقَدْرًا وقهرًا، ذو

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧)، والحاكم في المستدرك (٦٣٠٣).
صحَّحه الترمذيُّ (٢٥١٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٧٩٥٧)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٧).

السُّلطةِ التامَّةِ عليهم، الذي له الخَلائقُ خَضَعَتْ، وذلَّتْ له، ودَانَتْ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو سُبحانَه الحَكيمُ في جميعِ ما يَفعلُه؛ فيما أمَر به ونَهى عنه، وأثابَ وعاقَب، وفيما خلَقَ وقدَّر، فيَضعُ كلَّ شيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، وهو سُبحانَه الخبيرُ، المطَّلعُ على جميعِ السَّرائرِ والضَّمائرِ، العليمُ بمصالحِ الأشياءِ ومَضارِّها، ومواضعِها ومحالِّها، الذي لا تَخفَى عليه عواقبُ الأمورِ[٢].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الاستدلالَ على إثباتِ ما يَليقُ به تعالى مِن الصِّفات، انتَقَلَ إلى إثباتِ صِدقِ رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإلى جَعْلِ اللهِ حَكَمًا بينه وبينَ مُكذِّبيه[٣].

وأيضًا لَمَّا أقامَ الأدلَّةَ على الوحدانيَّةِ والقُدرة، ووصَل إلى صِفةِ القهرِ المؤذِنِ بالانتقامِ، لم يَبقَ إلَّا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يَستحقُّونه مِن سوءِ العذابِ، وإنذارًا به؛ لئلَّا يقولوا إذا حَلَّ بهم: إنَّه لم يَأتِنا نذيرٌ[٤]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٦-٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٧-٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩).

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد- لهؤلاءِ المكذِّبين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شَهادةً على صِدقي[1]؟

﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ أكْبَرَ الأشياءِ شهادةً هو اللهُ تبارك وتعالى، الذي لا يَجوزُ أنْ يقعَ في شَهادتِه السهوُ والخطأُ والكذبُ، وهو الشَّهيدُ بَيني وبَينكم؛ بالمحقِّ منَّا مِن المبطِلِ؛ فهو العالمُ بما جِئتُكم به، فيَشهَدُ لي بإقرارِه وفِعلِه، فيُقرُّني على ما قلتُ لكم؛ إذ لا يَليقُ بحِكمتِه وقُدرتِه سبحانه أنْ يُقرَّ كاذبًا عليه، يَزعُمُ أنَّ اللهَ تعالى أرْسلَه، وهو سبحانه لم يُرسِلْه[2].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠- ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٩-١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢-٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٩-١٠٠).

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

أي: وأَوْحَى اللهُ إليَّ هذا القرآنَ الكريمَ لِمَصلحتِكم؛ أنْ أُنذِرَكم به مِن العذابِ، وأُنذرَ كذلك كلَّ مَن بلَغَه القرآنُ[1].

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالشَّهادةِ له بالوحدانيَّة التي جحَدها المُشركونَ، وبالبراءةِ من قولِهم، وشهادتِهم بالشِّرك[2]، فقال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: هل تَشهدون- يا أيُّها المشرِكونَ- بأنَّ معَ اللهِ تعالى معبوداتٍ أخرى، تستحقُّ العبادةَ[3]؟

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

أي: إنْ شَهِدوا بأنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً أخرى، فقُلْ- يا محمَّدُ-: لا أَشهَدُ مَعكُم على ذلك[4].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: قلْ: إنَّما هو معبودٌ واحدٌ، مُنفردٌ باستحقاقِ العبوديَّةِ، لا شَريكَ له[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١-١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠١-١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

أي: وإنَّني بريءٌ مِن كلِّ شَريكٍ تدَّعونَه لله، وتَعبُدونه مع اللهِ تعالى؛ فلا أَعْبُدُ سِوى اللهِ شيئًا، ولا أَدْعُو غيرَه إلهًا[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ...﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعلِّقَ رجاءَه باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا عَلِم مضمونَ هذه الآيةِ فسوفَ يَعتمِدُ في أمورِه كلِّها على اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ فيه الحثُّ على الصَّبرِ؛ لأنَّك إذا عَلِمتَ أنَّ الذي أصابَك بالضرِّ هو اللهُ، فلا بدَّ أنْ تَصبِرَ؛ لأنَّك عَبْدُه، يَفعلُ بك ما شاءَ، فتصبرُ على ما يُصيبك مِن الضَّرر[3].

٣- قوَّةُ رَجاءِ العبدِ باللهِ عزَّ وجلَّ إذا أصابَه الضَّررُ أنْ يزولَ عنه الضررُ؛ وجْهُ ذلك قولُه: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وكم مِن أضرارٍ حدَثَتْ للإنسانِ حتى أوصلتْ إلى اليأسِ والقُنوطِ، فكَشَفَها اللهُ عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ أُصيبَ بمرضٍ حتى وصَلَ إلى حافَةِ القبرِ، ثمَّ شفاه الله عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ أُصيبَ بالفقرِ حتى وصَلَ إلى ألَّا يجِدَ قُوتَ يومِه فأَغْناه اللهُ عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ كان وحيدًا فرَزَقَه اللهُ! وهلمَّ جرًّا؛ لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إثباتُ وصْفِ الخبرةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي العلمُ ببواطنِ الأمورِ، ويَترتَّبُ على إيمانِنا بهذا أنْ نَستسلمَ لحُكمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ الشرعيِّ، كما أنَّنا مُستسلِمون لحُكمِه القَدَريِّ، وألَّا نُكلِّفَ أنفُسَنا بالاطِّلاعِ على الحِكمةِ فيما لا تُدرِكُه عقولُنا، بل نُؤمِنُ ونُسلِّمُ، وكذلك يُقال في الأحكامِ القَدَريَّة: نُؤمِنُ باللهِ ونُسلِّمُ لقَضائِه(١).

٥- وجوبُ التبرُّؤِ من أهلِ الباطِلِ وما هم عليه، ومِن المشركين ومِن عملِهم الشركيِّ، والتبرؤِ من كلِّ ما يُعبَدُ من دونِ الله، ولا تجوزُ المُداهنةُ في هذا، ولا الموافقةُ، فإن لم يشهَدْ ببُطلانِ الآلهةِ سوَى اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه لم يُخلصْ ولم يُوحِّد؛ إذ إنَّ التوحيدَ مبنيٌّ على النفيِ والإثْباتِ؛ وذلك لقولِه: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تمامُ سلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه سبحانه وتعالى هو المتصرِّفُ كما يَشاءُ بعبادِه؛ لقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ...﴾ ﴿... وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تقويةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وأنَّه مهما حاولَ هؤلاءِ أنْ يُصيبوه بضررٍ فإنَّهم لا يَملِكون ذلك، إذا لم يَكُنِ اللهُ أرادَه(٤).

٣- قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا يجوزُ للعاقلِ أنْ يتَّخذَ غيرَ اللهِ وليًّا؛ وذلك لأنَّ الضرَّ اسمٌ للألمِ والحُزنِ والخوفِ، وما يُفضي إليها أو إلى أحدِها، والنَّفع اسمٌ للَّذَّة والسُّرورِ وما يُفضي إليهما أو إلى أحدِهما،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والخير اسمٌ للقَدْرِ المشترَكِ بين دفْع الضرِّ وبين حُصولِ النَّفع؛ فإذا كان الأمرُ كذلك، فقد ثبَت الحصرُ في أنَّ الإنسان إمَّا أنْ يكونَ في الضرِّ أو في الخير؛ لأنَّ زوالَ الضرِّ خيرٌ، سواءٌ حصَل فيه اللَّذةُ أو لم تَحصُل، وإذا ثبَت هذا الحصرُ، فقد بيَّن اللهُ تعالى أنَّ المَضارَّ- قليلَها وكثيرَها- لا تندفِعُ إلَّا بالله، والخيراتِ لا يحصُل قليلُها وكثيرُها إلَّا باللهِ تعالى[1].

٤- مِن أدلَّةِ توحيدِه عزَّ وجلَّ: أنَّه تعالى المنفردُ بكَشفِ الضَّرَّاء، وجَلْب الخيرِ والسَّرَّاء؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ مِن فقرٍ أو مرضٍ، أو عُسرٍ، أو غمٍّ أو همٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإذا كان هو وحْدَه النافعَ الضارَّ، فهو الذي يَستحقُّ أنْ يُفرَدَ بالعُبوديَّة والإلهيَّة[2].

٥- إثباتُ الفَوقيَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِه: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وهي فوقيَّةُ ذاتٍ وقدْرٍ وقهْرٍ[3].

٦- إثباتُ العبوديَّةِ لجميعِ الخَلقِ؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهذه هي العبوديَّةُ الكونيَّة؛ فكلُّ الخَلقِ عِبادُ الله عزَّ وجلَّ، يَفعل فيهم ما يَشاءُ، ولا يُمكن لأيِّ أحدٍ: برًّا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا، أن يَستعصيَ على ربِّه عزَّ وجلَّ مِن هذه الناحيةِ[4].

٧- ممَّا يُستفادُ مِن مجيءِ قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أنَّه لَمَّا كان في القَهرِ ما يكونُ مذمومًا، نفاهُ بقوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: وحْدَه ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ فلا يُوصلُ أثرَ القهرِ بإيقاعِ المكروهِ إلَّا لمستحِقٍّ، وأتمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٣- ٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٦).

المعنى بقولِه: ﴿الْخَبِيرُ﴾، أي: بما يستحقُّ كلُّ شَيءٍ، فتمَّتِ الأدلَّةُ على عظيمِ سُلطانِه(١).

٨- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فقرَنَ اللهُ تعالى هنا بين الحكيمِ والخبيرِ؛ ليعلمَ الناسُ أنَّ حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ عن خِبرةٍ وعِلمٍ ببواطنِ الأمورِ؛ وعلى هذا فقدْ تكون الحكمةُ خفيَّةً على كثيرٍ مِن النَّاس؛ لأنَّه لا يُدرِكُ الحِكمةَ إلَّا مَن كان خبيرًا، ففي قرْنِ هذينِ الاسمينِ فائدةٌ، وهي أنَّ الحكمةَ قد تكونُ خَفيَّةً لا يَعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ(٢).

٩- إطلاقُ اسمِ (الشَّيء) على اللهِ تعالى؛ لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ اسمَ الاستفهامِ إذا أُضيفَ إلى كَلمةٍ، صارتْ هذه الكلمةُ صادقةً على جوابِ الاستفهامِ، وهنا جوابُ الاستفهامُ ﴿اللهُ﴾، فيكونُ اللهُ تعالى شَيئًا، فيُخبَرُ بكلمةِ (شيء) عن اللهِ، ولكن لا يُسمَّى به؛ فالله تعالى له الأسماءُ الحُسْنى، وكَلمةُ (شيء) لا تدلُّ على هذا المعنى(٣).

١٠- في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ اقتُصِرَ على جَعْلِ عِلَّة نُزولِ القرآنِ للنِّذارةِ، دون ذِكرِ البِشارة؛ لأنَّ المخاطَبين في حالِ مُكابرتِهم التي هي مقامُ الكلامِ لا يُناسِبُهم إلَّا الإنذارُ؛ فغايةُ القرآنِ بالنسبةِ إلى حالِهم هي الإنذارُ(٤).

١١- أنَّ مَن بلَغَه القُرآنُ فقد قامتْ عليه الحُجَّة؛ لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(٥)، فكلُّ مَن بلَغَه هذا القرآنُ من النَّاس بلُغةٍ يَفهمُها، ويَحصُل منها محتواه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٨).

فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ به، وبلَغَه الإنذارُ، وحقَّ عليه العذابُ إنْ كذَّب بعدَ البلاغِ(١).

١٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ أحكامَ القرآنِ تَعمُّ الموجودِينَ وقتَ نُزولِه ومَن بَعدَهم، وأنَّه لا يُؤاخَذُ بها مَن لم يَبلُغْه(٢).

١٣- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أنَّه يجبُ على عُلماءِ المسلمينَ أنْ يُبلِّغوا القرآنَ كلَّ أحدٍ؛ لأنَّهم وَرَثةُ الأنبياءِ، ولكن مَن لم يَكُن لسانُه عربيًّا، فإنَّه يُبلَّغُ معنى القرآنِ بلِسانِه، ثم يُعطَى القُرآنَ، فيَقرؤه باللَّفظِ العربيِّ إذا أسْلَم(٣).

١٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ النصُّ على عُمومِ بَعثةِ خاتَمِ الرُّسلِ عليه أفضلُ الصَّلاةُ والسَّلام(٤).

١٥- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ سَفَهُ أولئك المشركين الذين يَشهدون أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرى، ولو سُئِلوا عنها: أتَخلُقُ شيئًا؟ لقالوا: لا، وهذا مِن سَفهِهم؛ أنْ يَعبدوا مَن لا يَخلُقُ(٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- في قولِه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ نابَ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٢).

الضرُّ مَنابَ الشرِّ- وإنْ كان الشرُّ أعمَّ منه- فقابَلَ الخيرَ[١]، ونُكتةُ المقابلةِ أنَّ الضرَّ مِن اللهِ تعالى ليسَ شَرًّا في الحَقيقةِ، بل هو تَربيةٌ واختبارٌ للعَبدِ، يَستفيدُ به مَن هو أهلٌ للاستفادةِ أخلاقًا وآدابًا وعِلمًا وخبرةً[٢].

وقيل: قابَل قولَه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بقولِه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مُقابلةً بالأعمِّ؛ لأنَّ الخيرَ يَشملُ النَّفْعَ- وهو الملائمُ- ويَشملُ السَّلامةَ من المنافِرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المرادَ من الضرِّ ما هو أعمُّ، فكأنَّه قيل: إنْ يَمسَسْك بضُرٍّ وشرٍّ، وإنْ يَمسَسْك بنَفعٍ وخيرٍ؛ ففي الآيةِ احتباكٌ[٣].

وقيل: ناب هنا الضُّرُّ عن الشرِّ، وعدَل عن الشرِّ الذي يُقابِلُ الخيرَ؛ لأنَّ الشرَّ أَعمُّ مِن الضُّرِّ، فأُتِيَ بلفظِ الضرِّ الذي هو أَخصُّ، وبلفظِ الخيرِ الذي هو عامٌّ مُقابلٌ لعامٍّ؛ تَغليبًا لجهةِ الرَّحمة[٤].

- وقُدِّمَ مَسُّ الضرِّ على مَسِّ الخيرِ في قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ لمناسبةِ اتِّصالِ مَسِّ الضرِّ بما قَبْلَه مِن التَّرهيبِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وأيضًا بدَأَ بذِكرِ الضُّرِّ؛ لأنَّ كَشْفَه مُقدَّمٌ على نَيلِ مُقابِلِه، كما أنَّ صَرْفَ العذابِ في الآخرةِ مُقدَّمٌ على النَّعيمِ فيها[٥].

- وجاءَ جوابُ الشرطِ الأوَّلِ بالحَصرِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٣).

وينظر تعريف الاحتباك في تفسير سورة البقرة (١/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩).

مبالغةً في الاستقلالِ بكشْفِه؛ إشارةً إلى استقلالِه بكَشْفِ الضُّرِّ دونَ غَيرِه، وجاءَ جواب الشَّرْطِ الثاني بقولِه تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ إشارةً إلى قُدرتِه الباهِرةِ، فيَندرجُ فيها المسُّ بخَيرٍ وغيرِه(١).

٢- قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يُفيد الحَصرَ والقصرَ، ومعناه: أنَّه لا مَوصوفَ بكَمالِ القُدرةِ، وكَمالِ العِلمِ إلَّا الحقُّ سبحانه، مع عُلوِّه وفَوقيَّتِه؛ حيثُ أَبطلتْ هذه الآيةُ أنْ يكونَ غيرُ اللهِ قاهرًا على أحدٍ، أو خبيرًا أو عالِمًا بإعطاءِ كلِّ مخلوقٍ ما يُناسِبُه، ولا جرَمَ أنَّ الإلهَ تجبُ له القُدرةُ والعِلم، وهما جِماعُ صِفاتِ الكمالِ، كما تجبُ له صفاتُ الأفعالِ مِن نفْعٍ وضرٍّ، وإحياءٍ وإماتةٍ(٢).

- وهذه الآيةُ تتنزَّلُ مِن التي قَبلَها مَنزِلةَ التَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ؛ لأنَّ التي قبلها ذَكرتْ كمالَ تصرُّفه في المخلوقاتِ، وجاءتْ به في قالَبِ تثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذه الآيةُ أَوْعَتْ قُدرتَه على كلِّ شيءٍ، وعِلمَه بكلِّ شيءٍ، وذلك أصلُ جميعِ الفِعل والصُّنع، وقد أفاد تعريفُ الجزْأَين القصرَ، أي: لا قاهرَ إلَّا هو؛ لأنَّ قهرَ اللهِ تعالى هو القهرُ الحقيقيُّ الذي لا يجِد المقهورُ منه مَلاذًا؛ لأنَّه قهرٌ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ خَلْقَ ما يُدافِعها، وممَّا يُشاهَد منها دومًا: النومُ وكذلك الموتُ؛ سبحان مَن قهرَ العبادَ بالموتِ(٣).

٣- قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستِفهامُ فيه على جِهَةِ التَّقريرِ والتَّوقيفِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٦- ٤٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٦).

- وتكريرُ كَلِمة (بَيْن)؛ لتحقيقِ المقابلةِ، وللتأكيدِ؛ حيث كرَّر اللهُ تعالى كلمة (بين) في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وكان الأصلُ أنْ يقول: (قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيننا)[١].

٤- **قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾** في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حُذِفَ فاعِلُ الوحيِ، وبُنِي فِعلُه ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعولِ؛ للعلمِ بالفاعلِ الذي أوحاه إليه، وهو اللهُ تعالى[٢]، وفيه حَذْفٌ في قوله ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ والتقدير: ومَنْ بلَغَه هذا القرآنُ[٣].

٥- **قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾**

- في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ للتقريعِ لهم والتوبيخِ، وهو يُفيدُ إنكارينِ؛ أحدُهما صريحٌ بأداةِ الإنكار، والآخَرُ كِنائيٌّ بلازمِ تأكيدِ الإخبارِ؛ لغرابةِ هذا الزعمِ بحيثُ يَشكُّ السَّامعُ في صدورِه منهم[٤].

- وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ فيه تأكيدُ الخَبر بـ(إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ ليُفيدَ أنَّ شهادتَهم هذه ممَّا لا يَكادُ يُصدِّقُ السَّامِعونَ أنَّهم يَشهَدونها؛ لاستبعادِ صُدورِها مِن عُقلاءَ؛ فاحتاجَ المخبِرُ عنهم بها إلى تأكيدِ خَبرِه بمُؤكِّدَينِ[٥].

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فيه تأكيدٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٩- ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٩).

علَى إيجابِ التَّوحيدِ، والبَراءةِ عن الشِّركِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ التي تُفيدُ الحصرَ، ولفظِ ﴿وَاحِدٌ﴾ الصريحِ في التوحيدِ، ونفْيِ الشُّركاءِ، وقولِه: ﴿إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الذي فيه تصريحٌ بالبراءةِ عن إثباتِ الشُّركاءِ؛ أو البراءةِ مِن إشراكِهم، وهو كالتوكيدِ لِمَا قبلَه؛ فثبَتَتْ دَلالةُ هذه الآيةِ على إيجابِ التوحيدِ بأعظمِ طُرقِ البيانِ، وأبلغِ وجوهِ التَّأكيدِ[١].

- وفي هذه الآيةِ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ...﴾ تكريرٌ للأمْرِ بقولِه: ﴿قُلْ﴾ أربعَ مرَّات؛ لتأكيدِ التبليغِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٠).

الآيات (٢٠ - ٢٤)

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿افْتَرَى﴾: أي: اختَلَق وكذَب، والافتراءُ الاختلاقُ، ومنه قِيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ(١).

﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: أي: نَسوقُهم ونَجمَعُهم، والحشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمْعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجَمْعِ بكثرةٍ(٢).

﴿تَزْعُمُونَ﴾: أي: تكذِبون، والزَّعم غالبًا هو حِكايةُ قولٍ ما، يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، أو اعتقادُ الباطِل بتقوُّلٍ، وقدْ يكونُ الزَّعم حَقًّا، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غيرِ صِحَّةٍ ولا يقينٍ(٣).

﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: أي: مَقالَتُهم وحُجَّتُهم، أو بَلِيَّتُهم التي أَلزمتْهم الحُجَّةَ، وزادتْهم لائمةً، والفتنةُ تُطلَق على: الشِّركِ والكُفرِ، والشرِّ والعذابِ، وهي في الأصل:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٣/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٨).

الاختبارُ والابتلاءُ والامتحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذهبِ النَّارَ؛ لتظهرَ جَودتُه مِن رداءتِه(١).

﴿وَضَلَّ﴾: أي: وذَهَب، والضَّلالُ: العُدولُ عن الطريقِ المستقيمِ، وضياعُ الشيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾

﴿لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قُرِئ (تكن) و (يكن) بالتَّاءِ وبالياءِ، وقُرِئت ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرَّفْع والنَّصب في كلٍّ مِنهما؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعرابِ؛ فـ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ على الرَّفعِ هي اسمُ كان، والخبر قوله: ﴿أَنْ قَالُوا﴾ الذي هو مصدرٌ مُؤوَّل بمعنى (قولهم)، وعلى نصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ فهي خبرُ كان مُقدَّم، و﴿أَنْ قَالُوا﴾ اسمُ كانَ مُؤخَّر. وعلى قِراءة ﴿تَكُنْ﴾ بالتاءِ ورفْع الفتنةِ يكونُ تأنيثُ الفِعلِ مُراعاةً لِتأنيثِ لفظِ الفِتنة، وعلى قِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ مع رفْع ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ فيكونُ تذْكِير الفِعل؛ لأنَّ تأنيثَ الفتنةِ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ الفتنةَ هنا بمعنى القَول؛ فحَمَلَه على المعنى فذَكَّره.

وعلى قِراءة ﴿تَكُنْ﴾ بالتَّاءِ ونصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ يكونُ تأنيثُ الفِعلِ مُراعاةً لمعنى ﴿أَنْ قَالُوا﴾؛ لأنَّه بمعنى المقالةِ والفِتنةِ، وعلى قِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ مع

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩،٩٤، ١٣٩، ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٦).

نصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾، فيكونُ تذكيرُ الفِعل؛ لإسنادِه إلى مُذكَّرٍ؛ لأنَّ ﴿أَنْ قَالُوا﴾ بمعنى القَولِ، أي: قَولُهم.

وقِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ، و﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ بالنَّصبِ، هي أوضحُ هذه القِراءاتِ؛ لإجرائِها على القواعِدِ مِن غيرِ تأويلٍ؛ لأنَّ الأحسنَ جَعْلُ الأعرفِ اسمًا مُحَدَّثًا عنه، وجَعْلُ الأقلِّ تعريفًا خبرًا حديثًا عنه، والأعرفُ هنا ﴿أَنْ قَالُوا﴾ لأنَّه في منزلةِ الضَّميرِ، والضَّميرُ أَعْرَفُ المعارفِ بَعْدَ اسْمِ اللهِ تعالى، والفِتنةُ دونه في التَّعريفِ؛ لأنَّها تعرَّفتْ بإضافتِها إلى المُضمَرِ؛ فهي دونَ تعريفِ ﴿أَنْ قَالُوا﴾ بكثيرٍ، ولأنَّ ﴿يَكُنْ﴾ بالتذكير على الأصلِ؛ لأنَّها عائدةٌ إلى مُذَّكرٍ، وهو ﴿أَنْ قَالُوا﴾، أي: قَولُهم[1].

٢- قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ على أنه مفعول به لفِعلٍ مُضمَرٍ، أي: واذْكُرْ- يا محمَّدُ- يومَ نَحشُرهم، وقيل: انتصَب بـ (نقول) مُضمرةً[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ مِن اليهودِ والنَّصارى يَعرِفونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما يَعرِفُ الواحدُ منهم ابنَه، والذين خَسِروا أنفُسَهم كلَّ الخَسارةِ هُم الَّذينَ كَفضروا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفاتَهم الإيمانُ به وبرسالتِه.

ثمَّ بَيَّن تعالى أنَّه لا أَحدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن افترَى على اللهِ تعالى كذِبًا، أو مَن كذَّبَ بحُجَجِه وبَراهينِه، إنَّه لا يُفلِحُ الظَّالِمون أبدًا.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٧٢- ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٧).

ويَومَ يَحشُرُهم اللهُ جميعًا ثمَّ يَسألُ المشركينَ: أينَ شُركاؤُهم الذين كانوا يَزعُمونَ أنَّهم آلهةٌ مع اللهِ تعالى؟! ثمَّ بعدَ هذا السؤالِ لم يَكُن جوابُهم حِينَ اختُبِروا وامتُحِنوا به إلَّا أنَّهم حَلَفوا بربِّهم ما كانوا مُشرِكين.

ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يتأمَّل كيف كذَبَ هؤلاءِ المشرِكون على أنفُسِهم يومَ القِيامةِ، وغابَ عنهم شُركاؤُهم الذين زَعَموهم مع اللهِ تعالى، فلمْ يَنفعوهم بشَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ﴾.

أي: الذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ مِن اليَهودِ والنَّصارَى يَعرِفونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما يَعرِفُ أحدُهم ابنَه، دون أدْنَى شَكٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٥٩)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ٤٠٠)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٥)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة الأنعام)) (ص:١١٤).
وممَّن قال مِن السَّلف بهذا القولِ: قتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢٧٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥).
واختار ابنُ جرير، والسعديُّ أنَّ المرادَ يعرفون أنَّه لا إله حقٌّ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).
وممَّن قال بهذا مِن السَّلف: قتادةُ في روايةٍ أُخرى عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢٧٣).
ورجَّح ابنُ عاشور أنَّ المرادَ: يَعرِفونَ أنَّ القرآنَ حقٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧١).

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: الَّذين أَهْلَكوا أنفُسَهم، وألْقَوْها في نارِ جَهنَّمَ؛ بإنكارِهم أنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ تعالى، وهم بحَقيقةِ ذلك عارِفون، قد خَسِروا كلَّ الخَسارةِ؛ إذ لَمَّا أَعْرَضوا عن ذلِك فاتَهُم الإيمانُ الحقيقيُّ، الذي هو سببُ الفوزِ في الدُّنيا والآخِرة(١).

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ خُسرانَ المُنكِرينَ في الآيةِ الأُولى؛ بَيَّن في هذِه الآيةِ الكريمةِ سَببَ ذلك الخُسرانِ، وهو أمران؛ أحدُهما: الافتراءُ على اللهِ كَذِبًا، الأمْرُ الثَّاني من أسبابِ خَسارتِهم: تكذيبُهم بآياتِ اللهِ تعالى، وقَدْحُهم في مُعجزاتِ محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وإنكارُهم كونَ القرآنِ العظيمِ مُعجزةً قاهرةً منه(٢)، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن تقوَّلَ على اللهِ تعالى، كمَن زعَمَ أنَّ له شَريكًا، أو كذَّبَ بحُجَجِه وأعلامِه، ومِن ذلك ما أعطاهُ لرُسلِه من الأدلَّةِ على صِدْقِهم(٣).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) ص: ١١٦-١١٨).

أي: إنَّ كلَّ ظالمٍ لا يُفلِحُ أبدًا، ومنهم القائِلون على اللهِ تعالى الباطِلَ، والمكذِّبون بآياتِه عزَّ وجلَّ[1].

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أنَّهم أكذبُ الناسِ، دلَّ عليه بكَذِبِهم يومَ الحشرِ بعدَ انكشافِ الغطاءِ[2]، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: ويومَ يَجمعُ اللهُ تعالى جميعَ المشرِكين، والمفترِين على اللهِ كَذِبًا، والمكذِّبين بآياتِه[3].

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكين- تَوبيخًا وتقريعًا لهم- إذا جمعْناهم: أينَ شُركاؤُكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

اختار بعضُ المفسِّرين أنَّ (يوم) متعلقةٌ بما قبلَها على معنى: إنَّه لا يُفلح الظالمون في الدُّنيا ولا يوم نحشرُهم. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨).

واختار بعضُهم أنَّ (يوم) متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: واذكرْ يومَ نحشرُهم. على معنى أنَّ قولَه سبحانه: ﴿لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ كلامٌ تامٌّ معناه، و ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ، وهذا اختيارُ الواحديِّ، وابنِ عثيمينَ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

قال ابنُ عثيمينَ: (أي: اذكرْ لهم، ويجوزُ أن نقولَ: اذكرْ في نفسِك حتى تتسلَّى بهذه الذِّكرَى، ويهونَ عليك أمرُهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

الذين كنتُم تدَّعون أنَّهم آلهةٌ مع اللهِ سبحانه(١)؟

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا﴾ بنَصْبِ ﴿رَبَّنَا﴾ على النِّداءِ، بمعنى: واللهِ يا ربَّنا، وفيه معنى الخُضوعِ والتضرُّعِ للهِ تعالى(٢).

٢- قِراءة ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ بجرِّ ﴿رَبِّنَا﴾ على النَّعْتِ للهِ عزَّ وجلَّ، والثناءِ(٣).

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمَّ بَعدَ هذا السؤالِ لم يَكُنْ جوابُهم عليه حِين اختُبِروا وامتُحِنوا بِه، إلَّا إنكارَهم لشِركِهم، وحَلِفَهم أنَّهم ما كانوا مُشرِكين(٤).

كما قال تعالى عن المنافِقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦-١٢٧).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٩-١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٦).

وعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قال رجلٌ لابنِ عبَّاسٍ: إنِّي أَجِدُ في القرآنِ أشياءَ تَختلِفُ عليَّ؟ قال:... ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقدْ كتَموا في هذه الآيةِ؟... فقال ابنُ عبَّاس: وأمَّا قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فإنَّ اللهَ يغفرُ لأهلِ الإخلاصِ ذُنوبَهم، وقال المشركون: تَعالَوْا نقولُ: لم نكُنْ مُشركين، فخُتِمَ على أفواهِهم، فتَنطِقُ أيديهم، فعندَ ذلك عُرِفَ أنَّ اللهَ لا يُكتَمُ حديثًا، وعندَه: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيةَ[١] [البقرة:١٠٥].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: انظُرْ بقلبِك- يا محمَّدُ- وتأمَّلْ كيفَ كذَب هؤلاءِ المشرِكون في الآخِرةِ على أنفسِهم بنَفيِهم الشِّركَ عنها، فكَذَبوا كذِبًا يعودُ بالخُسرانِ والضَّررِ عليها[٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وغابَ عنهم الشُّركاءُ الذين زَعموهم مع اللهِ سبحانه وتعالى، وبَطلَتْ دعواهم فيهم؛ فلم يُغنوا عنهم شيئًا[٣].

---

(١) أخرجه عبدُ الرزَّاق في ((التفسير)) (٥٨٨)، والطبري في ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٧١٨٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ٢٤٥) (١٠٥٩٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣١٩٨)، وأخرجه البخاريُّ (٦/ ١٢٧) معلَّقًا بصيغةِ الجزم.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ (٣١٩٨)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٠٩)، وقال ابنُ حجرٍ في ((تغليق التعليق)) (٤/ ٣٠١): له متابعةٌ بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٧-١٢٨).

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣- ٧٤].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن أن يَفتريَ الإنسانُ على اللهِ تعالى الكذبَ؛ لأنَّه بيَّنَ أنَّه في المرتبةِ العُليا من الظُّلم؛ ومِن الافتراءِ على الله كذِبًا: أنْ يجعلَ العبدُ لله تعالى صاحبةً أو ولدًا، أو يتَّخِذَ مَعَهُ شريكًا، ومن الافتراء: أنْ يكْذِبَ الإنسانُ على ربِّه عزَّ وجلَّ في مدلولِ آياتِه، فيقول: أراد اللهُ بكذا، كذا وكذا. هذا كذبٌ على اللهِ، ومِن ذلك: أنْ يفتريَ على الله كذِبًا في أحكامِه فيقول: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[1] [النحل: ١١٦].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وجوبُ التَّصديقِ بكلِّ آياتِ الله الكونيَّةِ والشرعيَّة؛ وجه ذلك: أنَّ (آيات) مضافةٌ، والجمع إذا أُضيفَ يُفيدُ العمومَ، ويتفرَّع على هذا: أنَّ مَن آمَن ببعضٍ، وكفَر ببعضٍ، فقدْ كفَر بالجميع، فلا يُعَدُّ مؤمنًا؛ لأنَّه يوجدُ بعضُ الناسِ يُؤمِن ويُصدِّقُ بما يرَى عقلُه أنَّه حقٌّ، ويُكذِّب بما يرى أنَّه ليس بحقٍّ، أو يُؤمنُ بما يرَى أنَّه مناسبٌ، ويَكفُر بضدِّ ذلك، وهؤلاء بَيَّن الله حُكْمَهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٠).

يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا...﴾[١] [النساء: ١٥٠- ١٥١].

٣- في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بُشرَى للمظلومينَ مِن أنَّ الظالِمَ لا يُفلِحُ؛ فيُبشَّر المجاهِدون بالنَّصرِ، وبأنَّ مآلَ مَن جاهدَهم الخِذلانُ، ويُبشَّر مَن ظُلِمَ بأخْذِ مالِه أو جَحْدِ مالِه، وما أشبهَ ذلك بأنَّ هذا الظالمَ لن يُفلِحَ[٢].

٤- التحذيرُ مِن الظُّلم، وأنَّ عاقبتَه الخَسارةُ والدَّمارُ؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

٥- التحذيرُ من الشِّركِ؛ لأنَّ المشركينَ سوف يُوبَّخونَ ويُقرَّعونَ في يومٍ لا يَستطيعُونَ الخلاصَ فيه؛ حيث يُقال لهم في هذا المَجمعِ العَظيمِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ الحُجَّةَ قائمةٌ على اليهودِ والنصارى في صِحَّةِ بَعثةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾[٥].

٢- أنَّه يَنبغي أنْ يُضرَبَ المَثَلُ بأقربِ مُطابِقٍ للمُمثَّلِ؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ لأنَّ هذا أقربُ إلى التصوُّرِ وإلى الصِّدقِ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فيه أنَّ الظُّلمَ يَختلِفُ؛ بعضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لأنَّ المعاصيَ تختلِفُ؛ بعضُها أعظمُ من بعضٍ، فهناك كبائرُ، وهناك صغائرُ، والكبائرُ نفسُها تَختلِفُ، فهناك أكبرُ مِن الكبائرِ، وما دونها، والصَّغائرُ كذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨، ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٥).

تختلِفُ، وكلُّ فِعلٍ مُحرَّمٍ، أو ترْك واجبٍ ظلمٌ، وإذا كان يتفاوتُ لزِمَ من ذلك تفاوتُ الأعمالِ(١).

٤- مع عِظَمِ ظُلمِ مَن كذَّب بآياتِ الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، فإنَّه لا يُحكَمُ بظُلمِه، أو بكونِه في المرتبة العليا إلَّا إذا تبيَّنتْ له الآياتُ؛ لقوله: ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا تَبيَّن لهم ما يتَّقون حَكَمَ بضلالِهم سبحانه وتعالى، وإلَّا فَهُم في عُذرٍ(٢).

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ...﴾ ما الجمعُ بَينَ هذه الآيةِ الكريمةِ وبينَ نُصوصٍ أخرى يَرِدُ فيها مِثلُ هذه العبارةِ في ذَنبٍ آخَرَ غيرِ هذا، وتدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفِعلَ أظلمُ شيءٍ؛ مثل قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧]، وقوله في هذِه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ فكيفَ نَجمعُ بين هذه النُّصوصِ؟

والجوابُ مِن أحدِ وجهينِ: الأول: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا من الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّة، فأفعل التفضيل لا تمنع التساوي ولكنها تمنع الزيادة. وعلى ذلك فلا مُعارَضَةَ ألبتَّةَ بينَ الآياتِ، فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم متساوونَ في مرتبةِ الظُّلْم. الوجه الثاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصصُ بصِلاتِها. ومعنَى (تتخصصُ بصِلاتِها): أنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صلةُ موصُولِه، أي أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢١).

المعنَى: لا أحدَ مِنَ المفْتَرِينَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ اللَّهِ، ولاَ أحدَ مِنَ المعْرِضِينَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عنه... إلخ[1].

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قد نفَى فلاحَهم، فعمَّ كلَّ فلاحٍ في الدُّنيا والآخِرة؛ فإنَّ الفلاحَ المعتدَّ به في نظرِ الدِّينِ في الدُّنيا هو الإيمانُ والعملُ، وهو سببُ فلاحِ الآخِرَة[2].

٧- ما الجَمعُ بَينَ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والواقعِ؛ لأنَّنا نرَى أنَّ الظالمَ قد يُفلحُ؟

الجواب: الجمعُ بينها وبينَ الواقِعِ: أنْ يُقال: الفلاحُ نوعان؛ فلاحٌ مُطلَقٌ، وهذا لا يُمكن للظالمِ أبدًا، ودليلُ هذا قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظالمِ حتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه))، وتلا قولَه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[3]، فلا بدَّ أنْ يخسرَ الظالم، ولا بدَّ، طالتِ الدُّنيا أم قَصُرتْ؛ فمَن كان ظالِمًا بمبدأٍ مِن المبادِئ؛ فلا بدَّ أنْ يَنخذِلَ هذا المبدأُ حتَّى بعدَ موتِه، وإذا كان خاصًّا، فإنَّه وإنْ لم يَحصُل له ذلِك في الدُّنيا حسَبَ ما نَرى فهو في الآخِرَةِ، وربَّما يكونُ في قَلبِ الظالمِ أشياءُ لا نَدري عنها يُبتلَى بها، مِن ضِيقِ الصَّدرِ، وكراهةِ الحقِّ، وما أشبهَ ذلك.

أمَّا الفلاحُ المقيَّدُ بمعنى أن يُفلِحَ في زمَنٍ معيَّنٍ، أو مكانٍ معيَّن، أو قضيَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢- ١٢٣).

والوجهُ الأوَّل مخرجٌ على قاعدةِ: (نفيُ التفضيلِ لا يستلزمُ نفيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

معيَّنة، فهذا يُمكن أنْ يَقعَ، ولا يُخالِفُ الآيةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدْ يُعطي الظالمَ فلاحًا؛ حتَّى يَغترَّ بهذا الفلاحِ فيتمادَى في طُغيانِه، ثمَّ يَقصِمُ اللهُ ظَهرَه(١).

٨- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيه تسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيثُ ذُكِرَ له مآلُ المكذِّبين له(٢).

٩- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّ الحَشرَ عامٌّ شاملٌ لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، لا مؤمِنٌ ولا كافرٌ، ولا برٌّ ولا فاجرٌ؛ حيثُ أكَّده اللهُ عزَّ وجلَّ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾(٣).

١٠- في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ إثباتُ القولِ للهِ، وأنَّه بحروفٍ مسموعةٍ معقولةٍ، وبصوتٍ لا يُشبِهُ صوتَ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٤) [الشورى: ١١].

١١- قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأصنامَ لا تَنفعُ عابِدِيها؛ لأنَّها لا تَنصُرهم في هذا الموقِف، بل قدْ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(٥) [الأنبياء: ٩٨].

١٢- أنَّ أولئك العابِدينَ لهذه الأصنامِ ليس عِندَهم حُجَّةٌ ولا بُرهان، وإنَّما هي مُجرَّدُ دعوى لقولِه: ﴿تَزْعُمُونَ﴾، والزعمُ في الغالِبِ يكونُ في قولٍ لا دليلَ عليه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٣، ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٣- في قولِه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أنَّ المشركين يُكذِّبون يومَ القيامةِ حِين يَطَّلعونَ على حقائقِ الأمورِ، بالرَّغمِ مِن كونِ الكذبِ والجحودِ لا وَجْهَ لمنفعتِه؛ لأنَّ المُمتحَنَ يَنطِقُ بما يَنفعُه وبما لا يَنفعُه، من غيرِ تمييزٍ بينهما؛ حيرةً ودهشةً، وكذِبُ الكفَّارِ في الآخِرة ثابتٌ بمِثل قولِه تعالى:﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1] [سورة المجادلة: ١٨].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ فيه تشبيهُ المعرفةِ بالمعرفةِ، ووجهُ الشَّبهِ هو التَّحققُ والجزمُ بأنَّه هو الكتابُ الموعودُ به- على أحَدِ أوجُهِ التَّأويلِ-، وإنَّما جُعِلتِ المعرفةُ المشبَّهُ بها هي معرفةَ أبنائِهم؛ لأنَّ المرءَ لا يَضِلُّ عن معرفةِ شخصِ ابنِه وذاتِه إذا لقِيَه، وأنَّه هو ابنُه المعروفُ؛ وذلك لكثرةِ مُلازمةِ الأبناءِ آباءَهم عُرفًا[2].

٢- قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ استئنافٌ لزيادةِ إيضاحِ تَصلُّبِ المشرِكين وإصرارِهم، وهذا مِن التَّكريرِ للتسجيلِ، وإقامةِ الحُجَّةِ، وقطْعِ المعذرةِ، وأنهم مصرُّون على الكفر، حتَّى ولو شَهِدَ بصِدقِ الرسول أهلُ الكتاب[3].

٣- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: الاستفهامُ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تَقريريٌّ لظُلمِهم بافتراءِ الكَذبِ على اللهِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا الوجهُ المذكورُ هو على القول بأنَّ المرادَ بـ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هم المشركون.

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٢).

- وفي هذه الآيةِ مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ بدأَ الآيةَ هنا بالواو ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وبدَأَها في يونسَ بالفاءِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لأنَّ المتقدِّمَ على هذِه الآيةِ في سورة الأنعامِ مَعطوفٌ بالواو، بخِلافِ ما في سُورةِ يونس، فإنَّ المتقدِّمَ قبلَها سَببٌ لها، ومعطوفٌ بالفاءِ؛ فناسَب فيها ما ذُكِر؛ فما تَقدَّم آيةَ سورةِ الأنعامِ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ جُمَلٌ عُطِف صدورُ بعضِها على بعضٍ بالواو، ولم تَتعلَّق الثانيةُ بالأولى تعلُّقَ ما هو مِن سببِها، فأجْرَى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ مَجراها، وعَطَف بالواوِ عليها. وأمَّا الآيةُ في سورة يونس فإنَّ ما قَبلَها عُطِف بعضُها على بعضٍ بالفاءِ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، فتَعلَّق كلُّ ما بعدَ الفاءِ بما قَبْلَه تَعلُّقَ المسبَّبِ بسَببِه، فهذا موضعُ الفاء؛ وكلُّ موضعٍ في القرآنِ يكونُ بعدَ هاتينِ الآيتينِ بالواو أو بالفاءِ فيُعتبَرُ بما ذُكِرَ هنا؛ فناسَب العطف بالواو في سورة الأنعامِ، وبالفاءِ في سورة يونس.

- وأيضًا مِن المناسبةِ الحَسنةِ أنْ ختَم آيةَ الأنعامَ بقوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ وختَم آية يونس بقولِه: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنَّه في الآيةِ الأولى في الأنعامِ لَمَّا قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا..﴾ وكان المعنى: أنَّه لا أحَدَ أظلَمُ لنفْسِه ممَّن وصَفَ اللهَ تعالى بخِلافِ وصْفِه، فأَوْرَدَها العذابَ الدَّائِمَ، كان قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ عائدًا إلى مَن فَعَل هذا الفعلَ - أي: لا يَظفَر برحمةِ اللهِ، ولا يفوزُ بنجاةِ نفْسِه مَن كان ما ذُكِر مِنْ فِعلِه-؛ فبناءُ الآخِرِ على الأوَّلِ اقتَضى أنْ يكون: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. وأمَّا الآيةُ الثانية في سُورةِ يونس فختَمَها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنَّها تَقدَّمَتْها الآيةُ التي تَضمَّنتْ وصْفَ هؤلاءِ القومِ بما عاقبَهم به؛ حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، فوصَفَهم بأنَّهم مُجرِمون عندَ تعليقِ الجزاءِ بهم، وقال بعده: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ...﴾ إلى الموضِعِ الذي أَبطلَ فيه حُجَّتَهم ودفَعَ سؤالَهم، وهو ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٤- ١٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ ليُعلمَ أنَّ هؤلاءِ سبيلُهم في الضَّلالِ سبيلُ القومِ الذين أَخْبَرَ عن هَلاكِهم، وقال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]؛ ليُوقِعَ التَّسْويةَ بينهم في الوَصفِ كما أوْقعَ التسويةَ بينهم في الوعيدِ.

وأيضًا لَمَّا كان قولُ فُصحاءِ العربِ العالِمين بمقاطِعِ الكلامِ، وجليلِ النَّظْمِ وعَلِيِّ البلاغةِ: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ مع عِلمِهم بعَلِيِّ فصاحتِه، واعترافِهم بالعجزِ عنه- لَمَّا كان قولُهم هذا فيه الجَمْعُ بين إنكارِ ما عَلِموا صِدقَه، ممَّن عرَفوا على حالِه وجليلِ مَنصبِه، وبَينَ قولِهم في إنكارهم: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ فلا أَظلمَ مِن هؤلاءِ، ثم في إنكارِهم وقولِهم: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أعظمُ إقدامٍ، وأوضحُ إجرامٍ؛ لأنَّه كُفرٌ على عِلمٍ؛ فلهذا أُعقِبتِ الآيةُ هنا بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يَقَعْ قبل التي في سورةِ الأنعامِ مِثلُ هذا الإقدامِ على مِثلِ هذه الجريمةِ في القَولِ، وإنَّما تَقدَّم عَداوتُهم وظُلمُهم أنفسَهم في مُرتَكَباتِهم وتَعامِيهم، فناسَبَه قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. وقيل غيرُ ذلِك في هذه المناسَبةِ[١].

- والجَمْعُ بين الأمرَينِ: الافتراءِ على اللهِ الكذبَ، أو التكذيبِ بآياتِ اللهِ في قوله: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ للتنبيهِ على أنَّ كُلًّا منهما

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٤٩٨- ٥٠٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦١-١٦٢).

وحْدَه بالغٌ غايةَ الإفراطِ في الظُّلم على النفس(١).

- وقوله: ﴿كَذِبًا﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ للافتراءِ، وهو أعمُّ منه(٢).

- قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ(٣)، والضميرُ في ﴿إِنَّه﴾ ضميرُ الشأنِ، ومدارُ وضْعِه موضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المغْنِيةِ عن ذِكرِه؛ وفائدةُ تصديرِ الجملةِ به: الإيذانُ بفخامةِ مَضمونِها، مع ما فيه مِن زيادةِ تَقريرِه في الذِّهن(٤).

٤- قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّةِ بِفعلٍ مُضمَرٍ مُقدَّمٍ تقديرُه: اذْكُرْ أو انظُرْ(٥)؛ تهويلاً للأمْرِ وللتَّخويفِ والتَّحذيرِ، أو منصوبٌ لمحذوفٍ متأخِّرٍ، تقديرُه: ويومَ نَحشرُهم كانَ كيتَ وكيتَ؛ فتُرِكَ ليبقَى على الإبهامِ الذي هو أَدْخلُ في التَّخويفِ(٦)، وتقديرُ صِيغةِ الماضِي (كَانَ)؛ للدَلالةِ على التحقُّقِ، ولحُسنِ مَوْقِعِ عَطفِ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ...﴾ عليه(٧).

- قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الاستفهامُ مرادٌ به التوبيخُ والاحتجاجُ، والتبكيتُ والتأنيبُ، والتقريعُ عمَّا كان المشرِكون يَزعُمونه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

(٥) وقيل: الأظهرُ أنْ يُقدَّرَ العاملُ المحذوفُ ممَّا تدلُّ عليه المعطوفاتُ، وهي: نقولُ، أو قالوا، أو كذبوا، أو ضلَّ، وكلُّها صالحةٌ للدَّلالةِ على تَقديرِ المحذوفِ، وليستْ تلك الأفعالُ متعلِّقًا بها الظَّرفُ، بل هي دَلالةٌ على المتعلِّقِ المحذوفِ؛ لأنَّ المقصودَ تهويلُ ما يَحصُلُ لهم يومَ الحَشرِ مِن الفِتنةِ والاضطرابِ الناشئَينِ عن قولِ الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾، وتصويرُ تِلك الحالةِ المهولةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

مِن أنَّ شُركاءَهم تَشفعُ لهم عندَ الله، أو أنَّها تَنصُرُهم عندَ الحاجةِ[(١)].

- وأضافَ الشُّركاءَ هنا في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ إليهم؛ وذلك على حسَبِ ما كانوا يُسمُّونَه ويَعتقِدونَه فيهم، أو لأنَّهم كانوا مِن جِنسِهم وجَوهرِهم، يَفْنَوْن كما يَفْنَوْن هم، وفي آياتٍ أُخرَى قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل: ٢٧، القصص: ٦٢-٧٤، فصلت: ٤٧]؛ فأضافَهم إلى نفْسِه حِكايةً لقَولِهم، واللهُ لا شَريكَ له، والمعنى: أينَ الذين في دَعواكم أنَّهم شُركائِي، فأضافَهم على حسَبِ ما كانوا يَقولونَه، ويَنسُبونَه[(٢)].

- وقد حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لقوله: ﴿تَزْعُمُونَ﴾[(٣)]؛ ليعمَّ كلَّ ما كانوا يَزعُمونه لهم؛ مِن الإلهيَّةِ والنَّصرِ والشَّفاعةِ[(٤)].

٥- قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

- عطفَ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ القولَ متأخِّرٌ عن زمَنِ حشْرِهم بمهلةٍ؛ لأنَّ حِصَّةَ انتظارِ المجرمِ ما سيَحلُّ به أشدُّ عليه، ولأنَّ في إهمالِ الاشتغالِ بهم تَحقيرًا لهم[(٥)].

- قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾ الفِتنةُ يحتملُ أنْ تكونَ هنا بمعنى اضطرابِ الرأيِ، والحَيرةِ في الأمْرِ؛ فيكون في الكلامِ إيجازٌ، والتَّقدير: فافتَتنوا في ماذا يُجيبون، فكان جوابُهم أنْ قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٤/ ٤٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧).

(٣) أمَّا المفعولُ الأوَّلُ فحُذِفَ على طريقة حَذْفِ عائد الصِّلَة المنصوبِ؛ إذ التقدير: تزعمونهم شركائي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٧٤).

فعدَلَ عن المقدَّرِ إلى هذا التركيبِ؛ لأنَّه قد عُلِم أنَّ جوابَهم ذلك هو فِتنتُهم؛ لأنَّه أثَرُها ومَظْهرُها، ويَحتملُ أنْ تكونَ الفِتنةُ أُطلِقتْ على معناها الأصليِّ، وهو الاختبارُ، والمرادُ به السؤالُ، ويَتعيَّن حينئذٍ تقديرُ مضافٍ، أي: لم يكُن جوابَ فِتنَتِهم، أي: سؤالِهم عن حالِ إشراكِهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[١].

- قوله: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيه استعمالُ الماضِي مَوضِعَ المستقبلِ؛ تحقيقًا لوقوعِه ولا بدَّ[٢].

- وذِكرُهم الربَّ بالإضافةِ إلى ضَميرهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغة منهم في التنصُّلِ مِن الشِّركِ، أي: لا ربَّ لنا غيرُه، وقد كذَبوا وحَلَفوا على الكَذبِ؛ جَريًا على سَنَنِهم الذي كانوا عليه في الحياةِ[٣].

٦- **قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** عبَّر بالفِعلِ الماضِي ﴿كَذَبُوا﴾ وإنْ كانَ معناه مُستقبَلًا؛ لأنَّه في يومِ القِيامةِ؛ فهو لتحقُّقِ المعنى أبْرَزَه في صُورةِ الماضي[٤]، فالأمْر وإنْ لم يكُن قدْ أتى بَعدُ؛ فإنَّ هذا على حِكايةِ الحالِ، واللهُ عزَّ وجلَّ دائمًا يَحكي الأشياءَ المستقبلةَ حتى يَتصوَّرَها الإنسانُ وكأنَّها واقعةٌ، وإنَّما يكون ذلك؛ لأنَّ الشيءَ المستقبَلَ المُحقَّق يكونُ كالواقِع تمامًا؛ ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] مع أنَّه ما أتَى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فيكونُ التعبير بالماضِي على حِكاية الحال حتى يتصوَّرَ الإنسانُ، وكأنَّ الشيءَ بينَ يديه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٧).

الآيتان (٢٥-٢٦)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكِنَّةً﴾: أغطيةً، مفردُها كِنانٌ، وأصل (كنن): يدلُّ على سَتْرٍ أو صَونٍ[١].

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا، وَصَمَمًا في الأُذنِ، وهذا إشارةٌ إلى جَهلِهم لا إلى عَدمِ سَمْعِهم، وأصلُ (وقر): يَدُلُّ على ثقلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿أَسَاطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات، جمع أُسطورة، وهي: ما سُطِّرَ من أخبارِ الأوَّلين وكَذِبهم، وقيل: ما سَطَّره الأوَّلون من الكتُبِ، وأصل (سطر): يدلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكِتاب والشَّجر؛ والأساطيرُ كأنَّها أشياءُ كُتِبتْ مِن الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مَخصوصًا بها[٣].

﴿وَيَنْأَوْنَ﴾: يَتباعدون، والنَّأي: البُعد[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢- ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن المشرِكين مَن يَستمعُ القرآنَ مِنَ النبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن لا يَنتفعون بهذا السَّماعِ؛ فاللهُ تعالى جعَلَ على قُلوبِهم أغطيةً؛ لئلَّا يَعقِلوه، وجعَلَ في آذانِهم صَممًا عن السَّماعِ النَّافِعِ، وذلك بسببِ عنادِهم وجحودِهم، ومهما رأَوا مِن الدَّلالاتِ والحُججِ البيِّنةِ فلن يُؤمِنوا بها، حتى إذا حضَروا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّهم يُخاصمونَه في الحقِّ بالباطِلِ، ويقولُون له: ما هذا الذي جِئتَ به إلَّا مأخوذٌ مِن كتُبِ السَّابِقين.

هؤلاءِ المشرِكون يَنهَوْن الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ، ويَبتعِدون عنه بأنفسِهم، وما يُهلِكون إلَّا أنفسَهم بصدِّهم، وإعراضِهم عن الحقِّ، ولا يَشعُرون بذلِك.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن أحوالَ الكفَّارِ في الآخِرَةِ؛ أتْبَعه بما يُوجِبُ اليأسَ عن إيمانِ بَعضِهم[(١)]، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن هؤلاءِ المشرِكين مَن يَستمِعُ للقرآنِ مِنك- يا مُحمَّدُ[(٢)].

(١) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٢).

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

أي: وضَعْنا على قُلوبِهم أغطيةً وأغشيةً؛ لئلَّا يَعقِلوا كلامَ الله سبحانَه؛ وذلك بسببِ مُبادرتِهم إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ طائِعين مُختارين، فجَزاهم اللهُ تعالى على ذلك الذنبِ طَمْسَ البَصيرة، والعَمَى عن الهُدَى، جزاءً وِفاقًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

أي: وجَعَلنا في آذانِهم ثِقلًا وصَممًا عن السَّماعِ النافِعِ، فلا يَنتفِعون بما سَمِعوا، ومَن لا يَنتفِعُ بمَا سَمِعَ فهو كمَن لم يَسمَعْ، مُجازاةً لهم على كُفرِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٦-١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦-٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٢، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦-٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانه عدمَ انتفاعِهم بعقولِهم- حتَّى كأنَّ على محالِّها أكنَّةً- ولا بَسماعِهم، حتَّى كأنَّ في آذانهم وقرًا، انتقَلَ إلى الحاسَّة التي هي أبلغُ مِن حاسَّةِ السَّماعِ، فنَفَى ما يَترتَّبُ على إدراكِها، وهو الإيمانُ، فقال[1]:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

أي: ومَهما يَرَ هؤلاءِ من الدَّلالاتِ والحُججِ البيِّنات، لا يَنقادُوا إليها، ولا يُصدِّقوا بها، ولا يُقرُّوا بها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: حتَّى إذا حضَروا إليك- يا محمدُ- يُخاصِمونَك، ويُحاجُّونك في الحقِّ بالباطِل، قالوا لكَ: ما هذا الذي جِئتَ بِه إلَّا أشياءُ مأخوذةٌ من كتُبِ السَّابقِينَ، ومَنقولةٌ عن صُحُفِهم المسطورةِ، التي ليستْ عن اللهِ تعالى، ولا عن رُسلِه عليهم السَّلام[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣-١٣٥).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

أي: والمشركونَ باللهِ تعالى يَنهَونَ الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ، وتصديقِ الرَّسولِ، والانقيادِ للقُرآن، ويَبتَعدونَ بأنفُسِهم عنه؛ فهم لا يَنتفِعونَ بالحقِّ، ولا يَتركُون أحدًا ينتفِعُ به، جامِعينَ بين الضَّلالِ والإضلالِ(١).

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولا يعودُ وبالُ صَدِّهم عن الحقِّ، وإعراضِهم عنه إلَّا عليهم، لكنَّهم لا يَشعُرون بذلك(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ فيه التحذيرُ مِن الاستِماعِ بلا انتفاعٍ، وأنَّ هذا دأبُ الكفَّار، فلَيسَ كلُّ مُستمعٍ بمُنتفِعٍ ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦] ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا استَمَع أنْ يَتأمَّلَ، ويتفكَّر فيما استمَعَ إليه، لا سيَّما في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ حتى يَعرِفَ معناهما(٣).

٢- قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها﴾ فاللهُ تعالى يُريدُ أنْ يُبيِّنَ لنا هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٥-٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) ٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٥).

النماذجَ البشريَّةَ التي تستمعُ، ولكنَّها لا تَفقَهُ، كأنْ ليس لها قلوبٌ تُدركُ، وكأنْ ليس لها آذانٌ تسمعُ، وهي نماذجُ مَكرورةٌ في البشريَّةِ في كلِّ جِيلٍ، وفي كلِّ قَبيلٍ، في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ إنَّهم أَناسيُّ من بَني آدم، ولكنَّهم يَسمعون القولَ، وكأنَّهم لا يَسمَعونه، كأنَّ آذانهم صمَّاءُ لا تُؤدِّي وظيفتَها، وكأنَّ إدراكَهم في غِلافٍ لا تَنفُذُ إليه مدلولاتُ ما سَمِعتْه الآذانُ! فأعينُهم تَرَى كذلك، ولكن كأنَّها لا تُبصِر، أو كأنَّ ما تُبصِرُه لا يَصِلُ إلى قُلوبِهم وعُقولِهم(١)!

٣- في قولِه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أنَّ قولَ الكافِرين هنا هو شأنُ مَن يَنظُرُ إلى الشيءِ نظرًا سطحيًّا، لا ليستنبطَ منه عِلمًا ولا بُرهانًا، ومَن يسمعُ الكلامَ جرْسًا لفظيًّا، لا يَتدبَّره، ولا يَفقَه أسرارَه، فمَثَلُ هذا وذاك كمَثَلِ الطِّفلِ الذي يُشاهِدُ ألعابَ الصُّورِ المتحرِّكة، يُديرُها قومٌ لا يَعرِفُ لُغتَهم؛ فكلُّ حظِّه ممَّا يرَى مِن المناظِرِ، ومِن المكتوباتِ المفسِّرةِ لها، لا يَعْدُو التسليةَ. ولو عقَلَ هؤلاءِ المقلِّدونَ الغافِلون قَصصَ القرآنِ، وتَدبَّروا معانيَها، لكان لهم منها آياتٌ بيِّنةٌ على صِدقِ دَعوةِ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونُذُرٌ عظيمةٌ ممَّا فيها؛ مِن بيانِ سُننِ اللهِ تعالى في الأُمم، وعاقبةِ أمْرِهم مع الرُّسُلِ، وغير ذلك مِن الحِكَم والعِبَرِ(٢).

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ التحذيرُ من سُلوكِ الإنسانِ سُبلَ الهَلاكِ وهو لا يَشعُرُ، وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلِك في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء﴾(٣) [فاطر: ٨].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بيانُ أنَّ أولئك

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٣).

الذين يَجعلون هَمَّهم كلَّه في الحيلولةِ بَينَ أنفُسِهم والناسِ معهم، وبَينَ هُدَى الله؛ مَساكينُ! ولو تَبدَّوْا في ثِيابِ الجبابرةِ وزِيِّ الطَّواغيتِ! مساكينُ؛ فهُم لا يُهلِكون إلَّا أنفُسَهم في الدُّنيا والآخِرة، وإنْ بَدَا لهم حِينًا من الدَّهرِ، وبدَا للمَخدوعِينَ بالزَّبَدِ أنَّهم رابِحون مُفلِحون(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المُشرِكون أصنافٌ، يتفاوتونَ في الفَهمِ والعَقلِ وفي الكُفرِ وأسبابِه، وقد بَيَّن اللهُ أحوالَ كلِّ فَريقٍ منهم في كِتابِه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾(٢).

٢- وجهُ إسنادِ الفِعل إلى ذاتِه تعالى في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ ثابتٌ فيهم لا يَزولُ عنهم، كأنَّهم مجبولون عليه، أو هي حِكايةٌ لِمَا كانوا يَنطِقون به مِن قولِهم: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، أو لأنَّه خلَقَهم على هذه الخَصلةِ الذَّميمةِ والتعقُّلِ المُنحرِف، فهُم لهم عقولٌ وإدراكٌ؛ لأنَّهم كسائرِ البَشرِ، ولكنَّ أهواءَهم تُخيِّرُ لهم المنعَ مِن اتِّباعِ الحقِّ(٣).

٣- أنَّ الفِقهَ محلُّه القلبُ؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾(٤).

٤- أنَّ عدَمَ الانتفاعِ بالسَّماعِ كالصَّممِ تمامًا؛ لقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بل صاحبُ الصَّممِ معذورٌ، والذي لا يَنتفعُ بما سَمِع غيرُ معذورٍ؛ لأنَّ صاحبَ الصَّممِ لم يَسمعْ مِن آفةٍ حلَّتْ به(٥).

٥- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إنَّ هؤلاءِ لم يتَّجِهوا إلى الهُدى ليهديَهم اللهُ، ولم يُحاولوا أنْ يَستخدِموا أجهزةَ الاستقبالِ الفِطريَّة في كِيانهم، فيُيسِّر اللهُ لهم الاستجابةَ، هؤلاء عطَّلوا أجهزتَهم الفِطريةَ ابتداءً، فجَعَل اللهُ بينهم وبَينَ الهُدَى حِجابًا، وجَرَى قضاؤُه فيهم بهذا الذي جرَى؛ جزاءً على فِعلِهم الأوَّل ونيَّتِهم الأولى، وكلُّ شيءٍ إنَّما يكونُ بأمْرِ اللهِ؛ ومِن أمْرِ اللهِ: أنْ يَهديَ مَن يُجاهد، وأنْ يُفلِحَ مَن يَتزكَّى، ومن أمْرِ الله: أنْ يَجعلَ على قُلوبِ المعرِضين أكنَّةً أنْ يَفقهوه وفي آذانِهم وقرًا، وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بها، والذين يُحيلون ضلالَهم وشِرْكَهم وخطاياهم على إرادةِ اللهِ بهم، وعلى قَضائِه فيهم، إنَّما يُغالِطون في هذه الإحالةِ، والله سبحانه يَجبَهُهم بالحقِّ، وهو يَحكي أقوالَهم في هذا الشأنِ ويُسفِّهُها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥]، فدلَّ هذا على إنكارِ اللهِ عليهم قولَهم، وعلى أنَّ الضَّلالةَ إنَّما حقَّتْ عليهم- بعدَ النِّذارةِ- بفِعلِهم[١].

٦- أنَّ المجادِلَ بالباطِلِ يَلجأُ إلى المكابَرةِ؛ كما في هذِه الآيةِ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ دَعواهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ مكابرةٌ بلا شكٍّ، وكلُّ أحدٍ يَعرِفُ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليس قولَ البَشرِ، فضلًا أنْ يكونَ أساطيرَ الأوَّلين، ولكن هذه نهايةُ المجادَلةِ والمكابَرةِ[٢].

٧- أنَّ هؤلاءِ المشركين جمَعوا بين الضَّلالِ والإضلالِ؛ الإضلالُ في قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾، والضَّلالُ في قولِه: ﴿يَنْأَوْنَ﴾ وهذا أشدُّ مِن العُدوانِ والظُّلمِ[٣].

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٣).

٨- قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ قُدِّم النهيُ على النَّأيِ مع أنَّه كان المتوقَّعُ أنْ يُبدأَ بالنَّأيِ الذي هو فِعلُهم بأنفسِهم دون فِعلِهم بغيرهم؛ إشارةً إلى شِدَّةِ كراهتِهم لِمَا جاءَ به الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حتى إنَّهم يَبدَؤون بنهيِ الناسِ قَبلَ أنْ يَبتعِدوا عنه(١).

٩- أنَّ كلَّ مَن حاولَ إبطالَ الحقِّ، وإبعادَ الناسِ عنه، فإنَّما جنَى على نفْسِه، وستكونُ العاقبةُ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ حتى لو برَقتْ له الدُّنيا، وظفِرَ بنصْرٍ ظاهريٍّ(٢).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ ما أرادوا به نِكايتَه إنما يَضرُّون به أنفُسَهم(٣).

١١- عقَّب قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ زيادةً في تحقيقِ الخطأِ في اعتقادِ أولئكَ المشركِينَ، وإظهارًا لضَعْفِ عُقولِهم مع أنَّهم كانوا يَعُدُّونَ أنفسَهم قادةً للنَّاسِ(٤)!

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمعُ إِلَيكَ...﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمعُ﴾ بالإفرادِ، وفي سورةِ يونس قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] بالجمْعِ؛ لأنَّ لكلٍّ مِن الموضعينِ ما يُوجِبُ اختصاصَه باللَّفظِ الذي جاءَ فيه؛ فأمَّا قولُه تعالى هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ﴾ بالإفرادِ فقد نَزَلَ في قَومٍ قليلِينَ، وهم: أبو سُفيان، والنَّضرُ بن الحارث، وعُتْبة، وشَيبة،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأُميَّةُ، وأُبيُّ بن خَلَف، وأمَّا قوله تعالى في سورةِ يونس ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾ [يونس: ٤٢] بالجمْعِ، فهو في كلِّ الكفَّار الذين يَستمِعون مسموعًا هو حُجَّةٌ عليهم، وهو القرآنُ، ولا يَنتفعونَ بسماعِه، فكأنَّهم صُمٌّ عنه؛ فلمَّا كانت (مَن) تصلُح للواحدِ فما فوقَه، ويجوزُ أن يَعودَ الضَّميرُ إلى لَفظِه وهو الواحد، وإلى معناه وهو الجمعُ، واختَلَف هذانِ المكانانِ في القِلَّةِ والكثرةِ- حُمِلت في موضعِ القِلَّةِ على حُكم اللَّفظِ، وعادَ الضَّميرُ إليها بلفظِ الواحِدِ، وفي موضِعِ الكثرةِ على حُكم المعنى، وعاد الضَّميرُ إليها بلفظِ الجَمْعِ؛ لإفادةِ هذا المعنى بالاختلافِ في التَّعبيرِ؛ فلمْ يصلُحْ في كلِّ مكانٍ إلَّا اللَّفظُ الذي خَصَّه، مع القَصْدِ الذي ذُكِر[1].

٢- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

- في جَعْلِ الأكنَّةِ على القلوبِ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، والوَقرِ في الآذانِ في قوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ تَشبيهٌ للحُجُبِ والموانِعِ المعنويَّة بالحُجُبِ والموانِعِ الحِسيَّة؛ فإنَّ القلبَ الذي لا يَفقَهُ الحديثَ، ولا يَتدبَّره، كالوعاءِ الذي وُضِع عليه الكِنُّ أو الكِنانُ- وهو الغطاءُ- حتَّى لا يَدخُلَ فيه شيءٌ، والآذانُ التي لا تَسمَعُ الكلامَ سَماعَ فَهمٍ وتدبُّرٍ، كالآذانِ المصابةِ بالثِّقل أو الصَّمم؛ لأنَّ سمْعَها وعدمَه سواءٌ[2].

- وفيه كنايةٌ في جَعْلِ الأكنَّةِ على القلوبِ، والوَقْرِ في الآذانِ، وهذا كِنايةٌ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٠٣- ٥٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠).

عن نُبُوِّ قُلوبِهم ومَسامِعِهم عن قَبولِ الحقِّ، والاعتقادِ بصحَّتِه[١].

٣- قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ مَقصودٌ بها الإخبارُ عن المبالغةِ التامَّةِ، والعِنادِ المُفرِط في عدمِ إيمانِهم، حتَّى إنَّ الشَّيءَ المرئيَّ الدالَّ على صِدقِ الرَّسولِ حَقيقةً، لا يُرتِّبون عليه مُقتضاه، بل يُرتِّبون عليه ضِدَّ مُقتضاه[٢].

٤- ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: فيه العدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ- حيث قال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقُل: (يقولون)- لزيادةِ التَّسجيلِ عليهم بالكُفرِ، وأنَّهم ما جاؤوا طالبِينَ الحقَّ كما يَدَّعُونَ، ولكنَّهم قدْ دخَلُوا بالكفرِ وخرَجوا به، فيقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ فهم قدْ عدَلُوا عن الجدلِ إلى المباهَتةِ والمكابرةِ[٣].

٥- قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه إظهارٌ لغايةِ نُفورِهم عنه، وتأكيدٌ لنَهيِهم عنه بقوله: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: يَتباعدون عنه بأنفسِهم؛ فإنَّ اجتنابَ الناهِي عن المنهيِّ عنه مِن مُتمِّماتِ النَّهيِ[٤].

- وبين قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾، وقوله: ﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ جِناسٌ، وهو جناسُ التصريفِ الذي هو اختلافُ صِيغةِ الكلمتينِ بإبدالِ حرفٍ مِن حرفٍ، أو مِن قَريبٍ مِن مَخْرجِه، سواءٌ أكان الإبدالُ في الأوَّل أم في الوَسطِ أم في الآخِرِ[٥]، وهو مِن المحسِّناتِ البديعيَّة.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨١، ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩٠).

٦- قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ، وهو يُفيدُ قلبَ اعتقادِهم؛ لأنَّهم يَظنُّون بالنَّهي والنَّأْي عن القرآنِ أنَّهم يَضرُّون النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لئلَّا يتَّبعوه، ولِئَلَّا يَتَّبِعَه النَّاسُ، وهم إنَّما يُهلِكون أنفسَهم؛ بدوامِهم على الضلالِ، وبتضليلِ الناسِ، فيَحمِلون أوزارَهم، وأوزارَ الناسِ معَ أوزارِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣).

الآيات (٢٧ - ٣٢)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذا أتاه فجأةً، والبغتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يُحتَسَب(١).

﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾: أي: يا نَدامتَنا واغتمامَنا على ما فاتَنا- ولا يُمكن ارْتِجاعُه- وتلهُّفَنا عليه، وأصلُ (حسر): كشْفُ الشَّيءِ(٢).

﴿فَرَّطْنَا﴾: أي: تَركْنا وأَغْفَلْنا وضَيَّعْنا، والتفريطُ: التقصيرُ؛ يقال: ما فرَّطتُ في كذا، أي: ما قصَّرتُ فيه، وأصلُ (فرط): يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مَكانِه، وتنحيتِه عنه(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٠).

﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: جَمْع وِزْر، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْل أيضًا، وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّيت الآثامُ أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مُثقِلةٌ[1].

﴿سَاءَ﴾: أي: قبُح، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ويُستعمَل في كلِّ ما يُسْتقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ[2].

﴿مَا يَزِرُونَ﴾: أي: الإثمُ الذي يَأثَمونَه، والثِّقْلُ الَّذي يَتحَمَّلون[3].

﴿وَلَهْوٌ﴾: اللَّهو: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعنيه ويُهِمُّه، أو كلُّ باطلٍ ألْهَى عن الخيرِ وعمَّا يَعني؛ يُقال: لهوتُ بكذا، ولهيتُ عن كذا: اشتغَلْتُ عنه بلهوٍ، وأصل (لهو): يدلُّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيءٍ[4].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).
فائدة: قال ابن جرير: (وقد زعم بعضُهم أنَّ الوزر: الثِّقَل والحِمل. ولستُ أعرفُ ذلك كذلك في شاهدٍ ولا مِن روايةِ ثقةٍ عن العرب). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، وهو رحمه الله إنما أخبر بما علمه، وإلا فمعاجم اللغة على إثباتِ هذا المعنى. وينظر - إضافةً لِمَا سَبَق من مراجِع -: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٤٥- ٨٤٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، و(١٤/ ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

الفِعلان ﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ قُرِئَا بالنَّصب فيهما، وبالرَّفع فيهما، وبنَصْبِ الأوَّلِ ورفْعِ الثَّاني، وبالعكسِ؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعرابِ(١)

فأمَّا نَصْبُ الفِعلَينِ: فهو بإضمارِ (أَنْ) بعدَ الواوِ التي بمعنى (معَ)؛ مِثل: (ليت لي مالًا وأُنفقَ منه)، و(أنْ) المُضمَرَة مَصدريَّةٌ يَنسبِكُ منها ومِن الفعلِ بعدَها مَصدرٌ، والواوُ حرفُ عطفٍ، فيُقدَّر المعطوفُ عليه مَصدرًا مُتوهَّمًا، يُعْطَفُ هذا المصدرُ المنسبِكُ مِن (أَنْ) وما بَعدَها عليه، والتقديرُ: يا ليتَنا لنا رَدٌّ، وانتفاءُ تكذيبٍ بآياتِ ربِّنا، وكَوْنٌ مِن المؤمنين، أي: ليتَنا لنا ردٌّ مع هذَينِ الشَّيئَينِ؛ فهذه الثلاثةُ الأشياءِ مُتمنَّاةٌ بقيدِ الاجتِماعِ، لا أنَّ كلَّ واحدٍ مُتمنًّى وحْدَه؛ لأنَّ هذه الواوَ شَرْطُ إضمارِ (أنْ) بعدَها: أنْ تَصلُحَ (مع) في مكانِها.

أو يكونُ النَّصبُ على جَوابِ التمنِّي؛ فلا يكون التكذيبُ، وكونُهم من المؤمنين، داخلَينِ في التَّمنِّي، والواوُ بمعنى الفاءِ حينئذٍ، فالواو مُبْدَلةٌ من الفاءِ، والتقديرُ: يا لَيتنا نُرَدُّ فلا نكذِّبَ ونكونَ؛ فتكونُ الواوُ هنا بمنزلةِ الفاءِ في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]، وقيل غيرُ ذلك.

وأمَّا رفْعُ الفِعلين: فعلَى وجهينِ: الأوَّل: العطفُ على ﴿نُرَدُّ﴾، فيكونُ عدمُ

(١) ولعلَّ حِكمةَ اختلافِ القِراءاتِ في قوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك المشركين في تَمنِّيهم بأنْ يكونَ منهم مَن يَتمنَّى أنْ يُردَّ إلى الدُّنيا، وأنْ يكونَ فيها غيرَ مُكذِّبٍ بآياتِ اللهِ الكونيَّة والمُنَزلةِ، وأنْ يكونَ من المُؤمنين، وذلك على قِراءة الجمهور ﴿نُكَذِّبُ... وَنَكُونُ﴾ برَفْعِهما، ومنهم مَن يتمنَّى الردَّ مُصاحِبًا لِمَا حدَثَ له في الآخِرة من النَّدمِ على التَّكذيبِ ومِن الإيمانِ بما جاءَ به الرسولُ؛ إذ لا تلازُمَ بين الردِّ وبقاءِ ذلك الأمْرِ الحادِثِ، وذلك في قوله: ﴿نُكَذِّبَ... وَنَكُونَ﴾ على قراءةِ النَّصب، ومنهم مَن يتمنَّاه؛ ليكونَ سببًا للإيمانِ وعدمِ التَّكْذيب، وذلك في قوله: ﴿نُكَذِّبُ... وَنَكُونَ﴾ على قراءة النَّصْب في ﴿نَكُونَ﴾ فقط، ومِنهم مَن يعِدُ بذلك وعدًا، وهذا الاختلافُ في كيفيَّاتِ ذلك التمنِّي أقربُ إلى الحُصولِ من اتِّفاق أولئك الكفَّارِ الكثيرينَ على كيفيَّةٍ واحدةٍ؛ ممَّا يدلُّ عليه اختلافُ القِراءات؛ لأنَّه هو المعهودُ من البَشَر، ولعلَّهم يتمنَّون ذلك جاهِلين أنَّه مُحالٌ، على أنَّ الناسَ يَتمنَّوْن المحالَ ولو على سَبيلِ التحسُّرِ. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٤).

التكذيبِ، والكَونُ من المؤمنين، داخلَينِ في التَّمنِّي كالردِّ، ويكونون قد تَمنَّوا ثلاثةَ أشياءَ: الردَّ إلى دارِ الدنيا، وعدَمَ تكذيبِهم بآياتِ ربِّهم، وكونَهم من المؤمنين. الثاني: أنْ يكونَ الرَّفْعُ على القَطعِ بتَقديرِ مُبتدأ، وتكونَ جملةُ الفِعل هي الخَبَر، والتقديرُ: ونحنُ لا نُكذِّبُ، ونحن نَكونُ من المؤمنين، وعلى هذا فجُملةُ (نحن لا نُكذِّب) و(نحن نكون...)؛ إمَّا في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ من الضَّمير في ﴿نُرَدُّ﴾؛ فيكونانِ داخلَينِ في التمنِّي كذلك، وإمَّا استئنافًا لا تَعلُّقَ له بما قَبلَه؛ ويكون المعنى: أنَّهم ضَمِنوا ألَّا يُكذِّبوا بعدَ الردِّ، وأنْ يكونوا مِن المؤمنين. وقيل غيرُ ذلك.

وأمَّا نصْبُ الأوَّلِ ورفْعُ الثَّاني والعكسُ؛ فإعرابُ كلِّ فِعلٍ بحسَبِ ما مرَّ من توجيهِ الرَّفعِ والنَّصبِ لكلِّ واحدٍ منهما[1].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٩- ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٨٤- ٥٩٠).

وثمَّة إشكال في الأوجه الإعرابيَّة التي يَدخُل فيها قولُهم في التمنِّي؛ لأنَّه قال بعدَ هذه الآية: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، والتَّمنِّي إنشاءٌ، والإنشاءُ لا يَدخُله الصدقُ ولا الكذبُ، وإنَّما يَدخُلانِ في الإخبارِ، وهذا قد دخلَه الكذبُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقد أُجيب بجوابين؛ الأوَّل: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ليس متعلِّقًا بالمتمنَّى، بل هو مَحْضُ إخبارٍ من الله تعالى بأنَّهم دَيْدَنُهم الكذبُ وهِجِّيراهم ذلك؛ فيكون ذلك حِكايةً وإخبارًا عن حالِهم في الدُّنيا، لا تَعلُّقَ به بمتعلِّقِ التمنِّي، فلم يدخل الكذبُ في التمنِّي. الثاني: أنَّ هذا التمنِّي قد تَضمَّنَ معنى الخبرِ والعِدَة، فإذا كانتْ سجيَّةُ الإنسانِ شيئًا، ثمَّ تَمنَّى ما يُخالِفُ السجيَّةَ، وما هو بعيدٌ أن يقَعَ منها، صحَّ أنْ يَكذِبَ على تجوُّزٍ، نحو: ليتَ اللهَ يَرزُقني مالًا فأُحسِنَ إليكَ، وأُكافِئَك على صَنيعِك، فهذا مُتمَنٍّ في معنى الواعِدِ والمخبِرِ، فإذا رزَقه اللهُ مالًا ولم يُحسِنْ إلى صاحبِه، ولم يُكافِئْه كذَبَ، وكان تمنِّيه في حُكم مَن قال: إنْ رزَقَني اللهُ مالًا كافأتُك على إحسانِك؛ فلَمَّا تَضمَّنَ التمنِّي في قولِهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ...﴾ وعدًا؛ فلذلك صحَّ إدخالُه في حُكم كذِبِهم دُخولَ الخاصِّ في العامِّ؛ لأنَّ التذييلَ يُؤذِنُ بشمولِ ما ذُيِّل به وزيادة؛ فليس وصفُهم بالكذبِ بعائدٍ إلى التمنِّي، بل عائدٌ إلى ما تَضمَّنه من الوعدِ بالإيمانِ، وعدمِ التكذيبِ بآياتِ الله. =

٢- قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾

﴿بغتةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ في موضِع الحال، أي: باغِتةً أو مُباغِتةً، وقيل: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ مِن لفظِها، والتقديرُ: تَبغتُهم بَغتةً، وقيل: إنَّها منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ على غيرِ الصَّدر- من غيرِ لفْظِه-؛ لأنَّ معنى ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: بَغَتَتْهُمْ بغتةً[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه صلَّى عليه الله وسلَّم: لو اطَّلعتَ على هؤلاءِ المشركين، ورأيتَهم لرأيتَ أمرًا عَظيمًا، عندمَا يقِفون على النَّارِ، ويُشاهِدون ما فيها مِن أهوالٍ، ويُعايِنونَ عذابَها، عندَ ذلك يتحسَّرونَ، ويتمنَّونَ العودةَ إلى الدُّنيا للعَمَلِ الصَّالِحِ، والتَّصديقِ بآياتِ اللهِ، ولِيكونوا مِن المؤمنينَ.

وليس الأمرُ كما قالوا؛ بل ظَهَر لهم ما كانوا يُخفونَ مِن قَبلُ، ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعادُوا لارتكابِ ما نُهوا عنه قبل ذلِك، من الكُفرِ والعِصيان، وإنَّهم لكاذِبون فيما يَدَّعونَه.

ثم ذكَر اللهُ تعالى بعضَ ما كان هؤلاء المشركونَ يَفترونَه في الدُّنيا، ومن ذلك قولُهم: لا توجدُ حياةٌ أُخرى غيرُ الحياةِ الدُّنيا، وما نحن بمَبعُوثينَ، ولا محاسَبينَ.

ثم يقولُ اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ولو رأيتَ هؤلاء المكذِّبين بالبعثِ حينَ يَقِفونَ بين يَدَيْ ربِّهم، فيقول لهم تعالى مُوبِّخًا: أليس هذا البعثُ- الذي تَرونَه- حقًّا ثابتًا؟ فيُجيبون حالِفينَ بربِّهم: إنَّه حقٌّ ثابتٌ، لا شكَّ فيه، فيقولُ لهم تعالى: فذُوقوا العذابَ جزاءَ كُفرِكم.

= ينظر المراجِع السَّابقة، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٩٥).

ويُخبِرُ تعالى أنَّه قد خَسِر الذين كذَّبوا بلِقائِه تعالى، حتَّى إذا جاءتْهم الساعةُ فجأةً، أظهَروا تَحسُّرَهم وتنَدُّمَهم على ما فاتَهم بسببِ تفريطِهم في دنياهم، وتضييعِ أعمارِهم، وتركِ الاستعدادِ لهذا اليومِ، الذي يُلاقونَ فيه ربَّهم، وهم يَحمِلونَ ذُنوبَهم وآثامَهم على ظُهورِهم، ألَا بِئسَ ما يَحملونَه مِن آثامٍ!

ثُمَّ يُبيِّن تعالى أنَّ الحياةَ الدُّنيا إنَّما هي لعِبٌ ولهوٌ، وأنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي خيرٌ لِمَن اتَّقى، ثم يقولُ تعالى: أليستْ لكم- يا مَنْ كذَّبتم بالبعثِ- عقولٌ تعقلونَ بها حقيقةَ الدُّنيا، وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقَى؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى صِفةَ مَن يَنهى عن متابعةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، ويَنأى عن طاعتِه بأنَّهم يُهلِكونَ أنفسَهم، شرَحَ كيفيَّةَ ذلك الهلاكِ بهذه الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا حَكَى تعالى عنهم في آياتٍ سابقةٍ إنكارَهم للحشرِ والنَّشرِ والبعثِ والقِيامة؛ بَيَّن في هذه الآيةِ كيفيَّةَ حالِهم في القيامةِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى حديثَ البَعثِ في قَولِه: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾، واستطرَدَ من ذلِك إلى شَيءٍ مِن أوصافِهم الذَّميمةِ في الدُّنيا، عادَ إلى الحديثِ عن البَعثِ[3]، فقال تعالى:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: ولو رأيتَ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الكفَّارَ والمشركِين، وقد أُوقِفوا يومَ القِيامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٣).

على النَّارِ، فشاهَدُوا ما فيها من الأهوالِ؛ لرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا فظيعًا[(١)].

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾.

أي: فيقولُ هؤلاء المشرِكون حينذاك: يا ليتَنا نُعادُ إلى الدُّنيا؛ كي نؤمِنَ، ونعملَ صالحًا[(٢)].

كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

أي: وإذا عُدْنا إلى الدُّنيا فلنْ نُكذِّبَ بالأدلَّةِ، والبيِّناتِ التي جاءتْنا من ربِّنا[(٣)].

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ونكونَ من المؤمنِين حقًّا[(٤)].

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ما زَعَموه من أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لآمَنوا بدَعْوَى أنَّه ظهَرَ لهم الآنَ صِدقُ رُسلِ اللهِ تعالى؛ ليس صحيحًا، بل كانوا يَعلمون صِحَّةَ رِسالتِهم وصِدقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٦-٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨، ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨).

نُبوَّتهم، ولكنَّهم كانوا في الدُّنيا يُخفونَ ذلك في قَرارةِ أنفسِهم؛ ظلمًا وعنادًا، فلم يَظهرْ لهم يومَ القيامة شيءٌ جديدٌ؛ ليكونوا عالِمين به فيُعذَروا، بل ظَهَرَ لهم ما كان معلومًا لدَيهم من قَبلُ. وإنَّما تَمنَّوُا العودةَ إلى الدُّنيا لا رَغبةً وحبًّا في الإيمانِ كما زعَموا كذبًا؛ فإنَّهم لو رُدُّوا لعادوا للكفرِ الذي هو طَبعٌ لهم وسجيَّة، ولكنَّهم تَمنَّوا ذلك لَمَّا عاينوا العذابَ الذي لا طاقةَ لهم باحتمالِه[1].

كما قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لفرعونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال الله تعالى مخبرًا عن فِرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

أي: ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا، فأُمْهِلوا؛ ليُؤمنوا، ويَعْمَلوا صالحًا، لرَجَعوا إلى مِثلِ ما كانوا عليه مِن قبلُ من الكُفرِ والعِصيان[2].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: وهم كاذِبون في قولِهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

---

(١) وهذا المعنى اختارَه ابنُ القيِّم في ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٨٥).
وجعَلَه ابنُ كثير وابن عثيمين ممَّا تحتملُه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٧). وفي معنى الآية أقوال أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١١-٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشرِكون المنكِرون للبعثِ: لا تُوجدُ حياةٌ أخرى لنا سِوى هذه الحياةِ التي نَعيشُها في الدُّنيا، وما نحنُ بخارِجين من قُبورِنا، وما ثَمَّ حسابٌ ولا ثوابٌ ولا عقابٌ(١).

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: ولو رأيتَ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ القائلينَ: ما هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعوثين، وقدْ أُوقِفوا بين يَدَيِ اللهِ تعالى، لرأيتَ أمرًا فظيعًا، وهَوْلًا عظيمًا(٢).

﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لهم موبِّخًا: أليسَ هذا البعثُ- الذي كنتُم في الدُّنيا تُظهِرُون إنكارَه- حقًّا ثابتًا، وليسَ بباطلٍ كما كنتم تَدَّعُون؟! فأجابوا مُعترِفين: واللهِ إنَّه لَحقٌّ ثابتٌ(٣).

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٢-٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الأنعام)) (ص:١٥٠-١٥١).
قال ابنُ جرير: (وكان ابنُ زيد يقول: هذا خبرٌ من الله تعالى عن هؤلاء الكَفرةِ الذين وُقفوا على النار، أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧-١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣-١٥٤).

أي: فقال اللهُ تعالى لهم: فذُوقوا مَسَّ العذابِ الذي كنتُم في الدُّنيا تُكذِّبون به؛ فذُوقوه اليومَ جزاءً على كُفرِكم في الدُّنيا(١).

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قدْ خابَ وحُرِمَ الخيرَ كلَّه، الَّذين أنكروا البعثَ بعدَ المماتِ، ولِقاءَ اللهِ تعالى للحسابِ، ونَيْلِ الثوابِ والعِقاب، وقد أوجبَ لهم هذا التكذيبُ في الدنيا ترْكَ الطاعاتِ، واقترافَ المحرَّماتِ(٢).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾.

أي: حِينَ تأتِيهم الساعةُ التي يَبعثُ اللهُ فيها الموتَى مِن قُبورِهم فجأةً، يقولون تحسُّرًا: ما أعظَمَ ندامتَنا على تَفريطنا في الاستعدادِ لهذا اليومِ، وتضييعِنا لأوقاتِنا وأعمارِنا في الدُّنيا(٣)!

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٦].

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٧-١٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٨-١٥٩).

أي: وهؤلاءِ الذين كذَّبوا بلِقاءِ اللهِ، يَحمِلون آثامَهم وذُنوبَهم يومَ القِيامةِ على ظُهورِهم[١].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

أي: ألَا بئسَ ما يَحمِلونَه من آثامٍ[٢].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ الساعةِ، وما يَلحَقُ المشرِكين فيها من الحَسرةِ على ما فرَّطوا، وكانَ المنكِرون للبعثِ والقيامةِ تَعظمُ رغبتُهم في الدُّنيا، وتَحصيلِ لذَّاتِها؛ ذَكَر اللهُ تعالى هذه الآيةَ تَنبيهًا على خَساسةِ الدنيا وركاكتِها، وتذكيرًا للناسِ بأنَّ الحياةَ الدنيا زائلةٌ، وأنَّ عليهم أنْ يستعدُّوا للحياةِ الآخرةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى قَولَهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ ذَكَر مصيرَها، وأنَّ مُنتهى أمرِها أنَّها فانيةٌ، مُنقضيةٌ عن قَريبٍ، فصارتْ شبيهةً باللهوِ واللعبِ؛ إذ هما لا يَدومانِ، ولا طائلَ لهما، كما أنَّها لا طائلَ لها؛ فاللَّهوُ واللعِبُ اشتغالٌ بما لا غِنى به ولا منفعةَ، كذلِك هي الدنيا، بخلافِ الاشتغالِ بأعمالِ الآخرةِ، فإنَّها التي تَعقُب المنافِعَ والخيراتِ[٤]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٩).
قال ابنُ عُثيمين: (يَحمِلون جزاءَ الأعمالِ على ظُهورِهم حملًا حقيقيًّا، فالواجبُ أن نَحمِلَ الآياتِ على ظاهرِها. ولا يقول قائلٌ: كيف يحملُ الجزاء على الظَّهرِ؟! فيومَ القيامة لا يُقاس بأيَّام الدُّنيا؛ لأنَّ الحال تختلف اختلافًا عظيمًا، فمِن الجائز الممكن أنَّ الله تعالى يخلُقُ هذه الجزاءاتِ حتى تكونَ أجسامًا تُحمَل على الظهور). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٩-١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٤).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

أي: وليستْ هذه الحياةُ الدَّنيَّةُ زمنًا ومرتبةً- بأعمالِها ولذائذِها وشَهواتِها ومتاعِها- سِوى لعبٍ ولهوٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أي: وأمَّا الآخِرةُ، فإنَّها- في ذاتِها وصِفاتِها، وبقائِها ودوامِها ونعيمِها- والعملَ لها، والاستعدادَ لأجْلِها في الدُّنيا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ خيرٌ من الدُّنيا لِلَّذين يَفعَلون ما أمَرَ اللهُ تعالى به، ويَترُكون ما نَهى عنه(٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وعن المستورِدِ بنِ شَدَّاد رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ، ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجعَلُ أَحدُكم إصبَعَهُ هذهِ- وأشارَ يَحيى بالسَّبَّابةِ- في اليمِّ، فلْيَنظرْ بِمَ يَرجِعُ؟))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٦-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٧-١٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفليستْ لكم- أيها المكذِّبون بالبعثِ- عُقولٌ تُدركون بها حقيقةَ كلِّ دار، وأيُّهما أَوْلى بالإيثار[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الإشارةُ إلى دُنُوِّ الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها ليستْ بتلك الحياةِ التي يَنبغي للإنسان أن يُحافظَ عليها، ويَنسى الآخرةَ؛ لقوله: ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

٢- التَّزهيدُ في الدُّنيا والترغيبُ في الآخِرة؛ وجهُ ذلك: أنَّه وصَفَ الدُّنيا بقوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ووصَفَ الآخِرةَ بقوله: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[2].

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أنَّ هذا تقييمٌ مُطلَق، ولكنَّه في التصوُّرِ الإسلاميِّ لا يُنشئ إهمالًا للحياةِ الدُّنيا، ولا سلبيَّةً فيها ولا انعزالًا عنها؛ فالنماذجُ الكبيرةُ التي تمثِّل التصوُّرَ الإسلاميَّ في أكملِ صورة، لم تكُن سلبيَّةً ولا انعزاليَّة؛ فهذا جيلُ الصحابةِ كلُّه، الذين قهَروا الشيطانَ في نُفوسِهم، كما قَهروه في الأَنظِمةِ الجاهليَّة السَّائدةِ مِن حَوْلهم في الأرضِ، إنَّما أفادَهم هذا التَّقييمُ الربانيُّ للحياةِ الدُّنيا ولِلدَّارِ الآخِرةِ؛ أنَّهم لم يُصبِحوا عبيدًا للدُّنيا، لقد رَكِبوها ولم تَرْكبْهم! وعبَّدوها، فذلَّلوها للهِ ولسُلطانه، ولم تَستعبِدْهم! ولقد قاموا بالخِلافة فيها بكلِّ ما تَقتضيه الخلافةُ من تعميرٍ وإصلاحٍ، ولكنَّهم كانوا يَبتغونَ في هذه الخلافةِ وجهَ الله، ويَرجُون الدارَ الآخِرةَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٨-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٧٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه أنَّ الدَّار الآخِرةَ خيرٌ للمتَّقينَ مِن الدُّنيا، وعلى هذا فما يُصيبُهم في الدُّنيا من الأذَى في اللهِ عزَّ وجلَّ، أو أمراضٍ تُصيبُهم، أو في فقْدِ حبيبٍ، أو ما أشْبهَ ذلك؛ فإنَّه في الآخِرَةِ يُنسَى وكأنَّه لم يكُنْ؛ لأنَّ الدارَ الآخِرةَ تمحو كلَّ شيءٍ سبَقَ، وكأنَّه لم يكُن[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في العَطفِ بالفاءِ دَلالةٌ على أنَّ أوَّلَ شيءٍ يقعُ حينئذٍ في قلوبِهم، ويَسبِقُ التعبيرُ عنه إلى ألْسنتِهم، هو النَّدمُ على ما سلَفَ منهم، وتمنِّي الرُّجوع إلى الدُّنيا ليُؤْمنوا[٢].

٢- في قولِه تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ شِدَّةُ ندَمِ الكافِرين إذا وُقِفوا على نارِ جهنَّم؛ لكونِهم يَتمنَّوْن أمرًا لا يُمكنُ أنْ يكون[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ فيه إشكال؛ إذ كيف يتمنون الردَّ مع أنَّهم يَعلَمون أنَّ الردَّ لا يَحصُلُ البتَّةَ؟

والجوابُ: أنَّه لعَلَّهم لم يَعْلَموا أنَّ الردَّ لا يَحصُلُ، أو أنَّهم وإنْ عَلِموا أنَّ ذلك لا يَحصُل إلَّا أنَّ هذا العِلمَ لا يَمنَعُ من حصولِ إرادةِ الردِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة: ٣٧]، وكقوله: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فلمَّا صحَّ أنْ يُريدوا هذه الأشياءَ مع العِلم بأنَّها لا تَحصُلُ، فبأنْ يَتمنَّوْه أقربُ؛ لأنَّ بابَ التمنِّي أوسعُ؛ لأنَّه يصحُّ أن يتمنَّى ما لا يصحُّ أنْ يُريدَ مِن الأمورِ الثلاثةِ الماضيةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٠).

٤- في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ غلوُّهم في الإصرارِ على الكُفرِ، وعدمُ رَغبتِهم في الإيمانِ؛ فقدْ بيَّن اللهُ تعالى أنَّهم لو شاهَدوا النَّارَ والعذابَ، ثم سألوا الرجعةَ ورُدُّوا إلى الدُّنيا، لعادوا إلى الشِّركِ[١].

٥- تعلُّقُ عِلمِ اللهِ بالمستحيلِ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[٢].

٦- أنَّ الكافرينَ لا يَستنزِهون من الكَذِبِ حتَّى في الآخِرةِ، وكذلك المنافِقون؛ لأنَّ اللهَ تعالى كذَّبهم، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الخواطرَ الناشئةَ عن عوامِلِ الحِسِّ دون النظرِ والدليلِ لا قَرارَ لها في النَّفْس، ولا تسيرُ على مُقتضاها إلَّا رَيْثَما يدومُ ذلك الإحساسُ، فإذا زالَ زالَ أثرُه؛ فالانفعالُ به يُشبِهُ انفعالَ العَجْماواتِ من الزَّجْرِ والسَّوطِ ونحوِهما، ويزولُ بزوالِه حتَّى يُعاوِدَه مِثلُه[٤].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾، قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وإنَّما أضافَ رُبوبيَّتَه إليهم مع أنَّهم مِن أراذلِ عِبادِ اللهِ؛ إشارةً إلى أنَّه عزَّ وجلَّ هو الخالِقُ المالِكُ المدبِّرُ لهم؛ فكانَ عليهم أنْ يَقوموا بعِبادتِه، فتكونُ إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إليهم للإشارةِ إلى أنَّ السُّلطانَ له عليهم عزَّ وجلَّ، ومع ذلِك لم يُؤمنوا به ولا برُسُلِه، ولا عَمِلوا لهذا اليومِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣).

٩- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قَدْ يُتوهَّمُ أنَّه يُناقِضُ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]، فقيل: دَفْعُ هذا التوهُّم بأنْ يُحمَل قولُه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ على مَعنى: لا يُكلِّمهم كَلامَ تكريمٍ وتشريفٍ، ولا الكلامَ الذي فيه خَيرٌ، وأمَّا التوبيخُ والتَّقريعُ والإهانةُ، فكلامُ الله لهم به من جِنسِ عَذابِه لهم، ولم يُقصَدْ بالنفيِ في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُم﴾[1]، وقيل: يومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، ذو مواطنَ ومواقفَ ومواقيتَ، فيَنطِقون في وقتٍ، أو موقفٍ، ولا يَنطِقون في وقتٍ، أو موقفٍ آخَرَ[2].

١٠- خَصَّ لفظَ الذوق في قولِه: ﴿فَذُوقُوا﴾؛ لأنَّهم في كلِّ حالٍ يَجِدونه وِجْدانَ الذائقِ في قوَّةِ الإحساسِ[3].

١١- في قولِه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بيانُ خُسرانِ الكافرين المكذِّبين بالبعثِ، وأنَّهم مهما ظَنُّوا أنَّهم رَبِحوا فهُم خاسِرون، ولكنْ متى يَعلمون أنَّهم خاسِرون؟ إذا جاءَ الأجلُ، أمَّا الآن فهُم في سَكرةٍ لا يَدرُون؛ ولهذا لو انتَصروا اقتصاديًّا، أو عسكريًّا، أو فِكريًّا، لظنُّوا أنَّهم رابِحون، ولكنَّهم خاسِرون[4].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ فيه شِدَّةُ تحسُّرِ هؤلاءِ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ، وإقرارُهم على أنفسِهم بأنَّهم فرَّطوا[5].

١٣- في تَسميةِ الحياةِ الدُّنيا باللَّعِبِ واللَّهوِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٢)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧-٢٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٥١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٠، ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤، ١٦٥).

الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجوه، منها: الأوَّل: أنَّ مُدَّة اللهوِ واللَّعِبِ قليلةٌ، سريعةُ الانقضاءِ والزَّوال، ومُدَّةُ هذه الحياةِ كذلك، الثاني: أنَّ اللَّعِبَ واللهوَ ينساقَان في أكثرِ الأمْرِ إلى شيءٍ مِن المكارِه، ولذَّاتُ الدُّنيا كذلِك. الثالث: أنَّ اللَّعِبَ واللهوَ إنَّما يَحصُلان عند الاغترارِ بظواهرِ الأُمورِ، فليس لهما في نفْسِ الأمرِ حقيقةٌ مُعتبَرَةٌ، فكذلك الإغراقُ في الالتذاذ بطيِّباتِ الدُّنيا، والانتفاع بخيراتِها، لا يَحصُلُ إلَّا للجاهِلين بحقائقِ الأمور. الرابع: أنَّ اللَّعِبَ واللَّهوَ ليس لهما عاقبةٌ محمودةٌ[1].

١٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ بيانُ حَقيقةِ وزنِ الدُّنيا ووزنِ الآخِرَةِ في مِيزانِ اللهِ، وقِيمةِ هذه الدُّنيا وقِيمةِ الآخِرَة في هذا الميزانِ الصَّحيح؛ فهذه هي القِيمةُ المطْلَقةُ الأخيرةُ في ميزانِ اللهِ للحياةِ الدُّنيا ولِلدَّارِ الآخِرَة[2].

١٥- أوجهُ الخيريَّةِ في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ متعددةٌ؛ أحدُها: أنَّ خيراتِ الدُّنيا خسيسةٌ؛ فالحيواناتُ تُشارِكُ الإنسانَ فيها، كالأكلِ والجماعِ، بل ربَّما كان أمرُ تِلك الحيوانات فيها أكملَ مِن أمْرِ الإنسان، وكذلك فلذَّاتُها سريعةُ الانقضاءِ والاستحالةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الوجوهِ التي تثبت خَساسةَ هذه الملذَّات، بخلاف خيراتِ الآخِرة وسعاداتِها الرُّوحانيَّةِ فهي شريفةٌ، عاليةٌ، باقيةٌ، مُقدَّسة. الأمر الثاني: في بيانِ أنَّ خيراتِ الآخرةِ أفضلُ مِن خيراتِ الدُّنيا، هو أنْ يُقالَ: هبْ أنَّ هذينِ النَّوْعين تَشاركَا في الفضلِ إلَّا أنَّ الوصولَ إلى الخيراتِ الموعودةِ في غدِ القيامةِ معلومٌ قطعًا، وأمَّا الوصولُ إلى الخيراتِ الموعودةِ في غدِ الدُّنيا فغيرُ معلومٍ، بل ولا مظنونٍ، فكم مِن سُلطانٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٧٢).

قاهرٍ في بُكرةِ اليومِ صار تحتَ التُّرابِ في آخِرِ ذلك اليومِ. الأمْر الثَّالث: هبْ أنَّه وَجَدَ الإنسانُ بعدَ هذا اليومِ يومًا آخَرَ في الدُّنيا إلَّا أنَّه لا يَدرِي هلْ يُمكنه الانتفاعُ بما جمَعَه من الأموالِ والطيِّباتِ واللذَّاتِ أم لا؟ أمَّا كلُّ ما جَمَعه من السَّعادات، فإنَّه قطعًا ينتفعُ به في الآخِرَة. الأمر الرابع: هبْ أنَّه يَنتفعُ بها إلَّا أنَّ انتفاعَه بخيراتِ الدُّنيا لا يَخلو عن الشَّوائبِ والمنغِّصات، والانتفاعُ بخيراتِ الآخِرَةِ خالٍ عن شوائبِ المكروهاتِ. الأمر الخامس: هبْ أنَّه ينتفعُ بتلك الأموالِ والطيِّبات من غيرِ شائبةٍ إلَّا أنَّ ذلك الانتفاعَ منقرضٌ ذاهبٌ، والمنافعُ المنقرضةُ تُحزِنُ الإنسانَ لمفارقتِها، وكلَّما كانتْ تلك المنافعُ أكملَ وألذَّ، كانتْ تلك الأحزانُ الحاصلةُ عن انقراضِها وانقطاعِها أقوى وأكْمَلَ(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ جوابِ ﴿لَوْ﴾(٢)، وحَذْفِ مفعولِ ﴿تَرَى﴾ أيضًا، وفائدتُه: أنَّ النَّفسَ تذهبُ في تَقديرِ المحذوفِ كلَّ مذهبٍ، والخيالَ يتَّسعُ للتقديرِ، إلى جانِبِ تَفخيمِ الأمرِ، وتَعظيمِ الشَّأنِ(٣)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٠٨).

(٢) فقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يَقتضي له جوابًا، وجازَ حَذْفُه؛ لعِلم المخاطَبِ به. وأشباهُه كثيرةٌ في القُرآنِ والشِّعر، ولو قُدِّر الجوابُ، كان التقدير: لرأيتَ سُوءَ مُنقَلَبِهم، أو لرأيتَ سُوءَ حالِهم. وحذْفُ الجوابِ في هذه الأشياءِ أَبلغُ في المعنى من إظهارِه، ألَا تَرى: أنَّك لو قُلتَ لغُلامِك: واللهِ لئنْ قُمتُ إليكَ! وسكتَّ عن الجوابِ، ذهب بفِكرِه إلى أنواعِ المكروهِ، من الضَّربِ، والقتْلِ، والكَسْر، وعَظُمَ الخوفُ، ولم يَدرِ أيَّ الأقسامِ تَبغي. ولو قلتَ: واللهِ لئن قُمتُ إليكَ لأضربنَّك، فأتيتَ بالجواب، لَعلِمَ أنَّك لم تبلغْ شيئًا غيرَ الضربِ، ولا يَخطُر ببالِه نوعٌ من المكروهِ سواه، فثبَتَ أنَّ حذْفَ الجوابِ أقوى تأثيرًا في حُصولِ الخوفِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٨).

وقيل: إنَّ جواب (لو) مذكورٌ مِن بَعضِ الوجوهِ، والتقدير: ولو ترَى إذا وُقِفوا على النارِ يَنوحُونَ ويقولون: يا لَيْتَنَا نردُّ ولا نُكذِّب. وعلى هذا القول فليس فيه وجه الحذف.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩١).

والقاعدةُ: أنَّ حَذْف جَوابِ الشَّرطِ في مقاماتِ الوعيدِ يدلُّ على تَعظيمِ الأمْر، وشِدَّتِه(١).

- وفيه ذِكْرُ ما يكونُ مِن وُقُوفِهم على النَّارِ، وما يَترتَّب عليه من قولِهم بصِيغةِ الماضي الواقِع في حيِّزِ الشَّرطِ المستقبَل في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا﴾؛ للإعلامِ بتحقُّقِ وقوعِه، على القولِ المشهورِ في مِثله(٢). وقيل: كلمة (إذ) تُقامُ مقامَ (إذا) إذا أراد المتكلِّمُ المبالغةَ في التكريرِ والتوكيدِ، وإزالةِ الشُّبهةِ؛ لأنَّ الماضِيَ قد وقَع واستقرَّ، فالتعبيرُ عَنِ المستقبلِ باللفظِ الموضوعِ للماضي يُفيدُ المبالغةَ مِن هذا الاعتبارِ(٣).

٢- قوله: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حرفُ النِّداء (يا) هنا لمجرَّد التنبيهِ؛ فهو حرفُ تنبيهٍ لا حرْفُ نِداء(٤)، وقيل: هو حرفُ نِداءٍ مُستعمَلٌ في التَّحسُّر؛ لأنَّ النِّداءَ يَقتضي بُعْدَ المنادَى؛ فاستُعمِلَ في التحسُّر(٥).

٣- قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: تَذييلٌ لِمَا قَبْلَه، وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدالَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكذبَ سجيَّةٌ لهم، قد تَطبَّعوا عليها من الدُّنيا؛ فلا عجبَ أنْ يَتمنَّوُا الرُّجوعَ ليُؤمِنوا، فلو رجَعوا لعادوا لِمَا كانوا عليه؛ فإنَّ الكذبَ سجيَّتُهم(٦).

- وأيضًا فقَوْلُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ اعتراضٌ توسَّطَ بينَ قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا

(١) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٨٦).

لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وقولِه: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وهذا الاعتراضُ مَسوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الشَّرْطيةُ مِنْ كَذِبِهم المَخصوصِ، ولو أُخِّر لأَوْهَم أنَّ المرادَ تَكذيبُهم في إنكارِهم البعثَ، والمعنى: لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعادوا لِمَا نُهوا عنه، وقالوا...[١].

٤- قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ صِيغةُ حَصْرٍ، أي: انحصَرَ جِنسُ حَياتِنا في حياتِنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها؛ فبَطَلَتْ حياةٌ بعدَ الموتِ[٢].

- والضَّمير ﴿هِيَ﴾ بعد ﴿إِنْ﴾ مُبهَمٌ يُفسِّره ما بعدَ الاستثناء المُفرَّغ ﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ قُصِد من إبهامه الإيجازُ؛ اعتمادًا على مُفسِّره[٣].

- وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فيه نفيٌ للبَعثِ، وهو يستلزِمُ تأكيدَ نفْيِ الحياةِ غير حياةِ الدنيا؛ لأنَّ البعثَ لا يكونُ إلَّا مع حياةٍ، وإنَّما عُطِفت ولم تُفصَل، فتكون مؤكِّدةً للجُملة قبلها؛ لأنَّ قَصْدَهم إبطالُ قولِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّهم يَحْيَون حياةً ثانيةً، وقولِه تارةً: إنَّهم مبعوثون بعدَ الموت، فقَصَدوا إبطالَ كلٍّ باستقلالِه[٤].

٥- قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، وفي تعليقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤).
وهذا الوجه على القول بأنَّ ﴿وَقَالُوا﴾ عَطفٌ على ﴿لَعَادُوا﴾، في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، أي: ولو رُدُّوا لكَفَروا ولَقَالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولونَ قَبْلَ مُعاينَةِ القِيامَة. وأمَّا على القولِ بأنَّ ﴿وَقَالُوا﴾ مُستأنفةٌ ليستْ داخلةً في حيِّز (لو)، فليس فيه هذا الوَجْهُ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَوْلِه: ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بقولِه: ﴿وُقِفُوا﴾ تمثيلٌ لحضورِهم المحشْرَ عندَ البعثِ؛ شُبِّهَتْ حالُهم في الحضورِ للحِسابِ بحالِ عبدٍ جَنَى، فقُبِضَ عليه، فوقَف بين يدَيْ ربِّه، وبذلك تظهَرُ مزيَّةُ التعبيرِ بلَفْظ ﴿رَبِّهِمْ﴾، دون اسمِ الجلالةِ(١).

٦- قوله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأَ مِن الكلامِ السَّابقِ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم ربُّهم إذ ذاكَ؟ فقيل: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾(٢)، وهو استفهامٌ تقريريٌّ دخَل على نفْيِ الأمرِ المُقرَّر به؛ لاختبارِ مقدارِ إقْرارِ المسؤولِ؛ فلذلك يُسأل عن نفْيِ ما هو واقعٌ؛ لأنَّه إنْ كان له مَطْمَعٌ في الإنكارِ تَدرَّع إليه بالنفيِ الواقِعِ في سؤال المقرِّر. والمقصود: أهذا حقٌّ؟! إذ إنَّهم كانوا يَزعُمونه باطلًا؛ ولذلك أجابوا بالحرفِ الموضوعِ لإبطالِ ما قَبْلَه وهو ﴿بَلَى﴾ فهو يُبطِلُ النفيَ؛ فهو إقرارٌ بوقوعِ الأمانيِّ، أي: بلى هو حقٌّ(٣).

- وقوله: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ فيه تأكيدُ اعترافِهم باليمينِ؛ إظهارًا لكمالِ يَقينهم بأنَّه حقٌّ؛ تحقيقًا لاعترافِهم للمُعترَفِ به؛ لأنَّه معلومٌ لله تعالى، أي: نُقرُّ ولا نشكُّ في أنَّه حقٌّ؛ فلذلك نُقسِم عليه، وهذا مِن استعمالِ القَسمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبرِ(٤) وهذا القَسَمُ منهم يُشعِرُ بشِدَّةِ النَّدمِ على إنكارِهم الأوَّل، فكأنَّهم كذَّبوا أنفُسَهم تكذيبًا مقرونًا بالقَسَمِ، ولا يَخفَى أنَّ مِثلَ هذا لا يَخرُجُ إلَّا مِن قلبٍ مُتحسِّرٍ، ولكن فاتَ الأوانُ(٥)!

- وفي ذِكر الربِّ في قوله تعالى: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ تَذكارٌ لهم بأنَّه كان يُربِّيهم، ويُصلِحُ حالَهم؛ فهو سيِّدُهم وهم عَبيدُه، لكنَّهم عصَوْه، وخالَفوا أمْرَه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨١).

٧- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ فيه الإظهارُ في موضِع الإضمارِ؛ فالَّذين كذَّبوا هم الَّذين حُكِيت أحوالُهم، لكنْ وُضِع الموصولُ مَوضعَ الضَّمير؛ للإيذانِ بتسبُّبِ خُسرانِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ من التكذيبِ بلِقائِه تعالى بقيامِ الساعةِ، وما يَترتَّبُ عليهِ مِن البعثِ وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه، واستمرارِهم على ذلك؛ فإنَّ كلمةَ ﴿حَتَّى﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ غايةٌ لتكذيبِهم لا لخُسرانهم؛ فإنَّه أبَدِيٌّ لا حدَّ له[١]، وفي هذا الإظهارِ كذلك تَعميمٌ، وتَنبيهٌ على ما أَوْجَب لهم ذلِك الخُسرانَ[٢].

- وحَسُنَ مجيءُ الخُسْران كنايةً عن فَواتِ الثوابِ العظيمِ، وحُصولِ العقابِ العظيمِ؛ لأنَّ موقِفَ القيامةِ موقفٌ لا حُكْمَ فيه لأحدٍ إلَّا للهِ تعالى، ولا قُدرةَ لأحدٍ على النَّفعِ والضرِّ، والرَّفعِ والخَفضِ إلَّا لله[٣].

- قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا...﴾ على القولِ بأنَّ تحسُّرَهم هذا يكون عندَ موتِهم؛ ففيه التعبيرُ عن الموتِ بالسَّاعةِ؛ وذلك لَمَّا كانَ الموتُ وُقوعًا في أحوالِ الآخرةِ ومُقدِّماتِها، جُعِل مِن جِنسِ السَّاعةِ، وسُمِّي باسمِها، أو جُعِل مَجيءُ السَّاعةِ بعدَ الموت؛ لسُرعتِه، كالواقِعِ بغيرِ فَترةٍ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).
وقال أبو حيَّان-بعدَما نقَلَ كلامَ الزمخشريِّ السابقَ-: ((ويُمكن حمْلُ السَّاعة على الحقيقة، وهو يوم القيامة، ولا يلزمُ من تحسُّرِهم وقتَ الموتِ أنَّهم لا يتحسَّرون يومَ القيامة، بل الظاهرُ ذلِك؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾؛ إذ هذا حالٌ مِنْ قولهم: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وهي حالٌ مُقارِنةٌ، وإذا حمَلْنا الساعةَ على وقتِ الموتِ كانتْ =

- قوله: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ فيه تنبيهٌ للنَّاس على ما سَيحصُلُ لهم من الحَسرةِ، والعربُ تُعبِّر عن تَعظيمِ أمثالِ هذه الأمورِ بهذه اللَّفْظة ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾، وهذا أبلغُ مِن أنْ يُقال: الحسرةُ علينا في تَفريطنا[1].

- والنِّداءُ في قولِه: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ مقصودٌ به التندُّمُ، وأضافوا الحسرةَ إلى أنفُسِهم؛ ليكونَ تَحسُّرُهم لأجْلِ أنفسِهم؛ فهم المُتحسِّرون والمتحسَّرُ عليهم، بخِلافِ قولِ القائِل: يا حسرةً، فإنَّه في الغالِبِ تحسُّرٌ لأجْلِ غيرِه، فهو يتحسَّرُ لحالِ غيرِه[2].

- والافتتاحُ بحرف الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يُفيد التنبيهَ للعنايةِ بالخبرِ[3]، والجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبلَه، وتَكملةٌ له[4].

٨- قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أفادتْ هذه الصِّيغةُ (وَمَا... إِلَّا) قَصْرَ الحياةِ على اللعبِ واللَّهوِ[5].

- وفيه مُناسبةٌ حسَنةٌ حيثُ قَدَّم اللَّعبَ هنا، وكذلِك في سُورةِ محمَّد في قوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، وسُورةِ الحديد في قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وعكَس في سورةِ الأعرافِ والعنكبوتِ؛

= حالًا مُقدَّرة، ومجيء المُقَدَّرَة بالنسبةِ إلى المقارِنَة قليلٌ، فيكون التكذيبُ متَّصلًا بهم مُغيًّا بالحسرةِ إلى يوم القيامة؛ إذ مُكثُهم في البرزخِ على اعتقاد أمثلِهم طريقةً يومٌ واحد). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣).

حيث قال في سُورة الأعرافِ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١] وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فقدَّم اللَّهوَ على اللَّعِبِ، والحِكمةُ مِن تقديمِ اللَّعِب على اللهوِ في بعضِ المواضِع وتأخيرِها في البعض الآخَر: أنَّ الآيَةَ الأُولى التي في سُورةِ الأنعام في قومٍ مِن الكُفَّار، كانوا إذا سَمِعوا آياتِ اللهِ هَزِلوا عندَها، واسْتَهْزؤوا بها، فهذا اتِّخاذُهم دِينَ اللهِ لَعبًا، فهؤلاءِ قومٌ حضَروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسمِعوا القرآن، وعَبِثوا عند سماعِه، ولَعِبوا بآياته، وأجْرَوها مجرَى أفعالٍ يُستَرْوَح إليها، ولا نفعَ في عُقباها، ثم شُغِلوا بدنياهم عن تَدبُّرها، وألهتْهم حلاوتُها عن الفِكر في صِحَّتها، فأوَّل أفعالهم لعبٌ، وثانيها لهوٌ، فهؤلاءِ لَمَّا فعلوا عند سماعِ القرآن مِن الاستهزاءِ والعبثِ أُطلِقَ على فِعلهم اسمُ اللَّعِب، ثم شُغِلوا عنه باستِحلاءِ الدنيا، كان هذا لهوًا منهم بعدَ اللَّعِب، وكان أوَّلُ دِينهم لعبًا وما بعدَه لهوًا؛ فلذلك قدَّم اللَّعِب على اللَّهو في هذه الآيةِ. وتقديمُ اللَّعبِ على اللَّهو في سورة الحديدِ؛ فلأنَّ معناه: الحياةُ الدُّنيا لِمَن اشتَغَل بها، ولم يتعَبْ لغيرِها مِن أعمالِ الآخرةِ مَقسومةٌ من الصِّبا، وهو وقتُ اللَّعِب، وبعدَه اللَّهو، ويتبع ذلك أخْذُ الزينةِ، ومِنْ أخْذِ الزينة تنشأُ مباهاةُ الأكْفَاءِ، ومفاخرةُ الأشكالِ والنُّظَراءِ، ثم بَعْدَه المكاثرةُ بالأموالِ والأولادِ، فترتيبُ الحياةِ على هذه الأحوالِ يُوجِبُ تقديمَ حالَ اللَّعِبِ على حالِ اللَّهو.

وأمَّا تقديمُ اللَّهوِ على اللَّعبِ في آيةِ الأعرافِ؛ فلأنَّ المقصودَ بالكافرينَ عامَّةُ الكفَّارِ، وليس مَن سمِعَ الآياتِ فقط، فقدَّم فِعْلَ أكثرِهم على فِعل أقلِّهم، وهم الذينَ شَغلتْهم الحياةُ الدُّنيا وحلاوتُها، والولايةُ وغباوتُها، وهذا هو اللَّهو، ثمَّ كانتْ أفعالُهم التي اقتدَوْا فيها بآبائِهم لَمَّا طابتْ لهم، ولم يَجِدوا في العاقبةِ

نفعًا عليهم، كاللَّعبِ الذي يَنطوي على أفعالٍ تَبطُلُ في الآجِل، وإنْ سَرَّتْ في العاجِل، وهذا بعدَ الأوَّلِ، وأَكثرُ الكفَّارِ دَأْبهم اللَّهوُ، وإنْ شَغَلَتْهم الحالُ التي اسْتَصْحَبوها عن الفِكر فيما يطرأُ عليها؛ فوَجَب لهذا تقديمُ ذِكرِ اللَّهوِ لوجهين: لتقدُّمِه على ما هو كاللَّعب، ولأنَّه فِعلُ أكثرِهم. واللَّعب في آية الأنعامِ المرادُ به فِعلُ أقلِّهم، وهو هناك أوَّلُ ما رُدَّ به ما جاءَ به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقُدِّم اللَّهوُ في سورةِ العنكبوت في قولِه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ...﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ لأنَّ المرادَ المبالغةُ في وصْف قِصَر مدَّة الدُّنيا بالإضافةِ إلى مُدَّةِ الأخرى، فكأنَّه قال: ما أَمدُ الحياةِ الدُّنيا إلَّا كأَمَدِ أَزْمِنَةِ اللَّهوِ واللَّعِبِ؛ فهي أزمنةٌ لشَغْلِ النَّفسِ بحلاوةِ ما يُتعجَّلُ، وإنَّما قُدِّم اللَّهْوُ على اللَّعِب هنا؛ لأنَّ أزمنةَ اللَّهوِ أكثرُ مِن أَزْمِنَةِ اللَّعِب؛ لأنَّ التشاغُلَ به أكثرُ؛ فوجَبَ تقديمُ ما يَكثُر على ما هو دُونَه في الكثرةِ؛ لأنَّ ذلك آخِذٌ بالشَّبهِ، وأبلغُ في وصْفِ المشبَّه[1].

وقيل: لأنَّ اللَّعِبَ يكونُ في زَمَنِ الصِّبا، واللَّهوُ يكونُ في زمَنِ الشَّبابِ، وزمنُ الصِّبا مُقدَّمٌ على زَمنِ الشَّباب؛ فناسَبَ إعطاءُ المقدَّمِ للأكْثرِ، والمُؤخَّرِ للأقلِّ[2].

وقيل: لأنَّه لا يتقدَّمُ اللَّفظُ في الكِتابِ العزيزِ ذِكرًا أو يتأخَّرُ إلَّا لموجِبٍ؛ فوجهُ تقديمِ اللَّعب في الأنعامِ: أنَّه المتقدِّمُ في الوجودِ الدُّنيويِّ على اللَّهو، ولأنَّ أوَّلَ ابتداءِ تعقُّلِ الإنسانِ وتَمْييزِه حالَه حالُ اللَّعِب، وهو المطابقُ لسنِّ الابتداءِ، فإذا استمرَّ أُلْهِيَ عن التدبُّر والاعتبارِ، وشُغِل بتماديه عن التفكُّرِ فيما به النجاةُ والفوزُ، فلمَّا لم يَبْرَحْ هؤلاء عن الجَري على عادةِ الصُّمِّ والبُكْم الذين لا يَعقِلون جرَى الإخبارُ عنهم في الآيةِ الثانيةِ من الأنعامِ بمُقتضَى أحوالِهم في أعمارِهم التي لم تَخرُجْ عن أحوالِ البهائمِ؛ فأوَّلُ أعمارِهم لعبٌ، وعَقِب ذلك

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥١٦ - ٥٢٥).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٤).

لَهْوٌ، فورَدَ الإخبارُ على حسَبِ جَرْيِ الأعمارِ. وقيل غيرُ ذلِك في أوجهِ التقديمِ والتأخيرِ في هذه الآياتِ(١).

٩- قوله: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه تخصيصُ المتَّقينَ بالذِّكْر، مع أنَّ غيرَهم كذلك؛ لأنَّهم الأصلُ، وغيرَهم تَبَعٌ لهم(٢).

- ويحتملُ أنَّه اعتراضٌ بالتَّذْييلِ لحِكاية حالِهم في الآخِرَة؛ فإنَّه لَمَّا حَكَى قوْلَهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ عَلِمَ السامعُ أنَّهم فرَّطوا في الأمورِ النَّافعةِ لهم في الآخِرَة؛ بسببِ الانهماكِ في زخارفِ الدُّنيا، فذَيَّلَ ذلك بخِطابِ المُؤْمِنين؛ تعريفًا بقيمةِ زخارفِ الدُّنيا، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخِرةَ هي دارُ الخيرِ للمُؤْمِنين(٣).

- وفيه مناسبة حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بقولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وفي سورةِ الأعرافِ عبَّر بقوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ففي الأنعام ﴿وَلَلدَّارُ﴾ باللَّامِ، وفي الأعراف ﴿وَالدَّارُ﴾ بغيرِ تلك اللام؛ لأنَّ آية الأنعام تَقدَّمها قولُه تعالى مُعرِّفًا بحالِ الدنيا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ومعنى التأكيدِ في هذا حاصِلٌ مِن جَرْيِ الكلامِ وسياقِه؛ حيثُ دخَلتْه (إلَّا) بعدَ (ما) النافيةِ، فأفادت القَصْرَ، ومِثل هذا هو المعنى الحاصِلُ مِن لفظِ القَسَم الصَّريح؛ فناسَبَه هنا مَجيءُ اللامِ داخِلةً على المبتدأ في الآيةِ المعرِّفةِ لحالِ الدَّار الأُخرى، وكأنَّه نصُّ قولك: واللهِ لَلدَّارُ الآخِرةُ خيرٌ، وتَناسَب هذا مع ما تقدَّم قبلَه مِن تقديرِ القَسَمِ المؤكَّد كما تَبيَّن، وليس في آيةِ الأعراف ما يَقتضي هذا؛ لأنَّها مُناطةٌ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٥ - ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣).

بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾[1] [الأعراف: ١٦٩].

- وأيضًا أُجْرِيت ﴿الآخِرَة﴾ على الدَّار نَعتًا لها في سُورتَي الأنعامِ والأعراف، وفي سورة يوسُفَ قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] على الإضافةِ؛ وذلِك لأنَّ كلَّ لفظٍ مُطابِقٌ لِمَا تقدَّمَ قَبْلَ كلِّ واحدةٍ مِن الآيتين، أمَّا في آيةِ الأنعام فقوله تعالى مُخبِرًا عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، فطابَقَ هذا قولَه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، وأمَّا آيةُ الأعرافِ فقولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف:١٦٩]، المرادُ به الدَّارُ الدُّنيا، فقُوبِلَ بقوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:١٦٩]، وهذا بَيِّنٌ، ولَمَّا لم يتقدَّمْ مِثلُ ذلك قبلَ آيةِ يُوسُفَ، ورَدَ لفظُ الدارِ مُضافًا بغيرِ الألِفِ واللامِ فيه، فقيل: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وجاءَ كلٌّ على ما يجبُ ويُناسِبُ[2].

- وأيضًا عبَّر في الأنعام والأعراف بقوله: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ بالمضارِعِ، وفي سورة يُوسَف قال: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [يوسف: ١٠٩] بالماضِي؛ لأنَّه في سورة يوسُفَ قدْ تَقدَّم قبلَه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا...﴾ الآية [يوسف: ١٠٩]، والحاصِلُ منه أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فأُهْلِكوا، ولو اتَّقَوْا لنَجَوْا؛ فناسَبَ هذا المعنى المقدَّرَ ورودُ الماضي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أوْضَحَ مُناسَبةٍ[3].

- وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تعريضٌ بالمشرِكينَ بأنَّهم صائِرونَ إلى

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآخِرَة، لكنَّها ليستْ لهم بخيرٍ ممَّا كانوا في الدُّنيا[١].

- وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢] يَحتملُ أن يكونَ فيه التفاتٌ مِن الحديثِ عنهم بالغَيبةِ إلى خِطابِهم بالدَّعوةِ- إذا كانتِ الآية إعادةً لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى. ويَحتملُ أن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراضًا بالتذييلِ لحِكاية حالهم في الآخِرة؛ فإنَّه لَمَّا حَكَى قولَهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، عَلِم السامعُ أنَّهم فرَّطوا في الأمورِ النافعة لهم في الآخرة بسببِ الانهماك في زخارفِ الدُّنيا، فذَيَّل ذلك بخِطابِ المؤمنين تعريفًا بقِيمةِ زخارف الدُّنيا، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخِرَةَ هي دارُ الخير للمؤمنين[٣].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ عن عَدَمِ عَقلِهم؛ إنْ كان خِطابًا للمُشركين، أو مستعمَلٌ في التَّحذيرِ إنْ كان خِطابًا للمؤمنين، على أنَّه لَمَّا كان استعمالُه في أحدِ هذَينِ على وجهِ الكِنايةِ، صحَّ أنْ يُرادَ منه الأمرانِ باعتبار كِلَا الفَريقينِ؛ لأنَّ المدلولاتِ الكنائيَّةَ تَتعدَّدُ، ولا يَلزمُ مِن تَعدُّدِها الاشتراكُ؛ لأنَّ دَلالتَها التزاميَّةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٥).

(٢) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾- بتاء الخِطاب- على طريقة الالتفات. وقرأه الباقون (أَفَلَا يَعْقِلُونَ)- بياء تحتية-، فهو على هذه القراءةِ عائدٌ لِمَا عاد إليه ضمائرُ الغيبة قبْلَه، والاستفهام حينئذٍ للتعجب من حالهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢ - ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٥).

الآيات (٣٣ - ٣٥)

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يُنكِرونَ بألسِنَتِهم وهم مُستَيقِنونَ بقُلوبِهم، والجُحُود: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدلُّ على قلَّةِ الخيرِ(١).

﴿ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: أي: لا مُغَيِّرَ لكَلماتِ الله، والتَّبديلُ: جَعْلُ شَيءٍ مَكانَ آخَرَ، وأصلُ (بدل): قِيامُ شَيءٍ مقامَ الشَّيءِ الذَّاهب(٢).

﴿نبَأ﴾: النبأُ هو الخبَرُ الذي له شَأنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأصل (نبأ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّي الخبرُ نبأً؛ لانتقالِه من مكانٍ إلى مكانٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧١) (١٠/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨-٧٨٩).

﴿نَفَقًا﴾: أي: سَرَبًا ومَنفذًا في الأرضِ، وأصل (نفق): يدلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغماضِه(١).

﴿سُلَّمًا﴾: أي: مِصْعَدًا، أو ما يُتَوصَّل به إلى الأمكِنَة العاليةِ، فيُرجى به السَّلامةُ، وقيل: سببًا؛ وسُمِّيَ سُلَّمًا؛ لتسليمِه إلى المَقْصِد(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنَبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه يعلَمُ أنَّ ما يقولُه المُشْركونَ يُورِثُه الحُزنَ، وأخبَرَه أنَّهم لا يكذِّبونَه في حقيقةِ الأمْر، بل هم يَعْلمونَ أنَّه صادِقٌ، ولكنَّ الظَّالمينَ يُنْكِرون آياتِ اللهِ عنادًا.

ثم يُخبِرُ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قد حصَل التَّكذيبُ لرُسُلٍ مِن قَبلِه، فقابلوا التكذيبَ والأذى بالصَّبرِ حتى أتاهم نصْرُ اللهِ تعالى، ولا أحَدَ بإمكانه أن يُغيِّرَ كلماتِ الله التي كتَبَها مِن وَعْدِه لرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه بالنَّصرِ والظَّفَرِ، ثم ذكَّرَه اللهُ تعالى أنَّه جاءه مِن قَصَصِ الرُّسُل قبله، وأنَّ عاقبتَهم كانت النصرَ والظَّفَرَ.

ثم يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ كان شَقَّ عليك إعراضُ هؤلاء المشركينَ عن تَصديقِك، فإنِ استطعْتَ أن تتَّخِذَ نفَقًا تنفُذُ به إلى باطنِ الأرض، أو مِصْعَدًا تَرْقَى به إلى السَّماءِ، فتأتِيَهم بحُجَّةٍ وبُرهانٍ على صِدقِك؛ فلْتَفْعل ذلك، ولو شاءَ الله تعالى لجَمَع أولئك المكذِّبينَ على الهُدَى،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٩١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

ثم نهى اللهُ نبيَّه أنْ يكونَ من الجاهلينَ الذين لا يَعْرِفون حَقائِقَ الأمورِ، ولا سُنَنَ اللهِ في خَلْقِه، فيعْظُمَ عليه إعراضُهم، ويَحْزَنَ لعدمِ إيمانِهم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تكرَّر في هذه السُّورةِ أمْرُ اللهِ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمقاوَلَةِ الكفَّار، وذلك بتلقينِه لفْظَ (قل..، قل..)، وأطال في الحَثِّ على مُجادَلَتِهم، وختَم بما يَقتضي سَلْبَهم العقْلَ، مع تكريرِ الإخبارِ بأنَّ المَقضِيَّ بخَسارتِه منهم لا يُؤمنونَ لآيةٍ من الآيات، وكان مِن المعلومِ أنَّهم حالَ إسماعِهم ما أَمَر به لا يَسكتونَ؛ لِمَا عندَهم من عظيمِ النَّخْوة، وشماخَةِ الكِبْر، وقُوَّة الجُرأة، وأنَّه لا جوابَ لهم إلَّا التَّبعةُ والبذاءةُ، كما هو دَأْب المعانِد المغلوبِ، وأنَّ ذلك يَحزُنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِمَا جُبِل عليه من الحَياءِ والشَّهامَةِ والصِّيانَةِ والنَّزاهَة- كان الحالُ محتاجًا إلى التَّسْلِيَة[1]، فقال تعالى:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾.

أي: قدْ عَلِمْنا أنَّ ما يقولُه المُشركون[2]، يُورِثُك الحُزْنَ يا محمَّدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤).

(٢) ومِن ذلك قولُهم: إنَّه كذَّاب، أو شاعِر، أو ساحِر، أو كاهن، أو هذا الذي جئتَ به أساطيرُ الأولين، أو لا نقبَلُ دِينَك، أو يَقترحون الآياتِ تعنُّتًا، أو يقولون: لله البناتُ، أو نحن نعبُد ما عبَد آباؤُنا...إلخ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤-٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٧-١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

أي: فلا تظُنَّنَّ أنَّ ما يقولونَه صادرٌ عن شَكٍّ واشتباهٍ في صِدْقِك، وصِدْقِ ما جئتَ به؛ فهُم يَعلمون في قرارةِ أنْفُسِهم أنَّك صادقٌ، وأنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ[1].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ يُنْكِرونَ - عنادًا منهم بسببِ ظُلْمِهم - الأدِلَّةَ والبراهينَ التي هي الحقُّ مِن عندِ اللهِ تبارَكَ وتعالَى[2].

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أزالَ الله تعالى الحُزْنَ عن قلبِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الآيةِ السَّابقةِ؛ بأنْ بَيَّنَ أنَّ تكذيبَ رسولِه يَجري مَجرَى تكذيبِ اللهِ تعالى - ذَكَرَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٠)، ((التسعينية)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٣).

هذه الآيةِ طريقًا آخرَ في إزالةِ الحُزْنِ عن قلْبِه، وذلك بأنْ بيَّنَ أنَّ سائِرَ الأُمَم عاملوا أنبياءَهم بِمِثْل هذه المعامَلَةِ، وأنَّ أولئك صَبَروا على تَكذيبِهم وإيذائِهم حتَّى أتاهم النَّصْرُ والفَتْحُ والظَّفَرُ؛ فوجَب أن يَقْتديَ بهم في هذه الطريقةِ[1]؛ فقال:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

أي: ولقد كذَّبَ الكفارُ رُسُلًا مِن قَبْلِك- يا محمَّدُ- قد أرسَلَهم اللهُ تعالى إلى أقوامِهم، فصَبَروا على ما نالَهم من التكذيبِ والأذى البليغِ، ومَضَوْا في دَعْوتِهم وجِهادِهم، حتى أتاهم نَصْرُ اللهِ سبحانه، فإنْ يُكَذِّبْك- يا محمَّدُ- هؤلاءِ المشركونَ مِن قومِك، فلا يَحزُنْك ذلك، واصبِرْ على تكذيبِهم إيَّاك وما تَلْقَى منهم من مَكروهٍ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ، كما صَبَروا[2].

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا أحَدَ يَستطيعُ أنْ يُغيِّرَ كلماتِ الله تعالى التي كتبَها، والتي أنزَلَها إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِن وَعْدِه المؤمنينَ بالنَّصْرِ والظَّفَر على مَن خالَفَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٦-١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٨).

اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المُرادَ بكَلماتِ اللهِ تعالى: ما أنزَلَه إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِنَ الوَعدِ بالنَّصرِ على أعدائِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ المرادَ بكَلِماتِ اللهِ تعالى: ما أوحاه اللهُ سُبحانه إلى عمومِ رُسُلِه مِنَ الوَعدِ بالنَّصرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٢).

وقال ابنُ عثيمين: (وكلماتُه: هي وحيُه الذي أنزَلَه على الرُّسُلِ، وكذلك هي كلماتُه القَدَريَّةُ التي يكون بها النَّصرُ لأنبيائِه، والخِذلانُ لأعدائِه، ولا يَرِدُ على هذا ما جاء به النَّسْخُ؛ لأنَّ مُبَدِّلَ الحُكمِ المنسوخِ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، والآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا أحَدَ يُبَدِّلُ كَلِماتِ اللهِ، أمَّا اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: ولقدْ جاءَك- يا محمَّدُ- مِن قَصَص وأخبارِ مَن كان قبلك من الرُّسُل، كيف نُصِرُوا على مَن كذَّبَهم مِن قَوْمِهم؛ فلك فيهم أُسْوةٌ، وفي أخبارِهم تَثبيتٌ لفؤادِك، واطمئنانٌ لقَلْبِك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما هو في غايةِ الكِفايةِ في التَّسْليةِ؛ أخبره بأنَّه لا حِيلةَ له غيرُ الصَّبرِ؛ فإنَّه لا سبيلَ إلى إيمانِ هؤلاء الجاحدينَ إلا بمشيئةِ الله وإرادتِه[2]، فقال تعالى:

= تبارك وتعالى، فله أن يُبَدِّلَ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٨-١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٥/ ٦٨).
قال ابنُ عاشورٍ عن هذه الآيةِ: (عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ =

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾.

أي: وإنْ كان عَظُم وشَقَّ عليك- يا محمَّد- إعراضُ هؤلاءِ المشركينَ عنك، وانصرافُهم عن تصديقِك فيما جئتَهم به من الحَقِّ؛ لِحِرْصِك عليهم، ومَحبَّتِك لإيمانِهم[1].

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾.

أي: فإنْ قدرْتَ- يا محمَّدُ- على أنْ تتَّخِذَ سِرْدابًا تنفُذُ به إلى باطِنِ الأرض، أو تطلُبَ مِصْعَدًا تصعَدُ به كالدَّرَجِ إلى السَّماءِ؛ لتأتِيَهم بعَلامةٍ وبرهانٍ على صِدْقِك، وصِحَّةِ قولِك؛ فافعلْ ذلك[2].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ تعالى لجَمَع أولئك المكذِّبينَ على طَريقِ الاستقامةِ؛ فهو القادِرُ على ذلك سبحانه، ولكنَّه لم يَفعَلْ؛ وَفقًا لِمَا تَقتضيه حِكمَتُه سبحانه وتعالى؛ فلا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- مِن الذين لا يَعرفونَ حَقائِقَ الأمورِ، وسُنَنَ اللهِ تعالى في خَلْقه، فيَكْبُرَ عليك إعراضُهم، وتَحْزَنَ لعدمِ إيمانِهم[3].

= فإنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم كان يَحزُنُه ما يَقولونه فيه مِنَ التَّكْذيبِ به وبالقرآنِ، حُزْنًا على جَهْلِ قَوْمِه بقَدْرِ النَّصيحَةِ، وإنكارِهِم فَضيلَةَ صاحِبِها، وحُزْنًا من جَرَّاءِ الأَسَفِ عليهم من دَوامِ ضَلالِهم شفقةً عليهم، وقد سَلَّاه اللَّه تعالى عن الحُزْنِ الأوَّلِ بقولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وسَلَّاه عن الثَّاني بقولِه: ﴿وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ...﴾ الآيَةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٣)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٨-١٨٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه التسليةُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإرشادٌ له إلى سُنَّتِه تعالى في الرُّسُل والأُمَم، أو هي تذكيرٌ بهذه السُّنَّة، وما تتضمَّنه مِن حُسْن الأُسْوةِ، وقد ثبت بالتَّجارِبِ أنَّ التأسِّيَ يُهَوِّنُ المُصابَ، ويُفيدُ شيئًا من السَّلوةِ؛ فالإنسانُ إذا عَلِم أنَّ غَيرَه قدْ أصابَه ما أصابَه هانَ عليه الأمْرُ، ويَنبغي لنا أيضًا أنْ نتأسَّى ونتسلَّى أيضًا بما جرَى للرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فنَصبِرَ على أذَى مَن يقومُ أمامَ دَعوتِنا، والعاقبةُ للمُتَّقين(١).

٢- يُؤخَذ من قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنَّه ينبغي للدُّعاةِ أن يتسَلَّوْا برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإذا سَمِعوا ما يَكرهونَ من هؤلاءِ المكذِّبينَ المعاندينَ، فلْيَتَسلَّوْا به ويقولوا في أنفُسِهم وبألسِنَتِهم: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بما تقولون وسيُجازيكم(٢).

٣- في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ ذِكرَى وتسْرِيَةٌ، ومواساةٌ وتأسِيَةٌ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهي كلماتٌ ترسُم للدُّعاةِ إلى الله مِن بَعْدِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طريقَهم واضحًا، ودَورَهم مُحدَّدًا، كما ترسُم لهم مَتاعبَ الطَّريقِ وعَقَباتِه، ثمَّ ما يَنتظِرُهم بَعدَ ذلك كلِّه في نِهايةِ الطَّريقِ؛ إذ تُبيِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٠- ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

لهم أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الدعواتِ واحدةٌ، ووحدةٌ لا تَتجزَّأ؛ فهي دعوةٌ يَتلقَّاها الأغلبيةُ بالتَّكذيبِ، وأذَى أصحابِها، فيتحمَّلُ الدعاةُ الأذَى ويَصبِرون على التَّكذيب، ثم يكونُ النَّصرُ حليفَهم في النِّهاية، لكنَّ هذا النَّصرَ يأتي في مَوْعِدِه، لا يُعجِله عن هذا الموعدِ تَلقِّي الدُّعاةِ المخلِصين الطيِّبين للأذَى والتَّكذيبِ، ولا قُدرةُ المجرمين الضالِّين والمُضلِّين على أذى المُخلصين الأبرياءِ الطيِّبين، ولا رَغبةُ الدَّاعيةِ المخلِص في هِدايةِ قومِه، وتَحسُّرُه وأَسَاهُ على ما هُم فيه مِن الضَّلال، ولا تَألُّمُه لِمَا يَنتظرُهم من عذابٍ ودمارٍ في الدَّارينِ، بل يأتي في الموعد المحدَّدِ منه تعالى؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يَعجَلُ لعَجَلةِ أحدٍ مِن خَلْقِه، ولا مُبدِّلَ لكلماتِه، سواءٌ تَعلَّقتْ هذه الكلماتُ بالنصرِ المحتومِ، أمْ تَعلَّقتْ بالأَجَلِ المَرْسُوم[1].

٤- قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه أنَّ فَرَج الله عزَّ وجلَّ يأتي مع شِدَّةِ الكَرْب؛ فكلَّما اشتدَّ الكَرْبُ، فاعلَمْ أنَّه دنا الفَرَجُ[2].

٥- أفاد قوله تعالى: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أنَّه لا يُرجى النَّصرُ إلَّا مِن عندِ الله؛ لأنَّه قال: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾، ولم يَقُلْ: حتى نَصَرَهم فلانٌ أو فلان، لهذا جعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم يُناشِدُ ربَّه النَّصْرَ، في عريشٍ له، يومَ بَدْرٍ؛ حتى نصَره اللهُ- والحمدُ لله- فلا يُطلَبُ النصرُ إلَّا من الله، حتَّى في المجادلةِ العِلميَّة لا يُطلبُ النصرُ مِن المُوافِق، أو غيره، بل يُطلَبُ النَّصرُ مِن اللهِ، وإذا وصَلَ الإنسانُ إلى الحقِّ، فلْيَطلبْ مِن الله تعالى أنْ يَنصُرَه، أو يطلبْ مِن اللهِ تعالى أنْ يَهديَه صِراطَه المستقيمَ[3].

٦- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له ألَّا

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨١، ١٨٢).

يَهُونَ عليه إعراضُ النَّاسِ، بل يكونُ كبيرًا في نفْسِه، لكنْ لا تَعصُّبًا لِمَا هو عليه، ولكنْ من أجْلِ مَصلحةِ الآخرينَ[1].

٧- أنَّ الهدايةَ والضَّلالةَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[2].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بيانُ حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في جَعْلِ الناس صِنْفينِ: مؤمنينَ وكافرينَ، وهذا أمرٌ لا بدَّ منه؛ لأنَّه لولا الكُفرُ لم يُعْرَفْ فضلُ الإيمانِ، ولولا الإيمانُ لم يُعرَفْ قُبحُ الكُفْرِ، فإنْ لم يكُن هناك أشياءُ متضادَّةٌ ما عُرِف فَضْلُ الأشياءِ المحمودة، ثم إنَّه لولا اختلافُ النَّاسِ في الإيمانِ والكُفْر ما قامتْ رايةُ الجهادِ؛ لأنَّهم كلَّهم إمَّا مؤمنونَ وإمَّا كافرون؛ فمن يجاهدُ؟! فلولا هذا الاختلافُ ما قام الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكَر؛ لأنَّ النَّاسَ سيكونون كلُّهم إمَّا على مُنكرٍ وإمَّا على معروفٍ، لولا هذا الاختلافُ ما قامتِ الدَّعوةُ إلى الله- عزَّ وجلَّ-؛ لأنَّهم إنْ كانوا مؤمنينَ كلُّهم لم يَحتاجوا إلى دعوةٍ، وإنْ كانوا كافرينَ ما دُعُوا، إذَن فَمِنَ الحِكْمةِ أنَّ الله جعل الخَلْقَ صِنفينِ[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ فيه حِرْصُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ على هِدايةِ الخَلْقِ، وأنَّه يَحْزُنُه إعراضُ النَّاسِ عن دِينِ اللهِ[4].

٢- في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ ليس نهيًا عن الحُزنِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٤).

في حدِّ ذاتِه-؛ إذ لا شكَّ أنَّ الحُزنَ عندَ وقوعِ ما يَسوءُ مِن طَبْعِ البَشَرِ، الذي لا يُقدَرُ على الانفكاكِ عنه، فالنَّهيُ عنه- إذن- إنَّما هو نهيٌ عمَّا يَنشأُ عنه من الاسترسالِ المؤدِّي إلى الجَزَعِ المؤدِّي إلى عدَمِ الصَّبرِ، ونِسيانِ ما يُعزِّي؛ فهو من النَّهْيِ عن السَّبَبِ؛ للمبالغةِ في النَّهيِ عن المُسَبَّبِ(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنَّ الجحْدَ بآياتِ الله كُفْرٌ، ولو استيقَنَها الإنسانُ ما دام جَحَدها، وإنْ كان مؤمنًا بها في قَلْبِه؛ فإنَّه يَكفُر؛ لأنَّ أحكامَ الدُّنْيا تَجري على الظَّاهِر، فنحن نُكَفِّرُ مَن أظهَرَ الكُفرَ وإنْ كان مؤمنًا بقَلبِه، ونَسْكُتُ عمَّن أظْهَر الإسلامَ، ولو كان كافرًا بقَلْبِه؛ لأنَّ هذه هي أحكامُ الدُّنيا التي أوجبَها اللهُ عزَّ وجلَّ؛ إذ إنَّنا لا نعلَمُ ما في قلوبِ النَّاسِ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ظاهِرُه يَقتضي أنَّهم لا يُكذِّبون محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكنَّهم يَجحدونَ بآياتِ الله، واختَلَفوا في كيفيَّةِ الجَمْعِ بين هذينِ الأمرينِ على وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّ القَوْمَ ما كانوا يُكَذِّبونه في السِّرِّ، ولكنَّهم كانوا يُكذِّبونَه في العلانِيَة، ويَجْحدون القرآنَ والنُّبوَّةَ.

الوجه الثاني: أنَّهم لا يقولون: إنَّك أنتَ كذَّاب؛ لأنَّهم جرَّبوك الدَّهْرَ الطَّويلَ، والزَّمانَ المديدَ وما وجَدُوا منك كذِبًا البتَّةَ، وسَمَّوْكَ بالأمينِ؛ فلا يقولون فيك: إنَّك كاذبٌ، ولكنْ جَحَدوا صِحَّةَ نبوَّتِك ورسالتِك؛ إمَّا لأنَّهم اعتقدوا أنَّ محمَّدًا عرَضَ له نوعُ خبلٍ ونُقصان؛ فلأجْلِه تخيَّل مِن نفْسِه كونَه رسولًا مِن عند الله، وبهذا التقدير: لا ينسبونَه إلى الكَذبِ، أو لأنَّهم قالوا: إنَّه ما كذَبَ في سائرِ الأمور،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٥).

بل هو أمينٌ في كلِّها إلَّا في هذا الوجهِ الواحدِ.

الوجه الثَّالث: أنَّه لَمَّا ظهرتِ المعجزاتُ القاهرةُ على وَفْقِ دعواه، ثم إنَّ القوم أصرُّوا على التكذيبِ، فاللهُ تعالى قال له: إنَّ القَوْمَ ما كذَّبوك، وإنَّما كذَّبوني. وليس المقصودُ منه نفيَ تكذيبِه، بل المقصودُ تعظيمُ الأمرِ، وتفخيمُ الشَّأن، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

والوجه الرَّابع: أنْ يُقال: المرادُ من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يَخصُّونَك بهذا التَّكذيبِ؛ بل يُنْكرونَ دَلالةَ المُعْجِزة على الصِّدْق مطلقًا، وهو المرادُ من قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، والمرادُ أنَّهم يقولونَ في كلِّ مُعجزةٍ: إنَّها سِحْرٌ، ويُنْكرون دَلالةَ المُعجزةِ على الصِّدقِ على الإطلاقِ، فكان التقديرُ: إنَّهم لا يُكَذِّبونك على التَّعيينِ، بل القومُ يُكذِّبون جميعَ الأنبياءِ والرُّسُل، واللهُ أعلم[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ سؤالٌ: ما الحِكْمَةُ من إرسالِ الرُّسُل مع تكذيبِهم؟

والجوابُ: أنَّ ذلك لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، أي: على المُكذِّبين؛ لأنَّ هؤلاء المكَذِّبين لو لم يَأتِهم رسولٌ لقالوا: ربَّنا لولا أرسلْتَ إلينا رسولًا، ولو لم يأْتِهم رسولٌ لكان لهم حُجَّةٌ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2] [النساء: ١٦٣-١٦٥].

٦- في قوله: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بِشارةٌ للرَّسولِ مؤكِّدةٌ للتَّسليةِ بأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٨، ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٩، ١٨٠).

سَينصُره على المكذِّبين الظَّالمينَ مِن قَومِه، وعلى كُلِّ من يكذِّبُه ويُؤْذيه من أمَّة البَعْثَة، وإيماءٌ إلى حُسْنِ عاقبة الصَّبر؛ فمَن كان أصبَرَ كان أجدَرَ بالنَّصْرِ، إذا تساوتْ بين الخَصْمينِ سائرُ أسبابِ الغَلَب والقَهْر(١).

٧- يُستَفاد من إضافةِ الكَلِمات إلى الاسْمِ الأجَلِّ الأعظَمِ في قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الشعورُ بعلَّة القَطعِ بأنَّه لا مبدِّلَ لها؛ لأنَّ المُبَدِّلَ لكلماتِ غيرِه لا بُدَّ أن تكون قُدرَتُه فوق قُدْرَتِه، وسلطانُه أعْلَى من سلطانِه(٢).

٨- أنَّه لا أحَدَ يبدِّلُ كلماتِ الله؛ فإذا قدَّر اللهُ النَّصرَ، فلا أحَدَ يمنَعُه، وإذا قدَّرَ الخِذلان فلا أحَدَ يمنعه؛ أمَّا الكلماتُ الكونيَّةُ فعدمُ المُبَدِّل لها ظاهرٌ؛ لأنَّ الكلماتِ الكونيَّةَ لا بدَّ أن تقعَ، كن فيكون، ولا أحدَ يَستطيعُ أنْ يُبدِّلها، فإذا قال اللهُ تعالى: (كُنْ) لنُزولِ المَطَرِ نَزَل، ولا أحد يمنَعُه، وإذا قال: (كُنْ) لامتناعِ المَطَرِ امتنعَ، ولا أحدَ يُنْزِله. أمَّا الكلماتُ الشَّرعيَّة فمِنَ النَّاسِ مَن يُبَدِّلها، لكنَّ تبديلَه هذا باطلٌ، والباطِلُ لا وجودَ له شرعًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لَكَلِمَاتِ اللهِ﴾(٣).

٩- قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ فيه تَطْمينٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ تعالى ينصرُه، كما نصَر مَن قبلَه من الرُّسُل(٤).

١٠- يُستَفادُ من قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ بيانُ شِدَّةِ حِرصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هِدايَتِهم، بأنَّه لو قَدَرَ على أنْ يتكَلَّفَ النُّزولَ إلى تَحتِ الأرضِ أو فوقَ السَّماءِ فيأتِيَهم بما يُؤمنون به؛ لفَعَلَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٨).

١١ - أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يُبَيِّن الشَّيءَ المستحيلَ بِضَرْب مَثَلٍ له، دون أن يذكُرَه بعَينِه؛ وجْهُه أنَّ اللهَ قال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾، يعني: فافعَلْ، بدلًا من أن يقول: وإنْ كان كبُر عليك إعراضُهم فإنَّهم لن يؤمنوا، ولأنَّ هذا هو المتوقَّع، لكنَّ الله تعالى ضرب مثَلًا حتى يكون مُقْنِعًا للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام ولغيره أيضًا(١).

١٢ - يُستَفاد من قولِه تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أنَّه لا بدَّ لكلِّ نبيٍّ من آيةٍ، وهذا مِن حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ، أرأيتَ لو جاء رجلٌ في غيرِ هذه الأُمَّة، وادَّعى أنَّه رسولٌ، وقال: أنا رسولٌ ومنهجي كذا، وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني بدون أيِّ آيةٍ، هل يكونُ هذا منَ الحِكمةِ؟ الجوابُ: لا، ومَن كَذَّبَه فهو معذورٌ، وإلَّا لكان كلُّ كاذبٍ دجَّالٍ يدَّعِي أنَّه نبيٌّ، وربَّما يدَّعي أنَّه ربٌّ، فالآياتُ فيها نصرٌ للرُّسُل، ورحمةٌ بالمُرْسَل إليهم؛ حتى يُؤمِنوا عن يقينٍ(٢).

١٣ - يُستَفاد من قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ إثباتُ مرتبةٍ مِن مراتبِ الإيمانِ بالقَدَرِ، وهي المشيئةُ، وأنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ جميعَ أفعالِ عِبادِه، ومراتِبُ القَدَر أربعةٌ، وهي: العِلْم، والكِتابةُ، والمشيئةُ، والخَلْق(٣).

١٤ - في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ قد يَستشكِلُ بعضُهم أنَّه ما دُمْنا نقول: إنَّ الكُفْر بمشيئةِ الله، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ بحِكْمته قَسَّم النَّاسَ إلى قِسْمينِ؛ أفلا يقولُ الكافِرُ إنَّ في هذا ظلمًا لي؟

والجوابُ: لا، ليس ظلمًا، وليس له أنْ يَحتجَّ بالقَدَر على ما هو فيه؛ وذلك للآتي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٠، ١٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أولًا: أنَّ مَنْعَ اللهِ الكافرَ مِن الإيمان ليس ظلمًا؛ لأنَّ هذا حقُّه تعالى وفضلُه، وفضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يشاءُ.

ثانيًا: لا حُجَّةَ للكافِر ولا للعاصي على كُفره ومَعْصِيَتِه بقَدَر اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُقْدِمُ على ذلك باختيارِه، من غيرِ أنْ يَعلمَ أنَّ الله تعالى قَدَّرَه عليه؛ إذ لا يَعلمُ أحدٌ بقَدَر اللهِ إلَّا بعد وقوعِ مَقدورِه؛ فكيف يصِحُّ الاحتجاجُ بحُجَّةٍ لا يعلمُها المحتَجُّ حين إقدامِه على ما اعتذرَ بها عنه؟!

ثالثًا: إنْ كان حقًّا محتجًّا بالقَدَرِ؛ فلماذا لم يُقْدِمْ على الطَّاعةِ مُقدِّرًا أنَّ الله تعالى قد كتَبَها له؛ فإنَّه لا فَرْقَ بينها وبين المعصِيَةِ في الجَهلِ بالمقدورِ قبلَ صُدُورِ الفِعْل منه؟! ولهذا لَمَّا أخْبَر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّحابةَ بأنَّ كُلَّ واحدٍ قد كُتِبَ مَقْعَدُه من الجنَّة ومَقْعَدُه من النَّار، قالوا: أفلا نَتَّكِلُ، ونَدَعُ العملَ؟ قال: ((اعْمَلوا؛ فكُلٌّ ميَسَّرٌ لِما خُلِقَ له))[1].

رابعًا: أنَّ هذا الكافرَ أو العاصِي إذا أرادَ سفرًا، وكان له طَريقانِ؛ أحدُهما مَخُوفٌ وصعبٌ، والآخَر آمِنٌ سَهْلٌ، فإنَّه سيسلُك الآمِنَ، ولا يُمكن أن يَسلُكَ الأوَّلَ ويقول: إنَّه مُقدَّرٌ، وإلَّا لعُدَّ مَجنونًا؛ فلِمَ يَسلكُ- إذنْ- طريقَ الكفر والمعاصي ثم يحتجُّ بالقدَرِ[2]؟!

١٥- شِدَّة الخِطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فيه سرٌّ لطيفٌ، وهو تبعيدُ جنابِه الكريمِ عن الحِرصِ على ما لا يكونُ، والجزعِ في مواطِنِ الصَّبرِ، ممَّا لا يليقُ إلَّا بالجاهِلين، وهذا النهيُ لا يَقتضي إقدامَه على مِثلِ هذه الحالةِ كما أنَّ قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] لا يدلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أطاعَهم

(١) ينظر ما أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٢، ١٩٣).

وقَبِلَ دِينَهم، والمقصود: أنَّه لا يَنبغي أن يَشتدَّ تحسُّرُك على تَكذيبهم، ولا يجوزُ أن تجزعَ مِن إعراضِهم عنك؛ فإنَّك لو فعلتَ ذلك قرُبَ حالُك مِن حالِ الجاهِلين[1].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

- استئنافٌ ابتدائيٌّ مسُوقٌ لتسليَةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحُزْن الذي يَعتريهِ ممَّا حُكِيَ عن الكَفَرة من الإصرارِ على التَّكذيبِ، والمبالغَةِ فيه، ببيانِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمكانةٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

- و﴿قَدْ﴾ هنا تُفيدُ التَّحقيقَ للخَبَرِ الفِعليِّ ﴿نَعْلَمُ﴾؛ فإنَّ (قَدْ) في تَحقيقِ الجُملةِ الفِعليَّةِ بمنزلةِ (إنَّ) في تَحقيقِ الجُملةِ الاسميَّةِ، ومعنى التَّحقيقِ مُلازِمٌ له، سواءٌ كان مدخولُه ماضيًا أو مضارعًا على الأَصَحِّ[3]، والقاعدةُ: أنَّ (قد) إذا دخَلَتْ على المضارعِ المسنَدِ إلى اللهِ تعالى، فهي للتَّحقيقِ دائمًا[4].

- قوله: ﴿نَعْلَمُ﴾ عَبَّر بالمضارِعِ؛ لأنَّ المرادَ الاتِّصافُ بالعِلْم واستمرارُه، مِن غيرِ نظَرٍ إلى الزَّمانِ، وعَدَل عن الماضِي؛ لئلَّا يُظَنَّ الاختصاصُ به، فالمرادُ تحقُّقُ التجدُّد؛ لتعلُّقِ العِلْم بتجدُّدِ الأقوالِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٩)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٨-٤٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٠٣- ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٧-١٩٦).

(٤) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٩٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١١).

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾، أي: أقوالُهم الدالَّةُ على عدَمِ تَصديقِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما دلَّ عليه قولُه بعده: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾؛ فعَدَل سبحانه عن ذِكْر اسْمِ التَّكذيبِ ونَحْوه إلى اسمِ الموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (تكذيبُهم)؛ تَنزيهًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذِكْر هذا اللَّفْظِ الشَّنيعِ في جانبِه؛ تلطُّفًا معه، و﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هو قولهم: ساحرٌ، مجنونٌ، كاذبٌ، شاعرٌ؛ فعَدَلَ عن تفصيلِ قولهم إلى إجمالِه؛ إيجازًا، أو تحاشيًا عن التَّصريحِ به في جانَبِ المنزَّهِ عنه[١].

- والفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، والمعلَّل محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي: فلا تَحْزَنْ؛ فإنَّهم لا يُكذِّبونك، أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونك. ويجوزُ كونُها الفَصيحةَ[٢]، والتقديرُ: فإنْ كان يَحزنُك ذلك لأَجْلِ التكذيبِ فإنَّهم لا يُكذِّبونك. ويجوزُ أنْ تكونَ للتفريعِ على ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي: فعِلْمُنا بذلك يتفرَّعُ عليه أنَّا نُثبِّتُ فؤادَك، ونشرَحُ صدرَك بإعلامِك أنَّهم لا يكذِّبونك، وأنْ نُذكِّرَك بسُنَّة الرُّسُلِ مِن قبلِك، ونُذكِّرك بأنَّ العاقبةَ هي نصرُك- كما سبَق في عِلم اللهِ[٣].

- قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ فيه استدراكٌ[٤] لدَفْع أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٨).

(٢) الفاءُ الفصيحة: هي التي يُحذَف فيها المعطوفُ عليه، مع كونِه سببًا للمعطوفِ مِن غيرِ تقديرِ حرفِ الشَّرط. وقيل: سُميت فصيحةً؛ لأنَّها تفصحُ عن المحذوفِ، وتفيدُ بيانَ سببيته، سواء أكان المحذوفُ شرطًا أم غير شرطٍ، وقال بعضُهم: هي داخلةٌ على جملة مسببةٍ عن جملةٍ غيرِ مذكورةٍ، نحو قولِه تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾[البقرة: ٦٠] أي: ضرَب فانفجرتْ. يُنظر: ((معجم القواعد العربية)) للدقر (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٨).

(٤) الاستدراك: هو رفع توهُّم يتولَّد من الكلامِ السَّابق رفعًا شَبيهًا بالاستثناء، وهو معنى (لَكِنْ)، وهو من البَديع، ويُشترَطُ فيه زيادةُ نُكتةٍ طريفةٍ على معنى الاستدراكِ؛ لتُحسِّنَه وتُدخلَه في البديع، وإلَّا فلا يُعدُّ منه؛ وهو قِسمان: قسمٌ يَتقدَّم الاستدراكَ تَقريرٌ وتوكيدٌ؛ إمَّا لفظًا أو =

يُتَوَهَّمَ من قولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنَّهم لم يَصدُرْ منهم أصْلُ التَّكذيبِ، مع أنَّ الواقِعَ خِلافُ ذلك؛ فاستدرَكَ عليه بأنَّهم يَجْحَدونَ بآياتِ الله، فيَظْهَر حالُهم كحالِ مَن يَنْسُب الآتيَ بالآياتِ إلى الكَذِب، وما هُم بمكَذِّبينَ في نُفوسِهم(١).

- وفيه: إقامَةُ الظَّاهِرِ مَقامَ المُضْمَر - حيثُ عدَل عن الإضمارِ (ولكنَّهم) إلى قولِه: ﴿ولكنَّ الظَّالِمِينَ﴾-؛ للإسهابِ في ذمِّهم، وللتَّصْريحِ بلَفْظِ الظُّلْم وتَسْمِيَتِهم به؛ ليكونَ سِمةً يَتميَّزونَ بها؛ زيادةً في تأكيدِ ذَمِّهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الظُّلْم هو الحامِلُ لهم على الجُحُود، وإعلامًا بأنَّ شأنَ الظالمِ الجَحدُ بالحُجَّة، وتَسجيلًا عليهم بالرُّسوخِ في الظُّلْم - الذي جُحودُهم هذا فَنٌّ من فُنونِه - وأنَّ هذا الظلم سَجيَّتُهم(٢).

- وفي قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابَةِ، واستعظامِ ما أقْدَموا عليه من جحودِ آياته تعالى، وإيرادُ الجحودِ في مَوْرِد التكذيبِ؛ للإيذانِ بأنَّ آياتِه تعالى مِنَ الوضوحِ بحيث يشاهِدُ صِدْقَها كلُّ أحدٍ(٣).

- وقوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وتقديمُه عليه؛ للقَصْرِ ولإفادةِ الحَصْرِ، كأنَّ المعنى: (وَلَكنَّ الظَّالمينَ لا يَجحدون إلَّا بآياتِ اللهِ)، وإلَّا فهم يَعترفونَ بأشياءَ كثيرةٍ إلَّا آياتِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَعتَرِفون بها(٤).

= معنًى لِمَا أخبرَ به المتكلِّم، وقِسمٌ لا يتقدَّمه ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:١٧٣).

- وأيضًا قدَّمَ قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ على قولِه: ﴿يَجْحَدُونَ﴾؛ لتناسُبِ رؤُوسِ الآياتِ(١).

- وفي هذه الآيةِ احتباكٌ؛ حيث حُذِفَ مِن الجملة الأولى سببُ الحُزنِ، وهو التَّكذيبُ؛ لدَلالةِ الثانية عليه، وحُذِفَ مِن الثَّاني النهيُ عن المسبِّبِ؛ لدَلالةِ الأولى عليه(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تصديرُ الكلامِ بلامِ القَسَم في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ لتأكيدِ الخَبَر بتنزيلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منزلةَ مَن ذُهِلَ طويلًا عن تكذيبِ الرُّسُلِ؛ لأنَّه لَمَّا أحْزَنَه قولُ قومِه فيه، كان كمن بَعُد عِلمُه بذلك(٣).

- وفيه افتنانٌ في تسليتِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ عمومَ البليَّةِ ربما يُهوِّنُ أمرَها بعضَ تهوينٍ، وإرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسلام إلى الاقتداءِ بمن قبلَه من الرُّسُل الكرامِ عليهم الصَّلاة والسَّلام في الصَّبرِ على ما أصابَهم من أُمَمِهم من فنونِ الأَذيَّة، وعِدَةٌ ضمنيَّةٌ له عليه الصَّلاة والسَّلام بمِثل ما مُنِحوه من النَّصْر(٤).

- وتنكيرُ قوله: ﴿رُسُلٌ﴾ وتنوينُه؛ للتَّفخيمِ والتكثيرِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٦).

وذكَر ابنُ عاشور وجهًا آخرَ فقال: (... فيكونُ في الآيةِ احتباكٌ. والتقديرُ: فإنَّهم لا يكذِّبونك ولا يكذِّبون الآياتِ، ولكنَّهم يجحدون بالآياتِ، ويجحدون بصدقِك، فحذَف مِن كلٍّ لدلالةِ الآخرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه التفاتٌ بديعٌ من ضميرِ الغَيبةِ إلى ضَميرِ المتكَلِّمِ؛ إذ قبله: ﴿بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، ولو جرى الكلامُ على نَسَقِه لقيل: (نَصْرُه)، وفائدةُ هذا الالتفات- بالإضافَةِ إلى تطريةِ الكلامِ وتنويعِه-: إبرازُ الاعتناءِ بشأنِ النَّصْرِ، وأنَّه أضاف النَّصْرَ إلى ضميرِ المتكلِّم المُشْعِرِ بالعَظَمة، المُتَنَزَّل فيه الواحِدُ منزلَةَ الجمعِ، والحافِز على وجوب مداومَةِ الجهاد[1].

- وأيضًا إضافةُ النَّصرِ إلى ضَميرِ العَظَمة تُشْعِر بعظَمَة شأنِه، وتشيرُ إلى كونِه من الآياتِ المؤيِّدَة لرُسُلِه[2].

- قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ اعتراضٌ مُقَرِّر لِمَا قبله من إتيانِ نَصْرِه إيَّاهم[3].

- والالتفاتُ إلى الاسم الجليل ﴿اللَّه﴾؛ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكم؛ فإنَّ الألوهيَّةَ من موجِباتِ ألَّا يُغالبَه أحدٌ في فعلٍ من الأفعالِ، وأنه لا يقعَ منه تعالى خُلْفٌ في قولٍ من الأقوالِ[4].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ جملةٌ قَسميَّة جِيءَ بها لتحقيقِ ما مُنِحوا من النَّصْرِ، وتأكيدِ ما في ضِمْنِه من الوَعْد لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو لتقريرِ جميعِ ما ذُكِر من تكذيبِ الأُمَمِ، وما ترتَّب عليه مِن الأمورِ[5].

٣- قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩١).

الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

- قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لتأكيدِ إيجابِ الصَّبرِ المستفادِ من التَّسْلِيَةِ ببيانِ أنَّه أمْرٌ لا محيدَ عنه أصلًا(١).

- وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر(٢).

- قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ تنكير ﴿بِآيَةٍ﴾؛ للتَّفخيمِ(٣).

- قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفةٌ لـ﴿نَفَقًا﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في العُمْقِ، مع استحضارِ الحالةِ، وتَصويرِ حالةِ الاستطاعةِ؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ النَّفَقَ لا يكون إلَّا في الأرضِ(٤).

- قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ تذييلٌ مفرَّعٌ على ما سَبَق.

- وأكَّد اللهُ تعالى الكلامَ في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ليَعْلَمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قد حتَّمَ اللهُ بافتراقِهم، فيَسْكُن إلى ذلك، ويُخالِف ما جُبِلَ عليه من شِدَّةِ الشَّفقةِ عليهم(٥).

- وعَدَل عن الأَمْرِ بالعِلْمِ- حيثُ لم يَقُلْ (فاعْلَمْ)-؛ لأنَّ النَّهيَ عن الجَهلِ يَتضمَّنُه؛ فيتقَرَّرُ في الذِّهن مرَّتينِ؛ ولأنَّ في النهي عن الجَهْل بذلك تحريضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠-١٠١).

على استحضارِ العلمِ به، كما يُقال للمُتعَلِّم: لا تَنْسَ هذه المسألةَ[١].

- ولم يقلْ (لا تكُنْ جاهلًا) بل مِن قومٍ ينُسَبون إلى الجهلِ، تعظيمًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بأن لم يُسنِدِ الجهلَ إليه؛ للمبالغةِ في نفيِه عنه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (وليس في الكلامِ نَهيٌ عن شيءٍ تلبَّسَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما توهَّمَه جمْعٌ من المفسِّرين، وذهَبوا فيه مذاهِبَ لا تَستبين)، وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩).

الآيات (٣٦ - ٣٩)

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿دَابَّةٍ﴾: الدابَّةُ هي كلُّ شيءٍ دبَّ على وجه الأرضِ، ويُستعْمَلُ في كلِّ حيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصل (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ من المَشْيِ[١].

﴿أُمَمٌ﴾: جمعُ أُمَّة، أي: جماعة، وتُطلَق على المِلَّة، والسُّنة، والحِين، وأصل (أمم): الأَصلُ والمَرْجِع، والجماعة، والدِّين[٢].

﴿صُمٌّ﴾: جمْعُ أصَمَّ، والصَّمَم فُقدانُ حاسَّة السَّمْع، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يَقبَلُه، وأصْلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ[٣].

﴿وَبُكْمٌ﴾: جمْع أبْكَم، وهو الذي يُولَدُ أخرَسَ؛ فكُلُّ أبكمَ أخرَسُ، وليس كلُّ أخرَسَ أبكَمَ، والبَكم: آفةٌ في اللِّسان مانعةٌ من الكلام، وبه يُوصَفُ مَن لا ينطقُ بالحقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ١٤٤، ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٢٨)، ((مقاييس =

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إنَّما يستجيبُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أولئك الذين يَسمعونَ توجيهاتِه وأقوالَه سماعَ تدبرٍ وتفهُّم وتأمُّلٍ، وأمَّا الكُفَّارُ فيبعَثُهم اللهُ من قُبورهم، ثم يَعودونَ إليه؛ ليجازِيَهم على أعمالِهم.

وقال المشرِكونَ المُكَذِّبون برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لو أُنْزِلَ على محمَّدٍ علامةٌ من عند ربِّه تدلُّ على صِدقِه. فأَمَرَ اللهُ نبيَّه أن يُخبِرَهم أنَّه تعالى قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ تلك العلامةَ، ولكنَّه سبحانَه يُنَزِّل ما تَقتضيه حِكمتُه، ولكِنَّ أكثرَهم لا يَعلمونَ حِكَم الله في أفعالِه، ولا سُننَه في خلْقِه.

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى لخَلْقِه بعضَ آياتِه الكونيةِ؛ ومنها أنَّه ما مِن دابةٍ تَدِبُّ على الأرضِ، ولا طائرٍ يَطيرُ في السَّماءِ، إلا وهي أممٌ مماثلةٌ لكم، ما أهمَلَ ولا أغفَلَ سبحانه في اللَّوْحِ المحفوظ شيئًا، ثمَّ إلى الله تعالى يُحْشَرونَ جميعًا.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ المُكَذِّبين بحُجَج اللهِ تعالى هم صمٌّ عن سَماع الحَقِّ، بُكْمٌ عن النُّطْقِ به، وهم في ظُلُماتِ الكُفْر لا يُبْصِرونَ، وأنَّ مَن يُرِدِ اللهُ إضلالَه مِن خَلْقِه أضَلَّه، ومَن يُرِدْ هدايتَه فإنَّه يَدُلُّه للسَّيرِ على الطَّريقِ المُستقيمِ المُوصِل إليه.

تفسيرُ الآيات:

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

هذه الآيةُ تعليلٌ لِمَا أفادَه قولُه: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من تأييسٍ مِن وُلوجِ الدَّعوةِ إلى أنْفُسِهم، أي لا

= اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

يستجيبُ إلَّا الذين يسمعونَ دونَ هؤلاءِ الذين حَرَمهم فائدةَ السَّمعِ، وفهمَ المسموعِ(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآيةِ السابقةِ أنَّه لو شاءَ لجَمَع النَّاسَ على الهُدى، ولكنَّه لم يَشَأْ أن يَجعلَ البَشَر مَفطورينَ على ذلك، ولا أنْ يُلْجِئَهم إليه إلجاءً بالآياتِ القاسرةِ، بل اقتضَتْ حِكْمَتُه، ومضَتْ سُنَّتُه في البَشَر بأنْ يكونوا مُتفاوتينَ في الاستعدادِ، عاملينَ بالاختيارِ؛ فمِنهم مَن يختار الهُدى على الضَّلالِ، ومِنهم مَن يَستحِبُّ العَمى على الهُدى- بيَّنَ لنا في هاتينِ الآيتينِ أنَّ الأوَّلينَ هم الذين يَنظرونَ في الآياتِ، ويَعقِلونَ ما يَسمعونَ من البيِّناتِ، وأنَّ الآخَرينَ لا يَسمعونَ ولا ينظرونَ، حتى كأنَّهم من الأمواتِ(٢)، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّما يستجيبُ لِدَعْوتِك- يا محمَّدُ- مَن يَعي الكلامَ بقلبِه ويَفْهَمُه، فينقادُ لك(٣).

﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وأمَّا هؤلاءِ الكُفَّارُ المعْرِضون عنكَ- يا محمَّدُ- فهُم أمواتُ القُلوبِ، لا تُرجَى منهم استجابةٌ؛ كموتى الأجسادِ، وسيُخْرِجهم اللهُ تعالى من قُبُورهم جميعًا يومَ القيامةِ، ثمَّ يعودونَ إليه لمجازاتِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٠).
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٤-١٩٥). =

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

الآيةُ عَطْفٌ على جملة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾، وهذا عَوْدٌ إلى ما جاء في أوَّلِ السُّورةِ مِن ذِكْرِ إعراضِهم عن آياتِ الله بقولِه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، ثم ذَكَر ما تفَنَّنوا به من المعاذيرِ من قولِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾[الأنعام: ٢٥]، أي: وقالوا: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ، أي على وَفْقِ مُقْتَرحِهم، وقد اقترحوا آياتٍ مختلفةً في مجادلاتٍ عديدةٍ؛ ولذلك أجْمَلها الله تعالى هنا اعتمادًا على عِلْمِها عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، فقال[1]:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: وقال المشركونَ المكذِّبونَ بالرَّسولِ؛ عِنادًا وتعنُّتًا: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ برهانٌ وعلامةٌ من عند رَبِّه، تدلُّ على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالَتِه، بما لا لَبْسَ في الحقِّ مَعَهَا[2].

= قال الشِّنقيطي: (وقد أجمَع مَن يُعتدُّ به من أهل العِلْم أنَّ المرادَ بالموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾: الكفارُ، ويدلُّ له مقابلةُ الموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ بالذين يَسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ...﴾، ولو كان يُراد بالموتى مَن فارقَتْ أرواحُهم أبدانَهم لقابَلَ الموتى بما يناسِبُهم؛ كأنْ يقال: إنَّما يستجيبُ الأحياءُ، أي: الذين لم تفارِقْ أرواحُهم أبدانَهم، وكقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ...﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٧-١٩٨).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

قل- يا محمَّدُ- لأولئك المشرِكين: إنَّ الله قادرٌ على أن يُنزِّلَ ما تطلبونَ؛ فليس في قُدرتِه قصورٌ عن ذلك(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ الذين يسألونَك آيةً- يا محمَّدُ- لا يدرونَ ما حِكمةُ تَرْكِ إنزالِ ذلك عليك؟ ولو عَلِموا السَّببَ لَمَا سألوك؛ فهُم لِجَهْلِهم يَطلبونَ ما هو شرٌّ لهم من الآياتِ التي لو جاءتهم وَفْقَ ما طلبوا ثم لم يُؤْمِنوا بها، لعُوجِلوا بالعقوبةِ، وأُهْلِكوا هلاكَ استئصالٍ، كما وقَع للأُمَم السَّابقةِ؛ فهي سُنَّةُ الله التي لا تَبديلَ لها، والعادةُ التي أَجْراها القديرُ سبحانه وتعالى(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١-٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠١-٢٠٤).

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا توعَّدَهم اللهُ بالآيةِ السَّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجَعونَ، زاد أنْ سَجَّل عليهم جهْلَهم، فأخبرَهم بما هو أعجَبُ ممَّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحَشْرَ ليس يختصُّ بالبَشَر، بل يعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدوابِّ والطيرِ(١).

وأيضًا لَمَّا حكَى عن هؤلاء قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولم يَعْتبروا ما نَزَل مِن الآياتِ، وأُجيبوا بأنَّ القُدرَةَ صالحةٌ لإنزالِ آيةٍ، ونُبِّهوا على جهلهم؛ حيث فرَّقوا بين آيةٍ وآيةٍ- أُخْبِروا أنَّهم أنفُسَهم وجميعَ الحيوانِ غيرِهم متماثلونَ في تعلُّقِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ بالجميعِ؛ فلا فرْقَ بين خَلْقِ مَن كُلِّف وما لم يُكَلَّف في تعلُّق القدرةِ بهما، فكأنَّه قِيل: القُدرةُ تعلَّقَت بالآياتِ كُلِّها مُقْترَحِها وغيرِ مُقترَحِها، كما تعلَّقَت بخَلْقِكم، وخَلْقِ سائرِ الحيوان، فالإمكانُ هو الجامِعُ بين كُلِّ ذلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، يعني في تَعَلُّقِ القُدرةِ بإيجادِها كتعلُّقها بإيجادِكم، وكذلك الآياتُ(٢).

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾.

أي: كلُّ ما يَدِبُّ في الأرض، وكلُّ ما يَطيرُ في جَوِّ السَّماءِ بجَناحَيهِ، على اختلافِ أنواعِها كلِّها، إنَّما هي أجناسٌ وأصنافٌ مُصَنَّفَةٌ مِثْلُكم أيُّها الناسُ؛ خلقْناها كما خلقْناكم، ورزقْناها كما رزقناكم، ويَعْرِف بعضُها بعضًا كما تَعرفونَ، ويَتزاوجونَ ويتناسلون، ولها آجالٌ محدَّدة، وهي أنواعٌ تختلفُ أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٥).

في أحجامِها، وألوانِها، ولُغاتها، وقُدراتها، وغير ذلك؛ كما هو واقعٌ بينكم[(١)].

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ما أهمَلْنا ولا أغفَلْنا في اللَّوحِ المحفوظِ شيئًا من الأشياءِ، بل جميعُ الأشياءِ صغيرِها وكبيرِها، حتى أصناف الدوابِّ وغيرها؛ مُثبَتةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ على ما هي عليه، والجميعُ عِلْمُهم عندَ الله تعالى، لا يَنسَى واحدًا منها مِن رِزقه وتَدبيرِه[(٢)].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ دابَّة وكُلَّ طائرٍ محشورٌ إلى الله تعالى بعد انقضاء هذه الحياةِ الدُّنيا، وكذلك جميعُ الأُمَم تُحْشَر وتُجمَع إلى الله يومَ القيامةِ، فيُجازيهم بعَدْلِه وإحسانِه سبحانه[(٣)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧-٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٢-٢٠٣).
ونَسَب الشنقيطيُّ هذا المعنى المذكورَ إلى أكثرِ العلماءِ، وقال أيضًا: (ومما يكونُ من تلك المماثلةِ: أن الجميعَ يُحْشَرُونَ إلى اللَّهِ، كما قال هنا: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ وَنَصَّ على ذلك في سورة التكويرِ في قولِه: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]). ((العذب النمير)) (١/ ٢١٠-٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣-٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥-٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٧).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى مِن حالِ الكُفَّار أنَّهم بَلَغُوا في الكُفْر إلى حيث كانت قلوبُهُم قد صارت مَيِّتةً عن قَبولِ الإيمانِ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾- ذكر هذه الآيةَ تقريرًا لذلك المعنى(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ تعالى في قولِه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في كَونِها دالَّةً على كَونِها تحت تدبيرٍ وتقديرِ حكيمٍ قدير، وفي أنَّ عنايةَ اللهِ محيطةٌ بهم، ورَحْمَتَه واصلةٌ إليهم- قال بَعدَه: والمكَذِّبونَ لهذه الدَّلائلِ والمُنْكِرون لهذه العجائب صُمٌّ لا يَسمعونَ كلامًا البتَّةَ، بُكْمٌ لا يَنطقون بالحَقِّ، خائِضونَ في ظُلُماتِ الكُفرِ، غافلونَ عن تأمُّلِ هذه الدلائلِ(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

أي: إنَّ المكَذِّبينَ بِحُجَجِ الله وأدِلَّتِه، لا يَسمعون الحَقَّ، ولا ينطقونَ به، وهُم في ظُلُماتِ الكُفْر، لا يُبْصرونَ، فلا يَعْتبرونَ ولا يهتدون(٣).

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: مَن يَشَأِ اللهُ تعالى إضلالَه مِن خَلْقِه أَضَلَّه، ومَن يَشَأِ اللهُ تعالى هدايَتَه، فإنَّه يَهدِيه إلى الطَّريقِ المستقيم الذي لا عِوَج فيه، فهو سبحانه المُنْفَردُ بالهِدايةِ والإضلالِ، بِحَسَب ما يَقتضيه فَضْلُه وحِكْمَتُه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠- ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٠-٢١٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يُستَفاد مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أنَّه كلَّما صار الإنسانُ أَسْمعَ لكلامِ الله ورسولِه صارت استجابتُه أقوى، وذلك مأخوذٌ من القاعدةِ المعروفةِ (أنَّ ما عُلِّقَ على وَصْفٍ فإنَّه يزدادُ قُوَّةً بِحَسَب هذا الوَصْفِ الذي عُلِّقَ عليه الحُكْم)[١].

٢- أنَّ الإنسانَ يجِبُ أن يَعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه؛ فهو بالنِّسبةِ لعَظَمةِ الله- عزَّ وجلَّ- كالنَّملةِ؛ لقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إذَن لا تترفَّعْ ولا تتعالَ؛ فما أنتَ إلَّا مِثلُ هذه الدوابِّ بالنِّسبةِ لعظمةِ الله عزَّ وجلَّ، وإن كانَ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي: لم يُفَضِّلْ بني آدَمَ على ما خَلَقَ اللهُ، بل على كثيرٍ مِمَّا خَلَقَ الله[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فيه تَنبيهٌ للمُسْلمين على الرِّفقِ بالحيوانِ؛ فإنَّ الإخبارَ بأنَّها أُمَمٌ أمثالُنا تنبيهٌ على المشاركةِ في المخلوقيَّةِ وصفاتِ الحيوانيَّة كلِّها[٣].

٤- قَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّحذيرِ من الاعتداءِ على الحيواناتِ بما نهى الشَّرْعُ عنه من تَعذِيبِها، وإذا كان يُقْتَصُّ لبَعضِها من بعضٍ وهي غيرُ مُكَلَّفةٍ، فالاقتصاصُ مِن الإنسانِ لها أَوْلى بالعَدْلِ[٤].

٥- يُستَفادُ من قوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ مَن شاءَ الله هِدايتَه اهتدَى، وأنَّ مَن شاء إضلالَه ضَلَّ، ويتفرَّعُ على هذا أنْ يلجَأَ الإنسانُ إلى ربِّهِ تبارك وتعالى بطَلَبِ الهِدايةِ والاستعاذَةِ من الغَوَايةِ؛ لأنَّ الأمرَ بيَدِ الله[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ﴾ فيه قدرةُ الله عزَّ وجلَّ الكاملةُ، وذلك ببعثِ الموتَى، فإنَّهم يُبْعَثونَ كُلُّهم في لحظةٍ واحدةٍ، والدَّليلُ قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤] وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وليس البَعثُ كالإحياءِ يكون شيئًا فشيئًا، يخرجُ المخلوقُ صغيرًا ثم ينمو حتى يتكاملَ[2].

٢- الإتيانُ بفعل النُّزول في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ الآيةَ المسؤولةَ مِن قَبيل ما يأتي مِن السَّماء، مثلُ قولِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، وقولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ونحو ذلك[3].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ طَلَبُهم للآيَةِ والآياتِ- مع وُجُودِ القرآنِ وما فيه من الآياتِ البيِّناتِ- سَبَبُه محاولةُ تَعجيزِ الرَّسولِ، لا كَوْنُه هو الدَّليلَ الذي يرونَه مُوصِلًا إلى المدلولِ، وقد قال تعالى لرَسولِهِ في هذه السورة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).

لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(١) [الأنعام: ٧].

٤- استكبارُ هؤلاءِ وترَفُّعُهم؛ حيثُ قالوا: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾، ولم يقولوا: (مِنْ رَبِّنَا)، ولم يقولوا: (مِنَ الله)، كأنَّهم في جانبٍ، واللهُ تعالى ورسولُه صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم في جانبٍ آخَرَ(٢).

٥- انتصارُ اللهِ عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّه دافَعَ عنه حِينما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولا شكَّ أنَّ هذا يُشكِّلُ عبئًا على الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فاللهُ تعالى يُجيبُ عنه انتصارًا له؛ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾(٣).

٦- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ فيه إثباتُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذه القُدرةُ قدرةٌ كاملةٌ، لا يَلْحَقُها شيءٌ من العَجْزِ؛ لقولِ الله تبارَك وتعالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فلِكمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه لا يُعْجِزُه شيءٌ؛ لأنَّ العجزَ عن الشَّيءِ سَبَبُه إمَّا الجهلُ وإمَّا الضَّعفُ، فاللهُ عليمٌ قديرٌ، وهذه القدرةُ تتعلَّقُ بكلِّ شيءٍ؛ فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ(٤).

٧- أنَّ أفعالَ الله عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بمشيئتِه؛ بمعنى: أنَّ ما لم يَشَأْ لم يكُنْ، وإنْ كان قادرًا عليه؛ لقوله: ﴿قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾، يعني: ولكنَّه لم يَشَأْ(٥).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّ فيهم مَن يَعلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠١).

ذلك، ولكنَّه يُكابِرُ، ويُظْهِرُ أنَّه لا يَتِمُّ عنده الاستدلالُ إلَّا على نحوِ ما اقترحوه[١].

٩- خَصَّ ما في الأرضِ بالذِّكْرِ دون ما في السَّماء في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وإنْ كان ما في السَّماءِ مخلوقًا له؛ لأنَّ الاحتجاجَ بالمُشاهَد أظهَرُ وأَوْلى ممَّا لا يُشاهَد[٢].

١٠- المقصودُ من قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الدَّلالةُ على كمالِ قُدرةِ الله تعالى، وشُمُولِ عِلْمِه، وسَعَةِ تَدبيرِه؛ ليكون كالدليلِ على أنَّه قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً، وهي التي ذَكَرَها في الآيةِ التي تَسْبِقُها مباشرةً في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

١١- في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ حصْرُ الحيوانِ في هاتين الصِّفتينِ، وهما: إمَّا أن يَدِبَّ، وإما أن يطيرَ، ولكنْ قد يقول قائلٌ إنَّ هناك مِن الحيوانات ما لا يدخلُ في هذينِ القِسْمينِ؛ مثل: حِيتانِ البَحرِ، وسائرِ ما يَسبَحُ في الماءِ، ويَعيش فيه؛ والجوابُ: أنَّها لا يَبعُدُ أنْ تُوصَفَ بأنَّها دابَّةٌ؛ مِن حيثُ إنَّها تدِبُّ في الماء؛ أو هي كالطَّيرِ؛ لأنَّها تسبحُ في الماءِ كَسَبْح الطيرِ في الهواء، إلَّا أنَّ وَصْفَها بالدَّبِّ أقربُ إلى اللُّغة مِن وَصْفِها بالطَّيَرانِ[٤].

١٢- يُستَفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أنَّ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٩)، ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٩)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٤).

ليسوا وَحْدَهم في هذا الكون، حتى يكون وجودُهم مُصادَفةً، وحتى تكون حياتُهم سُدًى! بل إنَّ حولَهم أحياءً أخرى، كلُّها ذاتُ أمْرٍ مُنتَظِمٍ، يوحي بالقَصْدِ والتدبيرِ والحِكمَةِ، ويوحي كذلك بوَحدةِ الخالِقِ، ووَحدَةِ التَّدبيرِ الذي يأخذ به خَلْقَه كُلَّه؛ إنَّه ما ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ تَدِبُّ على الأرضِ، وهذا يشملُ كلَّ الأحياءِ مِن حَشراتٍ وهوامَّ وزواحفَ وفقارياتٍ، وما ﴿مِنْ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواءِ، وهذا يَشملُ كلَّ طائرٍ مِن طيرٍ أو حَشرةٍ غيرِ ذلك مِن الكائنات الطائرة، ما مِن خلقٍ حيٍّ في هذه الأرضِ كلِّها إلَّا وهو ينتظمُ في أمَّة، ذات خصائِصَ واحدةٍ، وذات طريقةٍ في الحياةِ واحدةٍ كذلك، شأنُها في هذا شأنُ أمَّة الناسِ، ما ترَكَ اللهُ شيئًا مِن خلْقِه بدونِ تَدبيرٍ يَشملُه، وعِلمٍ يُحصيه، وفي النِّهايةِ تُحشَرُ الخلائقُ إلى ربِّها، فيَقضي في أمْرِها بما يَشاءُ[1].

١٣- لم يُبيِّنِ اللهُ لنا وَجهَ المماثلة بين أنواعِ الأمم المختلفةِ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ لأجل أنْ نَستعمِلَ حواسَّنَا وعُقولَنا في البَحْثِ المُوصِلِ إلى ذلك[2].

١٤- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهمِلْ شيئًا في اللَّوحِ المحفوظ، فكلُّ شيءٍ كَتَبَه؛ لقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولأنَّ الله تعالى أمَرَ القَلَمَ أن يكتبَ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ[3]، فالكتابُ الأوَّل قد حوى جميعَ الكائناتِ، وهذا أحدُ مراتِبِ القضاءِ والقَدَر؛ فإنَّها أربعُ مراتِبَ: عِلْمُ الله الشامِلُ لجميعِ الأشياء، وكتابُه المحيطُ بجميعِ الموجوداتِ، ومشيئتُه وقُدرتُه النافِذَةُ العامَّة لكلِّ شيءٍ، وخَلْقُه لجميعِ المخلوقاتِ، حتى أفعال العباد[4].

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥).

١٥- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الذين كذَّبوا بآياتِ اللهِ المبثوثة في صَفحاتِ الوجودِ، وآياتِه الأخرى المسجَّلةِ في صفحاتِ هذا القرآنِ؛ إنَّما كذَّبوا لأنَّ أجهزةَ الاستقبال فيهم مُعطَّلةٌ؛ إنَّهم صمٌّ لا يسمعون، بُكمٌ لا يَتكلَّمون، غارِقون في الظُّلُماتِ لا يُبصِرون! إنَّهم كذلك لا مِن ناحيةِ التكوين الجُثماني المادِّي، فإنَّ لهم عُيونًا وآذانًا وأفواهًا، ولكنَّ إدراكَهم مُعطَّلٌ، فكأنَّما هذه الحواسُّ لا تَستقبِلُ ولا تَنقُلُ! وإنَّه لكذلك؛ فهذه الآياتُ تَحمِلُ في ذاتِها فاعليَّتَها وإيقاعَها وتأثيرَها، لو أنَّها استُقبِلتْ وتلقَّاها الإدراكُ! وما يُعرِضُ عنها معرِضٌ إلَّا وقد فسدَتْ فِطرتُه، فلم يعُدْ صالحًا لحياةِ الهُدى، ولم يَعُدْ أهلًا لذلك المستوى الرَّاقي من الحياةِ[١].

١٦- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ جَمْعُ الظُّلماتِ جارٍ على الفَصيحِ مِن عَدَمِ استعمالِ الظُّلْمة مُفردًا. وقيل: للإشارةِ إلى ظُلْمةِ الكُفْرِ، وظُلْمةِ الجَهْل، وظُلمةِ العناد[٢]، ولعلَّ اللهَ جَمَعَها إشارةً إلى أنَّ المُكَذِّبَ لا يَنتفعُ ببصرٍ ولا ببصيرةٍ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا لم يَنتفعوا بحياتِهم ولا بأسماعِهم ولا نُطقِهم ولا أبصارِهم ولا عُقولِهم- كان كلُّ ذلك منهم عَدَمًا[٣].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ زائدتانِ للتَّأكيدِ[٤]، ومفهومُ الحَصر

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) (٢/ ١٠٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٨).
(٤) وقيل: إنما قال: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ولم يقُل: يُجِيبُ، لأنَّ هناك فرقًا بينهما؛ فقوله: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ فيه قَبولٌ لِمَا دُعِيَ إليه، وليس كذلك في (يُجيب)؛ لأنه قد يُجِيبُ بالمخالفةِ؛ كقَولِ القائلِ: أتوافِقُ =

بـ﴿إِنَّمَا﴾ مُؤْذِنٌ بإعمالِ مَنطوقِه الذي يُومِئُ إلى إرجاءٍ بعد تأييسٍ بأنَّ الله جعل لقومٍ آخرينَ قلوبًا يفقهون بها، وآذانًا يسمعون بها؛ فأولئك يستجيبونَ(١).

- قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

على القَولِ بأنَّ قولَه: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ مُقابلٌ لقولِه: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: وأمَّا المُعرِضون عنك فهُم مِثلُ الموتَى فلا يَستجيبون؛ فيكون حَذَفَ مِن الكلامِ ما دَلَّ عليه السِّياقُ؛ فإنَّ الذي لا يَسمَعُ قد يكونُ فُقدانُ سَمْعِه مِن عِلَّةٍ كالصَّمم، وقد يكونُ مِن عَدَمِ الحياةِ، وحَسُنَ عطْفُ جملةِ ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ على جملةِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، وتَضمَّن عطْفُها تَعرِيضًا بأنَّ هؤلاءِ كالأمواتِ لا تُرجَى منهم استجابةٌ، وتَخلَّصَ إلى وَعيدِهم بأنَّه يَبعثُهم بَعدَ موتِهم، أي: لا يُرجَى منهم رُجوعٌ إلى الحَقِّ إلى أن يُبعَثوا، وحينئذٍ يُلاقُون جَزاءَ كُفرهم، ويكونُ قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ زيادةً في التهديدِ والوعيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الوقفُ عِندَ قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ وتمَّ التمثيلُ هنالك، ويكون قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ استِطرادًا تَخلَّصَ به إلى قَرْعِ أسماعِهم بإثباتِ الحَشْرِ الذي يقَعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ(٢).

- وفيه: تَمثيلٌ لاختِصاصِه تعالى بالقُدرةِ على تَوفيقِهم للإيمانِ، باختِصاصِه تعالى بالقُدرةِ على بَعْثِ الموتَى مِن القُبورِ(٣).

٢- قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾

= في هذا المَذهَب أم تخالِفُ؟ فيقول المجيب: أُخالِفُ. يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٠٧- ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٠).

- ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيضٍ بمعنى (هَلَّا)، والتحضيضُ هنا لقَطْعِ الخَصْمِ وتعجيزِه[١].

- وتَنكيرُ ﴿آيَةً﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾؛ للتفخيمِ والتَّهويلِ[٢].

- وفي التعرُّضِ لعنوانِ ربوبيَّتِه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ إشعارٌ بالعِليَّة، بطريقِ التعريضِ بالتهكُّمِ من جِهَتِهم[٣].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهَ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ﴾- حيثُ لم يقُلْ: (قُلْ إِنَّهُ قادرٌ)-؛ لتربيةِ المهابة، مع ما فيه مِن الإشعارِ بعِلَّةِ القدرةِ الباهرةِ[٤].

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مُستعملٌ في معناه الكِنائيِّ، وهو انتفاءُ أن يُريد اللهُ تعالى إجابةَ مُقْتَرَحِهم؛ لأنَّه لَمَّا أرسَلَ رسولَه بآياتٍ بيِّناتٍ حصل المقصودُ من إقامةِ الحُجَّةِ على الذين كفروا، فلو شاء لزادَهم من الآياتِ؛ لأنَّه قادِرٌ[٥].

٣- قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ لبيانِ كمالِ قُدرَتِه عزَّ وجلَّ، وشمولِ عِلْمِه، وسَعَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٠).

تدبيرِه؛ ليكونَ كالدَّليلِ على أنَّه تعالى قادِرٌ على تنزيلِ الآيةِ(١).

- وزيادةُ ﴿مِنْ﴾ لتأكيدِ الاستِغراقِ(٢).

- وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صِفةٌ قُصِد منها إفادةُ التَّعميمِ والشُّمولِ؛ بذِكرِ اسمِ المكانِ الذي يَحوي جميعَ الدوابِّ، وهو الأرضُ، وكذلك وصف ﴿طَائِرٍ﴾ بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قُصِدَ به الشُّمولُ والإحاطةُ؛ لأنَّه وَصْفٌ آيِلٌ إلى معنى التوكيدِ؛ لأنَّ مَفادَ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أنَّه طائِرٌ، كأنه قيل: ولا طائرٌ ولا طائرٌ، والتوكيدُ هنا يُؤكِّد معنى الشُّمولِ الذي دلَّتْ عليه ﴿مِن﴾ الزَّائدة في سِياقِ النَّفيِ، فحصَل من هذينِ الوصفينِ تقريرُ معنى الشُّمولِ الحاصلِ مِن نَفْيِ اسْمَيِ الجنسينِ، ونكتةُ التوكيدِ أنَّ الخَبَرَ لغرابَتِه عندهم، وكَونِه مَظِنَّةَ إنكارِهم- أنَّه حقيقٌ بأنْ يؤكَّدَ؛ ففائدةُ زيادةِ قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مع أنَّها لا تكونُ إلَّا في الأرضِ، وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾: زيادةُ التعميمِ والإحاطةِ، والتأكيدُ، كأنَّه قيل: وما مِن دابَّةٍ قطُّ في جميعِ الأَرَضينَ السَّبْعِ، وما مِن طائرٍ قطُّ في جوِّ السَّماء من جميعِ ما يطير بجناحَيْه إلَّا أمَمٌ أمثالُكم، محفوظةٌ أحوالُها، غيرُ مُهْمَلٍ أمْرُها(٣)، والغَرَضُ في ذِكْر ذلك: الدَّلالةُ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١)، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٥- ٢١٦).

وقال ابنُ عاشور: (ووقَع في «المفتاح» في بحث إتْباع المسنَدِ إليه بالبيانِ: أنَّ هذين الوَصفَينِ في هذه الآيةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ القَصدَ مِن اللَّفظينِ الجنسُ لا بعضُ الأفراد، وهو غيرُ ما في «الكشَّاف»، وكيف يُتوهَّم أنَّ المقصودَ بعضُ الأفراد ووجودُ (مِن) في النَّفْي نصٌّ على نفيِ الجِنسِ دُونَ الوحدةِ؟!

وبهذا تعلمُ أنْ ليس وصفُ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ واردًا لرفْعِ احتمالِ المجازِ في ﴿طَائِرٍ﴾ كما جَنَح إليه كثيرٌ من المفسِّرين، وإن كان رفْعُ احتمالِ المجازِ من جملة نُكَتِ التوكيدِ اللفظيِّ إلَّا أنَّه غيرُ مُطَّرِد، ولأنَّ اعتبارَ تأكيدِ العموم أَوْلى، بخلافِ نحو قولِهم: نظرتُه بعَيني، وسمعتُه بأذني).

عِظَمِ قُدرَتِه، ولُطفِ عِلْمِه، وسَعَةِ سُلطانِه، وتدبيرِه تلك الخلائقَ المتفاوِتةَ الأجناسِ، المتكاثِرَةَ الأصنافِ، وهو حافظٌ لِمَا لها وما عليها، مُهَيمِنٌ على أحوالِها، لا يشغَلُه شأنٌ عن شَأْنٍ، وأنَّ المُكَلَّفينَ ليسوا بمخصوصينَ بذلك دونَ من عداهم مِن سائِرِ الحيوانِ[1].

- وذِكْرُ الطَّائِرِ بعد ذِكْر الدَّابَّةِ تخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ، وذِكْرُ بعضٍ من كُلٍّ، وصار مِن بابِ التَّجريدِ؛ كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ بعد ذِكْر الملائكةِ، وإنَّما جُرِّد الطائِرُ؛ لأنَّ تصرُّفَه في الوجودِ دون غيره من الحيوانِ أبلغُ في القُدرةِ، وأدَلُّ على عِظَمِها من تَصَرُّفِ غيره من الحيوان في الأرضِ؛ إذ الأرضُ جِسمٌ كثيفٌ يُمْكِنُ تصرُّفُ الأجرامِ عليها، والهواءُ جِسْمٌ لطيفٌ لا يُمكِنُ عادةً تَصَرُّفُ الأجرامِ الكثيفةِ فيها إلَّا بباهِرِ القُدرةِ الإلهيَّة[2].

- وعبَّر بقولِه سبحانه: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ بالجَمْعِ، مع إفرادِ الدابَّةِ والطَّائرِ؛ لأنَّه لَمَّا كان قولُه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ﴾ دالًّا على معنى الاستغراقِ، ومُغْنيًا عن أنْ يُقال: وما مِنْ دوابَّ ولا طيورٍ، حُمِلَ قولُه: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ على المعنى- الذي هو الجَمْعُ[3].

- قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

- قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جملةٌ مُعتَرِضَةٌ مُقَرِّرةٌ لِمَضْمونِ ما قبلها من بيانِ سَعَةِ عِلْمِ الله تعالى، وعَظيمِ قُدْرَتِه[4].

- وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الضميرُ في ﴿يُحْشَرُونَ﴾ عائدٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٧).

الأممِ المذكورةِ، وفيه رَدُّ الضَّميرِ بصِيغةِ ضَميرِ العُقَلاءِ، على الطيورِ والدوابِّ وهي ليسَتْ من العقلاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا شَبَّهَهُمْ بالعُقَلاءِ، وقال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ سوَّغَ ذلك أن يَبْنِيَ عليهم ضَميرَ العقلاءِ، وقد تقررَ في فَنِّ العربيةِ: أنَّ غيرَ العاقلِ كُلَّمَا شُبِّهَ بالعاقلِ جرَى عليه في الضَّمائرِ ونوعِ الصِّيَغِ ما يَجري على العاقلِ، ونظيرُه في القرآنِ قولُه تعالى في رُؤْيَا يوسفَ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: آية ٤] فَجُمِعَ جمعَ المذكرِ السَّالمِ المختصَّ بالعقلاءِ؛ لأنها لَمَّا اتَّصَفَتْ بالسُّجودِ أَشْبَهَتِ العقلاءَ من هذه الحيثيَّةِ، فَجَرَتْ عليها صيغةُ العقلاءِ[1].

٤- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فيه تمثيلٌ لحالِهم في ضَلالِ عقائِدِهم، والابتعادِ عن الاهتداءِ، بحالِ قومٍ صُمٍّ وبُكْمٍ في ظلامٍ؛ فالصَّمَمُ يَمْنَعُهم مِن تلقِّي هُدَى مَن يَهْدِيهم، والبَكَمُ يمنعُهُم مِن الاسترشادِ ممَّن يمرُّ بهم، والظلامُ يمنعُهم من التبصُّرِ في الطريقِ أو المنفَذِ المُخْرِجِ لهم من مَأْزِقِهم[2].

- وقوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ جاء قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ كنايةً عن عَمَى البَصيرةِ، فهو كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨-١٧١]، لكن قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أبلغُ مِن قوله: ﴿عُمْيٌ﴾؛ إذ جُعِلت الظُّلماتُ ظرفًا لهم[3].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٥). =

- وقوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث عَطَف هنا بين ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ بالواو، بَينما وردتْ في سُورةِ البقرة في مَوضعينِ بدون العطفِ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨-١٧١]، والحِكمةُ في ذلك: أنَّ تَرْكَ العطفِ في آيتَي البقرةِ لبيانِ أنَّ هذه الصِّفاتِ لاصقةٌ بالموصوفينَ بها، مجتمعةً في آنٍ واحدٍ، والأُولى منهما في المختومِ على قُلُوبِهم، الميؤوسِ من إيمانِهم من المنافقينَ وغَيْرِهم، والثانيةُ في المقَلِّدينَ الجامدينَ، وكُلٌّ منهما لا يستمعُ لدعوةِ الحَقِّ عند تلاوةِ القرآنِ وغيرِه، ولا يَسألُ الرَّسولَ ولا غيرَه من المؤمنين عما يَحوكُ في قَلْبِه، ويجول في ذِهْنه من الكُفْر والشَّكِّ، ولا ينطقُ بما عساه يَعْرِف من الحقِّ، ولا يستدلُّ بآياتِ الله المرئيَّةِ في نفسه، ولا في الآفاقِ، فكأنَّه أصمُّ أبكمُ أعمى في آنٍ واحد، وأمَّا هذه الآيةُ التي في الأنعام فهي في مُشْركي مكَّةَ، ولم يكونوا كلُّهم من المختومِ على قلوبِهم، الميؤوسِ من إيمانِهم، ولا من المقَلِّدينَ الجامدين الذين لا ينظرونَ في شيءٍ من الآياتِ الإلهيَّة المنَزَّلَة والمُكوَّنة، بل كان منهم الجامدُ على التقليدِ، والإعراضِ عن سماعِ القرآنِ حتى كأنَّه أصمُّ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [سورة لقمان: ٧]، ومنهم من يسمعُ ويعلمُ أنَّها الحقُّ، ولكنَّه لا ينطِقُ بما يعلم عنادًا، فهذان فريقانِ منفصلانِ، عُطِفَ أحدُهما على الآخر؛ لبيانِ هذا الانفصالِ[1].

= قال ابن عاشور: (وإنَّما قيل: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ولم يُوصَفوا بأنَّهم عُمي، كما في قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ ليكونَ لبعضِ أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بها ما يَصلُحُ لشَبَهِ بعضِ أجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهة؛ فإنَّ الكفرَ الذي هم فيه، والذي أصارَهم إلى استمرارِ الضلالِ، يُشبه الظلماتِ في الحيلولةِ بين الداخلِ فيه، وبين الاهتداءِ إلى طريقِ النجاةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٣٨).

- قوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ حالَهُم العجيبةَ تُثيرُ سؤالًا، وهو أن يقولَ قائلٌ: ما بالُهم لا يهتدونَ مع وضوحِ هذه الدلائلِ البيِّناتِ؟! فأُجيبَ بأنَّ اللهَ أضَلَّهم فلا يهتدونَ، وأنَّ الله يُضِلُّ مَن يشاء، ويَهدي مَن يشاءُ؛ فدَلَّ على أنَّ هؤلاءِ المكَذِّبينَ الضالِّينَ هم ممَّن شاءَ اللهُ إضلالَهم على طَريقةِ الإيجازِ بالحَذْفِ؛ لظهورِ المحذوفِ(١).

- وقوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ معنى ﴿عَلَى﴾ الاستعلاءُ، وهو استعلاءُ السائرِ على الطريقِ؛ فالكلام تمثيلٌ لحالِ الذي خَلَقه الله فمَنَّ عليه بعقلٍ يَرْعَوي مِن غَيِّه، ويُصْغي إلى النصيحةِ؛ فلا يقعُ في الفسادِ، فاتَّبَع الدِّينَ الحَقَّ- بحالِ السَّائرِ في طريقٍ واضحةٍ لا يتحيَّرُ، ولا يُخطِئُ القصدَ، ومستقيمةٍ لا تطوحُ به في طُولِ السَّيْرِ. وهذا التمثيلُ أيضًا صالحٌ لتَشبيهِ كلِّ جُزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّه بها(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٠).

الآيات (٤٠ - ٤٥)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ
جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ
أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: البأساءُ: اسمٌ للبُؤْسِ، وهو المكروهُ والضَّررُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الحالِ، وقيل: البأساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصل (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها. وقيل: البأساءُ ضرَّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِن البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليك[1].

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أي: المرضِ والزَّمانةِ، وسوءِ الحالِ، والفَقْرِ والقَحْطِ، وهي مقابِلُ السَّرَّاءِ، والضُّرُّ: خلاف النَّفْعِ[2].

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: يَتذلَّلونَ، وأصل (ضرع): يدلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠). ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا(١).

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: آيِسونَ من رحمة الله تعالى، ومُلْقُونَ بأيديهم، والإِبلاسُ: الحُزْنُ المعترِض من شِدَّةِ البأس، وأصلُه: اليَأْس، قيل: ومنه اشْتُقَّ إبْلِيسُ؛ كأنَّه يَئِسَ مِن رَحمةِ اللَّهِ(٢).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ﴾: أي: اجتُثَّ أصلُهم، وقَطْعُ دابِرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوْعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): الفَصْل، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلاف قُبُله(٣).

مُشكِل الإعراب:

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: بمعنى: أَخْبِروني، والهمزةُ للاستفهامِ التقريريِّ، والتاءُ ضَميرُ الفاعِل، مبنيٌّ على الفتْحِ أبدًا في محلِّ رفْعٍ، وهذه التاءُ إذا اتَّصلَتْ بها الكَافُ الَّتي للخِطابِ فإنَّها تلزمُ الإفرادَ والتَّذكير؛ فتقول: أرأيتكُما، أَرأيتكُم، أرأيتكُنَّ. والكافُ هنا حَرْفُ خِطابٍ مَبنيٌّ، لا محلَّ له مِن الإعراب، والفِعل (رأى) مُتعدٍّ لمفعولَين؛ فالمفعول الأوَّلُ هنا محذوف، والمسألةُ مِن بابِ التنازُع؛ تَنازَعَ ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وفِعلُ الشَّرْطِ ﴿أَتَاكُمْ﴾ على ﴿عَذَابُ اللهِ﴾، فأُعْمِلَ الثاني، وهو

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧، ٦٧٨).

﴿أَتَاكُمْ﴾، فارتفعَ ﴿عَذَابُ﴾ به على الفاعليَّةِ، ولو أُعمِلَ الأوَّلُ لكان التركيبُ: (عذابَ) بالنَّصْبِ على المفعوليَّة، وأمَّا المفعولُ الثاني فهو الجملةُ مِن الاستفهام: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، والرابطُ لهذه الجملةِ محذوفٌ؛ تقديرُه: أغيرَ اللهِ تَدْعُون لكَشْفِه، والمعنى: قل أَرَأَيتكم عَذابَ اللهِ إنْ أتاكم- أو السَّاعةَ إنْ أَتَتْكُم- أغيرَ اللهِ تَدْعُون لكَشْفِه، أو لكشْفِ نوازِلِها، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديرُه: إنْ أتاكم عذابُ اللهِ فمَنْ تَدْعونَ؟ وقيل: المفعولُ الأوَّلُ، والجملةُ الاستفهاميَّةُ التي سَدَّت مَسَدَّ الثاني محذوفانِ؛ لفَهْم المعنى، والتقدير: أرأيتكم عِبادتَكم الأصنامَ هل تنفعُكم، أو اتِّخاذَكم غيرَ الله إلهًا هل يَكْشِفُ ضُرَّكم؟ فـ(عِبادَتَكُمْ) أو (اتِّخاذَكم): مفعول أوَّل، والجملةُ الاستفهاميَّة سادَّةٌ مَسَدَّ الثاني. وجملةُ ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ...﴾ اعتراضيَّة لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل غير ذلك(١).

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾

﴿بَغْتَةً﴾: مَصدرٌ في مَوضِعِ الحالِ من الفاعِلِ (نا العظَمَةِ) في ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾، أي: مُباغِتِينَ، أو مِن المفعولِ به (هُم) في ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾؛ أي: مَبغوتينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا على المعنى؛ لأنَّ ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بمعنى بَغَتْناهم، فيكون مفعولًا مُطلقًا، نائبًا عن المصدرِ؛ فهو نوعُه، أي: أَخَذْناهم أَخْذَ البَغْتِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للكُفَّارِ: أخْبِروني إنْ أتاكم عذابُ الله، أو أتاكم يَومُ القيامةِ؛ هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ أحدًا غيرَ

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٥- ٤٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٢٣-٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٧/ ١٢٣).

الله؛ ليُنْجِيَكم ممَّا حَلَّ بكم إنْ كنتم صادِقينَ في اتِّخاذِكُم آلهةً من دونه؟ بل لنْ تدْعُوا غيرَه تعالى، فيُفَرِّجُ عنكم سبحانه ما حلَّ بكم مِن كَرْب، وتَنْسَونَ وقتَ الشَّدائدِ وعند الكَرْب ما تُشركونَه مع اللهِ تعالى.

ثمَّ يُخبرُ الله تعالى أنَّه أرسل رُسلًا إلى أُممٍ مِن قَبلِ النبيِّ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم، فأذاقَهُم اللهُ شِدَّةَ الفقرِ، وضَنْك العَيْش، كما ابتلاهم بالأسقامِ والأمراض؛ لعلَّهم يتضرَّعونَ إليه- جلَّ وعلا- ويُخْلِصون له العبادةَ.

فهلَّا حين ابتلاهم اللهُ بهذا البلاءِ لجَؤُوا إليه، وتَضرَّعوا، حتى يَصْرِفَ عنهم العذابَ، ولكنَّهم قسَتْ قلوبُهم، وزيَّن لهم الشَّيطانُ ما هم فيه من الأعمالِ التي يَكرهُها الله؛ مِن الكُفرِ والشِّرْك والمعاصي.

فلَمَّا ترَكوا- مُتعمِّدينَ- العملَ بما أمَرَهم الله وتناسَوْه؛ بدَّلهم الله- استدراجًا- مكانَ الفَقْرِ الغِنى، ومكانَ المرضِ الصِّحَّةَ، حتى إذا فَرِحوا بما أُعْطُوا فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ، أتاهم عذابُ الله بقوَّةٍ، مُباغِتًا لهم، فإذا هم هالِكون قد قَنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ، فاستُؤْصِلوا جميعًا، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، والحمْدُ لله ربِّ العالمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى غايةَ جَهْلِ أولئك الكفَّار، بَيَّنَ مِن حالِهم أيضًا أنَّهم إذا نَزَلَت بهم بَلِيَّةٌ أو محنةٌ فإنَّهم يَفزعونَ إلى الله تعالى، ويَلجؤونَ إليه، ولا يَتمرَّدونَ عن طاعته، فقال سبحانه[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٢).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: أَخبِرُوني أيُّها الكفَّارُ الذين تَعدِلُونَ بِاللَّهِ سواه، وتَصرِفونَ حقوقَه لغيرِه؛ أَخبِرُوني إنْ جَاءَتْكُمْ بَلِيَّةٌ مِنَ البلايا والكروبِ، كما لو هَاجَ عليكم البحرُ، والتطمَتْ أمواجُه فرأيتم الموتَ عِيَانًا، أو إنْ جاءَتْكم السَّاعةُ التي تُنْشَرون فيها من قُبورِكم، وتُبعثَون لموقفِ القيامةِ(١).

﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ والكَرْبِ أحدًا أو شيئًا غيرَ الله؛ لإنجائكم مِمَّا نزَل بكم من شدَّةٍ وبلاء، إنْ كنتم مُحِقِّينَ في اتِّخاذكم آلهةً معه، وأنَّها تُنجيكم ممَّا حلَّ بكم(٢)؟

كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان استفهامُ الإنكارِ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من الآيةِ السَّابقة، بمعنى النَّفْيِ، كأنَّه قيل: لا تَدْعون غيرَهُ، عَطَفَ عليه قوله: ﴿بَلْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٠-٢٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٧-٤٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٧-٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[(١)].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾.

أي: ما أنتم- أيُّها المشركونَ باللهِ- بمُستغيثينَ بشيءٍ غير الله في حالِ الشَّدائدِ، والأهوالِ النَّازلة بكم؛ فتَدْعونَ ربَّكم الذي خلَقَكم، وإليه تَفْزَعون؛ لأنَّكم تعلمونَ أنَّه هو الذي بِيَده وحدَه إزالتُها، وأنَّ غَيرَه لا يَقدِرُ على رفْعِ الكُرُبات عنكم[(٢)].

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾.

أي: فيُفَرِّجُ عنكم ربُّكم عندَ استغاثتِكم به، وتضرُّعِكم إليه، ويُذهِب الكَرْبَ النازلَ بكم، إنْ شاء أنْ يَفعلَ ذلك؛ لأنَّه القادِرُ على كلِّ شيءٍ، ومالِكُ كلِّ شيءٍ؛ فإن شاءَ كشَفَ الضُرَّ عنكم، وإنْ شاءَ لم يَكْشِفْهُ، وذلك بحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه سبحانه وتعالى[(٣)].

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: وتَنْسَون[(٤)] في وقتِ الضَّرورةِ حِينَ تأتيكم الشَّدائدُ، وتَحُلُّ بكم الكُرُبات

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).

(٤) قال الشنقيطي: (﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فيه للعلماءِ وَجْهَانِ:
أن معنَى ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ تَتْرُكونه عَمْدًا، تنسونَ الشركاءَ، أي: تَتْرُكون دُعاءَها وقتَ الشدةِ عمدًا؛ لعِلْمِكم بأن الكرباتِ والشدائدَ لا يكشفُها إلا اللَّهُ جل وعلا، فتتركونها عمدًا. والنسيانُ يُطْلَقُ على تركِ الشيءِ عمدًا، كما قال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] معناه: نَتْرُكُهم عَمْدًا كما تَرَكوا العملَ لِلقاءِ يومِ القيامةِ عمدًا. وهذا معروفٌ في كلامِ العربِ؛ أنها تُطْلِقُ النسيانَ على تركِ الفعلِ عمدًا، وتطلقُه على تَرْكِه نِسْيانًا.
الوجهُ الثاني: أنَّه من شدةِ الهولِ نَسُوا غيرَ اللَّهِ جلَّ وعلا، ولم يَخْطُرْ في أذهانِهم إلا اللَّهُ؛ =

ما تُشركونه مع الله تعالى؛ لِعِلْمكم أنْ لا شيءَ يَملِكُ كَشفَ الضرِّ عنكم سوى اللهِ تعالى وحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أقامَ لهم بالآية السابقةِ الدَّليلَ على توحيدِه؛ حتى استنارتِ السُّبُلُ في تذكيرهم أنَّ التضرُّعَ قد يُكشَف به البلاءُ- أخبَرَهم أنَّ ترْكَه يُوجِبُ الشَّقاءَ؛ ترغيبًا في إدامَتِه، وترهيبًا مِن مجانَبتِه[٢].

وأيضًا لَمَّا أَنذَرهم اللهُ تعالى بتوقُّع العذابِ- أعقَبَه بالاستشهادِ على وقوعِ العذابِ بأُمَمٍ من قَبلُ؛ ليعلَمَ هؤلاءِ أنَّ تلك سنَّةُ اللهِ في الَّذين ظَلَموا بالشِّرْك[٣]، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا- يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى جماعاتٍ مِن قبلك، فأمرناهم ونهيناهم، فكذَّبوا رُسُلَنا، وخالفوا أمْرَنا ونَهْيَنا، فامتحنَّاهم بشِدَّة الفقر، والضِّيقِ في المعيشةِ، وابتليناهم بالأسْقام والأمراض، فَعَلْنا ذلك بهم؛ ليتضرَّعوا إليَّ،

= لأنهم عارفونَ أنَّه لا يكشفُ الكرباتِ إلا هو؛ ولذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾. ((العذب النمير)) (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٦).

ويُخْلِصوا ليَ العبادةَ؛ بالتذلُّلِ والخضوعِ والخُشُوعِ لي[١].

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٤٣﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا لم يقعْ منهم التَّضرعُ الذي كان يُرجَى بعدَ أخذِهم بالبأساءِ والضراءِ- تسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ عليهم، فقال الله تعالى معبِّرًا بأداة التَّحضيضِ (لَوْلَا)؛ ليُفيدَ مع النَّفيِ أنَّهم ما كان لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرُّع[٢]:

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾.

أي: فهلَّا حِين ابتلَيْناهم تضرَّعوا إلينا، وتَمَسْكَنوا إلينا، فيُصرف عنهم العذابُ[٣].

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: إنَّ قُلوبَهم ما رقَّتْ ولا خشَعَتْ، بل استحجَرَتْ وصَلُبت، فلم تَلِنْ للحَقِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤١، ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٧-٢١٨).

قال الشِّنقيطي: (وأكثرُ العلماءِ على أنَّ البأساءَ: هي ما كان من جِهةِ الفقرِ، والفاقةِ والجوعِ وضياعِ الأموالِ. وأنَّ الضراءَ: هي ما كان من قَبيلِ أمراضِ الجسومِ وآلامِها وما يقعُ فيها). ((العذب النمير)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦).

قال ابنُ جرير: (ثمَّ قال: (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، ولم يخبِرْ عمَّا كان منهم مِن الفِعل عندَ أخذِه إيَّاهم بالبأساءِ والضَّرَّاء. ومعنَى الكلامِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ فلم يتضرَّعوا، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٣).

وأقاموا على ما هم عليه من تكذيبِ الرُّسُل، وأصرُّوا على ذلك، واستكبَروا عن أمْرِ ربِّهم[1].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وحسَّن لهم الشيطانُ[2] ما كانوا يَعملونَ من الأعمالِ التي يكرهُها الله ويَسْخَطها منهم؛ من الكُفْرِ والشِّرْك والمعاصي، فظنُّوا أنَّ ما هم عليه حَسَنٌ وحقٌّ[3].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

هذا مِن تمام القِصَّةِ الأولى؛ بيَّنَ تعالى أنَّه أخذَهم بالبأساءِ والضرَّاءِ لعلَّهم يتضرَّعونَ، ثمَّ بيَّنَ في هذه الآية أنَّهم لَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به من البأساءِ والضرَّاء فتَحْنَا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ، ونقلناهم من البأساءِ والضرَّاء إلى الرَّاحةِ والرَّخاء، وأنواع الآلاءِ والنَّعْماءِ، والمقصودُ: أنَّه تعالى عامَلَهم بتسليطِ المكارِه والشَّدائدِ تارةً، فلم يَنتفعوا به، فنَقَلَهم من تلك الحالةِ إلى ضِدِّها، وهو فتْحُ أبواب الخيراتِ عليهم، وتَسهيلُ مُوجِبات المسَرَّاتِ والسَّعادات لديهم، فلم ينتفعوا به أيضًا، وهذا كما يفعلُه الأبُ المُشْفِق بولده؛ يُخاشِنُه تارةً، ويُلاطِفُه أخرى؛ طلبًا لصلاحِه، حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا من الخَيْر والنِّعَم، لم يَزيدوا على الفَرَح والبَطَر من غيرِ انتدابٍ لِشُكرٍ، ولا إقدامٍ على اعتذارٍ وتوبةٍ؛ فلا جَرَم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦).

(٢) قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالشَّيطانِ هنا: جنسُ الشَّيطانِ، وهو إبليس وذريَّتُه، والعياذُ بالله مِن تَضليلِهم). ((العذب النمير)) (١/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٤).

أخذناهم بغتةً[١].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾ قِراءتانِ:

١- ﴿فَتَّحْنَا﴾ بمعنى تَكثيرِ الأبوابِ، وتَكرُّر فِعْل ذلك مرَّةً بعد مرَّةٍ[٢].

٢- ﴿فَتَحْنَا﴾ أي: فَعَل ذلك مرةً واحدةً[٣].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: فلَمَّا تَركوا عمْدًا العملَ بما أمَرْناهم به على ألْسِنةَ رُسُلِنا، وتناسَوْه، وجعلوه وراءَ ظُهُورِهم، فأعْرَضُوا عمَّا ذُكِّرُوا به من البأساءِ والضَّراءِ- فتَحْنا أبوابَ كلِّ شيءٍ كنَّا أغلَقْنا بابَه عليهم، فبدَّلْنا مكانَ البأساءِ الرَّخاءَ، والسَّعَةَ في العَيْش، ومكانَ الضَّرَّاء الصِّحةَ، والسَّلامةَ في الأبدان؛ استدراجًا، وإملاءً مِنَّا لهم[٤].

وذلك كما قال تعالى في موضعٍ آخرَ مِن كِتابِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٤٩).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٩).

الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا رأيتَ اللَّهَ يُعطي العبدَ منَ الدُّنيا- علَى مَعاصيهِ- ما يُحبُّ، فإنَّما هوَ استدراجٌ، ثمَّ تلا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]))[١].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾.

أي: ولم يَزَلْ ذلك الفتْحُ ممتدًّا لهؤلاءِ المكذِّبينَ برُسُلِهم، إلى أنْ فَرِحوا بما أُعْطُوا من السَّعةِ في المعيشة والأموالِ والأولادِ والأرزاقِ، والصِّحةِ في الأجسام؛ فَرِحوا بذلك فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، فلَمَّا صَدَر ذلك منهم؛ أتيناهُم بالعذابِ بقوَّةٍ وشِدَّة، مباغِتًا، لم يطرَأْ لهم على بالٍ، فإذا هم هالِكونَ، قد قَنَطوا وأَيِسوا من رحمةِ الله تعالى، وانقطَعَتْ حُجَجُهم[٢].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان مِن عادةِ مَن يَغْلِبُ مِن أهلِ الدُّنيا أنْ يَفوتَه آخِرُ الجُيوشِ، والمتفرِّقون

(١) أخرجه أحمد (١٧٣١١)، والروياني في ((المسند)) (٢٦١)، والطبراني في الأوسط (٩٢٧٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٢٢٠).
حسَّن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء))(٤/ ١٦٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦١)، وحسَّنه الأرنؤوط في تحقيق ((مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (١٧٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٦-٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٩).

عنهم؛ لِمَلَل أصحابِه من الطَّلَب، وضَجَرِهم من النَّصَب والتَّعَب، وقُصورِهم عن الإحاطةِ بجميعِ الأَرَب؛ أخْبَر تعالى أنَّ أخْذَه على غير ذلك، وأنَّ نَيْلَه للآخِر كَنَيْلِه للأوَّلِ على حدٍّ سواءٍ، فقال- مسبِّبًا عن الأخذ الموصوف مشيرًا بالبناءِ للمفعولِ إلى تمام القُدرةِ، وبالدَّابِر إلى الاستئصالِ[١]:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾.

أي: فاستُؤصِلَ هؤلاء المشركونَ الذين خالفوا أمْرَ الله، وكذَّبوا رُسُلَه، فهلكوا عن آخِرِهم، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ[٢].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أُرسِلَ الرُّسُلُ إلى هؤلاء الأُمَمِ كذَّبوهم وآذَوْهم، فابتلاهم اللهُ تارةً بالبلاءِ، وتارةً بالرَّخاءِ، فلم يؤمنوا؛ فأهلَكَهم واستراحَ الرُّسُل من شَرِّهم وتكذيبِهم، وصار ذلك نعمةً في حَقِّ الرُّسُل؛ إذْ أنجزَ الله وَعْدَه على لسانهم بهلاكِ المكَذِّبين، فناسب هذا الفِعْلَ كُلَّه الخَتْمُ بالحمدلةِ[٣].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: والحمدُ لله تعالى على ما قضاه وقَدَّرَه؛ من هلاكِ المُكذِّبينَ، فبذلك تتبيَّنُ آياتُه وحُجَجُه، ويظهر صِدْق رُسُلِه، ويحصُلُ إكرامُه لأوليائه، وإهانَتُه لأعدائه، ويكون ذلك الإهلاكُ نَكالًا لغيرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ هذا طَرَفٌ مِن وسائلِ المنهجِ الربانيِّ في خِطابِ الفِطْرةِ الإنسانيَّةِ بهذه العقيدةِ؛ لقدْ خاطبَها هنا ببأسِ اللهِ، وبموقفِ الفطرةِ إزاءَه حين يُواجِهُها في صُورةٍ من صُوَرِه الهائلة، التي تهزُّ القلوب، فيَتَساقطُ عنها رُكامُ الشِّرك، وتَتعرَّى فِطرتُها من هذا الركامِ الذي يَحجُبُ عنها ما هو مُستقِرٌّ في أعماقِها، مِن معرفتِها بربِّها، ومِن توحيدِها له أيضًا، إنَّها مواجهةُ الفِطرة بتصوُّر الهول! والفطرةُ حين تَلمَسُ هذه اللمسةَ، وتتصوَّر هذا الهولَ تُدرِكُ حقيقةَ هذا التصوُّرِ، وتهتزُّ له؛ لأنَّه يُمثِّل حقيقةً كامنةً فيها، يعلم بارِئُها سبحانه أنها كامنةٌ فيها، ويُخاطبُها بها على سبيلِ التصوُّرِ، فتهتزُّ لها وترتجفُ وتتعرَّى! وهو يسألهم ويطلبُ إليهم الجوابَ بالصِّدقِ مِن ألسنتِهم؛ ليكون تَعبيرًا عن الصِّدقِ في فِطرتِهم[1].

٢- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الفَزَع إليه سبحانه عِندَ شِدَّة الضِّيقِ واليأسِ من الأسبابِ مركوزٌ في فِطْرَةِ البَشَر، تنبعثُ إليه بذاتِها، كما تنبعثُ إلى طَلَب الغِذَاء عند الجوعِ مثلًا؛ فلا يَذهبُ به ما يُتلقَّى بالتعليمِ الباطِلِ مِن مَسائل الدِّين غالبًا إلَّا مَن تَمَّ فسادُ فِطرتِه، وانتهتْ سفالةُ طِينتِه، حتى كان كالأعجمِ، لا يَفهَمُ ولا يُفهِم، وإنَّما مَثَل تعاليم الشِّركِ مع هذه الغريزة الفِطريَّة كمَثَل ما كان عند المشركينَ مِن أحكامِ الطعامِ الباطلةِ مع غريزةِ التغذِّي؛ فإنَّهم كانوا يُحرِّمون بعضَ الطيبات كالبحائرِ والسوائبِ، ويبيحون بعضَ الخبائث كالميتةِ والدَّمِ المسفوح، فيَجنُون على غريزةِ التغذِّي بأكْل هذا والحرمانِ مِن ذاك، ثم يأكلون كلَّ شيءٍ عند

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٨٦).

الاضطرارِ، كذلك يجنون على غريزةِ التوجه إلى خالقِهم وخالقِ العالمِ كلِّه بما يتَّخذون من الأندادِ والأولياءِ والشُّفعاءِ، الذين يَتوجَّهون إليهم كما يَتوجَّهون إلى اللهِ؛ فإنَّهم عندَ الشِّدَّةِ يَنسَوْنها ويَدْعُون اللهَ وحْدَه[١].

٣- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ أنَّه لا يصرفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة أنَّه إذا أصابك السُّوءُ فلا تلجأْ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٤- في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ البأساءَ والضرَّاءَ، وما يُقابِلُهما من السَّرَّاء والنَّعماءِ، مِمَّا يتربَّى ويتهذَّب به الموَفَّقون من الناس، وإلَّا كانت النِّعَمُ أشَدَّ وَبالًا عليهم من النِّقَم، وهذا ثابتٌ بالاختبارِ، فلا خلاف في أنَّ الشدائِدَ مُصْلِحةٌ للفَسَادِ، وأجدَرُ النَّاسِ بالاستفادةِ مِنَ الحوادثِ المؤمنُ؛ كما ثبت في حديثِ صُهَيبٍ مرفوعًا في صحيحِ مسلمٍ ((عَجَبًا لِأَمْرِ المؤمنِ؛ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحَدٍ إلَّا للمؤمنِ؛ إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبرَ فكان خيرًا له))[٣].

٥- إذا ابتلى اللهُ عَبدَه بشَيءٍ مِن أنواعِ البلايا والمِحَن، فإنْ رَدَّه ذلك الابتلاءُ والمِحَنُ إلى ربِّه، وجَمَعَه عليه وطَرَحَه ببابِه؛ فهو علامةُ سَعادَتِه، وإرادةِ الخَيرِ به، وإن لم يَرُدَّه ذلك البلاءُ إليه، بل أنساه ذِكرَ رَبِّه والضَّراعةَ إليه، والتذَلُّل بين يَدَيه، والتَّوبةَ والرُّجوعَ إليه؛ فهو علامةُ شَقاوَتِه، وإرادةِ الشَّرِّ به؛ قال الله تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[1].

٦- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ وجوبُ التضرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ، باللجوءِ والإنابة إليه، والقيامِ بما يجب له من عقيدةٍ أو قولٍ أو عملٍ[2].

٧- إثباتُ قسوةِ القَلْب بعد لِينِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وكما في آية البقرةِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، والواجِبُ على الإنسان أن يلاحِظَ قلبَه دائمًا، فكلُّ أحدٍ يمكنُه الإتيانُ بالأعمالِ الظاهرة على أحْسَنِ وجهٍ، فالمنافِقُ يُمكِنُه أن يأتيَ بالصَّلاةِ على أحسنِ وجهٍ، ويُمكِنُ أن يتصَدَّق، لكنَّ أعمالَ القلوبِ صعبةٌ؛ فينبغي للإنسانِ أن يُحَرِّرَ قَلْبَه من رِقِّ المعاصي، وأن يَحرِصَ على فِعلِ أسبابِ إزالةِ هذه القسوةِ؛ ومنها: كثرةُ قراءةِ القرآنِ بتدبُّرٍ، واستشعارُ أنَّ هذا كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ومنها: كثرةُ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ، ومصاحبةُ الأخيارِ، ورحمةُ الصِّغارِ، ولا سيَّما اليتامى منهم[3].

٨- قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الرَّخاءَ ابتلاءٌ آخَرُ كابتلاءِ الشِّدَّة، وهو مرتبةٌ أشَدُّ وأعْلَى مِن مرتبةِ الشدَّة! والله يَبتلي بالرخاءِ كما يَبتلي بالشدَّة؛ يبتلي الطائِعين والعُصاة سواءً، بهذه وبذاك سواءً، والمؤمنُ يُبتلَى بالشدَّةِ فيَصبِر، ويُبتلَى بالرَّخاءِ فيَشكُرُ، ويكون أمرُه كلُّه خيرًا، فأمَّا هذه الأُمم التي كذَّبت بالرُّسُل، والتي يقصُّ اللهُ مِن أنبائها هنا؛ فإنَّهم لَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به، وعَلِم اللهُ سبحانه أنَّهم مُهلَكون، وابتلاهم بالبأساءِ والضراءِ فلم يَتضرَّعوا- فأمَّا هؤلاء فقدْ فتَحَ عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ للاستدراجِ بعد الابتلاء، ﴿حَتَّى إذا

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٦٣، ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

فَرِحُوا بِما أُوتُوا﴾ كان أَخْذُهم على غِرَّةٍ وهم في سَهوةٍ وسَكرةٍ(١).

٩- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أن يَحْذَرَ الإنسانُ عقوبةَ الله عزَّ وجلَّ إذا منَّ الله عليه بتيسيرِ أمورِ الدُّنيا؛ من مأكلٍ ومَشْربٍ ونِكاحٍ ومَرْكَبٍ ومَسْكَنٍ؛ فلا يغترَّ بهذا؛ لأنه قد يكونُ استدراجًا(٢)، قال أبو حازمٍ الأعرجُ: (إذا رأيتَ اللهَ يتابِعُ نِعَمَه عليك وأنت تَعصيه؛ فإنَّما هو استدراجٌ، فاحذَرْه)، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) [الأعراف: ١٨٢].

١٠- أنَّ الذي بيَدِه الرَّخاءُ والشِّدةُ هو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٤).

١١- أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ من الفَرَح الذي هو فَرَحُ البَطَرِ بنِعَم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾، أي: فَرَحَ بطرٍ، أمَّا إذا فَرِح الإنسانُ بما يَسُرُّه من أمورِ الدنيا، أو من أمورِ الآخرةِ فَرَحَ سرورٍ وانبساطٍ بنعمة الله، فإنَّ هذا لا بأس به؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾(٥) [يونس: ٥٨].

١٢- أنَّ الإنسانَ قد يأتيه العذابُ بغتةً، فبَيْنا هو في نعيمِه وسرورِه في الدنيا، منغمسًا في معاصي الله إذا بالعذابِ يأتيه بغتةً، وسواءٌ كان هذا العذابُ عامًّا شاملًا، أو كان خاصًّا؛ فقد يُبْتَلى بمرضٍ، أو بحوادِثَ تكْسِره وتَحْطِمُه، أو بموتٍ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٧).

عاجل؛ ولهذا قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه يَحِقُّ الحمدُ للهِ عند هلاكِ الظَّلَمة، الذين ليس فيهم خيرٌ، وليس فيهم إلَّا الشرُّ للبلادِ والعبادِ؛ لأنَّ هلاكَهم صلاحٌ للنَّاسِ، والصَّلاحُ أعظَمُ النِّعَمِ، وشُكْرُ النِّعمة واجبٌ، وهذا الحمدُ شُكْرٌ؛ لأنَّه مقابِلُ نعمةٍ[٢]؛ فهلاكُ الكافرينَ من حيثُ إنَّه تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ من شُؤمِ عَقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ، يحقُّ أن يُحمَدَ عليها[٣].

١٤- قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه: تعليمٌ للمؤمنينَ بأن يَحْمَدوا اللَّهَ جلَّ وعلا على إهلاكِه الظَّلَمةَ وكفايته شَرَّهم[٤].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- تقريرُ الإنسانِ بما لا يُمْكِنُه دفعُه؛ وذلك بأن يُقَرَّرَ بشيءٍ يُقِرُّ به، ولا يُمكِنُه دَفْعُه، وذلك في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾؛ لأنَّهم في هذه الحال لا يدْعونَ إلَّا اللهَ، فإذا كان كذلك فلماذا يُخْلِصون في الشِّدَّةِ، ويُشْرِكون في الرخاءِ[٥]؟!

٢- في قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بيانُ أنَّ الفطرةَ تَعْرِف ربَّها جيِّدًا، وتدينُ له بالوحدانيَّة، فإذا غَشِيَ عليها الرُّكامُ مدَّةً، فإنَّها إذا هَزَّها الهَوْل تساقَطَ عنها ذلك الرُّكامُ كلُّه وتعَرَّت منه جملةً، وعادت إلى بارِئِها كما خَلَقَها أوَّلَ مرَّةٍ مؤمنةً طائعةً خاشعةً، أمَّا ذلك الكيدُ كلُّه فحَسْبُه صيحةُ حَقٍّ تُزلزِلُ قوائِمَه، وتَرُدُّ الفِطْرَةَ إلى بارئها سبحانه. ولن يَذْهَبَ الباطلُ ناجيًا، وفي الأرضِ مَن يُطْلِق هذه الصَّيحةَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٥).

ولن يخلوَ وجْهُ الأرضِ مهما جَهَدوا ممن يُطْلِق هذه الصَّيحة(١).

٣- قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ فيه أنَّ الله تعالى يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ ولو كان كافرًا، بل ويَعْلَم عزَّ وجلَّ أنَّه سيكفُر إذا نجا؛ لأنَّ الله يُنَجِّيهم من الكَرْب، وهو يعلمُ أنَّهم إذا نَجَوْا فسوف يُشْركون، ومثلُ ذلك المظلومُ؛ فإنَّ اللهَ يُجيبُ دَعْوتَه ولو كان كافرًا(٢).

٤- قُيِّدَت هذه الآيةُ بالمشيئة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: آية ١٨٦] فقد أُطْلِقَت فيه إجابةُ الدَّعوة دون تقييدٍ بالمشيئةِ؛ قيل: لأنَّ الآيةَ التي قُيِّدت جاءت في دُعاءِ الكُفَّارِ، وجاءتِ الآيةُ الأخرى في دعاءِ المؤمنينَ فلم تُقَيَّدْ بالمشيئةِ؛ لأنَّ دعاءَ المؤمِنِ لا يُرَدُّ إلَّا إذا كان بإثم أو قطيعةٍ، وما جرى مجرى ذلك، وعلى كُلِّ حالٍ لا شيءَ إلَّا بمشيئةِ اللَّهِ، إلَّا أنَّ وَعْدَ اللَّهِ صادقٌ، وقد وعدَ المؤمنينَ بالإجابةِ، ولم يُقَيِّدْهُ بشيءٍ، وإنَّما جاء بقيدِ المشيئةِ في دعاءِ الكفَّارِ(٣).

وقيل: تُحملُ الآيةُ المطلقةُ على الآيةِ المقيَّدةِ، وقيل: المرادُ بالدعاءِ العبادةُ، وبالإجابةِ الثوابُ، وعليه فلا إشكالَ(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ فيه رحمةُ الله تبارك وتعالى بالخَلْق؛ حيث أرسل إليهم الرُّسُل لإقامة الحجَّة، ولبيان المحجَّة؛ يعني: الطريق، فلولا الرُّسُل ما عرفْنا الطريقَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فلولا أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).

(٤) ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٤).

بيَّنَ لنا كيف نتوضأ، ما عَرَفنا كيف نصلِّي، وما عرفنا كيف نزكِّي، وكيف نصوم، وكيف نحجُّ، وكيف نتعامل، فإرسالُ الرُّسُل من رحمة الله عزَّ وجلَّ[1].

٦- في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إقامةُ الحجَّة على الخلق بإرسالِ الرُّسُل، وهذه كقوله تعالى في سورة النِّساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ومن تمام الحُجَّة في إرسالِ الرُّسُل أنَّهم أُرْسِلوا بلسانِ قَوْمِهم، أي: بِلُغةِ قَوْمِهم الذين أُرْسِلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحُجَّةَ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّه لا تقوم الحُجَّةُ بمجرَّدِ البلاغ حتى يفهمَها المرْسَل إليهم، وإلَّا فلا فائدةَ، إلَّا أنَّه يجب على من بَلَغَه ولم يفهمْ أن يبحَثَ، لكن أحيانًا يتعذَّر البحث لكونهم لا يجدون من يثقونَ به فيبقَوْنَ جاهلينَ[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لَمَّا كان أخذُهم بالبأساء والضراء مقارِنًا لزَمَن وجودِ رُسُلِهم بين ظَهْرانَيْهم؛ عَطَف قوله: (أَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) بالفاء؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك كان بمرأى رُسُلِهم، وقبلَ انقراضِهم؛ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ الله أيَّدَ رُسُلَه ونَصَرَهم في حياتهم؛ لأنَّ أخْذَ الأُمَمِ بالعقاب فيه حكمتان: إحداهما: زَجْرُهم عن التكذيب، والثانية: إكرامُ الرُّسُل بالتأييدِ بمرأًى من المكذِّبين، وفيه تكرمةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإيذانِه بأنَّ الله ناصِرُه على مكذِّبيه[3].

٨- إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وثبوتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٧).

الحِكمةِ لله عزَّ وجلَّ في أفعالِه وفي شَرْعِه أمرٌ معلومٌ لكُلِّ ذي عقلٍ؛ لأنَّ كونَ الأفعالِ والأحكامِ تَصْدُر عن حكمةٍ يدلُّ على كمالِ الفاعِلِ والمُشَرِّع، فالله تعالى يبتلي بالبأساءِ والضرَّاءِ لكنْ لحكمةٍ، لا لمجرَّدِ إلحاقِ الضَّرَرِ بالخَلْق، والحكمةُ بَيَّنها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وإلَّا فإنَّ اللهَ لا يمكن أنْ يريدَ مُجَرَّد الإضرارِ، بل كلُّ ما ضرَّ النَّاسَ من تقديراتِ اللهِ فالمرادُ به مصلحةُ الخَلْقِ[1].

٩- في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ نصَّ سبحانه وتعالى هنا على الحِكمةِ، وليس كُلُّ فعلٍ أو حُكمٍ جاءَ مِن عندِ اللهِ يكونُ معلومًا لنا حِكمتُه؛ لأنَّ عُقولَنا أقصرُ مِن أن تُحيطَ بحِكمةِ الله عزَّ وجلَّ، لكن نعلمُ عِلمَ اليقين أنَّ ذلك لحِكمةٍ؛ فيجبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُؤمِنَ بأنَّ جميعَ أفعالِ اللهِ، وجميعَ شرائعِ اللهِ كلِّها لحِكمةٍ، لكن قد تُعلم وقد لا تُعلم[2].

١٠- إنْ قيلَ: أليسَ قَوْلُه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم تضرَّعوا؟ وهاهنا يقولُ: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يتضرَّعوا. والجواب على ذلك: أنَّ أولئكَ أقوامٌ، وهؤلاءِ أقوامٌ آخرونَ. أو يقال: أولئك تضرَّعوا لطَلَبِ إزالة البَلِيَّة، ولم يتضرَّعوا على سبيلِ الإخلاصِ لله تعالى؛ فلهذا الفَرْقِ حَسُنَ النفيُ والإثباتُ[3].

١١- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه تسليةٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ عادةَ الأُمَم مع رسُلِهم التكذيبُ، والمبالغةُ في قسوةِ القلوبِ حتى هم إذا أُخِذوا بالبلايا لا يتذلَّلونَ لله، ولا يسألونَه كَشْفَها، وهؤلاء الأُمَم الذين بَعَث الله تعالى إليهم الرُّسُل أبلغُ انحرافًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٤).

وأشدُّ شكيمةً، وأجلَدُ من الذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ خاطبهم تعالى بِقَولِه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الآية، وأخبر أنَّهم عند الأَزَمات لا يَدْعونَ لكَشْفِها إلَّا اللهَ تعالى(١).

١٢- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه بيانُ شدَّةِ قسوةِ هؤلاء المعَذَّبينَ، وذلك أنَّه لَمَّا جاءهم العذابُ ليتضَرَّعوا صارَ الأمْرُ بالعكس، بل زاد ذلك قسوةً في قلوبِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ، وكان ينبغي عليهم أن يتضرَّعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا قد يقع من الإنسانِ؛ ألَّا تزيدَه البأساءُ والضرَّاءُ إلَّا قسوةً في القلب، وسَخَطًا على الله عزَّ وجلَّ، وشعورًا بما لا ينبغي، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا ابتُلِيَ ببلاءٍ قال: ما هذا؟ لماذا يَظْلِمُني؟ لماذا يُصيبُني بما لم يُصِبْ به غيري؟ ثم يقسو قلبُه، والعياذ بالله(٢).

١٣- أنَّ الشَّيطانَ يُزَيِّن لبني آدم سوءَ العَمَلِ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾(٣) [التوبة: ٣٧].

١٤- إنَّ اللهَ تعالى يُضيفُ تزيينَ الدُّنيا والمعاصِي، إلى الشَّياطينِ، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ولا يُناقِضُ هذا قَولُه تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فإنَّ إضافةَ التَّزيينِ إليه قضاءً وقدَرًا، وإلى الشَّيطانِ تَسبُّبًا، مع أنَّ تزيينَه تعالى عقوبةٌ لهم على رُكونِهم إلى ما زَيَّنَه الشَّيطانُ لهم، فمِن عُقوبةِ السَّيئةِ السَّيئةُ بَعدَها، ومن ثَوابِ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بَعدَها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٥، ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١- ٢٠٢).

١٥- قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ معنى البغتةِ: الفجأةُ. وذلك أَشَدُّ ما يُؤخَذ به الإنسانُ؛ لأنه إذا عَلِمَ بالعذابِ قبلَ نُزُولِه يكونُ مُتَجَلِّدًا مُستَعِدًّا، أما إذا بَغَتَهُ قبلَ استعدادٍ له فهذا أشدُّ وأَنْكَى؛ ولأجلِ هذا بعَينِه أخبرَ اللَّهُ المؤمنينَ بالبلايا التي تَرِدُ عليهم قبلَ أن تقعَ؛ ليكونوا مُستَعِدِّين لها، ولئلَّا تُفاجِئَهم؛ حيثُ قال لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] أَخْبَرَهم بأنَّ الابتلاءَ سيأتيهم؛ لئلا يُباغِتَهم، ويكونوا مستعدِّينَ له قبل نزولِه[١].

١٦- في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ إنَّما أُخِذُوا في حالِ الرَّخاءِ والرَّاحةِ؛ ليكونَ أشدَّ لتحسُّرِهم على ما فاتَهم من حالِ السلامةِ والعافيَةِ[٢].

١٧- أتى قوله تعالى: ﴿قُطِعَ﴾ بصيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّه معلومٌ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، ولكنَّ الله تبارك وتعالى في الأمورِ التي تسوءُ يأتي بها بصيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وهو كقولِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، الجنُّ يؤمنونَ بأنَّ مُرِيدَ الشَّرِّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ويعرفونَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ بِيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو المُدَبِّر، لكنْ كرهوا أن يضيفوا الشرَّ إلى الله، فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠][٣].

١٨- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لأنَّ هذه العقوبةَ مُرَتَّبةٌ على قومٍ اتَّصفوا بالظُّلْم، فيكونُ الظُّلمُ سببًا للعقوبةِ[٤].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٩- في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بيانُ أنَّ الظُّلْمَ سببٌ للعقوبةِ والهلاكِ؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ على وصفٍ، صارَ ذلك الوصفُ عِلَّةً له؛ يزدادُ الحُكمُ قوةً بقُوَّتِه وينقُصُ بنَقْصِه[1].

٢٠- قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ المرادُ بهم المشْرِكونَ، وفيه: أنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ الظُّلْمِ؛ لأنَّه اعتِداءٌ على حَقِّ اللهِ تعالى على عبادِه في أن يَعْتَرِفوا له بالربوبيَّةِ وَحْدَه، وأنَّ الشِّرْكَ يَسْتَتْبِعُ مظالِمَ عِدَّةً؛ لأنَّ أصحابَ الشِّرْكِ لا يؤمنونَ بِشَرْعٍ يَزَعُ النَّاسَ عَنِ الظُّلْمِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يتضمَّنُ تهديدًا بالوعيدِ؛ طردًا للأغراضِ السَّابقة[3].

- وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ تركيبٌ شهيرُ الاستعمالِ، يُفتتَحُ بمِثلِه الكلامِ الذي يُرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهي كلمةُ استفهامٍ وتَعجُّبٌ، وليس لها نظيرٌ؛ فهمزةُ الاستفهامِ فيه للتَّقرير، والاستفهامُ للتَعجيب[4].

- وقد جَمَع في هذِه الآيةِ ونظيرتِها بَعْدُ بَينَ عَلامَتَي خِطابٍ (التَّاءِ) و(الكافِ)؛ لمزيدِ الاهتمامِ للمُرادِ، الذي هو الاستئصالُ بالهلاكِ، والتاءُ اسمٌ، والكافُ حرفٌ جِيءَ به لتأكيدِ الخِطابِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٦-١٦٧).

- وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْع الشِّرْك؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللهِ[١].

- وقوله: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ...﴾ إضافةُ العذابِ إلى اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿عَذَابُ اللهِ﴾؛ لتَهويلِه؛ لصُدُورِه مِن أقدَرِ القادرينَ[٢].

- قولُه: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أعادَ الفِعْلَ (أتى) مَع كَونِ حَرفِ العَطفِ (أو) مُغنِيًا عَن إعادةِ العامِلِ؛ بِأن يُقالَ: إنْ أَتَاكُم عَذابُ اللَّهِ أَوِ السَّاعَةُ، وهو ما يُوَجَّه به الإظهارُ فِي مَقامِ الإضمارِ مِن إرادةِ الاهتمامِ بِالمُظْهَرِ؛ بِحيث يُعادُ لفْظُه الصَّريحُ؛ لأنَّه أقوَى استِقرارًا فِي ذِهنِ السَّامِعِ[٣].

- وقوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ فيه مِن التبكيتِ ما هو ظاهرٌ، وفيه تقديمُ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ على عامِلِه ﴿تَدْعُونَ﴾؛ لتكونَ الجملةُ المستفهَم عنها جملةَ قَصْرٍ، وذلك إمَّا للاختصاصِ، بمعنى: أتَخُصُّون آلهتَكم بالدَّعوة فيما هو عادَتُكم إذا أصابكم ضُرٌّ، أم تَدْعونَ اللهَ دونَها؟ وإمَّا للإنكارِ عليهم في دُعائِهم للأصنام؛ لأنَّ المُنْكَر إنَّما هو دعاءُ الأصنامِ، لا نفسُ الدُّعاءِ، ألا ترى أنَّك إذا قُلْتَ: أزيدًا تَضْربُ؟ إنما تُنْكِرُ كونَ زيدٍ مَحَلًّا للضَّرْب، ولا تُنْكِر نفسَ الضَّرْب[٤].

٢- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾

- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿إِيَّاهُ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١).

أو للقَصرِ، وهو قصرُ إفرادٍ؛ للردِّ على المشركين في زعْمِهم أنَّهم يَدْعون اللهَ، ويَدْعون أصنامَهم، وهم وإنْ كانوا لم يَزْعُموا ذلك في حالٍ ما إذا أتاهم عذابُ الله، أو أتتْهم الساعةُ؛ إلَّا أنهم لَمَّا ادَّعَوْه في غيرِ تلك الحالةِ نُزِّلوا منزلةَ مَن يَستصحبُ هذا الزعمَ في تلك الحالة أيضًا(١).

- قَولُه: ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عَطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ وَهذا إِطماعٌ في رحمَةِ اللَّهِ؛ لعلَّهم يَتَذكَّرونَ(٢).

- قوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، أي: تتركون ما تُشركونه به تعالى من الأصنامِ تركًا كليًّا، عطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ أيضًا، وتوسيطُ الكَشْفِ بينهما مع تقارنِهما، وتأخُّرِ الكَشْف عنهما؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ الكَشْفِ(٣).

- وعُدِّيَ فِعْلُ ﴿تَدْعُونَ﴾ بحرفِ (إلى) في قوله ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾لأنَّ أصْلَ الدُّعاءِ نداءٌ؛ فكأنَّ المدعوَّ مطلوبٌ بالحضورِ إلى مكانِ اليأسِ(٤).

- ومفعـول ﴿شَـاءَ﴾ محذوفٌ علـى طريقةِ حَـذْفِ مَفعـولِ فِعلِ المشـيئةِ الواقِعِ شـرطًا(٥).

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ عند علماءِ البيانِ ببابِ استدراجِ المخاطَبِ، وهو أن يُلينَ الخطابَ، ويَمْزِجه بنوعٍ من التلطُّفِ، حتى يُوقِعَ المخاطَبَ في أمْرٍ يعترفُ به؛ فتقومَ الحجَّةُ عليه، واللهُ تعالى خاطَب هؤلاءِ الكفَّارَ بلِينٍ من القَوْلِ، وذكر لهم أمرًا لا يُنازِعونَ فيه، وهو أنَّهم كانوا إذا مسَّهم الضرُّ دعَوُا اللهَ لا غيرَه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١١).

٣- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أنَّ منهم مَنْ لا يدعو اللهَ تعالى عند إتيانِ العذابِ أيضًا؛ لتماديهم في الغَيِّ والضَّلالِ(١).

- وتصديرُهُ بالجملة القَسَميَّة ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لإظهارِ مزيدِ الاهتمامِ بمضمونِ الجملة وتوكيدِه(٢).

- ومفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف؛ لأنَّ مُقتضى المقامِ بيانُ حالِ المرسَلِ إليهم لا حالِ المرسَلين(٣).

- وهذا الخبرُ مستعمَل في إنذارِ السامعين من المشركينَ على طريقةِ التعريضِ(٤).

- قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يَتَذَلَّلُونَ؛ لأنَّ الضَّراعةَ التَّذلُّلُ والتَّخشُّعُ، وهو هُنا كنايةٌ عن الاعترافِ بالذَّنب والتَّوبة منه، وهي الإيمانُ بالرُّسُل(٥).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث عبَّر هنا بقوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ بإظهار التَّاء، وقال في سورة الأعراف: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بالإدغام مع اتحاد المرمى في الآيتين؛ وذلِك لأنَّ هاهنا وافَق ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، ومُستقبلُ (تضرَّعوا): (يَتضرَّعون) لا غيرُ، والعربُ تراعي مجاورةَ الألفاظِ؛ فتَحمِلُ اللفظَ على مجاورِه لمجرَّدِ المضارعةِ اللفظيَّة، وإنِ اختلَف المعنى،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٧).

وماضي الفِعل ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ من الضَّراعة لا إدغامَ فيه؛ إنَّما تقول: تضرَّع؛ إذ لا حَرْفُ مُضارَعَةٍ فيه يُسوِّغُ الإدغامَ، فلمَّا ورد الماضي فيما بُني على آيةِ الأنعام مِن قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ولا إدغامَ فيه، ورَد الأوَّل مفكوكًا غير مُدغَم فقيل: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ رعيًا للمناسبةِ. أمَّا آيةُ الأعرافِ فلم يرِدْ فيها ما يَستدعي هذه المناسبةَ؛ فجاءَ مُدغمًا على الوجهِ الأخفِّ؛ إذ لا داعيَ لخلافِه(١).

٤- قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (لولا) هنا حَرْفُ تَوبيخٍ؛ لدُخولِها على جُملةٍ فِعليَّةٍ ماضَويَّةٍ واحدةٍ ﴿تَضَرَّعُوا﴾، فليستْ (لولا) حَرْفَ امتناعٍ لوجودٍ، بل هي التَّحضيضيَّة، وهي حرفٌ يَدُلُّ على طَلَبِ الفعلِ بِحَثٍّ وَحَضٍّ؛ ولذا سُمِّيَتْ حرفَ تحضيضٍ، وعبَّر بها هُنا عن فِعلٍ فاتَ تَدارُكُه، ولم يَبْقَ مُمْكِنًا أبدًا؛ فانْقَلَبَ في هذا المعنى تَحْضِيضُها إلى التَّوبيخِ والتَّنديمِ؛ فالمُوَبَّخُ بها هنا قد مَاتَ، ولم يَعُدْ موجودًا؛ لأنَّ وقْتَ نُزولِ الآيةِ هؤلاءِ الأممُ قد ماتوا، وانْقَضَوْا في أزمانٍ متناهيةٍ، قد مَضَوْا في الزمانِ الماضي؛ فلا يُمكنُ حُصولُ الفِعلِ منهم، وليسوا موجودِينَ حتَّى يَسمعوا التوبيخَ، ولكنَّ المقصودَ مِن توبيخِ هذا الذي غَابَ وماتَ؛ ليعتبرَ به غيرُه؛ فجاء حرف التحضيض ﴿فَلَوْلَا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّوبيخِ، وليُفيدَ أنَّه لم يكُنْ لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرُّع إلَّا قسوةَ قلوبِهم، وإعجابَهم بأعمالِهم التي زَيَّنَها الشَّيطانُ لهم، والتوبيخُ إنما يليقُ بالحاضرينَ دون المُنْقَرضينَ الذين تحكي عنهم الآيةُ؛ لفواتِ المقصود؛ ففي هذا التنزيلِ إيماءٌ إلى مُساواةِ الحَالَينِ؛ حالِ مَنْ مضى، وحالِ مَن يُشْبِه وَضْعَهم من الحاضرينَ، وتوبيخٌ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٠- ١٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٧).

للحاضرينَ بالمُهِمِّ من العِبرةِ؛ لبقاءِ زَمَنِ التَّدارُكِ قَطعًا لعُذْرِهم[١].

- وتقديمُ الظرفِ المضافِ مع جُملته ﴿إِذْ جاءَهُمْ﴾ على عاملِه ﴿تَضَرَّعُوا﴾؛ في قوله: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾؛ للاهتمامِ بمضمونِ جملتِه، وأنَّه زمنٌ يَحِقُّ أنْ يكون باعثًا على الإسراعِ بالتضرُّعِ ممَّا حصل فيه من البأسِ[٢].

٥- قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهِرِ موضِعَ الضَّمير؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم؛ فإنَّ هلاكَهم بسبب ظُلْمِهم الذي هو وَضْعُ الكُفْر موضعَ الشكر، وإقامةُ المعاصي مَقامَ الطاعاتِ[٣].

- وقطْعُ الدَّابر كنايةٌ عن ذَهابِ الجميعِ؛ لأنَّ المُسْتَأصِلَ يبدأُ بما يليه، ويذهَبُ يستأصِلُ إلى أن يبلُغَ آخِرَه، وهو دابِرُه، وهذا ممَّا جرى مجرى المَثَلِ[٤].

- قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملةُ معطوفةً على جملة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بما اتَّصل بها، عطْفَ غرضٍ على غرضٍ، ويجوز أن تكون اعتراضًا تذييليًّا، فتكون الواو اعتراضيَّة، وأيًّا ما كان موقِعُها ففي المرادِ منها اعتباراتٌ ثلاثة: أحدها: أن تكونَ تلقينًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ أن يحمَدوا اللهَ على نَصْرِه رُسُلَه وأولياءَهم وإهلاكِ الظَّالمينَ؛ فيكون الحمدُ لله مصدرًا بدلًا من فِعله، عدَلَ عن نَصْبِه وتنكيرِه إلى رفْعِه وتعريفِه؛ للدَّلالة على معنى الدَّوامِ والثَّبات.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٩- ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣١).

ثانيها: أن يكون الحَمْدُ لله كنايةً عن كَوْنِ ما ذُكِرَ قبله نعمةً مِن نِعَم الله تعالى؛ لأنَّ من لوازمِ الحمدِ أن يكونَ على نعمةٍ. ثالثها: أن يكونَ إنشاءَ حَمْدٍ لله تعالى من قِبَل جَلالِهِ مُستعمَلًا في التعجُّبِ من معاملةِ الله تعالى إيَّاهم، وتدريجِهم في درجاتِ الإمهالِ إلى أنْ حقَّ عليهم العذابُ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

الآيات (٤٦ - ٥٠)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَخَتَمَ﴾: الخَتْمُ على الشَّيءِ: هو الطَّبْع عليه ووسْمُه، وسدُّه ورَبْطُه، والخاتِم بمنزلة الطَّابع[١].

﴿نُصَرِّفُ﴾: أي: نبيِّن ونوضِّح ونُفَسِّر، والصَّرْف: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصل (صرف): يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[٢].

﴿يَصْدِفُونَ﴾: أي: يُعْرِضون، ويَعدِلون عن الحَقِّ، والصُّدُوف: الإعراضُ عن الشَّيء؛ يُقال: صَدَفَ عن الشَّيء، أي: أعرض عنه إعراضًا شديدًا يجري مجرى الصَّدَف، أي: الميل في أرجُل البعير، وأصل (صدف): يدلُّ على المَيْلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥ يُنظر: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل (جهر): إعلانُ الشَّيءِ وكَشفُه وعُلُوُّه(١).

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: مُخبِرينَ بما يَسُرُّ؛ يُقال: أبشرتُ الرَّجُلَ وبشَّرْتُه: أخبرتُه بسارٍّ بسَط بشَرةَ وجْهِه، وأصل (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ(٢).

﴿مُنْذِرِينَ﴾: مُخبِرينَ ومُبلِّغين ومُحذِّرين ومُخوِّفين، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبلاغُ(٣).

﴿خَزَائِنُ اللهِ﴾: الخَزْن: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثم يُعبَّر به عن كلِّ حِفْظ؛ كحِفْظِ السرِّ ونحوِه، وأصل (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيء(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للمشركين: أخبِروني إنْ أخَذَ اللهُ سَمْعَكم؛ فأصمَّكم، وأخَذَ أبصارَكم؛ فأعماكم، وطبَعَ على قلوبكم؛ فلم تفقهوا شيئًا، فهل هناك إلهٌ غيرُ اللهِ قادرٌ على إرجاعِ ذلك لكم؛ فتعبدوه أو تُشرِكوه في عبادةِ ربِّكم؟ انظُرْ أيُّها الرَّسولُ كيف نتابعُ عليهم الحُجَجَ، ونوضِّحُها، ثم هم يُعْرِضون عنها!

ثم يأمُرُ اللهُ نبيَّه أنْ يقولَ لهؤلاءِ المشركينَ: أخْبِروني إنْ أتاكُم عذابُ اللهِ فجأةً، وأنتم لا تشعرونَ به، أو أتاكم عقابُه ظاهرًا عِيانًا؛ هل يُهلَك بذلِك العذابِ إلَّا أنتُم لِظُلْمِكم؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه ما يُرْسِلُ المرسَلينَ إلَّا مُبَشِّرينَ مَن أطاع بالفَوْزِ العظيم، ومُنذرِينَ مَن عصَى بالخُسرانِ المُبين، فمَن آمَنَ وأصلح فلا خوفٌ عليهم فيما يَسْتَقبلونَ، ولا هم يَحزنونَ على ما مضَى، والذين كذَّبوا بآيات الله ينالُهم العذابُ بِسببِ فِسقِهم.

ثم يأمُرُه سبحانَه بأنْ يُخْبِرَهم لَمَّا كَثُرَ اقتراحُهم عليه، وتعنُّتُهم بإنزالِ الآياتِ التي تضطرُّهم إلى الإيمانِ، أنَّه لم يكُنْ عِندَه خزائنُ الله حتَّى يأتيَهم بما اقترحوه من الآياتِ، وأنْ يقولَ لهم: إنَّه لا يعلمُ الغَيْبَ حتى يُخْبِرَهم به، ويُعَرِّفَهم بما سيكونُ في مُستقبَلِ الدَّهْرِ، ولا يدَّعي أنَّه مَلَكٌ حتى يُكَلِّفوه من الأفعالِ الخارقَةِ للعادَةِ ما لا يُطيقُه البَشَر، وإنَّما هو رسولٌ أرسلَه اللهُ للدَّعوة، ولا يقولُ ما يقولُ، ويفعلُ ما يفعلُ، إلَّا وَفْقًا لوَحْيِ الله؛ فهل يَستوي مَن اتَّبَعَ الحَقَّ وهُدِيَ إليه، ومَن ضَلَّ عنه ولم ينقَدْ له؟! أفلا تتفكَّرونَ؟!

تفسيرُ الآيات:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى آنفًا: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥] وكان ذلك تنبيهًا لهم على عَدَمِ إجداءِ هذه المواهِبِ عليهم مع صلاحيتها للانتفاعِ- هدَّدَهم هنا بزوالِها بالكلِّيةِ إن داموا على تعطيلِ الانتفاعِ بها فيما أمر به خالِقُها، فقال تعالى[1]:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المُشركينَ: أخبروني إنْ سَلَبَكم اللهُ سَمْعَكم وأبصارَكم، فأصمَّكم وأعماكم، وطبَع على قلوبِكم، فترككم بلا عقلٍ[(١)].

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.

أي: هل ثَمَّ إلهٌ غيرُ الله يَقْدِرُ على أنْ يَرُدَّ عليكم الأسماعَ والأبصارَ والأفهامَ إذا سلبَها اللهُ منكم، فتعبدوه أو تُشْرِكوه في عِبادة ربِّكم[(٢)]؟

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

مُناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا غَمَرَهم اللهُ تعالى بالأدلَّةِ على الوحدانيَّةِ، وصِدْقِ الرَّسولِ، وأبطَلَ شُبَهَهم، في كثيرٍ مِمَّا تقدَّمَ من آياتٍ- عقَّب ذلك كُلَّه بالتعجيبِ من قوَّةِ الأدِلَّةِ، مع استمرارِ الإعراضِ والمكابرةِ، فقال تعالى[(٣)]:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- كيف نُتابِعُ عليهم الحُجَجَ ونُنَوِّعُها، ونَضْرِبُ لهم الأمثالَ والعِبَرَ ونُبَيِّنُها؛ تارةً بالوعدِ، وتارةً بالوعيدِ، وتارةً بالابتلاءِ بالسَّرَّاءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٤-٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٩).

قال ابن كثير: (ويحتمل أنْ يكونَ هذا عبارةً عن منْع الانتفاعِ بهما الانتفاع الشرعيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧).

وقيل المعنى: أنَّه يأخُذ الأُذنَ بحاسَّتها، ولا يترك لها أثرًا، ويأخذ العينَ حتى يترُكَ الوجه مَطْمُوسًا. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

وتارةً بالضرَّاءِ، وغير ذلك؛ ليعتَبِروا ويَذَّكَّرُوا، فيُنيبوا ويَعْلَموا أنَّ ما يَعبدونَ من دونه سبحانه باطِلٌ وضَلالٌ[1].

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

أي: ثُمَّ هم مع مُتابَعَتِنا عليهم الحُجَجَ، وتنبيهِنا إيَّاهم بالعِبَر، وإيضاحِ الحَقِّ، وتبيُّنِه لهم بهذا البيانِ التَّامِّ- يُعْرِضُون عن ذلك كُلِّه، ويَنصرِفونَ عن الحَقِّ[2].

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: أخبروني إنْ أتاكُم عِقابُ اللهِ على ما تُشْركون به بعدَ بيانِ الحقِّ واتِّضاحِه، فجأةً على حينِ غِرَّةٍ، وأنتم لا تَشعرونَ، أو أتاكم عِقابُه وأنتُم تُعاينونَه ظاهرًا بعدَ أن ترَوْا مُقَدِّماتِه[3].

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: لا يُهْلِكُ اللهُ منَّا ومنكم إلَّا مَن كان يَعبدُ غيرَه، فيُحيطُ العذابُ بالظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّرْكِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وينجو الذين كانوا يعبدونَ اللهَ وحْدَه لا شريكَ له[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٣-٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣١).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان صُدوفُهم وإعراضُهم يَتعلَّلون له بأنَّهم يَرُومونَ آياتٍ على وَفْقِ مُقْتَرَحِهم، وأنَّهم لا يَقْنعونَ بآياتِ الوحدانيَّةِ، ألَا تَرَى إلى قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخِرِ ما حُكِيَ عنهم في تلك الآيَةِ- أنبأَهُم اللهُ بأنَّ إرسالَ الرُّسُل للتبليغِ والتبشيرِ والنِّذارةِ، لا للتلهِّي بهم باقتراحِ الآياتِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

أي: وما نُرسِلُ رُسُلَنا[2] إلاَّ ببشارةِ مَن أطاعَهم بالخيراتِ، والفَوْزِ بالجنَّاتِ، وبإنذارِ مَن عصاهم بالنِّيرانِ، والنِّقْمات والعُقُوباتِ[3].

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: فمَن آمَنَ قلبُه بما جاء به الرُّسُل الكرامُ ممَّا وجب الإيمانُ به، وأصلَحَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (المرادُ بهم هنا: المرسَلونَ مِنْ بَنِي آدمَ، مع أنَّ المرسلين يكونون من الآدميِّين ومن غيرِهم كالملائكةِ، كما يأتي في قولِه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]). ((العذب النمير)) (١/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٣-٢٣٤).

عَمَلَه بالإخلاصِ لله تعالى واتِّباعِهم؛ فلا خَوْفٌ عليه فيما يَستقبِلُ، ولا هو يَحْزَن على ما مَضَى(١).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ حالَ المصْلِحينَ، أتْبَعَه بذِكْرِ حالِ المفْسدينَ؛ فقال(٢):

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾.

أي: وأمَّا الذين كذَّبوا برُسُلِنا، ودافعوا حُجَّتنا، فإنَّهم ينالُهم العذابُ؛ جزاءً لهم على كُفْرِهم، وخُروجِهم عن أوامِرِ اللهِ تعالى، وارتكابِ مناهيه(٣).

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا تَقَضَّت المجادلةُ مع المُشْركينَ في إبطالِ شِرْكِهم، ودَحْضِ تعاليلِ إنكارِهم نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنَّهم لا يُؤمنونَ بنبُوتِه إلَّا إذا جاء بآيةٍ على وَفْقِ هواهم، وأُبْطِلَت شُبْهَتُهم بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وكان محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّن شَمِلَه لفظُ المُرْسَلين- نَقَل الكلامَ إلى إبطالِ معاذيرِهم، فأعْلَمَهم اللهُ حقيقةَ الرِّسالةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٢-٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٦-٢٩٠).

واقترانِها بالآياتِ، فبيَّنَ لهم أنَّ آيَةَ صِدْقِ الرَّسولِ تجيءُ على وَفْقِ دعواه الرِّسالةَ، فلو ادَّعى أنَّه مَلَكٌ، أو أنَّه بُعِثَ لإنقاذِ النَّاسِ من أَرزاء الدُّنيا، ولإدْناءِ خيراتِها إليهم، لكان مِن عُذْرِهم أنْ يسألوه آياتٍ تؤيِّدُ ذلك، فأمَّا والرَّسولُ مبعوثٌ للهُدى، فآيتُه أنْ يكونَ ما جاء به هو الهُدى، وأنْ تكون مُعجزَتُه هو ما قارَنَ دَعْوَتَه، ممَّا يَعْجِز البَشَرُ عن الإتيانِ بمِثْلِه في زَمَنِهم[1].

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشْركينَ: لستُ أقولُ لكم إنِّي أمْلِكُ خزائِنَ رِزْقِ الله تعالى[2].

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: إنِّي أعلمُ غُيوبَ الأشياءِ الخَفِيَّةِ التي لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ وحده، الذي لا يَخفَى عليه شيءٌ[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾.

أي: ولا أدَّعي أنِّي مَلَكٌ، فأكونَ نافِذَ التصرُّفِ قويًّا، غنيًّا عن الأكلِ والمالِ، أشاهِدُ مِن أَمْرِ الله تعالى ما لا يُشاهِدُه البَشَر[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٥٤)، ((مجموع =

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: ما أَتَّبعُ إلَّا وَحْيَ اللهِ الذي يُوحيه إليَّ، فأَمضِي لِوَحْيِه، وأأْتَمِرُ لأمْرِه، لستُ أخرجُ عنه قِيدَ شِبْرٍ ولا أدْنى منه، وهذا مُنتهَى أمْري وأعلاه، فأعْمَلُ به في نفْسي، وأدْعو الخَلْقَ كُلَّهم إلى ذلك، كما أُوحِيَ إليَّ(١).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهم: هل يستوي الذي عَمِيَ عن الحَقِّ وأَعْرَض عنه، مع من أَبْصَرَ الحَقَّ وانقادَ إليه(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: أتَغْفُلونَ وتُعْرِضونَ عن تلك الآياتِ والحُجَجِ، فلا تتفكَّرونَ فيها حتى تَفْهموها، وتَعْلَموا صِحَّةَ ما أَدْعوكم إليه، فتختاروا اتِّباعَ الحَقِّ(٣)؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ...﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ ينبغي لِكُلِّ مسلمٍ أن يَعتبرَ بها،

= الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠١-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٠).

فيعلمَ أنَّ اللَّهَ شقَّ له في وَجْهِه عَيْنَيْنِ، وصبَغَ له بعضَهما بصبغٍ أسودَ، وبعضَهما بصبغٍ أبيضَ، وأعطاه لهما سِلْكًا من جفونِه، وجعلَ لعَيْنيه شحمًا؛ لئلَّا يُجَفِّفَهما الهواءُ، وجعلَ ماءَ عينِه مِلْحًا؛ لئلَّا تُنْتِنَ الشحمةُ، وجعلَ له عقلًا، وهو هذا العقلُ الذي يُمَيِّزُ به بين الأشياءِ، ويفعلُ به هذه الأفعالَ الغريبةَ العجيبةَ، وأعطاه حاسَّةَ السَّماعِ، كُلُّ هذا أعطاه له؛ ليبذُلَ هذه النِّعَمَ فيما يُرْضِي رَبَّهُ جلَّ وعلا؛ فلا ينبغي منه ولا يَجْمُلُ به أنْ يَستعينَ بِنِعَمِ رَبِّهِ على مَعصيةِ خالقِه جلَّ وعلا، فهذا عَمَلٌ لا يليقُ بعاقلٍ؛ ثم إنَّه يُلَاحِظُ قُدرةَ اللَّهِ وعظمتَه وجلالَه، وأنه قادرٌ على أن يَنزِعَ منه السَّمعَ والبصرَ والعقلَ فيتركَه كالجمادِ لا يسمعُ شيئًا، ولا يُبصرُ شيئًا، ولا يعقِلُ شيئًا، فلا ملجأَ له غيرُ اللَّهِ يُزِيلُ ذلك عنه؛ وَلِذَا قال: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ...﴾ فيه تذكيرٌ لهم بأنَّ اللهَ هو خالِقُ أسماعِهم وأبصارِهم وألبابِهم؛ فليس غَيرُه جديرًا بأنْ يعبدوه[2].

٣- في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُوقفُ السِّياقُ القرآنيُّ المشركينَ بالله، أمامَ بأسِ الله، في ذواتِ أنفُسِهم، في أسماعِهم وأبصارِهم وقلوبِهم، وهم عاجِزونَ عن رَدِّه، وهم لا يَجِدون كذلك إلهًا غير الله، يردُّ عليهم أسماعَهم وأبصارَهم وقلوبَهم إنْ أَخَذَها الله، وهو مشهدٌ تصويريٌّ يُجسِّم لهم عجْزَهم أمامَ بأسِ اللهِ من جانبٍ، كما يُصوِّر لهم حقيقةَ ما يُشركون به مِن دُونِ اللهِ في موقفِ الجِدِّ مِن جانبٍ، ولكنَّ هذا المشهدَ يَهزُّهم مِن الأعماقِ. إنَّ خالقَ الفِطرةِ البشريَّةِ يَعلَمُ أنَّها تُدرك ما في هذا المشهدِ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

التصويريِّ مِن جِدٍّ، وما وراءَه مِن حَقٍّ، أنَّها تُدرك أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يَفعل بها هذا، قادرٌ على أنْ يأخُذَ الأسماعَ والأبصار، وأنْ يَختِمَ على القلوبِ، فلا تعودَ هذه الأجهزةُ تؤدِّي وظائفَها، وأنَّه- إنْ فعَلَ ذلك- فليس هناك مِن إلهٍ غيرُه يردُّ بأسَه، وفي ظلالِ هذا المشهدِ، الذي يَبعَثُ بالرجفةِ في القلوبِ والأوصالِ، ويُقرِّر في الوقتِ ذاتِه تفاهةَ عَقيدةِ الشِّرك، وضلالَ اتِّخاذِ الأولياءِ من دون اللهِ، في ظلالِ هذا المشهدِ يعجَبُ مِن أمْرِ هؤلاءِ الذين يُصرِّفُ لهم الآياتِ، ويُنوِّعها، ثمَّ هم يَميلون عنها(١)!

٤- قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ فيه بيانُ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ حيث صَرَّف الآياتِ للعبادِ، ولو شاء لَتَرَكَ التَّصريفَ وجَعَل النَّاسَ يتخبَّطونَ خَبْط عَشْواء، لكنْ مِن نعمةِ الله عزَّ وجلَّ ورَحْمتِه بعِباده أنَّه يُريهِم الآياتِ ويُصَرِّفُها ويُنوِّعها لهم، فإذا لم يؤمنْ بهذه الآيةِ آمَنَ بالآيةِ الأخرى وحَصَلَ المقصودُ، وكم من إنسانٍ تفوتُه آياتٌ كثيرةٌ لا يعتَبِرُ بها، ثم يُصابُ بآيةٍ واحدةٍ فيَعتبِرُ(٢)!

٥- التحذيرُ من نزولِ العذابِ؛ إمَّا بغتةً، وإمَّا جهرةً؛ فلا يأمَنِ الإنسانُ إذا كان عاصيًا أن يَنزِلَ به العذابُ، لكنْ أيظُنُّ أنَّ العذابَ هو عقوبةُ الجَسَدِ فقط، فرغمَ أنَّ عقوبةَ الجَسَد عذابٌ في حدِّ ذاتِها إلَّا أنَّ هناك ما هو أكبرُ منها، وهو الإعراضُ عن دِين الله عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾(٣) [المائدة:٤٩].

٦- قوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه وعْدٌ مِنَ اللهِ تعالى بأنَّه مُنْجي المؤمنينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

٧- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تشجيعُ الإنسانِ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، والحثُّ على ذلك بذِكْر عاقبةِ هذا المؤمنِ المُصْلحِ(١).

٨- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أنَّ الإيمانَ وَحْده لا يكفي، بل لا بدَّ معه من إصلاحٍ(٢).

٩- قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ التفكُّر مطلوبٌ، والحضُّ عليه منهجٌ قرآنيٌّ، ولكنَّه التفكُّرُ المضبوطُ بضابطِ الوحي، الذي يَمضي معه مُبصِرًا في النُّورِ، لا مُطلق التفكُّرِ الذي يَخبِط في الظَّلامِ أعْمَى، بلا دليلٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ منير، والعقلُ البَشريُّ حين يتحرَّكُ في إطارِ الوحيِ لا يَتحرَّكُ في مجالٍ ضيِّق، إنَّما يتحرَّكُ في مجالٍ واسعٍ جدًّا، يتحرَّكُ في مجالٍ هو هذا الوجودُ كلُّه، الذي يَحتوي عالَمَ الشَّهادةَ وعالَمَ الغيبَ أيضًا، كما يحتوي أغوارَ النَّفْس ومجاليَ الأحداث، ومجالاتِ الحياةِ جميعًا؛ فالوحيُ لا يكفُّ العقلَ عن شيءٍ إلَّا عن انحرافِ المنهج، وسُوءِ الرؤيةِ، والْتواءِ الأهواءِ والشَّهوات! وبعدَ ذلك يَدفعُه إلى الحركةِ والنَّشاط دفعًا؛ فهذه الأداةُ العظيمةُ التي وهَبَها اللهُ للإنسانِ- العقل- إنَّما وهبَها له؛ لتعمَلَ وتَنشَطَ في حراسةِ الوحيِ والهُدى الربَّاني، فلا تضلُّ إذنْ ولا تَطْغَى(٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- المرادُ مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٩).

الدَّلالةُ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ المُختارِ؛ لأنَّ أشرَفَ أعضاءِ الإنسانِ هو السَّمْعِ والبَصَرِ والقَلْبِ؛ والأذنُ محلُّ القوَّةِ السَّامعة، والعينُ محلُّ القوَّةِ الباصِرَةِ، والقلبُ محلُّ الحياةِ والعِلْمِ والعَقْلِ، فلو زالتْ هذه الصِّفاتُ عن هذه الأعضاءِ اختلَّ أمرُ الإنسانِ، وبطَلَت مصالِحُه في الدُّنيا والدِّينِ، ومِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ القادِرَ على تحصيلِ هذه القُوى فيها، وَصَونِها عن الآفاتِ والمخافاتِ ليس إلَّا الله، وإذا كان الأمرُ كذلك كان المُنْعِم بهذه النِّعَم العالِيَةِ، والخيراتِ الرَّفيعةِ هو الله سبحانه وتعالى؛ فوجَبَ أن يقال: المُستحِقُّ للتعظيمِ والثَّناءِ والعبوديَّةِ ليس إلَّا الله تعالى[1]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ فيه دليلٌ على توحيدِ الله تعالى، وأنَّه المتصَرِّفُ في العالَمِ، الكاشِفُ للعَذاب، والرادُّ لِمَا شاء بعدَ الذَّهاب[2]، كما أنَّه دليلُ بُطلانِ الشِّرْكِ؛ فإذا لم يكن غيرُ الله يأتي بذلك، فلِمَ يَعبدونَ معه من لا قدرةَ له على شيءٍ إلَّا إذا شاءَه اللهُ[3]؟!

٢- التَّشنيعُ على هؤلاء الذين صُرِّفَت لهم الآياتُ فأَعرضوا؛ لقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[4].

٣- ما المرادُ بقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ مع العِلْمِ بأنَّ العذابَ إذا نزَلَ لم يَحصُلْ فيه التمييزُ؟ والجواب: أنَّ الهلاكَ وإنْ عمَّ الأبرارَ والأشرارَ في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّ الهلاكَ في الحقيقةِ مختصٌّ بالظَّالِمينَ الشِّريرينَ؛ لأنَّ الأخيارَ يَستوجبونَ بسببِ نُزُولِ تلك المضارِّ بهم أنواعًا عظيمةً من الثَّوابِ، والدَّرجاتِ الرفيعةِ عند اللهِ تعالى، فذاك وإنْ كان بلاءً في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّه يُوجِبُ سعاداتٍ عظيمةً، أمَّا الظَّالِمونَ فإذا نزَلَ البلاءُ بهم فقد خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ معًا؛ فلذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

وَصَفَهم اللهُ تعالى بكونِهم هالِكينَ، وذلك تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ التقيَّ النقيَّ هو السَّعيدُ، سواءٌ كان في البلاءِ أو في الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأنَّ الفاسِقَ الكافِرَ هو الشقيُّ، كيف دارت قضيَّتُه، واختلفت أحوالُه، والله أعلم(١).

٤- في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأنبياءَ إنَّما بُعِثوا مُبَشِّرينَ بالثَّوابِ على الطَّاعاتِ، ومُنذرينَ بالعقابِ على المعاصي، ولا قُدرَةَ لهم على إظهارِ الآياتِ والمُعجزاتِ، بل ذلك مُفَوَّضٌ إلى مشيئةِ الله وحِكْمَتِه(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه بيانُ منَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه بإرسالِ الرُّسُل، وحِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ تقضي بإرسالِ الرُّسُل؛ لأنَّ العقلَ البَشريَّ لا يستقلُّ بمعرفةِ ما يجب لله من الأسماءِ والصِّفاتِ والأحكامِ، ولا يُمكِنُ أن يستقلَّ بمعرفةِ العباداتِ، فالنَّاسُ مضطرُّونَ غايةَ الضَّرورةِ إلى الرُّسُل، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: على دينٍ واحدٍ، فلما كثُروا تفرَّقوا واختلفَوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾(٣) [البقرة: ٢١٣].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فيه أنَّ رسالةَ الرُّسُل تتضمَّنُ هذينِ الشَّيئينِ، وهما: البِشارةُ والإنْذارُ؛ فالبشارةُ تكونُ لِمَن أطاع واتَّبعَ الرُّسُل، والإنذارُ بالعقوبةِ يكونُ لِمَن كذَّبَ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّ الرُّسُل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٧).

قال الشِّنقيطي: (وفي الآيةِ سؤالٌ معروفٌ: جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أن العذابَ إذا نَزَلَ بقومٍ كفارٍ شَمِلَ مَنْ فيهم مِنَ المسلمين، وهذه الآيةُ بَيَّنَتْ أنه لا يُهْلَكُ إلَّا القومُ الظالمون؟ أُجِيبَ عن هذا: بأن العذابَ لو شَمِلَ، وأهْلَكَ مَن هو معهم، أنَّ هذا الهلاكَ تمحيصٌ له، وأنه يُبْعَثُ يومَ القيامةِ في نعمةٍ من اللَّهِ ورحمةٍ وأجور). ((العذب النمير)) (١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٨).

عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يأتوا بمجرَّدِ الأحكامِ، أي: لمجرَّدِ أن يقولوا: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، بل قَرَنوا ذلك بالبِشارَةِ والإنذارِ؛ لأنَّ البِشارةَ تَحمِلُ الإنسانَ على فِعْلِ المأمورِ؛ فلو بُشِّر إنسانٌ بأنَّه سيحصُل على كَنزٍ في المكانِ الفلانيِّ لوُجِدَ يُسابِقُ، فيفعل ما يُوصله إليه، والإنذارُ يحصُلُ به البُعدُ عن المعاصي، وعلى هذا تتركَّبُ دعوةُ الرُّسُل(١).

٧- قَوْله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ و﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيهما بيانُ حِكْمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في انقسامِ النَّاسِ بالنِّسبةِ إلى قَبُولِ دَعوةِ الرُّسُل إلى قِسْمَينِ: مؤمنٌ يعملُ عملًا صالحًا، ومُكَذِّبٌ يرتكِبُ المعاصِيَ، هذا من الحِكْمةِ بل ومِنَ الرَّحْمة؛ لأنَّه لو لم يكُنْ كُفْرٌ لم يُعرَف قَدْرُ الإسلامِ، ومِن رحمةِ اللهِ وحِكْمَتِه أنَّه قسَّمَ النَّاسَ إلى قِسْمينِ؛ لأنَّه لولا هذا الانقسامُ لَمَا حَصَلَت فُروضٌ من الشَّريعةِ: مِثل الجِهادِ، والأَمْر بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكَر، والامتحان والاختِبار؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهم كانوا سيصيرونَ على وتيرةٍ واحدةٍ، لكنْ إذا انقَسَمُوا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، حصَل الامتحانُ والاختبارُ للمؤمِنِ والكافِرِ، فلا تَظُنَّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أزاغَ قُلُوبَ الكافرينَ أنَّ في ذلك لَغْوًا، بل هو عَيْنُ الحِكْمةِ(٢).

٨- أنَّ التكذيبَ بآياتِ اللهِ سببٌ للعقوبة؛ لقولِه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٣).

٩- أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ سيُصيبُهم العذابُ مباشرةً؛ لقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾، وإنْ أَفلَتوا من العذابِ في الدُّنيا فلن يُفْلِتوا منه في الآخِرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨، ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

١٠- أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق على الكُفْرِ؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والتَّكذيبُ بالآياتِ كُفْرٌ، ثمَّ قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١).

١١- قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فيه تمامُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث إنَّه لم يُعَذِّبْ هؤلاء إلَّا لأنَّهمُ استَحَقُّوا العذابَ لِفِسْقِهم؛ جزاءً وِفاقًا(٢).

١٢- أنَّ كُلَّ ما صُدِّرَ بـ﴿قُلْ﴾ بالنِّسْبةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان دليلًا على أهَمِّيَتِه، وأنَّ اللهَ تعالى أوْصَى نَبِيَّه أن يُبَلِّغَه خاصَّةً؛ مِمَّا يدلُّ على العِنايةِ به(٣).

١٣- أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَبْرَأَ مِن دَعْوى هذه الثَّلاثةِ بقولِه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكذلك قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]، فهذا أوَّلُ أُولِي العَزْمِ، وأوَّلُ رسولٍ بَعَثَه اللهُ تعالى إلى أهْلِ الأرْضِ، وهذا خاتَمُ الرُّسُلِ وخاتَمُ أُولِي العَزْمِ؛ كلاهما يَتَبَرَّأُ من ذلك(٤).

١٤- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أنَّه إذا كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم لا يَمْلِك خزائنَ الله، فإنَّه لا يجوزُ أن يُطْلَبَ الرِّزْقُ منه مباشرةً؛ لأنَّه لو طُلِبَ الرِّزْقُ من الرَّسولِ مُباشرةً لكان هذا شِرْكًا، وتجاوزًا لِمَا هو عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٠).

١٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ قد يقولُ قائلٌ: أليس النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحدِّثُ عن أشياءَ مُستقبَلةٍ، فكيفَ قيلَ: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؟ فالجوابُ: بلى، ولكِنْ بِوَحْيٍ من الله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى يَعْلَمُ الغَيْبَ؛ ولِهذا نقولُ: كُلُّ ما أخبَرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم مِنْ أمورِ المُسْتَقبلِ؛ فهو بِوَحْيٍ خاصٍّ من الله عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ لا يُنافي ما أَخْبَرَ به من أمورِ الغَيبِ ما ذكره اللهُ تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؛ لأنَّ عِلْمَه بالمستقبَلِ بما أَوْحَى اللهُ إليه، ليس عِلْمًا ذاتيًّا أدْرَكَه بنفْسِه، لكنَّه عِلْمٌ مِنْ عِند الله، كما أنَّ الإنسانَ يرى الرُّؤْيا الصَّالحةَ في المنامِ، وينتفعُ بها في المُستقبَل، و((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جزءٌ من سِتَّةٍ وأربعينَ جُزءًا من النبوَّةِ))[1].

١٦- أنَّ المَلَك قد يَتصوَّرُ بصُورةِ إنسانٍ؛ لقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ لأنَّه لولا أنَّه يُمْكِن تصوُّرُه بصورةِ إنسانٍ ما احْتِيجَ إلى النَّفْيِ؛ إذ إنَّه معلومٌ بدونِ نَفيٍ، وهذا هو الواقِعُ، وقد جاء جبريلُ عليه السلامُ بصورةِ البَشَر[2].

١٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ردٌّ على الذين قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فإنَّ الملائكةَ لا يُمْكنُ أن يَنْزِلوا ليكونوا رُسُلًا إلى البَشَر، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3] [الأنعام: ٩].

١٨- لَمَّا كانَ عِلْمُ الغيبِ أمرًا يُمْكِن أن يَظْهَرَ على لسانِ البَشَر، بل قد يدَّعيه كثيرٌ من النَّاسِ كالكُهَّانِ وضُرَّابِ الرَّمْلِ والمُنَجِّمينَ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥١).
والحديث أخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قد أخبر بأشياءَ من المُغَيَّباتِ، وطابقَتْ ما أخبَرَ به- نفى علمَ الغيبِ من أصله؛ فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ تنصيصًا على مَحْضِ العبوديَّةِ والافتقارِ، وأنَّ ما صَدَر عنه من إخبارٍ بِغَيبٍ إنَّما هو من الوَحْيِ الواردِ عليه لا من ذاتِ نَفْسِه، فقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ كما قالَ فيما حَكَى اللهُ عنه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1] [الأعراف:١٨٨].

١٩- الفائدةُ مِن ذِكْر نفيِ الأحوالِ الثلاثةِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾:

قيل: ليُظْهِرَ الرَّسولُ مِن نَفْسِه التواضُعَ لله، والاعترافَ بعُبوديَّتِه؛ حتى لا يُعتقَدَ فيه مِثْلُ اعتقادِ النَّصارى في المسيحِ عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقيل: إنَّ القومَ كانوا يقترحونَ عليه إظهارَ المُعْجزاتِ القاهِرَةِ، فكان المقصودُ من هذا الكلامِ إظهارَ العَجْزِ والضَّعفِ، وأنَّه لا يَستَقِلُّ بتحصيلِ هذه المعْجزاتِ التي طَلَبوها منه.

وقيل: إنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لا أدَّعي كوني موصوفًا بالقُدْرةِ، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: ولا أدَّعي كوني موصوفًا بِعْلِم الله تعالى، وبمجموعِ هذينِ الكلامينِ حصل أنَّه لا يدَّعي الإلهيَّة، ثمَّ قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وذلك؛ لأنَّه ليس بعد الإلهيَّة درجةٌ أعلى حالًا من الملائكةِ، فصار حاصلُ الكلامِ كأنَّه يقولُ: لا أدَّعي الإلهيَّةَ، ولا أدَّعي المَلَكيَّةَ، ولكنْ أدَّعي الرِّسالَةَ، وهذا مَنْصِبٌ لا يَمْتنعُ حصولُه للبَشَر، فكيف أَطْبَقْتُم على استنكارِ قولي[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٨).

٢٠- في قوله تعالى: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ جاء النَّفيُ على سبيلِ الترقِّي، فنفى أوَّلًا ما يتعلَّقُ به رغباتُ النَّاسِ أجمعينَ من الأرزاقِ التي هي قِوامُ الحياةِ الجُسمانيَّة، ثم نفى ثانيًا ما يتعلَّق به، وتتشوَّف إليه النُّفوسُ الفاضِلَة من معرفةِ ما يَجْهلونَ، وتَعَرُّف ما يقعُ من الكوائنِ، ثمَّ نفى ثالثًا ما هو مختصٌّ بذاتِه من صفةِ الملائكةِ التي هي مُبايِنةٌ لصفةِ البشريَّةِ، فترقَّى في النَّفيِ من عامٍّ إلى خاصٍّ إلى أخصَّ، ثمَّ حَصَر ما هو عليه في أحوالِه كُلِّها بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: أنا مُتَّبِعٌ ما أوحى اللهُ غيرَ شارعٍ شيئًا مِن جِهَتي[1].

٢١- قوله: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ فيه: تخليصٌ لصورةِ النبوَّةِ وصورةِ النبيِّ من الخُرافاتِ والأساطيرِ والأوهامِ والأضاليلِ، التي شاعت في الجاهليَّاتِ كُلِّها. وكان أقربُها إلى مُشْركي العَرَبِ جاهلياتِ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى على اختلافِ المِلَل والنِّحَل بينهم، وكلُّها تشتركُ في تشويه صورةِ النبوَّةِ وصورةِ النبيِّ أقبحَ تشويهٍ؛ فحقيقةُ الرَّسولِ كما جاءت في القرآن: أنَّه لا يملِك خزائنَ الله، ولا يعلمُ الغَيبَ، ولا يقولُ لهم: إنِّي مَلَك، وهو لا يتلقَّى إلَّا مِن ربِّه، ولا يتَّبِعُ إلَّا ما يُوحَى إليه منه، والذين يقبلونَ دَعوتَه هم أكرمُ البَشَرِ عند الله، وعليه أن يَلْزَمَهم، وأن يَهَشَّ لهم، وأن يُبَلِّغَهم ما كَتَبَه اللهُ لهم على نَفْسِه من الرَّحْمة والمغفرةِ؛ كما أنَّ عليه إنذارَ الذين تتحرَّكُ ضمائِرُهم من خشيةِ الآخرةِ؛ ليصلوا إلى مرتبةِ التَّقوى، وفي هذا وذلك تنحَصِرُ وظيفَتُه، كما أنَّه في «البشريَّة» وفي «تلقِّي الوَحْيِ» تنحصِرُ حقيقتُه. فتصِحُّ في التصوُّراتِ حقيقَتُه ووظيفَتُه جميعًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٤)

٢٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فيه أمْرُ اللهِ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعلِنَ للنَّاس أنَّه لا يعلمُ الغيبَ؛ ولذا لَمَّا رُمِيتَ عائشةُ رضي الله عنها بالإفكِ، لم يعلمْ أهي بريئةٌ أم لا حتَّى أخبره اللهُ تعالى بقولِه: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وقد ذَبَح إبراهيمُ عليه السَّلام عِجلَه للملائكةِ، ولا عِلمَ له بأنَّهم ملائكةٌ حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، ويعقوبُ عليه السلام ابيضَّتْ عيناه من الحزنِ على يُوسُفَ، وهو في مصرَ لا يَدري خبرَه حتى أظهرَ الله خبَرَ يُوسُف، ونوحٌ عليه السَّلام ما كان يَدري أنَّ ابنه الذي غَرِق ليس مِن أهلِه الموعودِ بنجاتِهم حتى قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ الآية [هود: ٤٥]، ولم يعلمْ حقيقةَ الأمرِ حتى أخبَرَه الله بقوله: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، والملائكةُ عليهم السَّلام لَمَّا قال لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]؛ فقد ظهَر أنَّ أعلمَ المخلوقاتِ- وهم الرُّسُل، والملائكة- لا يَعلمون مِن الغيبِ إلَّا ما عَلَّمهم اللهُ تعالى، وهو تعالى يُعلم رُسلَه من غيبِه ما شاءَ[1].

٢٣- أنَّ الشَّرائِعَ توقيفيَّةٌ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يبتدعَ منها شيئًا؛ لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ ولهذا قرَّرَ أهْلُ العِلمِ أنَّ الأصلَ في العباداتِ المَنْعُ والحَظْرُ، وأنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يتعبَّدَ لله تعالى بشيءٍ إلَّا ما أَذِنَ اللهُ فيه شَرْعًا، وهذا حقٌّ مستنِدٌ إلى آياتٍ متعدِّدةٍ، وإلى قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدٌّ))[2].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٣). =

٢٤- بعد أن قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أكَّدَ ذلك عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العَمَلَ بغيرِ الوَحيِ يجري مَجرى عملِ الأعمى، والعَمَلُ بمقتضى نُزُولِ الوَحْيِ يجري مَجرى عَمَلِ البَصيرِ(١).

٢٥- في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ حجَّةٌ مِن حُجَجِ الله تعالى للمُستقِلِّينَ في هدايةِ الدِّينِ، على المُقَلِّدينَ فيه لآبائِهم ومشايخِهم الجاهلين(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به إلى الجدالِ معهم في إشراكِهم باللهِ تعالى بعدَ أنِ انصرَفَ الكلامُ عنه بخصوصِه من قَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾(٣) [الأنعام: ١٩].

- وهذا الكلامُ جارٍ مَجرَى التهديدِ والتَّخويفِ، واخْتِيرَ فيه التهديدُ بانتزاعِ سَمْعِهم وأبصارِهم وسَلْبِ الإدراكِ من قلوبِهم؛ لأنَّهم لم يَشْكُروا نعمةَ هذه المواهِبِ، بل عَدِموا الانتفاعَ بها(٤).

- ولم يؤكِّدْ هنا خِطابَ الضَّمير (التاء) بـ(الكاف) في قَوْلِه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، كما أكَّدَه في قَوْلِه: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾

= والحديث أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)- واللفظ له- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٥).

[الأنعام: ٤٠]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ أَوَّلًا تهديدَهم بإتيانِ العذابِ أو السَّاعةِ، كان ذلك أعظَمَ من هذا التهديدِ، فأكَّد خِطابَ الضميرِ بحَرْفِ الخطابِ (الكاف)، فقيل: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾، ولَمَّا كان التهديدُ هنا أخَفَّ من ذلك لم يُؤَكَّد به، بل اكتُفِيَ بخطابِ الضَّميرِ، فقيل ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾[(١)].

- وفيه أمرٌ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتكريرِ التبكيتِ عليهم، وتثنيةِ الإلزامِ بعدَ تكمِلَةِ الإلزامِ الأوَّلِ؛ ببيان أنَّه أمرٌ مستمِرٌّ لم يَزَلْ جاريًا في الأُمَم[(٢)].

- وقوله: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فيه تمثيلٌ؛ لأنَّ اللهَ هو معطي السَّمْع والبَصَر فإذا أزالَها كانت تلك الإزالةُ كحالةِ أَخْذِ ما كان أعطاه، فشُبِّهَت هيئةُ إعدامِ الخالقِ بَعضَ مواهِبِ مخلوقِه بهيئةِ انتزاعِ الآخِذِ شيئًا من مَقَرِّه؛ فالهيئة المُشبَّهةُ هنا عقليَّةٌ غيرُ محسوسةٍ، والهيئةُ المُشَبَّهةُ بها محسوسةٌ[(٣)].

- قوله تعالى: ﴿سَمْعَكُمْ﴾ ذُكِرَ السَّمعُ مُفردًا؛ لأنَّه مصدرٌ دالٌّ على الجِنسِ، فكان في قوَّةِ الجَمعِ، فعمَّ بإضافتِه إلى ضَميرِ المخاطَبينَ، ولا حاجةَ إلى جَمْعِه، والعربُ إذا نَعَتَتْ بالمصدرِ أَلْزَمَتْه الإفرادَ والتذكيرَ، ولأنَّ كُلَّ مفردٍ هو اسمُ جنسٍ، فمِن أساليبِ اللغةِ العربيةِ أن يُطْلَقَ مفردُه مُرادًا به الجمعُ؛ نظرًا إلى أنَّ أصلَه اسمٌ شاملٌ للجنسِ. وهذا كثيرٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العربِ؛ كقولِه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٤] يعني: أئمةً، وغيره من الآياتِ[(٤)].

- قوله: ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فيه تقديمُ السَّمْعِ على الأبصارِ؛ وقد اطَّرد

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٧- ٢٦٨).

تقديمُ السَّمعِ على البَصر وما يَجري مَجراه في القرآنِ الكريم؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ هو طريقُ تلقِّي الوحي، ولأنَّ السَّمع أهمُّ من البصر، وأفضلُ فائدةً لصاحبِه من البَصرِ؛ فإنَّ التقديمَ مُؤذِنٌ بأهميَّة المُقدَّم؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ آلةُ تَلقِّي المعارفِ التي بها كمالُ العقل، وهو وسيلةُ بُلوغِ دَعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ مِن بُلوغِها بواسطة البصرِ لو فُقِدَ السَّمع، ولأنَّ السَّمعَ تَرِدُ إليه الأصواتُ المسموعةُ من الجهاتِ الستِّ بدون توجُّه، بخلافِ البصرِ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى التوجُّهِ بالالتفاتِ إلى الجهاتِ غيرِ المُقابلة؛ فما يحصُل من ضروبِ المعرفةِ عن طريقِ السَّمع لا يَحصُل عن البَصر، والبصرُ يَتوقَّفُ في تَحصيلِه للعلمِ على وسائطَ لا يتوقَّف عليها السَّمع؛ وكم من أناس فقَدوا نِعمةَ الإبصار فلم يَقعُدوا عن طلبِ العِلم، بل كانوا مِن المُبرَّزين فيه. أو قدَّم السَّمعَ؛ لأنَّ إدراكَ السَّمعِ أقدَمُ مِن إدراك البَصرِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَسمعُ أوَّلًا كلامًا فينظر إلى قائلِه؛ ليعرفَه، ثم يَتفكَّر بقَلبِه في ذلك الكلامِ؛ ليفهمَ معناه(١).

- قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿مَنْ﴾ مستعمَلٌ في التقريرِ يُقصَد منه إلجاءُ السَّامعينَ إلى النَّظَر في جوابِه، فيُوقِنوا أنَّه لا إلهَ غيرُ اللهِ يأتيهم بذلك؛ لأنَّه الخالِقُ للسَّمْعِ والأبصارِ والعقولِ(٢).

- وفيه لَطيفةٌ لغويَّة، حيثُ وحَّد الهاءَ في ﴿بِهِ﴾ في قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، وقدْ مَضَى الذِّكرُ قبلَ ذلِك بالجَمْعِ في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؛ قيل: لأنَّ معنَى ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، أي: بما ذُكِرَ مِمَّا أَخَذَه اللَّهُ منكم، كقولِه جلَّ وعلا: ﴿لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥)، ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ١٠٦- ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٤).

فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨]، أي: ذلِكَ المذكور، ولم يقُل: (ذَلِكُمَا)؛ فجائزٌ أنْ تكونَ معنيًّا بها: مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بما أُخِذ منكم مِن السَّمع والأبصارِ والأفئدة، فتكون موحَّدةً لتوحيدِ (ما)، والعربُ تفعلُ ذلك؛ إذا كَنَّتْ عن الأفعالِ وحَّدت الكنايةَ، وإنْ كَثُر ما يُكنَّى بها عنه مِن الأفاعيل، كقولهم: إقبالُك وإدبارُك يُعجبني. وجائزٌ أن تكون الهاء عائدةً على السَّمعِ، فتكون موحَّدةً لتوحيدِ السَّمع. وقيل: إنَّ الهاء التي في (به) كنايةٌ عن الهُدَى[1].

- قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ الجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي تَتنزَّلُ منزلةَ التَّذييلِ للآياتِ السَّابقةِ؛ فإنَّه لَمَّا غَمَرَهم بالأدلَّةِ على الوحدانيَّةِ، وصِدْقِ الرَّسولِ، وأبطَلَ شُبَهَهم؛ عقَّبَ ذلك كلَّه بالتَّعجيبِ من قُوَّةِ الأدلَّةِ مع استمرارِ الإعراضِ والمكابَرةِ، والأمرُ في قوله: ﴿انْظُرْ﴾ مستعملٌ في التعجيبِ مِن حالِ إعراضِهم[2]؛ فهو تعجيبٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من عدمِ تأثُّرِهم بما عايَنوا مِن الآياتِ الباهرةِ، أي: انظر كيف نُكرِّرها ونُقرِّرها مصروفةً من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ تارةً بترتيبِ المقدِّمات العقليَّة، وتارةً بطريقِ الترغيبِ والترهيبِ، وتارةً بالتنبيهِ والتذكيرِ ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[3]!

- قوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا المكانِ للاستبعادِ؛ لاستبعادِ صُدوفِهم، أي إعراضِهم عن تِلك الآيات بعدَ تصريفِها على هذا النَّمطِ البديعِ الموجِبِ للإقبالِ عليها، والتَّراخي المفهومُ بـ (ثم) للاستبعادِ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

يُسْتَبْعَدُ عندَ العقولِ السليمةِ أنْ يكونَ اللَّهُ مع عَظمتِه وجلالِه، ومع ما يُحْسِنُ به إلى الإنسانِ يُصرِّفُ له الآياتِ، ومع هذا هم يَصدفُون[١]!

- وجيءَ بالمُسْنَدِ في جملةِ ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ فعلًا مضارعًا للدَّلالة على تجدُّدِ الإعراضِ منهم، وتقديم المُسْنَد إليه ﴿هم﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ لِتَقَوِّي الحُكْمِ[٢].

٢- قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ استئنافٌ للتَّهديدِ والتوعُّد، وإعذارٌ لهم بأنَّ إعراضَهم لا يَرجِعُ بالسُّوءِ إلَّا عليهم، ولا يَضُرُّ بغيرهم[٣]، وهو تبكيتٌ آخَرُ لهم بإلجائِهم إلى الاعترافِ باختصاصِ العذابِ بِهِم[٤].

- قوله تعالى: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أوْقَعَ الجهرةَ هنا في مُقابلة البَغْتةِ، وكان الظَّاهِرُ أن تُقابَلَ البَغتةُ بالنَّظْرةِ، أو أن تُقابَلَ الجهرةُ بالخُفْيَةِ، إلَّا أنَّ البغتةَ لَمَّا كانت وقوعَ الشَّيءِ من غير شعورٍ به، كان حصولُها خفيًّا؛ فحَسُنَ مقابلَتُه بالجَهرةِ، فالعذابُ الذي يجيءُ بغتةً هو الذي لا تسبِقُه علامةٌ، ولا إعلامٌ به، والذي يجيء جهرةً هو الذي تسبِقُه علامةٌ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، أو يسبِقُه إعلامٌ به؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥][٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٧).

- قوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ﴾ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك دَخَلت (إلَّا)، وهو مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتقريرِ، أي: قُلْ لهم تقريرًا لهم باختصاصِ الهلاكِ بهم: أخبروني إن أتاكُم عذابُه تعالى حَسَبما تستحقُّونَه: هل يُهلَك بذلك العذابِ إلَّا أنتم[١].

- ولَمَّا كانَ المُخَوَّفُ بالذَّاتِ هو الهُلاك، مِن غير نَظَرٍ إلى تَعيينِ الفاعلِ، بُنِيَ الفِعلُ ﴿يُهْلَكُ﴾ للمَفعولِ[٢].

- وفيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَر- حيثُ لم يَقُلْ: (هلْ يُهلَكُ غيرُكم)- وإنَّما وُضِعَ موضِعَه؛ تَسجيلًا عليهم بالظُّلْم، وإيذانًا بأنَّ مناطَ إهلاكِهم ظُلْمُهم، الذي هو وَضْعُهم الكُفرَ موضِعَ الإيمانِ[٣].

٣- قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مَسُوقٌ لبيانِ وظائِفِ مَنْصِب الرِّسالةِ على الإطلاقِ، وتحقيقِ ما في عُهْدةِ الرُّسُلِ عليهم السلامُ، وفيه: إظهارُ أنَّ ما يقترحُه الكَفَرةُ عليه- عليه السلامُ- ليس مما يتعلَّقُ بالرِّسالةِ أصلًا[٤].

- والتعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿نُرْسِلُ﴾ دون الماضي (أَرْسَلْنا)؛ لبيانِ أنَّ ذلك أمرٌ مستمرٌّ جَرَت عليه العادةُ الإلهيَّةُ، وللدَّلالةِ على تجدُّدِ الإرسالِ مُقارِنًا لهذين الحالَينِ، أي: ما أرسَلْنا، وما نُرْسِل، فقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ حالان مُقَدَّرتانِ باعتبارِ المُستقبلِ، ومُحَقَّقتانِ باعتبارِ الماضي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

- والقَصْرُ بـ(ما... وإلَّا) هو الذي يُسَمِّيهِ البلاغيون: قصرًا إضافيًّا؛ لأنَّه يُرْسِلُهم بأعمالٍ أُخَرَ طيبةٍ من تعليمِ الآدابِ والمكارمِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو زائدٌ على البِشارةِ والإنذارِ؛ للردِّ على مَن زعموا أنَّه إنْ لم يأتهم بآيةٍ كما اقترحوا فليس برسولٍ مِن عند الله، فهو قَصْرُ قَلْبٍ، أي: لم نُرْسِلِ الرَّسولَ للإعجابِ بإظهارِ خوارقِ العاداتِ[١]، فحَصَرَ اللهُ تعالى وظيفةَ الرُّسُل في البِشارة والإنذارِ؛ حتى لا يدَّعيَ مُدَّعٍ أنَّ وظيفةَ الرُّسُل تتعلَّق بالربوبيَّة، وأنَّ لهم نصيبًا من تدبيرِ الخَلْق، فالرُّسُل ليس لهم إلَّا أن يُبشِّروا النَّاسَ، ويُنذِروهم فقط، أمَّا أن يَهْدُوهم، أو يَرْزقوهم، أو يدفعوا عنهم السُّوءَ؛ فليسَ من وظائِفِهم[٢].

- وقد كنَّى بالتَّبشيرِ والإنذارِ عن التَّبليغِ؛ لأنَّ التَّبليغَ يَسْتلزِمُ الأَمْرينِ، وهما التَّرغيبُ والتَّرهيبُ، فحَصَل بهذه الكِنايةِ إيجازٌ؛ إذِ استغنى بِذِكْرِ اللَّازِمِ عن الجَمْعِ بينه وبين المَلزومِ[٣].

٤- قوله: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فيه: كِنايةٌ عن قُرْبِ العذابِ؛ حيثُ جَعَلَ العذابَ ماسًّا لهم؛ كأنَّه حيٌّ يَفعلُ بهم ما يُريدُ مِنَ الآلامِ[٤].

- وجِيءَ بِخَبَرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً ﴿يَفْسُقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ فِسْقَهم كان متجدِّدًا مُتكرِّرًا، وللدَّلالةِ أيضًا على الاستمرارِ؛ لأنَّ (كان) إذا لم يُقْصَدْ بها انقضاءُ خَبَرِها فيما مضَى، دَلَّتْ على استمرارِ الخَبَر بالقَرينةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦][٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٩).

٥- قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقل بِه الكلامُ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على ما أُسِّسَ من السُّنَّة الإلهيَّةِ في شأنِ إرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكُتُب؛ مسوقٌ لإظهارِ تَبرُّئه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مما يدورُ عليه مقترحاتُهم، وقد افتتحَ الكلامَ بالأمْرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ بإبلاغِه[1].

- وفي قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ خاطبَهم مخاطبةً غيرَ الأُولى، يَعني: كرَّر المخاطبةَ ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنَّ المقامَ هنا- وهو نفيُ أن يكون مَلَكًا- أبلغُ وأشدُّ، والإتيان بكافِ الخِطاب يدلُّ على شِدَّة توجيهِ الخِطاب للمُخاطَب، كما في قولِ الخَضِر لموسى في الآيةِ الأُولى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي الثانية: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[2] [الكهف: ٧٥].

- وأعادَ قولَه: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ في قولِه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، ولم يُعِدْها في نَفْيِ عِلْم الغَيبِ؛ حيث قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، ونُكتةُ ذلك: أنَّ نفيَ عِلم الغيبِ ونَفْيَ التصرُّفِ في خزائنِ الله يؤلِّفانِ التبرُّؤَ من دَعْوَى واحدةٍ، هي دعوَى الصِّفاتِ الخاصَّةِ بالله تعالى، وأمَّا نفيُ ادِّعاءِ المَلَكيَّة فهو شيءٌ آخرُ، فأُعيدَ العامِلُ لإفادة ذلك، كأنَّه قال: إنَّني لا أدَّعي صفاتِ الإله حتى تطلُبوا منِّي ما لا يقدِرُ عليه أو ما لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ، ولا أدَّعي أنِّي مَلَك- وهو دون ما قَبْلَه- حتى تطلبوا منِّي ما جعله الله في قدرةِ الملائكةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٨).

ولم يجعَلْه من مقدورِ البَشَرِ، بل ادَّعَيْتُ أنِّي عبدُ اللهِ ورسولُه، وإنَّما وظيفةُ العبدِ الطاعةُ، ووظيفةُ الرَّسولِ التبليغُ، وعبَّر عن هذا بقولِه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعلُ مِن حيثُ أنا عبدٌ رسولٌ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحِيه إليَّ مَن أَرْسَلَني، مِن تَبليغِ دِينِه بالتبشيرِ والإنذارِ والعَمَلِ به[1].

- وفي قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ كرَّر ضَميرَ الخِطابِ المجرورَ مِن قَولِه: ﴿لَكُمْ﴾ وفي سُورة هودٍ قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] بغيرِ تكريرِ الخِطابِ؛ وذلِك لأنَّ الواردَ في سُورةِ هودٍ إنَّما هو حِكايةُ قَولِ نوحٍ عليه السَّلامُ مُتلطِّفًا، ومشْفِقًا من حالِ قَومِه، ويُلْحَظ ذلك من النَّظَرِ فيما استَفْتَحَ به خطابَه لهم، وذلك بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فهو عليه السَّلامُ يُلاطِفُهم، ويَظهَرُ من كلامه عظيمُ الإشفاقِ مِن حالِهم، وإرادتُه ما به نجاتُهم من العذابِ، فهذا كلُّه استلطافٌ في الدُّعاءِ، لا يلائِمُه تكرارُ كلمةٍ تُفْهِمُ تعنيفًا أو توبيخًا، والتأكيدُ والتَّكرارُ يُفْهِمانِ ذلك، ويَرِدانِ حيثُ يُقْصَد.

وأمَّا قولُه تعالى هنا في آيةِ الأنعام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فوارِدٌ في أثناءِ كلامٍ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتبليغه عُتاةَ قُريشٍ والعربِ؛ توبيخًا لهم وتقريعًا؛ فقيل له: ﴿قُلْ﴾ والمراد: قلْ لهم يا محمَّدُ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ...﴾ الآية، فعَنى به من يقولُ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٥).

فمن يصدُرْ عنه هذا وأشباهُه ممَّا يُنبئُ عن الإزراءِ، وفسادِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، فَهُم المَقولُ لهم: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ...﴾، فتكَرَّر فيها قولُه: ﴿لَكُمْ﴾ تأكيدًا يُفهِم التَّعنيفَ ويُناسِبُ التَّوبيخَ والتَّقريعَ[1].

وقيل: كرَّر في هذِه الآية قوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ لعدمِ ذِكْرِه قبلَها وبعدَها، ولم يُكرِّر قولَه: ﴿لَكُمْ﴾ في سورةِ هودٍ؛ لأنَّه تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ وعَقِبَه ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ﴾ وَبعدَه ﴿أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ فَلَمَّا تكَرَّرَ (لكم) فِي القِصَّةِ أَربعَ مَرَّاتٍ اكْتفى بذلك[2].

- وتقديمُ المسْنَدِ، وهو قوله: ﴿عِنْدِي﴾ على قوله: ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ للاهتمامِ به، لِمَا فيه مِن الغَرابةِ والبِشَارةِ للمُخْبَرِينَ به[3].

- قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ جملةٌ مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى أن يقولَ هذه المقالاتِ، كان المقامُ مثيرًا سؤالَ سائلٍ يقولُ: فماذا تدَّعي بالرِّسالةِ، وما هو حاصِلُها؟ لأنَّ الجَهَلةَ يَتوهَّمونَ أنَّ معنى النبوةِ هو تلك الأشياءُ المتبَرَّأُ منها في قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ...﴾ إلخ، فيُجابُ بقولِه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، أي: ليستِ الرِّسالةُ إلَّا التبليغَ عَنِ الله تعالى بواسطةِ الوَحْيِ[4].

- قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ خِتامٌ للمجادَلَةِ معهم، وتذييلٌ للكلامِ المُفْتَتَحِ بقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩ - ١١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٤٢).

اللهِ﴾، أي: قلْ لهم هذا التذييلَ عَقِبَ ذلك الاستدلالِ[١].

- وتكريرُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾؛ لتَثنيةِ التَّبكيتِ، وتَأكيدِ الإلزامِ[٢].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والمرادُ إنكارُ استواءِ من لا يعلمُ ما ذُكِرَ من الحقائقِ ومن يَعْلَمُها، وفيه من الإشعارِ بكمالِ ظُهُورها، ومن التَّنفيرِ عن الضَّلالِ، والتَّرغيبِ في الاهتداءِ ما لا يخفى[٣].

- وفيه تشبيهُ حالةِ من لا يَفْقَهُ الأدلَّةَ، ولا يُفكِّك بين المعاني المتشابهةِ بحالةِ الأعمى الذي لا يَعْرِف أين يَقْصِد، ولا أين يَضَعُ قدَمَه، وتشبيهُ حالةِ من يُمَيِّزُ الحقائقَ، ولا يلتبسُ عليه بعضُها ببعضٍ بحالةِ القَوِيِّ البَصَرِ؛ حيث لا تختلطُ عليه الأشباحُ، وهذا تمثيلٌ لحالِ المشركينَ في فسادِ الوَضْعِ لأدِلَّتِهم، وعُقْمِ أَقْيِسَتِهم، ولحالِ المؤمنينَ الذين اهتَدَوْا، ووضعوا الأشياءَ مَوَاضِعَها، أو تمثيلٌ لحالِ المُشْركينَ التي هم متلبِّسونَ بها، والحالِ المطلوبة منهم التي نَفَروا منها؛ ليعلموا أيُّ الحالينِ أَوْلى بالتخلُّقِ[٤].

- قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لهم، والاستفهامُ للإنكارِ، وهو معطوفٌ بالفاءِ على الاستفهامِ الأوَّلِ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾؛ لأنَّه مترتِّبٌ عليه؛ لأنَّ عدمَ استواءِ الأعمى والبصيرِ بديهيٌّ، لا يسَعُهُم إلَّا الاعترافُ بعَدَمِ استوائِهما؛ فلا جَرَمَ أن يتفرَّعَ عليه إنكارُ عدمِ تفكُّرِهم في أنَّهم بأيِّهما أشبَهُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

الآيات (٥١ - ٥٥)

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿شَفِيعٌ﴾: أي: ناصِر ومُعينٌ، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ فلانٌ لفلانٍ: إذا جاء ملتمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ فأصل الشَّفْع: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه[1].

﴿بِالْغَدَاةِ﴾: الغَداةُ هِي أوَّلُ النَّهارِ، أو وَقتُ الضُّحى، أو مِن طُلوعِ الفَجْرِ إلى الظُّهرِ، وأصْلُ (غدو): يدلُّ على زمانٍ[2].

﴿وَالْعَشِيِّ﴾: العشيُّ هو آخِرُ النَّهارِ مِن وقْتِ العَصرِ إلى اللَّيلِ، أو مِن الظُّهر إلى نِصْفِ اللَّيلِ، وأصل (عشو): يدلُّ على ظلامٍ، وقِلَّة وضوحٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣) و(٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣) و(٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، =

﴿فَتَنَّا﴾: أي: اختبَرْنا وابتَلَينا وامتحَنَّا[١].

﴿سُوءًا﴾: السوءُ: هو كُلُّ ما يسوءُ صاحبَه إذا رآه في صحيفتِه، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، ويُستعمَلُ في كلِّ ما يُستقبَحُ[٢].

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: الجهالةُ فِعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل (جهل): خلافُ العِلْم[٣].

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: أي: لتَظْهَرَ ولتنكشِفَ، وأصل (بين): الانكشافُ[٤].

مشكل الإعراب:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: الفاءُ سَببيَّة، و(تطردَ): منصوبٌ في جَوابِ النَّفْيِ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بـ(أنْ) مُضمَرة بعدَ الفاءِ؛ على إرادةِ انتفاءِ الطَّرْدِ؛ لانتفاءِ كَوْنِ حسابِهم عليه، وحسابِه عليهم، أي: ما يكون مؤاخذةُ كلِّ واحدٍ بحسابِ صاحبِه؛ فكيف يقَعُ طردٌ؟!

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢). يُنظر: ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢٩، ٩٤، ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩) و(٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣).

﴿فتكُونَ﴾: مَنصوبٌ بالعَطْفِ على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾؛ على وجْهِ التَّسبيبِ؛ لأنَّ كونَه ظالِمًا مُسَبَّبٌ عن طَرْدِهم. أو منصوبٌ بـ(أنْ) مُضمرةً على أنَّه جوابُ النَّهْيِ الذي في أوَّلِ الآيةِ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، وتكونُ الجُملتانِ- ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وجوابُ الأولى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾- اعتراضًا بين النَّهْيِ وجوابِه[1].

٢- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿أَنَّهُ... فَأَنَّهُ﴾: قُرِئَ بفتحِ «أنَّ» في الموضعينِ وبِكَسْرِهما؛ فعلى قِراءةِ الفتحِ فيهما تكونُ ﴿أَنَّهُ﴾ الأُولى في مَوضِع نَصْبٍ بدلًا من ﴿الرَّحْمَةَ﴾، أي: كتَب أنَّهُ مَن عَمِلَ. وأمَّا فَتْحُ الثَّانيةِ ﴿فَأَنَّهُ﴾ فعلى: أنَّها في مَحلِّ رفعٍ مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ، أي: فغُفرانُه ورحمتُه حاصِلانِ أو كائنان، أو فعَلَيه غُفرانُه ورَحْمتُه. أو على: أنَّها في محلِّ رفْعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: فأمْرُه أو شَأْنُه أنَّه غفورٌ رحيمٌ.

وأمَّا على قِراءة كَسْرِ الهَمزةِ: فكَسْرُ الأُولى (إنَّهُ) على أنَّها مستأنفَةٌ، وأنَّ الكَلامَ تامٌّ قَبْلَها، وجِيءَ بها وبما بَعْدَها كالتَّفسيرِ لِقَوْله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمةَ﴾، أو على إضمارِ (قال)، فكُسِرَت (إنَّ) بَعْدَه، وأمَّا كَسْرُ الثَّانِيةِ (فإِنَّهُ) فعَلى الاستئنافِ، بمعنى أنَّها في صَدْرِ جملةٍ وَقَعَت خبرًا لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ، أو جوابًا لها إنْ كانَتْ شرطًا[2].

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٤٥- ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٠- ٦٥٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: قُرِئَ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاءِ، وقُرِئ (وَلِيَسْتَبِينَ) بالياءِ، وقُرِئ ﴿سَبِيلُ﴾ بالرَّفْع والنَّصْب، وهذه القِراءاتُ دائرةٌ على تَذكيرِ (السَّبيل) وتأنيثِه، وتَعَدِّي الفعلِ (استبان) ولُزومِه، وكِلاهما جاء فيه الأمرانِ؛ فالسَّبيلُ يُذكَّر ويُؤنَّثُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] فذَكَّر السَّبيلَ، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨] فأنَّثَ السبيلَ. وأمَّا الفِعلُ (استبانَ) فيكونُ متعدِّيًا؛ نحو: استبَنْتُ الشَّيْءَ، ويكون لازمًا؛ نحو: استبانَ الصُّبْحُ.

فمَنْ قرأ بالتَّاءِ ورَفَعَ (السَّبيل): فالسَّبيلُ فاعِلٌ للفِعْلِ (تَسْتَبِينَ) على لغَةِ التَّأنيثِ، والفِعلُ لازِمٌ.

ومَن قرأ بالياءِ ورَفَع (السَّبيل): فالسَّبيلُ فاعِلٌ للفِعل (يَسْتَبِينَ) على لُغة التَّذْكيرِ، والفِعْلُ لازِمٌ أيضًا.

ومن قرأ بالتَّاءِ ونَصَبَ (السَّبيل): فإنَّ الفاعِلَ ضميرُ المخاطَب المستَتِر، تقديره: (أنت)، و(السَّبيلَ) مفعولٌ به منصوبٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمرُ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُنْذِرَ بالقرآنِ الذين يخافونَ أن يُحْشَروا إلى ربِّهم، ليس لهم غير اللهِ وليٌّ ينصرُهم، ولا شفيعٌ يشفعُ لهم عنده فيُخَلِّصَهم مِن عذابِه، لعلَّهم يتَّقونَ؛ فيمتثلون ما أَمَر الله به، ويجتنبونَ ما نَهَى عنه.

ثم يَنهى اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِ الذين يَدْعونَه

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٥).

عزَّ وجلَّ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه، مُخْلِصينَ له تعالى في ذلك، وأَعْلَمَه أنَّ كلًّا له حسابُه؛ فلا هو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيُحاسَبُ على ما يعملونَه، ولا هم سيُحاسَبونَ على عَمَلِه، حتَّى يَطرُدَهم؛ فإنَّه إنْ فعَلَ ذلك فسيكونُ من الظَّالمينَ.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّه كذلك يَختَبِر ويَبتلي النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ، فيجعلُ بعضَهم غنيًّا، وبعضَهم فقيرًا، وبعضَهم شريفًا، وبعضَهم وضيعًا، فإذا ما آمن الفقيرُ والضَّعيفُ كان ذلك فتنةً للغنيِّ والشَّريفِ، وترتَّب عليه أن يقولوا لِمَن يَرون أنَّهم دونَهم؛ ممَّن آمنَ: أهؤلاءِ منَّ اللهُ عليهم بالهدايةِ مِن بَيْنِنا، لو كان خيرًا لكنَّا نحنُ أَوْلى به، فاللهُ تعالى يَرُدُّ عليهم بأنَّه هو أعلَمُ بمن يقومُ بِشُكْرِه، فيوفِّقُه ويَهديه.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ للمؤمنينَ بآياتِ اللهِ، مُرَحِّبًا بهم إذا جاؤوه: سلامٌ عليكم، وأنْ يُبَشِّرَهم برحمَتِه التي أوجَبَها على نَفْسِه عزَّ وجلَّ، وأنْ يُعْلِمَهم أنَّه مَن اقترفَ منهم ذنبًا بجهالةٍ، ثم تاب عن ذلك الذَّنْب وأصلَحَ، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ أخبرَه تعالى أنَّه كذلك يُوضِّحُ الآياتِ؛ لتتبيَّنَ طريقُ المُشْرِكين المُوصِلَةُ إلى سَخَطه وعذابِه ليُمكِنَ اجتنابُها، ومن أجْل أنْ يَتبيَّنَ الحقُّ من الباطلِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ تعالى الرُّسُلَ بكونِهم مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، أَمَرَ الرَّسولَ في هذه الآيةِ بالإنذارِ[1]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٩).

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: وأنذرْ بهذا القرآنِ- يا محمَّدُ- مَن يَنتفعُ به حقًّا، وهم الذين يخافونَ الحشرَ إلى رَبِّهِمْ، ويوقنون بالانتقالِ مِن هذه الدَّارِ الفانيةِ، إلى الدَّارِ الباقيةِ، فيَستصحِبونَ إليها ما ينفَعُهم، ويَدَعُون ما يضرُّهم[1].

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾.

أي: والحالُ أنَّه ليس لهم يَومَئذٍ من عذابِ الله- إنْ عَذَّبَهم- وليٌّ مِن دُونِ اللهِ ينصرُهم، فيستنقِذُهم من العذابِ، ولا شفيعٌ يتوسَّطُ لهم عندَ الله تعالى، فيُخَلِّصهم من العِقابِ[2].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: أنذِرْهم كي يتَّقوا اللهَ تعالى وعذابَه؛ بامتثالِ أوامِره، واجتنابِ نواهِيه[3].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بإنذارِ غيرِ المتَّقينَ لعلَّهم يتَّقونَ؛ أردَفَ ذلك بتقريبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٥-٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٠-٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٢).

المتَّقِينِ وإكرامِهم، ونهاه عن طَرْدِهم، ووَصَفَهم بموافقةِ ظاهِرِهم لباطِنِهم؛ مِن دُعاءِ رَبِّهم، وخُلُوصِ نِيَّاتِهم(١).

سببُ النُّزولِ:

عَن سَعدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ستَّةَ نَفَرٍ، فقال المُشركونَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اطرُدْ هؤلاءِ؛ لا يجتَرِئونَ علينا. قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ من هُذَيلٍ، وبلالٌ، ورجلانِ لستُ أُسمِّيهما، فوقَعَ في نفسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما شاءَ اللهُ أن يقعَ، فحدَّث نفسَه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾))(٢).

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

أي: ولا تُقْصِ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الذينَ هم في العملِ لله تعالى دائبونَ، فيلازمونَ دُعاءَ رَبِّهم دعاءَ مسألةٍ، ودعاءَ عبادةٍ، في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه؛ بإخلاصٍ لله تعالى وطَلَبًا لوَجْهِه الكريمِ، فهؤلاء اجْعَلْهم جُلَساءَكَ وخاصَّتَك، ولا تُبْعِدْهم عنك؛ لأجْلِ أنَّ الكُفَّارَ يُريدونَ ذلك، فليسوا مُستحقِّينَ للطَّرْدِ والإعراضِ عنهم، بل هم مُستحقُّونَ لتقريبِهم؛ فهم الصَّفْوةُ مِن الخَلْقِ وإنْ كانوا فقراءَ، والأعِزَّاءُ في الحقيقةِ، وإنْ كانوا عندَ النَّاسِ أذلَّاءَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧-٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٢-٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

أي: كلٌّ له حسابُه؛ فله عملُه الصَّالحُ، وعليه عَمَلُه الطَّالحُ، وحسابُه على اللهِ عزَّ وجلَّ وَحْدَه، ولستَ محاسَبًا- يا محمَّدُ- بما يفعلُ أصحابُك الضُّعفاءُ، كما أنَّهم ليسوا مُحاسَبينَ بما تفعلُ؛ حتَّى يكونَ ذلك سَبَبًا في طَرْدِهم[(١)].

كما حَكَى الله تعالى عن نوحٍ وقَوْمِه، فقال: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١- ١١٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، أنَّ هِرَقْلَ قال لأبي سفيانَ: ((سَأَلْتُكَ: أشرافُ النَّاسِ يتَّبعونَه أم ضُعَفاؤُهم، فزَعَمْتَ أنَّ ضُعفاءَهُم اتَّبَعوه، وهمُ أتباعُ الرُّسُل))[(٢)].

﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فإنْ طردْتَهم- يا مُحمَّدُ- فإنَّك تكونُ بذلك مِن المتجاوِزينَ لحُدُودِ الله تعالى، الذين يَضَعونَ الأشياءَ في غَيْرِ مواضِعِها الصَّحيحةِ واللائِقَةِ بها، ومن ذلك إبعادُ من يستحِقُّ القُرْبَ من أجلِ إرضاءِ وتقريبِ من يستحِقُّ البُعْدَ[(٣)].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٥-٢٦٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (وجملةُ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تعليلٌ للنهي عن طَرْدِهم، أو إبطالٌ لعِلَّة الهمِّ بطَرْدِهم، أو لعِلَّة طلبِ طَرْدهم؛ فإنَّ إبطالَ عِلَّة فِعل المنهيِّ عنه يؤول إلى كونِه تعليلًا للنهي؛ ولذا فُصِلتْ هذه الجملة [أي: لم تُعطَف بالواو على التي قَبْلَها]). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥١-٢٥٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

أي: كما فتَنَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأغنياءَ من الكفَّارِ بأولئك الفُقراءِ من المؤمنينَ، كذلك أيضًا يَبتَلي النَّاسَ، ويَمتحِنُ بعضَهم ببعضٍ؛ فبعضُهم غنيٌّ؛ وبعضُهم فقيرٌ، وبعضُهم شريفٌ، وبعضُهم وضيعٌ، فإذا مَنَّ اللهُ بالإيمانِ على الفقيرِ أو الوضيعِ؛ كان ذلك موضِعَ محنةٍ للغنيِّ والشَّريفِ[1].

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾.

أي: إنَّما اختبَرْنا النَّاسَ بالغِنى والفَقْرِ، والعِزِّ والذُّلِّ، والقوَّةِ والضَّعْف، والهُدى والضَّلال؛ كي يقولَ مَن أضلَّهم اللهُ للذين هداهم الله ووفَّقَهم: أهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عليهم مِن بَيْنِنا بالهدايةِ إلى الحقِّ، وهم فقراءُ ضعفاءُ أذِلَّاءُ، ونحن أغنياءُ أقوياءُ شُرَفاءُ؟ كلَّا! بل لو كان خيرًا لهُدِينا نحنُ إليه؛ لأنَّنا أَوْلى منهم بذلك[2].

فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم:

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: أليسَ هو سبحانه أعلمَ بِمَن شَكَرَ نِعَمَه- وأعظَمُها نِعمَةُ الإيمانِ- بأقوالِه وأفعالِه؛ فيُوفِّقَه ويهديَه؛ جزاءً له على شُكرِه، ممَّن هو لها كافرٌ؛ فيَخْذُله ويُضِله؛ جزاءً على كُفْره؟

واللهُ تعالى حَكيمٌ، لا يضَعُ فَضْلَه عند مَن ليس له بأهلٍ، غنيًّا كان أو فقيرًا؛ فإنَّ الثَّوابَ والعِقابَ لا يَستحِقُّه أحدٌ إلَّا جزاءً على عَمَلِه الذي اكتسَبَه، لا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧٠).

غناه وفَقْرِه، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١) [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِهم، عَلَّمَه كيف يُلاطِفُهم(٢)، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وإذا جاءَكَ - يا محمَّدُ - المُصَدِّقونَ، المُقِرُّون بتنزيلِنا وأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، المُنقادونَ إليها بقُلُوبِهم وجَوارِحِهم؛ فحيِّهم ورحِّبْ بهم، وأكْرِمْهم بإلقاءِ السَّلامِ عليهم، وهو دعاءٌ لهم بأن يُسلِّمَهم اللهُ تعالى من جميعِ الآفاتِ والشُّرورِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧١-٢٧٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٠) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٧-٣٣٩).

قيل: المرادُ بالمؤمنين هنا: الذين نَهَى اللهُ تعالى عن طَرْدِهم كما تقدَّم، وهذا قولُ جمهور المفسِّرين، كما ذكَر ابنُ عطيَّة في ((تفسيره)) (٢/ ٢٩٦)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ٣٣٧)، واختاره القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٤٣٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥٨)، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٢٥٦).

وقيل: المراد: المؤمنون مِن غيرِهم، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٧٣).

وجمَع بين القولين: الواحديُّ، فقال: (يعني: الصَّحابةَ وهؤلاءِ الفقراءَ). ((الوجيز)) (ص: ٣٥٦).

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

أي: وبَشِّرْهم برحمةِ الله الواسِعَةِ الشَّامِلَةِ؛ فقد أوجَبَها على نَفْسِه الكريمةِ؛ تفضُّلًا منه وإحسانًا[1].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتبَ كتابًا قبل أن يخلُقَ الخلقَ: إنَّ رحمتي سبقَتْ غضبي، فهو مكتوبٌ عندَه فوقَ العرشِ))[2].

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

هذه الآيةُ فيها ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بفَتْح همزةِ (أنَّ) في الموضعين ﴿أَنَّهُ﴾ ﴿فأَنَّهُ﴾، والمعنى: كتَبَ ربُّكم على نفْسِه المغفرةَ، وهي بدَلٌ من الرَّحْمة، كأنَّه قال: كتَب ربُّكم على نفْسِه الرَّحْمةَ، وهي المغفرةُ للمُؤمنين التائِبين[3].

٢- ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٠).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) قرأ بها ابن عامر وعاصم ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦).

بفَتْح همزةِ (أنَّ) في الموضع الأوَّل ﴿أَنَّهُ﴾، وكسْرِها في الموضِع الثاني ﴿فَإِنَّهُ﴾؛ فالفَتْحُ على الإبدالِ من الرَّحمة، والكَسْر في (فَإِنَّهُ) لوُقوعِها بعد الفاءِ في جَوابِ (مَن) على القَوْلِ بشَرطيَّتِها(١).

٣- ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بكسرِهما جميعًا على مذهبِ الحِكاية، كأنَّه لَمَّا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمة﴾ قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ودخلتِ الفاءُ جوابًا للجزاءِ فكُسرت (إنَّ)؛ لأنَّها دخلتْ على ابتداءٍ وخبرٍ، كأنَّك قُلتَ: فهُو غفورٌ رحيمٌ، إلَّا أنَّ الكلامَ بـ (إنَّ) أوكَدُ(٢).

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: مَنِ اقترفَ منكم ذنبًا، والحالُ أنَّه متَّصِفٌ بالجَهالةِ- حيث آثَرَ دُنياه على أُخراه، وعَمِيَ عن عواقِبِ اقترافِ فِعْلِ ما لا يَنبغي فِعْلُه- ثم رجَع عمَّا ارتكبَه، وأقلَعَ ونَدِمَ وعَزَمَ على ألَّا يعودَ إليه، وقام بإصلاحِ جميعِ ما أفسَدَه من الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطِنَةِ، إذا وُجِدَ ذلك كُلُّه فاللهُ تعالى غفورٌ، فيَسْتُر ذَنْبَه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِه به، رحيمٌ به، ومِن رَحْمَتِه أنْ تابَ عليه، وتَرَكَ عِقابَه على الذَّنبِ بعد تَوبتِه منه(٣).

---

(١) قرأ بها نافع وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦).
(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

أي: وكما وضَّحْنا، فيما تقدَّم من هذه السُّورةِ، حُجَّتَنا على المشركينَ، وبيَّنَّا أدِلَّتَنا، وميَّزْنا طريقَ الهُدى من الضَّلالِ، فكذلك نوضِّحُ أيضًا أدلَّتَنا في إثباتِ كلِّ حقٍّ، وردِّ كُلِّ باطلٍ(١).

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قِراءتانِ:

= (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٦-٣٥٣).

قال ابنُ تيميةَ: (في قولِه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ طالَ الفصْلُ بين أنَّ واسْمِها، وخبرِها؛ فأعاد (أنَّ) لتَقَعَ على الخبرِ لتأكيدِه بها؛ ونظيرُ هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لَمَّا طالَ الكلامُ أعاد (أنَّ)، هذا قولُ الزَّجَّاجِ وطائفةٍ، وأحسَنُ من هذا أن يُقالَ: كُلُّ واحدةٍ من هاتينِ الجُملتينِ جملةٌ شرطيَّةٌ مركَّبةٌ من جملتينِ جَزائيَّتينِ، فأُكِّدَت الجملةُ الشَّرطيَّةُ بـ«أنَّ» على حدِّ تأكيدِها في قولِ الشَّاعر:

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الكَنيسَةَ يَومًا   يَلْقَ فِيها جَآذِرًا وظِبَاءَ

ثمَّ أُكِّدَت الجملةُ الجزائيَّة بـ«أنَّ»؛ إذْ هي المقصودةُ على حدِّ تأكيدِها في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾. ونظيرُ الجمعِ بينَ تأكيدِ الجملةِ الكبرى المركَّبةِ من الشَّرط والجزاءِ، وتأكيدِ جملةِ الجزاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يقالُ في هذا: «إنَّ» أعيدَتْ لطُولِ الكلامِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ ونظيره: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهما تأكيدانِ مقصودانِ لمعنَيينِ مختلفَينِ؛ ألا ترى تأكيدَ قولِه: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بـ «أنَّ» غيرَ تأكيدِ ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ له بـ «أنَّ»، وهذا ظاهرٌ لا خفاءَ به، وهو كثيرٌ في القرآنِ وكلامِ العَرَبِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧٦-٢٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٧).

١- قِراءة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ﴾ على مَعنى: وَلِتَسْتَبِينَ أنتَ- يا محمَّدُ- سَبيلَ المُجْرِمينَ(١).

٢- قراءة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ على معنى: ولِتَظْهَرَ طَريقُ المُجرمينَ(٢).

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: فصَّل اللهُ تعالى آياتِه؛ لتَظْهَرَ لك ولغيرِك- يا محمَّدُ- طريقُ المُشركينَ المُوصِلَةُ إلى سَخَطِ الله وعذابِه؛ ليُمكِنَ اجتنابُها، وليَتَبَيَّنَ الحَقُّ من الباطلِ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ وجوبُ الإنذارِ بالقُرآنِ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّ خيرَ ما يُنذَر به هو القرآنُ، يعني هو أبلغُ المواعِظِ في الإنذارِ، لكنْ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٤)[ق: ٣٧].

٢- أنَّه لا ينتفِعُ بالإنذارِ بالقُرآنِ إلَّا الذين يؤمنونَ باليومِ الآخِرِ؛ لقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾(٥).

٣- في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ صورةٌ للتجرُّدِ والحبِّ والأدَبِ؛ فإنَّ الواحِدَ منهم لا يَتوجَّهُ إلَّا إلى الله وَحْدَه

(١) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٢-٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٨).

(٢) قرأ الباقون عدا حمزة والكسائي وأبي بكر ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء كنافع، و﴿سَبِيلُ﴾ بالضمة كحمزة ومن معه. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٢-٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣-٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

بالعبادةِ والدُّعاء، وهو لا يَبغي وجْهَ اللهِ إلَّا إذا تجرَّدَ، وهو لا يَبغي وجْهَ اللهِ وحْدَه حتَّى يكونَ قلبُه قدْ أحبَّ، وهو لا يُفرِدُ اللهَ سبحانَه بالدُّعاءِ والعِبادةِ ابتغاءَ وجهِه إلَّا ويكون قدْ تَعلَّم الأدبَ، وصار رَبانيًّا؛ يعيش للهِ وباللهِ[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَفْتِنُ بعضَ النَّاسِ ببعضٍ، فيَضِلُّ أَحَدُهم بسبَبِ الآخَرِ، وهذا واقِعٌ، مثلًا: يُفتَحُ بابُ مُساهمةٍ في الخيرِ، فيَسْبِقُ فلانٌ وفلانٌ، فيقولُ الآخرونَ: شيءٌ تَدَخَّلَ فيه فُلانٌ لا نوافِقُ عليه ولا نُريدُه، ولا يُمْكِنُ أن يَسْبِقَنا إليه[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بيانُ أنَّ المسلِمَ إذا أقدمَ على الذَّنْبِ مع العِلْمِ بكونه ذنبًا ثمَّ تابَ منه توبةً حقيقيَّةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقبلُ توبتَه[٣].

٦- قوله: ﴿وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يجب أن تتمَّ في نفوسِ أصحابِ الدَّعوةِ هذه الاستبانةُ؛ كي تَنطلِقَ طاقاتُهم كلُّها في سبيلِ اللهِ لا تَصُدُّها شُبهةٌ، ولا يَعوُقُها غَبَشٌ، ولا يُمَيِّعُها لَبْس؛ فإنَّ طاقاتِهم لا تنطلِقُ إلَّا إذا اعتقدوا في يقينٍ أنَّهم هم المسلِمون، وأنَّ الذين يَقِفونَ في طريقِهم ويَصُدُّونهم ويصدُّون النَّاسَ عن سبيلِ اللهِ هم المُجْرمونَ، كذلك فإنَّهم لن يَحتَمِلوا متاعِبَ الطريقِ إلَّا إذا استيقَنُوا أنَّها قضيَّةُ كُفْرٍ وإيمانٍ[٤].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ خصَّ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٠٧).

الذين يخافونَ الحَشْرَ؛ لأنَّ انتفاعَهم بذلك الإنذارِ أكملُ؛ وذلك أنَّ خَوْفَهم يحمِلُهم على إعدادِ الزَّادِ ليومِ المَعَادِ، وهم أجدَرُ مِن غَيْرِهم بفَهْم حقيقةِ الرِّسالَةِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَنْ يُحْشَرُوا﴾ فيه إثباتُ الحَشْرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا يكونُ يومَ القيامةِ؛ تُحشَرُ الخلائقُ على ربِّها عزَّ وجلَّ؛ ليقضي بينهم قضاءً دائرًا بين العَدْلِ والفَضْلِ؛ العدْلُ للكُفَّار، والفَضْل للمؤمنينَ(٢).

٣- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ؛ لأنَّه لولا وجودُها ما صحَّ نَفْيُها(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ..﴾ كمالُ عدْلِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه خاطَبَ نبيَّهُ بهذا الخطابِ القويِّ من أجل قومٍ من أصحابِه، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عند اللهِ أعظَمُ جاهًا، وأعلى منزلةً، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عدْلٌ يقضي بالحَقِّ سبحانه وتعالى(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ إن طَرَدَ الصَّالحينَ مِن مَجلِسِه يخافُ أنْ يُوصَلَ إلى درجةِ الظَّالمينَ، ففيه التَّحذيرُ من إيذاءِ الصَّالحينَ(٥).

٦- قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وبيَّنَ في آياتٍ أُخَرَ أنَّ طَرْدَ ضعفاءِ المسلمين الذي طَلَبَه كفَّارُ العربِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).
(٥) ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) (ص: ٥٧).

مِن نَبِيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فنهاه اللهُ عنه؛ طَلَبَه أيضًا قومُ نوحٍ مِن نوحٍ عليه السلامُ فأبى؛ كقوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ الآية [هود: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، وهذا مِن تشابُه قلوبِ الكُفَّارِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية[1] [البقرة: ١١٨].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ خصَّ الله الغَداةَ والعَشِيَّ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الشُّغْل فيهما غالِبٌ على النَّاسِ، ومَن كان في هَذينِ الوَقْتينِ يَغْلِبُ عليه ذِكْرُ اللهِ ودعاؤُه، كان في وقتِ الفَراغِ أغلَبَ عليه[2].

٨- إثباتُ وَجْهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، والوَجْهُ صفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ، يجب علينا أن نؤمِنَ بذلك، ولكن على حدِّ قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأمَّا من فسَّر ذلك بأنَّ المرادَ بالوَجْهِ الثَّوابُ؛ فقد أخطَأَ؛ لأنَّ ذلك مخالِفٌ لظاهِرِ اللَّفْظِ، ومخالِفٌ لإجماعِ السَّلَفِ، ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في القرآنِ الكريمِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧] جعَلَه وصفًا للوَجْهِ، ولا يُمكِنُ أن يُقالَ: إنَّ الثَّوابَ هو الموصوفُ بأنَّه ذو الجلالِ والإكرامِ، وتأمَّلْ هذا مع قولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] فـ (ذي) بالجَرِّ صفةٌ لـ (رَبِّ)، ولم تكن بالرَّفْعِ صفةً للاسْمِ، مع أنَّ أسماءَ اللهِ عزَّ وجلَّ لها من الجلالة والتَّعظيمِ ما لها[3].

٩- لم يُكتَفَ بقَولِه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ عنْ ﴿وَمَا مِنْ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٦، ٢٦٧).

حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لأنَّ الجُملتينِ جُعِلَتا بمنزلةِ جملةٍ واحدةٍ، وقُصِدَ بهما مؤدًّى واحِدٌ، وهو المعنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولا يُفيدُ هذا المعنى إلَّا الجُملتانِ جميعًا، كأنَّه قيل: لا تؤاخَذُ أنت ولا هم بحسابِ صاحِبِه(١).

١٠- قولُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يدلُّ على نفْيِ الرِّياسةِ الدِّينيَّةِ المعهودةِ في المِلَل الأُخرى، وهي سيطرةُ رُؤساءِ الدِّينِ على أهْلِ دِينِهم في عقائِدِهم وعباداتِهم، ومحاسَبَتُهم عليها، وعقابُ مَن يَرون عِقابَه منهم حتى بالطَّرْد من الدِّينِ، والحِرمانِ من حُقوقِه، ويجبُ في بعضِ تلك المِلَل أنْ يَعترفَ كُلُّ مكَلَّفٍ مِن ذَكَرٍ وأنثى للرَّئيسِ الدِّينيِّ بأعمالِه النفسيَّة والبَدَنيَّة، وللرئيسِ أنْ يغفِرَ له ما يَعترِفُ به من المعاصي، ويعتقدونَ أنَّ مغفرةَ الله تعالى تَتْبَعُ مغفرَتَه، وإذا كان اللهُ تعالى لم يجعَلْ للرَّسولِ الذي أوجَبَ طاعتَه حقَّ محاسبَةِ النَّاسِ على أعمالِهم الدينيَّة ونِيَّتِهم فيها، ولا حَقَّ طَرْدِهم مِن حَضْرَتِه- دَعْ حَقَّ طَرْدِهم مِنَ الدِّينِ- فكيف يُمْكِن أن يكون لمن دُونَه مِنَ الأُمَراءِ أو القضاةِ أو غَيرِهم من الرُّؤساءِ مثْلُ هذا الحَقِّ(٢)؟!

١١- لَمَّا نهى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِهم مُبَيِّنًا أنَّه ضررٌ لغيرِ فائدةٍ؛ في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ سَبَّبَ عن هذا النَّهْيِ قولَه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بِوَضْعِك الشَّيءَ في غير مَحَلِّه؛ فإنَّ طَرْدَكَ هؤلاءِ ليس سببًا لإيمانِ أولئك، وليس هدايَتُهم إلَّا إلينا، وقد طلبوا منَّا فيك لَمَّا فَتَنَّاهم بتَخْصِيصِك بالرِّسالَةِ ما لم يَخْفَ عليكَ مِن قَوْلِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحوِه مِمَّا أرادوا به الصَّرْفَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٩).

عنك، فكما لم نَقْبَلْهم فيكَ فلا تَقْبَلْهم أنتَ في أوليائِنا؛ فإنَّا فتَنَّاهم بكَ حتى سألوا فيك ما سألوا، وتَمَنَّوْا ما تَمَنَّوْا[1].

١٢- أنَّ مَنْعَ الإنسانِ حَقَّه ظُلْمٌ، وإنْ لم يكنْ عدوانًا بِضَرْبٍ أو أَخْذِ مالٍ، لكن إذا منعه حقَّه فإنَّه ظالمٌ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فتكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا حقٌّ؛ ولهذا قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ))[2]، مع أنَّ هذا لم يأخُذْ مِن مالِ الفقيرِ، لكنْ ماطَلَه، يعني: مَنَعَ حَقَّه، فكلُّ من مَنَع صاحِبَ حَقٍّ حقَّه فهو ظالمٌ له، كما لو اعتدى بأخْذِ شيءٍ مِن مالِه[3].

١٣- استُدِلَّ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ على مسألةِ خَلْقِ الأفعالِ من وجهينِ: الأول: أنَّ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ تصريحٌ بأنَّ إلقاءَ تلك الفِتنةِ مِنَ الله تعالى، والمرادُ من تلك الفتنةِ ليس إلَّا اعتراضَهم على الله في أنْ جَعَلَ أولئك الفقراءَ رؤساءَ في الدِّينِ، والاعتراضُ على اللهِ كُفرٌ، وذلك يدلُّ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ للكُفْرِ. والثاني: أنَّه تعالى حَكَى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: مَنَّ عليهم بالإيمانِ بالله، ومتابعةِ الرَّسولِ، وذلك يدلُّ على أنَّ هذا المعنى إنَّما حَصَلَ من الله تعالى؛ لأنَّه لو كان المُوجِدُ للإيمان هو العبدَ؛ فاللهُ ما مَنَّ عليه بهذا الإيمانِ، بل العبدُ هو الذي مَنَّ على نَفسِه بهذا الإيمانِ[4].

١٤- جاء لفْظُ الشُّكْرِ هنا في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ في غايةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٠)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٧٢).

من الحُسْنِ؛ إذ تقدَّمَ مِن قولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنعمَ عليهم، فناسَبَ ذِكْرُ الإنعامِ لفظَ الشُّكْرِ[١].

١٥- قد عُلِمَ مِن قَولِه: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أنَّه أيضًا أعلَمُ بأضدادِهم، وضِدُّ الشُّكْرِ هو الكُفْرُ، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فهو أعلمُ بالذين يأتونَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُستهزئينَ مُتكبِّرينَ، لا هَمَّ لهُم إلَّا تحقيرُ الإسلامِ والمُسلمينَ، وقد استفرَغُوا وُسْعَهم ولُبَّهُم في مجادلةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتضليلِ الدَّهماءِ في حقيقةِ الدِّينِ؛ ففي الكلامِ تعريضٌ بالمشركينَ[٢].

١٦- في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يَمتنِعُ تسميةُ ذاتِ اللهِ تعالى بالنَّفْسِ، وأيضًا قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] يدلُّ عليه[٣].

١٧- قال تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ: لِمَ خَصَّ سبيلَ المجرمين، ولم يَذْكُرْ سبيلَ المؤمنين؟ وللعلماءِ عَنْهُ جَوَابَانِ: أحدُهما: أنَّ سبيلَ المجرمين إذا عُرِفَتْ، عُرِفَتْ منها سبيلُ المسلمين؛ لأنَّ الأشياءَ تُعْرَفُ بأضدادِها، وإذا عَرَفَ الإنسانُ الشرَّ عرفَ أنَّ مُقَابِلَهُ هو الخيرُ؛ فالضِّدَّانِ إذا كانَا بحيثُ لا يَحصُل بينهما واسطةٌ، متى بانتْ خاصيَّةُ أحدِ القِسمينِ بانتْ خاصيةُ القِسمِ الآخَر، والحقُّ والباطلُ لا واسطةَ بينهما؛ فمتى استبانتْ طريقةُ المجرمينَ فقد استبانتْ طريقةُ المحقِّين أيضًا لا محالةَ. والثاني: أنَّ في الآيةِ هنا حَذْفَ الواوِ والمعْطوف، أي: لتَستبينَ سبيلُ المجرمين وسبيلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦).

المؤمنين؛ قالوا: ومنه: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: آية ٨١]، أي: والبردَ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الأنعام: آية ١٣]، أي: وما تَحَرَّكَ، وحَذْفُ الواوِ وما عَطَفَتْ إنْ دَلَّ المقامُ عليه مَعروفٌ في كلامِ العربِ(١). وقيل: لا يُحتاج إلى ذلك؛ لأنَّ المقامَ إنَّما يَقتضي ذِكْرَ المجرِمين فقط؛ إذ هُم الذين أثاروا ما تَقدَّم ذِكْرُه(٢).

١٨- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ إنَّ المنهجَ القرآنيَّ في العقيدةِ لا يُعنَى ببيان الحقِّ وإظهارِه، حتى تَستبينَ سبيلُ المؤمنين الصَّالحين فحسبُ؛ إنَّما يُعنَى كذلِك ببيانِ الباطلِ وكَشْفِه؛ حتَّى تستبينَ سَبيلُ الضالِّينَ المجرمين أيضًا. إنَّ استبانةَ سبيلِ المجرِمينَ ضروريَّةٌ لاستبانةِ سبيلِ المؤمنين، وذلك كالخطِّ الفاصِلِ يُرسَمُ عندَ مَفرِق الطَّريق! إنَّ هذا المنهجَ هو المنهجُ الذي قرَّره اللهُ سبحانه؛ ليتعامَلَ مع النفوسِ البشريَّة؛ ذلك أنَّ اللهَ سبحانه يعلمُ أنَّ إنشاءَ اليقينِ الاعتقاديِّ بالحقِّ والخيرِ يَقتضي رُؤيةَ الجانبِ المضادِّ مِن الباطلِ والشرِّ، والتأكُّد مِن أنَّ هذا باطلٌ ممحَّضٌ وشرٌّ خالِص، وأنَّ ذلك حقٌّ ممحَّضٌ وخيرٌ خالِص، كما أنَّ قوَّةَ الاندفاع بالحقِّ لا تنشأُ فقط من شُعورِ صاحبِ الحقِّ أنَّه على الحقِّ، ولكن كذلك مِن شُعورِه بأنَّ الذي يُحادُّه ويُحارِبُه إنَّما هو على الباطلِ، وأنَّه يَسلُك سَبيلَ المجرِمين(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٨- ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٠٥).

- قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ المشركينَ لا ينْجَع فيهم الإنذارُ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالحَشْرِ؛ فكيف يخافونَه، وخوفُ الحَشرِ يَقتضي الإيمانَ بوقوعِه[١]؟

- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ تعريضٌ بالمشركينَ الذين اتَّخذوا شُفعاءَ وأولياءَ غيرَ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاءٌ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّعليلِ لِلأمرِ بإنذارِ المؤمنينَ؛ لأنَّهم يُرجَى تَقواهم، بخلافِ من لا يؤمنونَ بالبَعْثِ[٣].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ اعتراضٌ وسِّط بين النهيِ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ وجوابِه ﴿فَتَكُونَ﴾؛ تقريرًا له، ودفعًا لِمَا عسَى يُتوهَّم كونُه مسوِّغًا لطردِهم من أقاويل الطاعنِينَ في دِينهم، كدأبِ قومِ نوحٍ عليه السلامُ؛ حيث قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، أي: ما عليك شيءٌ ما مِنْ حسابِ إيمانِهم، وأعمالِهم الباطنةِ حتى تتصدَّى له، وتَبنيَ على ذلك ما تراه مِن الأحكامِ، وإنَّما وظيفتُك- حسَبَما هو شأنُ مَنصِبِ النبوَّة- اعتبارُ ظواهرِ الأعمالِ، وإجراءُ الأحكامِ على مُوجِبِها، وأمَّا بواطنُ الأمورِ فحِسابُها على العَليمِ بذاتِ الصُّدورِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).

- وذُكِرَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ مع أنَّ الجوابَ قد تمَّ بما قَبْلَه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ انتفاءِ كَوْنِ حسابِهم عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَظْمِه في سِلْك ما لا شُبهةَ فيه أصلًا[1].

- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فيه حُسْنُ اعتنائِه تعالى بنبيِّه وتشريفِه بخِطابِه؛ حيثُ بدأ به في الجُملتينِ معًا، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ فقَدَّمَ خِطابَه في الجملتينِ، وكان مقتضى التَّركيبِ الأوَّلِ لو لُوحِظَ؛ أن يكونَ التَّركيبُ الثَّاني: (وما عليهم من حسابِكَ مِن شيءٍ)، لكنَّه قدَّمَ خِطابَ الرَّسولِ وأَمْرَه؛ تشريفًا له عليهم، واعتناءً بمخاطَبَتِه[2]. وقيل: تقديمُ خِطابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الموضِعينِ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ جاءَ على الأصْلِ العامِّ في اللُّغَةِ، وهو تقديمُ الأهَمِّ بحسَبِ سياقِ الكلامِ، والأهَمُّ في الأوَّلِ النَّفيُ، وفي الثاني المنفيُّ، يعني: أنَّ الأهمَّ في كلِّ موضعٍ ما يتعلَّق به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعليلٌ لانتفاء عمَلٍ له (وهو الطَّرد) مترتِّبٌ على ذلك النفيِ، ولو كان الثاني تعليلًا لعملٍ لهم لقال: (وما عليهم من حِسابِك مِن شيءٍ فيَطرُدُوك)[3].

- وفيه تعريضٌ بالمشركينَ بأنَّهم أظهروا أنَّهم أرادوا بِطَرْدِ ضُعفاءِ المؤمنينَ عن مجلسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النُّصْحَ له؛ ليكتَسِبَ إقبالَ المشركينَ عليه، والإطماع بأنَّهم يُؤمِنونَ به، فيَكْثُر مُتَّبِعوه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٩)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥١).

- وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ (مِن) زائدةٌ لتوكيدِ النَّفيِ؛ للتَّنصيصِ على الشُّمولِ في سياقِ النَّفيِ(١).

- وقد اجتمَع في هذه الآية خمسةُ مُؤَكِّدات؛ وهي: (مِن) البيانيَّة، و(مِن) الزائدةِ، وتقديمُ المعمولِ، وصيغةُ الحصْرِ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، والتأكيدُ بالتَّتميمِ بنَفيِ المقابِلِ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ فإنَّه شبيهٌ بالتَّوكيدِ اللَّفظيِّ، وكلُّ ذلِك للتَّنصيصِ على منتهى التَّبرئَةِ من محاوَلَةِ إجابَتِهم لاقتراحِهم(٢).

- قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تعريضٌ بالذين سألوا طَرْدَهم لإرضاءِ كبريائِهم؛ بأنَّهم ظالِمونَ معتادون على الظُّلْم، وإعادة فِعل الطَّرْد دون الاقتصارِ على قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ ذلك النَّهيِ(٣).

٣- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ استئنافٌ مُبيِّن لِمَا نشأ عنه ما سَبَقَ من النهيِ(٤)؛ لأنَّ السَّامِعَ لَمَّا شعر بقصَّةٍ أومَأَ إليها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، يأخُذُه العَجَب من كبرياءِ عُظماءِ أهْلِ الشِّرْكِ، وكيف يَرْضَونَ البقاءَ في ضلالةٍ؛ تكبُّرًا عن غِشْيانِ مَجْلسٍ فيه ضعفاءُ النَّاسِ من الصَّالحين، فأُجيبَ بأنَّ هذا الخَلْقَ العجيبَ فتنةٌ لهم، خَلَقَها اللهُ في نُفوسِهم بسوءِ خُلُقِهم(٥).

- والكاف في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾؛ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥١- ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٢).

(ذلك) مِن الفخامة[١]، وتُفيدُ التَّشبيهَ المقصودَ منه التعجُّبُ من المشَبَّهِ، بأنَّه بلغ الغايةَ في العَجَب[٢].

- قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في التعجُّبِ والإنكارِ، غرضُهُم منه إنكارُ أنْ يُخَصَّ هؤلاءِ مِن بينهم بإصابةِ الحقِّ، والسَّبْقِ إلى الخيرِ؛ فغَرَضُهم بذلك إنكارُ وقوعِ المنِّ رأسًا على طريقةِ قولِهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، لا تحقيرُ الممنونِ عليهم مع الاعترافِ بوُقوعِه بطريقِ الاعتراضِ عليه تعالى، وإنما قالوا: ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ على سَبيلِ التهكُّم ومجاراةِ الخَصْم؛ إنكارًا منهم لأنْ يكونَ المؤمنون مِن الفُقراءِ والعَبيدِ على الحقِّ، وممنونًا عليهم مِن بَينهم بالخَيرِ، أي: حيثُ اعتقَدَ المؤمنونَ أنَّ اللهَ مَنَّ عليهم بمعرفةِ الحقِّ، وحَرَمَ صناديدَ قريشٍ؛ فلذلك تعجَّبَ أولئكَ من هذا الاعتقادِ، أي: كيف يُظَنُّ أنَّ اللهَ يَمُنُّ على فَقراءَ وعبيدٍ، ويتركُ سادةَ أهْلِ الوادي[٣]؟!

- والإشارةُ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ مستعمَلةٌ في التَّحقيرِ أو التَّعجُّبِ[٤].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿مَنَّ اللَّهُ﴾؛ لقَصْدِ تَقويةِ الخبرِ[٥].

- قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ تذييلٌ للجملةِ كُلِّها؛ فهو من كلامِ اللهِ تعالى، وليس مِن مقولِ القَوْلِ؛ ولذلك فُصِلَ - أي لم يُعْطَف بالواوِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٦).

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؛ لتقريرِ عِلمِه البالغِ بذلك، أي: أليسَ الله بأعلمَ بالشَّاكرين لِنِعَمِه حتى تَستبعِدوا إنعامَه عليهم، وفيه مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ أولئك الضُّعفاءَ عارفون بحقِّ نِعَم الله تعالى في تنزيل القرآنِ والتوفيقِ للإيمان، شاكِرون له تعالى على ذلِك، مع التعريضِ بأنَّ القائلين بمعزلٍ من ذلك[1].

٤- قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

في هذِه الآية مناسبةٌ حسنةٌ؛ إذ سِيقَ هذا المقولُ أحْسَنَ مَساقٍ؛ أمَرَه أوَّلًا أن يقولَ للمؤمنينَ: سلامٌ عليكم، فبدأ أوَّلًا بالسَّلامةِ والأمْنِ لِمَن آمَنَ، ثم خاطَبَهم ثانيًا بوجوبِ الرَّحْمةِ، وأسنَد الكتابةَ إلى ربِّهم، أي: كتَب النَّاظِرُ لكم في مَصالِحِكم، والذي يُرَبِّيكم ويَمْلِكُكم، الرَّحْمةَ؛ فهذا تبشيرٌ بعُمومِ الرَّحْمةِ، ثم أبدلَ منها شيئًا خاصًّا، وهو غُفرانُه ورَحْمَتُه لِمَن تاب وأصلَحَ[2] وهذا على أحدِ الأوجهِ في الآيةِ.

- قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ عَطْفٌ على قَولِه ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، وهو ارتقاءٌ في إكرامِ الذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ فهم المرادُ بِقَولِه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾؛ وُصِفوا هنا بالإيمان بآياتِ الله عزَّ وجلَّ، كما وُصفوا في الآيةِ التي قبلها بالمداومةِ على عِبادتِه تعالى بالإخلاصِ، وتأخيرُ وصفِهم بالإيمانِ مع تقدُّمه على الوصفِ الأوَّلِ؛ لأنَّ مدارَ الوَعدِ بالرَّحْمة والمغفرةِ هو الإيمانُ بها، كما أنَّ مناطَ النهْيِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٨).

الطردِ فيما سبَق هو المداومةُ على العبادةِ[١].

- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في التعرُّضِ لعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ إظهارُ اللُّطفِ بهم والإشعارُ بعلَّة الحُكْمِ[٢].

٥- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الجملةُ تذييلٌ للكلامِ الذي مضى مبتَدَأً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِم﴾[٣] [الأنعام: ٥١].

- والمجرِمون في قوله: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ هم المشركون، وُضِعَ الظاهرُ موضعَ المضمرِ؛ للتنصيصِ على أنَّهم المرادُ، ولإجراءِ وصْفِ الإجرامِ عليهم. وخصَّ المجرِمين؛ لأنَّهم المقصودُ من هذه الآياتِ كلِّها؛ لإيضاحِ خفيِّ أحوالِهم للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمين[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٦١).

الآيات (٥٦ - ٥٨)

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾: جمْعُ هوًى، وهو مَيْلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسُّقوطُ؛ ولذلك يقال للآراءِ الزائفةِ: أهواءٌ[1].

﴿بَيِّنَةٍ﴾: أي: بصيرةٍ ودَلالةٍ ويقينٍ وحُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ (بَيَنَ): الانكشافُ[2].

﴿الْفَاصِلِينَ﴾: جمْع فاصِلٍ، وهو مَن يُبيِّنُ ويميِّزُ بين المُحقِّ والمبطِلِ، والفصلُ: إبانةُ أحد الشَّيئين من الآخَرِ، حتى يكون بينهما فُرجةٌ، وأصل (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانتِه عنه[3].

المعنى الإجماليّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُخبِرَ المشركينَ أنَّه نُهي عن عِبادةِ جميعِ ما يعبدونَ مِن دونِ الله تعالى، وأن يقولَ لهم: إنَّه لا يتَّبعُ أهواءَهم الباطلةَ؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨).

فإنَّه إنِ اتَّبَعَها فقد ضلَّ عن طريقِ الحَقِّ، وما هو من المُهتدينَ إن فعَل ذلك.

وأمَرَه أنْ يُخبِرَهم أنَّه على بيِّنةٍ وبصيرةٍ من ربِّه، بينما هم قد كذَّبوا بالحقِّ الذي جاء مِن عندِ الله، وأنْ يخبِرَهم أيضًا أنَّه ليس بيَدِه ما يَستعجلونَ به مِن العذابِ.

فالحكمُ لله تعالى وحدَه، إنْ شاء عجَّلَ لكم ما سألْتُموه من العذابِ، وإنْ شاء أَنْظَرَكم وأجَّلَكم، بِحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه، وكلُّ ما يتلوه عزَّ وجلَّ في كتابِه هو الحقُّ الواضِحُ، وهو سبحانه خيرُ من يَفْصِلُ في القضايا، فيُبَيِّن المُحِقَّ من المُبْطِل.

وأَمَرَه أنْ يقولَ لهم: إنَّه لو كان بِيَدِه ما يَستعجلونَه من العذابِ، لعاجَلَهم بإيقاعِ ما يستحقُّونَه منه، لكنْ أمْرُ ذلك إلى اللهِ، وهو أعلمُ بالظَّالمين ومتى يُمْهِلُهم، وأعلمُ بالوقت الذي يُوقِع عليهم فيه العذابَ.

تفسيرُ الآيات:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا كان محطُّ حالِهم في السُّؤالِ طرْدَ الضُّعفاءِ؛ قَصْدَ اتِّباعِ أهوائِهم- أمَرَه تعالى بأنْ يُخْبِرَهم أنَّه مبايِنٌ لهم- لِمَا بيَّنَ له بالبيانِ الواضِحِ من سوءِ عاقبَةِ سَبيلِهم- مُبايَنةً لا يُمكِنُ معها اتِّباعُ أهوائهم، وهي المُبايَنَة في الدِّين[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ ما يدلُّ على أنَّه يُفَصِّلُ الآياتِ؛ ليَظْهَر الحقُّ، وليَسْتَبينَ سبيلُ المُجْرمينَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّه تعالى نهى عن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٣٢).

سُلُوكِ سَبيلِهم[1]، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ الذين يَدْعونَ مع اللهِ آلهةً أخرى: إنَّ رَبِّي نهاني عن عِبادةِ جميعِ المعبوداتِ التي تعبدونَها وتلجؤونَ إليها مِن دُونِه سبحانه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: لا أتَّبِع أهواءَكم الباطلةَ في عبادةِ غيرِ الله تعالى، والإشراكِ به، ولا أوافِقُكم على ذلك[3].

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: فإنِ اتَّبعتُ أهواءَكم فقد خرجتُ عن طريقِ الهدى، وصِرْتُ مِثْلَكم على غيرِ استقامةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١-٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦١-٣٦٣).

قال ابن عاشور: (ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون وتلجؤون إليهم في المهمَّات، أي: تدْعونهم، و﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ حالٌ من المفعول المحذوف، فعامِلُه ﴿تَدْعُونَ﴾، وهو حكايةٌ لِمَا غلَب على المشركين من الاشتغال بعِبادة الأصنام ودُعائهم، عن عِبادة الله ودُعائه، حتى كأنَّهم عبدوهم دون الله، وإنْ كانوا إنَّما أشركوهم بالعبادة مع اللهِ، ولو في بعض الأوقات). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٤).

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نفَى أنْ يكون الهوى مُتَّبعًا؛ نبَّه على ما يَجِبُ اتِّباعُه(١).

وأيضًا لَمَّا انتهى تعالى من إبطالِ الشِّرْك بدليلِ الوحيِ الإلهيِّ، المؤيِّدِ للأدلَّة السَّابقةِ في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ..﴾- انتقلَ إلى إثباتِ صِدْقِ الرِّسالةِ بدليلٍ من الله، مُؤيِّدٍ للأدلَّةِ السَّابقةِ أيضًا؛ لِيَيْئَسوا من محاولةِ إرجاعِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن دَعوتِه إلى الإسلامِ، وتَشكيكِه في وَحْيِه بقولِهم: ساحِرٌ، مجنونٌ، شاعرٌ، أساطيرُ الأوَّلينَ، وَلِيَيْئَسوا أيضًا من إدخالِ الشَّكِّ عليه في صِدْقِ إيمانِ أصحابِه، وإلقاءِ الوَحشَةِ بينه وبينهم، بما حاولوا مِن طَرْدِه أصحابَه عن مجلِسِه حين حضورِ خُصُومِه، فأمَرَه الله أن يقولَ لهم إنَّه على يقينٍ مِن أمْرِ ربِّه، لا يتزعزعُ(٢)؛ قال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء: إنِّي على بصيرةٍ، وحُجَّةٍ قاطعةٍ، قد أبانت بيقينٍ صِحَّةَ توحيدِ ربِّي مِن غيرِ إشراكِ شيءٍ به، وأوضَحَتْ صِحَّةَ شريعَتِه التي أوحاها إليَّ(٣).

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾.

أي: ولكنَّكم- أيُّها المُشركونَ- كذَّبْتُم بالحَقِّ الذي جاءَني مِن عند الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٥).

وهو لا يَستحِقُّ هذا منكم، ولا يليقُ به إلَّا الإيمانُ[1].

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر بيِّنَتَه وتكذيبَهم به، قفَّى بِرَدِّ شُبهةٍ تخطُرُ عند ذلك بالبالِ، ومن شأنِها أنْ يقعَ عنها منهم السُّؤالُ، وهي أنَّ اللهَ أنذَرَهم عذابًا يَحُلُّ بهم إذا أصرُّوا على عنادِهم وكُفْرِهم، ووَعَدَ بأنْ يَنصُرَ رسولَه عليهم، وقد استعجلوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك، فكان عَدَمُ وقوعِه شبهةً لهم على صِدْق القرآنِ؛ لجَهْلِهم بسُنَنِ الله تعالى في شُؤونِ الإنسانِ، فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يقولَ لهم[2]:

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾.

أي: ليس الذي تَتعجَّلونَه مِن عذابِ الله تعالى بيَدِي، ولا أنا على ذلك بقادرٍ[3].

كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

وقال عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: إنَّما يرجِعُ أمْرُ ذلك إلى الله تعالى، فإنْ شاء عجَّلَ لكم ما سألْتُموه من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٦).
وقيل: المرادُ: وكذبتُم بالله، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٦).

العذابِ، وإنْ شاء أَنْظَرَكم وأجَّلَكم، بِحَسَبِ ما تقتضيه حِكْمَتُه، فالحكمُ الكونيُّ، والحُكم الشرعيُّ لله تعالى وحْدَه[1].

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿يَقُصُّ﴾ من القَصَصِ، فالمعنى: أنَّ جميعَ ما أنبَأ به اللهُ تعالى أو أمَرَ به؛ فهو مِنَ أقاصيصِ الحَقِّ[2].

٢- ﴿يَقْضِ﴾[3] مِنْ: قضَى يقضي: إذا حَكَم وفَصَل؛ فالمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يقضي القَضاءَ الحقَّ[4].

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

أي: يتْلو علينا في كتابِه الحقَّ الواضِحَ، الذي لا لبْسَ فيه، والذي تنقَطِعُ به حُجَجُهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٩).

(٢) قرأ بها المدنيَّان وابنُ كثيرٍ وعاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٤).

(٣) وحُذِفَتِ الياءُ خَطًّا تَبَعًا لِلَّفظِ؛ لالتقاءِ السَّاكنينِ؛ كما في ﴿تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وكحذف الواو في ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ونُصِبَ ﴿الحَقَّ﴾ بعدَه على أنَّه صِفَةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: يَقضِي القَضَاءَ الحَقَّ، أو على إسقاطِ الباءِ؛ أي: يَقضِي بالحَقِّ؛ ووَقَفَ عليه يعقوبُ بالياءِ. يُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص:٢٦٤).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٨).

وعلى قِراءةِ (يَقْضِ الحَقَّ) يكونُ المعنى: يَقضِي القَضاءَ الحقَّ، الذي لا جوْرَ فيه ولا حَيْفَ، بيني وبينكم[١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

أي: وهو خَيْرُ مَن فَصَلَ القضايا، فبَيَّن وميَّز بين المحِقِّ والمبْطِل، وحَكَم بين عِبادِه؛ فأنْصَفَ بينهم، وأحقَّ الحَقَّ سبحانه وتعالى[٢].

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء المُستعجلينَ بالعذابِ؛ جهلًا منهم وعنادًا وظلمًا: لو أنَّ بِيَدِي ما تتعجَّلونَه من العذاب لعاجَلْتُكم بإيقاعِ ما تستحقُّونه منه[٣].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: ولكنَّ ذلك الأمرَ بيَدِ الله، الذي هو أعلمُ بوقْتِ إرسالِه على الظَّالمينَ الذين يَضَعونَ عبادتَهم- التي لا تَنبغي أنْ تكونَ إلَّا للهِ- في غَيرِ مَوضِعها، فيَعبدونَ مَن دُونَه، وهو أعلمُ بوقْتِ الانتقامِ منهم، ولا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيُمْهِلُهم ولا يُهْمِلُهم عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

الفَوائد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، في قوله: (أهواءكم) تنبيهٌ على السببِ الذي حصَل منه الضَّلالُ، وتنبيهٌ لمن أرادَ اتِّباعَ الحقِّ، ومجانبةَ الباطلِ[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- بُنِي الفعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للاستغناءِ عن ذِكْرِ الفاعِلِ؛ لظُهُورِ المرادِ، أي: نهاني اللهُ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيه تأكيدٌ لقَطْعِ أَطماعِهم، وإشارةٌ إلى الموجِبِ للنَّهيِ، وعلَّةِ الامتناعِ عن متابعَتِهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالِهم، والسَّبَبِ الذي منه وقَعُوا في الضَّلالِ وأنَّ ما هم عليه هوًى، وليس بهُدًى، وتنبيهٌ لِمَن تحرَّى الحقَّ على أنْ يتَّبعَ الحُجَّة، ولا يُقلِّد؛ لذا قال: ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ دون (لا أَتَّبِعُكم)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في دِينِهم تابعونَ للهَوى، نابذونَ لدليلِ العَقلِ، وفي هذا تجهيلٌ لهم في إقامةِ دِينِهم على غيرِ أصلٍ مَتينٍ[3].

٣- قوله: ﴿ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ﴾ فيه تجريدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نفْسَه مِن أنْ تكونَ له قدرةٌ أو تَدَخُّلٌ في شأنِ القَضاءِ الذي يُنْزِلُه اللهُ بعباده؛ فهذا من شأنِ الألوهيَّةِ وحْدَها وخصائِصِها، وهو بَشَرٌ يُوحَى إليه؛ ليُبَلِّغ ويُنذِرَ، لا لِيُنْزِلَ قضاءً ويَفْصِلَ، وكما أنَّ اللهَ سبحانه هو الذي يَقُصُّ الحقَّ ويُخْبِرُ به، فهو كذلك الذي يقضي في الأَمْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

ويفصِلُ فيه، وليس بعد هذا تنزيهٌ وتجريدٌ لذاتِ الله سبحانه وخَصائِصِه، عن ذواتِ العبيدِ، ثم يُؤمَرُ أن يَلْمَس قلوبَهم وعقولَهم ويَلْفِتَها إلى دلالةٍ قويَّةٍ على أنَّ هذا الأمرَ مِن عند الله، ومتروكٌ لمشيئة الله، فلو أنَّ أمْرَ الخوارقِ بما فيها إنزالُ العذابِ في مقدوره، وهو بَشَرٌ، ما استطاعَ أن يُمْسِكَ نفسَه عن الاستجابةِ لهم، وهم يُلْحِفُون هذا الإلحافَ، ولكنْ لأنَّ الأمْرَ بِيَدِ الله وحده، فهو يَحْلُم عليهم، فلا يَجِيئُهم بخارقةٍ يَتْبَعُها العذابُ المدَمِّر إن هم كذَّبوا بها؛ كما فَعَلَ بمن قَبْلَهم[1].

٤- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ للطَّاقةِ البَشريَّةِ حدودٌ في الصَّبْرِ والحِلْم والإمهالِ، وما يحلُم على البَشَر، ويُمْهِلُهم على عصيانِهم وتمرُّدِهم وتبجُّحِهم، إلَّا اللهُ الحليمُ القويُّ العظيمُ؛ فإنَّ الإنسانَ لَيَرَى مِن بعض الخَلْقِ ما يضيقُ به الصَّدْرُ، وتبلغُ منه الرُّوحُ الحُلقومَ، ثم يَنظُرُ فيجِدُ اللهَ سبحانه يَسَعُهم في مُلْكه، ويُطْعِمُهم، ويَسْقِيهم، ويُغْدِقُ أحيانًا عليهم، ويفتَحُ عليهم أبوابَ كُلِّ شَيءٍ[2].

٥- إنْ قيلَ: فما الجَمْعُ بين قوله في هذه الآيةِ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾، وبين ما ثبَتَ في الصَّحيحَينِ مِن قوْلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَلَك الجبالِ حين استأمَرَه ليُطْبِقَ على من آذاه الأَخْشَبينِ، فقال له: ((بَلْ أَرجُو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يَعْبُدُ اللهَ، لا يُشْرِكُ به شيئًا))[3]، فقد عَرَضَ عليه عذابَهم واستئصالَهم، فاسْتَأْنى بهم، وسألَ لهم التأخيرَ؛ لعلَّ اللهَ أن يُخرِجَ مِن أصلابِهم مَن لا يُشْرِكُ به شيئًا؟

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فالجوابُ- واللهُ أعلمُ-: أنَّ هذه الآيَةَ دلَّتْ على أنَّه لو كان إليه وقوعُ العذابِ الذي يطلبونَه حالَ طَلَبِهم له؛ لأَوْقَعَه بهم، وأمَّا الحديثُ، فليس فيه أنَّهم سألوه وقوعَ العذابِ بهم، بل عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أنَّه إن شاء أطْبَقَ عليهِمُ الأَخْشَبَينِ- وهما جَبَلا مكَّةَ اللَّذانِ يكتنفانِها جنوبًا وشمالًا- فلهذا استأنى بهم وسأَلَ الرِّفْقَ لهم(١).

٦- قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ العَبدَ لا يَقدِرُ على أمرٍ من الأمور إلَّا إذا قضاه اللهُ، فيَمتنِعُ منه فِعلُ الكُفرِ إلَّا إذا قضَى اللهُ وحَكَم به، وكذلك في جميعِ الأفعالِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يُفيد القَصْرَ؛ ففيه ردٌّ على المعتزلةِ الذين يقولون: لا يشاءُ الله تعالى الكُفرَ مِن الكافِرِ، ولا المعصيةَ مِن العاصِي(٢).

٧- في قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أُسْنِدَ الفعلُ إلى المفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّه لو كان عندَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَستعجلونَ به وقُضِيَ؛ لَمَا قُضِيَ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى وقُدْرتِه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به الكلامُ إلى إبطالِ الشِّرْك بالتبرِّي من عبادةِ أصنامِهم، بطريقةٍ أخرى لإبطالِ عِبادةِ الأصنامِ- بعدَ أنْ أبطلَ إلهيةَ الأصنامِ بطريقِ الاستدلالِ- وهي أنَّ اللهَ نهى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام عن عِبادتِها، وعن اتِّباعِ أهواءِ عَبَدتِها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١).

- وأُجْرِيَ على الأصنامِ في قولِه: ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ اسمُ الموصولِ الموضوعِ للعُقلاءِ؛ لأنَّهم عامَلوهم معاملةَ العُقلاءِ، فأتى لهم بما يَحكي اعتقادَهم، أو لأنَّهم عَبَدوا الجِنَّ وبعضَ البَشَر، فغُلِّبَ العُقلاءُ من معبوداتِهم(١).

- قوله: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ استئنافٌ آخرُ ابتدائيٌّ، وأُعيدَ الأمرُ بالقولِ ﴿قُلْ﴾ زيادةً في الاهتمامِ بالاستئنافِ واستقلالِه؛ ليكونَ هذا النفيُ شاملًا للاتِّباعِ في عبادةِ الأصنامِ، وفي غيرِها من ضلالَتِهم(٢). أو كرَّر الأمرَ بقوله: ﴿قُلْ﴾ مع قُرْبِ العهدِ؛ اعتناءً بشأنِ المأمورِ به، أو إيذانًا باختلافِ المَقولينِ؛ من حيثُ إنَّ الأوَّلَ مِن قَوْلِه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حكايةٌ لِمَا مِن جِهَتِه تعالى من النَّهيِ، والثاني من قوله: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ حكايةٌ لِمَا مِن جِهَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الانتهاءِ عمَّا ذُكِرَ من عبادة ما يعبدونَه(٣).

- قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ مؤكِّدٌ لانتهائه عمَّا نُهِيَ عنه، مُقَرِّرٌ لكونِهم في غايةِ الضَّلالِ والغَوايةِ، أي: إنِ اتَّبعتُ أهواءَكم فقدْ ضلَلْتُ(٤).

- وفيه تعريضٌ بأنَّهم ليسوا مِن المُهتدين(٥).

- وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ مُؤَكِّد لِقَولِه: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾، والتعبيرُ بالجُملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١). وينظر أيضًا: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤).

والدَّوامِ والاستمرارِ، أي: دوامِ النَّفْيِ واستمرارِه، لا نفْيِ الدَّوامِ والاستمرارِ، وجاءتْ جملةُ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ فِعْليَّةً؛ لتدُلَّ على التجدُّدِ؛ فحَصلَ نَفْيُ تجدُّدِ الضَّلالِ وثُبوته[1].

- وقدْ أُتي بالخَبرِ بالجارِّ والمجرور، فقيل: ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، ولم يقُلْ: (وما أنا مهتدٍ)؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الجملةِ التي خبرُها ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ فإنَّ التَّعريفَ في ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ تعريفُ الجِنسِ، فإخبارُ المتكلِّمِ عن نفْسِه بأنَّه مِن المهتدين يُفيد أنَّه واحدٌ من الفِئة التي تُعرَف عندَ الناسِ بفِئة المهتدين؛ فيُفيد أنَّه مهتدٍ إفادةً بطريقةٍ تُشبه طريقةَ الاستدلالِ؛ فهو مِن قَبيلِ الكنايةِ التي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ مِن التَّصريحِ[2].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ مَساقَ التَّعريضِ بالمُشْركينَ في أنَّهم على اضطرابٍ مِن أمْرِ آلهَتِهم، وعلى غيرِ بصيرةٍ[3].

- وتنكيرُ لفظةِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للتفخيم[4].

- قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الباءُ التي عُدِّيَ بها فِعلُ كَذَّبْتُمْ هي لتأكيدِ لُصوقِ معنى الفعلِ بمفعولِه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ فلذلك يدُلُّ فعْلُ التكذيبِ إذا عُدِّيَ بالباءِ على معنى الإنكارِ، أي: التكذيبِ القَوِيِّ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٦٣، ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٦).

=

- قوله: ﴿ما عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ حالَهم في الإصرارِ على التَّكذيبِ، مِمَّا يزيدُهم عِنادًا عندَ سَماعِ تَسْفيهِ أحلامِهم، وتنقُّصِ عقائِدِهم[1].

- قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مشيرٌ إلى أنَّ قَصَّ الحقِّ هاهنا بطريقٍ خاصٍّ هو الفصلُ بين الحَقِّ والباطِلِ، هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ التَّنزيلِ[2].

٣- قوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يُثيرُ سؤالًا في نفس السامِعِ؛ أن يقول: فلو كان بِيَدِك إنزالُ العذابِ بهم، ماذا تصنعُ؟ فأجيب بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ...﴾[3].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ تذييلٌ، أي: اللهُ أعلمُ منِّي ومِن كلِّ أحدٍ بحكمةِ تأخيرِ العذابِ، وبوقْتِ نزولِه؛ لأنَّه العليمُ الخبيرُ، الذي عنده ما تستعجلونَ به[4]، وهو في معنى الاستدراكِ؛ كأنه قال: ولكنَّ الأمْرَ إلى الله سبحانه وتعالى، وهو أعلمُ بمن ينبغي أن يُؤخَذَ وبِمَن ينبغي أن يُمْهَلَ منهم[5].

- والتعبيرُ بالظَّالمينَ في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ إظهارٌ في مقامِ

= وقال ابن عاشور: (ولعلَّ الاستعمالَ أنَّهم لا يُعَدُّونَ فِعلَ التكذيبِ بالباءِ إلَّا إذا أُريدَ تكذيبُ حجَّةٍ أو برهانٍ مِمَّا يُحْسَبُ سببَ تصديقٍ؛ فلا يُقالُ: كذَّبْتُ بفلانٍ، بل يقال: كذَّبتُ فلانًا، قال تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٥).

ضميرِ الخطاب، والمعنى: (واللهُ أعلمُ بكم)؛ فوُضِعَ الظَّاهِرُ المُشعِرُ بوصْفِهِم بالظُّلم موضعَ المضمَر؛ لإشعارِهم بأنَّهم ظالمونَ في شِرْكِهم؛ إذِ اعتَدَوْا على حقِّ الله، وظالمونَ في تكذيبِهم؛ إذ اعتَدَوْا على حقِّ اللهِ ورسولِه، وظالمونَ في معامَلَتِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٠).

الآيات (٥٩ - ٦٢)

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ
مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ
(٥٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ
(٦١) ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ (٦٢) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿جَرَحْتُم﴾: أي: كَسَبْتُم، والاجتراحُ: اكتسابُ الإثْمِ، وأصلُ (جرَحَ): الكسْبُ، وشقُّ الجِلْد[1].

﴿تَوَفَّتْهُ﴾: أي: بالموتِ؛ يقال: توفَّيْتُ الشَّيءَ واستوفيتُه، إذا أخَذْتَه كُلَّه حتَّى لم تترُكْ منه شيئًا، ومنه يُقال للميِّت: تَوفَّاه اللهُ، وأصلُ (وفى) يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ، ومنه الوفاءُ: تمامُ الشَّيء، وإتمامُ العَهدِ، والقيامُ بمقتضاه، وإكمالُ الشَّرطِ[2].

﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: أي: لا يُضَيِّعون ما أُمِروا به، ولا يُقَصِّرونَ فيه، وأصل (فرط): يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مكانِه، وتنحيته عنه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿وَرَقَةٍ﴾: فاعل ﴿تَسْقُطُ﴾ وهو مجرورٌ لفظًا، مرفوعٌ محلًّا بضمَّة مُقدَّرة؛ لاشتغالِ مَحلِّها بحركةِ حرْفِ الجرِّ الزَّائد، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ للتأكيدِ، أفادتِ العمومَ، وقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ حالٌ من ﴿وَرَقَةٍ﴾، وجاءتِ الحالُ مِن النَّكرةِ؛ لاعتمادِها على النَّفيِ، والتقدير: ما تَسقطُ مِن ورقةٍ إلَّا عالِمًا هو بها. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ نعتًا لورقةٍ.

﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾: كلُّها مجرورةٌ، عَطفًا على لفْظِ ﴿وَرَقَةٍ﴾.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: استثناءٌ جارٍ مجرَى التوكيدِ، وهو بدلٌ مِن الاستثناءِ الأوَّلِ ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ بدلَ الكلِّ - على أنَّ الكتابَ الْمُبِينَ عِبارةٌ عن عِلمِه تعالى - أو بدلَ الاشتمالِ على أنَّه عبارةٌ عن اللَّوحِ المحفوظِ. وقد قُرِئ الأخيرانِ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالرَّفعِ، عطفًا عَلى محلِّ ﴿وَرَقَةٍ﴾. وقيل: رفْعُهما بالابتداءِ، والخبرُ حينئذٍ قولُه: ﴿إِلَّا فِي كتاب مُّبِينٍ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّ عنده خزائنَ الغيبِ لا يعلَمُها إلَّا هو سبحانه، ويعلمُ ما في البَرِّ والبحر، وما مِن ورقةِ شَجَرٍ تسقطُ إلَّا وهو يعلَمُها، ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ، ولا شيءٍ رَطْبٍ ولا يابسٍ إلَّا وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٦١)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (١/ ٣٠٩).

وهو تعالى الذي يَقْبِضُ أرواحَ الخلْقِ باللَّيلِ عند النَّومِ، ويَعلمُ ما كَسَبوا من أعمالٍ بالنهارِ، ثم يُوقِظُهم مِن منامِهم؛ ليَقْضِيَ اللهُ الأجَلَ الذي حدَّدَه لحياتِهم، ثُمَّ إليه وَحْدَه عزَّ وجلَّ مرجِعُهم يومَ القيامةِ، ثم يُخبِرُهم بما كانوا يَعملونَه في حياتِهم.

وهو عزَّ وجلَّ القاهرُ فوقَ عبادِه، الذي خضَعَ له كلُّ شيءٍ، وهو الذي يُرسِلُ على العبادِ حفَظَةً من الملائكةِ؛ حتى إذا جاء أحدًا من العبادِ الموتُ، تَوَفَّتْه رسلُ اللهِ من الملائكةِ، وهم لا يُفَرِّطونَ.

ثمَّ بعدَ الموتِ يُرَدُّون إلى اللهِ مولاهُمُ الحَقِّ، هو وحْدَه مَن له الحُكْم، فيتولَّى الحُكْمَ بينهم بالعَدْلِ، وهو أسرَعُ الحاسبينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ بعد قَولِه: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، انتقَل من خاصٍّ إلى عامٍّ، وهو عِلْمُ اللهِ بجَميعِ الأمورِ الغيبيَّةِ؛ فقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾؛ فاندرَجَ في هذا العامِّ ما استعجلوا وقوعَه وغَيْرُه[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ الله تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبيِّنَ للمشركينَ أنَّه على بَيِّنةٍ من رَبِّه فيما بلَّغَهم إيَّاه من رسالَتِه، وأنَّ ما يَستعجلونَ به من عذابِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٤).

ونَصْرِه عليهم- تعجيزًا أو تهكُّمًا أو عنادًا- ليس عنده، وإنَّما هو عند الله، الذي قَضَتْ سُنَّتُه أن يكون لكُلِّ شيءٍ أجَلٌ وموعِدٌ، لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ عنه، وأنَّه تعالى هو الذي يَقضي الحَقَّ، ويقُصُّه على رسولِه، وبِيَدِه تنفيذُ وَعْدِه ووعيدِه- ققَّى على ذلك ببيانِ كونِ مفاتحِ الغيبِ عنده، وكونِ التصرُّفِ في الخَلْق بِيَدِه، وكونِه هو القاهِرَ فوقَ عِبادِه، لا يُشارِكُه أحدٌ مِن رُسُلِه ولا غيرُهم في ذلك حتى يصِحَّ أن يُطالِبُوا به[1]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وعندَه خزائنُ الغيبِ، فيعلَمُ جميعَ ما غاب عن خَلْقِه، فلم يَطَّلِعوا عليه، وأعلَمُ المخلوقاتِ- وهم الرُّسُلُ والملائكةُ- لا يَعلمونَ من الغيبِ إلَّا ما عَلَّمَهم اللهُ تعالى، وهو تعالى يُعَلِّم رسُلَه مِن غَيْبِه ما شاء[2].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مفاتيحُ الغيبِ خَمسٌ، لا يَعلمُها إلَّا اللهُ: لا يَعلمُ ما في غَدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٢-٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨١-٤٨٢).

ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))(١).

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّها قالت: ((... ومَن زعمَ أنَّه- أي النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم- يُخبرُ بما يَكونُ في غدٍ، فقد أعظمَ علَى اللهِ الفِرْيَةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]))(٢).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: ويَعلمُ أيضًا مع ذلك جميعَ ما يعلَمُه النَّاسُ، فعِلمُه مُحيطٌ بجميعِ الموجوداتِ، بَرِّيِّها وبَحْرِيِّها؛ لا يَخفى عليه من ذلك شيءٌ، فيَعلمُ ما في البَراري والقِفَار؛ من الحيواناتِ والأشجارِ، والرِّمالِ والحَصَى والتُّراب، وغيرِ ذلك، وما في البحارِ؛ مِن حيواناتِها ومعادِنِها وصَيْدِها، وغير ذلك(٣).

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

أي: وما مِن ورقةِ شَجَرٍ تقَعُ في أيِّ مكانٍ من الأرض إلَّا واللهُ عزَّ وجلَّ يَعْلَمُها، فهو سبحانَه يعلمُ الحركاتِ حتى مِن الجماداتِ(٤).

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وَلا حَبَّةٍ من حبوبِ الثِّمارِ والزُّروعِ، وحبوبِ البُذورِ التي يَبْذُرها الخَلْقُ؛ وبُذورِ النَّوابِتِ البَرِّيَّة التي يُنشئُ منها أصنافَ النَّباتاتِ، مظروفةٍ في ظُلُماتِ

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

الأَرْضِ؛ لا تحولُ بينها وبين رؤيةِ الله تعالى لها وعِلْمِه بها، وكذا كلُّ شيءٍ آخَرَ من رطْبٍ أو يابسٍ؛ قد أُثْبِتَ في اللَّوحِ المحفوظِ، مكتوبًا فيه عدَدُه ومَبْلَغُه، والوَقْتُ الذي يوجَدُ فيه، والذي يَفنى فيه، وغير ذلك، واللَّوحُ المحفوظُ يُبِينُ عن صِحَّة ما أُثبتَ فيه بوجودِ الشَّيءِ في الواقع، كما أُثبتَ من قبلُ[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكر تعالى استئثارَه بالعِلْم التامِّ للكليَّاتِ والجزئيَّاتِ؛ ذكَرَ استئثارَه بالقُدرةِ التامَّةِ؛ تنبيهًا على ما تختصُّ به الإلهيَّةُ، وذَكَرَ شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام، وهو التوفِّي باللَّيلِ، والبَعْثُ بالنَّهارِ وكِلاهما ليس للإنسان فيه قُدرةٌ، بل هو أمرٌ يُوقِعُه اللهُ تعالى بالإنسانِ[2]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾.

أي: واللهُ هو الذي يتوفَّى أرواحَكم باللَّيلِ وفاةَ النَّومِ، فيَقبِضُها من أجسادِكم[3].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

أي: ويعلمُ ما كَسَبْتُم من الأعمالِ بالنَّهارِ[١].

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

أي: ثم يُوقِظُكم مِنْ منامِكم في النَّهارِ؛ ليقضِيَ اللهُ الأجَلَ الذي حدَّده لحياتِكم، فيَبْلُغَ مدَّتَه ونهايتَه[٢].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا ذَكَر تعالى أنَّه يُنيمُهم أولًا، ثمَّ يُوقظُهم ثانيًا؛ كان ذلك جاريًا مجْرَى الإحياءِ بعدَ الإماتةِ؛ لا جَرَمَ استدلَّ بذلِك على صِحَّةِ البعثِ والقِيامة، فقال[٣]:

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

أي: ثمَّ إلى الله وَحْدَه معادُكم ومصيرُكم يومَ القيامةِ[٤].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ثم يُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في حياتِكم الدُّنيا، ويُجازيكم بذلك، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[٥].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٦-٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ السابقةِ النَّومَ والموتَ، وهو سبحانَه خلَقَهما، فغَلَبَا شِدَّةَ الإنسانِ كيفَما بلغَتْ- بَيَّنَ عَقِبَ ذِكْرِهما أنَّ الله هو القادِرُ الغالِبُ دونَ الأصنامِ، فالنَّومُ قهْرٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يُريدُ ألَّا ينامَ فيغْلِبُه النَّومُ، والموْتُ قهْرٌ، وهو أظْهَرُ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الذي قَهَر كلَّ شيءٍ، وخضَعَ له كلُّ شيءٍ، الغالِبُ خَلْقَه بقُدرَتِه، العالي عليهم بتذليلِه لهم، وخلقِه إيَّاهم، النافذةُ فيهم مَشيئَتُه؛ فليسوا يَملِكونَ مِن الأمرِ شيئًا، ولا يَتحرَّكون أو يَسكُنونَ إلَّا بإذْنِه سبحانَه[2].

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾.

أي: وَقد وكَّلَ بكم حَفَظةً من الملائكةِ؛ يحفظونكم، ويَحفظونَ عليكم أعمالَكم ويُحْصُونها[3].

كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

أي: إنَّ ربَّكم يحفَظُكم وأعمالَكم في حياتِكم، بالملائِكةِ الموَكَّلين بكم، إلى أنْ يَحْضُرَكم الموتُ، فإذا جاء ذلك أحدَكم توَفَّته ملائكَتُنا الموَّكلونَ بقَبْضِ الأرواح، لا يَزيدونَ ساعةً ممَّا قَدَّرَه اللهُ وقَضَاه، ولا يَنْقُصونَ، ولا يُنَفِّذون ذلك إلَّا بحَسَب التقاديرِ الرَّبانيَّة، ولا يُفرِّطون أيضًا في حِفْظ رُوحِ المتوفَّى، بل يحفظونَها ويُنْزِلونَها حيثُ شاءَ الله تعالى، فإنْ كان مِن الأبرارِ فهو في عِلِّيِّينَ، وإنْ كان مِن الفُجَّار فهو في سِجِّينٍ[١].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: ثمَّ بعدَ الموتِ والحياةِ البَرزَخِيَّة يُرَدُّ العبادُ المُتَوفَّونَ بالموتِ، فيَرْجِعون يومَ القيامةِ إلى الله سَيِّدِهم، الذي تولَّى أمورَهم بحُكْمِه القَدَريِّ، فنَفَّذَ فيهم ما شاءَ مِن تَدبيرِه، وتولَّاهم بحُكْمِه الشَّرعيِّ، فأَرْسَل إليهم الرُّسُلَ، وأنزَلَ عليهم الكُتُبَ، وتولَّى رَزْقَهم وبَعْثَهم وغيرَ ذلك، وهو سبحانه الحقُّ الذي ليس بباطلٍ[٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾.

أي: رُدُّوا إليه؛ ليتولَّى الحُكمَ فيهم بالعَدْلِ، فيُثيبَهم على ما قدَّموا من الخيراتِ، ويُعاقِبَهم على ما اكتَسَبُوا من السيِّئاتِ؛ فله سبحانه وَحْدَه الحُكمُ والقَضاءُ دون مَن سواه مِن جميعِ خَلْقِه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

أي: وهو أسرَعُ مَن حَسَب عَددَكم وأعمالَكم وآجالَكم، وغيرَ ذلك من أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- وأحصاها وعَرَفَ مَقاديرَها ومَبَالِغَها، لا يَخفَى عليه منها خافيةٌ؛ لكمالِ عِلْمِه وحِفْظِه لأعمالِكم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ذِكْرُه تعالى للورقةِ والحَبَّةِ فيه تنبيهٌ للمُكَلَّفينَ على أمْرِ الحِسابِ، وإعلامٌ بأنَّه لا يَفوتُه مِن كُلِّ ما يَصنعونَ في الدُّنيا شيءٌ؛ لأنَّه إذا كان لا يُهْمِلُ من الأحوالِ التي ليس فيها ثوابٌ وعقابٌ وتكليفٌ، فبألَّا يُهْمِلَ الأحوالَ المشتمِلَةَ على الثَّوابِ والعقابِ أَوْلى(٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ في الإخبارِ أنَّه عزَّ وجلَّ يَعلمُ ما يقَعُ في النَّهارِ تَحذيرٌ مِن اكتِسابِ ما لا يَرْضَى اللهُ باكتِسابِه بالنِّسبةِ للمُؤمنينَ، وتهديدٌ للمُشركينَ(٣).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ التَّحذيرُ مِن ارتِكابِ المعاصي(٤).

٤- القصدُ مِن قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ هو إلقاءُ ظِلِّ الرَّقابةِ المباشِرَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).
قال السعديُّ: (فإذا كان تعالى هو المنفردَ بالخَلْق والتَّدبير، وهو القاهِر فوقَ عِباده، وقد اعْتَنى بهم كلَّ الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحُكم القَدَريُّ والحُكم الشَّرعيُّ والحُكم الجزائي؛ فأين للمُشركين العدولُ عن مَن هذا وصفُه ونعتُه إلى عِبادةِ مَن ليس له مِن الأمْر شيءٌ، ولا عِندَه مِثقالُ ذرَّة مِن النَّفع، ولا له قُدرة وإرادة؟) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٨).

على كلِّ نَفْسٍ؛ ظِلِّ الشُّعورِ بأنَّ النَّفسَ غيرُ منفرِدَةٍ لحظةً واحدةً، وغيرُ متروكةٍ لِذَاتِها لحظةً واحدةً؛ فهناك حفيظٌ عليها رقيبٌ، يُحصِي كلَّ حَرَكةٍ وكُلَّ سكنةٍ، ويحفَظُ ما يصدُرُ عنها، لا يَنِدُّ عنه شيءٌ؛ وهذا التصوُّر كفيلٌ بأنْ يَنتفِضَ له الكِيانُ البشريُّ، وتستيقظَ فيه كُلُّ خالِجَةٍ، وكُلُّ جارحةٍ[1].

٥- يُستَفاد من قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَعدودةُ الأنفاسِ، متروكةٌ لأجَلٍ لا تعلَمُه؛ فهو بالنِّسبة لها غيبٌ لا سبيلَ إلى كَشْفِه، بينما هو مرسومٌ مُحدَّدٌ في عِلْم الله تعالى، لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، وكلُّ نفْسٍ مُوكَلٌ بأنفاسِها وأجَلِها حفيظٌ قريبٌ مُباشِرٌ حاضِرٌ، ولا يغفو ولا يَغْفُل ولا يُهْمِل؛ فهو حفيظٌ مِن الحَفَظَة، وهو رسولٌ من الملائِكَةِ، فإذا جاءتِ اللَّحظَةُ المرسومةُ الموعودةُ- والنَّفْسُ غافلةٌ مشغولةٌ- أدَّى الحفيظُ مُهِمَّتَه، وقام الرَّسولُ برِسالَتِه، وهذا التصوُّرُ كفيلٌ بأنْ يرتَعِشَ له الكِيانُ البشريُّ، وهو يُحِسُّ بالقَدَر الغيبيِّ يُحيطُ به، ويعرِفُ أنَّه في كلِّ لحظةٍ قد يُقبَض، وفي كُلِّ نَفَسٍ قد يَحينُ الأجلُ المحتومُ[2].

٦- قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، فقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يَتضمَّنُ وعدًا ووعيدًا؛ لأنَّه لَمَّا أُتِيَ بِحَرْف المُهْلَةِ في الجمَل المتقدِّمةِ ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ..﴾، وكان المُخاطَبونَ فريقَينِ: فريقٌ صالِحٌ، وفريقٌ كافِرٌ، وذَكَرَ أنَّهم إليه يُرجَعونَ؛ فالصَّالحونَ لا يُحِبُّون المُهلَةَ، والكافِرونَ بعَكْسِ حالِهم، فعُجِّلَتِ المَسَرَّةُ للصَّالحين، والمَسَاءَةُ للمُشركينَ بقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[3].

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هذه الآيةُ دلَّتْ على عِلْمِه المحيطِ بجميعِ الأشياءِ؛ الذي لا يَنِدُّ عنه شيءٌ في الزَّمانِ ولا في المكانِ، في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ، في البَرِّ ولا في البَحرِ، في جوفِ الأرضِ ولا في طِباقِ الجَوِّ، من حيٍّ ومَيِّتٍ ويابسٍ ورَطْبٍ، كما أفادتْ أيضًا عُمومَ عِلمِه تعالى بالكليَّاتِ والجُزئيَّاتِ، وفي هذا إبطالٌ لقولِ جمهورِ الفلاسفةِ أنَّ اللهَ يعلمُ الكليَّاتِ خاصَّةً، ولا يَعلَمُ الجزئيَّاتِ[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ...﴾ دقيقةٌ جليلةٌ، وهي: أنَّ قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لما كان قضيَّةً عقليَّةً محضة مجردة، ذَكَر بعده مِثالًا من الأمورِ المحسوسةِ الداخلةِ تحتَ القضيَّةِ العقليَّةِ الكليَّةِ المحضةِ المجرَّدة؛ ليصيرَ ذلك المعقولُ- بمعاونةِ هذا المثالِ المحسوسِ- مفهومًا لكلِّ أحدٍ؛ فقال أولًا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ثمَّ أكَّد هذا المعقولَ الكليَّ المجرَّدَ بجزئيٍّ محسوسٍ فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ وذلك لأنَّ أحدَ أقسامِ مَعلوماتِ اللهِ هو جميعُ دوابِّ البَرِّ والبَحرِ، والحسُّ والخيالُ قد وقَفَ على عظمةِ أحوالِ البرِّ والبحرِ، فذِكْرُ هذا المحسوسِ يَكشِفُ عن حقيقةِ عظمةِ ذلك المعقولِ[2].

٣- في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠، ١١).

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الحكمةُ مِن تَخصيصِ هذه الأشياءِ بالذِّكْرِ: أنَّ المعلومَ أو ما يتعلَّقُ به العِلْمُ: إمَّا موجودٌ، وإمَّا معدومٌ، والموجودُ إمَّا حاضِرٌ مشهودٌ، وإمَّا غائِبٌ في حُكم المفقودِ، وليس في الوجودِ شيءٌ غائِبٌ عن اللهِ تعالى، فعِلْمُه تعالى بالأشياءِ إمَّا عِلْمُ غيبٍ، وهو عِلْمُه بالمعدومِ، وإمَّا عِلْمُ شهادةٍ، وهو عِلْمُه بالموجودِ، وأمَّا أهلُ العِلم مِن الخَلْقِ فمِنَ الموجوداتِ ما هو حاضِرٌ مشهودٌ لدَيهم، ومنها ما هو حاضِرٌ غيرُ مشهودٍ؛ لأنَّه لم يَخْلُق لهم آلَةً للعِلم به؛ كعالَم الجِنِّ والملائكةِ مع الإنس، ومنها ما هو غائِبٌ عن شُهودِهم، وهم مستعِدُّونَ لإدراكِه، لو كان حاضِرًا، وما هو غائبٌ وهم غيرُ مستعِدِّينَ لإدراكِه لو حضَر، فكلُّ ما خُلِقوا غيرَ مستعدِّينَ لإدراكِه من موجودٍ ومعدومٍ؛ فهو غيبٌ حقيقيٌّ بالنِّسبةِ إليهم، وكلُّ ما خُلِقوا مُستعَدِّينَ لإدراكِه دائمًا أو في بعضِ الأحوال فهو- إنْ غاب عنهم- غيبٌ إضافيٌّ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى لنا في هذه الآيةِ أنَّ خزائِنَ عالَمِ الغَيبِ كلَّها عنده، وعنده مفاتيحُها وأسبابُها المُوصِلَةُ إليها، وأنَّ عنده مِن عِلْمِ الشَّهادة ما ليس عند غيرِه، وذَكَرَ على سَبيلِ المَثَل عِلْمَه بكلِّ ما في البرِّ والبحرِ مِن ظاهِرٍ وخفيٍّ، ثم خَصَّ بالذِّكْرِ ثلاثةَ أشياءَ مِمَّا في البرِّ: إحاطة عِلْمِه بكلِّ ورقةٍ تَسقُط مِن نَبْتَةٍ، وكلِّ حبَّة تسقُطُ في ظلماتِ الأرضِ، وكُلِّ رَطْبٍ ويابسٍ؛ فهذه الأشياءُ مِن عالَم الشَّهادةِ تدخُلُ في عالَم الغيبِ، ثم تَبْرُز في عالَم الشَّهادةِ، وعِلْمُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ منها على كَثرَتِها، ودِقَّةِ بعضِها وصِغَرِه، وتنقُّلُه في أطوارِ الخَلْقِ والتَّكوينِ، وما يَتْبَعُهما من الصُّوَر والمَظاهِرِ، وحَسْبُكَ هذا الإيماءُ مِن حِكمةِ تخصيصِها بالذِّكْرِ(١).

٤- قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لَمَّا جاءَ القُرآنُ العظيمُ بأنَّ الغيبَ لا يَعلمُه إلَّا اللهُ، كان جميعُ الطُّرُق التي يُرادُ بها التوصُّل إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨٢)

شيءٍ من عِلْمِ الغيب- غيرَ الوَحْيِ- مِنَ الضَّلالِ المُبِينِ، وبعضٌ منها يكون كُفْرًا؛ ولذا ثَبَتَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((مَنْ أتى عَرَّافًا فسأَلَه عن شيءٍ، لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلة))(١)، ولا خِلافَ بين العُلماء في مَنْعِ العِيافَةِ(٢)، والكَهانةِ(٣)، والعِرافةِ(٤)، والطَّرْقِ(٥)، والزَّجْرِ(٦)، والنُّجومِ(٧)، وكلُّ ذلك يدخُلُ في الكَهانة؛ لأنَّها تَشمَلُ جميعَ أنواعِ ادِّعاءِ الاطِّلاعِ على عِلْمِ الغَيبِ، وقد سُئِلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الكُهَّانِ، فقال: ((لَيْسُوا بِشَيْءٍ))(٨).

٥- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ دلَّ على إثباتِ عِلْمٍ لله تعالى، دون نَفْيِ عِلْمِ غيرِه، وذلك عِلْمُ الأمورِ الظَّاهرة، وقد عُطِفَ على جُملةِ ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، أو على جملةِ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ المشتملَتَينِ على إثباتِ عِلْمٍ لله ونَفْيِ عِلْمٍ عن غيره؛ لإفادةِ تعميمِ عِلْمِه تعالى بالأشياءِ الظَّاهِرَة المتفاوِتَةِ في

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) العِيافة: زَجرُ الطَّيرِ، والتَّفاؤُل بأسْمائِها وأصْواتها ومَمَرِّها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٠).

(٣) الكَهانة: ادِّعاءُ عِلمِ الغَيبِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٨١).

(٤) العِرافة: حِرفةُ العرَّافِ: وهو الذي يستدِلُّ على الأمورِ بأسبابٍ ومُقَدِّماتٍ يَدَّعي مَعرِفتَها بها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٣).

(٥) الطَّرْقُ: الضَّربُ بالحَصَى، وهو ضَربٌ مِنَ التكهُّنِ، وقِيل: هو الخطُّ في الرَّمْل. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٢١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٠).

(٦) الزَّجْرُ: هُو العِيافَةُ أيضًا، وهو ضَربٌ مِنَ التكهُّنِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٥).

(٧) هو ما يدَّعيه أهلُ التَّنجيمِ مِن علمِ الكَوائِنِ والحوادثِ التي لم تقع وستقَعُ في مستقبَلِ الزَّمان، كأخبارهم بأوقات هُبوبِ الرِّياح، ومجيءِ المَطَر، وظهورِ الحرِّ والبَردِ، وتغيُّرِ الأسعارِ، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمونَ أنَّهم يُدركون معرفَتَها بسيرِ الكواكب في مجاريها، وباجتماعِها واقترانِها، ويدعون أنَّها تتصَرَّفُ على أحكامِها، وتجري على قضايا مُوجِباتِها. يُنظر: ((معالم السنن)) للخطابي (٤/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٨) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٢).
وقولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَيسوا بشَيءٍ)) أخرجه البخاريُّ (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الظُّهورِ، بعدَ إفادَةِ عِلْمِه بما لا يَظهَرُ للنَّاسِ(١).

٦- لَمَّا كَشَفَ الله عن عظمةِ قَوْلِه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ بِذْكر البَرِّ والبحر في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾- كشَفَ عن عظمةِ البرِّ والبحر بقَوْلِه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ وذلك لأنَّ العقلَ يستحضِرُ جميعَ ما في وَجْهِ الأرض من المُدُن والقرى، والمفاوِزِ والجبالِ والتِّلالِ، ثم يَستحضِرُ كَمْ فيها من النَّجْم والشَّجَر، ثم يَستحضرُ أنَّه لا يتغيَّرُ حالُ ورقةٍ إلَّا والحقُّ سبحانه يعلَمُها، ثمَّ يتجاوَزُ من هذا المثال إلى مثالٍ آخَرَ أشَدَّ هيئةً منه، وهو قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾؛ وذلك لأنَّ الحبَّةَ في غاية الصِّغَر، وظُلُمات الأرضِ موضِعٌ يَبْقى أكبرُ الأجسامِ وأعظَمُها مَخفيًّا فيها، فإذا سمع أنَّ تلك الحبَّةَ الصغيرة المُلْقاةَ في ظلماتِ الأرض، على اتِّساعها وعَظَمتِها، لا تخرجُ عن عِلْم الله تعالى البتَّةَ، صارتْ هذه الأمثلة منبهةً على عظمةٍ عظيمةٍ، وجلالةٍ عاليةٍ من المعنى المشار إليه بقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ بحيث تتحيَّرُ العقولُ فيها، وتتقاصرُ الأفكارُ والألبابُ عن الوصولِ إلى مباديها، ثم إنَّه تعالى لَمَّا قَوَّى أمْرَ ذلك المعقولِ المَحْضِ المجرَّد بذِكر هذه الجزئيَّاتِ المحسوسَةِ- فبَعْدَ ذِكْرِها عاد إلى ذِكر تلك القضيَّةِ العقليَّة المحضةِ المجرَّدةِ بعبارةٍ أخرى فقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو عينُ المذكورِ في قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾(٢).

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، قد يقولُ قائلٌ: ما وَجْهُ إثباتِه تعالى في اللَّوحِ المحفوظِ والكتابِ الْمُبينِ ما لا يَخْفَى عليه، وهو بجَميعِه عالِمٌ لا يُخافُ نِسيانُه؟ قيل: للهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١).

تعالى فِعْلُ ما شاء. وجائِزٌ أنْ يكونَ كان ذلك منه امتحانًا منه لِحَفَظَتِه، واختبارًا للمُتَوكِّلينَ بكتابةِ أعمالهم؛ فإنَّهم فيما ذُكِرَ مأمورونَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، ثم بِعَرْضِها على ما أثْبَتَه اللهُ من ذلك في اللَّوح المحفوظِ، حتى أثبَتَ فيه ما أثبتَ كلَّ يومٍ. وقيل: إنَّ ذلِك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك لغيرِ ذلك ممَّا هو أعلمُ به، إمَّا بحُجَّةٍ يحتجُّ بها على بعضِ ملائِكَتِه، وإمَّا على بَني آدَمَ، وغير ذلك(١).

٨- في قولِه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أَسْنَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ التوفِّي إلى ذَاتِه المقدَّسةِ؛ لأنَّه لا يُنفرُ منه هنا؛ إذِ المرادُ به النومُ، وهو وسيلةٌ للدَّعةِ والرَّاحةِ، وأَسْنَدَه إلى غَيرِه في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنَّه يُنفر منه، إذ المرادُ به الموتُ(٢).

٩- إنَّما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ لأنَّه وصَفَ نَفسَه تعالى بقَهرِه إيَّاهم، ومِن صِفَةِ كُلِّ قاهرٍ شيئًا، أن يكونَ مُستعلِيًا عليه(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ذَكَر العلماءُ في الفائدةِ مِن جَعْلِ الملائكةِ مُوكَّلينَ على بَني آدَمَ يَكتُبون أعمالَهم وُجوهًا؛ منها: أنَّ المكلَّفَ إذا عَلِمَ أنَّ الملائكةَ- وهم الكرامُ الكاتبون- مُوكَّلونَ به؛ يُحصُونَ عليه أعمالَه، ويكتبونها في صحائف تُعرَضُ على رُؤوسِ الأشهادِ في مواقفِ القِيامة؛ فإذا عَلِم أنَّ أعمالَه تُكتَب عليه وتُعرَضُ على رؤوس الأشهاد، كان هذا أَزْجرَ له عن القبائحِ والمعاصِي، وأنَّ العبدَ إذا وَثِق بلُطفِ سَيِّدِه، واعتمَدَ على عَفْوِه وسَتْرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤ / ٥٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠).

لم يَحتشِمْ منه احتشامَه مِن خَدَمِه المطَّلعين عليه. ومنها: أنَّه يحتملُ في الكتابةِ أنْ يكونَ الفائدةُ فيها أنْ تُوزَنَ تلك الصَّحائفُ يومَ القيامةِ. ومنها: أنَّ الله تعالى يَفعلُ ما يشاءُ ويَحكُمُ ما يُريد، ويجِبُ علينا الإيمانُ بكلِّ ما ورَدَ به الشرعُ، سواء عقَلْنا الوجهَ فيه أو لم نعقِلْ(١).

١١- في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ دليلٌ على ثُبُوتِ عِصْمَةِ الملائكةِ على الإطلاقِ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾(٢).

١٢- الجَمْعُ بين قولِه هنا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقولِه: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقولِه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أنَّ المُتَوفِّي في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، فإذا حضَرَ أجَلُ العبدِ أَمَرَ اللهُ تعالى ملَكَ الموتِ أن يقبِضَ رُوحَه، ولِمَلَكِ الموتِ أعوانٌ من الملائكةِ، يأمُرُهم بِنَزْعِ رُوحِ ذلك العبدِ مِن جَسَدِه، فإذا وَصَلَتْ إلى الحُلقومِ تَوَلَّى قَبْضَها مَلَكُ الموتِ بِنَفْسِه، فحصل الجمعُ بين الآياتِ(٣).

١٣- وَصْفُ الاسمِ الكريم بـ(مولاهم الحَقِّ) في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٦).

قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائل: أوَلَيسَ الذي يَقبِضُ الأرواحَ ملَكُ الموت؛ فكيف قيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، والرُّسلُ جملةٌ وهو واحد؟ أوَليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]؟ قيل: جائزٌ أنْ يكون اللهُ تعالى أعان ملَكَ الموتِ بأعوانٍ من عنده، فيتولَّوْن ذلك بأمْرِ ملَك الموت، فيكون (التوفِّي) مضافًا- وإنْ كان ذلك من فِعل أعوان ملَك الموتِ- إلى ملَك الموت؛ إذ كان فِعلُهم ما فعلوا من ذلك بأمْره، كما يُضاف قتْلُ مَن قتَلَ أعوانُ السلطان ،وجَلْد مَن جلدوه بأمْر السلطان، إلى السُّلطان، وإنْ لم يكُن السلطان باشرَ ذلك بنفسه ولا وَلِيَه بيده. وقد تأوَّل ذلك كذلك جماعةٌ من أهل التأويل). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٠).

مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ يدلُّ على أنَّ رَدَّهُم إليه حَتْمٌ؛ لأنَّه هو سيِّدُهم الحقُّ الذي يتولَّى أمورَهم، ويَحْكُم بينهم بالحَقِّ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

- قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ على طَريقةِ التخلُّصِ، والمناسبةُ في هذا التخلُّص هي الإخبارُ بأنَّ اللهَ أعلَمُ بحالةِ الظَّالمينَ؛ فإنَّها غائبةٌ عن أعيُنِ النَّاسِ، فاللهُ أعلمُ بما يناسِبُ حالَهم من تَعجيلِ الوعيدِ أو تأخيرِه، وهذا انتقالٌ لبيانِ اخْتِصاصِه تعالى بعلمِ الغيبِ، وسَعَةِ عِلمِه، ثُمَّ سَعَةِ قدرتِه، وأنَّ الخلقَ في قبضَةِ قدرتِه(٢).

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿وَعِنْدَهُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: عِندَه لا عِنْدَ غيرِه(٣).

- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قُدِّمَ ذِكْرُ البَرِّ؛ لأنَّ الإنسانَ قد شاهَدَ أحوالَ البَرِّ، وكثرةَ ما فيه من المُدُنِ والقُرى والمَفاوِزِ والجبالِ والتِّلالِ، وكثرةَ ما فيها من الحيوانِ والنَّباتِ والمعادِنِ. وأمَّا البحرُ فإحاطةُ العَقلِ بأحوالِه أقَلُّ إلَّا أنَّ الحِسَّ يدلُّ على أنَّ عجائِبَ البِحارِ في الجملةِ أكثرُ، وطُولُها وعَرْضُها أعظَمُ، وما فيها من الحيواناتِ وأجناسِ المخلوقاتِ أعجَبُ. فإذا استحضَرَ الخَيالُ صورةَ البحرِ والبَرِّ على هذه الوجوهِ، ثمَّ عَرَفَ أنَّ مجموعَها قِسْمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حقيرٌ من الأقسامِ الدَّاخِلةِ تحت قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيصيرُ هذا المثالُ المحسوسُ مُقَوِّيًا ومُكَمِّلًا للعظمةِ الحاصِلَةِ تحت قولِه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1]. أو قُدِّم ذِكرُ البَرِّ على البَحرِ على طريقةِ الترقِّي مِن الأدْنَى إلى ما هو أعظمُ منه؛ فإنَّ قِسمَ البَحرِ من الأرضِ أعظمُ مِن قِسم البَرِّ، وخفاياه أكثرُ وأعظمُ[2].

- قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لقَصْدِ زيادةِ التَّعميمِ في الجزئيَّاتِ الدَّقيقةِ؛ فإحاطَةُ العِلْمِ بالخفايا مع كونِها مِن أضْعَفِ الجزئيَّاتِ مؤذِنٌ بإحاطَةِ العِلْمِ بما هو أعظَمُ وأَوْلى به[3].

- وزيادةُ حرفِ ﴿مِن﴾؛ لتأكيدِ النَّفْيِ؛ ليفيدَ العمومَ نصًّا[4].

- قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تأكيدٌ لمضمونِ ما قبله، وإيذانٌ بأنَّ المرادَ هو الاختصاصُ من حيثُ العلمُ، لا مِن حيثُ القدرةُ، أي: إنَّ ما تستعجلونَه من العذابِ ليس مقدورًا لي حتى أُلْزِمَكم بتعجيلِه، ولا معلومًا لدَيَّ لِأُخبِرَكم وقتَ نزولِه، بل هو مِمَّا يختصُّ به تعالى قدرةً وعلمًا، فيُنْزِلُه حَسَبما تقتضيه مشيئَتُه المَبنِيَّة على الحِكَم والمصالِحِ[5].

- وفي الآيةِ حُسْنُ ترتيبٍ لهذه المعلوماتِ؛ فبدَأَ أولًا بأمْرٍ معقولٍ لا نُدرِكُه نحن بالحِسِّ، وهو قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، ثم ثانيًا بأَمرٍ نُدرِكُ كثيرًا منه بالحِسِّ، وهو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وفيه عمومٌ، ثمَّ ثالثًا بجُزْأَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٣).

لطيفينِ؛ أحدُهما عُلويٌّ: وهو سقوطُ وَرقةٍ مِن عُلْوٍ إلى أسفَلَ، والثاني سُفْلِيٌّ: وهو اختفاءُ حبَّةٍ في بطن الأَرضِ(١).

٢- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صيغةُ قَصْرٍ؛ لتعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ، أي: هو الذي يتوفَّى الأنفُسَ دون الأصنامِ؛ فإنَّها لا تَملِكُ موتًا ولا حياةً(٢).

- وفيه إطلاقُ التَّوفِّي على النَّوْمِ؛ لشَبَهِ النَّومِ بالمَوتِ في انقضاءِ الإدراكِ والعَمَلِ؛ لِمَا بينهما من المشاركَةِ في زَوالِ الإحساسِ والتَّميِيزِ؛ فإنَّ أصْلَ التوفِّي قبضُ الشَّيء بتمامِه. وفائدته: التقريبُ لكيفيَّةِ البَعْثِ يومَ القيامة؛ فالمراد بقوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يُنيمُكم بقرينةِ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي في النَّهار(٣).

- وتخصيصُ التوفِّي باللَّيلِ والجَرْح بالنَّهارِ، مع تحقُّقِ كُلٍّ منهما فيما خُصَّ بالآخَرِ؛ للجَرْيِ على سَنَنِ العادةِ(٤)، فوَقَع الاقتصارُ على الإخبارِ بِعِلْمِه تعالى ما يَكسِبُ النَّاسُ في النَّهار دون الليل؛ رَعْيًا للغالِبِ؛ لأنَّ النهارَ هو وقتُ أكثرِ العملِ والاكتسابِ(٥).

- وتوسيطُ قولِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ بينَ قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ لقَصْدِ الامتنانِ بنِعمةِ الإمهالِ، أي: ولولا فَضْلُه لَمَا بَعَثَكم في النَّهارِ؛ مع عِلْمِه بأنَّكم تكتسبونَ في النَّهارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).

عبادةَ غَيرِه، ويكتسِبُ بعضُكم بعضَ ما نهاهُم عنه؛ كالمؤمنين(١).

- وصِيغةُ الماضي في قوله: ﴿جَرَحْتُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التحقُّق(٢).

٣- قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

- قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: وَ﴿يُرْسِلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿الْقَاهِرُ﴾ فيدلُّ على التَّخصيصِ بقَرينةِ المقامِ، أي: هو الذي يُرسِلُ عليكم حَفَظةً دونَ غَيرِه، والقَصْرُ هنا حقيقيٌّ، فلا يستدعي رَدَّ اعتقادِ مخالِفٍ، والمقصودُ الإعلامُ بهذا الخَبَر الحقِّ؛ ليَحْذَرَ السَّامعونَ من ارتكاب المعاصي(٣).

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿حَفَظَةً﴾؛ للاعتناءِ بالمقَدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤَخَّرِ(٤).

- ولفظَةُ (على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مُشعِرَةٌ بالعُلُوِّ والاستعلاء؛ لتَمَكُّنِ الحَفَظةِ منَّا جُعِلوا كأنَّ ذلك علينا، ويَحتملُ أن يكون متعلِّقًا بـ﴿حَفَظَةً﴾ أي: ويُرسِلُ حفَظَةً عليكم، أي: يَحفظون عليكم أعمالَكم، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، كما تقول: حَفِظْتُ عليك ما تَعْمَلُ(٥).

٤- قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ للاختصاصِ، أي: له لا لغَيرِه، فإنْ كان المرادُ مِن الحُكْمِ جِنْسَ الحُكْم فقَصْرُه على الله؛ إمَّا حقيقيٌّ للمبالَغةِ؛ لعدمِ الاعتدادِ بحُكْم غيرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٨)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٨).

وإمَّا إضافيٌّ للرَّدِّ على المشركين، أي: ليس لأصنامِكم حُكْمٌ معه. وإنْ كان المرادُ مِن الحُكْم الحِسابَ، أي: الحُكم المعهود يومَ القيامةِ، فالقصْرُ حقيقيٌّ، وربَّما تَرجَّحَ هذا الاحتمالُ بقوله عَقِبَه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، أي: ألَا له الحِسَاب، وهو أسرعُ من يحاسِبُ، فلا يتأخَّر جزاؤُه[1].

- قوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ تذييلٌ؛ ولذلك ابتُدِئَ بأداةِ الاستفتاحِ المؤْذِنَةِ بالتَّنبيه إلى أهميَّةِ الخَبَر[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٩).

الآيات (٦٢- ٦٧)

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي: تذلُّلًا، وأصل (ضرع): يدلُّ على لِينٍ في الشَّيء(١).

﴿كَرْبٍ﴾: أي: غَمٌّ شديدٌ، وأصل (كرب): يدلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ(٢).

﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: أي: يَخلِطَ أمرَكم، وأصل (لبس): يدلُّ على مخالَطةٍ ومُداخَلةٍ(٣).

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا مُختلفينَ، أو أحزابًا متفرِّقينَ، وأصل (شيع): يدلُّ على مُعاضدةٍ ومُساعَفةٍ، وعلى بَثٍّ وإشادةٍ(٤).

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾: أي: يُسَلِّطَ بعضَكم على بعضٍ بالقِتالِ والحرْبِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

فتتقاتلوا. وأصلُ (ذوق): اختبارُ الشَّيءِ من جهة تطعُّمٍ[1]، وأصلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها[2].

﴿يَفْقَهُونَ﴾: أي: يَفْهَمون؛ يُقال: فَقِهْتُ الكلامَ: إذا فَهِمْتَه حقَّ فَهْمِه، والفِقْه: هو التوصُّلُ إلى عِلْم غائبٍ بعِلْم شاهدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلْم به[3].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَسألَ المشركين عمَّن يُنَجِّيهم من ظُلُماتِ البَرِّ والبَحر، وهم يَدْعُونَه مُظْهِرينَ التذلُّلَ والخُضُوع، ويَدْعون سرًّا، يقولون: لَئِنْ أَنجَيْتَنا مِمَّا نحن فيه يا ربُّ لنكوننَّ لك من الشَّاكرينَ، المُعترفينَ بنِعَمِك، المُخْلصِينَ لك في العبادَةِ.

ثمَّ بيَّن أنَّهم بعدَ النَّجاةِ يُشركونَ بربِّهم سِواه، فقال تعالى: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: هو اللهُ الذي يُنَجِّيكم من هذه الضَّائقَةِ، ومن كُلِّ كَرْبٍ يمرُّ بكم، ثم أنتم تُشرِكونَ به غيرَه في حال الرَّخاءِ.

وأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول لهم أيضًا: إنَّ الله هو القادِرُ على أنْ يبعثَ عليهم عذابًا يأتيهم مِن فوقِ رُؤُوسِهم كالرَّجْم، أو مِنْ تحت أرجُلِهم كالخَسْف، أو يَخْلِطَهم فِرَقًا مختلفةً، وأحزابًا مُتفرِّقةً، ويُسَلِّطَ بعضَهم على بعضٍ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤))، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

فيَقتُل بعضُهم بعضًا، ثم أمَرَ الله تعالى نبيَّه أن ينظرَ كيف ينَوِّعُ لهم الحُجَجَ، ويُظْهِرُ لهم الحقَّ؛ لعلَّهم يَفهمونَه، ويتركونَ ما هم فيه من الشِّرْكِ بالله تعالى.

ثم أخبَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ قومَه، وهم قريشٌ، كذَّبوا بالقرآنِ، وهو الحقُّ، وأمَرَه أنْ يقولَ لهم: إنَّه ليس عليهم بحَفيظٍ ولا رقيبٍ، إنَّما عليه البلاغُ.

ثمَّ هدَّدهم سبحانه وتوعَّدهم قائلًا: لكلِّ خَبَرٍ يُخبِرُ به الله تعالى وقْتٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وسوف يعلَمُ المُشْركون ما يُوعَدونَ به من العذابِ، حين يَحُلُّ بهم في وقته الذي أرادَه الله تعالى.

تفسيرُ الآيات:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ ذِكْرُ الدَّلائلِ على أُلوهيَّتِه تعالى من العِلم التامِّ، والقُدرةِ الكامِلَةِ؛ ذَكَرَ نوعًا من أثرِهما، وهو الإنجاءُ من الشدائدِ[1]، فقال:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للمشركينَ مُلْزِمًا لهم بما أثبتوه من توحيدِ الربوبيَّة، على ما أنكروا من توحيدِ الألوهيَّة: مَنِ الذي يُنجِّيكم في مَفاوزِ البَرِّيَّةِ البَعيدةِ الأطرافِ، إذا ضَلَلْتم فيها فتحيَّرتُم، وفي اللُّجَجِ البَحريَّة، إذا الرِّيحُ العاصِفةُ هاجتْكم، أو أخطأْتُم فيها طريقَكم، فتعَذَّر عليكم الخروجُ من تلك الشَّدائدِ[2]؟

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

أي: تَدْعونَه مُظهرينَ التذلُّلَ والفَقْرَ والخُضوعَ، وتَدْعونه سِرًّا، قائلين وأنتُم في تلك الحال: لئنْ أخرجْتَنا يا ربُّ، مِن هذه الضائقةِ والشِّدةِ التي وقَعْنا فيها، لنكُونَنَّ ممن يعترف بنِعْمَتِك، ويوحِّدُك بالشُّكر، ويخلصُ لك العبادةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: اللهُ هو القادِرُ على تَفريجِ الكَرْبِ إذا حَلَّ بكم، فيُنَجِّيكم من عَظيمِ ما حلَّ بكم في البَرِّ والبَحرِ؛ مِن هَمِّ الضَّلالِ، وخَوْفِ الهلاك، ومن كُلِّ كَرْبٍ آخَرَ، لا آلِهَتُكم التي تُشْرِكون بها في عِبادتِه، وتعبدونَها من دونه؛ فهي لا تَقدِرُ لكم على نَفْعٍ ولا ضُرٍّ(٢).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: ثم أنتُم بعدَ تفضُّلِه عليكم بكَشْفِ كَرْبِكم، تُشْرِكون به في حالِ الرَّخاءِ، فلا تَفُونَ لله تعالى بما قُلْتُم، وتنسَونَ نِعَمَه عليكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٥-٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، (تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾(١).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كانوا بإشراكِهم كأنَّهم يَظنُّون أنَّ الشِّدةَ زالتْ عنهم زوالًا لا يعودُ، وكان اللَّائقُ بهم دوامَ التذلُّلِ؛ إمَّا وفاءً وإما خوفًا- أخبرَهم ترهيبًا لهم من سَطْوَتِه، وتحذيرًا مِن بالِغِ قُدرَتِه، أنَّ شِدَّتَهم تلك التي أذلَّتْهم لم تَزَلْ في الحقيقةِ؛ فإنَّ قدرةَ المَلِك عليها حالةَ الرَّخاءِ كقُدرَتِه عليها في وقْتِها سواءً؛ فإنَّه خالِقُ الحالتَينِ وأسبابِهما وما فيهما، فقال(٢):

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ: إنَّ الذي ينجِّيكم من ظُلُماتِ البَرِّ

---

(١) قال ابن جرير: (والصَّوابُ من القول عندي: أنْ يُقال: إنَّ الله تعالى توعَّد بهذه الآيةِ أهلَ الشِّرك به من عبَدَةِ الأوثان، وإيَّاهم خاطب بها؛ لأنَّها بين إخبارٍ عنهم، وخطابٍ لهم... وأمَّا الذين تأوَّلوا أنه عُنِي بجميع ما في هذه الآية هذه الأمَّة، فإني أراهم تأوَّلوا أنَّ في هذه الأمَّةِ مَن سيأتي مِن معاصي الله، وركوبِ ما يُسخط اللهَ، نحوَ الذي ركِب مَن قَبلهم مِن الأممِ السَّالفة مِن خِلافِه، والكفرِ به، فيَحُلُّ بهم مثلُ الذي حَلَّ بمَن قبلهم من المَثُلاتِ والنِّقمات) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠٨).

وممَّن قال من السَّلف أنَّ المقصود بالخطاب هم أمَّة محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام: ابنُ عبَّاس، وأُبيُّ بنُ كعب، وقتادةُ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٣).

والبحر، ومِن كُلِّ كَرْبٍ، ثم تعودونَ للإشراكِ به؛ قادرٌ على إرسالِ العذابِ إليكم بالرَّجْم أو الطُّوفانِ، وغير ذلك مما ينزِلُ عليكم من فوقِ رُؤوسِكم، أو بالخَسْفِ وما أشبَهَه، مِمَّا يأتيكم من تحتِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦- ٦٩].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾.

أي: أو يَخلِطَكم فِرَقًا مختلفةً، وأحزابًا مفترِقَةً(٢).

عن جابرِ بن عبدِ الله رضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزَلَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾. قال: أعوذُ بوجهِك، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: أعوذُ بوجْهِك، فلما نزَلتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال: هاتانِ أهوَنُ، أو: أيسَرُ))(٣).

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ زَوَى(٤) ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزينِ: الأحمرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ ربِّي لِأمَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٦، ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٩، ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).
(٣) رواه البخاري (٧٣١٣).
(٤) زَوَى: جمَعَ وطَوى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢٠).

أَلَّا يُهْلِكَها بسَنَةٍ[١] عامَّةٍ، وألاَّ يُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، فيستبيحَ بَيضَتَهم[٢]، وإنَّ ربِّي قال: يا محمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأُمَّتِك أَلَّا أُهْلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأَلَّا أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، يَستبيحُ بيضَتَهم، ولو اجتمَعَ عليهم مَنْ بأقطارِها- أو قال مَنْ بينَ أقطارِها- حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا))[٣].

وعن جابرِ بن عَتيكٍ؛ أنه قال: ((جاءَنا عبدُ اللهِ بنُ عمَرَ في بني معاوِيَةَ- قريةٍ من قُرى الأنصارِ- فقال لي: هل تَدري أين صلَّى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَسْجِدِكم هذا؟ فقلْتُ: نعم. فأشرْتُ إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تَدْري ما الثَّلاثُ التي دَعا بهنَّ فيه؟ فقلتُ: نعمْ. فقال: وأَخْبِرْني بهنَّ، فقلتُ: دعا أَلَّا يُظْهِرَ عليهم عدوًّا مِن غَيرِهم، ولا يُهْلِكَهم بالسِّنينَ، فأُعْطِيَهُما، ودعا بأَلَّا يَجعَلَ بأسَهم بينهم، فمُنِعَها. قال: صَدَقْتَ، فلا يزالُ الهَرْجُ[٤] إلى يومِ القيامةِ))[٥].

(١) بَسنةٍ: أي: قحْطٍ وجَدْبٍ؛ يُقَالُ: أَسْنَتَ فهوَ مُسْنِتٌ: إذا أجْدَب. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٠٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٦٩).

(٢) فيستبيحَ بَيضَتَهم: أي: يستأصل ويُهلك. بيضتَهم، أي: جماعتَهم وأصلَهم ومُجتمعَهم وموضعَ سُلطانهم، ومُستقرَّ دَعوتِهم، والبيضةُ أيضًا العزُّ والمُلك، وبيضةُ الدار: وسطُها ومعظمها. قيل أراد: إذا أُهلِك أصلُ البيضةِ كان هلاكُ كلِّ ما فيها من طعم أو فرخ، وإذا لم يُهلَك أصلُ البيضة ربَّما سَلِم بعضُ فراخها. وقيل: أراد بالبيضة الخوذة، فكأنَّه شبَّه مكانَ اجتماعهم والتئامهم ببَيضةِ الحديد. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) الهَرْج: أَي: القَتْلُ، والهرج أيضًا الفِتْنَةُ والاختلاط؛ يُقَال: هَرَج النَّاسُ يَهرِجون هَرْجًا، إذا اختَلطوا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٥٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٧).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٠)، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢١٤٠)، والداني في ((السنن الواردة في الفتن)) (٥).

جوَّد إسناده وقوَّاه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٢٦٦)، ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٢٤).

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

أي: ويُسلِّطَ بعضَكم على بعضٍ، فيَقتُلَ بعضُكم بعضًا في الفِتنةِ(١).

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

أي: انظرْ- يا محمَّدُ- إلى تنويعِ حُجَجِنا على هؤلاء المشركينَ، وإيضاحِنا للحَقِّ؛ ليفهموا ذلك ويتدبَّروه، ويزدَجِروا عمَّا هم عليه من الشِّرْك بالله تعالى(٢).

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ ربَّما حصَلَ له اللَّومُ بسبب قومِه؛ كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا المقام بِمَعْرِضِ أن يَخافَ عاقبةَ ذلك، ويقول: فماذا أصنَعُ بهم؟ فقال تعالى- مُعلِمًا أنَّه ليس عليه بأسٌ مِن تكذيبِهم(٣):

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾.

أي: وكذَّبتْ قريشٌ- يا محمَّدُ- بالقرآنِ الذي جِئْتَهم به، وهو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا شَكَّ يعتريه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

واختار عوْدَ الضمير في ﴿بِهِ﴾ إلى القرآن: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٨٥)، وابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٣٠٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره القرطبي)) (٧/ ١١)، وابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٧٧)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٦٠) ، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٢٨٦). =

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: قل لهم- يا محمَّدُ-: لستُ عليكم بحَفيظٍ ولا رقيبٍ، ولستُ مُوَكَّلًا بكم، وإنَّما عليَّ البلاغُ، فأبلِّغُكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم[1].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

أي: لكلِّ خَبَرٍ وقتٌ يستقرُّ فيه، وزمانٌ لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ، وغايةٌ يَتبيَّنُ عندها حَقُّه من باطِلِه، وصِدْقُه مِن كَذِبِه[2].

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وسوف تعلمونَ- أيُّها المُشركونَ المُكذِّبونَ- ما تُوعَدُون به مِن العذابِ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في هذا الإجمالِ مِن التهديدِ ما يُزَلْزِل القُلوبَ؛ إنَّها الطُّمأنينةُ الواثقةُ بالحَقِّ، الواثقةُ بِنِهايةِ الباطِلِ مهما تَبجَّح، الواثقةُ بأَخْذِ اللهِ للمُكذِّبينَ في الأجَلِ المرسومِ، الواثقةُ مِنْ أنَّ كُلَّ نبأٍ إلى مُسْتَقَرٍّ، وكلَّ حاضرٍ إلى مصيرٍ، وما أحوَجَ أصحابَ الدَّعوةِ إلى اللهِ-

= وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّ الضمير في ﴿بِهِ﴾ يحتملُ عودُه إلى الوعيدِ والعذابِ الذي تقدَّم ذِكرُه في الآيةِ السابقة، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٣١٠-٣١١)، ويرَى أنَّ معنى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، أي: العذاب الذي لا شكَّ فيه أنَّه واقعٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

في مواجَهَةِ التَّكذيبِ من قومِهم، والجَفْوةِ مِن عشيرَتِهم، والغُربَةِ في أَهْلِهِم، والأَذَى والشِّدَّةِ والتَّعَبِ واللَّأْوَاء، ما أَحْوَجَهم إلى هذه الطُّمأنينةِ الواثِقَةِ التي يَسْكُبُها القرآنُ الكريمُ في القلوبِ[(١)]!

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الدَّلالةُ على كَمالِ القُدرة الإلهيَّةِ، وكمالِ الرَّحْمة والفضْل والإحسانِ[(٢)].

٢- يُستَفادُ مِن قَولِه: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...﴾ أنَّ الهولَ والكَرْبَ الذي ترتعِدُ له الفرائِصُ ليس مؤجَّلًا دائمًا إلى يومِ الحَشْر والحِساب؛ فهم يُصادِفون الهولَ في ظُلُماتِ البَرِّ والبحر، فلا يتوجَّهونَ عند الكرب إلَّا لله، ولا يُنَجِّيهم مِنَ الكَرْبِ إلَّا اللهُ، ولكنَّهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشِّرْكِ عند اليُسْرِ والرَّخاء[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يَكونوا قَبْلَ الوُقوعِ في هذه الشَّدائِدِ شاكرينَ لِأَنْعُمِه[(٤)].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ وَضَعَ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ مَوْضِعَ (لا تَعبُدون)؛ تَنبيهًا على أنَّ مَن أشْرَكَ في عِبادَةِ الله تعالى؛ فكأنَّه لم يَعْبُدْه[(٥)].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ....﴾ المقصودُ التَّهديدُ بتَذكيرِهم بأنَّ القادِرَ مِن شأنِه أن يُخافَ بَأْسُه[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٣).

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ لَمَّا كان لفظُ العذاب في قوله: ﴿عَذَابًا﴾ نكرةً؛ جازَ حَمْلُه على كلِّ عذابٍ يأتي من فوقِ الرؤوسِ ومن تحت الأرجُلِ، ولولا أنَّ هذا الإبهامَ مرادٌ لأجْلِ هذا الشُّمولِ، لصَرَّحَ بالمرادِ، كمَّا صَرَّح به في مِثْلِ قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦- ١٧]، وحِكمةُ مِثل هذا الإبهامِ في القُرآنِ أنْ ينطَبِقَ معنى اللَّفْظِ على ما يدلُّ عليه ممَّا يحدُث في المستقبَل، أو ينكشِفُ للنَّاسِ فيه ما كان خفيًّا عنهم؛ إذ ورد في وَصْفِ القرآنِ أنَّه لا تَنتهي عجائِبُه، وأنَّ فيه نبأَ مَن قَبْلَ الذين نَزَلَ في زمانهم، ومَنْ كان معهم، ومَن يَجيءُ بَعْدَهم، وما في هذه الآيةِ يشمَلُ ما لم يكُنْ في زمَنِ تنزيلِ القرآنِ ولا فيما قَبْلَه بحسَبِ ما يَعلم البَشَرُ؛ فقد أرسل اللهُ على الأمَمِ في الحروبِ المعاصِرَة عذابًا مِن فَوْقِها بما تقذِفُه الطَّيَّاراتُ من المقذوفاتِ الناريَّة، والسُّمومِ البُخاريَّة والغازِيَّة التي لم تُعْرَف من قبلُ، وعذابًا من تحتَها بما يتفجَّرُ من الألغامِ الناريَّة، وبما تُرسِلُه المراكبُ الغوَّاصةُ في البحرِ التي اختُرِعَت في هذا العصرِ، ولَبَسَها شِيَعًا متعادِيَةً، وأذاقَ بعضَها بأسَ بعضٍ، فحَلَّ بها مِنَ التقتيلِ والتَّخريبِ ما لم يُعهَدْ له نظيرٌ في الأرض[(١)].

٧- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ عَطَفَ عليه ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ لأنَّ مِن عواقِبِ ذلك اللَّبْسِ التقاتُلَ[(٢)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ عظيمُ التَّوبيخِ لهم، ودقيقُ التقريعِ، وذلك لأنَّهم كان يَنبغي عليهم أن يُسَرُّوا بسِيادَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٤).

لكونِه منهم؛ لأنَّ القبيلةَ إذا ساد أحدُهم عَزَّتْ به؛ فإنَّ عِزَّه عِزُّها، وشَرَفَه شَرَفُها، ولا سيَّما إذا كان مِن بَيْتِ الشَّرَفِ، ومَعْدِنِ السِّيادة، وإذا سَفُلَ أحدُها اهتمَّتْ به غايةَ الاهتمامِ، وسَتَرَتْ عيوبَها مهما أمكَنَها؛ فإنَّ عارَه لاحِقٌ لها[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الاستفهامُ المُسْتَعْمَل في قوله: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ يراد به التقريرُ والإنكارُ والتَّوبيخُ، والتوقيفُ على سُوءِ مُعتقَدِهم عند عِبادةِ الأصنامِ، وترْكِ الذي يُنجِّي من الشَّدائِدِ، ويُلجأُ إليه في كشْفِها؛ لكَوْنِ ذلك لا يُنازِعونَ فيه بحَسَب عَقائِد الشِّرْك[2].

- وإعادة الأَمْرِ بالقَوْلِ ﴿قُل﴾؛ للاهتمامِ[3].

- وخَصَّ لَفْظَ ﴿الظُّلُمَات﴾ بالذِّكرِ؛ لِمَا تَقرَّرَ في النُّفوسِ مِن هَولِ الظُّلمةِ[4].

٢- قَوْلُه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ قَدَّمَ المُسْنَد إليه ﴿اللَّهُ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: اللهُ يُنَجِّيكم لا غَيْرُه؛ ولأجل ذلك صَرَّحَ بالفِعْل المستفهَمِ عنه ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾[5].

- وفيه إطنابٌ؛ حيث زاد قولَه: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ[6].

- قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فيه تقديمُ المُسنَد إليه ﴿أَنْتُمْ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ لمجرَّدِ الاهتمامِ بخَبرِ إسنادِ الشِّرْك إليهم، أي: أنتم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذين تتضرَّعونَ إلى الله باعترافِكم، تُشْركونَ به من قَبْلُ ومِن بَعْدُ(١).

– وجاء بالفِعل ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لإفادَةِ تجدُّد شِرْكِهم، وأنَّ ذلك التجدُّدَ والدَّوامَ عليه أعْجَبُ(٢).

٣- قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

– قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، عَقَّبَ به ذِكْرَ النِّعمَة التي في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ بذِكْرِ القُدرةِ على الانتقامِ؛ تخويفًا للمُشركينَ(٣)، ولبيانِ أنَّه القادِرُ على إلقائِهم في المهالِكِ إثْرَ بيانِ أنَّه هو المنَجِّي لهم منها، وفيه وعيدٌ ضمنيٌّ بالعذابِ؛ لإشراكِهم المذكورِ(٤).

– وتعريفُ المسنَد والمُسنَد إليه في قوله: ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ أفاد القَصْرَ؛ فأفاد اختصاصَه تعالى بالقُدرة على بَعْثِ العذابِ عليهم، وأنَّ غيرَه لا يَقْدِر على ذلك؛ فلا يَنبغي لهم أن يَخْشَوُا الأصنامَ، ولو أرادوا الخيرَ لأنفُسِهم، لخافوا اللهَ تعالى، وأفرَدُوه بالعِبادةِ لِمَرْضاتِه، فالقَصْرُ المستفادُ إضافيٌّ(٥).

– وقيل: لم يَصُغْ قولَه: ﴿الْقَادِرُ﴾ صِيغةَ مبالغةٍ في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾؛ لأنَّهم لم يكونوا يُنْكِرونَ قُدرَتَه، إنما كانوا يَدَّعونَ المشارَكَةَ التي نفاها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٤).

بالتَّخصيصِ، على أنَّ التعريفَ يُفيدُ به المبالغة[١].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿عَذَابًا﴾؛ للاعتناءِ به، والمسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المبعوثِ مِمَّا يضرُّهم، ولتهويلِ أمْرِ المؤخَّر[٢].

- قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ﴾ على قراءةِ (وَنُذِيقَ) بنونِ العَظَمَةِ، يكون فيه التفاتٌ؛ لتهويلِ الأمْرِ، والمبالغةِ في التحذيرِ، ونِسبةُ ذلك إلى اللهِ على سبيلِ العَظَمَةِ والقُدْرَةِ القاهِرةِ[٣].

- قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾: في الأمْرِ بالنظر ﴿انْظُرْ﴾ تنزيلٌ للمعقولِ منزِلَةَ المحسوسِ؛ لِقَصْدِ التعجُّبِ منه[٤].

- قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابٌ لسؤالِ سائلٍ عن فائِدَةِ تصريفِ الآياتِ، وذلك رجاءَ حُصُولِ فَهْمِهم؛ لأنَّهم لعنادِهم كانوا في حاجَةٍ إلى إحاطةِ البيانِ بأفهامِهم؛ لعلَّها تتذكَّر وتَرْعَوي[٥].

- وفيه تَكرارٌ لِمَا سبَقَ نظيرُه في هذه السُّورة مع الاختلافِ في ختامِ كلِّ آيةٍ، وهي قولُه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، وهنا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، وإنَّما كرَّره طلبًا للرغبةِ في إيمانِ المذكورينَ؛ إذِ التَّقديرُ: انظُرْ كيفَ نُصَرِّفُ الآياتِ (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)، أي: يُعْرِضون عنها، فلا تُعْرِضْ عنهم، بل كرِّرْها لهم؛ (لعلَّهم يَفْقَهون)، أي: يَفهمون؛ وإنَّما ختَم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٨٦).

الأُولى بقوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، والثانيةَ بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيءِ أقبحُ من عدم فَهْمِه، فوُصِفوا بالأوَّلِ في الآيةِ الأولى؛ تَبَعًا لِما وُصِفوا به قبْلَها من قسوةِ قلوبِهم، ونسيانِهم ما ذُكِّروا به وغيرِهما، وذلك مفقودٌ في الثانيةِ[1].

٤- قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

- التَّعبيرُ عنهم بـ﴿قَوْمُكَ﴾ للتَّسجيلِ عليهم بسوءِ مُعامَلَتِهم لِمَن هو من أنْفُسِهم[2]، والمراد: بَعْضُهم؛ فإنَّ منهم أفاضِلَ المُسلمينَ والصِّديقَ وعليًّا رَضِيَ اللهُ عنهما[3].

- والتعديةُ بـ(على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لتضمُّنه معنى الغَلَبَة والسُّلْطة، أي: لستُ بقَيِّمٍ عليكم، يمنعُكم من التكذيبِ[4].

٥- قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يُثيرُ سؤالَهم أن يقولوا: فمتى يَنْزِل العذابُ؟ فأُجيبوا بقولِه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٦٧-١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٨ - ٧٠)

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿يَخُوضُونَ﴾: أي: يَكذِبون ويَسْتَهزؤونَ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ومنه الشُّروعُ في الأمورِ؛ يُقال: تخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا وتداخَلَ كلامُهم، وأكثرُ ما ورَدَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ[1].

﴿وَذَرِ﴾: أي: اترُكْ؛ يقال: فلان يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه؛ لقلَّةِ اعتدادِه به[2].

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أي: أصابتْ غِرَّتَهم، ونالتْ منهم ما تريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، والغِرار: غفلةٌ مع غفوةٍ، والغُرورُ: كُلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ، وأصلُ ذلك من الغُرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهِرُ من الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٣، ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤).

﴿تُبْسَلَ﴾: أي: تُرتَهنَ، وتُسْلَمَ للهَلَكَة، والبَسْل: ضمُّ الشَّيءِ ومَنْعُه، وأصل (بسل): منَعَ وحَبَس[1].

﴿حَمِيم﴾: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرَارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوِتَةٍ[2].

مُشكلُ الإعراب:

١ - قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾: (الواو) عاطِفَةٌ للجُمَلِ لا المُفرداتِ. و﴿لَكِنْ﴾ حَرْفُ استدراكٍ لا عَمَلَ له. و﴿ذِكْرَى﴾ يَجوزُ فيها النَّصْبُ والرَّفعُ، وعلامةُ الإعراب مُقدَّرةٌ عل آخِرِها للتعذُّرِ؛ أمَّا النَّصْبُ فعَلى المصْدَرِ بِفِعْلٍ مَحذوفٍ؛ والتقديرُ: (ولَكِنْ ذَكِّرُوهم ذِكْرى)، أو (ولكنْ يُذَكِّرونَهم ذِكْرى). وأمَّا الرَّفْعُ فعَلَى أنَّها مُبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ تقديرُه: ولَكِنْ عليهم ذِكْرى. أو على أنَّه خَبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ والتَّقديرُ: هو ذِكْرى؛ أي: الواجِبُ ذِكْرى، أو التقدير: هذا ذِكْرَى؛ أي النَّهْيُ عَنْ مُجالَسَتِهِم ذِكْرَى، وعلى كُلٍّ فالجُملةُ معطوفةٌ بالواوِ على جُملةِ: ﴿وما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤، ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٦) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٧٦).

٢- قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾

﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾: مَصدرٌ مُؤَوَّلٌ في مَحَلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ مِن أَجْلِه؛ والتقديرُ: مَخافةَ أنْ تُبسَل أو كَراهَةَ أنْ تُبْسَلَ، أو لِئَلَّا تُبْسَلَ. ويجوز أنْ يكونَ في محَلِّ جَرٍّ على البَدَلِ من الهاءِ في ﴿بِهِ﴾ والتقدير: وذَكِّرْ بارْتِهانِ النُّفُوسِ، وحَبْسِها بِما كَسَبَتْ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعْرِضَ عنِ الذينَ يَتكلَّمونَ في آياتِ الله بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ والباطِلِ، وأن ينصرفَ عن مجالِسِهم حتى يَشْرَعوا في كلامٍ آخَرَ غيرِه، فإنْ أنساه الشيطانُ النَّهْيَ عن ذلك، فجَلَس معهم ثمَّ تذكَّرَ فلْيَقُمْ عنهم، ولا يَجْلِسْ بعد الذِّكرى مع القَوْمِ الظَّالِمين.

ثم بيَّن تعالى أنَّه ليس على المُتَّقينَ- الذين اجتَنبوا الجُلُوسَ مع أولئك الخائِضينَ في آياتِ الله بالباطِلِ- شيءٌ مِن حسابِهم على ما ارْتَكبوا، ولكنْ عليهم تذكيرُ الكافرينَ بالموعظةِ والبيانِ؛ لعلَّهم يتَّقونَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَدَعَ الذين جَعلوا حَظَّهم مِن الدِّينَ اللَّعِبَ واللَّهْوِ؛ مُستهزئينَ بآياتِ اللهِ، ويُعْرِضَ عنهم، وأَمَرَه أن يذَكِّرَ النَّاسَ بالقرآنِ؛ ليؤمِنوا ويتَّبِعوا الحَقَّ، حتى لا تُحْبَسَ نفسٌ بذُنُوبها وكُفرِها عمَّا يُنَجِّيها في الدُّنيا والآخرة، وتُسْلَمَ للعذابِ والهلاكِ، ليس لها حينئذٍ أحَدٌ يُنْقِذُها من عذاب الله، ولا شَفيعٌ يَطْلُبُ لها العفْوَ من الله جلَّ وعلا، وحتى إنْ بَذَلَت تلك النَّفْسُ كُلَّ فِداءٍ لِتفتدِيَ به، لا يُقْبَل منها، وهؤلاءِ هم الذين أُسْلِمُوا لعذابِ الله،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٧٩-٦٨٠).

وحُبِسُوا به؛ بسبَبِ ما ارتكبوه من المعاصي والآثامِ في الدُّنيا، أولئك لهم شرابٌ شديدُ الحرارةِ، وعذابٌ مُوجِعٌ؛ جزاءَ كُفْرِهم في الدُّنيا.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أنَّ الذين يُكَذِّبون بهذا الدِّينِ لا يَجِبُ على الرَّسولِ أنْ يُلازِمَهم، وأنْ يكونَ حفيظًا عليهم- بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المُكَذِّبينَ إنْ ضَمُّوا إلى كُفْرِهم وتكذيبِهم الاستهزاءَ بالدِّينِ، والطَّعْنَ في الرَّسولِ؛ فإنَّه يجبُ الاحترازُ عن مُقارَنَتِهم، وتَرْكُ مُجالَسَتِهم[1].

وأيضًا لَمَّا أَمَرَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يقولُ جوابًا لتكذيبِهم في الآيةِ السَّابقةِ، تَقدَّمَ إليه فيما يفعَلُ وَقتَ خَوضِهم في التكذيبِ[2]؛ فقال:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾.

أي: وإذا رأيتَ- يا محمَّدُ- المشركينَ الذين يَخُوضونَ في آياتِنا، التي أنْزَلْناها إليك، بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يُخالِفُ الحَقَّ، فقُمْ عنهم، ولا تَجْلِسْ معهم حتَّى يأخذوا في كلامٍ آخَرَ، غيرِ ما كانوا فيه مِن التَّكذيبِ والاستهزاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وإنْ أنساكَ الشيطانُ- يا محمدُ- نَهْيَنا عن الجُلوسِ مع أولئك الخائضينَ، والإعراضَ عنهم، ثم تذكَّرْتَ ذلك؛ فقُمْ عنهم، ولا تَقْعُدْ مع القَومِ الَّذين خاضُوا فيما لا يحلُّ لهم الخَوْضُ فيه(١).

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾.

أي: إذا تجنَّبَهم المُتَّقون؛ فلم يَجْلِسوا معهم في ذلك، وأعْرَضوا عنهم- كما أُمِرُوا- فقد تخلَّصوا من إثْمِ خَوْضِ الكُفَّار فيما يَخوضُون فيه مِن الباطِلِ، ولا يُحاسَبون على شيءٍ من ذلك، ولكنْ عليهم الذِّكرى للكافرينَ بالموعظةِ والبَيانِ؛ لِيَتَّقُوا اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فيترُكوا الخَوْضَ في آياتِه سبحانه، ولا يَعُودُوا إلى ذلك(٢).

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٠).

وقيل في تفسيرِ هذه الآيةِ أقوالٌ أخرى: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٣).

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: ودَعْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الذين جَعَلوا نصيبَهم مِن دِينِ اللهِ تعالى اللَّعِبَ بآياتِه، واللهوَ والاستهزاءَ بها إذا سَمِعوها، وقد اغترُّوا بزينةِ الحياةِ الدُّنيا، فنَسُوا المعادَ إلى الله تعالى، والمصيرَ إليه بعد المماتِ؛ فأعرِضْ عنهم، واتْرُكْهم(١).

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾.

أي: وذكِّر النَّاسَ- يا محمَّدُ- بهذا القرآنِ، ومِنهم هؤلاء الذين يَخوضُون في آياتِنا وغيرُهم منَ الكُفَّار والمشركينَ؛ ليؤمنوا ويتَّبِعوا الحقَّ الذي جاءَهم مِن عِندِ الله تعالى؛ كيلا تُحْبَسَ نفسٌ بذُنوبها وكُفْرِها بِرَبِّها، عمَّا فيه نجاتُها في الدُّنيا والآخرة، وتُسْلَمَ للعذابِ والهلاكِ(٢).

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾.

أي: ليسَ لها حينَ تُسْلَمُ بذُنُوبِها، وتُرْتَهَن بآثامِها، أحدٌ يَنصُرُها، فيُنْقِذُها من عذابِ الله تعالى، ولا شفيعٌ يَطْلُب لها العَفْوَ مِن الله عزَّ وجلَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٨-٣١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).
وفي معنى الآية أقوالٌ أخرى؛ قال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يُريد: إذ يعتقدون أنْ لا بعثَ، فهُم يتصرَّفون بشهواتِهم تصرُّفَ اللَّاعِبِ اللَّاهي) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٥).
وقال ابنُ عاشور: (اتَّخذوه لعبًا ولهوًا، أي: جعَلوا الدِّين مجموعَ أمورٍ هي من اللَّعب واللهو، أي: العبث واللهو عند الأصنام في مواسمِها، والمُكاء والتَّصدية عند الكعبة، على أحدِ التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]... ويجوز أن يكونَ المرادُ من الدِّين العادةَ... أي: الذين دَأْبُهم اللعب واللهو، المُعرِضون عن الحقِّ، وذلك في معاملتِهم الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٠-٣٢٣)، ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٧).

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾.

أي: ولو بَذَلَتِ النَّفسُ التي أُبسِلَت بما كسَبَت، كلَّ فِداءٍ لتفتَدِيَ به؛ لا يُقبَل منها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: وهؤلاءِ الذين إنْ فَدَوْا أنفُسَهم مِن عذابِ الله يومَ القيامةِ كُلَّ فداءٍ لم يُؤخَذْ منهم، هم الذين أُسْلِمُوا لعذابِ الله، فحُبِسوا به؛ جزاءً بما كسبوا في الدُّنيا من الآثامِ والأوزارِ، لهم شرابٌ شديدُ الحرارةِ، يَشوي وجوهَهم، ويُقطِّعُ أمعاءَهم، ولا يَرويهم مِن عَطَشٍ، ولهم مع ذلك عذابٌ مُوجِعٌ؛ بسبَبِ كُفْرِهم في الدُّنيا بالله، وإنكارِهم توحيدَه، وعِبادَتِهم معه آلهةً دونَه(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في ذَمِّ الخوضِ بالباطِلِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حَثٌّ على البَحْثِ والنَّظَرِ والمُناظَرَةِ بالحَقِّ(٣).

٢- سببُ النَّهيِ عن مُجالسةِ الخائضينَ في آياتِ اللهِ بالباطِلِ في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٥-٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

أنَّ الإقبالَ على الخائضينَ، والقعودَ معهم، أقلُّ ما فيه أنَّه إقرارٌ لهم على خَوْضِهم، وإغراءٌ بالتَّمادِي فيه، وأكبَرُه أنَّه رِضاءٌ به، ومُشاركةٌ فيه[١]. كما أن الإعراضِ عنهم فيه زَجْرُهم، وقَطْعُ الجدالِ معهم؛ لعلَّهم يَرْجِعون عن عِنادِهِم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَشْمَلُ الخائضينَ بالباطِلِ، وكلَّ مُتكلِّمٍ بِمُحَرَّمٍ، أو فاعِلٍ لمُحَرَّمٍ؛ فإنَّه يَحْرُم الجُلُوسُ والحضورُ عند حُضُورِ المُنْكَر، الذي لا يَقْدِرُ على إزالَتِه[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّه إذا كان التَّذكيرُ والوعظُ مِمَّا يَزيدُ الموعوظَ شَرًّا إلى شَرِّه، كانَ تَرْكُهُ هو الواجِبَ؛ لأنَّه إذا ناقَضَ المقصودَ كان تَرْكُه مقصودًا[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه يَنبغي أن يَسْتَعمِلَ المُذَكِّرُ مِن الكلامِ ما يكون أقرَبَ إلى حُصولِ مقصودِ التَّقوى[٥].

٦- يُستَفادُ من قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- ويَنْسَحِبُ الأمرُ على كلِّ مُسلِمٍ- مأمورٌ أنْ يُهْمِلَ شأنَ الذين يتَّخذون دينَهم لَعِبًا ولهوًا، وهذا يتمُّ بالقَوْلِ كما يتِمُّ بالفِعْلِ؛ فالذي لا يَجعل لِدِينِه وقارَه واحترامَه باتِّخاذِه قاعِدَةَ حياتِه؛ اعتقادًا وعبادةً، وخُلقًا وسُلوكًا، وشريعةً وقانونًا؛ إنَّما يتَّخِذُ دينَه لَعِبًا ولهوًا، والذي يتحدَّث عن مَبادِئِ هذا الدِّينِ وشرائِعِه، فيَصِفُها أوصافًا تدْعو إلى اللَّعِبِ واللَّهْو؛ كالَّذين يَتحدَّثون

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦١).

عن (الغَيْبِ)- وهو أصْلٌ من أصولِ العقيدةِ- حديثَ الاستهزاءِ، والذين يتحدَّثون عن (الزكاةِ)- وهي ركنٌ مِن أركانِ الدِّينِ- حديثَ الاستصغارِ، والذينَ يتَّحدَّثون عن الحياءِ والخُلُقِ والعِفَّة- وهي مِن مبادِئِ هذا الدِّينِ- بوصْفِها من أخلاقِ المجتمعاتِ الزِّراعيَّة، والذين يَصِفونَ الضَّماناتِ التي جَعَلَها اللهُ للمرأة؛ لتَحْفَظَ عِفَّتَها، بأنَّها «أغلال!»، وقبلَ كُلِّ شيءٍ وبعدَ كلِّ شيء: الذين يُنكِرونَ حاكِمِيَّةَ اللهِ المُطْلَقَة في حياةِ النَّاسِ الواقعيَّة: السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والتَّشريعيَّة، ويقولون: إنَّ للبَشَرِ أن يُزاولوا هذا الاختصاصَ دون التقيُّدِ بشريعةِ اللهِ- أولئك جميعًا من المَعْنيِّينَ في هذه الآياتِ بأنَّهم يتَّخِذونَ دِينَهم لَعِبًا ولهوًا، وبأنَّ المُسلمَ مأمورٌ بمُفاصَلَتِهم ومُقاطَعَتِهم إلَّا للذِّكرى(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ...﴾ إلى قولِه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فيه بيانُ أنَّ وُجوهَ الخَلاصِ على تلك النَّفْسِ مُنسَدَّةٌ، فلا وَلِيَّ يتولَّى دَفْعَ ذلك المحذورِ، ولا شفيعَ يَشفَعُ فيها، ولا فِدْيَةَ تُقبَل؛ ليَحْصُلَ الخلاص بسبَبِ قَبُولها؛ حتى لو جُعِلَتِ الدُّنيا بأسْرِها فِديةً من عذابِ الله لم تنفَعْ. فإذا كانت وجوهُ الخلاصِ هي هذه الثلاثةَ في الدُّنيا، وثبَتَ أنَّها لا تُفيدُ في الآخرَةِ البتَّةَ، وظهر أنَّه ليس هناك إلَّا الإبسالُ، الذي هو الارتهانُ والانغلاقُ والاستسلامُ؛ فليس لها البتَّةَ دافِعٌ من عذابِ الله تعالى، وإذا تصوَّرَ المرءُ كيفيَّةَ العقابِ على هذا الوجْهِ يكادُ يُرْعَدُ إذا أقدَمَ على معاصي اللهِ تعالى(٢).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الخوضُ في قوله تعالى: ﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٥).

حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أكْثرُ ما وردَ في القُرآنِ وردَ فيما يُذمُّ الشُّروعُ فيه، وإنَّما عَبَّر عن انتقالِهم إلى حَديثٍ آخَرَ بالخَوضِ؛ لأنَّهم لا يَتحدَّثون إلَّا فيما لا جَدْوَى له مِن أحوالِ الشِّرْكِ، وأُمورِ الجاهليَّةِ(١).

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أنَّ الأعراضَ البَشَريَّةَ الجائزَةَ على الأنبياءِ التي لا تُخِلُّ بتبليغٍ، قد يكونُ بعضُها مِن أثَرِ عَمَلِ الشَّيطانِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ يُفيدُ أنَّ التكليفَ ساقِطٌ عنِ النَّاسي(٣).

٤- يُستَفادُ مِن قولِه: ﴿وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أنَّه ليستْ هنالك تَبِعَةٌ مُشتَرَكةٌ بين المُتَّقينَ والمُشْركينَ؛ فهما أُمَّتانِ مُختلِفَتانِ- وإن اتَّحدَتا في الجِنْس والقوم- فهذه لا وزنَ لها في ميزانِ اللهِ، ولا في اعتبارِ الإسلامِ، إنَّما المُتَّقون أمَّةٌ، والظَّالمون (أي المشركونَ) أمَّةٌ، وليس على المُتَّقينَ شيءٌ من تَبِعَةِ الظَّالمينَ وحِسَابِهم، ولكنَّهم إنَّما يقومونَ بتَذكيرِهم؛ رجاءَ أن يتَّقوا مِثْلَهم، وينضمُّوا إليهم، وإلَّا فلا مُشارَكَةَ في شيءٍ إذا لم تكن مشاركةٌ في عقيدةٍ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٠).
قال البقاعيُّ: (ولما كان الخوضُ في الآياتِ دالًّا على قلةِ العقلِ قال: ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فحكَم على حديثِهم فيما سوَى ذلك أيضًا بالخوضِ؛ لأنَّ فيه الغثَّ والسَّمينَ؛ لأنَّه غيرُ مقيَّدٍ بنظامِ الشَّرع). ((نظم الدرر)) (٢/ ٦٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٨).

المرادُ من هذه الآيةِ وما في معناها: إبطالُ أصْلٍ من أصول الوثنيَّةِ، وهو تعليقُ النَّجاةِ في الآخرة- كنَيْل كثيرٍ من المقاصِدِ في الدنيا- بتقديمِ الفِديَةِ لله تعالى، أو بشفاعةِ الشَّافعينَ عنده، أي: بوساطةِ الوُسَطاء- وتقريرُ أصلِ الدِّينِ الإلهيِّ، وهو أنَّ النَّجاةَ في الآخِرة، ورضوانَ اللهِ، والقُرْبَ منه، لا يُنالُ إلَّا بما شَرَعه اللهُ على ألْسِنَةِ رُسُلِه من الإيمانِ والإسلامِ؛ وبعِبارةٍ أخرى بالعمل الصَّالِحِ الذي تتزكَّى به الأنفُسُ مع الإيمانِ الإذْعانيِّ باللهِ وبِرُسُلِه وما جاؤُوا به، ومِن إبسالِهم كَسْبُهم للسيِّئاتِ والخطايا، واتِّخاذُهم الدِّينَ لَعِبًا ولهْوًا، وغرورُهم بالحياةِ الدُّنيا، فلا تنفَعُهم شفاعةٌ، ولا تُقبَلُ منهم فِديةٌ[1].

٦- في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ خُصَّ الشَّرابُ مِن الحَميمِ من بين بقيَّةِ أنواعِ العذابِ المذكورِ مِن بعدُ؛ للإشارَةِ إلى أنَّهم يَعطَشونَ فلا يَشربونَ إلَّا ماءً يَزيدُهم حرارةً على حرارةِ العَطَشِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الإتيانِ بالضَّميرِ إلى الإتيانِ بالاسْمِ الظَّاهِرِ، وهو اسمُ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾، فلم يقُلْ: وإذا رأيتَهم فأعْرِضْ عنهم؛ للدَّلالةِ على أنَّ الذين يخوضونَ في الآياتِ فريقٌ خاصٌّ من القومِ الذين كذَّبوا بالقرآنِ أو بالعذابِ؛ فعمومُ القَوْمِ أنكَرُوا وكذَّبوا دون خوضٍ في آيات القرآنِ، فأولئك قِسْمٌ، والذين يَخوضونَ في الآياتِ قِسْمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

كان أبذى وأقْذَعَ، وأشَدَّ كفرًا وأشنَعَ، وهم المتصَدُّونَ للطَّعنِ في القرآن، وهؤلاء أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإعراضِ عن مجادَلَتِهم، وتَرْكِ مَجالِسِهم؛ حتى يَرْعَوُوا عن ذلك، ولو أُمِرَ الرَّسولُ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالإعراضِ عن جميع المُكذِّبينَ، لتعطَّلَت الدَّعوة والتَّبليغُ[1].

- وجاءَ تعريفُ هؤلاء بالموصوليَّة ﴿الَّذِيْنَ يَخُوضُونَ﴾ دون أن يُقالَ (الخائضينَ) أو (قومًا خائضينَ)؛ لأنَّ الموصولَ فيه إيماءٌ إلى وجْهِ الأمرِ بالإعراضِ لأنَّه أمرٌ غريبٌ، إذ شأنُ الرَّسول- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يمارِسَ النَّاسَ لعَرْضِ دعوةِ الدِّينِ، فأمْرُ اللهِ إيَّاه بالإعراضِ عن فريقٍ منهم يحتاجُ إلى توجيهٍ واستئناسٍ. وذلك بالتعليلِ الذي أفاده الموصولُ وصِلَتُه، أي: فأعرِضْ عنهم؛ لأنَّهم يخوضون في آياتنا، وهذه الآيةُ أحسنُ ما يُمَثَّلُ به لمجيءِ الموصولِ للإيماءِ إلى إفادةِ تعليلِ ما بُنِيَ عليه من خَبَرٍ أو إنشاءٍ؛ ألَا ترى أنَّ الأمْرَ بالإعراضِ حُدِّدَ بغايةِ حصولِ ضِدِّ الصِّلَةِ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِه﴾[2].

- قوله: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ في عَطْفِ حالةِ النِّسيانِ زِيادةٌ في تأكيدِ الأمْرِ بالإعراضِ[3].

- قوله: ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: معهم؛ فوُضِعَ الظَّاهِرُ موضِعَ المُضْمَرِ؛ دلالةً على أنَّهم ظَلَمُوا بوضْعِ التكذيبِ والاستهزاءِ مَوضِعَ التَّصديقِ والاستعظامِ[4]، والإظهارُ في مقام الإضمار أيضًا؛ لزيادةِ فائدةِ وَصْفِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٨٨- ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٧).

بالظُّلم، فيُعْلَم أنَّ خَوْضَهم في آياتِ اللهِ ظُلْمٌ، فيُعْلَم أنَّه خَوضُ إنكارٍ للحَقِّ، ومكابرةٍ للمُشاهدَةِ[١].

٢- قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أمْرٌ متضَمِّنٌ للتَّهديدِ والوعيدِ لهم[٢].

- وذِكْرُ الحياةِ هنا في قولِه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ له موقِعٌ عَظيمٌ، وهو أنَّ هَمَّهم من هذه الدُّنيا هو الحياةُ فيها، لا ما يُكْتَسَب فيها من الخيراتِ التي تكون بها سعادةُ الحياةِ في الآخرةِ، أي: غرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا، فأوهَمَتْهم أنْ لا حياةَ بَعْدَها[٣].

- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ يقولُ: فما حالُ الذينَ اتَّخَذوا دينَهم لعبًا ولَهْوًا من حالِ النفوسِ التي تُبْسَل بما كَسَبَتْ؟ فأُجيبَ بأنَّ أولئك هم الذين أُبْسِلوا بما كَسَبوا[٤].

- والتعريفُ للجُزأَينِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أفاد القَصْرَ، أي: أولئك هم المُبْسَلون لا غيرُهم، وهو قَصْر مبالغةٍ؛ لأنَّ إبسالَهم هو أشَدُّ إبسالٍ يقع فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٩٨).

النَّاسُ؛ فجُعِلَ ما عداه كالمعدومِ[١].

- وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تأكيدٌ وتفصيلٌ لذلك، والمعنى: هم بينَ ماءٍ مُغْلًى يتجرجَرُ في بُطونِهم، ونارٍ تشتعِلُ بأبدانِهم بسبَبِ كُفْرِهم[٢].

- وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ زِيدَ فِعلُ (كان)؛ ليدلَّ على تَمَكُّن الكُفرِ منهم واستِمرارِهم عليه؛ لأنَّ فِعْلَ مادَّةِ الكونِ يدُلُّ على الوجودِ؛ فالإخبارُ به عن شيءٍ مُخْبَرٍ عنه بغيرِه أو موصوفٍ بغيرِه لا يُفيدُ فائدةَ الأوصافِ، سِوى أنَّه أفاد الوجودَ في الزَّمَن الماضي، وذلك مُستعمَلٌ في التمكُّنِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

الآيات (٧١ - ٧٣)

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾: أي نرجِعُ إلى الكُفر، والارْتِدادُ والرِّدَّةُ: الرجوعُ من الإسلامِ إلى الكُفْرِ، لكنَّ الرِّدَّة تختصُّ بالكُفر، والارتدادُ يُستعمَلُ فيه وفي غيره، والعَقِب: مؤخَّر الرِّجْل[١].

﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾: أي: هَوَتْ به وذهَبَتْ، فضَلَّ في الأرضِ في حالِ حَيْرَتِه، أو ذهبَتْ به مَرَدَةُ الجنِّ في المفاوز البعيدة، والهوى: ميلُ النَّفْس إلى الشَّهوةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهِيَةٍ، وفي الآخِرَة إلى الهاوِيَة[٢].

﴿الصُّورِ﴾: أي: القَرْنُ يَنْفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلام[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩، ٥٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧).

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾

﴿وَيَوْمَ﴾: مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ، أو معطوفٌ على الضَّميرِ المنصوبِ في قوله: ﴿اتَّقُوه﴾ في الآيَةِ السَّابقةِ، على حذْفِ مُضافٍ، أي: واتَّقوا عذابَ يومِ يقولُ، ويجوز أن يكون ظرفَ زمانٍ منصوبًا، مُتعلِّقًا بمحذوفٍ خبر مقدَّم للمبتدأِ المؤخَّر ﴿قَوْلُه﴾، و﴿الحَقُّ﴾ صِفَتُه، أي: وقولُه الحقُّ في يومِ يقولُ: كُنْ فيكونُ.

﴿كُنْ﴾: فعلُ أمْرٍ تامٌّ، وفاعلُه ضميرٌ مستَتِرٌ تقديره «أنت» يرجِعُ إلى كلِّ ما خَلَقَ الله.

﴿فَيَكُونُ﴾: مرفوعٌ، وهو فعل تامٌّ أيضًا، أي: «فهو يكونُ»، فجملةُ «يكون» ليستْ داخلةً في مقولِ القَوْلِ، بل هي جملةٌ مستقلَّةٌ مُستأنَفَةٌ، وفاعله أيضًا ضميرٌ مستتِرٌ تقديره «هو» يرجِع إلى كلِّ ما خَلَق الله، ويجوز أن يكون فاعِلُه: ﴿قَوْلُهُ﴾، و﴿الحَقُّ﴾ صفةٌ لـ﴿قَوْلُهُ﴾، أي: فيوجَدُ قولُه الحَقُّ، ويكون الكلامُ على هذا تامًّا على ﴿الحَقُّ﴾[1]. ويجوز أنْ يكونَ ﴿قَوْلُه﴾ مبتدأً، و﴿الْحَقُّ﴾ خَبَره.

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ للمُشركينَ: أَنَدْعُو مِن دونِ اللهِ ما لا يَملِكُ لنا نفعًا، ولا يستطيعُ أن يُلْحِقَ بنا ضُرًّا، ونَرجِعُ إلى الضَّلال والكُفْر بعد أنْ هدانا اللهُ إلى الإسلامِ، فنكونَ كرجلٍ أَغْوَتْه الشياطينُ عن مقصِدِه، وله أصحابٌ يدعونَه للطَّريقِ المُوصِل لبُغْيَتِه، ويطلبونَ منه أنْ يأتِيَهم؛ ليكونَ معهم على الهُدى، قلْ لهم يا محمَّدُ: إنَّ هدى الله هو الهدى الحَقُّ، وأُمِرْنا أن ننقادَ لله

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٩٠).

تعالى، ونَستَسْلِمَ لشَرْعِه، وأُمِرنا بإقامةِ الصَّلاةِ، وأن نَتَّقيَه عزَّ وجلَّ، وهو سبحانه مَن إليه تُجْمَعون يومَ القيامة، فيُجازيكم على أعمالِكم خَيرِها وشَرِّها.

وهو سبحانه الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ، ويومَ القِيامةِ الذي يكونُ بقَوْلِ الله: ﴿كُنْ﴾ فيكونُ، فقولُه تعالى لا مِرْيَةَ فيه، وهو الصِّدْقُ، واللهُ عزَّ وجلَّ له المُلْكُ وَحْدَه سبحانه في يومِ القِيامة، هو عالِمُ الغيبِ والشَّهادةِ لا يَخفَى عليه شيءٌ، وهو الحكيمُ الخبيرُ.

تفسيرُ الآيات:

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المشركين: أَنَدْعُو مِن دون اللهِ ما لا يَقْدِرُ على نَفعِنا أو ضُرِّنا، فنَخُصه بالعبادةِ دون الله، ونَدَعُ عِبادةَ الذي بِيَدِه وحده الضُرُّ والنَّفْعُ؟[1].

﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: ونَرجِعُ القَهْقَرى[2] بعدَ هدايةِ اللهِ تعالى لنا إلى ما كنَّا فيه مِن الضَّلال[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) القَهْقَرى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ مِن غَيرِ أنْ يُعيدَ وجْهَه إلى جِهةِ مَشْيِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٠١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾.

أي: فيكون مَثَلُنا في ذلك مَثَلَ الرَّجُلِ الذي أَضَلَّتْه الشياطينُ عن طريقِه المُوصِل إلى مقْصِدِه، فبَقِيَ في حَيرَةٍ، وله أصحابٌ يَدْعونَه إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ الذي هم عليه مُقيمونَ، يقولون له: ائْتِنا فكُنْ معنا على استقامةٍ وهُدًى، والشَّياطينُ يدْعونَه إلى الضَّلالِ والرَّدَى[(١)].

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشرِكينَ: إنَّ طريقَ اللهِ الذي أوضَحَه لنا، وسبيلَه الذي أَمَرَنا بلُزومِه، هو الهُدى والاستقامةُ التي لا شكَّ فيها، وما عداه فهو ضلالٌ وهلاكٌ[(٢)].

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

أي: وأَمَرَنا ربُّنا وربُّ كُلِّ شيءٍ بأنْ ننقادَ لتوحيدِه، ونستسلِمَ لأوامِره ونواهِيه، ونَخْضَعَ له بالذِّلَّة والطَّاعة والعبوديَّة، فنُخْلِصَ ذلك له دونَ ما سواه[(٣)].

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) ﴾.

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ﴾.

أي: وأُمِرْنا بإقامةِ الصَّلاة، وذلك أداؤُها بحُدودِها وأركانِها وشروطِها وسُنَنِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١-٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

وبتقواه في جميعِ الأحوالِ بِفِعْلِ ما أمَرَ به، واجتنابِ ما نَهَى عنه(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾.

أي: وربُّ العالمين سبحانه هو الذي تُجمَعون إليه يومَ القيامَةِ، فيُجازيكم بأعمالِكم؛ خيرِها وشَرِّها(٢).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: وهو سبحانَه الذي خَلَق السَّمواتِ والأرضَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ؛ منها: إظهارُ صُنْعِه وقُدرَتِه ووَحدانِيَّتِه، ومنها تكليفُ العبادِ فيأمُرُهم وينهاهم ثم يبعَثُهم؛ ليجازِيَهم بأعمالِهم خَيْرِها وشَرِّها، فيُثيبَهم ويعاقِبَهم(٣).

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٤-٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٧-٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

أي: ويومَ القِيامةِ الذي يكونُ بقَوْلِ الله: ﴿كُنْ﴾ فيكونُ عن أمْره كلَمْحِ البَصرِ، أو هو أقربُ، فقوله تعالى لا مِرْيَةَ فيه، وهو الصِّدْقُ الواقِعُ لا محالةَ، ولا يقولُ سبحانه شيئًا عَبثًا[1].

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

أي: وهو المنفَرِدُ يومَ القيامةِ بالملْك وحدَه دون مَن سواه، فلا مُنازِعَ له فيه، ولا مُدَّعِيَ له في ذلِك اليومِ الَّذي يَنفُخُ فيه المَلَكُ في القَرْنِ[2].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١).

واختُلِفَ في تقديرِ المحذوفِ المتعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ﴾ فقِيل: تقديرُه: واذْكُرْ يومَ، وقِيل: واتَّقوا يومَ، وقِيل: وخَلَق يومَ، وقِيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٩ - ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الذي يقولُ له: كنْ فيكون، ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه يومُ القيامةِ، قاله مقاتلٌ. والثاني: ما يكونُ في القيامةِ. والثالثُ: أنَّه الصُّورُ). ((زاد المسير)) (٢/ ٤٤).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والمرادُ بالقولِ كلُّ ما يدلُّ على مرادِ الله تعالى، وقضائِه في يومِ الحشرِ، وهو يوم يقولُ: كنْ، مِن أمرِ تكوينٍ، أو أمرِ ثوابٍ، أو عقابٍ، أو خبرٍ بما اكتسَبه النَّاس مِن صالحِ الأعمالِ وأضدادِها، فكلُّ ذلك مِن قولِ الله في ذلك اليومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

وقال الواحديُّ: (والصور: قرنٌ يُنفَخُ فيه في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٨٨).

لكن قال ابنُ جرير: (واختُلِف في معنى الصُّور في هذا الموضع، فقال بعضُهم: هو قرنٌ يُنفخ فيه نفختان: إحداهما لفناءِ مَن كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشْرِ كلِّ ميِّتٍ... وقال آخرون: الصُّور في هذا الموضع: جمْع صورة يُنفخُ فيها رُوحُها فتحيا... والصوابُ من القول في ذلك عندنا ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، أنَّه قال: «إنَّ إسرافيلَ قد التقمَ الصُّور وحنَى جبهتَه ينتظر متى يُؤمَر فينفخ»، وأنه قال: «الصُّور قرنٌ يُنفَخ فيه»). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩-٣٤٠). =

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥- ٢٦].

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

أي: هو سبحانه يَعلَمُ ما يَغيبُ عن العِبادِ وما يُشاهِدونَه، فلا يَخْفَى عليه شيءٌ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو الذي له الحِكمةُ التَّامَّةُ، فيُتقِنُ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، ويضعُ كُلَّ شيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ ومِن ذلك تَدبيرُه وتصريفُه خَلْقَه مِن حالِ الوجودِ إلى العَدمِ، ثمَّ مِن حالِ العَدَمِ والفناءِ إلى الوجودِ، ثم مجازاتُهم بما يُجازيهم به من ثوابٍ أو عِقابٍ، وهو المحيطُ علمًا بالسَّرائرِ والبواطِنِ، والمُطَّلِعُ على الخَفايا، فهو خبيرٌ بكلِّ ما يعملونَه، ويَكْسِبونَه مِن خيرٍ وشَرٍّ، حافظٌ ذلك عليهم؛ ليجازيَهم على كلِّ ما قدَّموه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ هُدى اللهِ هو وَحْدَه الهُدَى- كما يُفيدُ التَّركيبُ البيانيُّ للجُملةِ- وإنَّه لَكَذلك عن يَقينٍ، وإنَّ البشريَّةَ لتَخْبِط في التِّيه كُلَّما تركَتْ هذا الهُدَى، أو انحرَفَتْ عن شَيءٍ منه واستبدَلَتْ به شيئًا

= وقال القرطبيُّ: (والأممُ مجمعةٌ على أنَّ الذي ينفخُ في الصُّور إسرافيلُ عليه السَّلامُ) ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٩).

من تصوُّراتها هي ومقولاتِها، وأنظِمَتِها وأوضاعِها، وشرائِعِها وقوانينِها، وقِيَمِها وموازينِها، بغيرِ «عِلمٍ» ولا «هُدًى» ولا «كتابٍ منيرٍ»، واللهُ سبحانه وتَعالى قدْ وَهَبَ الإنسانَ القُدرةَ على تَعرُّفِ بعضِ نواميسِ الكَوْنِ، وبعضِ طاقاتِه وقُواه؛ للانتفاعِ بها في الخِلافةِ في الأرضِ، وترقيةِ هذه الحياةِ، ولكِنَّ هذا الإنسانَ ذاتَه غَيرُ موهوبٍ مِن اللهِ القُدرةَ على اسْتِكْناهِ الحَقائقِ المُطلَقةِ في هذا الكونِ، ولا على الإحاطَةِ بأَسرارِ الغيوبِ التي تَلُفُّه مِن كُلِّ جانبٍ، ومنها: غَيبُ عَقْلِه هو ورُوحِه، بل غَيْبُ وظائِفِ جِسْمِه؛ ومِن ثَمَّ يَحتاجُ هذا الإنسانُ إلى هُدى الله في كُلِّ ما يَختَصُّ بكينونَتِه وحَياتِه؛ من عَقيدةٍ وخُلُقٍ، ومَوازينَ وقِيَمٍ، وأَنظمَةٍ وأوضاعٍ، وشرائِعَ وقوانينَ؛ تَحكمُ هذه الكَينونةَ، وتُنَظِّم لها واقِعَ الحياةِ، وكُلَّما فاءَ هذا الإنسانُ إلى هُدَى اللهِ اهْتَدَى؛ لأنَّ هُدى اللهِ هو الهُدى، وكُلَّما بَعُدَ كُلِّيَّةً عنه، أو انحرفَ بَعْضَ الانحرافِ واستبدلَ به شيئًا مِن عِنده ضَلَّ؛ لأنَّ ما ليس مِن هُدى اللهِ فهو ضلالٌ؛ إذ ليس هنالك نوعٌ ثالِثٌ؛ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[1] [يونس: ٣٢].

٢- يُستَفادُ من قولِه: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ اللهَ وحْدَه الذي يستَسْلِمُ له العالَمون؛ فالعوالِمُ كلُّها مُستسلِمةٌ له، فماذا الذي يجعلُ الإنسانَ وحْدَه- من بين العالَمينَ- يَشِذُّ عن الاستسلامِ لهذه الرُّبوبيَّة الشاملةِ التي تستسلمُ لها العوالِمُ في السَّمواتِ والأَرَضين؟ إنَّ ذِكرَ الرُّبوبيَّة للعالَمين هنا له موضِعُه؛ إنَّه يُقَرِّر الحقيقةَ التي لا مناصَ من الاعترافِ بها، وهي استسلامُ الوجودِ كلِّه، وما فيه من عوالِمَ مَشهودةٍ ومَغِيبةٍ، للنَّواميس التي وَضَعَها اللهُ لها، وهي لا تملِكُ الخروجَ عليها، والإنسانُ- من ناحيةِ تركيبه العُضويِّ- يَستسلِمُ كذلك لهذه النَّواميسِ كَرهًا، ولا يَمْلِك الخروجَ عليها؛ فلا يبقى إلَّا أنْ يستَسْلِمَ في

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٣٢).

الجانب الذي تُرِكَ له الخيار فيه ليُبتَلَى فيه، وهو جانِبُ الاختيار؛ اختيار الهُدَى أو الضَّلال، ولو استسلَمَ فيه استسلامَ كِيانِه العُضوي، لاستقامَ أمْرُه، وتناسَقَ تكوينُه وسلوكُه، وجِسْمه وروحُه، ودُنياه وآخِرَتُه، وفي إعلانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمين معه، أنَّهم أُمِروا بالاستسلامِ، فاستسلموا: إيحاءٌ مؤثِّرٌ لِمَن يَفتح اللهُ قلبَه للتلقِّي والاستجابةِ على مدَى الزَّمانِ، وبعد إعلانِ الاستسلامِ لرَبِّ العالَمينَ تجيءُ التكاليفُ التعبُّديَّة والشُّعوريَّة. إنَّ الاستسلامَ لربِّ العالَمينَ ضرورةٌ وواجِبٌ؛ فهو الذي إليه تُحْشَرُ الخلائِقُ؛ فأَوْلَى لهم أنْ يُقدِّموا بينَ يَدَيِ الحَشْرِ الحتميِّ ما يُنْجِيهم، وأَوْلَى لهم أن يَسْتَسْلِموا اليومَ له استسلامَ العالَمينَ، قبل أنْ يَقِفُوا أمامَه مَسْؤولينَ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه تذكيرُ المؤمنينَ بهذا اليومِ؛ تحريضًا على إقامةِ الصَّلاةِ والتَّقوى[٢].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ الردُّ على عَبَدة الأصنامِ، وهي مؤكِّدةٌ لقوله تعالى قبلَ ذلك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ..﴾، أي: أَنَعبدُ من دونِ اللهِ النَّافِعِ الضَّارِّ ما لا يَقدِرُ على نَفْعِنا ولا على ضُرِّنا، ونُرَدُّ على أعقابِنا راجِعينَ إلى الشِّرْكِ بعد أنْ أنقذَنا اللهُ منه، وهَدانا للإسلامِ[٣]؟!

٢- قال تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ...﴾ العربُ تقول فيمَن عَجَز بعد قُدرةٍ، أو سَفُل بعدَ رِفعةٍ، أو أحجَمَ بعد إقدامٍ على مَحمَدةٍ: نَكَصَ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٥).

على عَقِبَيْه، وارتَدَّ على عَقِبَيْه، ورَجَع القَهْقَرى، والأصلُ فيه رجوعُ الهزيمةِ أو الخَيبةِ، والعَجْزُ عن السَّيْر المحمودِ، ثم صار يُطْلَق على كلِّ تحوُّلٍ مذمومٍ[1].

٣- في قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ مَشهدٌ شاخصٌ متحرِّكٌ للضَّلالة والحَيرة التي تنتابُ مَن يُشْرِكُ بعد التوحيدِ، ومَن يتوزَّعُ قلبُه بين الإله الواحِدِ، والآلهةِ المتعدِّدة من العبيدِ! ويَتفرَّقُ إحساسُه بين الهُدى والضَّلال، فيذهبُ في التِّيهِ، إنَّه مَشهَدُ ذلك المخلوقِ التعيسِ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ - ولفظ الاستهواءِ لفْظٌ مُصوِّر بذاتِه لِمَدلولِه -، وله مِن الجانِبِ الآخَر، أصحابٌ مُهتدون، يَدْعُونَه إلى الهُدى، ويُنادونه ﴿ائْتِنَا﴾ - وهو بين هذا الاستهواءِ وهذا الدُّعاءِ ﴿حَيْرَان﴾ لا يَدْري أينَ يتَّجِهُ، ولا أيَّ الفريقينِ يُجيب! إنَّه العذاب النَّفسيُّ يرتَسِمُ ويتحرَّك؛ حتى لَيَكادُ يُحَسُّ ويُلْمَس من خلال التعبيرِ[2]!

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ... وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه أوَّلًا أنَّ الهُدى النَّافعَ هو هُدَى اللهِ، أردَفَ ذلك الكلامَ الكليَّ بذِكْر أشرفِ أقسامِه على التَّرتيبِ، وهو الإسلامُ، والصَّلاةُ، والتَّقْوى، ثم بيَّنَ منافِعَ هذه الأعمالِ؛ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، يعني: أنَّ منافِعَ هذه الأعمالِ إنَّما تَظهَرُ في يومِ الحَشرِ والبَعْثِ والقيامةِ[3].

٥- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أتى بالبَعثِ الذي هم له مُنكِرون؛ لكثرةِ ما أقام مِن الأدلَّةِ على تمامِ القُدرةِ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه ممَّا لا مجالَ للخلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٦).

فيه، وأنَّ النَّظَر إنَّما هو فيما وراءَ ذلك، وهو أنَّ عَمَلَهم للباطِلِ سوَّغ تنزيلَهم منزلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّه يُحشَر إلى غيره سبحانه ممَّن لا قدرةَ له على جَزائِهم، فأخبَرَهم أنَّ الحَشْرَ إليه لا إلى غيرِه؛ لأنَّه لا كلامَ هناك لسواه، فلا عِلَقَ بينَ المحشورينَ، ولا تناصُرَ كما في الدُّنيا، والجُملةُ مع ذلك كالتَّعليلِ للأمْرِ بالتَّقوى[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لَمَّا جُعِل اليَومُ ظَرْفًا للمُلْك، ناسَبَ أن يُعَرَّفَ اليومُ بما هو مِن شِعارِ الملْك والجُند، وهو النَّفْخُ في الصُّور[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ لَمَّا ذَكَر خَلْقَ الخَلْقِ وسُرعةَ إيجادِه لِمَا يَشاءُ، وتَضمَّنَ البَعْثُ إفناءَهم قبلَ ذلك- ناسَبَ ذِكْرَ الوَصفِ بالحَكيم، ولَمَّا ذَكَر أنَّه عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ ناسَبَ ذِكْر الوَصفِ بالخَبيرِ؛ إذ هي صفةٌ تدلُّ على عِلْمِ ما لَطُفَ إدراكُه من الأشياءِ[٣].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتأييسِ المشركينَ مِن ارتدادِ بعضِ المسلمينَ عن الدِّينِ[٤].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَنَدْعُو﴾ للإنكارِ والتَّأْييسِ؛ فهو استفهامٌ بمعنى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

الإنكارِ؛ أي: لا يَقعُ شيءٌ مِن هذا(١).

- قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ إيثارُ ﴿نُرَدُّ﴾ على (نَرتَدُّ)؛ لتوجيهِ الإنكارِ إلى الارتدادِ بِرَدِّ الغَيْرِ، تَصريحًا بمخالفَةِ المُضلِّين، وقطعًا لأطماعِهم الفارغةِ، وإيذانًا بأنَّ الارتدادَ من غيرِ رادٍّ ليس في حَيِّزِ الاحتمالِ ليُحتاجَ إلى نَفْيِه وإنكارِه(٢)؛ فعبَّر اللهُ تعالى بالفِعلِ المبنيِّ للمَفعولِ في ﴿وَنُرَدُّ﴾ بدَل التعبير بـ(نرتد)، أو (نرجع)؛ لأنَّ هذا التحوُّلَ المذمومَ ليس مِن شأنِه أنْ يقَعَ من عاقلٍ؛ لأنَّ العاقلَ إذا وصَلَ إلى مَرتبةٍ عاليةٍ مِن العِلمِ والكمالِ؛ فإنَّه لا يَختارُ الرجوعَ عنها، واستبدال الذي هو أدْنَى بالذي هو خيرٌ وأعلى، فإذا كانتْ فطرتُه وعقلُه يأبيانِ عليه هذه الرِّدَّةَ والنكوصَ؛ فكيف يُردُّ، وهو لا يرتدُّ(٣)؟!

- والتَّعبيرُ بالرَّدِّ على الأعقابِ؛ لزِيادةِ تَقبيحِه بتَصويرِه بصُورةِ ما هو عَلَمٌ في القُبحِ، مع ما فيه مِن الإشارَةِ إلى كَونِ الشِّركِ حالةً قد تُركَت، ونُبِذتْ وراءَ الظَّهر(٤).

- قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حيث شُبِّهَ فيه مَن خَلَصَ مِن الشِّرْك، ثم نَكَصَ على عَقِبَيْه، بحالِ مَن ذَهَبت به الشَّياطينُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٦).

وقال ابن عاشور: (ويُقال: رجَع على عقبِه، وعلى عقبَيهِ، ونكَص على عقِبَيه، بمَعْنَى رجَع إلى المكانِ الذي جاءَ منه؛ لأنَّه كان جاعلًا إيَّاه وراءَه فرجَع. وحرْفُ (على) فيه للاستعلاء، أي: رجَعَ على طريقِ جِهةِ عَقِبِه، كما يُقال: رجَع وراءَه، ثم استُعمل تمثيلًا شائعًا في التلبُّسِ بحالةٍ ذميمةٍ كان فارَقَها صاحبُها، ثمَّ عاد إليها وتلبَّس بها؛ وذلك أنَّ الخارجَ إلى سفرٍ أو حاجةٍ فإنَّما يمشي إلى غرَضٍ يُريده؛ فهو يمشي القُدُمية فإذا رجَعَ قبلَ الوصولِ إلى غرضِه، فقدْ أضاع مَشيَه، فيُمثَّل حالُه بحالِ مَن رجَع على عقبيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

الصحراء البعيدة، وأضلَّتْه بعدَما كان على الجادَّةِ المُستقيمَةِ؛ ففيه تَشبيهُ حالةِ مَن فُرِضَ ارتدادُه إلى ضَلالةِ الشِّركِ بعدَ هُدَى الإسلامِ- لِدعوةِ المشركينَ إيَّاه، وتَرْكِه أصحابَه المُسلمينَ الذين يَصدُّونه عنه- بحالِ الذي فَسَدَ عقلُه باستهواءٍ مِن الشَّياطينِ والجِنِّ، فتاهَ في الأرضِ بعدَ أنْ كان عاقلًا عارفًا بمسالِكِها، وتَرَكَ رُفقتَه العقلاءَ يَدْعُونه إلى موافَقتِهم. وهذا التركيبُ البديعُ صالحٌ للتفكيك بأنْ يُشبَّه كلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهة بها؛ بأنْ يُشبَّه الارتدادُ بعدَ الإيمانِ بذَهابِ عقلِ المجنونِ، ويُشبَّه الكفرُ بالهُيامِ في الأرضِ، ويُشبَّه المشركونَ الذين دَعَوْهم إلى الارتدادِ بالشياطينِ، وتُشبَّه دعوةُ اللهِ الناسَ للإيمانِ ونُزولُ الملائكةِ بوحيه بالأصحابِ الذين يَدْعُون إلى الهُدَى[1].

- قوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ فيه إيثارُ لفْظِ الهُدَى هنا؛ لِمَا فيه من المناسَبَةِ للحالَةِ المُشَبَّهة[2].

- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ مستأنفةٌ استئنافَ تكريرٍ لِمَا أُمِرَ أنْ يقولَه للمشركينَ حين يَدْعُون المُسْلمين إلى الرُّجوعِ إلى ما كانوا عليه في الجاهليَّة[3].

- وقد خُوطِبوا بصِيغةِ القَصرِ ﴿هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى﴾؛ فجِيءَ بتعريفِ الجُزأينِ، وضميرِ الفصلِ، وحرْف التوكيدِ، فاجتمعَ في الجملةِ أربعةُ مؤكِّداتٍ؛ لأنَّ القَصْرَ بمنزلةِ مؤكِّدينِ؛ إذ ليس القَصْرُ إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠١-٣٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٣).

وضميرُ الفصل تأكيدٌ، و (إنَّ) تأكيدٌ؛ فكانتْ مقتضى حالِ المشركينَ المُنكرينَ أنَّ الإسلامَ هُدًى[١].

- وقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه ذِكْرُ اسمِ اللهِ تَعالى بوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ لجَميعِ الخَلْقِ دون اسْمِه العَلَم؛ إشارةً إلى تَعليلِ الأمْرِ وأحقِّيَّته؛ إذْ لا يستحِقُّ العبادةَ مِن العبادِ إلَّا ربُّهم الذي خَلَقَهم، وغَذَّاهم بنِعَمِه[٢].

٢- قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- في تَخْصيصِ الصَّلاةِ بالذِّكْرِ من بينِ أنواعِ الشَّرائعِ، وعَطْفِها على الأَمرِ بالإسلامِ، وقَرْنِها بالأمْرِ بالتَّقوى- دليلٌ على تفخيمِ أَمْرِها، وعِظَم شأنِها[٣].

- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ اشتَمَلَ على عِدَّةِ مُؤَكِّدات، وهي: صِيغةُ الحَصرِ بتَعريفِ الجُزأينِ ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾، وتقديمُ معمولِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وهو ﴿إِلَيْهِ﴾ المُفيدُ للتَّقوِّي؛ لأنَّ المقصودَ تحقيقُ وقوعِ الحَشْر على من أنْكَرَه من المشركينَ، وتحقيقُ الوَعْدِ والوعيد للمؤمنينَ، والحَصْر هنا حقيقيٌّ؛ إذ هم لم يُنكِروا كونَ الحَشر إلى الله، وإنَّما أنكروا وقوعَ الحَشْر، فسَلَكَ في إثباتِه طريقَ الكِنايةِ بِقَصْرِه على اللهِ تعالى المُستَلْزِم وقوعَه، وأنَّه لا يكونُ إلَّا إلى اللهِ، تَعريضًا بأنَّ آلهَتَهم لا تُغني عنهم شيئًا[٤].

- وهو جملةٌ خبريَّةٌ تَتضمَّنُ التَّنبيهَ والتَّخويفَ لِمَن تَرَكَ امتثالَ ما أُمِرَ به مِن الإسلامِ والصَّلاةِ واتِّقاءِ الله؛ وإنما تظهرُ ثَمَراتُ فِعْل هذه الأعمالِ وحَسَراتُ تَرْكِها يومَ الحَشْر والقيامَةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٥).

٣- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾

(يَوْمَ) ظرفٌ وقعَ خبرًا مُقَدَّمًا- على أحَدِ الأوجُهِ في الآيةِ-؛ للاهتمامِ به، والمبتدأُ هو ﴿قَوْلُهُ﴾ و﴿الْحَقُّ﴾ صِفَةٌ للمُبتدأِ، وأصلُ التَّركيبِ: (وقَوْلُه الحقُّ يَومَ يقولُ كُنْ فيكونُ)، ونكتةُ الاهتمامِ بتقديمِ الظَّرْفِ الردُّ على المُشركينَ المُنْكرينَ وقوعَ هذا التكوينِ بعد العَدَمِ[1].

- وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ للمبالغةِ؛ أي: هو الحقُّ الكامِلُ؛ لأنَّ أقوالَ غيرِه، وإنْ كان فيها كثيرٌ من الحَقِّ، فهي معرَّضةٌ للخَطَأِ، وما كان فيها غيرَ مُعَرَّضٍ للخَطَأِ، فهوُ راجعٌ إلى فَضلِ اللَّهِ[2].

- وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فيه بِناءُ ﴿يُنْفَخُ﴾ للمَفعولِ؛ تعظيمًا للنَّفْخَةِ[3].

- وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ كالفَذْلكةِ للآيةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٨).

الآيات (٧٤ - ٧٩)

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿مَلَكُوتَ﴾: أي: مُلْك، أو هُو أعظمُ المُلْك، وهو مُختصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى؛ والملكوتُ مَصدرٌ من المُلْك، كالرَّغبوتِ مِنَ الرَّغبة، والرَّهبوتِ من الرَّهبة؛ زِيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبني على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالغةٍ؛ فالملكوتُ أبلغُ مِن المُلك؛ لفَخامةِ لفْظِه، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ(١).

﴿الْمُوقِنِينَ﴾: جمْع موقِنٍ، واليقينُ من صفاتِ العلمِ، يُقال: علم يَقِينٍ، وهو سكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكم، واليَقينُ: زوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المطابِق للواقِع(٢).

﴿جَنَّ عَلَيهِ﴾: أي: أظلَمَ عليه وسَترَه، وغَطَّى عليه، وأصل (جنن): السَّتْرُ والتستُّر(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١- ٣٥٢)، ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص:٢٤٦-٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٧٥)، =

﴿الْآفِلِينَ﴾: أي: الغائبينَ عن العُيونِ، أي: مِن: أَفَل إذا غابَ، والأُفُول: غَيبوبةُ النيِّراتِ؛ كالقَمَر والنُّجومِ[1].

﴿بَازِغًا﴾: أي: طالعًا منتَشِرَ الضَّوءِ، أو مُبتدِئًا في الطُّلوعِ، وأصلُ البُزوغِ: طلوعُ الشَّيءِ وظهورُه[2].

﴿فَطَرَ﴾: أي: خلَق، وأصلُ الفَطْر: فتْحُ الشَّيءِ وإبرازُه، أو الشقُّ طولًا[3].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مقبلًا على الله، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مُستقيمًا، أو: مائلًا عَنِ الشِّركِ والدِّينِ الباطِلِ؛ قَصدًا إلى التَّوحيدِ والدِّين الحقِّ المُستقيم، والدِّينُ الحنيفُ هو الإقبالُ على اللهِ وحدَه، والإعراضُ عما سِواه، وهو الإخلاصُ، والحنفُ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحَنَفُ: مَيلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستقامةِ، وأصْله: مَيلٌ في إبْهامَي القَدمينِ، كلٌّ واحدةٍ على صاحبتِها[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: اذكرُ- يا محمَّدُ- حينَ قال إبراهيمُ لأبيهِ المُشْرِك: أتجعَلُ الأصنامَ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١- ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

آلهةً تَعبُدُها من دون اللهِ، إنِّي أراكَ وقومَكَ الذين يعبدونَ الأصنامَ في ضلالٍ بَيِّنٍ، وانحرافٍ واضحٍ عن الطَّريقِ المستقيمِ.

ثم يُخبِر تعالى أنَّه كما وفَّقَ إبراهيمَ في دِينِه، فهداه لتوحيدِه عزَّ وجلَّ، كذلك يُريه ما تشتَمِلُ عليه السَّمواتُ والأرضُ مِن مُلْكٍ عَظيمٍ وواسعٍ؛ ليستدلَّ بذلك على وحدانيَّة الله، واستحقاقِه وَحْدَه للعبادة، ولِيَكونَ من المُوقنينَ.

فحِين أظلَمَ عليه اللَّيل رأى كوكبًا، فقال على وجه التنزُّلِ مع الخَصْم: هذا ربِّي، فلَمَّا غاب ذلك الكوكَبُ قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: لا أُحِبُّ المعبودَ المُتَغَيِّر، الذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَده، فلَمَّا رأى القَمَر في أوَّلِ طلوعه قال تنزُّلًا مع الخصم: هذا ربِّي، فلمَّا غاب قال إبراهيمُ: لَئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لِلحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الضَّالِّينَ.

فلَمَّا رأى الشَّمْس في أوَّلِ طُلُوعها قال تنزُّلًا: هذا الطَّالِعُ ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ والقمرِ، فلَمَّا غابت الشَّمْس قال إبراهيم: إنِّي أبْرَأُ من كلِّ ما تعبدونَه مع اللهِ، إنِّي أخلَصْتُ قَصْدي، وأَفْرَدْتُ العبادةَ لله الذي أبدَعَ السَّمواتِ والأرضَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، وما أنا مِن المشْركينَ مع الله تعالى غَيرَه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ناسَبَ ذِكْرَ هذه الآيةِ هنا، وكان التَّذكارُ بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه وقومِه أنسَبَ؛ لرُجوعِ العَرَب إليه؛ إذ هو جَدُّهم الأعلى، فذُكِّروا بأنَّ إنكارَ هذا النبيِّ

محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم عليكم عِبادَةَ الأصنامِ هو مِثْلُ إنكارِ جَدِّكم إبراهيمَ على أبيه وقَوْمِه عِبادَتَها[1]، فقال تعالى:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾.

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- حين قال إبراهيمُ عليه السَّلام لأبيهِ آزَرَ مُفارِقًا دِينَه، وعائبًا عبادَتَه الأصنامَ: أتَعبُدُ الأصنامَ من دون الله عزَّ وجلَّ[2]؟!

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: إنِّي أراكَ وقومَكَ الذين يَعبُدونَ الأصنامَ في عُدولٍ واضِحٍ عن الصِّراطِ المستقيمِ، وانحرافٍ بيِّنٍ عن الطَّريقِ القويم، يَتبيَّنُ لكلِّ من أبصره مِمَّن له عقلٌ صحيحٌ؛ حيث عبدْتُم مَن لا يَستحِقُّ مِن العبادةِ شيئًا، وتركتُم عبادةَ خالِقِكم ورازِقِكم سبحانه وتعالى[3]!

كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[مريم: ٤١- ٤٨].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٢، ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٦-٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٨).

((يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجْهِ آزرَ قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: ألم أقُلْ لك لا تَعصِني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أَعصيكَ، فيقول إبراهيمُ: يا ربِّ، إنَّك وعدْتَني ألَّا تُخزيَني يومَ يُبعثونَ، فأيُّ خِزيٍ أَخْزى مِن أبي الأَبعدِ؟ فيقول اللهُ تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنَّةَ على الكافرينَ، ثم يُقال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجْلَيك؟ فينظر، فإذا هو بذِيخٍ مُتلطِّخٍ[1]، فيُؤخذُ بقَوائمِه فيُلقَى في النَّارِ))[2].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾.

أي: وكما بصَّرْنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في دِينه فوفَّقناه لتوحيدِ الله تعالى، خلافًا لِمَا كان عليه أبوه وقومُه من الضَّلالِ؛ نُريه أيضًا مُلْك السَّمواتِ والأرض، فيَرَى ما أبدَعَه اللهُ تعالى فيهما من مَخلوقاتٍ؛ كالشَّمْس والقَمَر والنُّجومِ والشَّجَر والدوابِّ وغير ذلك، ويَتبيَّنُ له ببصيرتِه ما اشتمَلَت عليه من أدلَّةِ وحدانيَّة اللهِ عزَّ وجلَّ، واستحقاقِه للعبادة وَحْده لا شريكَ له، ويَصِلُ إلى دَرجةِ اليقينِ؛ فلا يتطرَّقُ إليه شكٌّ أو وهْمٌ في ذلك مُطلقًا[3].

قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانت الأمورُ السماويَّةُ مُشاهَدةً لجميعِ الخَلْقِ: دَانِيهم وقاصِيهم، وهي

---

(١) بذِيخٍ مُتلطِّخ: الذِيخُ: ذَكَرُ الضِّباعِ الكثيرُ الشَّعرِ. وأَرادَ بالتَّلطُّخِ: التلطُّخَ برَجِيعِه، أو بالطِّين. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٤٢١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٧، ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٠-٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٩-٤١٢).

أشرفُ مِنَ الأرضيَّةِ، فإذا بَطَلَت صلاحيتُها للإلهيَّة، بَطَلَت الأرضيَّةُ من بابِ الأَوْلى- نَصَبَ لهم الحِجَاجَ في أَمْرِها، فقال مسبِّبًا عن الإراءةِ المذكورةِ(١):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾.

أي: فلمَّا واراه اللَّيلُ، وتغشَّاه بظَلامِه، أبصَرَ بعينِه كوكبًا حين طَلَع، فقال على وجْهِ التنزُّلِ مع قومِه(٢): هذا ربِّي(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٨).

(٢) فلم يكنْ هذا المقامُ مَقامَ نظَرٍ، بل كان مَقامَ مُناظرةٍ مِن إبراهيمَ عليه السَّلام لقومِه. وهذا اختيارُ ابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٣١٣)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٢)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٦٢)، والشِّنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٢٧)، وابنِ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٣١٩).

قال الشنقيطي: (إبراهيم لَمْ يَظُنَّ يومًا في ربوبيةِ كوكبٍ، ولم يشكَّ يومًا واحدًا في ربوبيةِ اللَّهِ، هذا التحقيقُ الواجبُ اعتمادُه، الذي دَلَّ عليه كتابُ اللَّهِ وسنةُ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم، أما القرآنُ: فقد دَلَّ على هذا في مواضعَ كثيرةٍ:

منها: أنه أوَّلًا قال رافعًا لهذا الاحتمالِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فلما أَثْبَتَ له اليقينَ قال بَعْدَ ذلك مرتِّبًا عليه بالفاءِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾.

والثانيةُ: أن الله ذَكَرَ أنه قال هذا في سبيلِ المناظرةِ والمُحاجَّةِ، لا في سبيلِ النظرِ بنفسِه، حيثُ قال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣] ومِن أصْرَحِ الأدلةِ في هذا: أن الله نَفَى عن إبراهيمَ كونَ الشركِ في ماضِي الزمنِ مُطْلَقًا، حيث قال في آياتٍ كثيرةٍ من كتابِه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] ونَفْيُ الكونِ الماضِي يستغرقُ الكونَ في جميعِ الزمنِ كائنًا ما كانَ، وكذلك قولُه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] هذا جاء في آياتٍ كثيرةٍ، ونفيُ الإشراكِ عنه في الكونِ الماضي يدُلُّ بدلالةِ القرآنِ- دلالةِ المطابقةِ- على أنَّه لم يتقَدَّمْ له كونُ إشراكٍ ألبتةَ، والله يقولُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] فعِلمُ الله به وبصلاحِه يدلُّ على ذلك، هذا هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه). ((العذب النمير)) (١/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٥٤، ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٩-٤١٢). =

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾.

أي: فلمَّا غاب ذلك الكوكبُ وذهَبَ؛ قال إبراهيمُ عليه السَّلام: لا أُحِبُّ المعبودَ المتغيِّرَ، المُسَخَّرَ، والذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَدَه؛ لأنَّه لا يُمكِن أنْ يكونَ مَن هذا حالُه هو القائِمَ بمصالح عبادِه، المدبِّرَ لشؤون العالَم، الذي بيده النَّفْعُ والضُّرُّ، وعليه فلا يَصْلُح أن يكون إلهًا يستحِقُّ أن يُعبَدَ[1].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بصَّرَهم قُصورَ صغيرِ الكواكِبِ رَقِيَ النَّظَرُ إلى أكبرَ منه، فسبَّبَ عن الإعراضِ عن الكواكِبِ لقصورِه قولَه[2]:

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ القَمَرَ في أوَّلِ طلوعِه قال تنزُّلًا: هذا ربِّي[3].

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

= قال ابن تيمة: (قومُ إبراهيم كانوا مُقرِّين بالصَّانع، وكانوا يُشرِكون بعبادتِه كأمثالِهم مِن المشركين). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦١)، ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

وقال ابنُ تَيميَّة: (الأفولُ هو التغيُّبُ والاحتجابُ باتِّفاق أهل اللُّغةِ والتفسيرِ، وهو من الأمور الظاهرة في اللُّغة، وسواءٌ أُريد بالأفول ذَهابُ ضوءِ القمر والكواكب بطلوع الشمس، أو أُريد به سُقوطُه من جانبِ المغرب) ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥٤٧-٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٣).

أي: فلمَّا غاب القمرُ قال إبراهيم عليه السَّلامُ: لئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لإصابةِ الحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الذين أخطَؤوا طريقَ الحَقِّ، فلم يُصيبُوا الهُدَى[1].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ الشَّمْسَ في أوَّلِ طُلُوعِها قال تنزُّلًا: هذا الطَّالِعُ المُنير ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ ومن القَمَر[2].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَ بالدَّليلِ أنَّ هذه الكواكِبَ لا تَصلُحُ للربوبيَّة والإلهيَّة؛ لا جَرَم تبرَّأَ من الشِّرْك[3].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: فلمَّا غابتِ الشَّمْسُ قال إبراهيمُ لقومِه: إنِّي أتبرَّأُ مِن كلِّ ما تَعبُدونَه مع اللهِ عزَّ وجلَّ[4].

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أنكَرَ على أبيه عِبادةَ الأصنامِ وضَلَّلَه وقَوْمَه، ثم استدَلَّ على ضلالِهم بقضايا العُقولِ؛ إذ لا يُذعِنونَ للدَّليلِ السَّمعيِّ؛ لتوقُّفِه في الثُّبوتِ على مُقدِّماتٍ كثيرةٍ، وأَبْدَى تلك القضايا منوطةً بالحِسِّ الصادِقِ - تبرَّأَ من عِبادتِهم وأكَّد ذلك بـ(إنَّ)، ثمَّ أخبَرَ أنَّه وجَّه عبادَتَه لمُبدِعِ العالَمِ الذي هذه النَّيِّراتُ المُستَدَلُّ بها بَعْضُه، ثمَّ نفَى عن نفْسِه أنْ يكونَ من المُشْرِكين؛ مبالغةً في التبرُّؤِ منهم[1].

وأيضًا لَمَّا أبطَلَ جميعَ مذهَبِهم، أظهَرَ التوجُّهَ إلى الإلهِ الحَقِّ، وأنَّه قدِ انكشَفَ له الصَّوابُ بهذا النَّظَرِ، والمرادُ هم، ولكنَّ سَوْقَه على هذا الوَجْه أَدْعى لقَبولِهم إيَّاه، فقال مُستنتِجًا عمَّا دَلَّ عليه الدَّليلُ العقليُّ في الملكوتِ[2]:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: إنِّي قدْ أخلصْتُ قَصْدي، وأفرَدْتُ عِبادتي لِمَن يَستحِقُّ ذلك، وهو اللهُ تعالى؛ لأنَّه الذي أَبْدَع خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ، على غير مثالٍ سَبَقَ؛ فهو القادِرُ وحْده على أن يُنْشِئَ الخَلْقَ من العَدَم إلى الوجودِ[3].

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿حَنِيفًا﴾.

أي: مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، مُقبلًا على الله تعالى، مُعْرِضًا عمَّا سِواه(١).

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا تَبرَّأَ إبراهيمُ مِن أصنامِهم بقولِه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، تَبَرَّأَ من القَوْمِ(٢)، فقال:

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولسْتُ ممَّن يَدينُ بِدِينِكم، ويتَّبِعُ مِلَّتكم- أيُّها المشركونَ- ولستُ أُشرِكُ بربِّي شَيئًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ في إنكارِ إبراهيمَ على أبيه دَليلٌ على الإنكارِ على مَن أُمِر الإنسانُ بإكرامِه، إذا لم يَكُنْ على طَريقةٍ مُستقيمةٍ، وعلى البَدَاءةِ بمن يقرُبُ من الإنسانِ؛ كما قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الْأَقْرَبِيْنَ﴾(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ التنبيهُ على اقتفاءِ مَن سَلَفَ مِن صالحي الآباءِ والأجدادِ؛ فقد احتجَّ سبحانه على مُشركي العَرَب بأحوالِ إبراهيم عليه السَّلام؛ وذلك لأنَّه يَعترفُ بفَضْلِه جميعُ الطَّوائفِ والمِلَل؛ فالمشركونَ كانوا معترفينَ بفَضْلِه، مُقِرِّين بأنَّهم مِن أولادِه، واليهودُ والنَّصارى والمسلمونَ كُلُّهم مُعَظِّمونَ له، مُعترفونَ بجلالةِ قَدْرِه، فلا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ حكايةَ حالِه في مَعْرِض الاحتجاجِ على المُشركينَ(٢).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ اشتَمَلَ كلامُ إبراهيمَ عليه السَّلام في هذه الآيةِ على ذِكْرِ الحُجَّة العقليَّةِ على فسادِ قَولِ عَبَدَة الأصنامِ من وجهينِ: الأوَّلُ: أنَّ قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا يَقولونَ بكَثرةِ الآلِهَةِ، إلَّا أنَّ القولَ بكَثرةِ الآلهةِ باطلٌ بالدَّليلِ العقليِّ، الذي فُهِمَ مِن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾، والثاني: أنَّ هذه الأصنامَ لو حَصَلَت لها قدرةٌ على الخيرِ والشَّرِّ لكان الصَّنمُ الواحدُ كافيًا، فلمَّا لم يكُنِ الواحِدُ كافيًا دلَّ ذلك على أنَّها وإن كثُرت فلا نَفْعَ فيها البتَّةَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٣٤).

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي: اذكرْ قولَه، وحِكمةُ التَّذكيرِ بوقتِه التَّنبيهُ على أنَّ هذا لم يَزَلْ ثابتًا مُقرَّرًا على ألْسنةِ جميعِ الأنبياءِ في جميعِ الدُّهور، وكان في هذه المحاجَّةِ التصريحُ بما لَوَّح إليه أوَّلَ هذه السورةِ مِن إبطالِ هذا المذهبِ، وانعطَفَ هذا على ذاكَ أيَّ انعطافٍ! وصار كأنَّه قيل: ثمَّ الذين كفروا بربِّهم يعدلون الأصنامَ والنجومَ والنورَ والظُّلمةَ، فنبِّهْهم يا رسولَ اللهِ على ذلك؛ بأنَّه لا مُتصرِّفَ غيرُنا، اذكرْ لهم أنِّي أنا الذي خلقتُهم وخلقتُ جميعَ ما يُشاهِدون مِن الجواهرِ والأعراضِ، فإنْ تَنبَّهوا فهو حظُّهم، وإلَّا فاذكُرْ لهم مُحاجَّةَ خليلِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، إذ قال: ﴿لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[1].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فيه دليلٌ على هِدايةِ إبراهيمَ وعِصمَتِه مِن سَبْق ما يُوهِم ظاهِرُ قولِه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مِن نِسبةِ ذلك إليه على أنَّه أخبرَ عن نَفْسِه، وإنَّما ذلك على سَبيلِ التنزُّلِ مع الخَصْمِ، وتقريرِ ما يَبني عليه مِن استحالةِ أن يكون متَّصفًا بصفاتِ المخلوقين[2].

٤- قال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فائدةُ عَطفِ ﴿وَقَوْمَكَ﴾ على ضَميرِ المخاطَبِ، مع العِلم بأنَّ رؤيتَه أباه في ضَلالٍ تَقتضي أنْ يرَى مماثِليه في ضلالٍ أيضًا- أنَّ المقامَ مقامُ صراحةٍ، لا يُكتفَى فيه بدَلالةِ الالْتزامِ، ولِيُنبِّهَه من أوَّلِ وهْلةٍ على أنَّ موافقةَ جَمْعٍ عظيمٍ إيَّاه على ضَلالِه لا تُعَضِّدُ دِينَه، ولا تُشَكِّك مَن يُنكِر عليه ما هو فيه[3].

٥- في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ احتجَّ عليهم بالأُفولِ دون

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٤).

البُزوغِ، وكِلاهما انتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ؛ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الاحتجاجَ بالأُفولِ أظهَرُ؛ لأنَّه انتقالٌ مع خفاءٍ واحتجابٍ، والبزوغُ وإنْ كان طرأَ بعدَ أُفولٍ، لكنَّ الأفولَ السَّابقَ غيرُ مشاهَدٍ لهم؛ فكان الأفولُ أخْصرَ في الاحتجاجِ مِن أنْ يقولَ: إنَّ هذا البازغَ كان مِن قبلُ آفِلًا[(١)]، وإنَّما تريَّثَ إلى أُفولِ القَمَرِ فاستدلَّ به على انتفاءِ إلهيَّتِه، ولم يَنْفِها عنه بمُجرَّدِ رُؤيَتِه بازغًا، مع أنَّ أُفُولَه مُحقَّقٌ بحَسَب المعتادِ؛ لأنَّه أرادَ أن يُقيمَ الاستدلالَ على أَساسِ المشاهَدةِ، على ما هو المعروفُ في العُقولِ؛ لأنَّ المشاهدةَ أقوى[(٢)].

٦- جاء بلفْظِ ﴿الْآفِلِينَ﴾ ليدُلَّ على أنَّ ثَمَّ آفلينَ كثيرينَ، ساواهم هذا الكوكبُ في الأُفولِ، فلا مزيةَ له عليهم في أن يُعبَدَ؛ للاشتراكِ في الصِّفةِ الدالَّةِ على الحدوثِ[(٣)].

٧- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ لم يأتِ في الكواكب (رأى كوكبًا بازغًا)؛ لأنَّه أوَّلًا ما ارتقبَ حتَّى بزَغَ الكوكبُ؛ لأنَّه بإظلام اللَّيل تظهرُ الكواكبُ بخلاف حالِه مع القَمَر والشَّمْس؛ فإنَّه لَمَّا أوضَحَ لهم أنَّ هذا النَّيِّرَ- وهو الكوكَبُ الذي رآه- لا يَصلُحُ أن يكون ربًّا؛ ارتقَبَ ما هو أنورُ منه وأَضْوَأُ؛ على سَبيلِ إلحاقِه بالكوكبِ، والاستدلالِ على أنَّه لا يَصلُح للعِبادةِ، فرآه أوَّلَ طُلوعِه وهو البزوغُ، ثم عَمِلَ كذلك في الشَّمْس؛ ارتقَبَها إذ كانتْ أنْورَ من القَمَرِ وأضْوَأَ وأكبَرَ جِرْمًا وأعَمَّ نَفْعًا؛ فقال ذلك على سَبيلِ الاحتجاجِ عليهم، وبَيَّن أنَّها مُساوِيَةٌ للقَمَر والكواكِبِ في صفةِ الحدوثِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٦٥، ٥٦٦).

٨- قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الهدايةَ ليستْ إلَّا مِن اللهِ تعالى[(١)].

٩- قال في الشَّمْس ﴿هَذَا﴾ مع أنَّها مؤنَّثةٌ، ولم يَقُلْ (هَذِه)؛ لوجوهٍ: أحدُها: أنَّ الشَّمْس بمعنى الضِّياءِ والنورِ، فحُمِلَ اللَّفظُ على التأويلِ فذُكِّرَ. وثانيها: أنَّ الشَّمْس لم يحصُلْ فيها علامةُ التأنيثِ، فلمَّا أشبَهَ لفظُها لفظَ المُذكَّر، وكان تأويلُها تأويلَ النُّورِ؛ صَلَح التَّذكيرُ من هاتين الجِهَتينِ، وثالثها: أراد: هذا الطَّالِعُ، أو هذا الذي أراه، ورابعُها: المقصودُ منه رعايةُ الأدَبِ، وهو تَرْكُ التأنيثِ عندَ ذِكْرِ اللَّفظِ الدَّالِّ على الربوبيَّة، وخامسها: لوجود المُسَوِّغ، وهو تذكيرُ الخبَرِ؛ إظهارًا لتعظيمِها، إبعادًا عن التُّهمةِ، وسادسها: للتَّنبيهِ من أوَّلِ الأَمْرِ على أنَّ المؤنَّث لا يَصْلُح للربوبيَّةِ[(٢)].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ مسألةٌ: لَمَّا كانَ الأُفولُ حاصلًا في الشَّمْس، والأُفولُ يمنعُ من صفةِ الربوبيَّة، وإذا ثبت امتناعُ صفةِ الربوبيَّة للشَّمس كان امتناعُ حصولها للقمرِ ولسائرِ الكواكبِ أَوْلَى، وبهذا الطَّريقِ يظهر أن ذِكْرَ هذا الكلام في الشَّمْس يُغني عن ذِكْره في القَمَر والكواكب، فلِمَ لم يقتصِرْ على ذِكْر الشَّمْس رعايةً للإيجازِ والاختصارِ؟

قلنا: إنَّ الأخْذَ من الأدْوَنِ فالأدونِ، مترقيًا إلى الأعلى فالأعلى؛ له نوعُ تأثيرٍ في التقريرِ والبيانِ والتَّأكيدِ، لا يحصُل مِن غيره، فكان ذِكْرُه على هذا الوَجْه أَوْلى[(٣)].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قد يقول قائلٌ: هَبْ أنَّه ثبت بالدَّليل أنَّ الكواكبَ والشَّمْس والقَمرَ لا تصلحُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٦).

للربوبيَّة والإلهيَّة، لكنْ لا يلزمُ مِن هذا القَدْر نفيُ الشَّريكِ مُطلقًا، وإثباتُ التَّوحيد، فلِمَ فرَّعَ على قيامِ الدَّليل على كونِ هذه الكواكِبِ غيرَ صالحةٍ للربوبيَّة، الجَزْمَ بإثباتِ التوحيدِ مطلقًا.

والجوابُ: أنَّ القومَ كانوا مُساعدينَ على نفْيِ سائرِ الشُّركاءِ، وإنَّما نازعوا في هذه الصورةِ المُعَيَّنة، فلمَّا ثبت بالدَّليلِ أنَّ هذه الأشياءَ ليست أربابًا ولا آلهةً، وثبت بالاتِّفاقِ نَفْيُ غيرِها؛ لا جَرَمَ حصل الجَزْمُ بنفيِ الشُّركاءِ على الإطلاقِ(١).

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ، وقدْ نبَّه بهذا الإنكارِ على أنَّ مَعرفةَ بُطلانِ ما هو مُتَدَيَّنٌ به لا يحتاجُ إلى كثيرِ تأمُّلٍ، بل هو أمرٌ بديهيٌّ أو قريبٌ منه؛ فإنَّهم يُباشِرونَ أمْرها بجميعِ جوانبِهم، ويَعلَمون أنَّها مصنوعةٌ، وليستْ بصانعةٍ، وكثرتُها تدلُّ على بُطلانِ إلهيتِها بما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٢) [الأنبياء: ٢٢].

- وعبَّر بصيغةِ الافتعالِ في (تتَّخِذ)- فهو افتعالٌ من الأخْذِ- للدَّلالة على التكلُّفِ للمبالغةِ في تَحصيل الفِعلِ، وأنَّ ذلك مُصطنَعٌ مُفتعَلٌ، وأنَّ الأصنامَ ليست أهلًا للإلهيَّة، وفي ذلك تعريضٌ بسخافةِ عَقْلِه؛ أن يجعَلَ إلهَه شيئًا هو صَنَعَه(٣).

- وفي ذِكْره ﴿أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ بالجمْعِ تقبيحٌ عظيمٌ لِفعْلِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).

- قوله: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ جملةٌ مُبيِّنةٌ للإنكارِ في جملة: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾، وأكَّدَ الإخبارَ بحرْفِ التأكيدِ؛ لِمَا يتضمَّنُه ذلك الإخبارُ مِن كَوْنِ ضَلالِهم بيِّنًا[1].

٢- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملةُ اعتراضٍ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وهما قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ وجملةُ الاستدلالِ عليهم بإفرادِ المعبودِ، وكونِه لا يُشْبِه المخلوقين ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيل...﴾؛ إذ إنَّ أباه وقومَه كانوا يعبدونَ الأصنامَ والكواكِبَ، فأراد أن يُنَبِّهَهم على ضلالَتِهم، ويُرْشِدَهم إلى الحقِّ من طريقِ المُناظَرةِ والاستدلالِ[2].

٣- قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ قَصَر الفِعلَ ﴿جَنَّ﴾- وإنْ كان مُتعدِّيًا-؛ دَلالةً على شِدَّةِ ظلامِ تلك اللَّيلةِ؛ ولذلك عدَّاه بأداةِ الاستعلاءِ فقال: ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾، أي وقَعَ السَّترُ عليه[3]؛ فقوله: ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ يُقصَد به المبالغةُ في السَّترِ بالظُّلْمَةِ حتَّى صارتْ كأنَّها غِطاءٌ؛ إذ الأصْلُ أنْ يُقالَ: جَنَّه اللَّيلُ، أي: أخفاهُ[4].

- قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا لسؤالٍ ينشأُ عن مَضمونِ جملةِ (رأى كوكبًا)، وهو أنْ يسأل سائِلٌ: فماذا كان عِندَما رآه؟ فيكون قولُه: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ جوابًا لذلِك[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- واسمُ الإشارةِ ﴿هَذَا﴾ هنا لقَصْدِ تمييزِ الكوكَبِ مِنْ بينِ الكواكِبِ، ولكِنْ إجراؤُه على نظيرَيهِ في قوله حينَ رأى القَمَر، وحين رأى الشَّمْس: «هذا ربِّي - هذا ربِّي» يُعَيِّن أن يكون القَصْدُ الأصليُّ منه هو الكنايةَ بالإشارةِ عن كونِ المشارِ إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه أُشِيرَ إليه[١].

- وتعريف الجزأينِ في قولِه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مفيدٌ للقصر؛ لأنه لم يقل: هذا ربٌّ؛ فدلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أراد استدراجَ قومِه، فابتدأ بإظهارِ أنَّه لا يرى تعدُّدَ الآلهَةِ؛ لِيصِلَ بهم إلى التوحيدِ، واستبقى واحدًا من معبوداتِهم، ففَرَض استحقاقَه الإلهيَّةَ؛ كيلا ينفرُوا من الإصغاءِ إلى استدلالِه[٢].

٤- قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

- قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ التقديرُ: فطَلَع القمرُ، فلمَّا رآه بازغًا، فحُذِفت الجملةُ للإيجازِ، وهو يقتضي أنَّ القَمَرَ طلَعَ بعد أُفُولِ الكوكبِ[٣].

- وأفاد تعريفُ الجزأينِ ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أنه أكثرُ ضوءًا من الكوكب؛ فإذا كان استحقاقُ الإلهيَّة بسبب النُّور، فالذي هو أشدُّ نورًا أَوْلَى بها من الأَضْعَفِ[٤].

- قوله: ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فيه تعريضٌ حسنٌ؛ حيث عرَّض في كلامِه بأنَّ له ربًّا يهديه، وهم لا يُنكِرون عليه ذلك؛ لأنَّهم قائلون بعدَّةِ أربابٍ، وفي هذا تهيئةٌ لنفوسِ قَومِه لِمَا عَزَمَ عليه من التَّصريحِ بأنَّ له ربًّا غيرَ الكواكب، ثم عرَّضَ بقومِه أنَّهم ضالُّون، وهيَّأهم قبل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٨-٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المصارَحَةِ للعِلْمِ بأنَّهم ضالُّون؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يُدخِل على نفوسِهم الشَّكَّ في معتقَدِهم أن يكونَ ضَلالًا؛ ولأجَل هذا التعريضِ لم يقُلْ: لأكونَنَّ ضالًّا، وقال: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ليشيرَ إلى أنَّ في الناس قومًا ضالِّين، يعني: قومَه[١].

- والتعريضُ بضلالهم هنا أصرحُ وأقْوَى مِن قولِه أوَّلًا: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، وإنَّما ترقَّى إلى ذلك؛ لأنَّ الخُصومَ قد أقامَتْ عليه الاستدلالَ الأوَّلَ حُجَّةً، فأَنِسُوا بالقَدْحِ في مُعتقَدِهم، ولو قيل هذا في الأوَّل، فلعَلَّهم كانوا يَنْفِرون، ولا يُصغونَ إلى الاستدلالِ، فما عرَّض إبراهيمُ عليه السَّلام بأنَّهم في ضلالةٍ إلَّا بعد أن وَثِقَ بإصغائِهم إلى تمامِ المقصودِ، واستماعِهم إلى آخِرِه؛ ولذلك ترقَّى في النَّوبةِ الثالثةِ إلى التَّصريحِ بالبراءةِ منهم، والتقريعِ بأنَّهم على شِرْكٍ، حين قيامِ الحُجَّة عليهم، ووضوحِ الحَقِّ، وبلوغِه من الظُّهورِ غايةَ المقصودِ[٢]؛ فعرَّض بضلالِهم في أمْرِ القَمَر؛ لأنه أَيِسَ منهم في أمْرِ الكوكب؛ ولهذا أعْلَن في أمْرِ الشَّمْس البَراءةَ منها عن طريقِ استدراجِ الخَصْمِ، وإيقاعِه تحتَ الحُجَّةِ[٣].

٥- قوله: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ فيه التأكيدُ بـ(إنَّ)، ثم الإخبارُ أنَّه وجَّه عبادتَه لِمُبدِعِ العالَم، الذي هذه النيِّراتُ المستدَلُّ بها بعضُه، ثم نفى عن نفْسِه أن يكونَ من المشركينَ؛ مبالغةً في التبرُّؤِ منهم[٤]؛ فإنَّ قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أفاد تأكيدًا لجملة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٤).

الآيات (٨٠ - ٨٣)

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾: أي: غالَبُوه وجادَلُوه وخاصَموه، والمُحاجَّة: أنْ يَطْلُبَ كلُّ واحِدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومَحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأَصْلُ (حجج): قَصْدُ جادَّةِ الطَّريقِ[١].

﴿سُلْطَانًا﴾: حُجَّةً، وأصلُه مِن القوَّة والقَهْر[٢].

﴿يَلْبِسُوا﴾: أي: يَخلِطوا، وأصلُ اللَّبْس: المخالَطَة والمُداخَلَة[٣].

﴿دَرَجَاتٍ﴾: منازلَ يبلُغُها بعمَلِه، وأَصْلُ (درج): يدُلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ، والمضيِّ في الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، =

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾: يُقرأُ بتَشديدِ النُّونِ على إدغامِ نونِ الرَّفْعِ في نُونِ الوِقايةِ، والأصل تُحاجُّونَنِي[1]، ويُقرأُ بالتَّخفيفِ على حَذْفِ إحْدى النُّونَينِ، وفي المحذوفَةِ وجهانِ: أحدهما: هي نونُ الوِقايةِ؛ لأنها الزائدةُ التي حصَل بها الاستثقالُ. والثاني: المحذوفةُ نونُ الرَّفْعِ؛ لأنَّ الحاجةَ دعتْ إلى نونٍ مكسورةٍ من أجْلِ الياءِ، ونونُ الرفعِ لا تُكسَرُ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾

﴿دَرَجَاتٍ﴾: منصوبٌ، وعلامةُ نصْبه الكسرةُ، ويُقْرَأُ بالتَّنوين، وبالإضافةِ؛ فأمَّا على قِراءةِ التنوينِ؛ فـ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ظرفُ مكانٍ، أي: نَرفَعُ مَن نشاءُ في مراتبَ ومنازِلَ، أو منصوبٌ على حذْفِ حرْفِ الجرِّ، أي: إلى منازِلَ وإلى درجاتٍ. ويجوزُ أن يَنتصبَ على التَّمييزِ، ويكون منقولًا من المفعوليَّةِ، فيَؤُول إلى قِراءةِ الجَماعةِ؛ إذ الأصلُ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالإضافةِ، ثم حُوِّلَ؛ كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي: عيونَ الأرْضِ. و﴿مَنْ﴾ على هذا: مفعولٌ به للفِعل ﴿نَرْفَعُ﴾. أمَّا على قِراءةِ الإضافةِ: (نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ) فـ«دَرَجَاتِ» مفعولٌ به لـ﴿نَرْفَعُ﴾، ورَفْعُ دَرَجةِ الإنسانِ رَفْعٌ له[3].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(١) وفيها لغات ثلاثٌ: الفكُّ وتركُهما على حالهما، والإدغام، والحذف، لكنَّها لم تُقرَأْ إلاَّ بالحذفِ أو الإدغام، وقد قُرئ بهذه اللُّغاتِ كلِّها في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤]. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٥-١٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٦-٢٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٧/ ٢٠٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه جادَلَه قومُه في توحيدِه ربَّه، وبراءَتِه من الأصنامِ، فقال لهم: أتجادلونَني في توحيدي لِلَّهِ، وقد هداني سبحانه للحَقِّ، ووفَّقَني لاتِّباعه، ولا أخافُ آلِهَتكم التي تُشْرِكونها مع الله في العبادةِ أنْ توقِعَ بي ضُرًّا، إلَّا أن يريدَ ربِّي شيئًا، أحاط علمُه جلَّ وعلا بكلِّ شيءٍ، أفلا تتذكَّرونَ؟ وكيف أخافُ آلهَتَكم التي أشركتموها مع اللهِ، وهي لا تضرُّ ولا تنفَعُ، بينما أنتُم لم تَخافوا مِنَ اللهِ في إشراكِكم معه غيرَه، مِمَّا لم يُعْطِكم عليه حُجَّةً ولا بُرهانًا، وهو القادِرُ على كلِّ شيءٍ؛ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ: مَن وَحَّدَ اللهَ الذي بِيَده الضُّرُّ والنَّفعُ، أو مَن أشرَكَ به مَن لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ بلا برهانٍ؟! أخبروني إنْ كنتُم تعلمونَ.

فقال تعالى جوابًا عن سُؤالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: الذين آمَنوا ولم يَخْلِطوا إيمانَهم بِشِرْكٍ، أولئك هم الذين لهم الأمْنُ، وهم المُوَفَّقونَ لطريقِ الحَقِّ.

ثم أخْبَر تعالى أنَّ تلك حُجَّتُه آتاها إبراهيمَ على قَومِه، وأنَّه تعالى يرفعُ مَن يشاءُ درجاتٍ؛ إنَّه حكيمٌ عليمٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَعْلَنَ إبراهيمُ- عليه السَّلامُ- مُعتقَدَه لقَومِه، كما في قولِه تعالى على لسانِ إبراهيمَ: ﴿إِنِّيْ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]، أخَذُوا في محاجَّتِه(١)؛ قال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٥).

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾.

أي: وجادَل إبراهيمَ قومُهُ فيما ذهَبَ إليه مِن توحيدِ الله تعالى، وبَراءَتِه من الأصنام[1].

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِ ﴾.

أي: أتُجادِلونَني في أمْرِ توحيدي اللهَ تعالى، وعبادَتِه وحْدَه دون ما سِواه، والحالُ أنَّه قد بصَّرَني بالحقِّ، ووفَّقَني لاتِّباعِه[2]؟

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا ﴾.

أي: ولا أرهَبُ آلِهتَكم التي تَدْعونها من دون اللهِ؛ أن تنالَني بسُوءٍ أو مكروهٍ؛ فهي لا تنفعُ ولا تضرُّ، لكن إذا شاءَ اللهُ تعالى أنْ ينالَني ذلك فسيكونُ؛ فله ما شاء سبحانه، ولا يَضرُّ ولا ينفَعُ إلَّا هو عزَّ وجلَّ[3].

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٢-٤٣٦).

والاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ منقطعٌ. وهذا اختيارُ ابنِ تيميةَ في ((الإخنائية)) (ص: ٣٤٩)، والشنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٣٣).

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أي: أحاط عِلمُ ربِّي سبحانَه بكلِّ شيءٍ؛ فلا تَخفَى عليه خافيةٌ، لا كآلِهَتِكم التي لا تعلَمُ شيئًا(١).

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّعِظونَ، فتعْقِلوا بُطلانَ عِبادَتِكم لآلهَةٍ لا تَقدِرُ على ضُرٍّ ولا على نفْعٍ، ولا تعلَمُ شيئًا، وتعْقِلوا خطأَ تَرْكِكم عِبادةَ مَن خَلَقَكم، وخَلَقَ كلَّ شيءٍ، الذي له القُدرةُ على كلِّ شيءٍ، والعالِم بكلِّ شيءٍ، وتَعلَموا أنَّه المُستَحِقُّ وحْدَه للعبوديَّةِ(٢)؟

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

أي: وكيف أَرهَبُ آلهتَكم التي أشركتُموها مع اللهِ، وهي عاجزةٌ لا تضرُّ ولا تنفَعُ، بينما أنتُم لا تخافونَ مِن اللهِ الذي خَلَقَكم ورَزَقَكم، والقادرِ على كلِّ شيءٍ؛ لا تَخافون منه في إشراكِكم به ما لم يُنزِّلْ به عليكم حُجَّةً ولا بُرهانًا(٣)؟!

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فأيُّ الطائفتينِ أجدَرُ بالأمْنِ والسَّلامةِ؛ الذي عبَدَ مَن بِيَدِه الضُّرُّ والنَّفْعُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥-٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢-٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦-٤٣٧).

أو الذي عَبَد مَن لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ بلا دليلٍ؟ فإنْ كنتم تعلمونَ صِدْقَ ما أقولُ لكم، وحقيقَةَ ما أحتجُّ به عليكم، فأجيبوني، وأخبِروني أيُّ الفريقينِ أحَقُّ بالأمْنِ(١)؟

فقال الله تعالى جوابًا عن سؤالِ إبراهيمَ السَّابقِ، وفاصلًا بين الفريقينِ(٢):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: الذين آمنوا حقًّا، ولم يَخلِطوا إيمانَهم بِشِرْك، هم الآمنونَ من المخاوِفِ في الدارَينِ، السَّالكونَ طريقَ الحَقِّ(٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شقَّ ذلك على أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقالوا: أيُّنا لم يَظلِمْ نفسَه؟ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ليس كما تظنُّونَ، إنَّما هو كما قال لُقمانُ لابنِه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾))(٤).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ قدِ انتصَبَ لإظهارِ حُجَّةِ اللهِ في التَّوحيدِ، والذَّبِّ عنها، وكان التقديرُ- تنبيهًا للسَّامِعِ على حُسْنِ ما مضَى؛ نَدْبًا لتدبُّرِه-:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٧).

(٢) وممَّن اختار أنَّها خبرٌ مِن الله تعالى: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٣٦٩)، وابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٩، ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٧-٤٣٩).

(٤) رواه البخاري (٦٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٢٤).

هذِه مقاولةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لأبيه وقوْمِه؛ عَطَفَ عليه قولَه، مُعَدِّدًا وجوهَ نِعَمِه عليه، وإحسانِه إليه، دالًّا على إثباتِ النبوَّةِ بعد إثباتِ الوحدانيَّة[1]، فقال:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

أي: وهذه حُجَّتُنا[2] أعطَيْناها إبراهيمَ، وألْهَمْناه، وفَهَّمْناه إيَّاها؛ ليُفْحِمَ بها قومَه، فكان ذلك حيثُ قطَعَ عُذْرَهم، وانقطَعَت حُجَّتُهم، وعلَا بذلك عليهم[3].

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

كما رَفَعْنا درجةَ إبراهيمَ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ بما آتيناه من تلك الحُجَّةِ التي صَدَعَ بها بالحَقِّ، وقَهَر بها قومَه، فكذلك نرفَعُ مَن نشاء مَنْحَه العِلمَ والحُجَّةَ، درجاتٍ فوقَ العبادِ[4].

كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣﴾.

أي: إنَّ ربَّكَ- يا محمَّدُ- حَكيمٌ في سياسَتِه خَلْقَه، وتلقينِه الحُجَجَ لرُسُلِه، وفي غير ذلك من تدبيرِه، عليمٌ بعاقبةِ رُسُلِه والمُرْسَل إليهم، وهو سبحانه لا يَضعُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٨).

(٢) اختلَف المفسِّرون في الحُجَّة التي أُوتيَها إبراهيمُ عليه السَّلام؛ فذَهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّها قولُ إبراهيم لقومِه المشركين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٧٩). وذهَب آخَرون إلى أنَّ الحُجَّة هي المناظرةُ كلُّها، بدءًا مِن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾، وهذا ظاهرُ اختيارِ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٦٣)، واختارَه ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ٣٣٤)، والشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٠-٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

العِلمَ والحِكْمَةَ إلَّا في المَحَلِّ اللَّائِقِ بهما، وهو أعلمُ بذلك المَحَلِّ، وبما ينبغي له، فيعلَمُ مَن يستحِقُّ الهدايةَ، فيوفِّقُه ويرفَعُه، ومَن يستحِقُّ الضَّلالَ، فيخْذُلُه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أثبَتَ لآلِهَتِهم العجزَ بنَفْيِ الخوفِ المستَلزِمِ لنفيِ القُدرةِ على الضرِّ، وذلك دالٌّ على أنَّ الله تعالى أهلٌ لِأنْ يُخافَ منه، وكلُّ ذلك تلويحًا لهم بأنَّ العاقِلَ لا يَنبغي له أنْ يُخالِفَ إلَّا من يَأمَنُ ضُرَّه، فهم في مخالفَتِهم للهِ في غايةٍ من الخَطَرِ، لا يرتكِبُها عاقلٌ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ لهم الأمنُ مِن المخاوفِ والعذابِ والشَّقاءِ، والهدايةُ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، فإن كانوا لم يلبِسوا إيمانَهم بظُلْمٍ مطلقًا، لا بِشِرْكٍ، ولا بمعاصٍ، حصَل لهم الأمنُ التامُّ، والهدايةُ التامَّةُ. وإنْ كانوا لم يَلبِسوا إيمانَهم بالشِّرْك وحْدَه، ولكنَّهم يَعملونَ السيِّئاتِ، حصَل لهم أصلُ الهِداية، وأصلُ الأمنِ، وإنْ لم يحصُلْ لهم كمالُها، ومفهومُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ الذين لم يحصُلْ لهم الأمرانِ، لم يحصُلْ لهم هدايةٌ ولا أمْنٌ، بل حظُّهُم الضَّلالُ والشَّقاءُ(٣).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ فيه أنَّ المُحاجَّةَ في اللهِ تارةً تكون موجِبَةً للمَدْحِ العظيمِ، والثَّناءِ البالغِ، وهي المُحاجَّة التي ذَكَرها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦-٤٤٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

إبراهيمُ عليه السَّلام، وذلك المَدْحُ والثَّناء هو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، وتارةً تكون موجِبَةً للذَّمِّ، وهو قوله: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾، ولا فَرْقَ بين هذينِ البابَينِ إلَّا أنَّ المُحاجَّةَ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ توجِبُ أعظَمَ أنواعِ المدحِ والثَّناءِ، والمحاجَّة في تقريرِ الدِّين الباطِلِ تُوجِبُ أعظَمَ أنواعِ الذَّمِّ والزَّجْر(١).

٢- قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إنَّما ذكَر عليه السَّلامُ هذا الاستثناءَ؛ لأنَّه لا يَبعُدُ أنْ يَحدثَ للإنسانِ في مستقبلِ عُمُرِه شيءٌ من المكارِهِ، والحمقى مِن النَّاسِ يحملون ذلك على أنَّه إنَّما حدث ذلك المكروهُ بسبب طعْنِه في الأصنامِ، فذكر إبراهيمُ- عليه الصلاة والسَّلام- ذلك حتى لو أنَّه حدث به شيءٌ من المكاره لم يُحمَلْ على هذا السَّبَب(٢).

٣- في قول إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ لَمَّا كان المحذورُ المنفيُّ هنا إنَّما هو خوفُ الضَّرَرِ من آلهَتِهم، وكان حصولُ الضَّرَر لمُخالِفِها بواسطة أتباعِها أو غيرِهم مِن سُنَنِ الله الجاريةِ في عباده؛ اقتصر الخليلُ عليه السَّلامُ على صفة الربوبيَّةِ المقتَضِيَة للرَّأفةِ والرَّحْمةِ والكفاية والحمايةِ، وقد وقع في قِصَّتِه الأمران: إمكانُهم من أسبابِ ضَرَرِه بإيقادِ النَّارِ، وإلقائِهم له فيها، ورحمته بِجَعْلِها عليه بردًا وسلامًا(٣).

٤- ذَكَرَ تعالى عَقِيبَ الاستثناءِ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ سَعَةَ عِلْمِ الله في تعلُّقِه بجميعِ الكوائنِ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ فقد لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٦).

يُستبعَدُ أن يتعلَّقَ عِلْمُه بإنزالِ المَخُوفِ بي، إمَّا من جِهَتِها إن كان استثناءً متَّصلًا أو مُطْلَقًا إن كان منقطِعًا(١).

٥- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه تنبيهٌ لهم على غَفلَتِهم- حيثُ عبَدوا ما لا يضرُّ ولا ينفَعُ، وأشركوا بالله- وعلى ما حاجَّهُم به؛ من إظهارِ الدَّلائلِ التي أقامَها على عَدمِ صلاحِيَّةِ هذه الأصنامِ للرُّبوبيَّة(٢).

٦- فائدةُ عَطْفِ قَولِه تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ على قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ بيانُ أنَّ عدمَ خَوفِه من آلهَتِهم أقلُّ عَجَبًا مِن عَدَمِ خَوْفِهم مِنَ الله تعالى، وهذا يؤذِنُ بأنَّ قَومَه كانوا يَعرِفونَ الله، وأنَّهم أشركوا معه في الإلهيَّة غيرَه؛ فلذلك احتجَّ عليهم بأنَّهم أشركوا بربِّهم المُعْتَرف به دون أن يُنْزِلَ عليهم سلطانًا بذلك(٣).

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ﴾ ولم يَقُلْ: (ولا تخافون الله)؛ لأنَّ القومَ كانوا يَعرفونَ اللهَ ويخافونَه، ولكنَّهم لم يخافوا الإشراكَ به(٤).

٨- قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لَمَّا خوَّفوه في مكانِ الأَمْنِ، ولم يخافوا في مكانِ الخَوْفِ؛ أبرَزَ الاستفهامَ في صورةِ الاحتمالِ، وإن كان قد عُلِم قطعًا أنَّه هو الآمِنُ لا هُم(٥).

٩- قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ورَدَ تَفسيرُ الظُّلمِ في هذِه الآيةِ بالشِّركِ؛ وذلِك أنَّ الشِّركَ جمَعَ بين

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠، ٥٧١).

الاعترافِ للهِ بالإلهيَّةِ، والاعترافِ لغيرِه بالرُّبوبيَّة أيضًا، ولَمَّا كان الاعترافُ لغيرِ اللهِ تعالى بذلك ظلمًا، كان إيمانُهم باللهِ مَخلوطًا بظُلمٍ، وهو إيمانُهم بغيرِه(١).

١٠- فَرَّقَ بعضُهم بين الأمْنِ والأمَنَة، فقالوا: الأمنُ يكونُ مع زوالِ أسبابِ الخوف، كقولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، والأمَنَةُ تكونُ مع بقاءِ أسبابِ الخَوفِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾(٢) [الأنفال: ١١].

١١- خصَّ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمخاطَبَةِ باسمِ الإحسانِ (رَبَّكَ) في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تنبيهًا على أنَّ حَجْبَه الدَّليلَ عمَّن يَشاءُ لِحِكَمٍ أرادها سبحانه، ففيه تسليةٌ له صلَّى الله عليه وسلَّم(٣).

١٢- قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن عَلَّمَه اللهُ الحُجَجَ، ومُناظراتِ الخُصومِ التي يُثْبِت بها التوحيدَ، ويدفَعُ بها شُبَهَ المُبْطِلينَ؛ أنَّ هذا رَفْعٌ من الله في درجاتِه؛ حيث أَتْبَعَ قولَه: ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيْمَ﴾ أتبعَه بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾(٤).

١٣- العِلمُ يَرفَعُ اللهُ به صاحِبَه فوق العبادِ دَرَجاتٍ، خصوصًا العالِمَ العامِلَ المُعَلِّمَ؛ فإنَّه يجعَلُه اللهُ إمامًا للنَّاسِ، بحَسَبِ حالِه؛ تُرمَقُ أفعالُه، وتُقتَفى آثارُه، ويُستضاءُ بنورِه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ كما رَفَعْنا درجاتِ إبراهيمَ- عليه السَّلامُ- في الدُّنيا والآخرةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

١٤- دلَّ قولُه: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ على أنَّ التكريمَ لا يكونُ لكُلِّ أحدٍ؛ لأنَّه لو كان حاصلًا لكُلِّ النَّاسِ لم يحصُلِ الرَّفْعُ ولا التفضيلُ[1].

١٥- قُدِّمَ ﴿حَكِيْمٌ﴾ على ﴿عَلِيْمٌ﴾؛ لأنَّ هذا التفضيلَ مُظهِرٌ للحِكمةِ، ثمَّ عَقَّبَ بـ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكامَ جارٍ على وَفْقِ العِلْمِ[2].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾

حُذِفَ مُتعَلَّقُ (حاجَّهُ) لدلالةِ المقام، ودلالةِ ما بعده عليه مِن قَوْلِه: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ الآيات[3].

- قوله: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ عليهم، وتأييسٌ من رجوعِه إلى معتقَدِهم[4].

- قوله: ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ حال من ياءِ المتكَلِّم في ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ مؤكِّدةٌ للإنكارِ؛ فإنَّ كونَه عليه السَّلامُ مَهدِيًّا من جهةِ الله تعالى ومؤيَّدًا من عنده ممَّا يوجِبُ استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السَّلامُ، أي: لا جدوى لِمُحاجَّتِكم إيَّاي بعد أنْ هداني اللهُ إلى الحقِّ، وشأنُ الحالِ المؤكِّدةِ للإنكارِ أن يكونَ اتِّصافُ صاحِبِها بها معروفًا عند المخاطَبِ؛ فنزَّلَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ في خطابِه منزلةَ مَن يعلمُ أنَّ اللهَ هداه؛ كنايةً على ظهورِ دلائلِ الهدايةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٧).

٢- قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ إمَّا معطوفٌ على ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ فيكونُ إخبارًا، أو على جملةِ ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ فيكونُ تأكيدًا للإنكارِ، وتأكيدُ الإنكارِ بها أظهر منه لقوله: ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾؛ لأنَّ عدمَ خوفِه من آلِهَتِهم قد ظهرتْ دلائِلُه عليه، فقومه إمَّا عالِمون به، أو مُنَزَّلون منزلةَ العالِم[(١)].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ توكيدُ الفعلِ ﴿يَشَاءَ﴾ بقوله: ﴿شَيْئًا﴾، وهو مَنصوبٌ على أنَّه نائبٌ عن المصدَرِ، أي: مَشيئةً؛ تقديرُه: إلَّا أنْ يَشاءَ ربِّي شيئًا مِنَ المَشيئةِ؛ لأنَّ الكلامَ المؤكَّد أقْوَى وأثبَتُ في النَّفْسِ من غيرِ المؤكَّدِ[(٢)].

- قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناءٌ مِمَّا قبله؛ فإنَّه لَمَّا نفَى أنْ يكونَ يَخافُ إضرارَ آلهَتِهم، وكان ذلك قدْ يَتوهَّم منه السَّامعونَ أنَّه لا يَخافُ شيئًا، استدرَكَ عليه بما دَلَّ عليه الاستثناءُ المنقَطِع، أي: لكنْ أخافُ مَشيئةَ ربِّي شيئًا مِمَّا أخافُه، فذلِك أخافُه، وفي هذا الاستدراكِ زِيادةُ نكايةٍ لقومِه؛ إذ كان لا يَخافُ آلِهَتهم في حين أنَّه يَخْشَى ربَّه المُستَحِقَّ للخَشيةِ إنْ كان قومُه لا يَعترِفون بربٍّ غيرِ آلهتِهم[(٣)].

- قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ عليهم؛ لعَدَمِ تذكُّرِهم، مع وُضوحِ دَلائلِ التذكُّرِ، والمرادُ التذكُّر في صِفاتِ آلهتِهم المنافِيَةِ لِمَقامِ الإلهيَّةِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٩).

٣- قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- الاستفهامُ بـ﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مِن تخويفِهم إيَّاه بما لا يُخيف؛ فمعناه التعجُّبُ، وإنكارُ الوقوعِ، ونَفْيُه بالكليَّة، كأنَّه تعجَّبَ من فَسادِ عُقولِهم؛ لأنَّهم دَعَوْه إلى أنْ يَخافَ بأسَ الآلهةِ؛ حيثُ خوَّفوه خَشَبًا وحِجارةً، لا تضرُّ ولا تنفَعُ، وهم لا يَخافونَ عُقْبى شِرْكِهم باللهِ، وهو الذي بيدِه النَّفْعُ والضُّرُّ، والأمرُ كلُّه(١).

- وقد حَذَفَ متعلِّق الشِّرْك في مَقامِ إنكارِ خوفِه من شركائِهم، وذَكَرَه بعدَه في مقامِ إنكارِ عَدَمِ خَوْفِهم مِن شِرْكِهم؛ فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؛ لأنَّ الحاجةَ إلى بَيانِ عَدَمِ وجودِ السُّلطانِ- أي الدَّليل- على هذا الشِّرْك إنَّما يُحتاجُ إليه في مقامِ إسنادِه إليهم، والتعجُّبِ مِن عَدَمِ خَوفِهم سوءَ عاقِبَتِه، ما لا يُحتاجُ إليه في مقامِ إنكارِه هو كلَّ حالٍ يُمكِنُ أن تُدعَى لخَوفِه من شركائِهم، فهو يُثْبِت بذلك الإطلاقِ أنَّه لا يُمكِن أن توجَدَ حالٌ ولا صفَةٌ للخوفِ مِمَّا أشركوه، فلو عَدَلَ عنه إلى تقييدِ إنكاره بما ذُكِرَ؛ لَفاتَ بهذا القَيدِ ذلك العمومُ البليغُ، وذهَبَ ذِهْنُ السَّامعين إلى أنَّه سيخاف إذا ظهَرَ له دليلٌ على صحَّةِ دعواهم، وهم قومٌ مُقَلِّدون يعتقدونَ أنَّه لا بدَّ من وجود أدلَّةٍ تُثْبِت صحَّةَ اعتقادِهم، وإن لم يَعْرِفوها أو يَقْدِروا على بيانِها لِخَصْمِهم، وأمَّا ذِكْر هذا المتعلَّق في مقامِ الإنكارِ التعجُّبي مِن عَدَمِ خَوْفِهم فهو ضروريٌّ، لأنَّه تذكيرٌ لهم عند ذِكْر عقيدَتِهم بأنَّهم لا عُذْرَ لهم بالجَهْلِ ببطلانِها؛ لأنَّه لا دليلَ لهم عليها(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨١).

- قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ الاستفهامُ للتَّقريرِ بأنَّ فريقَه هو وحْدَه أحقُّ بالأمْنِ[1].

- وقال: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: (فأيُّنا أحقُّ بالأمْن أنا أم أنتُم)؛ احترازًا مِن تزكيَتِه نفسَه، فعدَل عنه إلى قولِه: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: فريقَيِ المشركين والموحِّدينَ، ويحتمل أن يكونَ العدولُ إلى ذلك؛ ليعُمَّ بالأمنِ كلَّ موحِّدٍ، وبالخوفِ كلَّ مُشْرِكٍ، ويندرجُ هو في حُكم الموحِّدينَ، وقومُه في حُكْمِ المشركينَ؛ فتكونُ نكتةُ عُدولِه عن قولِ: (فَأَيُّنَا أحقُّ بالأمْنِ)، إلى قَوْلِه: ﴿فأيُّ الْفَرِيْقَيْنِ﴾ هي بيانَ أنَّ هذه المقابَلَةَ عامَّةٌ لكُلِّ موحِّدٍ ومُشْرِكٍ، منْ حيثُ إنَّ أحَدَ الفَريقينِ مُوَحِّدٌ والآخَرَ مُشرِكٌ، لا خاصَّةً به وبهم؛ فهي متضمِّنةٌ لعِلَّةِ الأَمنِ، وأحسنُ الجوابِ ما أفادَ وزاد[2].

وقيل: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ على غَيرِ بابِه؛ فالمرادُ أيُّنا الحقيقُ بالأَمْنِ، ولكنَّه عبَّرَ باسمِ التَّفضيلِ ناطقًا في استنزالِهم عن مُنتهى الباطِلِ- وهو ادِّعاؤُهم أنَّهم هم الحقيقونَ بالأمْنِ، وأنَّه هو الحقيقُ بالخوف- إلى الوَسَطِ النَّظريِّ بين الأمرَينِ، وهو (أيُّ الفَريقَينِ أحقُّ)، واحترازًا عن تَنفيرِهم من الإصغاءِ إلى قولِه كُلِّه[3]، وإنَّما جِيءَ بصِيغة التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ المُشعِرَةِ باستحقاقِهم له في الجُملةِ؛ لاستنزالِهم عن رُتبةِ المكابرةِ والاعتِساف، بسَوْقِ الكلامِ على سَنَنِ الإنصاف[4].

٤- قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦).

مُهْتَدُونَ﴾ على القولِ بأنَّ هذه الجُملةَ مِن حِكايةِ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيكون جوابًا منه عن قولِه: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؛ تولَّى جوابَ استفهامِه بنَفْسِه، ولم يَنتظِرْ جوابَهم؛ لكونِ الجوابِ ممَّا لا يَسعُ المسؤولَ إلَّا أن يُجيبَ بمِثْله، وهو تبكيتٌ لهم. وعلى القول بأنَّه كلامٌ مُستأنَفٌ مِن الله تعالى؛ لابتداءِ حُكمٍ، فتكونُ الجملةُ مُستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا؛ تصديقًا لقولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ(١).

- والإشارة بـ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾؛ للتَّنْبيهِ على أنَّ الموصولَ المُسْنَدَ إليه ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ جَدِيرٌ بالمُسْنَدِ في ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ مِن أجْلِ ما تقدَّمَ من أوصافِ المُسْنَدِ إليه، وهو وصْفُهم بالإيمانِ الخالِصِ عن شَوْبِ الشِّركِ ﴿آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، وإيذانًا بأنَّهم تميَّزوا بذلِك عن غيرِهم، وانْتَظَموا في سلكِ الأمورِ المشاهَدة(٢).

- وما في الإشارةِ بـ﴿أُولَئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ درجتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الشَّرفِ(٣).

- وقوله: ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ أشارَتِ اللامُ إلى أنَّ الأمْنَ مُختصٌّ بهم وثابتٌ، وهو أبلغُ مِن أن يُقالَ: آمنونَ(٤).

٥- قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١- ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).

- قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾: أضاف الحُجَّةَ إليه تعالى على سَبيلِ التَّشريفِ، ولِلتَّنويهِ بِشَأنِها وَصِحَّتِها(١).

- قوله: ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ فيه تشبيهُ الغالِبِ بالمستعْلِي، المتمكِّنِ مِن المغلوبِ(٢).

- قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الاستقبالِ ﴿نَرْفَعُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك سُنَّةٌ مستمِرَّةٌ جارِيَةٌ فيما بين المُصطَفَينَ الأخيارِ، غيرُ مختصَّةٍ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ(٣).

- وعلى قراءة (يَرْفَعُ) بالياء، يكون فيه التفاتٌ(٤).

- وتقديمُ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ وتأخيرُ المفعولِ ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ للاعتناءِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ(٥).

- والإتيانُ بصيغَةِ الجَمعِ في ﴿دَرَجَاتٍ﴾ باعتبارِ صَلاحِيَّةِ ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ لأفرادٍ كثيرينَ، متفاوِتينَ في الرِّفعةِ(٦).

- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يُثير سؤالًا، يقول: لِماذا يُرفَعُ بعضُ النَّاسِ دون بعضٍ، فأُجِيبَ بأنَّ اللهَ يَعلمُ مُستحِقَّ ذلك ومِقدارَ استحقاقِه، ويخلُقُ ذلك على حَسَبِ تعلُّقِ عِلْمِه(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ويحتملُ أنْ يكونَ الخِطابُ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتَملُ أنْ يكونَ المرادُ به إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيكونُ من بابِ الالْتِفاتِ، ويكونَ الخروجُ مِن ضميرِ الغَيبةِ إلى ضميرِ الخِطابِ على سبيلِ التَّشريفِ بالخِطابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣).

الآيات (٨٤ - ٩٠)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾: أي: أولادِهم، وأولادِ أولادِهم، و(ذُرِّيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّريَّة خَلْقُ اللهِ؛ يُقال: ذَرَأ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلقَهم فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[1].

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾: اصطفَيناهم، وخصَّصْناهم بالفَضْل، والاجتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، وأصلُ (جبي): يدلُّ على جمعِ الشَّيءِ، والتجمُّعِ[2].

﴿لَحَبِطَ﴾: أي: بَطَل؛ فالحَبَط: البُطلانُ والألَم، وأصْلُه: أن تُكْثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى ينتفِخَ بطنُها، فتموتَ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، =

﴿الْحُكْمَ﴾: أي: الفَهمُ بالكِتابِ، ومعرفةُ ما فيه مِن الأحكامِ، وأصل (حكم): منْعٌ يُرادُ به إصلاحٌ، وهو المنعُ مِن الظُّلم، ومنه سُمِّي العَقلُ حَكَمةً؛ لأنَّه يمنعُ صاحبَه مِن الجَهلِ، والمنعُ جزءٌ مِن معنى الإحكامِ لا جميعُ مَعْناه[1].

﴿اقْتَدِهْ﴾: أي: اهتَدِ واتَّبِعْ، واعْمَلْ وخُذْ به واسْلُكْه، وأصلُ (قدو): اقتباسٌ بالشَّيءِ واهتداءٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخْبِر تعالى أنَّه وَهَب لإبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يعقوبَ، وقد هداهم كلَّهم إلى الصِّراطِ المستقيمِ، ونوحًا هداه اللهُ من قبلهم، وهدى مِن ذُرِّيَّتِه داودَ، وسليمانَ، وأيُّوبَ، ويوسُفَ، وموسى، وهارونَ؛ عليهم السَّلامُ، وكما جزى اللهُ هؤلاء الرُّسُلَ فوفَّقَهم للصِّراطِ المُستقيمِ، فسيَجزي هذا الجزاءَ كُلَّ مَن أحسَنَ عَمَلَه للهِ.

وهدَى سبحانه وتعالى زكريَّا ويَحيَى وعيسى وإلياسَ، وكلُّ هؤلاءِ مِن الصَّالحينَ، وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونُسَ ولوطًا هداهم كذلِك، وكُلًّا فَضَّلَهم اللهُ على العالَمينَ.

وهدَى الله أيضًا بعضًا مِن آباءِ مَن تقدَّم ذِكْرُهم من الأنبياءِ والمُرسَلينَ، وبعضَ ذُرِّيَّاتِهم، وبعضَ إخوانِهم، واصطفاهم واختارَهم لِدِينِه، وهداهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

ذلك الهُدى الذي هدى اللهُ به من تقدَّمَ ذِكْرُهم هو هُدى اللهِ، الذي لا هُدى إلَّا هُداه، فيوفِّقُ لإصابَةِ الحَقِّ من يشاءُ مِن عِبادِه، ولو أشرك هؤلاءِ الأنبياءُ والمُرْسَلونَ بالله تعالى غَيرَه، لبَطَلَ وذَهَبَ عنهم أجْرُ ما عَمِلوه من الخَيرِ.

ثم أخبرَ تعالى أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ والرُّسُلَ المذكورينَ همُ الذينَ أعطاهم الكتبَ المنزلةَ عليهم، ومعرفةَ ما فيها مِن أحكامٍ، والنبوَّةَ، فإنْ يكفُرْ بها هؤلاءِ من كفَّارِ قريشٍ وغيرِهم مِن سائِرِ أهْلِ الأرضِ؛ فقد وكَّلَ اللهُ تعالى بها قومًا آخَرينَ وَفَّقَهم للإيمانِ بها.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّ أولئك الأنبياءَ والرُّسُلَ همُ الذين هداهُم اللهُ لِدينِه الحَقِّ، والقيامِ به واتِّباعِه، وأمَرَ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَقتدِيَ بهداهم، وأنْ يقول للمُشركينَ: لا أسألُكم على تبليغي إيَّاكم الدِّينَ أجرًا، إنْ هو إلَّا تذكيرٌ وعِظَةٌ للعالَمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عبدَه وخليلَه، إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذَكَر ما مَنَّ اللهُ عليه به؛ من العِلْم والدَّعوةِ، والصَّبْر- ذَكَرَ ما أكرَمَه اللهُ به من الذُّرِّيةِ الصَّالحَةِ، والنَّسْل الطيِّبِ، وأنَّ اللهَ جَعَلَ صفوةَ الخَلقِ مِن نَسْلِه، وأَعْظِمْ بهذه المنقبَةِ والكرامَةِ الجسيمةِ، التي لا يُدْرَكُ لها نظيرٌ[1]! فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

أي: مَنَحْنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ابنَه إسحاقَ وابنَ ابنِه يعقوبَ، وقد هَدَيْنا جميعَهم الصِّراطَ المستقيمَ، ووفَّقْناهم للحَقِّ القويمِ(١).

كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ شَرَفَ أبناءِ إبراهيمَ، ذَكَرَ شَرَفَ آبائِه؛ فذكَرَ نوحًا(٢)، فقال:

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

أي: وهَدَينا نوحًا مِن قبلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فوفَّقناهُ للحَقِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٠-٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

أي: وهَدَيْنا أيضًا من ذريَّةِ نوحٍ دَاودَ وسُليمانَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسى وهارونَ، عليهم السَّلامُ(١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: وكما جَزَيْنا هؤلاءِ الرُّسُلَ الكِرامَ، فوفَّقناهم لطريقِ الصَّوابِ؛ لحُسْنِ طاعَتِهم إيَّانا، وصَبْرِهم على الْمِحَنِ فينا، كذلك نَجزي بهذا الجزاءِ الحَسَنِ كلَّ مَن أحسَنَ عَمَلَه لله تعالى، فنجعَلُ له أيضًا من التَّوفيقِ، وإصابَةِ الحَقِّ، والثَّناءِ الجميلِ، والذريَّةِ الصَّالحةِ، بحَسَب إحسانِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

أي: وهدَيْنا للحَقِّ أيضًا زكريَّا ويحيى وعيسى وإلياسَ، وهؤلاءِ من الصَّالحينَ في نِيَّاتِهم وأخلاقِهم، وأعمالِهم وعُلومِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٥-٤٥٧).
واختار أنَّ الضميرَ في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ يعودُ على نوحٍ عليه السَّلام: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٣٨١-٣٨٢)، وابنُ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٣١٦)، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٣٣٨).
وممن قال من السَّلف بذلك: ابنُ عبَّاس، ومقاتلٌ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠).
واختار أنَّ الضمير يعودُ على إبراهيمَ عليه السَّلام: القرطبي في ((تفسيره)) (٧/ ٣١).
وممن قال مِن السَّلف بذلك: عطاءٌ، ويحيى بنُ يعمرَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٣٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٧-٤٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٢).

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وهدَيْنا للحَقِّ أيضًا إسماعيلَ والْيَسَع ويونُسَ ولوطًا، وفضَّلناهم على العالَمينَ في أزمانِهم(١).

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَصَّ اللهُ سبحانه على مَن ذَكَر من الأنبياءِ عليهم السَّلام، وخَتَم بتفضيلِ كلٍّ على العالَمينَ- أتبَعَه على سبيلِ الإجمالِ أنَّ غيرَهم كان مَهدِيًّا، فرَغَّبَ في سلوكِ هذا السَّبيلِ بكثرَةِ سالِكيه، وحَثًّا على منافَسَتِهم في حُسنِ الاستقامةِ عليه، والسُّلوكِ فيه(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى هؤلاءِ الرُّسُلَ الكِرامَ، ذَكَرَ أنَّه هدى بعضَ أُصولِهم وفُروعِهم وبَعضَ حواشِيهم(٣)، فقال:

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: وهَدَيْنا أيضًا بعضَ آباءِ مَن تقدَّم ذِكْرُهم؛ من الأنبياءِ والرُّسُلِ الكرامِ عليهم السَّلامُ، وهدَيْنا بعضَ ذُرِّيَّاتهم، وبعضَ إخوانِهم، واختَرْناهم لِدينِنا، وإبلاغِ رِسالَتِنا إلى من أَرْسَلْناهم إليه، وسدَّدْناهم، فأرشَدْناهم إلى طريقِ الحقِّ الذي لا عِوَجَ فيه، والدِّينِ الخالِصِ الذي لا شِرْكَ فيه، فوفَّقناهم لاتِّباعِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٤-٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٢-٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٥-٣٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٩-٣٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: هذا الهُدى الذي هُدِيَ به أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ، فوُفِّقُوا للحَقِّ، هو هُدَى اللهِ الذي لا هُدَى إلا هُداه، فيُوفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ مَن يَشاءُ اللهُ هدايتَه من عبادِه[1].

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولو أنَّ هؤلاء الأنبياءَ والرُّسُلَ الكِرامَ الذين هداهم اللهُ أَشْرَكوا بِرَبِّهم سبحانه وتعالى- على سبيلِ الفَرْضِ والتقديرِ- لبَطَلَ وذهب عنهم أجْرُ جميعِ ما عَمِلوه من الخيرِ؛ فاللهُ تعالى لا يَقبَلُ مع الشِّرْك به عملًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨).

قال ابنُ كَثير: (وهذا شرْطٌ، والشرْطُ لا يَقتضي جوازَ الوقوع؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩).

وقد ذكر بعض أهل العِلم أنَّ حبوطَ عمَلِ المرء مقيَّدٌ بما لو مات على الشِّرك بالله تعالى؛ بدليل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨-٤٧٠).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ أنَّه تعالى فضَّلَهم واجتباهم وهداهم؛ ذَكَرَ ما فُضِّلوا به[1]، فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

أي: أولئك الَّذين سَمَّيناهم من الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلام، هم الذين أعطيناهم الكِتابَ، كصُحُفِ إبراهيمَ، وتوراةِ موسى، وزبورِ داودَ، وإنجيلِ عيسى عليهم السَّلامُ، ومنَحْناهم الفَهْمَ بالكتابِ، ومعرفةَ ما فيه من الأحكامِ، والاطِّلاعَ على دقائِقِه، وأكْرَمْناهم بجَعْلِهم أنبياءَ[2].

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فإنْ يَكفُرْ- يا محمَّدُ- قومُك مِن كفَّارِ قريشٍ[3] بما آتيناكَ من الكتابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) واختار أنَّ المراد بـ﴿هؤلاء﴾ كفارُ قريشٍ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وقد تقصَّيت مواقعَ آيِ القرآنِ فوجدتُه يعبِّر عن مشركي قريشٍ كثيرًا بكلمة (هؤلاء)، كقوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٩] ولم أرَ مَن نبَّه عليه مِن قبلُ) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٣).

واختار ابنُ عطيةَ والقرطبيُّ أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى كفَّار قريشٍ وغيرِهم مِن الكفَّار في عصرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤).

والحُكْمِ والنبوَّةِ[(١)]، فقد رزَقْناها قومًا آخرينَ[(٢)]، ووفَّقْناهم للإيمانِ بها، وهيَّأْناهم لها؛ حتى يَقوموا بها، ويُحافِظُوا عليها؛ فيعبُدوني ويوحِّدوني كما ينبغي[(٣)].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾.

أي: أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ الكرامُ، هم الذين هداهم اللهُ لِدينِه الحَقِّ، والقِيامِ به، واتِّباعه، فَسِرْ خَلْفَهم- يا محمَّدُ- واتَّبِعْ مِلَّتَهم، واعْمَلْ بما عَمِلوا، وخُذْ سبيلَهم الذي سلكوا[(٤)].

(١) قيل: المرادُ يَكفُرون بهذه الثلاثة، وقيل: يَكفُرون بالنبوَّة، وقيل: يكفرون بالقُرآن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٦-٤٧٧).

(٢) قيل: المرادُ بالقوم الآخَرين: الأنبياءُ الثَّمانيةَ عَشَرَ الذين سمَّاهم اللهُ تعالى ذِكرُه في الآياتِ قبلَ هذه الآية. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) ((٩/ ٣٩٠-٣٩١)، واستظهره الشُّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٧٨).

وقيل المراد: المهاجِرون والأنصارُ وأتْباعهم إلى يومِ القِيامة. وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٩).

وقيل: تَشملُ كلَّ مؤمنٍ آمَن بالله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٨).

ويرَى الشُّنقيطيُّ أنَّه لا تعارُضَ بين هذه الأقوال، حيث قال: (وهؤلاءِ القومُ المؤمنون- الذين هُم ليسوا بها بكافرين، الذين وكَّلهم الله بالإيمانِ بها- للعلماءِ فيهم أوجهٌ مِن التَّفسير، لا يُكذِّب بعضُها بعضًا) ((العذب النمير)) (١/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٨-٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٦-٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩١-٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

والهاءُ في قولِه: ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ هي هاءُ السَّكْت دخلَتْ لتتبيَّنَ بها حركةُ الدَّالِ. يُنظر: ((إعراب ثلاثين سورة)) لابن خالويه (ص: ١٦٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٠)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ١٤٠).

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالى بالاقتداءِ بهُدى الأنبياءِ- عليهم السَّلامُ- المتقدِّمينَ، وكان من جملةِ هُداهم تَرْكُ طَلَبِ الأجرِ في إيصالِ الدِّينِ، وإبلاغِ الشَّريعةِ؛ لا جَرَمَ اقتدَى بهم في ذلك، فقال[1]:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لِمُشْركي قومِك: لا أسألُكم على تذكيري إيَّاكم، ودعوتي لكم، وإبلاغِكم هذا القرآنَ، أُجْرةً أنالُها منكم[2].

وهذه عادةُ كلِّ الأنبياءِ؛ يُبلِّغونَ العِلمَ من غير أنْ يأخُذوا عليه جُعْلًا؛ ﴿اتَّبِعُوْا الْمُرْسَلِيْنَ * اتَّبِعُوْا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠-٢١]، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقد ذكَر اللهُ قَصَص الأنبياءِ في سورةِ الشُّعراء؛ قصَّةَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعيبٍ، كلٌّ واحدٍ يقولُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، وذكَرَ عن نوحٍ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وهذه عادةُ الرُّسُلِ؛ يُبلِّغون ويبذُلونَ العِلمَ والنَّصائِحَ والخَيرَ مجَّانًا مِن غيرِ عِوَضٍ في ذلك[3].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾.

أي: وما ودَعْوتي، وتَبليغي القرآنَ الذي جئتُ به، إلَّا تذكيرٌ، وعِظَةٌ للعالَمينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٤-٤٩٥).

فيتذكَّرونَ، ويتَّعظونَ بما فيه من الغرائِبِ والعجائِبِ، فيَرشُدونَ مِنَ العَمَى إلى الهُدى، ومِنَ الكُفْر إلى الإيمان، ويتذكَّرونَ بأْسَ اللهِ أن يحُلَّ بهم، وسَخَطَه أن يَنْزِلَ بهم على شِرْكهم وكُفرِهم به، ويتذكَّرون ما ينفَعُهم فيفعلونَه، وما يضرُّهم فيترُكونَه، ويتذكَّرون معرفةَ رَبِّهم بأسمائِه وأوصافِه، ويتذكَّرونَ به الأخلاقَ الحميدةَ وما يُوصِلُ إليها، والأخلاقَ الرذيلةَ، وما يُفْضي إليها[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ كان هذا مجازاةً لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، حين اعتزَلَ قَومَه وترَكَهم، ونَزَح عنهم، وهاجَرَ من بلادهم؛ ذاهبًا إلى عبادَةِ اللهِ في الأرض، فعوَّضَه اللهُ عزَّ وجلَّ عن قومِه وعَشيرَتِه بأولادٍ صالحينَ مِن صُلْبِه على دِينِه؛ لتَقَرَّ بهم عينُه؛ لأنَّه هَجَر الوطنَ للهِ تعالى، وخرَج عن الأقرباءِ والأحبَّاءِ، وقد أوضَحَ الله ذلك في سورةِ مريمَ؛ حيث قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، ويُفهَم من هذه الآياتِ: أنَّ مَن هَجَر الأوطانَ والأقارِبَ للهِ أقرَّ اللهُ عينَه مِن ظَهْرِه بما يُسَلِّيه عنهم[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن أحسَنَ العمَلَ لله زادَه اللهُ هُدًى؛ لأنَّ التشبيهَ في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِيْ﴾ عائدٌ إلى الهُدى في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوْحًا هَدَيْنَا﴾[٣].

٣- الترهيبُ من الشِّرْك؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٨).

بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلو أنَّ هؤلاءِ العِبادَ المَهديِّينَ حادُوا عن توحيدِ الله تعالى، وأشْرَكوا باللهِ تعالى؛ فإنَّ مَصيرَهم أنْ يَحْبَطَ عنهم عملُهم، أي: أن يذهَبَ ضياعًا ويَهْلِك(١).

٤- أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو المتفَضِّلُ بالهداية على العبادِ؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابتدأ سبحانه بهما عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ السِّياقَ للامتنانِ على إبراهيمَ الخليلِ عليه السَّلامُ، وهو أشدُّ سُرورًا بابْنِه الذي مُتِّعَ به، ولم يؤْمَر بفراقِه، وابنِ ابنِه الذي أكثرُ الأنبياءِ الدَّاعينَ إلى اللهِ مِن نَسْلِه ومن خواصِّه، وهو الموجِبُ الأعظمُ للبَداءةِ أنَّ أبناءَه طَهَّروا الأرضَ المُقدَّسَة التي هي مُهاجَرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ومُختارُه للسُّكْنى بنفْسِه ونَسْلِه، بل مُختارُ اللهِ له ولهم بَعْدَه بِمُدَدٍ، طَهَّروها من الشِّرْك وعبادَةِ الأوثانِ، ودَعَوْا إلى الله، ونَوَّروا الأرضَ بعبادَتِه(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ ذَكَر في مَعرِض الامتنانِ مِن أولادِ إبراهيمَ إسحاقَ، ولم يَذكُر معه إسماعيلَ، بل أخَّره عنه بدَرجاتٍ، مع أنَّه أكبرُ منه؛ وذلك لأنَّ المِنَّةَ كانت في هِبةِ إسحاقَ أظهرَ، أو لأنَّ المقصودَ بالذِّكرِ هاهنا أنبياءُ بني إسرائيلَ، وهم بأَسْرِهم أولادُ إسحاقَ ويعقوبَ، وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه ما خرج من صُلْبِه أحدٌ من الأنبياءِ إلَّا محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وآلِهِ وسَلَّمَ، ولا يجوزُ ذِكْرُ محمَّدٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ في هذا المقامِ، لأنَّه تعالى

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧٠).

أمَرَ محمدًا عليه الصَّلاة والسَّلامُ أن يحتَجَّ على العَرَبِ في نَفْيِ الشِّرْكِ بالله بأنَّ إبراهيمَ لَمَّا تَرَكَ الشِّرْكَ، وأصَرَّ على التوحيدِ رَزَقَه اللهُ النِّعَمَ العظيمةَ في الدِّينِ والدنيا، ومن النِّعَم العظيمةِ في الدُّنيا أنْ آتاه اللهُ أولادًا كانوا أنبياءَ ومُلوكًا، فإذا كان المحتَجُّ بهذه الحُجَّة هو محمدٌ عليه الصلاةُ والسَّلام امتنع أن يَذْكُرَ نَفْسَه في هذا المَعْرِضِ؛ فلهذا السَّبَبِ لم يُذْكَر إسماعيلُ مع إسحاقَ(١).

٣- مِن تمامِ إقرارِ العينِ بالوَلَدِ كونُه صالحًا مَهدِيًّا؛ لأنَّ الوَلَدَ إذا كان غيرَ صالحٍ لم يَكُنْ قُرَّةَ عينٍ، فهِبَتُه والنِّعمةُ به إنَّما تَتِمُّ إذا كان مَهْدِيًّا، لا إنْ كان غيرَ مهدِيٍّ؛ ولذا قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾(٢).

٤- في قولِ الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ إنَّما ذَكَرَ نوحًا؛ لأنَّه جَدُّ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ فهو لبيانِ نِعَمِ الله عليه في أفضَلِ أُصولِه؛ تمهيدًا لبيان نِعَمِه عليه في الكثيرِ من فُروعِه(٣).

وأيضًا لَمَّا كانتْ قِصَّةُ نوحٍ شبيهةً بقصَّةِ إبراهيمَ؛ ذَكَرَه معه، وبَيَّنَ أنَّه هَدَى نُوحًا مِنْ قَبْلِ إبراهيمَ، كما هَدَى إبْرَاهِيمَ؛ لأنَّ نبيَّ اللهِ نوحًا نشأَ في قومٍ يعبدونَ الأصنامَ، وهو أوَّلُ نبيٍّ أُرْسِلَ لقومٍ يَعبدونَ الأصنامَ، وجادلوه جدًّا في الأوثانِ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣- ٢٤]، وكان يُجادِلُهم في عبادةِ الأصنامِ حتى قالوا له: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وكان إبراهيمُ نشأَ في قومٍ يَعبدونَ أجرامَ السَّماءِ وأجرامَ الأَرْضِ كذلك، وخاصَمَهم مثلَ مُخاصَمَةِ نوحٍ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٨).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

وأيضًا لَمَّا كان ربَّما وَقَعَ في وَهْمٍ أنَّ هدايةَ كُلٍّ مِن إسحاقَ وابنِه بتربيةِ أبيه، ذَكَرَ من آباءِ الخليلِ نوحًا عليهما السَّلام؛ لدَفْعِ ذلك، ولأنَّ السِّياقَ لإنكارِ الأوثانِ، وهو أوَّلُ من نهى عن عبادَتِها، وهو أجَلُّ آباءِ الخليلِ عليه السَّلامُ[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ... وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ المقصودُ من هذه الآياتِ تعديدُ أنواعِ نِعَمِ اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ جزاءً على قيامِه بالذَّبِّ عن دلائِلِ التَّوحيدِ[(٢)].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، (مِن قبلُ) حالٌ من ﴿نوحًا﴾؛ وفائدةُ ذِكْر هذا الحالِ التنبيهُ على أنَّ الهدايةَ مُتأصِّلةٌ في أصولِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ[(٣)]، وأثْبتَ الجارَّ ﴿مِنْ﴾ وقطَعَ ﴿قَبْلُ﴾ عنِ الإضافةِ؛ لتراخِي زمانِ إسحاقَ ويعقوب عليهما السَّلامُ كثيرًا عن زمانِ نوحٍ عليه السَّلام[(٤)].

٧- ذَكَرَ الله تعالى أوَّلًا أربعةً من الأنبياءِ؛ وهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، ثمَّ ذَكَر من ذُرِّيَّتِهم أربعةَ عَشَرَ من الأنبياءِ: داودَ، وسُليمانَ، وأيوبَ، ويوسفَ، وموسى، وهارونَ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسى، وإلياسَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، ويونُسَ، ولوطًا، والمجموعُ ثمانيةَ عَشَر؛ فإنْ قيل: رِعايةُ الترتيب واجبةٌ، والترتيبُ إمَّا أن يُعتبَر بحَسَب الفَضْل والدَّرَجة، وإمَّا أن يُعتبَر بحسَبِ الزَّمانِ والمدَّة، والترتيبُ بحَسَب هذين النَّوعينِ غيرُ مُعتبَر في هذه الآيةِ؛ فما السَّبَبُ فيه؟

فقيل: حرْف الواوِ لا يوجِبُ الترتيبَ، وأحدُ الدَّلائلِ على صِحَّةِ هذا المطلوبِ هذه الآيةُ؛ فإنَّ حرْف الواوِ حاصِلٌ هاهنا مع أنَّه لا يُفيدُ الترتيبَ البتَّةَ، لا بِحَسَب

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧١-١٧٢).

الشَّرَف، ولا بحَسَب الزَّمانِ، وقد يُقالُ: إنَّ هناكَ وجهًا مِن وجوهِ التَّرتيبِ؛ وذلك لأنَّه تعالى خَصَّ كلَّ طائفةٍ من طَوائِفِ الأنبياءِ بنوعٍ من الإكرامِ والفَضْلِ؛ فمِن المراتبِ المعتبَرة عند جمهورِ الخَلقِ: الملكُ والسُّلْطانُ والقُدرة، واللهُ تعالى قدْ أعطَى داودَ وسُليمانَ من هذا البابِ نصيبًا عظيمًا. والمرتبة الثانية: البلاءُ الشديدُ، والمحنةُ العظيمةُ، وقد خصَّ اللهُ أيُّوبَ بهذه المرتبةِ والخاصيَّة. والمرتبة الثالثة: مَن كان مُستجمِعًا لهاتينِ الحالتَينِ، وهو يُوسفُ عليه السَّلام؛ فإنَّه نال البلاءَ الشديدَ الكثيرَ في أوَّلِ الأمْر، ثم وصَلَ إلى المُلكِ في آخِرِ الأمْرِ. والمرتبة الرابعة: مِن فضائلِ الأنبياءِ عليهم السَّلام وخواصِّهم قوَّةُ المعجزاتِ وكثرةُ البَراهينِ، والمهابةُ العظيمةُ والصولةُ الشَّديدةُ، وتخصيصُ اللهِ تعالى إيَّاهم بالتقريبِ العظيمِ والتكريمِ التامِّ، وذلك كان في حقِّ موسى وهارون. والمرتبة الخامسة: الزُّهدُ الشَّديدُ، والإعراضُ عن الدُّنيا، وذلك كما في حقِّ زكريَّا ويحيى وعيسى وإلْياس. والمرتبة السَّادسة: الأنبياءُ الذين لم يَبْقَ لهم فيما بين الخَلْقِ أتْباعٌ وأشياع، وهم إسماعيلُ واليَسَعُ ويُونُسُ ولُوطٌ؛ فإذا اعتُبِرَ هذا الوجهُ، ظهَرَ أنَّ الترتيبَ حاصلٌ في ذِكرِ هؤلاءِ الأنبياءِ عليهم السَّلام بحسَب هذا الوَجهِ[1].

٨- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ اسمَ الذريَّةِ يتناولُ الكِبارَ[2].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ لَمَّا كان يوسُفُ عليه السَّلامُ مِمَّن أعلى اللهُ كَلِمَتَه على كَلمةِ مَلِكِ مِصرَ، وأعَزَّ مُلْكَها وأهْلَها وأحياهم به- أتْبعَه مَن أَعْلى اللهُ كَلِمَتَهما على كَلمةِ مَلِكِ مِصرَ وأهْلِها، وأهلَكَهُم بهما، فكأنَّ بعضَ قَصَصِهم وِفاقٌ، وبعضُها تَقابُلٌ وطباقٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٢- ٥٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣- ٥٧٤).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧٥).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيه وصفُهم بالصَّالحين؛ لأنَّهم قد امْتازوا في الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بشدَّةِ الزُّهْد في الدُّنيا والإعراضِ عن لذَّاتها، والرَّغبةِ عن زِينَتِها وَجَاهِها وسُلْطانِها؛ ولذلك خصَّهم هنا بوَصْفِ الصَّالحينَ، وهو أَليَقُ بهم عند مُقابَلَتِهم بغَيرِهم، وإنْ كان كلُّ نبيٍّ صالحًا ومُحْسنًا على الإطلاقِ[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾ قدَّم زكريَّا؛ لأنَّه والِدُ يَحْيى فهو أصلٌ، ويَحيى فرعٌ[2].

١٢- في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ بدَأ بزكريَّا ويحيى لسَبْقِهما عيسى في الزَّمانِ[3]، وابتُدِئَ بعِيسى عَطْفًا على يحيى؛ لأنَّهما قَريبانِ ابنَا خالةٍ، ولأنَّ عيسى رسولٌ، وإلْياس نَبِيٌّ غيرُ رسولٍ[4].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في ذِكْر عيسى، عليه السَّلامُ، في ذريَّة نوحٍ، أو إبراهيمَ- على القَوْلِ الآخَرِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ له- دلالةٌ على دُخولِ وَلَدِ البناتِ في ذريَّةِ الرِّجالِ؛ لأنَّ عيسى عليه السَّلامُ، إنَّما يُنسَب إلى إبراهيمَ عليه السَّلام، بأمِّه مريمَ عليها السَّلام، فإنَّه لا أبَ له؛ فلهذا إذا أوصى الرُّجل لذُرِّيَّته، أو وَقَفَ على ذرِّيَّته أو وهَبَهم، دخَلَ أولادُ البناتِ فيهم[5]. ويدلُّ هذا على أنَّ الحَسَنَ والحُسَينَ من ذريَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عِيسى من ذريَّةِ إبراهيمَ مع

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٨).

أنَّه لا ينتسِبُ إلى إبراهيمَ إلَّا بالأُمِّ، فكذلك الحَسَنُ والحُسينُ من ذريَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وإنِ انتسبَا إلى رسولِ اللهِ بالأُمِّ وجَبَ كونُهما مِن ذُرِّيته، ويُقال: إنَّ أبا جعفرٍ الباقِرَ استدلَّ بهذه الآيةِ عندَ الحجَّاج بنِ يوسُفَ(١).

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الأنبياءَ أفضَلُ من الأولياءِ، خلافًا لبعضِ مَن ينتمي إلى التَّصوُّفِ في زَعْمِهم أنَّ الوليَّ أفضَلُ من النَّبيِّ(٢).

١٥- لَمَّا ذَكَر الأنبياءَ قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ فبيَّنَ أنَّ حُصولَ الفضيلةِ هو باجتبائِه سبحانه وتعالى للآباءِ والذريَّةِ والإخوانِ، وهدايتِه إيَّاهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، لا بِنَفْسِ القرابةِ، وقد يُوجِبُ النَّسبُ حقوقًا، ويوجِبُ لأجلِه حقوقًا، ويُعلِّق فيه أحكامًا من الإيجابِ والتَّحريمِ والإباحة، لكنَّ الثَّوابَ والعقابَ والوَعْدَ والوعيد؛ على الأعمالِ لا على الأنسابِ(٣).

١٦- جاء قولُه ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ جمعًا؛ لإرادةِ أنَّ الهُدَى تعلَّقَ بذرِّيَّةِ كلِّ مَن له ذريَّةٌ من المذكورينَ؛ للتنبيهِ على أنَّ في هُدى بعضِ الذريَّةِ كرامةً للجَدِّ، فكلُّ واحدٍ من هؤلاء مرادٌ وقوعُ الهُدَى في ذُرِّيَّتِه، وإنْ كانت ذرِّياتُهم راجعينَ إلى جَدٍّ واحدٍ، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ(٤).

١٧- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الهُدَى بمشيئةِ اللهِ تعالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٣، ٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٠،٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٦).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٧).

١٨- قولُه تعالى: ﴿لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ﴾ المقصودُ منه تقريرُ التَّوحيدِ، وإبطالُ طريقةِ الشِّرْكِ[1].

١٩- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى سينصُرُ نبيَّه ويُقَوِّي دِينَه، ويجعَلُه مستَعْليًا على كلِّ من عاداه، قاهرًا لكلِّ مَن نازَعَه، وقد وقَعَ هذا الذي أخبَرَ الله تعالى عنه في هذا الموضِعِ، فكان هذا جاريًا مَجْرى الإخبارِ عن الغيبِ؛ فيكونُ مُعْجِزًا[2].

٢٠- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ أي: امْشِ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ خلْفَ هؤلاءِ الأنبياءِ الأخيارِ، واتَّبِع مِلَّتَهم، وقد امتثَل صلَّى الله عليه وسلَّم، فاهتدى بهَدْيِ الرُّسُلِ قَبْلَه، وجَمَعَ كلَّ كمالٍ فيهم. فاجتمعت لديه فضائِلُ وخصائِصُ، فاق بها جميعَ العالَمينَ، وكان سَيِّدَ المُرسلينَ، وإمامَ المُتَّقين، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعليهم أجمعينَ، وبهذا المَلْحَظ، استدلَّ مَن استدَلَّ من الصحابَةِ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أفضَلُ الرُّسُلِ كُلِّهِم[3].

٢١- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ هي التي أخَذَ منها جماهيرُ العُلماءِ- هي وأمثالها في القرآنِ- أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا- إنْ ثَبَتَ في شَرْعِنا- إلَّا بدليلٍ يدلُّ على أنَّه ليس شَرْعًا لنا، فإنَّ كلَّ ما أنزَلَه اللهُ عليهم هُدًى، إلَّا ما ثبَتَ نَسْخُه[4].

٢٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ النبيَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى كلِّ أهلِ الدُّنيا لا إلى قومٍ دونَ قومٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

- قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا...﴾ موقِعُ هذه الجملةِ- وإنْ كانت مَعطوفةً- هو موقِعُ التذييلِ للجُمَلِ المقصودِ منها إبطالُ الشِّرْكِ، وإقامَةُ الحُجَجِ على فَسادِه، وعلى أنَّ الصَّالحينَ كُلَّهم كانوا على خِلافِه[1].

- قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ اعتراضٌ، أي: كُلُّ هؤلاءِ هَدَيْناهم؛ يعني: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فحُذِفَ المُضافُ إليه لِظُهورِه، وعُوِّضَ عنه التَّنوينُ في ﴿كُلًّا﴾؛ فإنَّه تَنوينُ عِوَضٍ عن المضافِ إليه[2].

- قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ﴾ استطرادٌ بِذِكْرِ بعضِ مَن أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدى، وإشارةٌ إلى أنَّ الهدى هو الأصلُ، وقدَّم المفعولَ به (نُوحًا) على الفعلِ والفاعلِ ﴿هَدَيْنَا﴾؛ للاهتمامِ[3].

٢- قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ عبَّرَ بصِيغةِ الافتعالِ في ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾؛ للمبالغةِ، وعَطَفَ قولَه: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ على ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطفًا يؤكِّدُ إثباتَ هُداهم؛ اهتمامًا بهذا الهُدى، فبيَّن أنَّه هُدًى إلى صراطٍ مُستقيمٍ؛ أي: إلى ما به نوالُ ما يعملُ أهلُ الكمالِ لنَوالِه، فضَرَبَ الصِّراطَ المُستقيمَ مثلًا لذلك؛ تشبيهًا لهيئةِ العامِلِ؛ لينالَ ما يطلُبُه من الكمالِ بهيئةِ السَّاعي على طريقٍ مُستقيمٍ، يُوصِلُه إلى ما سار إليه بدون تردُّدٍ، ولا تحيُّرٍ، ولا ضلالٍ، وذَكَرَ مِن ألفاظِ المركَّبِ الدَّالِّ على الهَيئةِ المشبَّهِ بها بعضَه، وهو الصِّراطُ المستقيمُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٣٧- ٣٣٨).

لِدَلالَتِه على جميعِ الألفاظِ المحذوفةِ للإيجازِ(١).

- وفي قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ كرَّر الهدايةَ على سَبيلِ التوضيحِ والبيانِ للهدايةِ السَّابِقَةِ التي هُدُوا إليها- وهي الَّتي في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾- وأنَّها هِدايةٌ إلى طريقِ الحَقِّ المُستقيمِ القويمِ، الذي لا عِوَج فيه، وهو توحيدُ الله تعالى، وتنزيهُه عن الشِّرْكِ(٢).

- وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المقصودُ مع الثَّناءِ عليهم التعريضُ بالمُشركينَ الذين خالفوا مُعتقَدَهم(٣).

٣- **قوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** فيه تعريضٌ بما عليه المُشْركونَ مِمَّا يزعمونَه هُدًى، ويتلقَّوْنَه عن كُبَرائِهم، وتعريضٌ بالمشركينَ الذين أنكَروا نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حَسَدًا(٤).

- وقد زاد اسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ اهتمامًا بشأنِ الهُدى؛ إذ جُعِلَ كالشَّيءِ المُشاهَدِ؛ فَزِيدَ بِاسمِ الإشارةِ كمالُ تمييزٍ، وأخبر عن الهُدى بأنَّه ﴿هُدَى اللَّهِ﴾؛ لتشريفِ أمْرِه، وبيانِ عِصمَتِه من الخطَأِ والضَّلالِ(٥).

٤- **قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾**

- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥٠).

للتنويهِ بهم، واسمُ الإشارةِ في قَوْلِه: ﴿أُولَئِكَ﴾ لزيادةِ الاعتناءِ بتَمْييزِهم، وإحضارِ سيرَتِهم في الأذهانِ(١).

- قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أُدخِلَتِ الباءُ في خبرِ (ليس) ﴿بِكافِرِينَ﴾؛ لتأكيدِ ذلك النَّفيِ، فصار دوامَ نفْيٍ مؤكَّدًا(٢).

٥- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ قُصِدَ مِن استئنافِها استقلالُها؛ للاهتمامِ بمَضْمونِها، ولأنَّها وَقَعَتْ موقِعَ التَّكريرِ لمضمونِ الجُملتَينِ اللَّتينِ قَبْلَها؛ جملة ﴿وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَجملة ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾(٣).

- وتكريرُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ لتأكيدِ تمييزِ المُشارِ إليه، ولِما يقتضيه التَّكريرُ من الاهتمامِ بالخَبَرِ(٤).

- وتقديمُ المعْمولِ ﴿بِهُدَاهُم﴾ على عامِلِه ﴿اقْتَدِهْ﴾؛ للاهتِمامِ، والاعتناءِ بذلك الهُدى(٥)، أو لاختصاصِ طَريقِ أولئك الأنبياءِ وهُداهم بالاقتِداءِ، أي: ولا تَقتدِ إلَّا بِهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩، ٤٢) و(٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧١).
وهذا الوجه بناء على أنَّ التَّقديمَ على العامِلِ يُوجِبُ الاختِصاصَ عند الزَّمخشريِّ ومَن تَبِعه، =

- وفيه: تعريضٌ للمُشركينَ بأنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ما جاء إلَّا على سُنَّةِ الرُّسُل كلِّهم، وأنه ما كان بِدْعًا من الرُّسُلِ(١).

- قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بِفِعْل ﴿قُلْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمِّيَّته كما تقدَّمَ في هذه السورةِ غيرَ مَرَّةٍ(٢).

- قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

عبَّر هنا في سُورةِ الأنعام بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي سُورتي يُوسُف والتكوير بقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، التكوير: ٢٧]؛ فورَد الخبرُ بلفظِ التأنيثِ في الأُولى ﴿ذِكْرَى﴾، والتَّذكيرِ في الثانية ﴿ذِكْرٌ﴾، مع تذكيرِ المبتدأِ فيهما؛ وذلك لمُناسبةٍ حَسنةٍ، وهي: أنَّ آيةَ الأنعام تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ فنُوسِب بين قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى﴾ وبَين ما تَقدَّم، ولم يتقدَّم هنا ما يَستدعي لفظَ التذكير ويُناسِبُه. وأمَّا آيةُ التكوير فلَمَّا تَقدَّمها القَسَمُ على القرآنِ بقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ إلى ما وقَع القَسَمُ به، ثم ورَد ضميرُ المقسَمِ عليه في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: جبريلَ عليه السَّلامُ، ثم أَتْبَع بوصفِه إلى قولِه: ﴿ثَمَّ أَمِينٌ﴾، ثم أَعْقَب ذلك بضَمائرَ جرَتْ على التَّذكير على ما يجِب، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، والضميرُ للقرآنِ، ولا يُمكن ورودُه خلافَ هذا؛ لمنافرةِ التناسُبِ، ومباعدةِ التَّلاؤُم(٣).

= ولكنْ أبو حيَّان يَرُدُّ على هذا بأنَّ التقديمَ إنَّما يُفيدُ الاعتناءَ والاهتمامَ بالمُقدَّم. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩، ٤٢) و(٤/ ٥٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٢-١٦٣).

وقيل: لَمَّا تقدم فِي سورة الأنعام قوله: ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ ﴿وَلَكِن ذِكْرَى﴾، كَانَ الذِّكرى أليق بهَا؛ فنَاسَبَ ذِكرُه هنا كذلك، ولم يَتقدَّمْ ذلك في سُورةِ يُوسُف ولا سُورةِ التَّكوير[1].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٠ - ١٧١).

الآيتان (٩١-٩٢)

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَمَا قَدَرُوا﴾: أي: ومَا عظَّموا ومَا أَجَلُّوا، والقَدْر: مَبلغُ الشَّيءِ وكُنْهُه ونهايَتُه[(١)].

﴿قَرَاطِيسَ﴾: جمعُ قرطاسٍ، وهو الصحيفةُ أو الورقةُ، أو كلُّ ما يُكتَب فيه[(٢)].

﴿تُبْدُونَهَا﴾: تُظْهِرونها؛ من البُدُوِّ، وهو ظهورُ الشَّيءِ[(٣)].

﴿ذَرْهُمْ﴾: أي: اترُكْهم ودَعْهم؛ يقال: فلانٌ يذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لقِلَّة اعتداده به[(٤)].

﴿مُبَارَكٌ﴾: البَرَكةُ من الزِّيادةِ والنَّماءِ، وهي ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، والمباركُ ما فيه ذلك الخيرُ، وأصل (برك): يدلُّ على ثباتِ الشَّيءِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧، ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

﴿أُمَّ الْقُرَى﴾: أي: مكَّةَ، وأمُّ الشَّيءِ أصلُه ومُقدَّمُه؛ وسُمِّيَت مكَّةُ (أمَّ القرى)؛ لأنَّها أقدَمُها، ولتَقَدُّمِها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها، وقيل: لأنَّها قِبلَةُ أَهْلِ القُرى ومَحَجُّهم ومُجْتَمَعُهم وأعظَمُ القُرى شأنًا، وقيل: لأنَّ الأَرضَ دُحِيَتْ منها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ الذين نَفَوْا أنَّ الله أنزَلَ على بشرٍ شيئًا أنَّهم ما عظَّموا اللهَ حَقَّ تعظيمِه؛ إذ قالوا هذا القولَ، وأَمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَهم: من أنزَلَ التوراةَ التي أتى بها موسى نورًا وهدًى للنَّاسِ، يَجعلونَها قِطَعًا يكتبونَها بأيديهم، يُظْهِرونها ويُخْفونَ كثيرًا منها، وعَلَّمَهم الله ما لم يكونوا يعلمونَه هم ولا آباؤُهم، ثمَّ أَمَرَ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يقول لهم جوابًا عن ذلك السُّؤالِ: هو اللهُ مَن فعَلَ ذلك، ثم أمَرَه أن يترُكَهم في خَوضِهم يلعبونَ.

ويُخبِر تعالى أنَّ هذا القرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مباركٌ، وفيه تصديقٌ لِمَا سَبَقَه من الكُتُب، ولِيُنْذِرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها من العَرَب، وسائِر البُلدانِ، وبَيَّن تعالى أنَّ كُلَّ الذين يؤمنونَ بقيامِ السَّاعةِ والمَعاد في الآخِرَةِ؛ فإنَّهم يؤمنون بهذا القرآنِ الكريمِ، وهم على أداءِ صلاتهم مُحافِظون.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٦).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه ذكَرَ دليلَ التوحيدِ، وإبطالِ الشِّرْك، وقرَّرَ تعالى ذلك الدَّليلَ بالوجوهِ الواضِحَةِ؛ شَرَعَ بعدَه في تقريرِ أَمْرِ النبوَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا حَصَرَ اللهُ تعالى الدَّعوةَ في الذِّكرى حين قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، وكان ذلك نفعًا للنَّاسِ، ورِفْقًا بهم؛ إذ لا تَزيدُ طاعَتُهم في مُلْكِ الله شيئًا، ولا يَنْقُص إعراضُهم من عَظَمته شَيئًا- أكَّدَ أمْرَ الرِّسالةِ بالإنكارِ على مَن جَحَدَها، وبالتنديدِ بِمُنْكري النبوَّاتِ والرِّسالاتِ؛ فإنَّهم لا يَقْدُرونَ الله حَقَّ قَدْرِه، ولا يَعْرفونَ حِكْمةَ اللهِ ورحمَتَه وعَدْلَه[٢]، فقال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: وما أَجَلُّوا[٣] اللهَ تعالى حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّموه حقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوه حقَّ مَعرفَتِه؛ حين قالوا: لم يُنْزِلِ اللهُ على آدَمِيٍّ كتابًا ولا وَحْيًا؛ فهذا قَدْحٌ في حِكمَتِه، لا يليقُ به، وزعْمٌ بأنَّه يترُكُ عِبادَه سُدًى، لا يأمُرُهم ولا ينهاهم، ولا يجازِيهم، ونَفْيٌ لأعظَمِ نِعمةٍ امتَنَّ اللهُ بها على عبادِه، وهي نعمةُ الرِّسالَةِ، التي لا طريقَ للعبادِ إلى نَيْلِ السَّعادةِ والفلاحِ إلَّا بها[٤].

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: مَن أنزَلَ التوراةَ التي جاء بها موسى جَلاءً وضِياءً مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٥).

(٣) يحتمِلُ أنَّ الذين فَعَلوا ذلك هم كفَّارُ قُريشٍ، ويَحتملُ أنَّهم اليهودُ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣، ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

ظُلْمةِ الضَّلالاتِ والشُّبُهاتِ، وهاديًا للنَّاسِ إلى الصِّراطِ المُسْتقيمِ، عِلْمًا وعَمَلًا بالصَّالحاتِ[١]؟

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

أي: تَجعلونَ التَّوراةَ قِطَعًا تَنْسَخونها بأيديكم، وتَتصرَّفونَ فيها بما شِئْتم؛ فما وافَقَ أهواءَكم منها أَظْهَرْتموه، وما خالَفَ ذلك أَخْفَيْتُموه وكَتَمتُموه، ومِمَّا كَتَمُوه أمْرُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ونبوَّتِه[٢].

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

أي: وعلَّمَكم الله عزَّ وجلَّ بواسطةِ القرآنِ العَظيمِ ما لم تكونوا تَعلمونَه أنتم، ولم يَعْلَمْه آباؤُكم؛ كأخبارِ ما سَبَقَكم، وأنباءِ ما يأتي بَعدَكم[٣].

ثم أمَره اللهُ أن يقولَ لهم؛ جوابًا عن سؤالِه لهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾:

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: اللهُ أَنزَلَه على موسى، ثمَّ بعدَ أنْ تُفْحِمَهم بذلك، دَعْهُم فيما يخوضونَ فيه مِن باطِلِهم وكُفْرِهم باللهِ وآياتِه يستهزِئونَ ويَسخرونَ؛ فإنِّي مِن ورائِهم بالْمِرصادِ؛ أُذيقُهم بَأْسِي، وأُحِلُّ بهم سَخَطي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٠-٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٩-٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠-٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٠-٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٣).

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أبْطَلَ بالدَّليلِ قَوْلَ مَن قالَ: (ما أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ من شيءٍ)؛ ذَكَرَ بعدَه أنَّ القُرآنَ كتابُ اللهِ؛ أنزَلَه اللهُ تعالى على مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1]، فقال:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أوحيناه إليك- يا محمَّدُ- كتابٌ كثيرُ البَرَكاتِ والخَيْراتِ في الدُّنيا والآخِرةِ[2].

﴿ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ مُوافِقٌ لِما قَبلَه من الكُتُب، لا يُخالِفُها، وشاهِدٌ لها بالصِّدْق[3].

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾.

أي: ولِتُنْذِرَ أهْلَ مَكَّةَ ومَنْ حولَهم مِن أحياءِ العَرَبِ، ومِن سائِرِ البُلْدان، فتُحَذِّرَ النَّاسَ عقوبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأخْذَه الأمَمَ، وتُحَذِّرهم ممَّا يوجِبُ ذلك[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٦).

قال الشِّنقيطيُّ: (يقول بعضُ العلماء: المعلَّل محذوف؛ ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنزَلْنا إليك هذا الكتابَ. وبعضُ العلماء يقول: هو معطوفٌ على معنى ما قَبْلَه. والمعنى: كتابٌ أنزلناه إليكَ لأجلِ البركاتِ المشتمِل عليها؛ ولتصديقِ الذي بين يَديه، ولتنذرَ أمَّ القرى. وأكثرُ العلماء على أنَّ المعلل محذوف، والمعنى: ولِتُنذرَ أمَّ القرى أنزلناه إليك) ((العذب النمير)) (١/ ٥٠٦).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

أي: كلُّ مَن آمَن بقيامِ السَّاعةِ والمَعادِ في الآخِرَة إلى اللهِ تعالى، وصَدَّقَ بالثَّوابِ والعقابِ؛ آمَنَ بهذا القرآنِ العظيمِ(١).

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

أي: وهم يَقومونَ بأداءِ الصَّلواتِ في أوقاتِها، ويُداوِمونَ عليها، ويَحْفَظونَ أرْكانَها وحُدودَها وشُرُوطَها وآدابَها، ومُكَمِّلاتِها(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يَجِبُ على المؤمِنِ أن يَقْدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، فالمقصودُ: اقْدُروه قَدْرَه الذي بيَّنَه لكم وأمَرَكم به، فصَدِّقُوا الرَّسولَ فيما أخْبَر، وأطيعوه فيما أوْجَبَ وأَمَرَ، فمَن جَحَد شَرْعَ اللهِ وأَمْرَه ونَهْيَه، وجَعَلَ الخَلْقَ بمنزلةِ الأنعامِ المُهْمَلَةِ؛ فقدْ طَعَنَ في مُلْك اللهِ، ولم يَقْدُرْه حقَّ قَدْرِه(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ فلم يترُكْ لهم أنْ يُجيبُوا، إنَّما أَمَرَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يحسِمَ القَوْلَ معهم في هذا الشَّأنِ، وألَّا يجعَلَه مجالًا لجَدَلٍ لا يُثيرهُ إلا اللَّجاجُ، فيُرشِدُ إلى الأدَبِ مع الجاهلينَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٨-٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

المحاورةِ: أنَّه حين يبلُغُ العبَثُ أن يقولَ النَّاسُ مِثلَ ذلك الكلامِ، يحسُنُ احترامُ القَوْلِ، وحَسْمُ الجدَلِ، وتوفيرُ الكلامِ[1].

٣- يُرْشِدُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ إلى أنَّ القرآنَ كثيرُ الخيرِ والبَرَكةِ؛ فهو دائمُ النَّفعِ، يُبَشِّرُ المؤمنينَ بالثَّواب والمغفِرَةِ، ويَزْجُر عن القَبيحِ والمعصِيَةِ[2]؛ فمَن تَعلَّمَه وعَمِل به غَمرَتْه الخيراتُ في الدُّنيا والآخِرة؛ لأنَّ ما سمَّاه اللهُ مباركًا؛ فهو كثيرُ البَركاتِ والخَيراتِ قطعًا؛ لأنَّه كلامُ رَبِّ العالَمينَ؛ إذا قَرَأه الإنسانُ وتدَبَّرَ مَعانيَه؛ ففي كلِّ حَرفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ في القراءةِ، إذا تدبَّرَ معانيَه عرَفَ منها العقائِدَ التي هي الحَقُّ، وعرَفَ أُصولَ الحَلالِ والحَرامِ، ومكارِمَ الأخلاقِ، وأهلَ الجنَّةِ وأهلَ النَّارِ، وما يصيرُ إليه الإنسانُ بعد الموتِ، وما يُسبِّبُ له النَّعيمَ الأبديَّ، وما يُسبِّبُ له العذابَ الأبديَّ؛ فكُلُّه خيراتٌ وبَرَكاتٌ؛ لأنَّه نُورٌ يُنيرُ الطَّريقَ التي تُمَيِّزُ الحَسَنَ مِنَ القَبيحِ، والنَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ، والباطِلَ مِنَ الحَقِّ، فهو كلُّه خيراتٌ وبَرَكاتٌ[3].

٤- متى صدَّقَتِ النَّفْسُ بالآخِرَةِ واستيقَنَتْها، صدَّقَت بهذا الكتابِ وتنزيلِه، وحَرَصت على الصِّلَةِ بالله وطاعَتِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ فيه إبطالُ دعوَى

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٦-١١٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٠)، وقال: (وكان بعضُ عُلماءِ التفسيرِ يقول: اشتَغَلْنا بالقرآنِ فغَمَرَتْنا البركاتُ والخيراتُ في الدُّنيا؛ تصديقًا لقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، ونرجو أنْ يكونَ لنا مِثلُ ذلك في [الآخِرةِ]).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٨).

الخَصمِ بإثباتِ نقيضِها، فقد ادَّعَوا سلبًا كليًّا، فكذَّبهم الله بما يعترفونَ به، وهو الإيجابُ الجزئيُّ، فاليهودُ يعترفون بالتوراةِ التي بينَ أيديهم، ويفتخِرون بها على العربِ؛ بأنَّهم أصحابُ كتابٍ، ومع ذلك يقولونَ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا تناقضٌ في الحقيقةِ، وقد تَقرَّرَ في فُنونِ المناظَرةِ: أنَّ (السَّالبة الكليَّة) إنما تنقُضُها (موجبةٌ جزئيَّة)، فهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهم يُسَلِّمونَ بَشَريَّةَ موسى، وموسى أُنزِلَ عليه الكتابُ، وهو التَّوراةُ، فالنتيجةُ أنَّ بعض البَشَرِ- وهو موسى- أُنزِلَ عليه الكتابُ؛ لذا قال اللهُ: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيه أنَّ النَّكرةَ (شَيْء) في موضِعِ النَّفيِ تفيدُ العُمومَ؛ فلو لم تُفِدِ العُمومَ، لَمَا كان قولُه تبارَك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ إبطالًا له ونقضًا عليه، وكان استدلالًا فاسدًا(٢).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أتى بنون العَظَمة؛ لأنَّها أدلُّ على تعظيمِه؛ أي: وليس مِن عندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن نَفْسِه، وإنَّما هو بإنزالِنا إيَّاه إليه وإرسالِنا له به(٣).

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اقتصَرَ على الإنذارِ دونَ التَّبشيرِ؛ لأنَّ المقصودَ تخويفُ المُشركينَ؛ إذ قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾(٤) [الأنعام: ٩١].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٩)، ((مناهج الجدل في القرآن الكريم)) لزاهر الألمعي (ص:٧٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٧-١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٢).

٥- تمسَّك جماعاتٌ مِن اليهودِ بقولِه تعالى: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، قالوا: لم يُرسَل محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم إلَّا إلى جزيرةِ العَرَبِ؛ لأنَّه قال له: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في موضعينِ، وقد دَلَّ القرآنُ العظيمُ والسُّنَّة الصحيحةُ وإجماعُ العلماءِ؛ أنَّ رسالةَ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم شاملةٌ عامَّةٌ لجميعِ النَّاسِ، وعليه قد يَسألُ سائلٌ: ما الجوابُ عن قوله: ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والاقتصارُ على هذا هنا، وفي قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾؟ للعلماءِ عنه جوابان:

أحدهما: أنَّ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ صادِقٌ بالدُّنيا كلِّها؛ لأنَّ الدُّنيا عندَ اللهِ شيءٌ بسيطٌ كأنَّها نُقطةٌ.

والجواب الثاني: ما قاله بعض العلماء: إنَّ غايةَ ما في البابِ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ اقتصَرَتْ على إنذارِ أمِّ القرى ومَن حولها، وسكَتَت عمَّا سوى ذلك، وجاءت آياتٌ أُخَرُ صرَّحَت في الإنذارِ بالتَّعميمِ؛ كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[1] [سبأ: ٢٨].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿**إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٧، ٥٠٨).

- في مقالهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ إفادة العموم؛ فإنَّه يَعُمُّ جميعَ البَشَرِ؛ لوقوعِ النكرة ﴿بَشَرٍ﴾ في سِياقِ النَّفيِ لنفي الجنس، ويعمُّ جميعَ ما أُنْزِلَ باقترانه بـ﴿مِنْ﴾ في حيِّز النَّفيِ؛ للدَّلالةِ على استغراقِ الجِنْس أيضًا، ويعمُّ إنزالَ اللهِ تعالى الوَحْيَ على البَشَرِ بنفيِ المُتعلِّق بهذينِ العُمومَينِ[1].

- قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ فيه افتتاحٌ بالأمرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ بهذا الإفحامِ، والاستفهامُ في قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ..﴾ للتَّقريرِ[2].

- قوله: ﴿الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ على قراءة (تَجعلونَه- وتُبْدونَها- وتُخفُون) بتاء الخِطاب، وعلى القَوْلِ بأنَّ الخِطابَ لليهودِ؛ فيكون على طريقةِ الإدماجِ (أي: الخروجُ من خطابٍ إلى غَيرِه) تعريضًا باليهودِ، وإسماعًا لهم، وإن لم يكونوا حاضرينَ، من بابِ (إيَّاكِ أعني، واسْمَعي يا جارَةُ)، أو هو التفاتٌ من طريقِ الغَيبةِ الذي هو مقتضى المقامِ إلى طريقِ الخِطابِ[3].

- وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ توبيخَهم على سوءِ جَهْلِهم بالتَّوراةِ، وذَمَّهم على تَجزِئَتِها؛ بإبداءِ بعضٍ انتخَبُوه وكتَبُوه في ورقاتٍ متفرِّقةٍ، وإخفاءِ بعضٍ لا يشتهونَه[4]؛ فأدرَجَ تعالى تحت الإلزامِ توبيخَهم، وإن نَعَى عليهم سوءَ حَمْلِهم لكتابِهم وتحريفَهم، وإبداءَ بعضٍ وإخفاءَ بعضٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨١).

٢- قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

- قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ﴾ افتتاحُ الكلامِ باسْمِ الإشارةِ (هَذَا) المفيدِ تمييزَ الكتابِ أكمَلَ تمييزٍ، وبناءُ فِعل ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ على خبرِ اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ التقويةِ، كأنَّه قيل: وهذا أنزَلْناه، وجَعْل ﴿كِتَابٌ﴾ الذي حقُّه أن يكونَ مفعولَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ مسندًا إليه، ونَصْب فِعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ لضميرِه؛ لإفادةِ تحقيقِ إنزالِه بالتَّعبيرِ عنه مرَّتين، وذلك كلُّه للتَّنويهِ بشَأْنِ هذا الكتابِ[١]، وتنكيرُ الكِتابِ هنا للتَّفخيمِ[٢].

- وفيه مناسَبَةٌ حسنةٌ؛ حيثُ جاءَ الوصْفُ الأوَّلُ للكتابِ جملةً فعليَّةً، وهي جملة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾؛ لأنَّ الإنزالَ يتجدَّد وقتًا بعد وقت، وجاء الوَصْفُ الثاني اسمًا، وهو قَوْلُه: ﴿مُبَارَكٌ﴾، وكذلك الثَّالث، وهو قوله: ﴿مُصَدِّقُ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ، ودَيمومَةِ البركةِ؛ فلمَّا كان الإنزالُ يَتجدَّد عبَّر بالوصْفِ الذي هو فِعلٌ، ولَمَّا كان وصفُه بالبرَكةِ والصِّدْق وصفًا لا يفارِقُ، عبَّر بالاسمِ الدَّالِّ على الثُّبوتِ؛ لأنَّ الاسمَ يدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، وهو مقصودٌ هنا: أي أنَّ بَرَكَتَه ثابتةٌ مستقِرَّةٌ[٣].

- قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ في تَرتيبِ هذه الصِّفاتِ مناسَبَةٌ حَسنةٌ كذلك؛ لأنَّه لَمَّا كان الإنكارُ إنَّما وقَع على الإنزالِ قدَّمَ وَصْفَه بالإنزالِ على وَصْفِه بالبركةِ، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٧- ٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٦٨).

[الأنبياء: ٥٠]؛ لأنَّ الأَهَمَّ هنا وَصْفُه بالإنزالِ؛ حيثُ جاءَ عَقيبَ إنكارِهِم أنْ يُنْزِلَ اللهُ على بَشَرٍ شيئًا، فقالوا بقولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، وقِيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾؛ فكان تقديمُ وصْفِه بالإنزالِ هنا آكَدَ مِن وَصْفِه بكونِه مُباركًا؛ ولأنَّ ما أنزَلَ اللهُ تعالى فهو مبارَكٌ قطعًا، فصارتِ الصِّفَةُ بكونه مباركًا كأنَّها صِفَةٌ مُؤَكِّدةٌ؛ إذ تَضمَّنَها ما قَبْلَها. وأمَّا قَوْلُه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فلم يَرِدْ في مَعْرِضِ إنكارِ أنْ يُنْزِلَ اللهُ شيئًا، بل جاءَ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾، فذَكَرَ أنَّ الذي آتاه الرَّسولَ هو ذِكرٌ مبارَكٌ(١).

- قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أخبرَ عن المؤمنينَ بأنَّهم يُؤمنونَ بالقرآنِ؛ تعريضًا بأنَّهم غيرُ مقصودينَ بالإنذارِ، فيُعلَم أنَّهم أحقَّاءُ بضِدِّه، وهو البِشارةُ(٢).

- قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ اكتفى بذِكرِ الإيمانِ بالبَعْثِ- وهو أحَدُ الأركانِ السِّتَّة-؛ لأنَّ الإيمانَ به يستلزِمُ الإيمانَ بباقيها، ولإسماعِ كفَّار العَرَب وغيرِهم، مِمَّن لا يؤمِنُ بالبعثِ، أنَّ مَن آمَنَ بالبعْثِ آمَنَ بهذا الكتابِ وهذا الرَّسولِ، وأصلُ الدِّينِ خَوفُ العاقبةِ؛ فإنَّ مَن صَدَّق بالآخرةِ خافَ العاقِبَةَ، فمن خافَها لم يَزَلْ به الخوفُ حتى يَحمِلَه على النَّظَر والتدبُّرِ، حتى يؤمِنَ بالنبيِّ والكتابِ، ويحافِظَ على الطَّاعةِ(٣).

- قوله: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكْرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الصَّلاةَ أشرفُ العباداتِ بعدَ الإيمانِ باللهِ، وأعظَمُها خَطرًا، ولأنَّها عمادُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٣).

الدِّينِ، وأنَّ المحافظةَ عليها داعيةٌ إلى القيامِ بسائرِ العباداتِ المفروضةِ، وترْكِ جميعِ المُحَرَّمات المنصوصةِ؛ وكونُ الصلاةِ أشرَفَ العباداتِ بعدَ الإيمانِ باللهِ، يتَّضِحُ مِن أنَّه لم يَقَعْ اسمُ الإيمانِ على شيءٍ من العباداتِ الظَّاهرةِ إلَّا على الصَّلاةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتَكم. ولم يقَعِ اسمُ الكُفرِ على شيءٍ من المعاصي إلَّا على تَرْكِ الصَّلاةِ، فلمَّا اختصَّت الصَّلاةُ بهذا النَّوعِ من التَّشريفِ، لا جَرَمَ خَصَّها اللهُ بالذِّكْرِ في هذا المَقَام[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٨).

الآيتان (٩٢-٩٤)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿افْتَرَى﴾: أي: كَذَب واختلَق؛ فالافتراءُ الكَذِبُ، أو العظيمُ من الكَذِبِ، وأصل الفَرْي: قطْع الجِلْد[1].

﴿غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾: أي: شدائِده، وأصْلُ الغَمْر: تغطيةٌ وسَترٌ في بعضِ الشدَّةِ[2].

﴿الْهُونِ﴾: الهوانُ، وأصلُه: سكونٌ أو سكينةٌ أو ذُلٌّ[3].

﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾: ملَّكْناكم وأعطيناكم، وأصله: تعهُّدُ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨).

﴿تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تقَطَّعَتْ الوُصَلُ التي كانت بينكم في الدُّنيا من القَرابة والحِلْفِ والمودَّة، وأصل قطع: الفَصْل، و(بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئينِ ووَسَطِهما[1].

مُشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾

﴿بَيْنَكُمْ﴾: يُقْرَأُ بفَتْحِ النُّونِ، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه ظَرْفُ مكانٍ لـ﴿تَقَطَّعَ﴾، والفاعِلُ مضمرٌ؛ أي: تقطَّعَ الوَصْلُ بينكم، ودلَّ عليه ﴿شُرَكَاءُ﴾؛ فإنَّ الشَّرِكَة تُشْعِر بالاتِّصال، والثاني: أنَّ الفاعِلَ محذوفٌ، و﴿بَيْنَكُمْ﴾ صفةٌ له قامتْ مقامَه، تقديرُه: لقد تقطَّع وَصْلٌ بَيْنَكم. وقيل غير ذلك.

ويُقْرَأُ (بَيْنُكُمْ) بضَمِّ النُّونِ؛ على أنَّه فاعِلٌ، والبَيْنُ هنا اسمٌ مُتصَرِّفٌ، خارجٌ عن الظَّرْفِيَّة؛ بمعنى الوَصْل، وهو مِن الأضدادِ[2]، وقيل غير ذلك[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه لا أحَدَ أعظَمُ ظُلْمًا مِمَّن اختلَقَ الكَذِبَ على الله، أو مَن قالَ- وهو كاذِبٌ- إنَّ اللهَ أوحى إليه، ومَن قال: إنَّه سيُنْزِل مثلَ ما أنزلَ اللهُ تعالى، ثم خاطَبَ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليهم وسلَّم، قائِلًا له: ولو عاينتَ- يا محمَّدُ- الظَّالمينَ حين يكونونَ في سَكَراتِ الموتِ، وقد غَمَرَهم الموتُ بشدائِدِه وكُرَبِه؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦، ٦٧٧).

(٢) أي: إنَّه مشتركٌ اشتراكًا لفظيًّا، يُستعمَل للوَصْلِ والفِراق. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨-٥٦).

لَرَأَيْتَ حِينَها هَوْلًا وحالًا شنيعةً، والحالُ أنَّ الملائكةَ مَدُّوا أيديَهم يضربونَهم، قائلينَ لهم: أخرِجوا أنفُسَكم مِن أجسادِكم، اليومَ جزاؤُكم عذابٌ تُهانونَ به، وذلك بما كُنتم تقولونَ على اللهِ غَيرَ الحَقِّ، وبأنَّكم كُنتم عن آياتِه تستكبرونَ.

ويقولُ لهم تعالى عند وُرودِهم عليه يومَ المعادِ: لقد جئتُمونا فُرادى على الهيئةِ التي خَلَقْناكم بها أوَّلَ مَرَّةٍ، وتركتُم ما أعْطَيناكم من النِّعَم في الدُّنيا وراءكم، ولا نَرَى معكم الذين كُنْتُم تَدَّعونَ أنَّهم شُرَكاءُ لنا، فتَعبدونَهم معنا، زاعمينَ أنَّهم سيَشْفَعونَ لكم عندنا هذا اليومَ، لقد انقَطَعَ ما بينكم وبينَهم، وغابَ عنكم ما كنتُم تَزعُمونَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى القرآنَ، وأنَّه كتابٌ مُنَزَّل من عنده مبارَكٌ، وبيَّنَ ما فيه من صفاتِ الجلالةِ والشَّرَف والرِّفْعة- أعقبَه بوعيدِ مَنِ ادَّعى النبوَّةَ والرِّسالةَ على سبيلِ الكَذِبِ والافتراءِ، فقال[(١)]:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: لا أحدَ أعظمُ ظلمًا، ولا أكبرُ جُرمًا ممَّن كَذَبَ على الله عزَّ وجلَّ، بأنْ نسبَ إليه سبحانه قولًا أو حُكمًا، وهو تعالى بريءٌ منه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣).

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ادَّعى على اللهِ تعالى أنَّه بعثَه نبيًّا، وأرسَلَه نذيرًا، وهو كاذبٌ في دعواه؛ إذ لم يُوحِ اللهُ إليه شيئًا، ولم يُرسِلْه(١).

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ولا أَحَدَ أظلَمُ مِمَّن ادَّعى أنَّه يَقدِرُ على مُعارضَةِ القرآنِ، وأنَّ في إمكانِه الإتيانَ بمِثْلِه بما يفتريه من القَوْلِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ اللهُ الظَّالمينَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ ناسَبَ أن يذكُرَ ما أعَدَّ لهم من العقوبةِ في حالِ الاحتضارِ، ويومَ القيامةِ(٣)، فقال:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

أي: ولو ترى- يا محمَّدُ- الظَّالمينَ، أمثالَ هؤلاءِ المُفتَرينَ على الله تعالى، لو عايَنْتَهم حين يغمُرُهم الموتُ بسَكَراتِه، وقد غَشِيَتْهم شدائِدُه وكُرَبُه؛ لرَأيْتَ أمرًا هائلًا، وحالًا شنيعةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٤-٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٥-٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٨-٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٦-٥١٧).

﴿ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾.

أي: والحالُ أنَّ الملائكَةَ قد مدُّوا أيديَهم؛ يَضربونَ وُجوهَ أولئك الظَّالِمينَ الْمُحتضَرينَ وأَدْبارَهم ضربًا مُوجعًا، ويقولون لهم عند امتناعِ أرواحِهم من الخُرُوجِ من أبدانِها: أخرِجوا أنفُسَكم مِن أجسادِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَـٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾.

أي: اليومَ تُهانونَ غايةَ الإهانةِ والذِّلَّةِ بالعذابِ في جَهنَّمَ؛ جزاءَ كَذِبِكم على اللهِ تعالى في الدُّنيا، واستكبارِكم عن اتِّباعِ آياتِه، والخُضوعِ لأمْرِه، والانقيادِ لرُسُلِه[2].

﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَـٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآياتِ من سورَةِ الأنعامِ أنَّه لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن افترى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ادَّعى الوحْيَ كذِبًا، ولا أحَدَ أظلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٩، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١١-٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٨-٥١٩).

مِمَّن ادَّعى أنَّه قادِرٌ على إنزالِ مِثْلِ ما أنزَلَ اللهُ، وبيَّنَ اللهُ جَلَّ وعلا أنَّ هؤلاءِ الظَّالِمينَ الذين قالوا هذه المقالاتِ؛ أنَّهم إذا حضَرَتْهم الوفاةُ بَسَطَتِ الملائكةُ أيديَهم إليهم بالعذابِ والنَّكالِ، وقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾- بَيَّنَ حالَتَهم التي يُبعَثونَ عليها، وشِدَّةَ ضَعْفِهم، وعَدَمَ قُوَّتِهم التي كانت هي سَبَبَ تمرُّدِهم في الدُّنيا[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ﴾.

يقول لهم اللهُ تعالى عند وُرودِهم عليه يومَ مَعادِهم: لقد جئتُمونا وُحْدانًا، بلا أهلٍ ولا أولادٍ، ولا جُنودٍ ولا أعوانٍ، ولا مالٍ ولا أثاثٍ، ولا رفيقٍ ولا صديقٍ، ولا شيءٍ من الدُّنيا معكم، فجئتموا حُفاةً عُراةً غُلْفًا غُرْلًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

أي: وخلَّفْتُم- أيُّها القومُ- ما آتَيْناكم مِنَ النِّعَم التي اقتَنَيْتُموها في الدُّنيا وراءَكم، فلم تَحْمِلوها معكم إلى الآخِرَةِ[3].

عن عبد اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتيتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يقرأُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: يقولُ ابنُ آدمَ: مالِي، مالِي، قال: وهلْ لك يا ابنَ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٥-٥٢٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: كما بَدَأْناكم أعَدْناكم، وقد كنتُم تُنكرون ذلك وتستبعدونه؛ فهذا يومُ البعثِ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٦).

آدمَ مِنْ مالِكَ إلَّا ما أكَلْتَ فأفنيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيْتَ؟!))[1].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

أي: ولا نرَى معكم شُفعاءَكم الذين كُنتم في الدُّنيا تَدَّعونَ أنَّهم شُرَكاءُ لنا، فتعبدونَهم معنا، وتزعمونَ أنَّهم يَشفعونَ لكم عِندنا يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: لقدِ انقطَعَ اليومَ ما كانَ بينكم وبين شرُكَائِكم في الدُّنيا؛ مِن تواصُلٍ وتَوادٍّ وتناصُرٍ، وشَفاعةٍ، فاضمحلَّ ذلك كلُّه في الآخِرَة؛ فلا أحَدَ منكم ينصُرُ صاحِبَه، ولا يُواصِلُه[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٧-٥٢٨).

الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

أي: وغاب عنكم ما كنتُم تزعمونَ أنَّهم شُركاءُ للهِ، وشفعاءُ لكم عنده، وذهَبَ ما ترجُونَ منهم مِن شفاعةٍ، تَجْلِبُ لكم- بزَعْمِكم- الأمنَ والسَّعادةَ، والنَّجاةَ يومَ القيامةِ[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الاعتبارُ بالموتِ وسَكَراتِه، وما يَتقدَّمُه من شدائِدِ الآلامِ مِمَّا يَحُلُّ بالظَّالمينَ عند الموتِ؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[2].

٢- التَّحذيرُ مِن صَرْفِ الهِمَم في الدُّنيا إلى تَحصيلِ المالِ والوَلَدِ والجاهِ، دون الاهتمامِ بالإيمانِ بالرُّسُلِ، والاهتداءِ بما جاؤوا به؛ فإنَّ ذلك لا يُغنِي عن صاحِبِه شيئًا يومَ القيامَةِ؛ قال اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١-٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢٣).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فيه ردٌّ على مَن يقول: إنَّه يُحَدَّث عن قَلْبِه عن رَبِّه، أو إنَّه يأخُذُ عن اللهِ بلا واسطةٍ، وإنَّه يأخُذُ مِن حيثُ يأخُذُ المَلَكُ؛ الذي يأتي الرَّسولَ بالوحيِ؛ فهو كاذِبٌ في هذه النِّسبةِ، وله نصيبٌ وافِرٌ من هذا الذَّمِّ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ فيه تسفيهُ عقائِدِ أَهْلِ الشِّرْكِ والضَّلالةِ منهم؛ على اختلافِها واضطرابِها(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ يَدخُلُ في معناه: مَنِ ادَّعَى أنَّه يُنَظِّمُ للبَشريةِ ما يُغْنِيها عن نِظامِ اللَّهِ جلَّ وعلا، الذي وَضَعَه، ومَنِ اتَّبعَ هذا- والعياذُ باللَّهِ- فَقدِ اتَّبَعَ أحدًا لا أظلمَ في الدنيا مِنْه- والعياذُ باللَّهِ- فالذي يُنْزِلُه اللَّهُ لا يقدِرُ أحدٌ على أنْ يُنزلَ مثلَه، وَمَنِ ادَّعَى أنَّه ينزِلُ مثلَه؛ فقد صَرَّحَ اللَّهُ في هذه الآياتِ الكَريمةِ أنَّه لا أحدَ البتَّةَ أَظْلَمُ منه، وبهذا يُعلَمُ أنَّ الذين يَتَنَطَّعونَ، وَيَدَّعُونَ أنَّهم يُنَظِّمُونَ للبشريةِ نظامًا أحسنَ مِمَّا أنزلَ اللَّهُ، أنَّهم يَدخلونَ في هذه الآيةِ، ومعلومٌ أنَّه لا تشريعَ إلَّا للسُّلْطةِ العُلْيَا، فالسلطةُ العُلْيَا الحاكمةُ على كُلِّ شيءٍ هي التي لها الأمْرُ والنَّهْيُ، وممَّا يَنبغي أن يُعلَم أنَّ مَنِ ادَّعَى أنَّ هنالك تَنْظِيمًا يُنَظِّمُ الحياةَ البشريَّةَ في الدُّنيا مثلَ تنظيمِ اللَّهِ أو أحسنَ مِن تنظيمِ اللَّهِ، أنَّ هذه الدَّعْوَى كُفْرٌ بَوَاحٌ، لا يَشُكُّ فيه مَنْ له أَدنَى عَقْلٍ، والآياتُ المُصَرِّحةُ بذلك بإيضاحٍ كثيرةٌ في القرآنِ العظيمِ(٣).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ

(١) يُنظر: ((بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة)) لابن تيمية (ص:٤٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ يدلُّ على وُقوعِ الجَزاءِ عَقِبَ الموتِ؛ فهذه الآيةُ أحَدُ الأدلَّةِ الدالَّةِ على عَذابِ القَبرِ(١)، فقولُه تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فيه دليلٌ على عَذابِ البَرزَخِ ونعيمِه؛ فإنَّ هذا الخطابَ، والعذابَ المُوَجَّه إليهم، إنَّما هو عند الاحتضارِ وقُبَيلَ الموتِ وبعده(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ؛ يَدخُلُ ويخرُجُ، ويُخاطَبُ، ويُساكِنُ الجَسَدَ ويُفارِقُه؛ فهذه حالُهم في البَرزَخِ(٣).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ بَسْطُ اليَدِ يُستعمَلُ بمعنى الإيذاءِ المُطْلَق؛ فإنَّ أكثَرَ الإيذاءِ العَمليِّ يكون بمَدِّ اليَدِ، فإنْ أُريد إيذاءٌ مُعَيَّنٌ ذُكِرَ؛ كقوله تعالى حِكايةً في قصَّةِ ابْنَي آدَمَ: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾(٤).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غَيرَ القَولِ المتمَكِّنِ غايَةَ التمكُّنِ في درجاتِ الثَّباتِ، ولو قال بَدَلَه: (باطِلًا)، لم يُؤدِّ هذا المعنى، ولو قال: (الباطِلَ)، لقَصُر عن المعنى أكثَرَ(٥).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ليس في خَلْقِه، ولا خَلْقُه فيه(٦).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٩١).

(٦) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٢٠).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يعبَّرُ بالتَّرْك وراءَ الظَّهْرِ عمَّا فات الإنسانَ التَّصرُّفُ فيه، والانتفاعُ به؛ لِفَقْدِه إيَّاه، أو بُعْدِه عنه(١).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تَقريعٌ لهم، وتوبيخٌ على ما كانوا اتَّخذوا في الدَّارِ الدُّنيا من الأندادِ والأصنامِ والأوثانِ؛ ظانِّينَ أنَّ تلك تَنفَعُهم في مَعاشِهم ومَعادِهم، إنْ كان ثَمَّ معادٌ، فإذا كان يومُ القِيامَةِ تَقطَّعتِ الأسبابُ، وانزاحَ الضَّلال، وضلَّ عنهم ما كانوا يَفتَرون(٢).

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أسنَدَ القطْعَ المبالَغَ فيه إلى (البَيْنِ)، وإذا انقَطَعَ البَيْنُ تقَطَّعَ ما كان فيه من الأسبابِ، التي كانت تُسَبِّب الاتصالَ، فلم يبقَ لأحدٍ منهم اتصالٌ بالآخَرِ؛ لأنَّ ما بينهما صار كالخندقِ بانقطاعِ نَفْسِ البَيْنِ، فلا يتأتَّى معه الوصولُ، هذا على قراءةِ الجماعةِ بِرَفْعِ ﴿بَيْنُكُمْ﴾(٣).

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ فهو في معنى النفيِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٩٣-١٩٤).

أي: لا أحَدَ أظلمُ مِن هؤلاء أصحابِ هذِه الصِّلاتِ، ومَسَاقُ هذا الاستِفهامِ هنا مَسَاقُ التَّعريضِ بأنَّهم الكاذِبونَ؛ إبطالًا لتكذيبِهم إنزالَ الكتابِ[١].

- وخَصَّ بالذِّكر قولَه: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَم يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على غيرِه من أنواعِ الافتراءِ؛ تَنبيهًا على مَزيدِ العقابِ فيه والإثمِ[٢]؛ حيثُ بدأ أوَّلاً بالعامِّ، وهو افتراءُ الكَذِب على اللهِ، وهو أعمُّ من أن يكونَ ذلك الافتراءُ بادِّعاءِ وَحْيٍ أو غيرِه، ثمَّ ثانيًا بالخاصِّ، وهو افتراءٌ منسوبٌ إلى وَحْيٍ من الله تعالى[٣].

- وحُذِفَ الفاعِلُ في قوله: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾ تَعظيمًا له؛ لأنَّ المُوحِيَ هو اللهُ تعالى[٤].

- قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَى﴾؛ لدَلالةِ ما في حيِّزِ الظَّرْف عليه، أي: ولو تَرَى الظَّالِمينَ، وحُذِف جوابُ (لو)؛ للتهويلِ، والمعنى: لَرَأَيْتَ أمرًا مُفْظِعًا، وحَذْفُ جوابِ (لو) في مِثلِ هذا المقامِ شائِعٌ في القرآنِ[٥].

- وجاءَ التعبيرُ عن غَمرَةِ الموتِ بالجمْع ﴿غَمَرَاتِ﴾؛ إمَّا لتعدُّد الغَمَرات بعَدَد الظَّالِمينَ، فتكون صِيغةُ الجَمعِ مُستعملةً في حقيقَتِها، أو لقَصْدِ المبالغَةِ في تهويلِ ما يُصيبُهم بأنَّه أصنافٌ من الشدائِدِ، هي لتعدُّد أشكالِها وأحوالِها لا يُعَبَّر عنها باسمٍ مفرَدٍ؛ فيجوز أن يكونَ هذا وعيدًا بعذابٍ يَلْقَونه في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١).

في وقْتِ النَّزْع، ولَمَّا كان للمَوتِ سَكَراتٌ جُعِلَت غَمْرةُ الموت غَمَراتٍ[١].

- قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ الأمْرُ في ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ للتَّوقيفِ والتَّوبيخِ على سَالِفِ فِعْلِهم القَبيحِ، أو للإهانةِ والإرهاقِ والإرعابِ، وأنَّهم بمنزلَةِ مَن تولَّى إزْهاقَ نَفْسِه؛ إغلاظًا في قَبْضِ أرواحِهم ولا يَتْركون لهم راحةً، ولا يُعامِلونهم بِلِينٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يَجْزعونَ فلا يَلْفِظون أرواحَهم؛ وهو على هذا الوجه وعيدٌ بالآلامِ عِندَ النَّزْع؛ جزاءً في الدُّنيا على شِرْكِهم[٢].

- قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ استئنافُ وعيدٍ، وفُصِلَتِ الجملةُ- أي: لم تُعْطَف بالواو- للاستقلالِ والاهتمامِ، وهي من قَوْلِ الملائكة، وعلى أنَّ هذا القَوْلَ صادِرٌ مِن جانِبِ الله تعالى؛ فذِكْرُ اسمِ الجلالةِ مِن الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لقَصْدِ التهويل، والأَصْلُ (بِما كُنتُم تقولون عليَّ)[٣].

- وإضافَةُ العَذابِ إلى الهُونِ ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ لبيانِ العَراقَةِ في الهوانِ، والتمكُّن فيه؛ مِثْلُ قولهم: رَجُلُ سُوءٍ[٤]، فهو مبالغةٌ؛ إيذانًا بأنَّه مُتمكِّنٌ فيه؛ وذلك أنَّه ليسَ كلُّ عذابٍ يكونُ فيه هُونٌ؛ لأنَّه قد يكونُ على سبيلِ الزَّجرِ والتأديبِ[٥].

- وأوَّلُ هذه الآيةِ، وهو قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦- ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٨- ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٣).

يفيدُ التَّخويفَ العظيمَ على سبيلِ الإجمالِ، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...﴾ كالتَّفصيلِ لذلك المُجْمَلِ[1].

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾

- عبَّر بالفِعلِ الماضي ﴿جِئْتُمُونَا﴾ الذي أُريدَ به المُستقبلُ؛ لتحقُّقِ الوقوعِ. وقيل: هو ماضٍ على حقيقتِه محكِيٌّ، فيُقالُ لهم حالَةَ الوقوفِ بينَ يَدَيِ اللهِ للجزاءِ والحِسابِ[2].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ وقَع هنا في آيةِ الأنعام بزِيادة ﴿فُرَادَى﴾، وفي سُورةِ الكهفِ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، مع أنَّ مَرْمَى الآيتينِ واحدٌ؛ وذلِك لمراعاةِ ما أُعقبت به آيةُ الأنعام مِن قوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، أي: ما أَعطيناكُم في الدُّنيا ممَّا شَغَلَكم عن آخِرتِكم، ثم قال: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: مُنفرِدين عمَّا كُنتُم تؤمِّلون مِن أندادِكم ومعبوداتِكم من دُونِه سبحانه؛ فلِرَعْيِ هذا المعقَّبِ به في آيةِ الأنعام قيل فيها: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾. أمَّا آيةُ الكهفِ فقَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ثمَّ قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٧).

جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] مُجرَّدين عن كلِّ مُتعلَّق، ولم يقَعْ هنا ذِكرٌ ولا إشارةٌ إلى ما عُبِدَ مِن دونِ الله؛ فلهذا لم يقَعْ هنا ﴿فُرَادَى﴾؛ وذلك يُبيِّن التناسُب[١].

- قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكافُ للتَّشبيهِ؛ يُريدُ كَمَجيئِكم يَومَ خَلَقْناكم بالهيئةِ التي وُلِدْتُم عليها، في الانفرادِ الأَوَّلِ وَقْتَ الخِلْقَة؛ لِكَونِ الإنسانِ يُخْلَق لا مالَ له، ولا وَلَدَ، ولا حَشَم[٢].

- قوله: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾

- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى﴾ جِيءَ بالفِعلِ المنفيِّ بصِيغةِ المُضارِعِ الدَّالِّ على الحالِ دون الماضي؛ ليشيرَ إلى أنَّ انتفاءَ رؤيةِ الشُّفَعاءِ حاصِلٌ إلى الآن، ففيه إيهامُ أنَّ رُؤْيَتَهم محتمِلَةُ الحصولِ بعْدُ في المستقبلِ؛ وذلك زيادةٌ في التهكُّمِ[٣].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيكُمْ﴾؛ للاهتمامِ الذي وجَّهَه التعجُّبُ من هذا المزعومِ؛ إذ جعلوا الأصنامَ شُركاءَ للهِ في أنفُسِهم، وقدْ عَلِموا أنَّ الخالِقَ هو اللهُ تعالى، فهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه[٤].

- قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لجملة: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾؛ لأنَّ المُشركينَ حين يسمعونَ قولَه: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ يعتادُهم الطَّمَعُ في لقاءِ شُفَعائِهم؛ فيتشوَّفونَ لأَنْ يَعْلَمُوا سَبيلَهم، فقيل لهم: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ تأييسًا لهم بعد الإطماعِ التهكميِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٨٥).

- وعلى قِراءة الفَتْح في ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يكون فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيثُ حُذِفَ فاعِلُ ﴿تَقَطَّعَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ التقطُّعِ، ففاعِلُه اسمٌ مُبْهَمٌ مِمَّا يصلح للتقطُّعِ، وهو الاتِّصالُ، والتقديرُ: لقد تقطَّعَ الحبلُ أو نحوُه، وقد صار هذا التركيبُ كالمَثَلِ بهذا الإيجازِ[1].

- وهذه الآية ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى... لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ خبرٌ المرادُ منه التَّقريعُ والتَّوبيخُ؛ وذلك لأنَّهم صَرَفُوا جِدَّهم وجُهْدَهم في الدُّنيا إلى تحصيلِ أمرَينِ: أحدهما: تحصيلُ المالِ والجاهِ. والثاني: أنَّهم عبدوا الأصنامَ؛ لاعتقادِهم أنَّها تكونُ شُفَعاءَ لهم عند الله، ثم إنَّهم لَمَّا وَرَدوا مَحْفِلَ القيامةِ لَمْ يَبْقَ معهم شيءٌ من تلك الأموالِ، ولم يَجِدوا من تلك الأصنامِ شفاعةً لهم عندَ الله تعالى، فبَقُوا فُرادَى عن كُلِّ ما حَصَّلُوه في الدُّنْيا، وعَوَّلوا عليه، بخلافِ أهْلِ الإيمانِ؛ فإنَّهم صَرَفُوا عُمُرَهم إلى تحصيلِ المعارِفِ الحَقَّةِ، والأعمالِ الصَّالحةِ، وتلك المعارِفُ والأعمالُ الصَّالِحَةُ بَقِيَتْ معهم في قبورِهم، وحَضَرَتْ معهم في مَشْهَد القيامةِ، فهم في الحقيقة ما حَضَروا فُرادى، بل حَضَروا مع الزَّادِ ليومِ المَعادِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٩).

الآيات (٩٥-٩٩)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾: أي: خالِقُهُما أو شاقُّهُما بالنَّباتِ، والفَلْق والفَطْر والخَلْق بمعنًى واحِدٍ، ولا يكون الفَلْقُ إلَّا بين جِسْمين، والفَلْق: شقُّ الشَّيءِ، وإبانةُ بَعْضِه عن بعضٍ، وأصل (فلق): يدلُّ على فُرْجَةٍ وبينونَةٍ في الشَّيء(١).

﴿فَأَنَّى﴾: فَمِنْ أيِّ وَجهٍ، أو كَيفَ. وهو استفهامٌ عن الوُجوهِ والمَذاهِبِ؛ تقول: أنَّى يكونُ هذا؛ أي: من أي وجهٍ وطَريقٍ. وقيل: يُسأَلُ به عن الحالِ والمَكانِ، فيكون بمعنى: أين وكيف؛ لتَضَمُّنِه معناهما(٢).

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصْرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعْدِلون عنه؛ يقال: أَفَكَ الرَّجُل عن كذا: إذا عَدَلَ عنه، والإِفْك: كلُّ مصروفٍ عن وَجْهِه الذي يحِقُّ أن يكونَ عليه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٣٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٥٦).

وأصل (أفك): قَلْبُ الشَّيء وصَرْفُه عن جِهَتِه[١].

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾: أي: خالِق النَّهار، أو شاقُّه حتى يَتبيَّن مِن اللَّيل[٢].

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾: أي: يَجريانِ في أفلاكِهما بحسابٍ مَعْلومٍ عنده، وعددٍ لبلوغِ أمْرِهما ونهايةِ آجالِهما، وأصلُ الحِسابِ: استعمالُ العَدَدِ[٣].

﴿تَقْدِيرُ﴾: التَّقديرُ: تَبيينُ كميَّةِ الشَّيءِ، وتَقديرُ اللهِ الأشياءَ على وجهين؛ أحدهما: بإعطاءِ القُدرةِ. والثاني: بأنْ يَجعلها على مِقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ حسْبَمَا اقتضتْ الحِكمةُ بالحُكم منه أنْ يكونَ كذا أو لا يكون كذا؛ إمَّا على سبيلِ الوجوبِ، وإمَّا على سبيلِ الإمكانِ[٤].

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأَرْحامِ. وأَصْلُ (قرر) يَدُلُّ على تَمَكُّنٍ[٥].

﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾: أي: في الأَصْلابِ. وأصلُ (ودع): يَدُلُّ على التَّركِ والتَّخلِيَةِ[٦].

﴿مُتَرَاكِبًا﴾: أي: مُركَّبًا بعضُه فوقَ بعضٍ، أو يَرْكَب بعضُه بعضًا، وأصل (ركب): عُلُوُّ شَيْءٍ شَيْئًا[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٨، ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦-٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

(٧) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تذكرة =

﴿طَلْعِهَا﴾: طلعُ النَّخلةِ: ثَمَرُها، أو حَمْلُها؛ سُمِّيَ طَلعًا لطُلوعِه في كلِّ سَنَةٍ، ويُطْلَقُ الطَّلعُ على أوَّلِ ما يخرُجُ مِنَ النَّخلةِ في أكمامِه، وأصلُ (طلع): يدلُّ على ظهورٍ وبُرُوزٍ[1].

﴿قِنْوَانٌ﴾: أي: عُذوقُ النَّخْلِ، مفردُها قِنْوٌ، وهو: العِذقُ[2].

﴿دَانِيَةٌ﴾: أي: قَريبةٌ، سهلةُ التناوُلِ، يَجْنُونها قائمينَ وقاعِدين، وأصل الدُّنُوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكْم، ويُستعمَل في المكانِ والزَّمَانِ والمنزِلَةِ[3].

﴿وَيَنْعِهِ﴾: أي: إدراكِه ونُضْجِه وبُلُوغِه؛ يُقال: يَنَعَتِ الثَّمَرةُ والفاكِهَة، وأَيْنَعَت: إذا أدرَكَتْ[4].

مُشكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾

﴿وجنَّاتٍ﴾: مَنصوبةٌ، على أنَّها معطوفةٌ على ﴿نَبَاتَ﴾ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: فأخرجْنا بالماءِ النَّباتَ وجَنَّاتٍ، وهو مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تشريفًا لهذين الجِنْسَينِ على غيرِهما؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨]، وعلى هذا فقَولُه: ﴿وَمِنَ

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ جملةٌ مُعْتَرِضةٌ. أو منصوبةٌ على أنَّها معطوفةٌ على ﴿خَضِرًا﴾ مِنْ قَوْلِه تعالى:﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾.

وقُرِئ (وَجَنَّاتٌ) بالرَّفْع، على أنَّها مرفوعةٌ بالابتداءِ، والخبر محذوفٌ، والتقدير: وثَمَّ جَنَّاتٌ، أو: وَمِنَ الكَرْمِ جناتٌ، ولا يجوزُ أنْ يكون معطوفًا على ﴿قِنْوَانٌ﴾؛ لأن العِنَبَ لا يخرجُ مِن النَّخْلِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه وَحْدَه هو مَن يشُقُّ الحَبَّ فيُخْرِج منه الزُّروعَ، ويشُقُّ النَّوى فيُخْرِج منه الغُرُوسَ والشَّجَر، يُخْرِج سبحانه الحيَّ من الميِّتِ، ويُخْرِجُ الميِّتَ من الحيِّ؛ كإخراجِه تعالى الإنسانَ من النُّطْفة، والنُّطْفةَ من الإنسانِ، ذلكم الذي صَنَعَ ذلك هو اللهُ تعالى، فكيفَ تُصْرَفونَ عن هذه البَراهينِ، وتعبدونَ معه غيره؟!

والله سبحانَه يشقُّ ظُلمةَ الليلِ بضياءِ الصُّبحِ، وهو مَنْ جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا لكلِّ متحَرِّكٍ بالنَّهارِ، فيهدَأُ في اللَّيلِ ويرتاحُ، وجَعَل الشَّمْسَ والقَمَرَ يجريانِ بحِسابٍ مُقَنَّنٍ مُقدَّرٍ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ.

وهو الذي جَعَلَ النُّجومَ علاماتٍ وأدلَّةً، يهتدي بها النَّاسُ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ، قد ميَّزَ وفَصَّل تعالى الآياتِ، ووضَّحَها لقومٍ يَعْلمونَ.

وهو تعالى الذي أوجَدَ جميعَ البَشَرِ مِن آدمَ عليه السَّلام، وقد خَلَقَه اللهُ من ترابٍ، ثم صار البَشَرُ نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ يَنْقِلُها فتَستقِرُّ في أرحامِ الأمَّهاتِ، قد ميَّزَ اللهُ الآياتِ وفَصَّلَها، ووضَّحَها لقومٍ يفهمونَها، فيعرفونَ مرادَ الله.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦).

وهو سبحانه الذي أنزلَ من السماءِ المَطَرَ، فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ، فأخرَجَ سبحانه من نباتِ كُلِّ شيءٍ زَرْعًا وشَجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم يخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمَر، يرَكْبَ بعضُه بعضًا؛ كالسَّنابِلِ ونحوِها، وأخرج تعالى مِن طَلْعِ النَّخْلِ عُذوقًا قريبةً سَهْلةَ التناوُلِ، وأخرج سبحانه بساتينَ من أعنابٍ، وأخرج شَجَرَ الزَّيتونَ، والرُّمَانَ؛ يتشابَهُ في وَرَقِه وشجرِه، ويختَلِفُ في ثَمَره شكلًا وطعمًا، ثم أمَرَ اللهُ عبادَه أن ينظرُوا إلى ثَمَرِه عند بُدُوِّه وطُلُوعِه، وعند نُضْجِه، نَظَرَ تفكُّرٍ وتدبُّرٍ؛ فإنَّ في ذلك آياتٍ لقومٍ يؤمنونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ التَّوحيدَ، وأَردَفَه بتَقريرِ أمْرِ النبوَّةِ، عاد إلى ذِكْرِ الدلائِلِ الدَّالَّةِ على وجودِ الصَّانِعِ، وكمالِ قُدْرَتِه، وحِكْمَتِه، وعِلْمِه؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ من جميع المباحِثِ العقليَّة والنقليَّة: معرفةُ اللهِ بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان قد تقدَّمَ ذِكْرُ البعثِ نبَّهَ على قُدرَته تعالى الباهِرَةِ في شَقِّ النَّواةِ مع صَلابَتِها، وإخراجِه منها نَبْتًا أَخْضَرَ لَيِّنًا إلى ما بعد ذلك؛ مما فيه إشارةٌ إلى القدرةِ التامَّةِ والبعثِ والنَّشْر بعد الموت[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾.

أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه- أَيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي يشقُّ الحبَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩١).

في الثَّرى، فتَنْبُتُ الزروعُ على اختلافِ أصنافِها من الحبوبِ، ويشُقُّ النَّوى، فتَخْرُجُ الغُرُوسُ والأشجارُ، على اختلافِ أنواعِها من الثِّمارِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

أي: يُخرِجُ السنبُلَ الحيَّ من الحَبِّ المَيِّتِ، ومُخْرِجُ الحَبِّ الميِّتِ من السُّنبُلِ الحيِّ، والشَّجَرَ الحيَّ من النَّوى الميِّتِ، والنَّوى الميِّت من الشَّجَرِ الحَيِّ، كما يُخْرِجُ الإنسانَ من النُّطفَةِ، والنُّطْفَةَ من الإنسانِ، ويُخْرِجُ الدَّجاجةَ من البَيْضَةِ، والبيضةَ من الدجاجَةِ[(٢)].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

أي: ذَلِكم الذي خَلَق ودَبَّر كلَّ تلك الأشياءِ العظيمةِ المُبْهِرَة، هو اللَّهُ المستحِقُّ للعبوديَّةِ وحْدَه لا شريكَ له، فكَيْفَ تُصْرفونَ عن هذه البراهينِ، والآياتِ العجيبةِ الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ ربِّكم وجلالِه، وكمالِ قُدرَتِه، وأنَّه المعبودُ وحده، ثم تَصُدُّونَ مع ذلك عن عبادةِ مَن هذا شَأْنُه، فتُسَوُّونَ به غيرَه، وتعبدونَ معه مَن لا يَمْلِك لنفْسِه نفعًا ولا ضَرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا؟ أين تذهبُ عقولُكم عن ذلك[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٠، ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٠-٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٣-٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ على باهِرِ حِكْمَتِه وقُدرَتِه بدَلالةِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ، وذلك من الأحوالِ الأرضيَّةِ- استدَلَّ أيضًا على ذلك بالأحوالِ الفَلَكيَّةِ؛ لأنَّ فَلْق الصُّبْحِ أعظَمُ من فَلْقِ الحَبِّ والنَّوى؛ لأنَّ الأحوالَ الفَلَكِيَّة أعظمُ وَقْعًا في النفوسِ من الأحوالِ الأرضيَّةِ(١)، فقال تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾.

أي: هو سبحانه الذي يشُقُّ ظُلمَةَ اللَّيلِ وسَوادَه شيئًا فشيئًا، حتى يَضمَحِلَّ، ويَخلُفَه النَّهارُ بضِيائِه وإشراقِه، فيتحَرَّكَ فيه الخَلْقُ لمنافِعِ دِينِهم ودُنياهم، وهو سبحانه الذي جَعَلَ اللَّيلَ مُظلِمًا، فيسْكُنُ فيه كلُّ مُتحرِّكٍ بالنَّهارِ، ويهدأ فيه ويرتاح مستقِرًّا في مَسكَنِه ومأواه، ثم يُزيلُ اللهُ ذلك بضياءِ النَّهارِ، وهكذا أبدًا إلى يومِ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤-٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٩-٥٤٠).

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾.

أي: وجعَلَ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجرِيانِ بحِسابٍ مُقدَّرٍ، لا يتغيَّر ولا يَضْطرِبُ، فيدوران لمصالحِ الخَلْقِ التي جُعِلا لها، فبهما تُعرَفُ الأزمِنَةُ والأوقاتُ، وتنضَبِطُ أوقاتُ العباداتِ، وآجالُ المعاملاتِ، وغيرُ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

أي: هذا[٢] تقديرُ الذي عَزَّ سُلطانُه، فلا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، ولا يقدِرُ أحدٌ أراده بسوءٍ وعقابٍ من الامتناعِ منه، فهو الغالِبُ، الذي انقادَتْ له هذه المخلوقاتُ العظيمةُ، مُذَلَّلةً مُسخَّرَةً بأمْرِه، وهو سبحانه العليمُ، الذي أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بمصالحِ خَلْقِه[٣].

كما قال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤٢).

(٢) ذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى المذكور في هذه الآيةِ، وهو فلْقُه الإصباح، وجعلُه الليلَ سكنًا، والشمسَ والقَمَرَ حُسبانًا. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٤٣١). وذهَب بعضُهم إلى أنَّها تعودُ على كلِّ ما سبَق، وهو فلقُه الحبَّ والنوى، وفلقُه الإصباحَ، وجعلُه الليلَ سكنًا، والشَّمسَ والقَمَرَ حسبانًا. وهذا اختيار الشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ٥٥١-٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥١-٥٥٤).

وقال تعالى: ﴿... فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي خَلَقَ النُّجومَ لكم- أيُّها النَّاسُ- فجعَلَها أدلَّةً تستدِلُّونَ بها للنَّجاةِ، إذا ضَلَلْتم الطريقَ في ظُلُماتِ اللَّيلِ، سواءٌ كنتم في برٍّ أو بحرٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: قد ميَّزنا كلَّ جنسٍ ونوعٍ من الأدلَّة عن الآخَرِ، وبيَّنَّاها ووضَّحْناها، وجعَلْناها علاماتٍ على قُدْرَتِنا وكَمالِنا، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يَعْبُدَ غيرَنا؛ وذلك ليتدبَّرَها ويَفْهَمَها أولو العِلْمِ بالله تعالى، الذين يعرفونَ الحَقَّ، ويجتنبونَ الباطِلَ[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قِراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣١-٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٤-٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦-٥٥٩).

١ - ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ على أنَّها اسمُ فاعلٍ من قولِهم: قرَّ الشَّيءُ، فهو مُستقِرٌّ، والمراد: الولدُ القارُّ في الرَّحِمِ إلى وقت الوَلادِ[١].

٢ - ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضِعُ استقرارِ الوَلَدِ، وهو الرَّحِمُ[٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي أخرجَكم[٣] مِن العَدَمِ إلى الوجودِ، مِن آدَمَ عليه السَّلامُ، الذي خلَقَه اللهُ عزَّ وجلَّ مِن ترابٍ، ثمَّ صِرْتُم بعد ذلك نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِكم، ثمَّ يَنْقُلها فتَستقِرُّ في أرحامِ أمَّهاتِكم[٤].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وروحٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤).

(٣) قيل: الخطابُ للمُشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢).
وقيل: المرادُ البَشَرُ كلُّهم، مع التعريضِ بالمشركين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥-٨).
والقولُ بأنَّ المستقَرَّ هو القرارُ المَكينُ للنُّطْفَة في أرحامِ الأمَّهات، والمستودَعُ هو وجودُها في أصلابِ الآباءِ؛ عليه أكثرُ المُفَسِّرينَ- كما نصَّ عليه الشنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٢/ ٨-١١). وقال ابن كثير عن هذا القول: (هو الأظهر) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، والسُّديُّ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٥٥، ١٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٦ - ٤٤٢).
واختار السعديُّ أنَّ المراد بالمستقَرِّ: الدَّارُ الآخِرة، وأنَّ المرادَ بالمستودَع: الدَّار الدنيا ودارُ البرزخ. يُنظر ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦-٢٦٧).
واختار ابنُ جرير عُمومَ الآيةِ، وأنَّ معنى المستقَرِّ والمستودَع يَشمل عدَّة أمورٍ، فقال: (أَوْلى التأويلاتِ في ذلك بالصَّواب، أن يُقال: إنَّ الله جلَّ ثناؤه عمَّ بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ كلَّ خَلْقِه الذي أنشأ من نَفْسٍ واحدةٍ مستقرًّا ومستودَعًا، ولم يخصِّصْ من ذلك معنًى دون معنًى، =

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

أي: قد بَيَّنَّا الحُجَجَ، وميَّزنا الأدلَّة، وأحكَمْنَاها لقومٍ يفهمونَها، فيَعُونَ عن الله تعالى مُرادَه[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ إنعامَه تعالى بخَلْقِنا؛ ذَكَرَ إنعامَه علينا بما يقومُ به أَوَدُنا ومَصالِحُنا[2]، فقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي أَنزل المطَرَ، فأنبَتَ به كلَّ شَيءٍ، مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ؛ رزقًا للعِباد، ورحمةً من الله لخَلْقِه[3].

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾.

= ولا شكَّ أنَّ مِن بني آدمَ مُستقَرًّا في الرَّحِم، ومستودَعًا في الصُّلب، ومنهم من هو مستقَرٌّ على ظهر الأرْضِ أو بَطْنِها، ومستودَعٌ في أصلابِ الرِّجال، ومنهم مستقَرٌّ في القبر، مستودَعٌ على ظهر الأرض، فكلٌّ مستقَرٌّ أو مستودَعٌ بمعنًى من هذه المعاني فداخِلٌ في عمومِ قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] ومرادٌ به، إلَّا أن يأتي خبرٌ يجبُ التَّسليمُ له بأنَّه معنيٌّ به معنًى دون معنًى، وخاصٌّ دون عامٍّ) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣-١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى عُمومَ ما يَنْبُت بالماءِ؛ مِن أنواعِ الأشجارِ والنَّباتِ، ذَكَر الزَّرْعَ والنَّخْل، لكثرةِ نَفْعِهما، وكونِهما قُوتًا لأكثرِ النَّاسِ[1]؛ فقال:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾.

أي: فأخرَجْنا مِن نباتِ كُلِّ شيءٍ[2] زَرْعًا وشجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم نخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمر، يَركَبُ بعضُه بعضًا؛ كالسنابِلِ ونحوِها[3].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾.

أي: ويُخْرِجُ اللهُ سبحانه مِن طَلْعِ النَّخْل - وهو وعاؤُها الذي تنشأُ فيه عُذوقُ الرُّطَبِ - يُخرِج تلك العذوقَ متدلِّيَةً، قريبةً، سَهْلَةَ التناوُلِ[4].

﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّات﴾ قراءتان:

١- ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ بالرَّفْع: على أنَّها مُبتَدأٌ، والخَبَرُ مَحذوفٌ، وهو إمَّا مُقَدَّمٌ، فيكونُ التقديرُ: وثَمَّ جَنَّاتٌ، أو: ومِنَ الكَرمِ جناتٌ، أو: ولَكُم جَنَّاتٌ، وإمَّا أن يكونَ مُؤَخَّرًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٢) اختار عود الضمير في ﴿منه﴾ على نباتِ كلِّ شيءٍ: ابنُ عطيةَ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢).
واختار عودَه على الماءِ: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٥-٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

فيكونُ التَّقديرُ: وجناتٌ مِن أعنابٍ أخرَجْناها[1].

٢- ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بالنَّصبِ: على أنَّها معطوفةٌ على ﴿نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وأَخْرَجْنا به جَنَّاتٍ مِنْ أعنابٍ، أو معطوفةٌ عَلى ﴿خَضِرًا﴾[2].

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾.

أي: وأخرجْنا أيضًا بساتينَ من أعنابٍ[3].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

أي: وأَخْرَجْنا شَجَرَ الزيتونِ والرُّمَّانِ الذي يتشابَهُ في وَرَقِه وشَجَرِه، ويختَلِفُ في ثَمَره شكلًا وطعمًا[4].

---

(١) رواها الأعشى عن أبي بكر. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).
ويُنظر أيضًا: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦)، ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) للأشموني (١/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).
ويُنظر أيضًا: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٥-٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩).
قال الشنقيطي: (﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ كان بعضُ العلماءِ يقولُ: في الكلامِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: والزيتونَ مشتَبِهًا وغيرَ متشابِهٍ، والرمانَ مشتَبِهًا وغيرَ مُتَشابِهٍ. أنها راجعةٌ لكليهما. وحُذِف أحدُهما لدلالةِ المقامِ عليه... وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعْروفٌ ومعنَى كونِ الزيتونِ مُشْتَبِهًا وغيرَ مُتَشابِهٍ: أن شجرَه يتشابهُ ورقُه في القَدْرِ، ويتشابَه في نباتِه في جميعِ الغصنِ، وغيرُ متشابِهٍ لأنَّه أنواعٌ تختلفُ طُعومُها. الذي يعرفُه يَجِدُ في اختلافِ طعمِه فُروقًا =

﴿انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾.

أي: انظروا إليه حين بُدُوِّه وطُلوعِه، وحين بُلوغِه ونُضْجِه، نَظَرَ فِكْرٍ واعتبارٍ؛ فإنَّ في ذلك عِبَرًا وآياتٍ؛ كالتفكيرِ في رحمةِ الله، وسَعَةِ إحسانِه وَجُودِه، وعنايَتِه بعبادِه، وكمالِ قُدْرَتِه؛ حيث أخرج تلك الثِّمارَ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، فبَعْدَ أن كان حَطَبًا، صار عِنَبًا ورطبًا، وغير ذلك مِمَّا خلَقَ تعالى؛ من الألوانِ والأشكالِ والطُّعومِ والرَّوائحِ[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنزالِ اللهِ تعالى - أيُّها النَّاسُ - الماءَ من السَّماءِ الذي أخرَجَ به نباتَ كلِّ شيءٍ، والخَضِرِ الذي أخرج منه الحَبَّ المتراكِبَ، وغير ذلك مِمَّا ذكَرَه الله تعالى في هذه الآيةِ؛ لدَلالاتٍ للمؤمنينَ على وحدانيَّة وكمالِ قُدرَةِ خالِقِ هذه الأشياءِ وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه، وأنَّ العبادَةَ لا تصلُحُ إلَّا له عزَّ وجلَّ[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- النَّظَرُ في هذا الكونِ الجميلِ البهيجِ الرَّائِعِ، والتفكُّرُ في ظواهِرِه، وتقلُّباتِه من العَدَمِ إلى الوجودِ؛ يُوقِفُنا على قُدرةِ الله تعالى التي تَبْهَر العقولَ، ويُعَرِّفنا على بديعِ السَّمواتِ والأرض، الذي أودَعَ الوجودَ كلَّ هذه البدائِعِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٣].

= يستدلُّ بها على كمالِ قدرةِ مَنْ صَنَعه...، وكذلك الرمانُ: تجدُه متشابهًا بالمنظرِ، أغصانُه وورقُه مُتَشابِهٌ، وقد تجدُ طعمَه مُتَبايِنًا أيضًا كما هو معروفٌ)) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣١-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٥٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تذكيرٌ بوحدانيَّة الله، وبعظيمِ خِلْقَةِ النُّجومِ، وبالنِّعمةِ الحاصلةِ مِن نظامِ سَيْرِها؛ إذ كانت هدايةً للنَّاسِ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ[1].

٣- ليس كُلُّ أحدٍ يعتَبِرُ ويتفكَّر، وليس كلُّ من تَفَكَّرَ، أدرَكَ المعنى المقصودَ؛ ولهذا قَيَّدَ تعالى الانتفاعَ بالآياتِ بالمؤمنينَ دونَ غيرِهم؛ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّ المؤمنينَ يَحْمِلُهم ما معهم من الإيمانِ على العَمَل بمقتضياتِهِ ولوازِمِه، التي منها التفكُّرُ في آياتِ الله، والاستنتاجُ منها ما يُرادُ منها، وما تدلُّ عليه، عقلًا وفطرةً، ونقلًا[2].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ افتتحَ الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ مع أنَّه لا يُنكِرُ أحدٌ أنَّ اللهَ هو فاعِلُ الأفعالِ المذكورةِ هنا، ولكِنَّ النَّظَرَ والاعتبارَ في دَلالةِ الزَّرْعِ على قُدْرةِ الخالِقِ على الإحياءِ بعدَ الموتِ، كما قَدَرَ على إماتَةِ الحَيِّ؛ لَمَّا كان نظَرًا دقيقًا قد انصرف عنه المُشْركونَ، فاجترَؤوا على إنكارِ البَعْثِ- كان حالُهم كحالِ مَن أنكَرَ أو شَكَّ في أنَّ اللهَ فالِقُ تعالى الحَبِّ والنَّوَى، فأكَّدَ الخَبَرَ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾[3].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، وقولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، جاء تَقديمُ الحَبِّ في الموضعينِ؛ مما يدلُّ على أنَّ الزَّرْعَ الَّذي منهُ يكونُ خروجُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٧).

الحَبِّ أفضَلُ؛ فإنَّه قوتٌ في أكثَرِ البلادِ، ولأغْلَبِ الحيواناتِ[1].

٣- قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ فيه إشكالٌ، وسؤال معروفٌ للعلماءِ، وهو أنَّ في الآيةِ أنَّه سبحانه يفلقُ الإصباحَ، والذي يفلقُ ويشقُّ عن نور الصباحِ في الحقيقةِ هو الظَّلامُ، فكيف يكون نورُ الصباح هو الذي يفلقُ ويشقُّ؟ وللعلماءِ عن هذا السُّؤال أجوبةٌ:

منها: أنَّ الله تعالى قال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾؛ لأنَّ شعاعَ الصُّبح يبدأ أوَّلًا وتحته ظلامٌ، ولم يُسْفِر إسفارًا تامًّا يكشِفُ الظَّلامَ كَشفًا كليًّا، ثم ينصَدِعُ ذلك الإصباحُ انصداعًا كليًّا عن ضَوءِ النَّهارِ كما ينبغي. وقيل: الكلامُ على حَذفِ مُضافٍ: فالِقُ ظُلمةِ الإصباحِ، وأنَّه حُذِف المضافُ إليه. ولا يخلو مِن بُعْدٍ؛ لأنَّ هذا المُضافَ لم تحتَفَّ به قرينةٌ[2].

٤- في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيل سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ ذَكَر تعالى في هذه الآيةِ ثَلاثةَ أنواعٍ من الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ على التوحيدِ؛ فأوَّلها: ظهورُ الصَّباحِ. وثانيها: قولُه: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾. وثالثها: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[3].

٥- مَصدَرُ الخَلْقِ والأَمْرِ والقضاءِ والشَّرْعِ؛ عن عِلْمِ الرَّبِّ وعِزَّتِه وحِكْمَتِه، ولهذا يَقْرِن تعالى بين الاسمين مِن هذه الثلاثةِ كثيرًا، ومنها قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وقال في سورةِ (فصِّلَت) بعد ذكرِ تخليقِ العالَمِ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فارتباطُ الخلقِ بقدرتِه التامَّة يقتضي ألَّا يخرجَ موجودٌ عن قدرتِه، وارتباطُه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧٨).

بعلمِه التامِّ يقتضي إحاطتَه به، وتقدُّمَه عليه، وارتباطُه بحكمتِه يقتضي وقوعَه على أكملِ الوجوهِ، وأحسنِها(١).

٦- في قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ عبَّر في جانِبِ اللَّيل بمادَّةِ الجَعْلِ؛ لأنَّ الظُّلْمةَ عَدَمٌ؛ فتعَلُّقُ القُدرةِ فيها هو تعلُّقُها بإزالَةِ ما يمنَعُ تلك الظُّلْمةَ من الأنوارِ العارِضَةِ للأُفُقِ(٢).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ جَعَل الله حَركاتِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على نظامٍ واحدٍ لا يختَلِفُ، وذلك من أعظَمِ دلائِلِ عِلْمِ الله وقُدْرَتِه(٣).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ أصلٌ في الحسابِ والميقاتِ وأدِلَّةِ القِبلةِ(٤).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ تعلُّمِ سَيرِ الكواكِبِ ومَحالِّها؛ الذي يُسمَّى علْمَ التَّسييرِ؛ فإنه لا تَتِمُّ الهدايةُ ولا تُمْكِن إلَّا بذلك(٥).

١٠- إنَّما خَصَّ اللهُ تعالى القومَ الذين يَعلمون في قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّهم هم المنتفعونَ بها، وهذا أسلوبٌ مِن أساليبِ القرآنِ العظيمِ؛ أن يَخْصُصَ بالكلامِ الْمُنتَفِعَ به؛ كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وهو مُذَكِّرٌ للأسودِ والأحمَرِ، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ [يس: ١١]، وهو مُنذِرٌ للأسوَدِ والأحمَرِ، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٩٢).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦).

مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ونحو ذلك، أمَّا القومُ الذين لا يعلمونَ؛ فتَفصيلُ هذه الآياتِ لا ينفَعُ فيهم؛ لأنَّهم لا يفهمونَ عن اللهِ شيئًا؛ فهم كالأنعامِ، بل هم أنْزَلُ درجةً من الأنعامِ(١).

١١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ فيه الاستدلالُ على وحدانيَّة الله تعالى بالإلهيَّة؛ فلذلك صِيغَ بصيغَةِ القَصْرِ بطريقِ تعريفِ المُسنَد والمُسنَد إليه؛ لأنَّ كَوْنَ خَلْقِ النُّجُومِ من الله، وكَوْنَها ممَّا يُهتَدى بها؛ لا يُنْكِرُه المخاطَبونَ، ولكنَّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيهِ من إفرادِه بالعبادَةِ(٢).

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدلُّ على أنَّ إخراجَ النباتِ يكون بواسِطَةِ الماءِ، وذلك يوجِبُ القولَ بالأسبابِ والقُوى والطَّبائع، ففيه ردٌّ على المتكلِّمين الذين يقولون: إنَّ قدرةَ العبدِ وغيرَها من الأسبابِ التي خلَقَ اللهُ تعالى بها المخلوقاتِ؛ ليست أسبابًا، وأنَّ وجودَها كَعَدَمِها، وليس هناك إلا مجرَّدُ اقترانٍ عاديٍّ(٣).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النَّخل: من جِنْسِ الْمُنْبَتِ بهذا الماءِ إلَّا أنَّ اللهَ قطعَه، وجاءَ به في صيغةِ جملةٍ مستأنَفَةٍ من مبتدأٍ وخبرٍ؛ تنويهًا بشأن النَّخْل؛ لأنَّ النَّخْلَ كلُّه منافِعُ، وجَرَتِ العادةُ في القرآن: أنَّه إذا ذَكَرَ الإنعامَ بالتَّمْر ذَكَرَه باسم شجَرَتِه التي هي النخلةُ، وإذا ذَكَرَ الإنعامَ باسْمِ العِنَبِ ذَكَرَه باسْمِ الثَّمرةِ التي هي العِنَبُ. هذه قاعدةٌ مطَّردةٌ في القرآنِ؛ قال بعضُ العلماءِ: إنَّما ذَكَرَ شجرةَ التَّمْر، التي هي النخلَةُ؛ لأنَّ النخْلَةَ كلُّها منافِعُ؛ فتَمْرُها بعضُ منافِعِها، فلو عَبَّر بالتَّمْر لأهمَلَ منافِعَ النخْلِ الكثيرةَ؛ لأنَّ النَّخْلَ كلُّها

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦، ٥٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣١٨).

منافِعُ؛ لأنَّ خُوصَها تُصنَع منه القِفاصُ، وجريدَها تُصنَع منه الحُصْر، وتُصنَع منها الحِبالُ، ولُبَّها يُؤكَلُ، وجِذْعها يُسْقَفُ به، وكِرنافها[١] يُوقَد به؛ فجميعُ ما فيها منافِعُ، أمَّا شجرةُ العِنَب: فليس في نَفْسِ الشجرةِ من المنافِعِ ما في النَّخْلةِ، فأعظَمُ منافِعِها في ثَمرَتِها[٢].

١٤- قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ ذَكَر (الطَّلْع)، ولم يَقُلْ: (مِن النَّخْل قِنوانٌ)؛ إذ كان الطَّلْعُ طَعامًا لذيذًا، وإدامًا نافعًا، ولم يكُنْ كسائرِ أكمامِ الثِّمارِ[٣].

١٥- قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وجناتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ خصَّصَ اللهُ تعالى هذه الأشجارَ بالذِّكْرِ بعد أنْ عَمَّ جميعَ الأشجارِ والنَّوابت؛ لأنَّها من الأشجارِ الكثيرةِ النَّفْع، العظيمةِ الوَقْعِ[٤].

١٦- قال تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ كونُه يتشابَهُ من جهةٍ، ويختلِفُ من جهةٍ، هذا دليلٌ على كمالِ قدرةِ مَن خَلَقَه، وأنَّ خالِقَه ليس بطبيعةٍ؛ لأنَّ الطبيعةَ عند من يزعمونَها معنًى واحدٌ، جوهَرٌ لا يتقَسَّم، ولا يقبلُ الانقسامَ. يستحيلُ أن تؤثِّرَ الطبيعةُ في مطبوعَينِ مختلفَينِ؛ ولا يمكن أنْ تكون الطبيعةُ الواحِدَةُ تُنتِجُ أشياءَ مختلفةً، واختلافُ هذه الأشياءِ دليلٌ على أنَّ فاعِلَ ذلك صانعٌ مختارٌ، يفعلُ ما يشاءُ، فالمقصودُ من التقييدِ بهذه الحالِ في قولِه تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ التنبيهُ على أنَّها مخلوقةٌ بالقَصْدِ والاختيارِ لا بالصُّدفَةِ[٥].

---

(١) الكِرنافُ: أصلُ السَّعَفِ الذي يبقَى بعد قَطعِه في جِذعِ النَّخلةِ، وجمعُه: الكَرانيفُ. ((المصباح المنير)) للفيومي(٢/ ٥٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (ص:٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠). =

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ لأَجْلِ أنَّ الاشتباهَ أبلَغُ من التَّشابُه، عَلَّقَ الأمْرَ بالنَّظَرِ الذي هو أثبَتُ الحَواسِّ[1].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لَمَّا كان اتِّخاذُ هذه الحبوبِ والثِّمارِ المذكوراتِ أَوَّلًا، والمخالَفةُ بين أشكالِها ومقاديرِها وألوانِها ثانيًا؛ دالًّا على كمالِ قُدرَةِ الله تعالى المستلزِمِ لوحدانِيَّتِه- دلَّ على عَظَمَتِه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ مشيرًا بأداةِ البُعْدِ وميم الجمع؛ أي: الأمرُ العظيمُ الشأنِ، العالي الرُّتْبَةِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقَلَ به من تَقريرِ التوحيدِ والبعثِ والرِّسالةِ، وأفانينِ المواعِظِ والبراهينِ التي تَخلَّلَت ذلك، إلى الاستدلالِ والاعتبارِ بِخَلْقِ اللهِ تعالى، وعَجائِبِ مصنوعاتِه المشاهَدَةِ[3].

- وجملة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ مُستأنفةٌ مُبيِّنةٌ لِمَا قَبْلَها من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، ومؤكِّدَةٌ لها[4]؛ لأنَّ فَلْقَ الحبِّ والنَّوى بالنَّباتِ والشَّجرِ النامِيَينِ، من جِنسِ إخراجِ الحيِّ

= هذا بناء على أنَّ قولَه: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ راجعٌ للزيتونِ والرُّمان كليهما، أي: والزيتونَ مشتَبِهًا وغيرَ متشابِهٍ، والرمانَ مشتَبِهًا وغيرَ مُتَشَابِهٍ، وقد تقدَّم.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٤).

من الميِّت؛ لأنَّ النَّامِيَ في حُكمِ الحَيوانِ الحيِّ، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(١) [الروم: ١٩].

- وجاء قوله: ﴿يُخْرِجُ﴾ على صِيغةِ الفِعلِ بَينَ اسمَي فاعِل: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ و﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، فعَدَلَ عن اسْمِ الفاعِلِ إلى الفِعلِ المُضارِعِ في هذا الوصفِ وحْدَه؛ إرادةً لتصويرِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، واستحضارِه في ذِهنِ السَّامع، وهذا التصويرُ والاستحضارُ إنَّما يَتمكَّن في أدائِهما الفِعلُ المضارعُ، دون اسمِ الفاعلِ والماضِي(٢).

وقيل: لم يَقُل: (ومُخرِج الحيِّ من الميِّت)؛ لأنَّه لَمَّا اجتمَعَ ثلاثةُ حُروفٍ مِن حروفِ العِلة دَفعةً واحدةً، وهي: الواو والياء مِن (النَّوى)، والواو مِن (ومخرج) وهي واو العطف، ونُقِل عن لفظِ الاسمِ إلى لفظِ الفِعلِ لَمَّا كان (يُخرِج) و(مُخرِج) بمعنًى واحد، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فجَعَل جملةَ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ خبرَ الابتداءِ، كما في: إنَّ زيدًا ضاربُ عَمرٍو يُكرِمُ بَكرًا، ومُكرِمٌ جَعفرًا؛ فهذا أفصحُ مِن أنْ يُقال: إنَّ زيدًا ضاربُ عمرٍو، ومكرمُ بَكرٍ، ومُكرمُ جَعفرٍ؛ فلهذا المعنَى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾(٣).

- قوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾

فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا في سُورةِ الأنعامِ بقولِه: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، فعَطَفَ الاسمَ على لفظِ الفِعلِ، ولم يَعطِفْ عليه لفظَ الفِعل، كما في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٤٧- ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٢٦- ٥٢٧).

سُورتي يونس والروم، حيث قال: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس:٣١، الروم:١٩] بالفِعلِ؛ وذلِك أنَّ الذي وقَع في الأنعام قبله اسمَا فاعِلٍ، وهما: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾، و﴿جَاعِلُ﴾، والذي وقَعَ بعده اسمُ فاعِلٍ أيضًا، وهو ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾؛ فناسَب ذِكر ﴿مُخْرِج﴾؛ لكونِه اسمَ فاعِل، وخصَّ بالاسم لتكرُّرِ الاسمينِ بعدَه، وخُصَّ ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ﴾ قبْلَه بالفِعل؛ إذ لم يَتقدَّمه إلَّا اسمٌ واحدٌ، وما في بقيَّة السُّورِ لم يقَعْ قبلَه وبعدَه إلا أفعالٌ؛ فناسَب ذِكره بالفِعل[١].

- قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

جُملةُ ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ مستأنفةٌ، مقصودٌ منها الاعتبارُ، فتكون جملةُ: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ كلُّها اعتراضًا[٢].

- والإشارةُ بـ﴿ذَلِكُمُ﴾ لزِيادةِ التَّمييزِ، وللَّتعريضِ بغَباوةِ المخاطَبينَ المُشْرِكينَ؛ لِغَفْلتِهم عن هذه الدَّلالة على أنَّه المُنْفرِدُ بالإلهيَّةِ، أي: ذلكم الفاعلُ الأفعالَ العظيمةَ؛ مِن الفَلْقِ، وإخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، والميِّتِ مِن الحيِّ، هو الذي يَعرِفُه الخلقُ باسمِه العظيمِ، الدالُّ على أنَّه الإلهُ الواحدُ، المقصورِ عليه وصْفُ الإلهيَّةِ؛ فلا تَعْدِلوا به في الإلهيَّة غيرَه؛ ولذلك عقَّبَ بالتفريعِ بالفاءِ قولَه: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٣].

- وقوله: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ إنكاريٌّ، أي: لا يوجَدُ موجِبٌ يَصْرِفُكم عن توحيدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٢٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١١٠-١١١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧١-١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ إعجازٌ يتجسَّدُ فيه عَجْزُ الإنسانِ؛ فالكلمةُ القرآنيَّةُ مهما استبدَلْتَ بها غيرَها لم يَسُدَّ مسَدَّها، ولم يُغْنِ غَناءَها، ولم يؤَدِّ الصُّورةَ التي كانت تؤدِّيها، وانظُرْ إلى طبيعةِ الأحرُفِ التي تتكوَّنُ منها كلمةُ ﴿سَكَنًا﴾ وتوالي الفَتَحاتِ على حروفِها، كلُّ ذلك يُشْعِرُكَ بذلك الهدوءِ الذي يَبْعَثُ على الطُّمأنينَةِ، وينْشُرُ الرَّاحَةَ في النَّفْسِ[1].

٢- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ المقصودُ الأوَّلُ من هذا الخبرِ الاستدلالُ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ؛ فلذلك صِيغَ بصيغةِ القَصْرِ بطريقِ تعريفِ المُسنَد والمُسنَد إليه في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾؛ لأنَّ كَونَ خَلْقِ النجومِ من الله، وكونَها مِمَّا يُهتَدى بها؛ لا يُنْكِرُه المخاطَبون، ولكنَّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيهِ من إفرادِه بالعبادَةِ[2].

- قوله: ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إضافة قوله: ﴿ظُلُمَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ للملابسةِ لهما، أو شَبَّه مُشتبهاتِ الطُّرق بالظُّلماتِ[3]، وإنَّما أضافَ الظلماتِ إلى البَرِّ والبحرِ؛ لأنَّ المسافرين قد يكونون في ظُلماتِ اللَّيلِ تارةً في بَرٍّ، وتارةً في بَحرٍ؛ فأضاف الظلماتِ إلى مَكانِها من بَرٍّ أو بحرٍ؛ للمُلابسةِ بينهما[4].

- قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ مستأنفَةٌ للتَّسجيلِ، والتبليغِ، وقَطْعِ معذرَةِ من لم يُؤْمِنوا[5].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٧٨-١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٤).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٤).

- والتعريفُ في ﴿الْآيَاتِ﴾ للاستغراقِ، فيشمَلُ آيةَ خَلْقِ النُّجومِ وغَيْرَها[١].

- وقوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تعريضٌ بِمَن لم ينتَفِعوا مِن هذا التَّفصيلِ، بأنَّهم قومٌ لا يعلمونَ[٢].

٣- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فيه مناسَبَةٌ حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بلفظِ: ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾، وفي غيرِ هذه السُّورةِ جاء التعبيرُ بلَفْظِ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ لأنَّ ما هنا موافقٌ لقولِه قبله: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، ولقوله بعده: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ بخلافِ البقيَّةِ[٣].

- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ فيه تعريضٌ بِمَن لا يَتدَبَّرُ آياتِ اللهِ، ولا يعتَبِرُ بما خَلَقَ، وتعريضٌ بأنَّ المُشركينَ لا يعلمونَ ولا يفقهونَ؛ فإنَّ العِلمَ هو المعرفَةُ الموافِقَةُ للحقيقةِ[٤].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بخِلافِ الآيةِ السَّابقةِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ فختَمَ الآيةَ السابقةَ، وهي الآيةُ التي استدلَّ فيها بأحوالِ النُّجومِ بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وختم آخِرَ هذه الآيةِ بقوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنَّ إنشاءَ الإنْسِ من نفسٍ واحدةٍ، وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفةٍ؛ ألطَفُ، وأدَقُّ صنعةً وتدبيرًا، فكان ذِكْرُ الفِقْه- الذي هو استعمالُ فطنةٍ، وتدقيقُ نَظَرٍ، ويفيدُ مزيدَ قوَّةٍ وذكاءٍ وفَهْمٍ- مطابقًا له، فدلالةُ إنشائِهم على هذه الأطوارِ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١١١- ١١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٨١).

الاستقرارِ والاستيداعِ وما فيهما من الحكمةِ؛ دلالةٌ دقيقةٌ تحتاجُ إلى تدبُّرٍ؛ فإنَّ المُخاطَبينَ كانوا مُعْرضينَ عنها؛ فعَبَّر عن عِلْمِها بأنَّه فِقْهٌ، بخلافِ دلالةِ النُّجومِ على حِكمةِ الاهتداءِ بها؛ فهي دَلالةٌ متكرِّرةٌ؛ فناسَبَ خَتْمُ كلِّ جملةٍ بما يناسِبُ ما صُدِّر به الكلامُ[١].

٤- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾:

- قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى التكلُّمِ، ولو جرى على لفْظِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ لكان التركيبُ: (فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ)، وذلك الالتفاتُ من الفصاحَةِ، وسِرُّ هذا الالتفاتِ هنا: العنايةُ بشأنِ هذا الإخراجِ، والتنويهُ بالعظمَةِ والقدرةِ البالِغَتينِ[٢].

- قوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ جيءَ بالتعريفِ في قوله: ﴿النَّخْلِ﴾ للعَهْدِ الجنسيِّ؛ للإشارةِ إلى أنَّه الجِنْسُ المألوفُ المعهودُ للعربِ؛ فإنَّ النَّخْلَ شَجَرُهم، وثَمَرُه قُوتُهم، وحوائِطُه مُنْبَسَطُ نُفُوسِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠- ٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٠).

- ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، أُفرِد ذِكرُ القِنوانِ، وجُرِّد[١] مِن قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: انتُزِعَ مِن نباتِ كلِّ شَيءٍ مع أنَّه مِنه؛ لِمَا في تجريدِها من عَظيمِ المِنَّةِ والنِّعمةِ؛ إذ كانتْ أعظمَ أو مِن أعظمِ قوتِ العربِ، وأُبرزتْ الجملةُ في صورةِ المبتدأ والخبرِ؛ ليدلَّ على الثبوتِ والاستقرارِ وأنَّ ذلك مفروغٌ منه[٢].

- ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ (جَنَّاتٍ) منصوبةٌ عطفًا على قولِه: ﴿نَبَاتَ﴾، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لشَرفِه، ولَمَّا جُرِّدَ النَّخلُ، جُرِّدَتْ جنَّاتُ الأعنابِ؛ لشَرَفِهما، كما قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[٣].

- قوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبةٌ؛ قيل: ذكَر القريبةَ، وتَرَكَ ذِكرَ البعيدةِ؛ لأنَّ النِّعمةَ فيها أظهَرُ وأدلُّ بذِكر القريبةِ على ذِكر البعيدةِ؛ كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾؛ فاقتصر على ذِكرِ ﴿دَانِيَةٌ﴾ عن مقابِلها (بعيدة)؛ لدَلالتها عليه، وزيادةِ النِّعمةِ فيها[٤].

- وجاء قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ على أَحْسَنِ مساقٍ، وأبدَعِه في الترتيبِ؛ فلَمَّا تقدَّمَ أنَّ الله فالِقُ

---

(١) التجريدُ اصطلاحًا: أنْ ينتزع المتكلمُ مِن أمر ذي صِفةٍ أمرًا آخَرَ مثلَه في تلك الصِّفة؛ مبالغةً في كمالها في المنتزَع منه، حتى إنَّه قد صارَ منها، بحيثُ يُمكن أن يُنتزعَ منه موصوفٌ آخَرُ بها، وأقسام التجريد كثيرة. يُنظر: ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٠٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٧- ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٥).

الحَبِّ والنَّوى، جاء الترتيبُ بعد ذلك تابعًا لهذا الترتيب، فحين ذَكَرَ أنَّه أخرج نباتَ كُلِّ شيءٍ ذَكَرَ الزَّرْعَ، وهو المرادُ بقولِه: ﴿خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، وابتدأ به كما ابتدأ به في قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ ثم ثنَّى بما له نوًى، فقال: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ إلى آخره، كما ثنَّى به في قوله: ﴿وَالنَّوَى﴾ وقدَّمَ الزرع على الشَّجَرِ؛ لأنَّه غذاءٌ، والثَّمر فاكهةٌ، والغذاءُ مُقَدَّمٌ على الفاكهة، وقَدَّمَ النَّخْلَ على سائرِ الفواكِه؛ لأنَّه يجري مَجْرى الغذاءِ بالنِّسبَةِ إلى العَرَبِ، وقدَّمَ العِنَبَ؛ لأنَّه أشْرَفُ الفواكِهِ، وهو في جميعِ أطوارِه منتفَعٌ به، ثمَّ إنْ عُصِرَ كان منه خلٌّ ودِبْس- أي: عُصَارَة- وإن جُفِّفَ كان منه زبيبٌ. وقُدِّمَ الزيتونَ لأنَّه كثيرُ المنفعةِ في الأكْلِ، وفيما يُعْصَر منه من الدُّهْنِ العظيم النَّفْع في الأكل والاستصباحِ، وغيرهما، وذَكَرَ الرُّمَّان لعَجَب حالِه وغرابَتِه[1]!

- قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ..﴾

فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ورَد فيما بعدُ مِن هذه السُّورة: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فورَد في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، وفي الثانية: ﴿مُتَشَابِهًا﴾، وفي الأولى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾، وفي الثانية: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ وذلك لأنَّ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ و﴿مُتَشَابِهًا﴾ لا فَرقَ بينهما إلَّا ما لا يعدُّ فارقًا؛ إذ الافتعالُ والتفاعُل متقاربانِ؛ أصولهما: الشين والباء والهاء، مِن قوله: أشبه هذا هذا، إذا قاربَه وماثلَه؛ فورَد في أُولى الآيتينِ على أخفِّ البناء، وفي الثانية على أثقلِهما؛ رعيًا للترتيبِ. أمَّا قولُه تعالى في الأُولى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠١).

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾؛ فهو مبنيٌّ على ما قَبْلَه ممَّا بناه على الاعتِبارِ والتدبُّرِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى...﴾ [الأنعام: ٩٥] الآيَةَ، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا...﴾ [الأنعام: ٩٦] الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا...﴾ [الأنعام: ٩٧] الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ فلمَّا كان مَبْنى هذه الآيِ على الاعتِبارِ، والتَّنبيهِ بما نصَب تعالى من الدَّلائل على وَحدانيَّته- لم يكُن ليُناسِبَ ذلك ويُلائِمه إلَّا الأمرُ بالنَّظرِ والاعتبار، لا الأمرُ بالأكْل. أمَّا الآيةُ الثانيةُ فمبنيَّةٌ على غيرِ هذا؛ فقَدْ تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ...﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وجرَى ما بعدُ على التناسُب إلى قولِه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾ إلى قوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: ١٤١]، ثم قال بعدَ ذِكر الأنعام: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وجرَى ما بعدُ على هذا في تَفصيلِ ما أحلَّ سبحانَه لعِبادِه، وردِّ ما ظنَّتْ يهودُ تحريمَه على هذه الأمَّة، ثم أتبع سبحانه لعباده بذِكر ما حرَّم أكْلَه؛ فلمْ يَتخلَّلْ هذه الآياتِ من غيرِ أحكامِ المأكولاتِ في التَّنويعِ والإباحةِ خِلافُ ذلك، سِوى الأَمرِ بزكاةِ الحرثِ، في قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ فدارتْ هذه الآيِ على ما أَنعمَ به سبحانه مِن ضُروبِ ما خَلَقه تعالى، ممَّا أقام به حياةَ عِبادِه؛ مأكلًا ومَلْبسًا، ومعونةً في حَركاتهم وانتقالاتِهم، ومُباحِ ذلك ومُحرَّمِه، فلم يكُنْ ليلائمَ ذلك إلَّا ما يُناسِبُه، ولم يكُن ليناسبَ الآيةَ المتقدِّمة لو قيل: (كُلوا)، ولا هذِه الآية لو قِيل: (انْظُروا)؛ فجاءَ كلٌّ على ما

يَجِبُ ويلائِمُ، ولا يُناسِبُ خِلافُه[١].

- قوله: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾: نبَّه على هاتينِ الحالتَينِ فقط، وإن كان بينهما أحوالٌ يقَعُ بها الاعتبارُ والاستبصارُ؛ لأنَّهما أغرَبُ في الوقوعِ، وأظهَرُ في الاستدلالِ[٢].

- قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه إتمامٌ للتعريضِ بأنَّ غيرَ العالِمينَ وغيرَ الفاقِهين هم غيرُ المؤمنين، يعني: المشركينَ؛ إذ صَرَّح هنا بأنَّ الآياتِ إنَّما تنفَعُ المؤمنينَ تصريحًا بأنَّهم المقصودُ في الآيتينِ الأُخْرَيينِ بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[٣].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٤).

الآيات (١٠٠-١٠٣)

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَخَرَقُوا﴾: أي: افْتَعلوا ذلِك، واخْتَلَقوه كَذِبًا، أو: فَعَلوا مَرَّةً بعدَ أُخرى، أو: حَكَموا بذلك على سبيلِ الخَرقِ، وأصلُ (خرق): مَزْقُ الشَّيءِ، وقَطْعُه على سبيلِ الفَسادِ مِن غير تدبُّرٍ ولا تفكُّرٍ[1].

﴿بَدِيعُ﴾: أي: مُبدِعُ ومبتدِئُ، وأصلُه: ابتداءُ الشَّيءِ، وصُنعُه لا عن مِثالٍ سابِقٍ[2].

﴿اللَّطِيفُ﴾: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، أو الرفيقُ بالعبادِ في هدايتِهم، واللُّطْف: الرِّفْق في العمل؛ يقال: هو لطيفٌ بعبادِه، أي رؤوفٌ رفيقٌ، وأصل (لطف): يدلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيء[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩-٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠).

مُشْكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾

﴿وَجَعَلُوا﴾: بمعنى صيَّروا، ومفعولها الأوَّل: ﴿الْجِنَّ﴾، والثاني: ﴿شُرَكَاءَ﴾ وقُدِّمَ، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿شُرَكَاءَ﴾، ويجوز أنْ يكونَ المفعولُ الأوَّل ﴿شُرَكَاءَ﴾، و﴿الْجِنَّ﴾ بدلًا منه، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه المفعولُ الثاني.

﴿وَخَلَقَهُم﴾: حالٌ مِن فاعلِ ﴿جَعَلُوا﴾، أي: وقد خَلَقَهُم. وقيل: هو مستأنفٌ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ جعلوا الجِنَّ شُركاءَ لله في العبادَةِ، وهو سبحانه الذي خلق الجِنَّ، فأَوْلَى بهؤلاء المشركينَ أنْ يعبدوا الخالِقَ، وأخبَرَ أنَّهم اختَلَقوا له سبحانه- كذِبًا- بنينَ وبناتٍ بغيرِ دليلٍ؛ جهلًا به وبِعَظَمَتِه؛ تنَزَّه وتعالى عمَّا يَصِفُه هؤلاء المُشركونَ.

هو خالِقُ السَّمواتِ والأَرْضِ ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ؛ فكيف يكونُ له ولدٌ سبحانه، وليس له زوجةٌ، وهو الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ؛ فهو الغَنِيُّ عن كلِّ مخلوقاتِه، وهي كلُّها فقيرةٌ إليه، وهو سبحانه بكلِّ شيءٍ عالِمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ.

ذلكم هو الله المستحِقُّ وَحْدَه للعبادَةِ، ربُّ كلِّ العباد، لا إلهَ إلَّا هو، خالِقُ كلِّ شيءٍ؛ فلْيَعبُدْه كلُّ البَشَرِ، ولْيُقِرُّوا بوحدانِيَّته، وهو على كل شيءٍ وكيلٌ.

لا تُحيطُ به سبحانه الأبصارُ، وهو قد أحاط عِلْمُه وسَمْعُه وبَصَرُه بكلِّ شيءٍ، وهو اللَّطيفُ الخبيرُ.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٨٣-٨٦).

تفسيرُ الآيات:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَبَّهَ الله تعالى على أنَّ الذي يُدْرِك هذه الآياتِ المؤمنونَ بها، بخلافِ الكافرينَ؛ عَقَّبَه بتوبيخِ من أَشْرَك به، والردِّ عليه[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا غرائِبَ صُنْعِه وعجائِبَه، الدَّالَّةَ على أنَّه الربُّ وَحْدَه، المعبودُ وَحْدَه، كما في الآياتِ الماضية؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...﴾، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ إلى آخِرِ الآيات، التي بيَّن اللهُ فيها كمالَ قُدرَتِه، وغرائِبَ صُنْعِه، وعجائِبَه الدَّالَّةَ على أنَّه الرَّبُّ وَحْدَه، المعبودُ وَحْدَه، فكأنَّه يقولُ في هذه الآيةِ: مع ما أبدَيْتُ لخَلْقِي من آياتي الدالَّةِ على عَظَمَتي وجلالي، وأنِّي الربُّ المعبودُ، مع هذا أشركوا بي الجِنَّ، وعبدوا مَعِيَ المعبوداتِ التي لا تنفَعُ ولا تضرُّ[2]، فقال تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾.

أي: وجعل هؤلاءِ المشركونَ الجِنَّ شركاءَ لله تعالى في العبادَةِ، والحالُ أنَّ الذي خَلَقَ الجنَّ هو اللهُ تعالى وحده؛ فكيفَ عَبدُوهم مَعَه[3]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٠)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤، ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦-٤٠٧). =

كما قال إبراهيمُ عليه السَّلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: اختلقوا وتخرَّصوا كَذِبًا مِن تلقاءِ أنفُسِهم، فافترَوْا لله تعالى بنينَ وبناتٍ بغيرِ دليلٍ، ولا برهانٍ؛ جهلًا بالله وبعظَمَته، فإنَّه لا ينبغي لِمَن كان إلهًا أن يكونَ له بنونَ وبناتٌ، ولا أنْ يشارِكَه شريكٌ في خَلْقِه[1].

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ جلَّ وعلا، وتقدَّس عن الذي يَصِفُه به هؤلاءِ الجهَلَةُ الضالُّون؛ من الأولادِ والأندادِ، والنُّظَراءِ والشُّرَكاء، وذلك لا يَنبغي أن يكونَ مِنْ صِفَتِه؛

= قال ابنُ كثير: (فإن قيل: فكيفَ عُبِدت الجن وإنَّما كانوا يَعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنَّهم إنما عَبَدوا الأصنامَ عن طاعةِ الجنِّ وأمْرِهم إيَّاهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧).

وأيضا فهذه الأصنامُ التي كانوا يعبُدونها لربَّما قارَنها شياطينُ في بعضِ الأحيانِ، فسمِعوا منها مَن يكلِّمهم ويخاطبُهم. وكما تتمثَّل الشياطينُ أيضًا لمن يعبدُ الملائكةَ والأنبياءَ والصالحينَ وغيرَهم، ويخاطبونهم، فيظنُّون أنَّ الذي خاطَبهم مَلَكٌ أو نبيٌّ، أو وليٌّ، وإنَّما هو شيطانٌ، كما أنَّهم كانوا يصرِفون للجنِّ أنواعًا مِن العباداتِ التي لا تنبغي إلا للهِ تعالى، كالاستعاذةِ بهم والذَّبحِ لهم. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٨٣، ٢٨٤) (١٧/ ٤٨٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٥٨-١٠٥٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٤-٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٨-٤٠٩).

فإنَّه تعالى الموصوفُ بكلِّ كمالٍ، المنزَّهُ عن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ[١].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى فَسادَ قَوْلِ طوائِفِ أهْلِ الدُّنيا من المُشركينَ؛ شَرَعَ في إقامَةِ الدَّلائلِ على فَسادِ قَوْلِ من يُثْبِتُ له الوَلَدَ[٢].

وأيضًا لَمَّا خَتَمَ اللهَ تعالى الآيَةَ السابقةَ بالتَّنزيهِ عمَّا قاله المُشركونَ من الشَّريكِ والوَلَدِ؛ استدَلَّ على ذلك التنزيهِ بأنَّ الكُلَّ خَلْقُه، مُحيطٌ بهم عِلْمُه، ولن يكون المصنوعُ كالصَّانِعِ؛ فقال[٣]:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى- الذي جَعَلَ المُشركونَ الجِنَّ شُرَكاءَ له، وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغَيْرِ عِلمٍ- هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سَبَقَ[٤].

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

أي: كيفَ يكونُ له ولَدٌ، ولا زوجةَ له؟! فالولَدُ إنَّما يكون متولِّدًا عن شيئَينِ متناسِبَينِ، واللهُ لا يناسِبُه ولا يشابِهُه مِن خَلْقِه شيءٌ؛ وهو سبحانه لا يحتاجُ إلى زوجةٍ، فهو الغنيُّ عن جميعِ مخلوقاتِه، وكلُّها فقيرةٌ إليه، وجميعُ الكائناتِ خَلْقُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

وعَبيدُه، ولا يُمكِنُ أن يكون شيءٌ مِن خَلْقِه ولدًا أو زوجةً له بحالٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وهو سبحانه لا يَخفَى عليه شيءٌ مِمَّا خَلَق، ويعلَمُ أيضًا المعدومَ، فهو عالِمٌ بالموجوداتِ والمعدوماتِ، والجائزاتِ والمُسْتحيلاتِ، فمِنْ إحاطَةِ عِلْمِه عزَّ وجلَّ أنَّه يعلَمُ المعدومَ الذي سبق في عِلمِه أنَّه لا يُوجَد، يعلَمُ أنْ لو كان كيف يكون؟ فمن أحاط عِلْمُه بكلِّ شيءٍ فكيف يكون جِنْسًا له- كالولَدِ- من لا يعلَمُ شيئًا إلا ما عَلَّمَه اللهُ؟ وهو عالِمٌ أيضًا بأعمالِ أولئك الذين يزعُمونَ أنَّ لله شريكًا أو ولدًا، وهو مُحْصيها عليهم فيجازِيهم بها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الحجَّةَ على وجودِ الإلَهِ القادِرِ المُختارِ الحَكيمِ الرَّحيمِ، وبيَّنَ فسادَ قَوْلِ مَن ذَهَبَ إلى الإشراكِ بالله، وفصَّلَ مذاهِبَهم على أحسَنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٦-٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦-٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧-٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٧-٣٨).

الوُجوهِ، وبيَّنَ فسادَ كُلِّ واحِدٍ منها بالدَّلائلِ اللَّائقة به. ثم حَكَى مذهَبَ مَن أثْبَتَ لله البنينَ والبناتِ، وبيَّنَ بالدَّلائلِ القاطعة فسادَ القولِ بها- فعند هذا ثَبتَ أنَّ إلَهَ العالَمِ فَرْدٌ واحِدٌ صَمَدٌ؛ مُنَزَّهٌ عن الشَّريكِ والنَّظيرِ، والضِّدِّ والنِّدِّ، ومُنَزَّهٌ عن الأولادِ والبنينَ والبناتِ، فعند هذا صَرَّحَ بالنتيجةِ؛ فقال[1]:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾.

أي: ذلك- الذي لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ- هو المألوهُ المعبودُ الذي يستحِقُّ نهايةَ الذُّلِّ ونهايةَ الحُبِّ، الرَّبُّ الذي ربَّى جميعَ خَلْقِه بنِعَمِه، فلا ينبغي أن تكون عبادتُكم وعبادةُ جميعِ الخَلْقِ إلَّا خالصةً له وحْدَه؛ فحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ جميعَ أنواعِ العبادَةِ لصانِعِه، ويَقْصِدَ بها وَجْهَه، فاعبدوه وحْدَه لا شريكَ له، وأَقِرُّوا له بالوحدانيَّة، فلا وَلَدَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ له، ولا نَظيرَ ولا شريكَ[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

أي: واللهُ على جميعِ ما خَلَقَ رَقيبٌ وحَفيظٌ؛ فيقومُ بأرزاقِهم وأقواتِهم، وسياسَتِهم وتدبيرِ شئونِهم؛ بكمالِ عِلْمِه، وقُدْرَته ورَحْمَتِه، وعَدْلِه وحِكْمَتِه عزَّ وجلَّ، وكلُّ شيءٍ بِيَدِه، وأمورُ كُلِّ شيءٍ تُفَوَّضُ إليه وحده، فيفعَلُ فيها ما يشاءُ سبحانه، فذلك- الذي هذه صفاتُه- هو الذي يَستَحِقُّ أن يُعبَد وَحْدَه لا شريكَ له[3].

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٨-٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤١-٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٦).

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

أي: لا تُحيطُ به الأبصارُ، وإنْ كانتْ تراه في الجُملةِ، أمَّا هو سبحانه فقد أحاط عِلْمُه، وسَمْعُه، وبَصَرُه بكُلِّ شيءٍ؛ فيعلَمُ ويرى كلَّ شيءٍ على حقيقَتِه التي هو عليها(١).

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وهو اللَّطيفُ الذي يُوصِلُ النَّفْعَ والبِرَّ والإحسانَ لخَلْقِه بالطُّرُق الخَفِيَّة، من حيثُ لا يشعرونَ، وهو الخبيرُ الذي دَقَّ عِلْمُه؛ فأدرَكَ به الخفايا والبواطِنَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

العابدُ ينبغي أن يتفرَّغَ لعبادَةِ الله تعالى، ويقطَعَ أمورَه عن غيرِ وكالَتِه سبحانه؛ فإنَّه يكفيه بفَضْلِه عمَّن سواه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٣).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: وما كان ينبغي أن يكونَ له شريكٌ مطلقًا؛ لأنَّ الصِّفَة إذا ذُكِرَت مجرَّدةً غيرَ مُجراةٍ على شيءٍ؛ كان ما يتعلَّقُ بها من النفي عامًّا في كلِّ ما يجوز أن يكونَ له الصِّفَةُ، وحُكْمُ الإنكارِ حُكْمُ النَّفْيِ(٤).

٢- قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٨٩) (١١/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٣-٥٩)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٤٥٧).
وفي معنى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أقوال أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٩-٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩-٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢١٥).

لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذه الآيةُ يُفهَم منها أنَّ المِلْكَ والوَلَدِيَّةَ لا يُمكِنُ أن يجتمعا؛ لأنهم لَمَّا ذكروا له الولَدَ كان مِنْ رَدِّهِ عليهم: أنَّه مُختَرِعُ الأرضِ والسَّماءِ؛ أي: ومَنْ فيهما، وصانِعُ الشَّيءِ هو مالِكُه، والوَلَدُ لا يكون مملوكًا أبدًا، وجرت العادةُ في القرآنِ بأنَّ اللهَ يَرُدُّ على الكَفَرة في ادِّعاءِ الوَلَدِ؛ بأنَّه مالِكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ الخَلْقَ عبيدُه، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لأنَّ العبد لا يُمكِنُ أن يكونَ ولدًا. ومن هذه الآياتِ القرآنيةِ أخَذَ العُلماءُ أنَّ الإنسانَ إذا مَلَكَ وَلَدَه- بأن تزوَّجَ أمَةً لغَيرِه، وكان ولدُه رقيقًا واشتراه- أنَّه يُعتَق عليه بنفْسِ المِلْك، ولا يُمكنُ أن يَمْلِكه؛ لأنَّ المِلْكيَّة والوَلَدِيَّة متنافيانِ؛ ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾[1].

٣- فائدةُ ذِكْرِ قَوْلِه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعبدُوهُ﴾ فيها بعدَ قولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ جعلُه توطئةً لقولِه تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وأمَّا قولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فإنما ذُكِرَ استدلالًا على نَفْيِ الوَلَدِ، فقد قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في ذِكْرِ العِلْم بعد الخَلْقِ إشارةٌ إلى الدَّليلِ العقليِّ إلى ثبوتِ عِلْمِه، وهو هذه المخلوقاتُ، وما اشتَمَلَتْ عليه من النِّظامِ التامِّ، والخَلْقِ الباهِرِ؛ فإنَّ في ذلك دلالةً على سَعَةِ عِلْمِ الخالِقِ، وكمالِ حِكْمَتِه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذلِكُم الذي خَلَقَ ما خَلَقَ، وقَدَّر ما قَدَّرَ[3].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

٥- قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ قد يستشْكِلُ مُستَشْكِلٌ، فيقولُ: إنَّ الإلهَ هو الذي يَستحِقُّ أن يكون معبودًا، فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ معناه: لا يَستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو، فلِمَ قال بعدَ ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ فإنَّ هذا يُوهِمُ التَّكريرَ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ مُسبَّبٌ عن مَضمونِ جُملةِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، على معنى: أنَّ مَنْ استجمَعَتْ له هذه الصِّفاتُ كان هو الحَقيقَ بالعبادَةِ؛ فاعبدُوه ولا تَعبُدوا مِن دونِه بَعْضَ خَلْقِه[1].

٦- استُدِلَّ بقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ لأعمالِ العبادِ؛ فأعمالُ العبادِ أشياءُ، واللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ بحكم هذه الآيَةِ؛ فوجبَ كونُه تعالى خالقًا لها[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يدلُّ على جوازِ الرؤيةِ؛ لأنَّ نَفْيَ الإدراكِ الذي هو الإحاطةُ يدلُّ على أنَّه إذا رُئِيَ لا تُدْرِكُه الأبصارُ، وهو يقتضي إمكانَ رُؤيتِه، فنفيُ إدراكِ الأبصارِ إيَّاه ليس نفيًا لرؤيَتِه؛ فهو دليلٌ على إثباتِ الرؤيَةِ، ونفيِ إحاطَةِ الأبصارِ به، فالآيَةُ تدلُّ على جوازِ الرؤيَةِ أدلَّ منها على امتناعِها؛ لأنَّ اللهَ سبحانه إنَّما ذَكَرَها في سياقِ التمدُّحِ، ومعلومٌ أنَّ المدحَ إنَّما يكونُ بالأوصافِ الثبوتيَّة، وأمَّا العَدَمُ المحضُ فليس بكمالٍ، ولا يُمدَحُ به[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٣).

- قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ هما مفعولَا (جَعَلَ) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا﴾؛ فالمفعولُ الأوَّل ﴿الْجِنَّ﴾؛ لأنَّ الجِنَّ هم المقصودُ من السِّياقِ لا مُطلَقُ الشُّركاء؛ لأنَّ جَعْلَ الشُّركاءِ للهِ قد تَقرَّر مِن قبلُ، والمفعول الثاني وهو ﴿شُرَكَاءَ﴾، وقُدِّمَ هذا المفعولُ الثاني، وفائدةُ هذا التقديمِ: استعظامُ أنْ يُتَّخَذَ مَن كان مَلَكًا أو جنيًّا أو إنسيًّا أو غيرَ ذلك، شريكًا للهِ تعالى؛ ولذلك قُدِّمَ اسمُ (الله) على الشُّركاء، وأيضًا قُدِّمَ المفعولُ الثاني؛ لأنَّه محَلُّ تعجُّبٍ وإنكارٍ، فصار لذلك أهمَّ، وذِكْرُه أسبَقَ، والعَرَبُ يُقَدِّمونَ الأهَمَّ الذي هم بشأنِه أَعْنَى[1].

وعلى القَوْلِ بأنَّ ﴿شُرَكَاءَ﴾ المفعولُ الأوَّل، و﴿لِلَّهِ﴾ المفعولُ الثَّاني، و﴿الجنَّ﴾ فُسِّرَ به هؤلاءِ الشُّركاءُ على طَريقِ البَدلِ النَّحويِّ- حيثُ لم يَقُلْ: (وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله)- فيكونُ قَدَّم وأخَّر في النَّظمِ؛ لإفادةِ أنَّ محلَّ الغَرابةِ والنَّكارةِ أنْ يكونَ للهِ شُركاءُ، لا مُطلقُ وجودِ الشُّركاءِ، ثم كونُ الشركاءِ من الجنِّ؛ فقدَّمَ الأهمَّ فالمهمَّ؛ ولو قال: (وجعلوا الجنَّ شركاء لله) لأفادَ أنَّ موضعَ الإنكارِ أنْ يكون الجنُّ شركاءَ للهِ؛ لكونِهم جِنًّا، وليس الأمرُ كذلك، بل المنكَرُ أنْ يكونَ للهِ شريكٌ مِن أيِّ جِنسٍ كانَ[2].

- وتقديمُ المجرورِ على المفعولِ في قوله: ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾؛ للاهتمامِ والتعجُّبِ مِن خَطَلِ عُقولِهم؛ إذ يجعلونَ لله شُرَكاءَ مِن مخلوقاته؛ لأنَّ المُشركينَ يعترفونَ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ الجِنِّ، فهذا التقديمُ جرى على خِلافِ مقتضى الظَّاهِرِ؛ لأجْلِ ما اقتضى خلافَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦).

- قولُه تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿خَرَقوا﴾، أي: اختلَقوا، وفي لفْظِها جَرْسٌ خاصٌّ وظِلٌّ خاصٌّ يرسُمُ مَشهَدَ الطُّلوعِ بالفِرْيَةِ التي تَخْرِق وتَشُقُّ، وهذا التعبيرُ من أدَقِّ بلاغَةِ التنزيلِ، وهو من بيانِ معنى الشَّيءِ بما يدلُّ على تزييفِه[١].

- وتنكيرُ العِلم هنا في حيِّزِ النَّفيِ (بغير) في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على انسلاخِ هؤلاءِ المشركينَ في خَرْقِهم هذا عن كلِّ ما يُسمَّى عِلْمًا، فلا هُمْ على علمٍ بمعنى ما يقولون، ولا على دليلٍ يُثْبِتُه، ولا على علمٍ بمكانِه منَ الفسادِ والبُعدِ من العَقْلِ، ولا بمكانِه من الشَّناعَةِ والإزراءِ بمقامِ الألوهيَّة والربوبيَّةِ[٢].

- قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتنزيهه عَزَّ وجَلَّ عما نَسَبوه إليه[٣].

- وقوله: ﴿تَعَالَى﴾ جاءَ على صِيغة التفاعُل؛ للمبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلوِّ[٤].

٢- قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ؛ إذ إنَّ هذا شروعٌ في الإخبارِ بِعَظيمِ قدرَةِ الله تعالى، وهي تُفيدُ مع ذلك تقويةَ التنزيهِ في قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فتتنزَّلُ منزلَةَ التَّعليلِ لِمَضمونِ ذلك التَّنزيه بمضمونِها أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٠).

- وعلى القَوْلِ بأنَّ ﴿بَدِيعُ﴾ فاعلٌ للفعل ﴿وتَعَالَى﴾؛ فيكونُ من الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ؛ لتعليلِ الحُكمِ، وتوسيطُ الظرفِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بينه وبين الفِعل للاهتمام ببيانِه[١].

- قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- جملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لإتمامِ تعليمِ المُخاطَبينَ بعضَ صفاتِ الكمالِ الثابتَةِ لله تعالى؛ فهي جملةٌ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ باعتبارِ ما فيها من التَّوصيفِ، لا باعتبارِ الرَّدِّ[٢].

- وفي التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ دلالةٌ على أنَّه سبحانَه متَّصِفٌ بالعِلْمِ أزَلًا وأبدًا؛ فلا يَخفَى عليه سبحانه خافيةٌ مِمَّا كان وما سيكونُ؛ من الذَّواتِ والصِّفاتِ والأحوالِ[٣].

- وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ؛ حيث لم يَقُلْ: (به عليمٌ)؛ لبيانِ أنَّه يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ كائنًا ما كان؛ مخلوقًا أو غيرَ مخلوقٍ، وهو أيضًا بمنزلَةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ التَّذييلاتِ يُقْصَدُ فيها أن تكونَ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بِنَفْسِها؛ لأنَّها تُشْبِهُ الأمثالَ في كونِها كلامًا جامعًا لمعانٍ كثيرةٍ[٤].

٣- **قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** ﴿ذَلِكُم﴾ إشارةٌ إلى المنعوتِ بما ذُكِرَ من جلائِلِ النُّعوتِ، وما فيه من معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ شأنِ المُشَارِ إليه، وبُعْدِ منزلَتِه في العَظَمة. والخطابُ للمشركينَ المعهودينَ بطريقِ الالتفاتِ[٥]، وأيضًا فإنَّ وقوعَ اسمِ الإشارَةِ ﴿ذَلِكُمْ﴾ بعدَ إجراءِ الصِّفاتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).

والأخبارِ المتقدِّمةِ؛ للتنبيه على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بالأخبارِ والأوصافِ التي تَرِدُ بعد اسْمِ الإشارةِ، والمشارُ إليه هو الموصوفُ بالصِّفاتِ المضَمَّنةِ بالأخبارِ المتقدِّمَة؛ ولذلك استُغنِيَ عن إتباعِ اسمِ الإشارَةِ ببيانٍ أو بدلٍ، والمعنى: ذلكم المُبدِعُ للسَّمواتِ والأرضِ، والخالِقُ كلَّ شيءٍ، والعليمُ بكلِّ شيءٍ؛ هو اللهُ، أي: هو الذي تَعْلَمونَه[1].

- قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقولِه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وفي سورة غافر قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، فقدَّمَ في سورة الأنعام قولَه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قولِه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقدَّم في سُورةِ غافر قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر:٦٢]، على قولِه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:٦٢]؛ وذلك لأنَّ ما في سُورةِ الأنعامِ جاءَ بعدَ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ فكان مِن الملائِمِ نفْيُ ما جَعَلوه وادَّعَوه مِن الشُّركاءِ والصَّاحبةِ والوَلَدِ، فأتَى بعدَه بما يَدفَعُ قولَهم، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فالملائمُ هنا هو نَفْيُ ما جَعَلوه وادَّعَوه مِن الشُّركاءِ والصَّاحبةِ والوَلَدِ؛ فقدَّم ما الأمرُ عليه مِن وَحدانيتِه سُبحانَه، وتَعاليه عن الشُّركاءِ والولدِ، وعرَّف العبادَ بعدُ بأنَّ كلَّ ما سواه سبحانه خَلْقُه ومُلْكُه، فقدَّمَ الأهمَّ في الموضِعِ. وأمَّا في سُورةِ غافر فجاءَ هذا بعدَ قولِه تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]؛ فكان الكلامُ على تَثبيتِ خَلْقِ الإنسانِ، لا على نفْيِ الشَّريكِ عنه، كما كان في الآيةِ الأولى؛ فكان تقديمُ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هاهُنا أَوْلى؛ فلم يَتقدَّم هنا ما تَقدَّم في آيَةِ الأنعامِ؛ فكان تقديمُ هذا التعريفِ هنا أَنسبَ وأهمَّ، ثم أَعْقَبَ بالتعريفِ بوحدانيتِه تعالى؛ فجاءَ كلٌّ على ما يَجِبُ ويُناسِبُ، ولم تكن واحدةٌ مِن الآيتَينِ لِتُناسِبَ ما تَقدَّم الأُخرى(١).

٤- **قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** فيه تعريضٌ بانتفاءِ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ؛ فكَوْنُها مُدركَةٌ بالأبصارِ من سِماتِ المُحْدثاتِ، لا يليقُ بالإلهيَّة(٢).

- وتخصيصُ الأَبصارِ في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ بالذِّكْرِ، مع أنَّه يُدرِكُ كلَّ شيءٍ؛ ليجانسَ ما قبلَه، ويَزيدَ في الكَلامِ ضَربًا من المحاسِنِ يُسمَّى (فَنَّ التعطُّفِ)(٣).

- ولَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ﴾ ذُكِر للتخويفِ، ناسب حينئذٍ أن يشفعَ ببيانِ رأفتِه ورحمتِه، جريًا على سننِ الترغيبِ والترهيبِ، فقال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾(٤). وعَطَفَ عليه قولَه: ﴿الْخَبِيرُ﴾ مُخصِّصًا لِذاتِه سُبحانه بصِفَةِ الكَمالِ؛ لأنَّه ليس كلُّ مَن أدرَكَ شيئًا كان خَبيرًا بذلك الشَّيءِ؛ لأنَّ المُدرِكَ للشَّيءِ قد يُدْرِكُه لِيَخْبُرَه، ولَمَّا كان الأمرُ كذلك أخبَرَ سبحانه

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٣٥-٥٣٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٢-١١٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٧- ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٣).
(٣) التعطُّف في الاصطلاح: الإتيانُ بلفظةٍ في أوَّل الكلامِ وإعادتُها بعينِها أو بما يتصرَّف منها. يُنظَر: ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ٤٦٩) وينظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٤٥٨).

وتعالى أنَّه يُدرِكُ كلَّ شَيءٍ مع الخِبْرَةِ به[1].

- وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ تذييلٌ للاحْتراسِ دفعًا لتوهُّمِ أنَّ من لا تُدرِكُه الأبصار لا يعلم أحوالَ من لا يُدركونَه[2].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٦).

الآيات (١٠٤-١٠٧)

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَصَائِرُ﴾: حُججٌ بيِّنةٌ ظاهرةٌ؛ تُبصرونَ بها الهُدى من الضَّلالِ، والإيمانَ من الكُفْرِ، ومفردها: بصيرةٍ، والبَصَرُ يقال للجارِحَة النَّاظِرَة، ويُقال لقوَّةِ القَلْبِ المُدرِكَة، وأصل (بصر): العِلْمُ بالشَّيء[1].

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾: أي: وما أنا عليكم بحافظٍ ولا برقيبٍ؛ أُحصِي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وأصل (حفظ): يدلُّ على مراعاةِ الشَّيءِ، وتعاهُدِه، وتفقُّدِه[2].

﴿دَرَسْتَ﴾: أي: قرأتَ، ويُقال: درسْتَ العِلمَ: أي: تناولْتَ أثَرَه بالحفْظِ، ولمَّا كان تناولُ ذلك بمداومةِ القراءةِ؛ عُبِّر عن إدامةِ القراءةِ بالدَّرسِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

قد جاءَكُم - أيُّها النَّاسُ - أدلَّةٌ بيِّنةٌ، وحُجَجٌ قاطعةٌ في هذا القرآنِ العظيمِ؛ بيَّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٦٩- ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

اللهُ تعالى فيها توحيدَه، وكمالَ قُدرَتِه، فمَن تبيَّنَها وآمَنَ بما دلَّت عليه، فنَفْعُ ذلك لنفْسِه، ومَن لم يؤمِنْ بها، وعَمِيَ عمَّا دلَّت عليه، فإنَّما يعود وَبالُ ذلك على نفسِه، وما الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم عليكم بحافظٍ، ولا رقيبٍ يُحصي أعمالَكم.

ثم يخبِرُ تعالى أنَّه كما فصَّلَ الآياتِ والحُجَجَ في هذه السورة، ووضَّحَها بطُرُقٍ متنوِّعةٍ؛ لبيان التوحيد، كذلك يوضِّحُ للنَّاسِ الآياتِ، ويُبيِّنُها بطرقٍ متعدِّدةٍ في جميع القرآن، وليَقولَ عند ذلك من أعمى قَلْبَه عن الحَقِّ: تَعَلَّمْتَ يا محمدُ هذا الذي تأتي به مِن أهْلِ الكتابِ، وأيضًا لأجْلِ أنْ يبيِّنَه الله لقومٍ يعلمون الحقَّ إذا تبيَّن لهم فيتَّبِعوه ويَقْبلوه.

ثم يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَتَّبِعَ القرآنَ المُنَزَّلَ إليه من ربِّه تعالى، هو سبحانه لا معبودَ بحقٍّ غيرُه، وأَمَرَه أن يُعْرِضَ عن المُشركينَ.

ويُخبِر تعالى أنَّه لو أراد هدايةَ المشركينَ لَفَعَلَ ذلك، ولكنْ له حِكْمةٌ في خِذْلانِهم وإِضْلالِهم، ويخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لم يَجعَلْه عليهم حافظًا يحفَظُ أعمالَهم ويُحْصِيها، ولا رقيبًا عليهم، وأنَّه ليس عليهم بقَيِّمٍ يُدَبِّرُ مصالِحَهم، ولا مُوكلًا بأعمالِهم فيحاسِبَهم عليها.

تفسيرُ الآيات:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أكثَرَ من إقامَةِ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه؛ ناسَبَ أن يَعِظَهم، ويمدَحَ الأدِلَّةَ حثًّا على تدبُّرِها[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢).

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

أي: قد جاءتْكم حججٌ قاطعاتٌ، وأدلَّةٌ واضحاتٌ في هذا القرآنِ العظيمِ، تُبصرونَ بها الهدَى من الضَّلالِ، والحَقَّ من الباطِلِ؛ بَيَّنَ اللهُ لكم بها توحيدَه، وكمالَ قُدْرَتِه؛ فمَن عَرَفَها وآمَنَ بها، وعَمِلَ بمقتضاها، ففائِدَةُ ذلك تعودُ إليه في الدُّنيا والآخِرَة، ومن لم يؤمِنْ بها، وعمِيَ قلبُه عن دَلالَتِها، فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك على نَفْسِه فحَسْبُ، وإليها أساءَ لا إلى غيرها[1].

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

أي: وما أنا عليكم بحافظٍ، ولا رقيبٍ أُحْصِي عليكم أعمالَكم وأفعالَكم، كلَّا! فليس هذا من شأني، وإنَّما أنا رسولٌ من اللهِ، وظيفتي تقتصِرُ على إبلاغِكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم[2].

كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٦٩-٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١-٦٥).

قال الشنقيطي: (وهذا الكلامُ كأنَّ الله أمَر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَه، ولذا قال في آخرِه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾) ((العذب النمير)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٥).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَمَّمَ اللهُ تعالى الكلامَ في الإلهيَّاتِ في آياتٍ سابقةٍ؛ شَرَعَ في إثباتِ النبوَّاتِ، فبدَأَ تعالى بحكايةِ شُبُهاتِ المُنْكرينَ لنبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسَلَّم؛ فقال[1]:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾.

أي: وكما فصَّلنا الآياتِ والحُجَجَ في هذه السورةِ، ووضَّحْناها بطرقٍ متنوِّعةٍ؛ لبيانِ التَّوحيدِ، وأنَّه لا إلهَ إلا هو، فهكذا أيضًا نوضِّحُ لكم آياتِنا، ونُبَيِّنُها بطُرقٍ متعدِّدةٍ في جميعِ القرآنِ[2].

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- قراءةُ ﴿دَارَسْتَ﴾ أي: ذاكَرْتَ، فالمعنى: قارَأْتَ أهلَ الكتابِ، وتعلمْتَ مِنهم[3].

٢- قراءة ﴿دَرَسَتْ﴾ أي: مَضَتْ وامَّحَتْ وتقادَمَت، فالمعنى: هذا الذي تتلوه علينا قد تطاوَلَ ومَرَّ بنَا، ومُحِيَ أثرُه من قُلُوبِنا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٦-٦٨).

(٣) قرأ بها ابنُ كثير وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).

(٤) قرأ بها ابن عامر ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

٣- قراءةُ ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: قرأْتَ أنت وتعلَّمْتَ- يا محمَّدُ- كُتُبَ أهلِ الكتابِ[١].

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾.

أي: ونصرِّفُ الآياتِ؛ ليقولَ مَن خَذَلَه اللهُ تعالى وأشقاه، فلم يُوفَّقْ للعَمَلِ بالقرآنِ: دَرستَ- يا محمَّدُ- هذا الذي تَأتِينا به ممَّنْ قَبْلَك من أهلِ الكتابِ، فقرَأْتَ وتَعلَّمْتَ منهم، وليس بشَيءٍ جديدٍ أُنْزِلَ عليك من السَّماءِ كما تزعُم[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤-٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأيضًا لأجْلِ أنْ نُبيِّنَه لقومٍ وفَّقْناهم، فلهُم عقولٌ، وعِلْمٌ يظهَرُ لهم به ما في هذا القُرآنِ العَظيمِ مِن آياتٍ مُتنوِّعةٍ، وأدلةٍ قاطعةٍ موضِّحةٍ للحَقِّ بلا لَبْسٍ،

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٢).
قال الواحديُّ: (أيْ: نصرِّفُ الآياتِ؛ ليكونَ عاقبةُ أمرِهم تكذيبًا؛ للشَّقاوةِ التي لَحِقَتْهم) ((الوجيز)) (ص: ٣٦٩).
وقال ابنُ عطيَّة: (وقرأ الجمهورُ ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ بكسرِ اللامِ على أنَّها لامُ «كي»، وهي على هذا لامُ الصيرورةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣١).

فيَقبلونَ الحَقَّ ويتَّبعونَه بعد تبيُّنِه لهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ النَّاسَ فريقانِ؛ فريقٌ قد فَسَدَتْ فِطْرَتُهم، ولم يبْقَ فيه استعدادٌ للاهتداء، وفريقٌ يعْلَمون، وبالبيانِ يَهْتدونَ- أَمَرَه أن يتَّبعَ ما أُوحِيَ إليه من رَبِّه؛ بالبيانِ له، والعَمَلِ به[٢].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن المُشركينَ أنَّهم يَنسُبونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم- في إظهارِ هذا القرآنِ العَظيمِ- إلى الافتِراء، وإلى مُدارَسَةِ مَن يستفيدُ هذه العلومَ منهم، ثم يَنْظِمُها قرآنًا- أتْبَعَه بقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ لئلَّا يصيرَ ذلك القولُ سببًا لفُتُورِه عن تبليغِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ، والمقصودُ: تقويةُ قَلْبِه، وإزالةُ الحُزنِ الذي حَصَلَ بسَمَاعِ تلك الشُّبهَةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جَلَّ وعلا أنَّه أَنزَلَ علينا على لسانِ نَبيِّنا بصائِرَ؛ حيث قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ والمعنى: جاءَتْكم مِن قِبَلِنَا على لسانِ نَبيِّنا بصائِرُ؛ أي: حُجَجٌ قاطعاتٌ، وأدلَّةٌ واضحات، لا تترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، فهذه البصائِرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٩).

التي جاءتكم يَلْزَمُكم اتِّباعُها، وعدمُ المَيْل والحَيْدة عنها؛ ولذا أَتْبَعَ قَوْلَه: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾ بقولِه[1]:

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اتَّبِعْ - يا محمدُ - هذا القرآنَ العظيمَ، فاقْتَدِ به، واقتَفِ أثَرَه، وتأدَّبْ بآدابِه، وتَخَلَّقْ بما فيه من أخلاقٍ، وأحِلَّ حلالَه، وحَرِّمْ حَرامَه، واعتَقِدْ عقائِدَه، وانزَجِرْ بوَعيدِه، وانبَسِط لِوَعْدِه، واعْمَلْ به، ودعْ ما يدعوك إليه مُشْركو قومِك؛ فإنَّ ما أُوحِيَ إليك من ربِّكَ هو الحَقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه؛ لأنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه[2].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ودَعْ عنك يا محمَّدُ مجادَلةَ هؤلاءِ المُشْركينَ وخُصومتَهم، واعفُ عنهم واصْفَحْ، واحتَمِلْ أذاهم؛ حتى يَنْصُرَك اللهُ تعالى عليهم[3].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.

أي: ولو أرادَ الله تعالى هدايَتَهم واستِنقاذَهم من الضَّلالةِ لَوَفَّقَهم؛ فلم يُشْرِكوا به شيئًا، ولآمَنُوا بك فاتَّبَعوا ما جِئْتَهم به من الحَقِّ، لكنَّ لله تعالى حكمةً في خِذْلانهم وإضلالِهم؛ فإنَّه لو شاء لهدى النَّاسَ كلَّهم جميعًا[4].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٠-٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٩، ٨٤).

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أي: لم نبعَثْك عليهم حافظًا؛ تحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم، وتُحْصِيها عليهم[1].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: ولَسْتَ عليهم بقَيِّمٍ على أرزاقِهم وأقواتِهم وأمورِهم، ولسْتَ مُوكلًا بأعمالِهم؛ فتحاسِبَهم بها، وتجازِيَهم عليها[2].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- ترْكُ التقليدِ، والاعتبارُ بالبصائرِ والدَّلائلِ، والترقِّي في أَوْجِ المعرفَةِ إلى سَمواتِ الاجتهادِ والعملِ بالأدلَّةِ؛ نستفيدُ ذلك من قولِ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، فمن أبصَرَ وعَمِلَ بالأدلَّةَ خَلَّصَ نفسَه من الضَّلالِ المؤدِّي إلى الهلاكِ، ومَن عَمِيَ ولم يهتَدِ بالأدلَّةِ؛ فعلى نَفْسِه عماهُ؛ فيَضِلُّ ويَعْطَب[3].

٢- على الدَّاعِيةِ تنويعُ الأسلوبِ، والتفنُّنُ في البيانِ؛ لإثباتِ أُصُولِ الدِّينِ، والهدايةِ لمحاسِنِ الآدابِ والأعمالِ؛ مراعاةً للعقولِ والأفهامِ، ولاختلافِ استعدادِ الأفرادِ والأقوامِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكذلك نُصَرِّفُ الآياتِ على أنواعٍ شَتَّى ليهتديَ بها المستَعِدُّونَ للإيمانِ على اختلافِ العقولِ والأفهامِ[4].

٣- صاحِبُ الدَّعوةِ لا يجوزُ أن يُعَلِّقَ قَلْبَه وأمَلَه وعَمَلَه بالمُعْرِضينَ عن الدَّعوةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩-٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٤٨).

المعاندينَ، الذين لا تتفتَّحُ قلوبُهم لدلائِلِ الهُدى ومُوحِيات الإيمانِ، إنَّما يَجِبُ أن يُفَرِّغَ قلبَه، وأن يُوَجِّهَ أمَلَه وعَمَلَه للذين سَمِعُوا واستجابوا؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، فالحَقُّ يعلو متى ظَهَرَ بالقَولِ والعَمَلِ مع الإخلاصِ، لا يضرُّه الباطِلُ بخرافاتِ الأعمالِ، ولا بزخارفِ الأقوالِ[1].

٤- نبَّه بقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنَّه تعالى لَمَّا كان واحدًا في الإلهيَّةِ؛ فإنَّه يجِبُ طاعَتُه، ولا يجوزُ الإعراضُ عن تكاليفِه بسَبَبِ جَهْلِ الجاهلينَ، وزَيْغِ الزَّائغينَ[2]، وأَكَّدَ به إيجابَ الاتِّباعِ لِمَا في كلمةِ التوحيدِ من التمسُّكِ بحبلِ اللهِ، والاعتصامِ به، والإعراضِ عمَّا سواه[3].

٥- تحلِّي الدَّاعِيَةِ بالتواضُعِ، وإسلامُ الجبروتِ والقَهرِ لله تعالى؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما جعلناك عليهم حفيظًا تحفَظُ عليهم أعمالَهم لتحاسِبَهم وتجازِيَهم عليها، ولا وكيلًا تتولَّى أمورَهم وتتصَرَّف فيها، وما أنت عليهم بوكيلٍ ولا حفيظٍ بمُلْكٍ ولا سِيادةٍ[4].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لَمَّا كانت الآياتُ- لِقُوَّتِها وجَلالَتِها- توجِبُ المعرفةَ، فتكونُ سببًا لانكشافِ الحقائِقِ؛ الذي هو كالنُّورِ في جلاءِ المحسوساتِ، قال: ﴿بَصَائِرُ﴾ أي: أنوارٌ هي لقلوبكم بمنزلَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥٢).

الضِّياءِ المحسوسِ لعيونِكم(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ يُبْطِلُ قولَ الجبريَّة في أنَّه تعالى يُكَلِّفُ بلا قدرةٍ(٢).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه قَرَنَ أمرَه باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليه من ربِّه بكلمةِ توحيدِ الألوهيَّة؛ لبيانِ وجوبِ ملازَمتِه لتوحيدِ الربوبيَّة، فكما أنَّ الخالِقَ المُربِّي بما أنْزَلَ من الرِّزْق، وللأرواحِ بما أنْزَلَ من الوَحْيِ؛ واحِدٌ لا شريكَ له في الخَلْقِ، ولا في الهدايةِ، فالواجِبُ أن يكون الإلهُ المعبودُ واحدًا لا شريكَ له(٣).

٤- وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا تلطُّفٌ مع الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَطمينٌ لقلْبِه، وتذكيرٌ له بحقائقِ الأحوالِ، وإزالةٌ لِمَا يَلْقَاه من الكَدَر من استمرارِهم على الشِّرْكِ، وقلَّةِ إغناء آياتِ القرآنِ ونُذُره في قلوبهم؛ فذَكَّرَه اللهُ بأنَّه تعالى قادرٌ على أن يُحَوِّلَ قُلوبَهم، فتَقْبَلَ الإسلامَ بتكوينٍ آخَرَ، ولكنَّ اللهَ أرادَ أنْ يَحْصُلَ الإيمانُ مِمَّن يؤمِنُ بالأسبابِ المعتادَةِ في الإرشادِ والاهتداءِ؛ لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطَّيِّبِ، وتظهَرَ مراتِبُ النُّفوسِ في ميادينِ التلقِّي، فأرادَ اللهُ أنْ تختلِفَ النُّفوسُ في الخيرِ والشَّرِّ اختلافًا ناشئًا عن اختلافِ كيفيَّاتِ الخِلْقةِ والخُلُق والنَّشْأةِ والقَبول، وعن مراتبِ اتِّصالِ العِباد بخالِقِهم ورجائِهم منه(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا...﴾ هذه الآيةُ تَرُدُّ على القَدَريَّة

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥١-٥٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥- ٤٢٦).

الزَّاعمين أنَّ الكُفْرَ والمعاصِيَ بمشيئةِ العبدِ لا بمشيئةِ اللهِ، فمذهَبُهم باطِلٌ؛ فَرُّوا من شيءٍ فَوَقَعوا فيما هو أشْنَعُ وأكبَرُ منه؛ فهم يُريدونَ التقرُّبَ لله، بأن يَزْعُموا أنَّ الخَسائِسَ؛ كالسَّرِقَة والزِّنا والشِّرْك؛ أنَّها بمشيئةِ العبادِ لا بمشيئةِ الله، زاعمينَ أنَّ اللهَ أنْزَهُ وأعظَمُ وأجَلُّ من أن تكونَ هذه الرَّذائِلُ بمشيئتِه(١).

٦- قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا...﴾ ليس في مِثل هذا عذرٌ للمشركين ولا لأمثالِهم من العُصاة؛ ولذلك ردَّ اللهُ عليهم الاعتذارَ بمِثل هذا في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وفي قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ لأنَّ هذه حقيقةٌ كاشفةٌ عن الواقِع لا تصلُح عذرًا لِمَن طَلَبَ منهم ألَّا يكونوا في عِدادِ الذين لم يشأِ اللهُ أنْ يُرشِدَهم؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾(٢) [المائدة: ٤١].

٧- قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تذكيرٌ وتسليةٌ؛ ليُزيحَ عنه كرْبَ إعراضِهم عن الإسلامِ؛ لأنَّ ما يَحصُلُ له مِن الكَدَرِ لإعراضِ قومِه عن الإسلامِ يَجعَلُ في نفْسِه انكسارًا، كأنَّه انكسارُ مَن عُهِدَ إليه بعملٍ فلم يتسنَّ له ما يُريدُه مِن حُسن القِيام، فذَكَّره اللهُ تعالى بأنَّه قد أدَّى الأمانةَ، وبلَّغَ الرِّسالة، وأنَّه لم يَبعثْه مُكرِهًا لهم ليأتيَ بهم مُسلِمين، وإنَّما بعثَه مُبلِّغًا لرسالتِه؛ فمَن آمَن فلنَفْسِه، ومَن كفَر فعليها(٣).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٩،٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥- ٤٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ في التعرُّضِ لعنوانِ الربوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبينَ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ إظهارٌ لكمالِ اللُّطْفِ بهم، أي: قد جاءَكُم من جهةِ مالِكِكم ومُبَلِّغِكم إلى كَمالِكم اللَّائِقِ بكم من الوَحْيِ النَّاطِقِ بالحَقِّ والصوابِ؛ ما هو كالبصائِرِ للقُلوبِ، أو قد جاءَكُم بصائِرُ كائنةٌ من ربِّكم[١].

- قوله: ﴿أَبْصَرَ﴾، وقوله: ﴿عَمِيَ﴾ كنايتانِ عن الهدى والضَّلالِ، والمعنى: أنَّ ثمرةَ الهدى والضَّلالِ إنَّما هي للمُهتدِي والضَّالِّ؛ لأنَّه تعالى غَنِيٌّ عن خَلْقِه، وهي من الكناياتِ الحسنَةِ؛ لَمَّا ذَكَرَ البصائِرَ أعقَبَها تعالى بالإبصارِ والعمى، وهذه مُطابَقةٌ[٢].

٢- قوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ استئنافٌ في خطابِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ لأمْرِه بالإعراضِ عن بُهتانِ المشركينَ، وألَّا يَكْتَرِثَ بأقوالِهم، فابتداؤُه بالأمرِ باتِّباعِ ما أوحِيَ إليه يتنَزَّلُ منزلةَ المُقَدِّمةِ للأمرِ بالإعراضِ عن المشركينَ، وليس هو المقْصِدَ الأصليَّ من الغَرَضِ المَسُوقِ له الكلامُ؛ لأنَّ اتِّباعَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ما أوحِيَ إليه أَمْرٌ واقِعٌ بجميعِ معانيه، فالمقصودُ من الأمْرِ الدَّوامُ على اتِّباعِه، والمعنى: أَعْرِضْ عن المشركين اتِّباعًا لِمَا أُنْزِلَ إليك من رَبِّك[٣]. وأيضًا فالوحيُ يَنزِلُ عليه حينًا بعدَ حينٍ في شَرائعِ الدِّينِ وأمورِ الإيمانِ؛ فهو مأمورٌ مع كلِّ وحيٍ جديدٍ بالإيمانِ به واتِّباعه.

- وفي التَّعرُّضِ لعنوانِ الربوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٣).

وسلَّم في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مِن إظهارِ اللُّطْف به ما لا يَخفَى(١).

- وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيْن الأمرينِ في قوله: ﴿اتَّبِعْ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ﴾ اعتراضٌ؛ أُكِّدَ به إيجابُ اتِّباعِ المُوحَى؛ لا سيَّمَا في أمرِ التوحيدِ؛ والمقصودُ منها إدماجُ التذكيرِ بالوحدانيَّة؛ لزيادةِ تقرُّرِها، وإغاظَةِ المشركين. أو تكون هذه الجملةُ في موضع الحالِ المؤكِّدَةِ(٢).

٣- قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ جملة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإعراضِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾(٣).

- قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في الموضعينِ متعلِّقٌ بما بعده ﴿حَفِيظًا﴾ و﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ قُدِّمَ عليه للاهتمامِ به، أو لرعايةِ الفواصِلِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠٨-١١٠)

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: حَلَفُوا واجتهَدُوا في الحَلِف، أو كنايةٌ عن أغلَظِ الأيمانِ، وأصْلُ (جهد): المشقَّةُ[١]. والأَيْمَانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، وأصلُه مِن اليُمْن، أي: البَركة؛ سمَّاها اللهُ تعالى بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا لأنَّه يكونُ بأَخْذِ اليَمينِ، أو اعتبارًا بما يَفعَلُه المعاهِد والمحالِفُ وغيرُه؛ لأَنهم كَانُوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئ مِنْهُم يَمينه على يَمِين صَاحِبه[٢].

﴿وَنُقَلِّبُ﴾: أي: ونُحوِّل، وقلْبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصَرْفُه عن وَجْهٍ إلى وجهٍ، وتقليبُ اللهِ القلوبَ والبصائِرَ: صَرفُها من رأيٍ إلى رأيٍ[٣].

﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾: أفئدة: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١- ٦٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١).

وأصل (فأد): يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[1].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يَتحيَّرونَ، ويتردَّدونَ، ويَجُورونَ عن الطَّريقِ؛ فأصلُ العَمَهِ: التردُّدُ في الأمرِ من التحيُّرِ[2].

مُشكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿أَنَّهَا﴾: تُقرَأُ بفتْحِ الهمزةِ وكَسرِها؛ فعَلى قِراءةِ الفتحِ ففيها ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّ (أنَّ) بمعنى (لعلَّ) وعلى هذا يكون المفعولُ الثاني محذوفًا، تقديرُه: (وما يُشْعِرُكُم إيمانَهم)، والمعنى: وأيُّ شيءٍ يُدْريكُم إيمانَهم إذا جاءَتْهم الآيةُ؛ لعلَّها إذا جاءتْهم لا يُؤْمنون. والثاني: أنَّ ﴿لَا﴾ زائدةٌ، فتكون (أنَّ) وما عملتْ فيه في موضعِ المفعولِ الثَّاني، فيكون التقدير: وما يُشْعِرُكُم أنَّها إذا جاءت يُؤْمنونَ، والمعنى على هذا: أنَّها لو جاءتْ لم يُؤمنوا. والثالث: أنَّ (أنَّ) على بابِها، و﴿لَا﴾ غيرُ زائدة، والمعنى: وما يُدريكم عدَمَ إيمانِهم، ويكون هذا جوابًا لِمَن حَكَم عليهم بالكُفْر أبدًا، ويَئِسَ مِن إيمانِهم. وأمَّا على قراءةِ الكَسْرِ؛ فقوله: ﴿إِنَّها﴾ على الاستئنافِ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ أيضًا، تقديره: وما يُشعِرُكم إيمانَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٤-٦١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٠٢-١٠٦).

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَسبُّوا آلهةَ المُشْركينَ، حتى لا يُقابِلَه المشركونَ بِسَبِّ اللهِ، تعالى وتَقَدَّسَ وتنَزَّهَ عن كلِّ نقيصةٍ، وكما زَيَّنَ اللهُ لهؤلاءِ المُشركينَ أعمالَهم زَيَّنَ لكُلِّ أمَّةٍ عَمَلَهم، ثمَّ إلى ربهم تعالى مَرْجِعُهم، فيُخْبِرُهم بما عَمِلوا، ويجازِيهم عليه.

ويُخْبِر تعالى أنَّ المُشركينَ أقْسَموا باللهِ أشَدَّ الأيمانِ التي قَدَرُوا عليها؛ أنَّه إنْ جاءَتْهم آيةٌ خارِقَةٌ ممَّا اقترحوها فإنَّهم سيُؤمنونَ بها، فأمَرَ اللهُ رسولَه أَنْ يُخْبِرَهم أنَّ الآياتِ مِن اللهِ وَحْدَه، إنْ شاء أجابَ طَلَبَكم، وإنْ شاءَ امتنَعَ عن ذلك، ثم خاطَبَ عِبادَه المؤمنين قائلًا لهم: وما يُدريكُم، أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ لا يؤمنونَ إذا جاءَتْهم المُعجزاتُ التي سَأَلُوها.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه يُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فيَحُولُ بينهم وبين الانتفاعِ بالحَقِّ، والاهتداءِ إليه؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بالقرآنِ في أوَّلِ مرَّةٍ أتاهم فيها الدَّاعي، ويترُكُهم في تمرُّدِهم واعتدائِهم على حدودِ الله يتردَّدونَ، ولا يهتدونَ للحقِّ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطالَ التَّنفيرَ عَمَّا اتُّخِذَ آلهةً مِن دُونِه من الأندادِ، فربَّما كان ذلك داعيةً إلى سبِّها، فنهى عنه لِمَفسدةٍ يَجُرُّها السَّبُّ، كبيرةٍ جدًّا(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بتبليغِ وَحْيِه بالقولِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٦).

والفِعْلِ، وبالإعراضِ عن المُشركينَ- وَجَّهَ المؤمنينَ إلى أن يكونَ هذا الإعراضُ في أدَبٍ وفي وقارٍ، وفي ترفُّعٍ يليقُ بالمؤمنين، فأُمِرُوا ألَّا يَسَبُّوا آلهةَ المُشركينَ مخافَةَ أنْ يَحْمِلَ هذا أولئك المُشركينَ على سَبِّ الله سبحانَه[1]، فقال:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

أي: لا تسبُّوا- أيُّها المؤمنون- آلهةَ المُشركينَ وتَهْجُوها، وتذكُروا ما هي متَّصِفَةٌ به من الخساسَةِ؛ لأنَّه يترتَّبُ على ذلك مَفسدةٌ أعظَمُ منها، وهي قيامُ المُشركينَ- حَمِيَّةً لِدِينِهم وتعصُّبًا له- بسَبِّ إلهِ المؤمنينَ؛ اللهِ تبارَكَ وتعالى، فيتكلَّمونَ فيه بما لا يليقُ بكَمالِه وجلالِه وعَظَمَتِه سبحانه؛ ظلمًا وجَهْلًا منهم بربِّهم، واعتداءً بغيرِ عِلْمٍ؛ فهو خالِقُهم ورازِقُهم، المُحْسِنُ إليهم[2].

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾.

أي: كما زَيَّنَّا لهؤلاء المشركينَ عِبادةَ الأوثانِ، وطاعةَ الشَّيطانِ، وَحُبَّ الأصنامِ، والانتصارَ لها، كذلك زَيَّنَّا بحِكمَتِنا لكلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ عَمَلَهم الذي يفعلونَ[3].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٨٦-٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٩٦).

أي: ثمَّ بعدَ ذلك يكون مآلُهم ومَصيرُهم يومَ القيامَةِ إلى الله تعالى وَحْدَه، فيُوقِفُهم عزَّ وجلَّ، ويُخبِرُهم بأعمالِهم التي كانوا يَعملونها في الدُّنيا، ثم يُجازيهم بها؛ إنْ كان خيرًا فخَيرٌ، وإنْ كان شرًّا فشَرٌّ، أو يَعفو بفَضْلِه، ما لم يكُن شِرْكًا أو كُفرًا[١].

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾.

أي: وحَلَف المشركونَ حَلِفًا اجتَهَدوا فيه، وأكَّدوه إلى غايَةِ ما يُمْكِنُهم مِن تغليظِ اليَمينِ وتوكيدِها؛ أنَّه إنْ جاءتهم معجزةٌ مِمَّا اقترحوه تَدُلُّ على صِدْقِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّهم سيُؤمنونَ بها، ويصدِّقونَ بأنها مِنَ اللَّهِ، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم رَسُولٌ مُرْسَلٌ، وأنَّ ما جاءَهم به هو الحَقُّ مِن عِندِ اللهِ سبحانه وتعالى[٢].

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء الذين يَقترِحونَ نُزُولَ الآياتِ تَعَنُّتًا وكُفْرًا وعِنادًا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٠٣-١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٠٧-١١٤).

قال السعديُّ: (هذا الكلامُ الذي صدَر منهم، لم يكُن قصدُهم فيه الرشادَ، وإنما قصدُهم دفْعُ الاعتراضِ عليهم، وردُّ ما جاء به الرسولُ قطعًا؛ فإنَّ اللهَ أيَّد رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالآياتِ البيِّناتِ، والأدلَّةِ الواضحاتِ، التي- عند الالتفاتِ لها- لا تُبقي أدْنى شُبهةٍ ولا إشكالٍ في صِحَّة ما جاء به؛ فطلبُهم- بعد ذلك- للآياتِ من باب التعنُّت، الذي لا يَلزمُ إجابتُه، بل قد يكون المنعُ مِن إجابتهم أصلحَ لهم؛ فإنَّ الله جرَتْ سُنَّته في عِباده أنَّ المقترحينَ للآياتِ على رُسُلِهم، إذا جاءتْهم فلمْ يُؤمنوا بها- أنَّه يُعاجِلُهم بالعقوبةِ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).

إنَّما مَرْجِعُ هذه الآياتِ إلى الله تعالى وَحْدَه، فإنْ شاء أجاب طَلَبكم، وإنْ شاء امتَنَعَ عن ذلك(١).

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بجَعْلِ الكلامِ تامًّا عند قولِهِ: ﴿وَما يُشْعِرُكُمْ﴾، أي: ما يدريكُم أيُّها المؤمنونَ، ثُمَّ ابتدأَ الخَبَرَ عن الكفَّارِ والمُشركينَ، فقال عنهم: إنَّهم لا يؤمنونَ إذا جاءَتْهم الآياتُ(٢).

٢- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾

على (أنَّ) هنا معناها: (لعَلَّ)، فالمعنى: وما يُدريكُم أيُّها الكُفَّارُ والمُشركونَ لعَلَّ الآياتِ إذا جاءت لا تُؤمنونَ(٣).

٣- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٤).

(٢) قرأ بها: ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، وشُعبةُ عن عاصمٍ في روايةٍ. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).

(٣) قرأ بها: ابنُ عامرٍ، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).

قال الألوسي: (والخطابُ حينئذٍ في الآيةِ للمُشركين بلا خلاف) ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٤٠).

على (أنَّ) هنا معناها: (لعَلَّ)، فالمعنى: وما يُدْرِيكُم أيُّها المؤمنونَ، لعَلَّ الآياتِ إذا جاءت لا يُؤْمِنُ الكُفَّارُ والمُشركونَ، وقيلَ غيرُ ذلك[1].

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وما[2] يُدريكُم- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ لا يُؤمنونَ إذا جاءَتْهم المُعجزاتُ التي سَأَلُوها[3].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: ونُزيغُ قلوبَهم عن الإيمانِ، فلا تَعْقِلُ حقًّا، ونَحُولُ بين أبصارِهم ورؤية الحَقِّ؛ لأنَّهم لم يُؤمنوا بالقُرآنِ في أوَّلِ مَرَّةٍ أتاهم فيها الدَّاعي، وقامَتْ عليهم فيها

---

(١) قرأ بها: نافعٌ والكسائيُّ وحفصٌ عن عاصِمٍ، وشُعبة عن عاصمٍ في روايةٍ أخرى. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦)، ((البحر المحيط في التفسير)) لأبي حيان (٤/ ٦١٤-٦١٥).

(٢) قال الكرمانيُّ: (أجمَع المفسرون على أنَّ «مَا» للاستفهامِ) ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).
وقد ذهَب بعضُ المفسِّرين كابن جريرٍ إلى أنَّ معنى (أنَّ) في قوله ﴿أَنَّهَا﴾: لعلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٤).
وقد خطَّأ ابنُ تيمة هذا المعنى، فقال: (أي: وما يُشعركم أنَّها إذا جاءتْ لا يُؤمنون بها ونُقلِّب أفئدتَهم، أي: يتركون الإيمانَ ونحن نُقلِّب أفئدتهم؛ لكونِهم لم يُؤمنوا أوَّلَ مرَّةٍ، أي: ما يُدريكم أنه لا يكونُ هذا وهذا حينئذ. ومَن فَهِم معنى الآية عرَفَ خطأ مَن قال: (أنَّ) بمعنى (لعلَّ) واستشكل قِراءة الفتح؛ بل يعلم حينئذٍ أنَّها أحسنُ مِن قراءةِ الكسر، وهذا بابٌ واسع) ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٤٦).

الحُجَّةُ، وبادَروا بتكذيبِ الرَّسولِ[١]، وهذا مِن عَدْلِ الله تعالى وحِكْمَتِه؛ فهُم الذين جَنَوْا على أنْفُسِهم، وقد فُتِحَ لهم البابُ فلم يَدْخُلوا، وبُيِّنَ لهم الطَّريقُ فلم يَسْلُكوا، فإذا حُرِمُوا التَّوفيقَ بعد ذلك، كان هذا جزاءً وِفاقًا، مُناسِبًا لأحوالِهم[٢].

كَمَا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ قلوبَ بَني آدمَ كلَّها بينَ إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقَلْبٍ واحِدٍ؛ يُصَرِّفُهُ حيثُ يشاءُ، ثمَّ قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: اللَّهمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ))[٣].

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: ونتركُ هؤلاءِ في تَمَرُّدِهم واعتدائِهم على حدودِ اللهِ تعالى يتَرَدَّدون؛ فلا لِلحَقِّ يَهتدونَ، ولا الصَّوابَ يُبصرونَ، قد غَلَبَ عليهم الخِذْلانُ، واستحوَذَ عليهم الشَّيطانُ[٤].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- الطَّاعةُ إذا أدَّت إلى معصيةٍ راجحةٍ وَجَبَ تَرْكُها؛ فإنَّ ما يؤدِّي إلى الشرِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٦-١٣٠).
والكنايةُ في ﴿بِهِ﴾ يجوزُ أن تعودَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣١١).
وقال ابن جرير: (الهاءُ مِن قَوْلِه: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ كِنَايَة ذِكرِ التَّقْلِيبِ) وذكر أنَّ المعنى: (كما لم يُؤمِنوا بتَقْلِيبنا إيَّاها قبلَ مجيئِها مرَّةً قبلَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٠-١٣١).

شَرٌّ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الخَصْمَ إذا شافَهَ خَصْمَه بجهْلٍ وسَفاهةٍ، لم يَجُزْ لِخَصْمِه أنْ يشافِهَهُ بمِثْلِ ذلك، وهو أدَبٌ يَليقُ بالمُؤْمِنِ، المطمَئِنِّ لِدِينِه، الواثِقِ من الحَقِّ الذي هو عليه، الهادِئِ القَلْبِ، الذي لا يَدْخُلُ فيما لا طائِلَ وراءه من الأمورِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيه تأديبٌ لِمَن يَدْعو إلى الدِّينِ؛ لِئَلَّا يَتشاغَلَ بما لا فائدةَ له في المطلوبِ؛ لأنَّ وَصْفَ الأوثانِ بأنَّها جماداتٌ لا تَنفَعُ ولا تَضُرُّ يكفي في القَدْحِ في إلهِيَّتِها، فلا حاجَةَ مع ذلك إلى شَتْمِها(٣).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تَزيينُ أعمالِهم يكونُ بواسِطَةِ الملائكَةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ للخَيْرِ، وتزيينِ شياطينِ الإنْسِ والجِنِّ للشَّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، ومثْلُ هذا كثيرٌ؛ فالفاعِلُ للذَّنْب لو جَزَمَ بأنَّه يَحصُلُ له به الضَّرَرُ الرَّاجِحُ لم يَفعَلْه، لكنَّه يُزَيَّنُ له ما فيه من اللَّذَّةِ التي يَظُنُّ أنَّها مصلحةٌ، ولا يجْزِمُ بوقوعِ عقوبَتِه، بل يرجو العَفْوَ بحسناتٍ أو توبةٍ، أو بعَفْوِ الله ونحوِ ذلك، وهذا كلُّه من اتِّباعِ الظَّنِّ وما تهوى الأنفُسُ، ولو كان له عِلْمٌ كامِلٌ لعَرَفَ به رُجحانَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٠).

ضَرَرِ السَّيِّئةِ، فأوجَبَ له ذلك الخشيةَ المانِعَةَ له من مُواقَعَتِها[١].

٥- مَن أعرَضَ عن اتِّباعِ الحَقِّ الذي يَعلَمُه تبعًا لهواه؛ فإنَّ ذلك يُورِثُه الجَهْلَ والضَّلالَ حتى يَعمَى قلبُه عن الحَقِّ الواضِحِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فمعنى الآية: ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم؛ عقوبةً لهم على تَرْكِ الإيمانِ في المَرَّةِ الأولى[٢]، فمَن عُرِضَ عليه حَقٌّ فرَدَّه فلم يَقبَلْه؛ عُوقِبَ بفَسادِ قَلْبِه وعَقْلِه ورَأْيِه[٣].

٦- إذا كان القَلْبُ قاسيًا لا يَقبَلُ تزكيةً ولا تُؤَثِّرُ فيه النَّصائِحُ؛ لم يَنتفِعْ بكُلِّ عِلْمٍ يَعْلَمُه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾[٤].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نُهِيَ المُسلمونَ أن يَفعلوا ما يكونُ ذريعةً إلى سَبِّ الكافرينَ لله تعالى، فعُلِمَ أنَّ سَبَّ الله تعالى أعظَمُ عنده من أنْ يُشْرَكَ به، ويُكَذَّبَ رَسُولُه ويُعادَى[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قد يَسْتشْكِلُ بعضُهم أنَّ شَتْمَ الأصنامِ من أصولِ الطَّاعاتِ؛ فكيف يُنْهَى عنها؟

والجوابُ: أنَّ هذا الشَّتْمَ، وإنْ كان طاعةً، إلَّا أنَّه إذا وَقَعَ على وجهٍ يَسْتلزِمُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٩٥-٧٩٦).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠-١١)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٧٧).
(٣) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٦).
(٥) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص:٥٥٢).

وجودَ مُنْكَرٍ عظيمٍ، وَجَبَ الاحترازُ منه، والأمرُ هاهنا كذلك؛ لأنَّ هذا الشَّتْمَ كان يَستلزِمُ إقدامَهم على شَتْمِ اللهِ وشَتْمِ رَسُولِه، وعلى فَتْحِ بابِ السَّفاهَةِ، وعلى تَنفيرِهم عن قَبولِ الدِّينِ، وإدخالِ الغَيْظِ والغَضَبِ في قُلوبِهم؛ فلِكَونِه مُستلزِمًا لهذه المُنكَراتِ، وَقَعَ النَّهيُ عنه[1]؛ فإنَّه إذا كانتِ الطَّاعةُ تؤدِّي إلى مَفسدةٍ، خَرَجَتْ عن أنْ تكونَ طاعةً؛ فيجِبُ النَّهيُ عنها كما يُنهَى عن المعصيةِ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أصْلٌ في قاعِدَةِ سَدِّ الذَّرائعِ[3]، ودليلٌ للقاعدةِ الشَّرعيَّة: أنَّ الوسائِلَ تُعتبَرُ بالأمورِ التي تُوصِلُ إليها، وأنَّ وسائِلَ المحَرَّم- ولو كانتْ جائِزَةً- تكونُ مُحَرَّمةً، إذا كانت تُفْضِي إلى الشَّرِّ[4].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُستدَلُّ به على سُقوطِ وُجوبِ الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر إذا خِيفَ من ذلك مَفْسَدَةٌ أعْظَم، وكذا كُلُّ فعلٍ مطلوبٍ تَرَتَّبَ على فِعْلِه مفسدةٌ أقوى من مَفْسَدَةِ تَرْكِه[5].

٥- دَفَعَ اللهُ تَوَهُّمَ إكرامِ آلِهَتِهم حين نَهى عن سَبِّها بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فبَيَّنَ أنهم في سُفُولٍ؛ بقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾[6].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حُكْمُ هذه الآيةِ باقٍ في هذه الأُمَّةِ؛ فإذا كان الكافِرُ في مَنَعةٍ، وخِيفَ أن يُسَبَّ الإسلامُ أو الرَّسولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١١).

(٣) يُنظر: ((أعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧).

أو اللهُ، فلا يحِلُّ لمسلمٍ ذَمُّ دينِ الكافِرِ، ولا صَنَمُه ولا صَليبُه، ولا يتعَرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك(١).

٧- قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى زَيَّنَ للكافِرِ الكُفْرَ، وللمُؤمِنِ الإيمانَ، وللعاصي المعصيةَ، وللمُطيعِ الطَّاعةَ؛ ففي الآيةِ دليلٌ على تكذيبِ القَدَريَّةِ والمُعتَزِلَةِ؛ حيثُ قالوا: لا يَحْسُن مِن اللهِ تعالى خَلْقُ الكُفْرِ وتَزْيينُه(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْرَ تقليبِ الأفئدةِ على تقليبِ الأبصارِ؛ لأنَّ موضِعَ الدَّواعي والصَّوارفِ هو القَلْبُ، فإذا حصَلتِ الدَّاعيةُ في القَلْبِ انصرَفَ البَصَرُ إليه شاءَ أم أبى، وإذا حَصَلَتِ الصَّوارفُ في القَلْبِ انصَرَفَ البَصَرُ عنه؛ فهو وإنْ كان يُبْصِرُه في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّه لا يَصيرُ ذلك الإبصارُ سببًا للوقوفِ على الفوائِدِ المطلوبَةِ؛ وهذا هو المرادُ من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فلمَّا كان المَعْدِنُ هو القَلْبَ، وأمَّا السَّمْعُ والبَصَرُ فهما آلتانِ للقَلْبِ؛ كانَا لا مَحالَةَ تابعينِ لأحوالِ القَلْبِ؛ فلهذا السَّببِ وَقَعَ الابتداءُ بِذِكْرِ تقليبِ القلوبِ في هذه الآيةِ، ثم أتبَعَه بِذِكْرِ تقليبِ البَصَرِ(٣).

٩- قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ وجهُ الجمْعِ بين الأفئدةِ والأبصارِ وعدَمِ الاستغناءِ بالأفئدَةِ عن الأبصارِ؛ أنَّ الأفئدةَ تختَصُّ بإدراكِ الآياتِ العقليَّةِ المَحْضَةِ، مثلُ آيةِ الأُمِّيَّةِ، وآيةِ الإعجازِ، ولَمَّا لم تَكْفِهم الآياتُ العقليَّةُ ولم ينتفِعوا بأفئدَتِهم- لأنها مُقَلَّبةٌ عن الفِطْرَةِ- وسألوا آياتٍ مرئيَّةً مُبصَرةً؛ كأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٥).

يَرْقَى في السَّماءِ، ويُنْزِلَ عليهم كتابًا في قرطاسٍ؛ أخبرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم والمُسلمينَ بأنَّهم لو جاءَتْهم آيةٌ مُبصِرةٌ لَمَا آمَنُوا؛ لأنَّ أبصارَهم مُقَلَّبةٌ أيضًا مثلَ تقليبِ عُقولِهم[1].

١٠- العَينانِ هما رَبيئةُ[2] القَلبِ، ولَيسَ مِن الأعضاءِ أشدُّ ارتباطًا بالقَلْبِ من العَينينِ؛ ولهذا جمَعَ بينهما في قولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾، وفي غَيرِها من الآياتِ كقولِه: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨- ٩]، ولأنَّ كِليهما له النَّظرُ؛ فنظرُ القلبِ الظاهِرُ بالعَينينِ، والباطنُ به وحْدَه[3].

١١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الكُفْرَ والإيمانَ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، التابع لحِكمتِه سُبحانَه، وفي ذلك رَدٌّ على القَدَريَّة[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصَفَ سَبَّ المُشْرِكينَ لله تَعالَى بأنَّه عَدْوٌ؛ للتَّعريضِ بأنَّ سَبَّ المسلمينَ أصنامَ المُشركينَ ليس من الاعتداءِ، وجَعَلَ ذلك السَّبَّ عَدْوًا، سواءٌ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٤٣).

(٢) الرَّبيئةُ: الطليعة. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٣٤)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٤)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٢١).

مرادًا به اللهُ أم كان مُرادًا به مَن يأمُر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما جاءَ به؛ لأنَّ الذي أمَرَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما جاءَ به هو في نفْسِ الأمْرِ اللهُ تعالى، فصادَفوا الاعتداءَ على جَلالِه[١].

- وأظهَرَ لفظَ الجلالةِ ﴿اللَّهَ﴾؛ تَصريحًا بالمقصودِ وإعظامًا لهذا، وتهويلًا له، وتَنفيرًا منه[٢].

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه تعريضٌ بالتوعُّدِ بأنْ سَيَحُلُّ بمشركي العَرَبِ مِن العذابِ مثلُ ما حَلَّ بأولئكَ في الدُّنيا[٣].

- والعُدولُ عن اسْمِ الجَلالة إلى لفظِ: ﴿رَبِّهِم﴾ لقَصْدِ تهويلِ الوعيدِ، وتَعليلِ استحقاقِه بأنَّهم يُرجعونَ إلى مالِكِهم الذي خَلَقَهم، فكفروا نِعَمَه وأشْرَكوا به، فكانوا كالعَبيدِ الآبقينَ؛ يَطُوفون ما يَطُوفونَ، ثم يَقَعونَ في يَدِ مَالِكِهم[٤].

- قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ خبرٌ مقصودٌ منه التوبيخُ والعِقابُ؛ لأنَّ العقابَ هو العاقبةُ المقصودَةُ من إعلامِ المُجْرِمِ بجُرْمِه[٥].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه حصْرٌ بـ﴿إِنَّمَا﴾؛ للرَّدِّ على المشركين في ظَنِّهم بأنَّ الآياتِ في مقدورِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إنْ كان نبيًّا، فجَعَلوا عَدَمَ إجابَةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم اقتراحَهم آيةً؛ أمارةً على انتفاءِ نبوءَتِه، فأَمَرَه اللهُ أن يُجيبَ بأنَّ الآياتِ عند اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٣٤).

لا عندَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والله أعلَمُ بما يُظْهِرُه من الآياتِ[١].

- وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمْرِ في قولِه: ﴿قُلْ﴾ مَسوقٌ من جِهَتِه تعالى؛ لبيانِ الحِكمةِ الدَّاعيَةِ إلى ما أشْعَرَ به الجوابُ السَّابِقُ من عَدَمِ مجيءِ الآياتِ؛ إذ إنَّ مَرجِعَ الإنكارِ إقدامُ المشركينَ على الإقسامِ المذكورِ في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ مع جَهْلِهم بحالِ قُلوبهم عند مجيءِ الآياتِ؛ وهذا الكلامُ إمَّا خُوطِبَ به المسلمونَ خاصَّةً بطَريقِ التلوينِ، لَمَّا كانوا راغبينَ في نُزولِها طَمَعًا في إسلامِهم، وإمَّا خُوطِبَ المسلمونَ معه صلَّى الله عليه وسلَّم بطَريقِ التَّعميمِ[٢].

- وقد سِيقَ الخَبَرُ بصِيغةِ الاستفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ مِن شَأْنِه أن يُهَيِّئَ نَفْسَ السَّامِعِ لطَلَبِ جوابِ ذلك الاستفهامِ، فيتأهَّبَ لوَعْيِ ما يَرِدُ بَعْدَه[٣].

٣- قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكافُ في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ لتشبيهِ حالةِ انتفاءِ إيمانِهم بعد أن تجيئَهم آيةٌ مِمَّا اقترحوا، أي: ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فلا يؤمنونَ بالآيةِ التي تَجيئُهم مثلما لم يؤمنوا بالقرآنِ مِن قَبْلُ، فتقليبُ أفئدَتِهم وأبصارِهم على هذا المعنى يحصُلُ في الدُّنيا، وهو الخِذْلانُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٤١).

الآيات (١١١-١١٣)

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿قُبُلًا﴾: أي: صِنفًا صنفًا، أو صفًّا صفًّا، أو جماعةً جماعةً، جمعُ قبيلٍ، وقُبُلًا أيضًا: مُقابلةً وعِيانًا، وأصْلُ (قبل) يَدُلُّ على مواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(١).

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: الباطِلَ المزَيَّنَ المحسَّنَ المموَّهَ، أو المزوَّقاتِ من الكلامِ، والزُّخرفُ: الزِّينةُ المزوَّقةُ، وأَصْلُ الزُّخْرف: الذَّهب(٢).

﴿غُرُورًا﴾: بضَمِّ الغَينِ: مَصْدَرُ: غَرَّه يغرُّه غُرورًا، أي: أصاب غِرَّتَه- وهي غَفْلتُه في اليَقَظَة- ونالَ منه ما يُريد، حتَّى يُدْخِلَه مِن معصيةِ الله فيما يستوجِبُ به عقوبتَه، وأَصْلُ (غرر) يدلُّ على النُّقصانِ(٣).

﴿وَلِتَصْغَى﴾: أي: لِتميلَ إليه، وأصل (صغو): يدلُّ على الميلِ(٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾: أي: وَلِيَكْتَسِبوا، ولِيَدَّعُوا ما هم مُدَّعُونَ، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (قرف) يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرَفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه(١).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

﴿وَلِتَصْغَى﴾: اللامُ فيه لامُ (كي)، والفِعلُ بعدَها منصوبٌ بإضمارِ (أن)، والمصدَرُ المؤوَّلُ مِن (أنْ) المضْمَرَةِ والفِعلِ في مَحلِّ جرٍّ باللَّامِ، والجارُّ والمجرورُ معطوفٌ على ﴿غُرورًا﴾(٢)، والتَّقديرُ: يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعضٍ للغُرورِ وللصَّغْوِ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لو أجاب مَن أقْسَموا باللهِ جَهْدَ أَيمانِهم: لَئِنْ جاءَتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها؛ لو أجابَهم لِمَا طَلَبوه؛ فأنزَلَ عليهم الملائِكةَ، أو أَحْيا لهم الموتى، فحَدَّثوهم بصِدْقِ الرَّسولِ، وجَمَعَ لهم جميعَ الأَشياءِ أمامَهم؛ لتُخْبِرَهم مباشرةً بصِدْقِ الرَّسولِ، أو جَمَعَها لهم جماعةً جماعةً لتُخْبِرَهم بذلك- لَمَا آمَنُوا إلَّا أنْ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٢٢).

(٢) ﴿غُرُورًا﴾ مفعولٌ لأجلِه، ونُصِب لأنَّه مصدر اتَّفَقَ مع الفعلِ ﴿يوحي﴾ في الفاعل، أمَّا ﴿وَلِتَصْغَى﴾ فلم يتَّحِدْ مع ﴿يُوحِي﴾ في الفاعِلِ؛ فإنَّ فاعلَ الوَحيِ «بَعْضُهم» وفاعلَ الصَّغْوِ الأفئدةُ؛ لذلك جُرَّ بحرفِ الجَرِّ اللَّامِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٢٥٧).

يشاءَ اللهُ، ولكنَّ أكثرَهم يَجْهلونَ ذلك.

ويُخْبِر تعالى أنَّه كما ابْتَلى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ جَعَلَ له أعداءً مِن مَرَدَةِ الإنسِ والجنِّ، يُخالِفونَه ويُحارِبونَه، ويَرُدُّون دَعوتَه؛ جَعَل كذلك لكلِّ نبيٍّ من الأنبياءِ أعداءً منهم؛ يُوَسْوِس شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنْسِ بالقولِ الباطِلِ المزَيَّنِ، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة الخدَّاعةِ، ولو شاءَ اللهُ تعالى ما فعلُوا إيحاءَ القولِ بالغرورِ، ولكنَّ ذلك قَضاءُ اللهِ وقَدَرُه، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَدَعَهم وما يَفْترونَه.

وأيضًا يُوَسْوِس شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنْسِ بالقولِ الباطِلِ المزَيَّنِ، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة الخدَّاعةِ؛ لِتَميلَ إليه قلوبُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرَة، ولِيَرْضَوا ذلك الكَلامَ، ولِيَكْتَسبوا بسبَبِه ما هم مُكتَسِبونَ مِنَ الكفْرِ والمعاصِي.

تفسيرُ الآيات:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

بيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ تفصيلَ ما ذَكَرَه على سبيلِ الإجمالِ بقولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فبَيَّنَ سبحانه أنَّه لو أَعْطاهم ما طَلَبوه مِن إنزالِ الملائكةِ، وإحياءِ المَوْتى حتى كلَّموهم، بل لو زادَ في ذلك ما لا يَبْلُغُه اقتراحُهم بأنْ يحْشُرَ عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا- ما كانوا ليُؤْمِنوا إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيتينِ اللَّتينِ قبْلَ هذه الآيةِ أنَّ مقتَرِحي الآياتِ الكونيَّةِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أقْسَمُوا باللهِ مُجتهدينَ في أَيمانِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٧).

لئِنْ جاءَتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها- بيَّن تعالى سُنَّتَه فيهم وفي أمثالِهم مِنَ المعانِدِينَ؛ أنَّهم يَنْظُرونَ إلى الآياتِ، ويتفكَّرونَ فيها بقَصْدِ الجُحودِ والإنكارِ، ويزعمونَ أنَّها لا تَدُلُّ على المطلوبِ، وبَعدَ بَيانِ سُنَّتِه تعالى فيهم عِنْدَ مجيءِ الآيةِ المقتَرحةِ، صَرَّحَ بما هو أَبْلَغُ من ذلك، فقال[1]:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

أي: ولو أنَّنا أجَبْنا سؤالَ هؤلاءِ الَّذين أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم: لئنْ جاءَتْهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها، فنزَّلْنا عليهم الملائِكَةَ، ورَأَوْها عِيانًا كما اقترَحُوا، وشَهِدَتْ لهم بصِدْقِ الرَّسولِ، وصِحَّةِ رسالَتِه[2].

كما أخْبَرَ تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: ولو أَحْيَيْنا لهم المَوْتى؛ فأَخْبَروهم بصِدْقِ الرَّسولِ ورِسالَتِه[3].

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣-٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨).

١- قراءة ﴿قِبَلًا﴾- بِكَسْرِ القافِ وفَتْحِ الباءِ- أي: مقابلةً وعِيانًا ومشاهدةً، والمعنى: وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ يواجِهُونَه ويُعاينُونَه(١).

٢- قراءة ﴿قُبُلًا﴾ جمعُ قبيلٍ، والمعنى: وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قبيلًا قبيلًا، أي: جماعةً جماعةً، وقيل: (قُبُلًا) جمع: (قبيلٍ)، وهو: (الكفيلُ)، فيكون المعنى: لو حُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ، فكَفَلَ لهم بصحَّةِ ما تقولُ؛ ما كانوا ليؤمنوا، وقيل: (قُبُلًا) أي: مُقابلةً ومُواجهةً(٢).

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾.

أي: ولو أنَّنا جَمَعْنا لهم جميعَ الأشياءِ أمامَهم؛ لتُخْبِرَهم مباشرةً بِصِدْقِ ما جاء به الرَّسولُ، أو جمَعْناها لهم فوجًا فوجًا، وجماعةً جماعةً؛ لتُخْبِرَهم بذلك(٣).

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

أي: لو فَعَلْنَا لهم كُلَّ ذلك؛ ما حَصَل منهم الإيمانُ، إلَّا أنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانَهم؛ لأنَّهم قومٌ مُتَعَنِّتونَ(٤).

كما قال سبحانَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

---

(١) قرأ بها المدنيان وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٠)، ((البحر المحيط)) لأبي حيَّان (٤/ ٦٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٤).

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ الكُفَّارِ يَجْهَلون أنَّه لو أُنْزِلَت عليهم الآياتُ التي اقتَرَحوها لم يُؤمِنوا إلَّا أن يشاءَ اللهُ تعالى؛ فليس الإيمانُ إليهم، ولا الكُفرُ بأيديهم؛ فمتى شاؤُوا آمَنوا، ومتى شاؤُوا كَفَروا، بل مَرَدُّ ذلك إلى الله تعالى وحْدَه. ومِنْ جَهْلِهم أنَّهم رتَّبوا إيمانَهم على مجرَّدِ إتيانِ الآياتِ، وإنَّما العَقْلُ والعِلْمُ أن يكونَ مقصودُ العبدِ اتِّباعَ الحقِّ، وطلَبَه بالطُّرقِ التي بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا في هذه السُّورةِ الكريمةِ ما لاقى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذَى المشركينَ ومِن عَداوَتِهم، وعدَمِ انقيادِهم إليه؛ كما في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ إلى قَوْلِه: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ...﴾ [الأنعام: ٣٣- ٣٥]، وأنَّ أولئك المشركينَ المقترِحينَ للآياتِ أعداءٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما اقتَرَحوا ما اقتَرَحوا إلَّا لاعتقادِهم أنَّهم لا يُؤتَوْنَه، فيكون ذلك بابًا للطَّعْنِ في رسالَتِه - بَيَّنَ اللهُ لنَبيِّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥).
وقال ابنُ عاشورٍ: (الاستدراكُ بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ راجِعٌ إلى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ المقتضي أنَّهم يُؤمنونَ إذا شاءَ الله إيمانَهم؛ ذلك أنَّهم ما سَألوا الآياتِ إلَّا لتوجيه بقائِهم على دِينِهم؛ فإنَّهم كانوا مُصَمِّمينَ على نَبْذِ دَعوةِ الإيمانِ، وإنَّما يتعلَّلونَ بالعِلَلِ بِطَلَبِ الآياتِ استهزاءً، فكان إيمانهم- في نَظَرِهم- من قبيل المُحالِ، فبَيَّنَ الله لهم أنَّه إذا شاء إيمانَهم آمنوا) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه ما أرسلَ نبيًّا من الأنبياءِ إلَّا جَعَلَ له أعداءً كفرَةً فجَرَةً من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، والقَصْدُ من هذا تسليةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَثبيتُ فؤادِه؛ لأنَّ ما لوقِيَ به من العَداوةِ إذا كان قد لاقاه إخوانُه الكِرامُ من الرُّسُلِ الكرامِ؛ هوَّنَ ذلك الأمرَ عليه، فتلك هي سُنَّة الله في جميعِ الرسل[1]، فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾.

أي: وكما ابْتَلَيناك- يا محمَّدُ- بأنْ جَعَلْنا لك أعداءً مِن مَرَدَةِ الإنْسِ والجنِّ يُخالِفونَك، ويردُّون دَعْوتَك، ويُعادُونك ويُحارِبونَك، فكذلك ابتَلَيْنا مَن قَبْلَك من الأنبياءِ، بأنْ جَعَلْنا لهم أعداءً يُحارِبونَهم ويُؤذُونَهم؛ مِن مَرَدَةِ الإنسِ والجنِّ؛ فهذه سُنَّتُنا، فاصْبِرْ أنت كما صَبَروا[2].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وفي حديثِ بَدْءِ الوحيِ عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: ((... فقال له وَرَقَةُ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٧-٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨-٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥-١٤٧).

هذا النَّاموسُ[(١)] الذي نَزَلَ اللهُ به على مُوسَى، يا لَيْتَني فيها جَذَعًا[(٢)]، لَيْتَني أكونُ حيًّا إذْ يُخرِجُك قومُك، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أوَمُخرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يَأْتِ رجُلٌ قطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ))[(٣)].

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

أي: يُوَسْوِسُ شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنسِ بالقَولِ الباطِلِ المُزَيَّن، ذي الألفاظِ المزَخْرَفه، والعباراتِ المنمَّقة المُمَوَّهَة، ويَجْعلونَه في أحسَنِ صورةٍ، فيُؤْذي به شياطينُ الإنسِ الأنبياءَ بالجِدالِ والخُصوماتِ، ويُضِلُّون به النَّاسَ، ويَفْتِنونهم عن اتِّباعِ الحقِّ[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ تعالى - يا محمَّدُ - لَمَنع أولئكَ الشَّياطينَ مِن أن يُوحي بعضُهم

---

(١) النَّاموسُ: صاحِبُ سِرِّ الخيرِ. وناموسُ الرَّجُلِ: صاحِبُ سِرِّه الذي يُطْلِعُه على باطن أَمْرِه، وأهلُ الكِتابِ يسمُّونَ جبريلَ بالنَّاموسِ؛ سُمِّي عليه السلام بذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَصَّصَه بالوَحْيِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير(٥/ ١١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٣٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٦).

(٢) جَذَعًا: أي: جَلْدًا شَابًّا قويًّا حتى أبالِغَ في نُصْرَتِك، وأصْلُ الجَذَعِ من أسنانِ الدَّوابِّ، وهو ما كان منها شابًّا فتيًّا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٥٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٣٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٦).

(٣) رواه البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٧-٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٦٧)، ((بدائع الصنائع)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٤٩).

إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ، ولكنْ قدَّرَ اللهُ تعالى وقَضَى أن يكونَ لكُلِّ نبيٍّ عدوٌّ مِنْ هؤلاءِ[١].

﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

أي: فَدَعْ- يا محمَّدُ- أولئك الَّذين يُجادلونَك بالباطِلِ، ويُخاصِمونَك بما يُوحِي إليهم أَوْلياؤُهم من الشَّياطينِ، ودعْ عنك ما يختلِقونَه من إفكٍ وزُورٍ؛ فسيَجِدونَ غِبَّ ذلك وعاقِبَتَه الوَخيمةَ، واصبرْ عليهم، وتوكَّلْ على اللهِ في عداوَتِهم؛ فإنَّ اللهَ كافيك، وناصِرُك عليهم[٢].

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

أي: ولِتَميلَ إلى ذلك الكَلامِ المُزخرَفِ قلوبُ الَّذين لا يُؤْمنونَ بالآخِرَةِ؛ فعَدَمُ إيمانِهم باليَوْمِ الآخِرِ يَحمِلُهم على ذلك[٣].

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾.

أي: ولِيُحِبُّوه ويُريدوه بعد أنْ يَصْغَوا إليه، ويُزيِّنَ في قُلوبِهم[٤].

---

(١) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧١)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ٦٨)، والشنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (٢/ ١٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١).
وقيل: عودُ الضَّمير في قولِه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ إلى العداوةِ، وهذا ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٠٣)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾.

أي: وليَكْتَسِبوا ما هم مُكْتَسِبونَ مِنَ الكُفْرِ والمعاصي؛ بسَبَبِ ذلك القَوْلِ المزخْرَفِ، الذي صَغَتْ إليه قلوبُهم ورَضُوه وأحبُّوه[1].

الفَوائد التربويَّة:

١- مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تعالى في الخَلقِ بأن يكونَ الشرِّيرُ المتمرِّدُ، العاتي عن الحَقِّ والمعروفِ، الذي لا ينقادُ لهما؛ كِبرًا وعنادًا، وجمودًا على ما تعوَّدَ؛ يكون عدوًّا للدُّعاةِ إليهما؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[2].

٢- المؤمنُ الذي يعلم أنَّ ربَّه هو الذي يُقَدِّر، وهو الذي يأذَنُ، خليقٌ أن يستهينَ بأعدائِه من الشَّياطينِ مهما تَبلُغ قوَّتُهم الظَّاهرةُ، وسُلطانُهم المُدَّعَى؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فأنا مِن ورائِهم قادرٌ على أَخْذِهم، مُدَّخِرٌ لهم جَزاءَهم[3].

٣- الحَذَرُ مِنَ الشَّيطانِ؛ فإنَّه قد لَزِمَ ثَغْرَ الأُذُنِ، يُدْخِلُ فيها ما يَضُرُّ العبدَ ولا ينفَعُه بطُرُقٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، لا يَفْطِنُ لباطِلِها كلُّ أحدٍ؛ فتُسْرِعُ العقولُ الضَّعيفةُ إلى قَبولِه واستِحْسانِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الآية،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١١٩٠-١١٩١).

إلى قَوْلِه: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾[1].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ دلَّ ظاهِرُه على أنَّه تبارَك وتعالى هو الذي جَعَلَ أولئك الأعداءَ أعداءً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا شَكَّ أنَّ تلك العداوةَ مَعْصِيةٌ وكفرٌ؛ فهذا يقتضي أنَّ خالِقَ الخيرِ والشَّرِّ، والطَّاعةِ والمَعْصِيَةِ، والإيمانِ والكُفْرِ؛ هو اللهُ تعالى[2].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال: ﴿عَدُوًّا﴾ معبِّرًا عن الجَمعِ بالمفردِ- والمراد به الجنس- إشارةً إلى أنَّهم يدٌ واحدةٌ في العَدَاوةِ[3].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فيه أنَّ كلامَ أعداءِ الرُّسُلِ تَصْغَى إليه أفئدةُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرَة؛ فعُلِمَ أنَّ مخالفَةَ الرُّسُلِ وتَرْكَ الإيمانِ بالآخِرَةِ متلازمانِ؛ فمَنْ لم يُؤْمِنْ بالآخرةِ صَغَى إلى زُخْرُفِ أعدائِهم، فخَالَفَ الرُّسُلَ[4].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ هذه الجُمَل على غايةِ الفَصاحةِ؛ لأنَّه أوَّلًا يكونُ الخِداعُ، فيكونُ المَيلُ، فيكون الرِّضا، فيكون فِعْلُ الاقترافِ، فكأنَّ كلَّ واحدٍ مسَبَّبٌ عمَّا قَبْلَه[5].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣٣).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٤).

بلاغة الآيات:

١- ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

- قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أَبْلغُ في النَّفيِ من (لم يُؤْمِنوا) ومِنْ: (لا يؤمنون)، وأشدُّ تقويةً لنَفْيِ إيمانِهم مع ذلك كلِّه؛ لأنَّ فيه نَفْيَ التأهُّلِ والصلاحيَّةِ للإيمانِ؛ لأنَّهم مُعانِدونَ مُكابِرونَ، غيرُ طالبينَ للحَقِّ؛ لأنَّهم لو طَلَبوا الحقَّ بإنصافٍ لكَفَتْهُم معجزةُ القرآنِ، إنْ لم يكْفِهم وضوحُ الحقِّ فيما يَدْعو إليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ، ولذلك جاءَتْ لامُ الجحودِ في الخَبَرِ[١].

- قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه: التفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ- حيث لم يقل: (نشاء)- وهذا الإظهار في مقامِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ؛ أي: ما كانوا ليُؤمِنوا بعد اجتماعِ ما ذُكِرَ منَ الأمورِ الموجِبَةِ للإيمانِ في حالٍ من الأحوالِ الدَّاعيةِ إليه، المتمِّمةِ لمُوجِباتِه المذكورةِ، إلَّا في حالِ مَشيئَتِه تعالى لإيمانِهم، أو ما كانوا ليُؤْمِنوا لعلَّةٍ من العِلَلِ المعدودةِ وغيرِها إلا لِمَشِيئَتِه تعالى له[٢]. وأيضًا لأنَّ اسمَ الجلالةِ يُومِئُ إلى مقامِ الإطلاقِ، وهو مقامُ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويومِئُ إلى أنَّ ذلك جرى على حَسَبِ الحِكْمةِ؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ يتضَمَّنُ جميعَ صفاتِ الكمالِ[٣].

- قَوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناءٌ مِن عمومِ الأحوالِ التي تَضمَّنها عمومُ نفْيِ إيمانِهم، وفي هذا الاسْتثناءِ تعريضٌ بوعْدِ المسلمينَ بتَغْيير قُلوبِ هؤلاء المشركين، فيُؤْمِنوا طَوْعًا، أو أن يُكرِهَهم على الإيمانِ بأن يُسَلِّطَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

عليهم رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم كما أرادَ اللَّه ذلك بفتحِ مَكَّةَ وما بعدَه[١].

- التعبيرُ بالمضارعِ في: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّهم مِن عادَتِهم وشأنِهم الجهلُ، وعدمُ المعرفةِ باللهِ[٢].

٢- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ... فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اعتراضٌ قُصِدَ منه تَسْليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والتأسِّي بمَن تَقَدَّمَه مِن الأنبياءِ، وأنَّه ليس مُنْفَرِدًا بعَداوةِ مَن عاصَرَه، والواوُ واوُ الاعتراضِ؛ لأنَّ الجملةَ بمنزلَةِ الفَذْلكةِ، وتكونُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تسليةً، بعد ذِكْرِ ما يَحْزُنُه من أحوالِ كفَّارِ قومِه، وتصلُّبِهم في نَبْذِ دعوَتِه، فأنْبَأه اللهُ بأنَّ هؤلاءِ أعداؤُه، وأنَّ عَداوةَ أمثالِهم سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في ابتلاءِ أنبيائِه كلِّهم[٣].

- قوله: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ﴾ فيه: تقديمُ المفعولِ الثاني ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ على المفعول الأوَّلِ ﴿عَدُوًّا﴾؛ للاهتمامِ به[٤].

- قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أمرٌ فيه وعيدٌ وتهديدٌ لهم[٥].

- وعَبَّرَ هنا بقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، وقال بَعْدَه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، فقال هنا بلفْظِ (الرَّب)، وبعده بلَفْظِ (الله)، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ وهي أنَّ الأُولى جاء قَبْلَها قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفيسر أبي حيان)) (٤/ ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٥).

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فجاء فيها ﴿رَبُّكَ﴾ ليتضمَّنَ معنى أنَّ الله تعالى هو مَن يَحْجُزُهم عن مَضَرَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأن يَظْفَروا بمُرادِهم مِن عداوَتِه. وقولُه في الآيَةِ الأخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، جاءَ بعد قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، فأخبرَ أنَّهم أقاموا للهِ تعالى- الذي يحِقُّ إفرادُه بالعبادةِ- شركاءَ، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾، فهذا موضِعٌ لم يَلِقْ به إلَّا الاسمُ الذي يفيدُ معنًى فيه حجَّةٌ عليهم دون غيرِه من الأَسْماءِ، فأفادَ كُلُّ اسمٍ من الاسْمينِ في مكانِه ما لم يكُنْ لِيُسْتفادَ بغيرِه(١).

وقيل: بل المناسبةُ أنَّه لَمَّا تقدَّمَ الآيَةَ الأُولى قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١١١]، فعَرَّفَ سبحانَه نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما سبَقَ لهؤلاءِ، وما قَدَّرَه عليهم في الأَزَلِ؛ حتى لا يُجدِي عليهم شيءٌ، ولا ينفَعُهم تَذكارٌ، فلَمَّا تقدَّمَ مِنَ القَدَرِ على هؤلاءِ ما يُثيرُ أشَدَّ الخوفِ؛ كان مَظِنَّةَ إشفاقٍ، فآنَسَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ولَاطَفَه بإضافةِ اسمِ ربوبيَّتِه سبحانَه لنبيِّه عليه السلام، مخاطبًا له؛ فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، ولَمَّا لم يَقَعْ قبل الآيةِ الثانيةِ مثلُ هذا، وإنَّما جاءَ قبْلَها: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وليس هذا في اقْتِضاءِ الحَتْمِ عليهم المُؤْذِنِ بقَطْعِ الرَّجاءِ منهم؛ كقَوْلِه في الأُولى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ..﴾ الآيَة،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٣٧-٥٣٨).

فلذلك قال عَقِبَ هذه الآيةِ الثَّانيةِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧]، فجاء باسْمِه الجليلِ تعالى مِنْ غيرِ إضافةٍ؛ إذ ليس هذا مثلَ الأوَّل، ولو ورَدَ الاسمُ الجليلُ أوَّلًا والاسمُ الكريمُ المضافُ ثانيًا لَمَا ناسَبَ على ما تمهَّدَ(١).

٣- **قوله:** ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ عُطِفَ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَى﴾، وإنْ كان الصَّغْيُ يقتضِي الرِّضا ويُسَبِّبُه، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُعطَفَ بالفاءِ، وألَّا تُكَرَّرَ لامُ التَّعليلِ، فخولِفَ مقتضى الظَّاهِرِ؛ للدَّلالةِ على استِقْلالِه بالتَّعليلِ، فعُطِفَ بالواوِ، وأُعيدَتِ اللامُ لتأكيدِ الاستقلالِ، فيدلُّ على أنَّ صَغْيَ أفئدَتِهم إليه ما كان يَكْفي لعمَلِهم به إلَّا لأنَّهم رَضُوه(٢).

- قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ الاقترافُ افتِعالٌ مِنْ (قَرَفَ) إذا كَسَبَ سيئةً، وصيغةُ الافتعالِ فيه للمُبالغةِ(٣).

- وجيءَ في صلَةِ الموصولِ في قوله: ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ بالجُمْلةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمَكُّنِهم في ذلك الاقترافِ، وثباتِهم فيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٢-١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٤-١١٧)

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: أي: الشاكِّين، والمِرْيَة: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ من الشكِّ[١].

﴿يَخْرُصُونَ﴾: يكْذِبونَ، وأصلُ (خرص): كَذَب، والخرَّاص الكذَّاب، وكُلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يُقال له: خَرْص، سواء كان ذلك مُطابقًا للشَّيءِ، أو مُخالِفًا له[٢].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صِدْقًا: منصوبٌ على التَّمييزِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا من أجْلِه، وأنْ يكونَ مصدرًا في موضِعِ الحالِ بمعنى: صادِقةً وعادلةً[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٩٧، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٢٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٢٤).

﴿مَنْ يَضِلُّ﴾: في ﴿مَنْ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أنَّها موصولةٌ بمعنى (الذي) في موضِع نصبٍ بفِعلٍ دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ لا بنَفْسِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ (أَفْعَل) لا يعملُ في الاسْمِ الظَّاهِرِ النَّصْبَ، والتَّقديرُ: هو أعلمُ يَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ، أي: الضَّالِّين، ولا يجوزُ أن يكون ﴿مَنْ﴾ في موضِع جرٍّ بالإضافةِ؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّ التَّقديرَ سيَصير: هو أعلمُ الضَّالِّين- تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. وقيل: في موضِعِ نَصْبٍ بنَزْعِ الخافِضِ وهو الباءُ، كما دلَّ عليه وجودُ الباءِ في قوله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

والوجه الثاني: أنَّ ﴿مَنْ﴾ اسمُ استفهامٍ في موضِعِ رفعٍ مبتدأٌ، و﴿يَضِلُّ﴾ جملةُ الخبَرِ، وموضِعُ الجملة نصْب بـ(يَعْلَمُ) المقدَّرَة لا بِنَفْسِ ﴿أَعْلَمُ﴾، وقرئ (مَنْ يُضِلُّ) بضمِّ الياءِ، و﴿مَنْ﴾ أيضًا في موضع نصبٍ بـ(يَعْلَمُ) مقدَّرَةً، أو بنَزْعِ الخافِضِ[1].

المعنى الإجمالي:

يأمرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لأولئك المُشركينَ: أَغَيْرَ اللهِ أتَّخِذُ حاكِمًا أتحاكَمُ إليه، وهو الذي أنزلَ إليكم الكتابَ مُبَيَّنًا فيه حُكمُ ما تختصمونَ، موضِّحًا فيه العقائِدُ والأَحكامُ، وإنَّ اليهودَ والنَّصارى الَّذين أَعْطاهم اللهُ التوراةَ والإنجيلَ يعلمونَ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ منه جلَّ وعلا بالحقِّ، ثمَّ نهى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الشَّكِّ في القرآنِ.

وأخبر تعالى أنَّه كَمُلَت كَلِماتُه عزَّ وجلَّ صِدْقًا في جميعِ الأخبارِ، وعدلًا في جميعِ الأَحْكامِ، لا أحَدَ بإمكانِه تغييرُ كلماتِه سبحانه، وهو السَّميعُ العليمُ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٥-٥٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٢٧-١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣).

ثم وجَّه الخِطابَ إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه إن أطاعَ أكثرَ أهْلِ الأَرْضِ، فإنَّهم يُضِلُّونه عن دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فهم لا يتَّبعونَ إلا ظُنونًا باطِلَةً، ويَكْذِبونَ على اللهِ تعالى فيقولونَ عليه ما لا يَعْلمونَ.

ثم أخبَرَه أنَّه تعالى هو أعلمُ بمن ينحَرِفُ عن الطَّريقِ الحَقِّ، وهو أعلَمُ بمن هو على هدايةٍ واستقامةٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في السِّياقِ الذي قبل هذا أنَّ الَّذين اقترحُوا على رسولِه الآياتِ الكونيَّةَ، وأقسموا بأنَّهم يؤمنونَ بها إذا جاءَتْهم؛كاذبونَ في دعواهم وأيمانِهم، كما ثبَتَ فيما مَضَتْ به سُنَّةُ اللهِ في أمثالِهم من أعداءِ الرُّسُلِ المعانِدِينَ، وهم شياطينُ الإنسِ والجنِّ الَّذين يُغْرُونَ الجاهلينَ بزُخْرفِ أقوالِهم- قَفَّى على هذا البيانِ هاتينِ الآيتينِ المُبيِّنَتينِ لآيةِ اللهِ الكُبرى التي هي أقوى دَلالةٍ على رسالةِ نَبيِّه مِن جميعِ ما اقترَحُوا، ومِمَّا لم يقترحوا من الآياتِ الكونيَّةِ، وهي القرآنُ الحكيمُ، وكَونُ مُنْزِلِها هو الذي يجِبُ الرُّجوعُ إليه في الحُكْم في أمْرِ الرِّسالةِ وغيرِه[1].

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لأولئك المُشركينَ: أأضِلُّ عن طريقِ الحقِّ؛ فأجعلَ حاكمًا أتحاكَمُ إليه، وأتقيَّدُ بأوامِره ونواهِيه دونَ الله تعالى؟ كلَّا؛ فلا يكونُ ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٩).

ولا ينبغي أن يُتَّخَذَ حاكمٌ، سِوى اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، الذي له الخلْقُ والأمْرُ، والذي لا حَكَمَ أَعدَلُ منه، ولا قائِلَ أَصدَقُ منه؛ فليس لي أنْ أتجاوَزَ حُكْمَه[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾.

أي: وهو الذي أنزَلَ إليكم الكتابَ مبيَّنًا فيه الحُكمُ فيما تختصمونَ فيه، موضِّحًا فيه العقائدُ، والأحكامُ الشَّرعيَّة، والحقُّ والباطلُ؛ فهو الكتابُ الذي لا بَيانَ فَوقَه، ولا بُرهانَ أَجْلى منه، ولا حَكَم أحسَنُ منه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: واليهودُ والنَّصارى، الَّذين أَعْطَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، يعلمونَ أنَّ القرآنَ أُنْزِلَ إليك- يا محمَّدُ- مِن ربِّك متلبِّسًا بالحقِّ، فكلُّه حقٌّ وهُدًى، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٩-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٦٧-١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦-٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

قال ابن تيمية: (وذلك أنَّ الكتاب الأوَّلَ مُصَدِّقٌ للقرآنِ؛ فمن نظَرَ فيما بأيدي أهل الكتاب من التوراة والإنجيل عَلِمَ علمًا يقينًا لا يحتمل النقيضَ أنَّ هذا وهذا جاءا من مشكاةٍ واحدة، لا سيما في بابِ التوحيد والأسماء والصفاتِ؛ فإنَّ التوراةَ مطابقةٌ للقرآن، موافِقةٌ له مُوافَقَةً لا ريبَ فيها. وهذا ممَّا يبيِّنُ أنَّ ما في التوراة من ذلك ليس هو من المُبَدَّل الذي أنكره عليهم القرآنُ، بل هو من الحقِّ الذي صَدَّقَهم عليه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٥/ ٢٢٢).

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

أي: وما دامَ هذا القرآنُ حقًّا لا مِرْيَةَ فيه؛ فَلا تشُكَّنَّ فيه، يا محمَّدُ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾.

أي: وكَمُلَت كلماتُ ربِّكَ صِدْقًا في جميعِ الأخبارِ، وعَدْلًا في جميعِ الأَحْكامِ، فما في القرآنِ من أحكامٍ فهو في غايةِ العدالةِ والإنصافِ، وما فيه من الأخبارِ فهو حقٌّ مُطابِقٌ للواقِعِ؛ فلا أَصدَقَ مِنْ أخبارِ الله التي أَوْدَعَها هذا الكتابَ العزيزَ، ولا أَعدَلَ مِن أوامِرِه ونواهِيه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

قال الشنقيطي: (ومعلومٌ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن شاكًّا فيما أوحى اللهُ إليه، وإنَّما هذا كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] وكقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] وكقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ولا يخفى أنَّ رسولَ الله صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّه مُتَّقٍ لله، وأنَّه لا يطيعُ منهم آثمًا ولا كَفورًا، وأنَّه لا يُشرك. وقد جرت العادةُ في القرآن أنَّ الله جلَّ وعلا يأمر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وينهاه ليُشَرِّعَ ذلك الأمرَ والنَّهيَ لأمَّته على لسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه هو القدوةُ لهم، المُشَرِّع لهم بقولِه وفِعْلِه وتقريرِه) ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٤-١٧٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالكلماتِ هنا القرآنُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ، ونَسَبه لجمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨-١٩).

وممن قال به من السَّلف: قتادةُ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٦٩).

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: لا أحدَ يُمكِنُه تغييرُ كلماتِ الله تعالى؛ فقد حَفِظَها وأحْكَمَها بأعلى أنواعِ الصِّدْقِ، والحقِّ؛ فلا يمكنُ تغييرُها، ولا الإتيانُ بأحْسَنَ منها[1].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: وهو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه، العليمُ بحركاتِهم وسَكَنَاتهم، الذي أحاط سَمْعُه وعِلْمُه بكلِّ شيءٍ، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمَلِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[2].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أجابَ اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ الكُفَّارِ، وبيَّنَ صحَّةَ نبوَّة نبيِّه عليه السَّلامُ- شَرَعَ في الحثِّ على الإعراضِ عَن جَهْل الجُهَّالِ، والإقبالِ على ذي الجلالِ[3]، فقال تعالى:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وإنْ تُطِعْ أكثرَ أهْلِ الأرضِ- يا مُحمَّد- يَصْرِفوك ويصدُّوكَ عَن دِينِ الله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ أكثَرهم قد انحَرَفوا عن طريقِ الحَقِّ[4].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٤-١٩٩).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يدَيكَ، فيقولُ: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ))[1].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أي: وهُم في ضَلالِهم ليسوا على يقينٍ مِن أَمْرِهم، وليس لديهم مُستنَدٌ علميٌّ يُثبِتُ صِحَّةَ طريقِهم، فغايَتُهم أنَّهم يتَّبعونَ ظُنونًا باطلةً، لا تُغني من الحَقِّ شيئًا، ويَكْذِبونَ على الله تعالى فيقولونَ عليه ما لا يَعْلَمونَ[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- أعلمُ منك ومِن جميعِ خَلْقِه، بمن ينحَرِفُ عن طريقِ الحَقِّ، فيُيَسِّرُه لذلك، وبمن يَسِيرُ على استقامةٍ وسَدادٍ، فيُيَسِّرُه لذلك[3].

الفوائدُ التربويَّة:

في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٠١-٢٠٥).

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يُستدَلُّ على الحقِّ بكثرةِ أهْلِه، ولا تدُلُّ قلَّةُ السَّالكينَ لأَمْرٍ من الأُمورِ أن يكون غيرَ حَقٍّ، بل الواقِعُ بخلافِ ذلك؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ هم الأقلُّونَ عددًا، الأَعْظمونَ عند الله قَدْرًا وأجْرًا، بل الواجبُ أن يُستدَلَّ على الحقِّ والباطِلِ بالطُّرقِ الموصلَةِ إليه(١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: إنَّ الكتابَ الحاكِمَ مُفصَّلٌ بَيِّنٌ؛ ففيه ردٌّ على من يَزْعُم أنَّ نُصوصَ الكتابِ لها معانٍ لا تُفهَم، ولا يُعْلَمُ المرادُ منها، أو أنَّ لها تأويلاتٍ باطنةً خِلافَ ما دلَّت عليه ظواهِرُها(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ أكثَرَ أهلِ الأرضِ كانوا ضُلَّالًا؛ لأنَّ الإضْلالَ لا بدَّ أن يكون مَسْبوقًا بالضَّلالِ(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾
الاستفهامُ معناه الإنكارُ والنَّفيُ، أي: لا أبتغِي حَكَمًا غيرَ اللهِ(٤).

- وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ لإنكارِ ابتغاءِ غيرِه تعالى حَكَمًا، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصَّةً مع أنَّ مقتضى المقامِ إظهارُ تَساوِي نِسْبَتِه إلى المُتَحاكِمينَ؛ لاستمالَتِهم نحْوَ الْمُنْزَلِ، واستنزالِهم إلى قَبولِ حُكْمِه بإيهامِ قُوَّةِ نِسْبَتِه إليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٤٣-١٠٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٥٤).

٢- قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ مِن جِهَتِه سبحانه؛ لتحقيقِ حَقِّيَّةِ الكتابِ الذي نِيطَ به أمرُ الحَكَميَّة[١].

- وفي التعبيرِ عن التَّوراةِ والإنجيلِ باسْمِ ﴿الكِتَاب﴾ إيماءٌ إلى ما بينهما وبينَ القرآنِ مِن المجانَسَة المقتضِيَة للاشتراكِ في الحقِّيَّة، والنُّزولِ مِن عِندِه تعالى، مع ما فيه من الإيجازِ[٢].

- وقوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعنوانِ الربوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم في ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

- قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يحتملُ أن يكونَ المخاطَبُ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمقصودُ من الكلامِ المشركونَ الْمُمْتَرون، على طريقة التَّعريضِ، كما يُقال: (إيَّاكِ أعني، واسْمَعي يا جارةُ)، ويحتَمِلُ أن يكون خِطابًا لغَيْرِ مُعَيَّن؛ ليعُمَّ كلَّ مَن يحتاجُ إلى مِثْلِ هذا الخطابِ؛ أي فلا تكونَنَّ- أيُّها السَّامِعُ- مِنَ المُمْتَرينَ[٤].

٣- قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ فيه إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمارِ- حيث قال ﴿رَبِّكَ﴾ ولم يقل (كَلِمَتُه)؛ لتذكيرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما له سبحانَه من الإحسانِ، والتَّنبيهِ على ما يريدُ به من التَّشْريفِ والإكرامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٨).

- قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ استئنافٌ مُبَيِّنٌ لفَضْلِ كَلِماتِه على غيرِها، إثْرَ بيانِ فَضْلِها في نَفْسِها[(١)].

- قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تذييلٌ لجملة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: وهو المطَّلِعُ على الأقوالِ، العليمُ بما في الضَّمائرِ[(٢)]، وفيه: تعريضٌ بالوعيدِ لِمَن يسعى لتبديلِ كلماتِه[(٣)].

٤- قوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فيه: تمثيلٌ لحالِ الدَّاعي إلى الكُفْرِ والفسادِ مَن يقبَلُ قولَه، بحالِ مَن يُضِلُّ مستهدِيَه إلى الطَّريقِ، فينعَتُ له طريقًا غيرَ الطَّريقِ المُوصِلَة، وهو تمثيلٌ قابلٌ لتوزيعِ التشبيهِ: بأنْ يُشَبَّه كلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشَبَّهِ بها، وذلِك أكملُ التَّمثيلِ وأعلاه في البلاغةِ العربيَّة[(٤)].

- قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نَشَأَ عن قوله: ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فبيَّن سببَ ضلالِهم: أنَّهم اتَّبَعوا الشُّبهةَ مِن غيرِ تأمُّلٍ في مفاسِدِها[(٥)].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يتضَمَّنُ الوعيدَ والوَعْدَ؛ لأنَّ كَونَه تعالى عالِمًا بالضَّالِّ والمهْتدي كنايةٌ عن مُجازاتِهما[(٦)].

- والآيةُ تعليلٌ لقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾؛ لأنَّ مضمونَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٧).
(٦) يُنظر: ((تفيسر أبي حيان)) (٤/ ٦٣٠).

التَّحذيرُ من نَزَغاتِهم، وتوقُّعُ التَّضليلِ منهم، وهو يقتضي أنَّ المسلمينَ يريدونَ الاهتداءَ، فلْيَجْتَنِبوا الضَّالِّينَ، ولْيَهْتَدوا باللهِ الذي يَهديهم(١).

- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه تعريفُ المُسنَدِ إليه بالإضافةِ؛ لتشريفِ المضافِ إليه، وإظهارِ أنَّ هَدْيَ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الهُدَى، وأنَّ الَّذين أخبَرَ عنهم بأنَّهم مُضِلُّون لا حَظَّ لهم في الهُدى؛ لأنَّهم لم يتَّخِذوا اللهَ ربًّا لهم(٢).

- وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ تذييلٌ لجميعِ تلك الأغراضِ التي اشتَمَلَت عليها الآياتُ المتقَدِّمةُ مِن بيانِ ضلالِ الضَّالينَ، وهُدى المُهْتدينَ(٣).

- والضَّمير (هو) في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ ضميرُ الفَصْلِ؛ لإفادةِ قَصْرِ المُسنَد ﴿أعلم﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿رَبَّكَ﴾، فالأَعْلَمِيَّة بالضَّالِّينَ والمُهتدينَ مقصورةٌ على اللهِ تعالى، لا يُشارِكُه فيها غيرُه(٤).

- قال الله تعالى هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمضارع في (يَضِلُّ)، وقال في سورة القَلَم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم:٧]، بالماضي، وذلك لمناسَبةٍ حَسَنةٍ؛ فقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ معناه: اللهُ أَعْلَمُ أيُّ المأمورينَ يَضِلُّ عن سبيله، وهذا المعنى يَقْتَضيه ما تقدَّمَ هذه الآيةَ وما جاء بَعْدَها من إتيانِ الفِعْلِ بصيغَةِ الاستقبالِ؛ فالذي قَبْلَها: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، والذي بَعْدَها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٨- ٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأمَّا قَوْلُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فمعناه: اللهُ أَعْلَمُ بأحوالِ مَنْ ضَلَّ، كيف كان ابتداءُ ضلالِه وما يكون مِن مآلِه، أَيُصِرُّ على باطِلِه، أم يَرْجِعُ عنه إلى حَقِّه، وقَبْلَها: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥-٦] فناسب الفعل الماضي[١].

- وقال اللهُ تعالى هنا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾ بِسُقوطِ الباءِ، وقال في سورة النَّحل والنَّجْم والقَلَم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾ [النحل: ١٢٥] [النجم: ٣٠] [القلم: ٧] بإثباتِ الباءِ في ﴿بِمَنْ﴾، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ هي أنَّ سُقوطَ الباءِ الداخلةِ على (من) في آيَةِ الأنعام؛ لاستثقالِ زيادتها مع الزِّيادةِ اللَّازمةِ للمضارع مع التَّقارب إيثارًا للإيجازِ، أمَّا في المواضع الثلاثة فلا زيادةَ في الفعلِ لِكَونه ماضيًا، فزِيدَ باءُ التأكيدِ الداخلةِ على (من)[٢].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٤٠-٥٤٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٨-١٦٩).

الآيات (١١٨-١٢١)

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾.

غريب الكلمات:

﴿لَيُوحُونَ﴾: أي: لَيُلْقُونَ بالوَسْوَسَةِ، أو: لَيُوَسْوِسونَ، أو يَقْذِفونَ في قُلوبِهم، وأصْلُ الوَحْيِ: يَدلُّ على إلْقاءِ عِلمٍ في خفاءٍ، وكلُّ ما أَلْقَيْتَه إلى غيرِك حتَّى عَلِمَه، فهو وحيٌ كيفَ كانَ(١).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾: (إنَّ) وما دخلتْ عليه جملةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، جوابُ قَسَمٍ مُقدَّر وطَّأَتْ له لامُ قَسَمٍ محذوفةٌ قبل (إنْ) على تقديرِ (إنْ) بـ (لَئِنْ)، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ القَسَمِ، ولا يجوزُ أن تكونَ الجُمْلَةُ الاسميَّةُ جَوابَ الشَّرْطِ على إضْمارِ الفاءِ؛ لأنَّ ذلِكَ خاصٌّ بالشِّعرِ، وقيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٣٢-١٣٣)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام الأنصاري (ص: ٣١١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عبادَه أن يأكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله إن كانوا بحُجَجِه وأدِلَّتِه مؤمنينَ.

وما الذي يمنَعُهم أن يأكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد أوضَحَ لهم تعالى ما حَرَّمَ عليهم أكْلَه إلَّا ما اضطُرُّوا إليه، وأخبر تعالى أنَّ كثيرًا يَضِلُّون ويُضِلُّون أتباعَهم، بغيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. وإنَّ الله تعالى هو أعلمُ بالمعتدينَ.

ثم يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه أن يَجْتَنبوا جميعَ المعاصي، فلا يَقْتَرفوها في السِّرِّ ولا في العَلَن، مُخبرًا تعالى أنَّ الذي يُخالِفُ هذا الأمرَ، ويكتسِبُ الإثمَ؛ فإنَّه سَيُجازيه بما اقترَف مِنَ المعاصي.

ثم ينهَى عبادَه عن الأكلِ مِمَّا لم يُذْكَرْ عليه اسْمُه؛ فإنَّ أكلَه خروجٌ عن الطَّاعةِ، ويُبيِّنُ تعالى أنَّ الشَّياطينَ يُوَسْوِسونَ إلى أوليائِهم من المشركينَ بالشُّبُهاتِ؛ ليُجادِلوا المؤمنينَ، وأن المؤمنينَ إنْ أَطاعوهم في أكْلِ المَيْتَةِ وما حَرَّم اللهُ عليهم مُستحِلِّينَ ذلك، فإنَّهم سَيَصيرونَ مِثْلَهم مُشْركينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

سببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (أتى ناسٌ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم،

فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أنأكُلُ ما نَقْتُلُ، ولا نأكُلُ ما يَقتُلُ اللهُ؟ فأنزَلَ اللهُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾)[1].

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ أكثرَ أهلِ الأَرْضِ يُضِلُّونَ مَن أطاعَهم لأنَّهم ضالُّونَ خَرَّاصون؛ يُحَرِّمونَ الحلالَ، ويُحِلُّون الحرامَ، وأنَّه هو أعلَمُ بالضَّالينَ والمُهتدَينَ- رتَّبَ على ذلك أمْرَ أَتْباعِ هذا الرَّسولِ بمخالفَةِ الضَّالينَ مِن قَومِهم وغيرِ قَومِهم في مسألَةِ الذَّبائحِ، وبِتَرْكِ جميعِ الآثامِ[2]، فقال تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾.

أي: فكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- من الذَّبائحِ التي ذُكِرَ اسمُ الله عزَّ وجلَّ عليها مِن بهيمةِ الأَنْعامِ، وغيرِها من الحيواناتِ الْمُحَلَّلِ أكلُها، إنْ كُنتم بحُجَجِ الله وأدِلَّتِه التي أَتَتْكُم مؤمنينَ، ولأَحْكامِه مُنقادينَ[3].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٦٩).

قال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠-٢٧١).

قال الشنقيطي: (ومعنى ذِكْرِ اسمِ الله عليه: هو أنْ يُسَمَّى على الذبيحةِ عند الذَّكاةِ، أو على العقيرةِ عند الاصطيادِ، أو على الجارحِ إذا أُرْسِلَ إلى الصَّيدِ، كلُّ هذا يُسمَّى اللهُ عليه ويؤكَلُ منه... والآيةُ على التَّحقيقِ في الذَّكاة، خلافًا لبعض العلماءِ القائلِ: هي عامَّةٌ. أي: كلُّ طعامٍ؛ مِن خُبز أو لَحْم أو غيره أو فاكهة تُسَمِّي اللهَ عليه، وأن تأكُلَ منه) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ يَمنَعُكم أن تَأْكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد أوْضَحَ اللهُ تعالى لكم ما يَحْرُم أكْلُه، فلم يَبْقَ في ذلك إشكالٌ ولا لَبْسٌ، ولكِنْ يُباحُ لكم تناوُلُ الحرامِ في الحالِ التي تُضْطَرُّونَ فيها إلى ذلك[1].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ من الإضْلالِ، أي: يُضِلُّونَ غيرَهم[2]، فهو من المتعدِّي (أضَلَّ).

٢- قراءة ﴿لَيَضِلُّونَ﴾- بِفَتْحِ الياءِ- بمعنى: أنَّهم يَضِلُّونَ في أنفُسِهم عن الحَقِّ[3]، فهو من اللازمِ (ضَلَّ).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٢-٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢١٦-٢٢٠).

(٢) قرأ بها الكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٤٩).

أي: وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَحْرِفُون أنفُسَهم وأَتباعَهم عن طريقِ الحَقِّ، بسببِ اتِّباعِ ما تهوَى أنفُسُهم من الباطِلِ، بغيرِ حُجَّةٍ منهم، ولا بُرهانٍ على صِحَّةِ ما يدَّعونَ(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّد- الذي أحلَّ لك ما أحَلَّ، وحَرَّمَ عليكَ ما حَرَّمَ، هو أعلمُ بِمَن تعدَّوْا حُدودَه، فتَجاوَزُوا الحلالَ إلى الحرامِ، وهو لهم بالمِرصادِ، ولن يُفْلِتوا مِن عِقابِه(٢).

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٣٠)﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه فصَّلَ المُحَرَّمات؛ أتْبَعَه بما يَجِبُ تَرْكُه بالكلِّيَّة؛ فقال(٣):

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

أي: دَعُوا- أيُّها النَّاسُ- جميعَ المعاصي؛ فلا تَرتَكِبوها في السِّرِّ ولا في العَلانِية، ولا تَقْتَرِفوها بِجَوارِحِكم ولا بِقُلوبِكم(٤).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥-٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٣٦-٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٦، ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٤-٢٢٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَعملونَ بما نهاهم اللهُ عنه، ظاهرًا كان أو خفِيًّا؛ فإنَّ اللهَ سيُجازِيهم عليه، على قَدْرِ ذُنُوبهم[1].

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١ ﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بأكْلِ ما سُمِّيَ اللهُ عليه، وكان مفهومُه أنَّه لا يُؤْكَلُ مِمَّا لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليه؛ أكَّدَ هذا المفهومَ بالنَّصِّ عليه[2]، فقال:

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ ﴾.

أي: ولا تأكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- مِمَّا لم يُذبَحْ على اسْمِ الله تعالى؛ فإنَّ أكْلَ ذلك خروجٌ عن الحقِّ وطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[3].

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ ﴾.

أي: إنَّ الشَّياطينَ يُوَسْوِسون إلى المشركينَ؛ لِيُجادِلوكم- أيُّها المؤمنونَ- بِشُبَهٍ سَقيمةٍ وآراءٍ عَقيمةٍ؛ يريدونَ بها دَفْعَ الحقِّ، وإقناعَكم بالباطِلِ، ومِنْ ذلك المجادلةُ في تحريمِ أكْلِ المَيْتَة كقَولِهم: أتأكُلونَ ما قَتَلْتم، ولا تأكلونَ ما قَتَلَ اللهُ- يَعْنون: الْمَيْتَةَ- فيَكُون ما ذَبَحْتموه إذَن حلالًا، وما ذَبَحَه اللهُ حرامًا؟! فأنتم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٢٠، ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

إذَنْ أحسَنُ مِنَ الله تعالى[(١)]!

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ﴿إِنَّ الشَّياطين لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ قالَ: (كانوا يقولونَ: ما ذُكِرَ عليه اسمُ اللَّهِ، فلا تَأْكُلوا، وما لم يُذكَرِ اسمُ اللَّهِ عليه، فكُلوه، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾)[(٢)].

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

أي: وإنْ أَطَعْتُموهم في استحلال أكْلِ المَيْتَةِ وما حَرَّمَ عليكم ربُّكم؛ فقد صِرْتُم مِثْلَهم مُشركينَ[(٣)].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ بيانُ أنَّه مِن علاماتِ المؤمِنِ مخالَفةُ أهلِ الجاهليَّةِ؛ في عادَتِهم الذَّميمَةِ، المتضَمِّنةِ لتَغييرِ شَرْعِ اللهِ، وتحريمِ كثيرٍ مِن الحلالِ[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه تحذيرُ العبدِ مِن أمثالِ هؤلاءِ؛ وعلامَتُهم- كما وصفهم اللهُ لعباده- أنَّ دَعْوَتَهم غيرُ مَبنيَّةٍ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٢٧-٥٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجه (٣١٧٣) واللفظ له.
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٣٢١)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٥٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
قال الشنقيطيُّ: (قَسمٌ من الله جلَّ وعلا أقسم به على أنَّ مَن اتَّبع الشيطانَ في تحليلِ الميتةِ أنَّه مشركٌ، وهذا الشركُ مخرجٌ عن الملةِ بإجماعِ المسلمين) ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

بُرهانٍ، ولا لهم حُجَّةٌ شرعيَّةٌ، وإنَّما يُوجَدُ لهم شُبَهٌ بِحَسَب أهوائِهم الفاسدَةِ، وآرائِهم القاصِرَة، فهؤلاءِ مُعْتَدونَ على شَرْعِ اللهِ وعلى عبادِ الله، واللهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ هذه الجملةُ مِنْ جوامِعِ الكَلِم، والأُصولِ الكليَّةِ في تحريمِ الآثامِ؛ حتى قيل: إنَّ المرادَ بهذا التعبيرِ تَرْكُ الإثمِ مِن جميعِ جِهاتِه؛ أي: جميع أنواعِ الظُّهورِ والبُطونِ فيه[٢].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيه النَّهيُ عن أكْلِ المَيْتة ونحوِها؛ مِمَّا لم تُقصَد ذَكاتُه؛ لأنَّ ذِكْرَ اسْمِ الله أو اسْمِ غيره إنَّما يكونُ عند إرادةِ ذَبْحِ الحيوانِ، كما هو معروفٌ لديهم، فدَلَّ هذا على تعيينِ أكْلِ ما ذُكِّيَ دون المَيْتَةِ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ الأصلَ في جميعِ الأعيانِ الموجودةِ على اختلافِ أصنافِها، وتبايُنِ أوصافِها، أنْ تكونَ حلالًا مُطلَقًا للآدميِّينَ، وأنْ تكونَ طاهرةً لا يَحْرُم عليهم مُلابَسَتُها ومُباشَرَتُها ومُماسَّتُها، وقد دلَّتْ الآيةُ على ذلك مِن وجهينِ: أحدُهما: أنَّه تعالى وَبَّخَهم وعنَّفَهم على تَرْكِ الأكلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عليه قبل أن يُحِلَّه باسْمِه الخاصِّ، فلو لم تَكُنِ الأشياءُ مُطلقةً مُباحةً لم يَلْحَقْهم ذمٌّ ولا توبيخٌ؛ إذ لو كان حُكْمُها مجهولًا أو كانت محظورةً لم يكن ذلك. الوجه الثاني: أنَّه قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ والتَّفصيلُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٢).

التَّبيينُ، فبَيَّنَ أنَّه بَيَّنَ المُحَرَّماتِ؛ فما لم يُبَيِّنْ تحريمُه فليس بمُحَرَّمٍ، وما ليس بمُحَرَّمٍ فهو حلالٌ؛ إذ ليس إلَّا حلالٌ أو حرامٌ(١).

٣- فرَّقَت الشَّريعةُ بين ما يُذْكَر اسمُ اللهِ عليه، وما لا يُذْكَرُ اسمُ الله عليه، كما في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ممَّا يدلُّ على أنَّ نَفْسَ أسمائِه تعالى مُباركةٌ، وبَرَكَتُها مِن جِهَةِ دَلالَتِها على المُسَمَّى(٢).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يُرْشِدُنا إلى يُسْرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة؛ فمتى وَقَعَت الضرورةُ- بأنْ لم يوجَدْ مِنَ الطَّعامِ عند شدَّةِ الجوعِ إلَّا المحرَّمُ- زالَ التحريمُ(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ استنبَطَ بعضُهم منه تحريمَ القولِ في الدِّينِ بمجرَّدِ التَّقليدِ، وعصبيَّة المذاهِبِ؛ لأنَّ القولَ في الدِّينِ بمجَرَّدِ التقليدِ قولٌ بمَحْضِ الهَوى والشَّهوةِ، والآيةُ دلَّتْ على أنَّ ذلك حرامٌ(٤).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ جَعَلَ الأَكْلَ منه نفسَ الفِسْقِ- وهو الخروجُ عمَّا ينبغي إلى ما لا ينبغي-؛ لأنَّه عريقٌ جدًّا في كَوْنِه سَبَبَه؛ لِمَا تأصَّلَ عند المشركينَ مِن أَمْرِه، وانتشَرَ مِن شَرِّه(٥).

٧- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٤٦).

الشَّياطين لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ على أنَّ ما يقَعُ في القلوبِ من الإلْهاماتِ والكُشُوف- التي يكثُرُ ادِّعاؤُها عند المتسبين إلى التصوُّف ونحوِهم- لا تدلُّ بمُجَرَّدِها على أنَّها حقٌّ، ولا تُصَدَّقُ حتى تُعْرَضَ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن أحَلَّ شيئًا ممَّا حرَّمَ اللهُ، أو حَرَّم شيئًا ممَّا أحلَّ اللهُ؛ فهو مُشْرِكٌ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ حُجَّةٌ على أنَّ الإيمانَ اسمٌ لجميعِ الطَّاعاتِ، مثلما جعل الله تعالى الشِّرْكَ اسمًا لكُلِّ ما كان مُخالِفًا له سبحانه، بدليلِ أنَّه تعالى سَمَّى طاعةَ المؤمنينَ للمُشركينَ في إباحَةِ المَيْتَةِ شِرْكًا[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ التعبيرُ بحرفِ (على) يدلُّ على شدَّةِ اتِّصالِ فِعلِ الذِّكرِ بذاتِ الذَّبيحةِ[٤].

- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ تقييدٌ للاقتصارِ المفهومِ مِن فِعْلِ الإباحةِ، وتعليقِ المجرورِ به في قولِه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وهو تحريضٌ على التزامِ ذلك، وعدمِ التَّساهُلِ فيه، حتى جُعِلَ من علاماتِ كَوْنِ فاعِلِه مؤمِنًا، وذلك حيث كان شعارُ أهلِ الشِّرْك ذِكْرَ اسْمِ غيرِ اللهِ على مُعْظَمِ الذَّبائحِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهامُ يتضمَّنُ الإنكارَ على من امتَنَعَ من ذلك؛ أي: لا شيءَ يَمْنَعُ من ذلك[١]، وهو مستعملٌ في معنى النَّفْي: أي لا يثبُتُ لكم عدَمُ الأكلِ مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه؛ أي: كُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه[٢].

- وفيه: تعريضٌ؛ حيث أعرَضَ عن محاجَّةِ المُشركينَ؛ لأنَّ الخطابَ مَسوقٌ إلى المسلمينَ لإبطالِ مُحاجَّةِ المُشركينَ؛ فآلَ إلى الرَّدِّ على المشركينَ بطريقِ التَّعريضِ[٣].

٣- قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ للإنكارِ[٤].

٤- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هو أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ تذييلٌ؛ فالإخبارُ بعلْمِ اللهِ بهم كنايةٌ عَن أخْذِه إيَّاهم بالعُقوبةِ، وأنَّه لا يُفلِتُهم، لأنَّ كَونَه عالِمًا بهم لا يُحتَاجُ إلى الإخبارِ به[٥].

٥- قولُه تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ للعُصاة[٦].

- وفيه أنَّهم كانوا يُبالِغونَ في إفسادِ فِطْرَتِهم، وتَدْسِيَةِ أنفُسِهم؛ بالإصرارِ عليه، ومُعاوَدَتِه المرَّةَ بعد المرَّةِ، كما يدلُّ عليه فِعْلُ الكَونِ، وصيغةُ المضارعِ الدَّالَّةِ على الاستمرارِ[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩).

- صيغةُ الافتعالِ في ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّ أفعالَ الشَّرِّ إنَّما تكون بمعالجةٍ من النَّفسِ للفِطرةِ الأُولى السَّليمةِ(١).

٦- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هذه الجملةُ إخبارٌ يتضَمَّنُ الوعيدَ لِمَن أطاعَ المُشركينَ من المؤمنينَ(٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٤).

الآيات (١٢٢-١٢٧)

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَكَابِرَ﴾: أي: عُظَمَاءَ ورؤساءَ، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[١].

﴿مُجْرِمِيهَا﴾: مُذْنِبيها أو كَافِريها، والجُرم- بِالضَّمِّ-: لَا يُطلَقُ إلَّا على الذَّنْبِ الغَليظِ، وأَصلُ (جرم): القطعُ[٢].

﴿لِيَمْكُرُوا﴾: أي: ليَصْرِفوا الغيرَ عمَّا يقصِدُه- عن دِينِ اللَّه وأنبيائِه- بِحِيلةٍ؛ بغرورٍ من القولِ، أو بباطلٍ من الفِعلِ، وأصل المَكْر: الاحتِيالُ والخِداعُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

﴿صَغَارٌ﴾: ذُلٌّ وحَقارةٌ، والصَّغارُ أشدُّ الذُّلِّ؛ يقال: فلانٌ صغيرٌ باعتبارِ السِّنِّ، وتارةً باعتبارِ الجُثَّةِ، وتارةً باعتبارِ القَدْرِ والمنزِلَة؛ يقال: صَغُر صِغَرًا: إذا كان ضِدَّ الكِبَر، وصَغِرَ صَغَارًا: إذا هان قَدْرُه وذَلَّ، وأَصل (صغر): يدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارَةٍ[١].

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾: أي: يَفْتَحْه ويُفْسِحْه، أو يُوَسِّعْه بالبَيانِ، وشَرْحُ الصَّدْرِ: توسِعتُه لقَبولِ الحقِّ، وبسْطُه بنورٍ إلهيٍّ وسكينةٍ من جِهَةِ اللهِ ورُوحٍ منه، وأصل الشَّرْحِ: يدلُّ على بَسْطِ اللَّحْم، وعلى الفَتحِ والبَيانِ[٢].

﴿حَرَجًا﴾: الحَرَج: أشدُّ الضِّيقِ، وأَصْلُ (حرج): تجمُّع الشَّيءِ وضِيقُه، ومنه الحَرَج جمْعُ حَرَجة: وهي الشجرةُ الملتَفُّ بها الأشجارُ، لا يدخلُ بينها وبينها شيءٌ؛ لشِدَّةِ التفافِها بها[٣].

﴿يَصَّعَّدُ﴾: أي: يَتَصَعَّدُ معَ مَشَقَّةٍ، والصُّعُودُ: هو الذَّهابُ إلى الأمكِنَةِ المرتفِعَةِ، وأَصْلُ (صعد) يدُلُّ على ارْتِفاعٍ وَمَشَقَّةٍ[٤].

﴿الرِّجْسَ﴾: أي: العذابَ، ويُطلَق أيضًا على: القَذَر المُنتِن، وأَصْلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات- مع الحاشية)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩،٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧، ٤٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤، ٥٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، =

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، و﴿حَيْثُ﴾ خرجتْ عنِ الظرفيَّة، وصارتْ مفعولًا به على السَّعةِ، وعامِلُها فِعلٌ يدلُّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾، وليس العامِلُ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ (أفعل) لا ينْصِبُ المفعولَ به، والتقديرُ: يعلمُ الموضعَ الصَّالِحَ لوَضْعِ رِسالتِه، ولا يصحُّ هنا أن تكونَ ﴿حَيْثُ﴾ ظرفًا؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّه تعالى لا يكونُ في مكانٍ أعلمَ منه في مكانٍ آخَرَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: هل يستوي مَن كان كافرًا هالكًا حائرًا في الضَّلالةِ، فهَداه اللهُ للإسلامِ، وأحْيَا قَلْبَه بالإيمانِ، وجعَلَ له نورًا يمشي به في النَّاسِ؛ ومن كان في ظُلماتِ الكُفْرِ ليس بخارجٍ منها؟

وكما حُسِّن لهؤلاءِ الكفَّارِ- الَّذين يجادلونَ المؤمنينَ في أكلِ ما حرَّم الله تعالى عليهم- سوءُ أعمالِهم، كذلك حُسِّن لِمَنْ كان على مِثْلِ ما هم عليه- مِن الكُفر باللهِ وآياتِه- ما كانوا يعتقدونَه ويَعْمَلونَه من الضَّلال.

وكذلك جَعَلَ اللهُ في كلِّ قريةٍ رُؤساءَ مُجرمينَ؛ ليَمْكُروا فيها بدُعاءِ النَّاسِ إلى الكُفرِ والضَّلالةِ، وبِصَدِّهم عن سبيلِ الله، لكنَّهم بِمَكْرِهم ذلك لا يَمكُرونَ إلَّا بأنفُسِهم، وما يشعرونَ.

وإذا جاءت هؤلاءِ المجرمينَ حُجَّةٌ قاطعةٌ من الله على صحَّةِ ما جاءَهم به

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥-١٣٧)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٩٣).

محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قالوا: لن نؤمِنَ حتى نُعطَى مِثلَ ما أُعطِيَ رُسُلُ اللهِ؛ من الرِّسالةِ والوَحيِ والمُعجزاتِ، فبيَّنَ اللهُ أنَّه أعلَمُ بمَوْضِعِ رِسالَتِه، ومن يَصْلُحُ أن يتحَمَّلَها ويقومَ بها، وأخبَرَ أنَّه سينالُ الَّذين أجرموا ذِلَّةٌ وهوانٌ عند الله، وسيُعَذَّبونَ عذابًا شديدًا؛ جزاءً لِكَيْدِهم للإسلامِ وأهْلِه.

ويُخبِر تعالى أنَّه من أراد أنْ يَهْدِيَه يشْرَحْ صدْرَه للإسلامِ، ومن أراد أنْ يُضِلَّه يجعَلْ صَدْرَه ضيِّقًا لا ينْفُذُ إليه نورُ الإيمانِ؛ مَثَلُه في هذه الحال كمَثَلِ من تكَلَّفَ الصُّعودَ في السَّماءِ، وعَجَزَ عن ذلك؛ لأنَّه ليس في وُسْعِه، ولا حيلةَ له فيه، وكما يجعلُ الله تعالى صَدْرَه ضيِّقًا حَرجًا، كذلك يسلِّط اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّيطانَ عليه وعلى أمثاله؛ ممَّن أبى الإيمانَ باللهِ ورسولِه؛ فيُضِلُّه.

ثم خاطَبَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ ما بيَّنَه له في هذه السُّورةِ وغيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ هو طريقُه جلَّ وعلا الذي ارتضاه ليكونَ دِينَه، وجَعَلَه مُستقيمًا؛ قد فصَّلَ الآياتِ والحُجَجَ على صحَّةِ ذلك لقومٍ يَذَّكَّرون. ولهؤلاءِ القَومِ دارُ السَّلامِ عند ربِّهم، وهي الجنَّة؛ إذ هي سالِمَةٌ مِن كلِّ عيبٍ وآفةٍ ومُنَغِّصٍ، وهو سبحانه وليُّهم بما كانوا يعملونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّه جاء في الآياتِ التي قَبْلها أنَّ أكثَرَ أهلِ الأرضِ ضالُّونَ مُتَّبِعونَ للظَّنِّ، وأنَّ كثيرًا منهم يُضِلُّون غيرَهم بأهوائِهم بغيرِ عِلمٍ، وأنَّ الشَّياطينَ المتمَرِّدينَ العاتينَ عن أمرِ ربِّهم يُوحونَ إلى أوليائِهم ما يُجادلونَ به المؤمنينَ؛ لِيُضِلُّوهم،

ويَحمِلوهم على اقترافِ الآثامِ التي نَهَت تلك الآياتُ عن ظاهِرِها وباطِنِها، بل لِيَحْمِلوهم على الشِّرْكِ أيضًا بالذَّبْحِ لغيرِ الله تعالى، فلَمَّا بيَّنَ الله تعالى ما ذكَرَ؛ ضَرَبَ له مثلًا يتبيَّنُ به الفَرْقُ بين المؤمنينَ المهتدينَ؛ للاقتداءِ بهم، والكافرينَ الضَّالينَ؛ للتَّنفيرِ من طاعَتِهم، والحَذَرِ من غَوايَتِهم، وبيَّنَ أنَّ سَبَبَه ما زُيِّنَ للكافرينَ مِن أعمالِهم؛ فلم يُمَيِّزوا بين النُّورِ والظُّلماتِ، فقال[1]:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.

أي: هل مَن كان كافرًا هالكًا، حائرًا في الضَّلالةِ، فهَدَيناه للإسلامِ، وأحْيَيْنا قَلْبَه بالإيمانِ، واتِّباعِ القرآنِ، فصار يرى الحَقَّ والباطِلَ، والنَّفْعَ والضُّرَّ، وصار يمشي بين النَّاسِ في النُّورِ، متبَصِّرًا في أمورِه، مهتديًا لسَبيلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

أي: أفَيَستوي مَن أحْيَيْناه بنورِ الإيمانِ والقرآنِ بمن هو في ظُلُماتِ الكُفرِ؛ متردِّدًا لا يعرِفُ المَخْرَجَ منها، قد التبَسَتْ عليه الطُّرُق، وأظلَمَت عليه المسالِكُ، فحَضَره الهَمُّ والغمُّ والحَزَن والشَّقاء، فلا يدري كيف يتوجَّه؟ وأيَّ طريقٍ يأخُذُ؛ لشدَّةِ ظُلمةِ اللَّيلِ، وإضلالِه الطَّريقَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٢-٥٣٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

قال السعدي: (فنبَّه تعالى العقولَ بما تُدرِكُه وتعرفه، أنَّه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي =

كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ كأنَّه قِيل: فكيفَ يُؤثِرُ مَن له أدنَى مُسكةٍ مِن عقلٍ، أن يكونَ بهذه الحالةِ، وأن يبقَى في الظُّلماتِ متحيِّرًا: فأجاب[1] بقولِه:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: كما حُسِّن لهؤلاءِ الكفَّارِ- الَّذين يجادلونكم أيُّها المؤمنونَ في أكلِ ما حرَّمتُ عليكم- كما حُسِّن لهم سوءُ أعمالِهم، كذلك حُسِّن[2] لِغَيْرهم ممَّن كان على مِثْلِ ما هم عليه مِن الكُفر باللهِ وآياتِه، ما كانوا يعتقدونَ، ويَعْمَلون من ضَلالاتٍ، وذلك حكمةٌ من الله بالغةٌ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ

= اللَّيل والنَّهار، والضِّياء والظُّلمة، والأحياء والأموات) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) قال ابن عاشور: (وحُذِف فاعِلُ التَّزيينِ فبُنِي الفعلُ للمجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ وُقوعُ التَّزيينِ لا معرفةُ مَنْ أوْقعَه، والمزَيِّنُ شياطينُهم وأوْلِياؤُهم، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ولأنَّ الشَّياطينَ مِنَ الإنسِ هم المُباشرونَ للتَّزيينِ، وشياطينُ الجنِّ هم المسوِّلون المزيِّنون). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٦-٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾.

أي: وكذلك[1] صَيَّرْنا في كلِّ قريةٍ عُظماءَ ورُؤساءَ مِن المجرمينَ فيها؛ ليَمْكُروا فيها، بِدُعائِهم النَّاسَ إلى الكُفْرِ والضَّلالة، وقيامِهم بصَدِّهم عن سبيلِ الله تعالى[2].

---

(١) قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ جلَّ ثَناؤُه: وكما زَيَّنَّا للكافِرين ما كانوا يَعْمَلون، كذلك جَعَلْنا بكلِّ قَرْيَةٍ عُظَماءَها مُجْرِميها). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)

وقال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى: وكما جعَلْنا في قَرْيَتِك- يا محمَّدُ- أكابرَ مِنَ المجرِمين، ورُؤساءَ ودُعاةً إلى الكفرِ والصَّدِّ عَنْ سبيلِ اللَّه، وإلى مُخالَفَتِك وعداوَتِك، كذلك كانتِ الرُّسلُ مِنْ قبلك يُبْتَلون بذلك، ثُمَّ تكونُ لهم العاقِبَةُ، كما قال تَعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧-٥٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١)، ((أضواء =

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٢ - ٣٥].

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ما يحيقُ وَبالُ مَكْرِهم ذلك ويعود إلَّا على أنفُسِهم، وهم لا يَدْرونَ أنَّهم يَمْكُرون بها، ولا يدرونَ ما أعدَّ الله تعالى لهم من العذابِ؛ جزاءً لذلك(١).

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: وإذا جاءَتْ هؤلاءِ المجرمينَ حُجَّةٌ قاطعةٌ مِن الله، على صِحَّةِ ما جاءهم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالوا: لن نؤمِنَ بما دعانا إليه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيمانِ به، وبما جاء به مِنْ تحريمِ ما ذَكَر أنَّ اللهَ حرَّمَه علينا؛

= البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٧).
وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف مجاهدٌ وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥١).

حتى تأتِيَنا الملائكةُ من الله بالرِّسالة، فيُوحَى إلينا كما يُوحَى إلى الرُّسُلِ، ونُعطَى من المعجزاتِ مِثْلَهم(١).

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

أي: فالله عزَّ وجلَّ أعلَمُ بموضِعِ رسالَتِه، ومن يَصْلُحُ لها، ويقومُ بأعبائِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾.

أي: سَيَنالُ الذين اكتَسَبوا الإثمَ- بِشِرْكِهم باللهِ، وعبادتِهم غيرَه- ذِلَّةٌ وهوانٌ عند الله، ولهم عذابٌ شديدٌ بسبَبِ كيدِهم للإسلامِ وأهْلِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٣-٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٩-٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٠-٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

قال الزجَّاج: (أي هم وإن كانوا أكابرَ في الدُّنيا سيصيبُهم صَغارٌ عِنْد اللَّه؛ أي مَذَلَّة) ((معاني القرآن)) (٢/ ٢٨٩).

وقال ابن عاشور: (الصَّغَارُ والعذابُ يحصُلانِ لهم في الدُّنيا بالهزيمةِ وزوالِ السِّيادةِ، وعذابِ القَتلِ والأَسْر والخوفِ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وقد حصل الأمرانِ يومَ بدْرٍ ويومَ أُحُد، فهلكت سادةُ المشركين، وفي الآخرةِ بإهانتِهم بين أهل المحشَر، وعذابِهم في جهنم. ومعنى ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أنَّه صَغارٌ مُقدَّر عند الله، فهو صَغار ثابتٌ مُحقَّق؛ لأنَّ الشيءَ الذي يجعلُه الله تعالى يحصُلُ أثرُه عندَ النَّاس كُلِّهم؛ لأنَّه تكوين لا يفارِقُ صاحبَه، كما ورد في الحديثِ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا أمر جبريلَ فأحَبَّه، ثم أمر الملائكةَ فأحَبُّوه، ثم يُوضَع له القَبولُ عند أهلِ الأرضِ»، فلا حاجةَ إلى تقديرِ (مِن) في قولِه: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، ولا إلى جَعْلِ العِنْدية بمعنى الحصولِ في الآخرةِ، كما درج عليه كثيرٌ من المفسِّرين) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٦).

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عاقبةَ المجرمينَ الماكرين الَّذين حُرِمُوا الاستعدادَ للإسلامِ بعد بيانِ حالِهم- قَفَّى عليه بالمُقابلةِ بينهم وبين المُستَعِدِّينَ له، ثم ببيانِ ظُهورِ هِدايَتِه، واستقامةِ مَحَجَّته، وبجزاءِ المُهْتَدينَ به، على حَسَب سُنَّتِه تعالى في كتابِه[1]، فقال:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

أي: فمَن يُردِ الله تعالى هِدايَتَه وتوفيقَه للتَّوحيدِ، والإيمانِ به وبرسولِه؛ يفسَحْ صَدرَه لذلك، فيتَّسِعُ لِقَبولِه، ويهوِّنه عليه ويسهِّله له، فيستنيرُ قَلْبُه بنورِ الإيمانِ، ويحيا بضَوْءِ اليقينِ، وتطمَئِنُّ نفسُه بذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

أي: ومن يُرِدِ اللهُ تعالى إضلالَه عن سبيلِ الهُدى يجعلْ صَدْرَه بخِذْلانِه، وغَلَبَةِ الكُفرِ عليه، وانغماسِ قَلْبِه في الشُّبُهات والشَّهوات؛ في أشَدِّ ما يكون من الضِّيقِ، فلا ينْفُذُ فيه نورُ الإيمانِ مِن شِدَّةِ ضِيقِه، ولا تَصِلُ إليه الموعظَةُ، ولا يدخُلُه اليقينُ والاطمئنانُ[١].

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

أي: هذه حالُه في عَدَمِ تقَبُّلِ الإيمانِ وصُعُوبَتِه وثِقَلِه عليه؛ فهي تُشْبِه صعوبةَ تَكَلُّفِ الصُّعودِ في السَّماءِ، وعَجْزَه عن ذلك؛ لأنَّه ليس في وُسْعِه، ولا حيلةَ له فيه[٢].

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: كما يجعلُ الله تعالى صَدْرَ من أراد إضلالَه ضيِّقًا حَرجًا كأنَّما يصَّعَّد في السَّماءِ، كذلك يسلِّط اللهُ الشَّيطانَ عليه وعلى أمثاله، ممَّن أبى الإيمانَ بالله ورسولِه؛ فيُغْوِيه ويَصُدُّه عن سبيلِ الحَقِّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٤٤)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧٤)، والقرطبيِّ في ((تفسيره))، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٢).
وقال به من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وعطاءٌ الخراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤).
والقولُ بأنَّ الرِّجسَ المرادُ به الشَّيطانُ: قال به مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٧٦).

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لمَّا ذكَر الله تعالَى طريقَةَ الضَّالِّينَ عن سبيلِه، الصَّادِّين عنها، نبَّه على أشرفِ ما أرْسل به رَسولَه مِنَ الهُدَى ودينِ الحَقِّ(١)، فقال:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾.

أي: وهذا الذي بيَّنَّا لك- يا مُحمَّدُ- في هذه السُّورة وغيرِها من سُوَر القرآنِ، هو طريقُ ربِّك ودِينُه الذي ارتضاه لنَفْسِه دينًا، وجَعَلَه مستقيمًا لا اعوجاجَ فيه؛ معتدلًا مُوصِلًا إليه، وإلى دارِ كرامَتِه؛ فاثْبُتْ أنت عليه(٢).

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: قد بَيَّنَّا الآياتِ والحُجَجَ على صحَّةِ ذلك لِمَن لهم فَهْمٌ ووعْيٌ يَعْقِلون به عن اللهِ مُرادَه؛ الَّذين عَلِموا، فانتَفَعوا بعِلْمِهم(٣).

﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى عظيمَ نِعَمِه في الصِّراطِ المستقيمِ، بَيَّنَ الفائدةَ الشَّريفةَ التي تحصُلُ من التمسُّك بذلك الصِّراطِ المستقيمِ؛ فقال(٤):

﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾.

أي: لهؤلاء القومِ الَّذين يذَّكَّرون، دارُ اللهِ تعالى التي أعَدَّها لأوليائِه في الآخِرةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٦).

وهي جَنَّتُه، السَّالِمة من كلِّ عيبٍ وآفةٍ، وَهَمٍّ وغَمٍّ، وغيرِ ذلك من مُنَغِّصاتٍ(١).

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى ناصرٌ هؤلاءِ القومَ الَّذين يذَّكرون، وحافِظُهم ومُؤَيِّدُهم؛ يتولَّى تدبيرَهم وتربيتَهم ورعايَتَهم، وهذا جزاءٌ لهم على أعمالِهم الصَّالِحةِ، واتِّباعِهم رضا مولاهم؛ فلذلك يتولَّاهم، ويُثيبُهم الجنَّةَ بكَرَمِه(٢).

الفَوائد التربويَّة:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ العِبرةُ في هذا المَثَل أن يُطالِبَ المسلمُ نفسَه بأن يكونَ حيًّا عالِمًا؛ على بصيرةٍ في دينِه وأعمالِه، وحُسْنِ سِيرَتِه في النَّاس، وقدوةً لهم في الفضائِلِ والخَيْرات، وحُجَّةً على فَضْلِ دِينِه على جميعِ الأديانِ، وعُلُوِّ آدابِه على جميعِ الآدابِ(٣).

٢- شَأْنُ أكثَرِ أكابِرِ الأُمَم والشُّعوب- ولا سيَّما في الأزمِنَةِ التي تكثُرُ فيها المطامِعُ، ويعظُمُ حُبُّ الرِّياسَةِ والكبرياءِ- أنَّهم يَمْكرونَ بالنَّاسِ مِن أفرادِ أُمَّتِهم وجَماعاتِها؛ ليَحْفَظوا رياسَتَهم ويُعَزِّزوا كبرياءَهم، ويُثَمِّروا مطامِعَهم فيها، ويمكُرُ الرُّؤساءُ والسَّاسةُ منهم بغيرِهم من الأُمَم والدُّول؛ لإرضاءِ مَطامِعِ أُمَّتِهم، وتعزيزِ نفوذِ حُكومَتِهم في تلك الأُمَم والدُّوَلِ. وقد عَظُمَ هذا المكرُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

قال الخازن: (﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني الجنَّة في قولِ جميعِ المفسِّرين) ((تفسير الخازن)) (٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٦).

هذا العَصرِ، فصار قُطْبَ رَحَى السِّياسَةِ في الدُّول، وعَظُمَ الإفكُ بعِظَمِه؛ لأنَّه أعظَمُ أركانِه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[1].

٣- إنَّ أكابِرَ المجرمينَ- الَّذين يُعادونَ الرُّسُلَ في عَصرِهم، ودعاةَ الإصلاحِ مِن وَرَثَتِهم بَعْدَهم- مهما ضَخُمَ واستطالَ كَيْدُهم؛ فلا يحيقُ إلَّا بهم في نهايةِ المطافِ؛ فالمؤمنونَ لا يخوضون المعركةَ وَحْدَهم، فاللهُ تعالى وليُّهم فيها، وهو حَسْبُهم، وهو يَرُدُّ على الكائِدينَ كَيْدَهم؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه مِن السُّلوك والعبادةِ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أن يتقبَّلَ الإسلامَ كلَّه؛ أصلَه وفرعَه، وما يتعلَّق بحقِّ الله، وما يتعلَّق بحقِّ العبادِ، وأنَّه يجبُ عليه أن يشرحَ صدرَه لذلك، فإن لم يكنْ كذلك، فإنَّه من القسمِ الثاني الذين أراد الله إضلالَهم[3].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ جُعِلَ الإيمانُ حياةً؛ لأنَّ الحيَّ صاحِبُ بَصَرٍ يهتدي به إلى رُشْدِه، وكذلك لَمَّا كان الإيمانُ يهدي إلى الفَوْزِ العظيمِ، والحياةِ الأبديَّة؛ شُبِّه بالحياةِ[4].

٢- لمَّا ذَكَر جَعْلَ النُّورِ للمَيِّتِ قال: ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أيْ: يَصْحَبُه كيف

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٣٠)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) للعثيمين (ص: ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٧).

تَقَلَّب، وقال: ﴿فِي النَّاسِ﴾ إشارةً إلى تَنْويرِه على نَفْسِه، وعلى غيرِه مِنَ النَّاسِ، فذكَر أنَّ منفعةَ المؤمنِ ليست مقتصِرَةً على نَفْسِه(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه لطيفةٌ جميلةٌ، وهي أنَّه تعالى لَمَّا ذَكَرَ صِفةَ الإحسانِ إلى العبْدِ المؤمِنِ؛ نَسَبَ ذلك إليه جلَّ وعلا؛ فقال: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ وفي صِفَةِ الكافِرِ لم ينسُبْها إلى نَفْسِه، بل قال: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(٢).

٤- قوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ فيه دقيقةٌ عقليَّةٌ، وهي أنَّ الشَّيْءَ إذا دام حُصولُه مع الشَّيْءِ صار كالأَمْرِ الذاتيِّ والصِّفةِ اللَّازِمَة له؛ فإذا دام كونُ الكافِرِ في ظُلُماتِ الجَهْلِ، والأَخْلاقِ الذَّميمةِ، صارت تلك الظُّلُماتُ كالصِّفةِ الذاتيَّةِ اللَّازِمَةِ له؛ يعسُر إزالتُها عنه، نعوذُ باللهِ من هذه الحالَةِ(٣).

٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ جاءت الظُّلماتُ جمعًا؛ لتُناسِبَ تعدُّدَ أنواعِ الكُفرِ المتعدِّدةِ(٤).

٦- قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ حُذِفَ فاعل التَّزيينِ؛ فبُنِيَ الفعلُ للمفعولِ: لأنَّ المقصودَ وقوعُ التَّزيينِ لا معرفةُ مَن أوقَعَه(٥).

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ خَصَّ الأكابِرَ؛ لأنَّهم أقدَرُ على الفَسادِ، والتَّحيُّلِ، والمَكرِ؛ لرِئاسَتِهم، وسَعَةِ أرزاقِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

واستِتْباعِهم الضُّعَفاءَ والمحاويجَ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ أهْلَ البَداوَةِ أقربُ إلى قَبولِ الخيرِ من أهْلِ القُرى؛ لأنَّهم لبساطَةِ طِباعِهم من الفِطْرةِ السَّليمةِ، فإذا سَمِعوا الخيرَ تَقبَّلوه، بخلافِ أهْلِ القرى؛ فإنَّهم لتَشبُّثِهم بعوائِدِهم وما أَلِفُوه؛ يَنْفِرونَ من كلِّ ما يُغيِّره عليهم؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، فجعل النِّفاقَ في الأَعْرابِ نفاقًا مجرَّدًا، والنِّفاقَ في أهْلِ المدينةِ نِفاقًا مارِدًا[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ في الآيةِ دليلٌ على كمالِ حِكمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه وإن كان تعالى رحيمًا واسعَ الجودِ، كثيرَ الإحسانِ، فإنَّه حكيمٌ لا يَضَعُ جُودَه إلَّا عند أهْلِه[٣].

١٠- كلُّ مَن لم يُقِرَّ بما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلَّا بعد أن يقومَ على صِحَّتِه عنده دليلٌ مُنفَصِلٌ مِن عقْلٍ أو كشْفٍ أو منامٍ أو إلهامٍ، لم يكُنْ مؤمنًا به قَطْعًا، وكان من جِنْس الَّذينَ قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾[٤].

١١- في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ إشارةٌ لعَظيمِ مِقدارِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتنبيهٌ لانْحِطاطِ نُفوسِ سادةِ المشركينَ عن نَوالِ مَرْتبةِ النُّبوةِ، وانعدامِ اسْتِعْدادِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٥).

١٢- قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيه تنبيهٌ على دقيقةٍ جليلةٍ، وهي أنَّ أقَلَّ ما لا بدَّ منه في حصولِ النبوَّةِ والرِّسالةِ البراءةُ عن المكْر والغَدْرِ والغِلِّ والحسَد. وقولُهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ عَيْنُ المكْرِ والغَدْرِ والحَسَد؛ فكيف يُعْقَلُ حُصولُ النبوَّة والرِّسالةِ لهم مع اتِّصافِهم بهذه الصِّفاتِ[1].

١٣- لَمَّا كان العقابُ إنَّما يتِمُّ بأمرينِ: الإهانةِ والضَّرَرِ؛ توَعَّدَهم اللهُ تعالى بمجموعِ هذينِ الأَمْرينِ في هذه الآيةِ؛ فقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وإنَّما قَدَّمَ ذِكْرَ الصَّغارِ على ذِكْرِ الضَّرَر؛ لأنَّ القومَ إنَّما تَمَرَّدوا عن طاعةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام طلبًا للعِزِّ والكرامةِ؛ فاللهُ تعالى بَيَّنَ أنَّه يُقابِلُهم بضِدِّ مَطْلوبِهم، فأَوَّلُ ما يُوصِلُ إليهم إنَّما يُوصِل الصَّغارَ والذُّلَّ والهوانَ[2].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه ردٌّ على القدريَّة، وبيانُ أنَّ الهدايةَ والضَّلالَ من الله تعالى[3].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه إثباتُ إرادةِ الله عزَّ وجلَّ، والإرادةُ المذكورةُ هنا إرادةٌ كونيةٌ لا غيرُ؛ لأنَّه قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾، ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾، وهذا التقسيمُ لا يكونُ إلَّا في الأمورِ الكونيَّات، أمَّا الشرعيةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار)) للعمراني (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٦٣).

فالله يريدُ مِن كلِّ أحدٍ أن يستسلمَ لشرعِه(١).

١٦- التوفيقُ عنايةٌ خاصَّةٌ من الله تعالى؛ يتفَضَّلُ بها على بعضِ عِباده، فهو سبحانه عليمٌ بمَن يَصْلُح لهذا الفَضْلِ ومَن لا يصْلُحُ له، وحكيمٌ يَضَعُه في مواضِعِه وعند أهْلِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾(٢).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾، إضافةُ الدَّارِ إلى (السَّلام) للإيذانِ بسَلامَتِها من العيوبِ، وسلامةِ أَهْلِها مِن جميعِ المنَغِّصاتِ والكُروبِ(٣)، وقيل إنَّما وَصَفَ اللهُ الجنَّة هاهنا بدارِ السَّلامِ؛ لسَلامَتِهم فيما سَلَكوه من الصِّراطِ المستقيمِ، المقتفي أثَرَ الأَنبياءِ وطرائِقَهم، فكما سَلِمُوا من آفاتِ الاعوجاجِ، أَفْضَوْا إلى دارِ السَّلامِ(٤).

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه نفيُ القَوْلِ بالجَبرِ، وإبطالُ القَولِ بإنكارِ القَدَرِ بصراحَةِ نَوْطِ الجزاءِ بالعَمَلِ؛ فإسنادُ العَمَلِ إليهم ينفي الجبْرَ، ونَوْطُ الجزاءِ به يُثْبِت القَدَر؛ الذي هو جعْلُ شيءٍ مُرَتَّبًا على شيءٍ آخَرَ، مُقَدَّرًا بقَدْرِه، وليس خَلْقًا أُنُفًا، أي مُبتدَأً ومُستأنَفًا(٥).

١٩- قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في هذه الآيَةِ عِدَّةُ تشريفاتٍ لِمَن عَنَاهم الله بالآيةِ:

النوع الأول: قولُه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهذا يوجِبُ الحَصْرَ؛ فمعناه: لهم دارُ السَّلامِ لا لغَيْرِهم.

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص:٩٥-٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧- ٣٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥٤).

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدلُّ على قُرْبِهم مِنَ اللهِ تعالى.

النوع الثالث: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ وهذا يدلُّ على قُرْبِ اللهِ منهم(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآيةِ التَّشبيهُ التمثيليُّ، ووجهُ الشَّبَه فيه صورةٌ منتَزَعةٌ من متعدِّدٍ، وهذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى لحالِ المؤمِنِ والكافِرِ؛ فبيَّنَ أنَّ المؤمِنَ المهتديَ بمنزلةِ من كان مَيتًا فأحياه، وأعطاه نورًا يهتدي به في مصالحه، وأنَّ الكافِرَ بمنزلَةِ مَن هو في الظُّلماتِ منغمِسٌ فيها، وإنَّما ائتلفَتْ هذه الأجناسُ المختلفةُ، وتصادَفَتْ هذه الأشياءُ المُتباينةُ للتَّمثيلِ على حُكمِ المشبَّه؛ لأنَّه رُوعِي فيها ما يَستحضِرُ العقلُ، وما تَتعلَّقُ به البصيرةُ، والتروِّي في الأمْر، لا ما يَحضُر العينَ، أو يُنال بمُجرَّدِ الرُّؤية(٢).

- ولقد جاء التَّشبيه بديعًا؛ إذ جَعَل حالَ المُسلِم، بعد أن صار إلى الإسلامِ، كحالِ مَن كان عديمَ الخيرِ، عديمَ الإفادَةِ كالميِّت، وهو في ظُلمةٍ لو أفاق لم يَعْرِفْ أين ينصَرِفُ، فإذا هداه اللهُ إلى الإسلامِ تَغَيَّر حالُه، فصار يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطِلِ، ويعلَمُ الصَّالِحَ من الفاسِدِ، فصار كالحيِّ، وصار يسعى إلى ما فيه الصَّلاحُ، ويتنكَّبُ عن سبيلِ الفسادِ، فصار في نورٍ يمشي به في النَّاسِ(٣).

- والهمزة في قوله: ﴿أَوَمَنْ﴾ للاستفهامِ المستعمَلِ في إنكارِ تماثُلِ الحالتينِ: **فالحالةُ الأولى:** حالةُ الَّذين أَسْلَموا بعد أنْ كانوا مُشركينَ، وهي المشَبَّهة

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢١٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٤).

بحالِ من كان مَيْتًا مُودَعًا في ظلماتٍ، فصار حيًّا في نورٍ واضحٍ، وسار في الطَّريقِ الموصِلَة للمَطْلوبِ بين النَّاسِ، والحالة الثانية: حالةُ المُشرِك، وهي المشبَّهة بحالةِ مَن هو في الظُّلماتِ ليس بخارجٍ منها؛ لأنَّه في ظُلُماتٍ[1].

- قوله: ﴿يَمْشِي بِهِ﴾ الجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأَ من الكلامِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يصنعُ بذلك النُّورِ؟ فقيل: يمشي به[2].

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ التَّمثيلَ المذكورَ قَبْلَها يُثيرُ في نفسِ السَّامِعِ سؤالًا؛ أن يقول: كيف رَضُوا لأنفُسِهم البقاءَ في هذه الضَّلالاتِ، وكيف لم يَشْعُروا بالبَوْن بين حالِهم وحالِ الَّذين أَسْلَموا؟ فكان حقيقًا بأن يُبَيَّنَ له السَّببُ في دوامِهم على الضَّلالِ، وهو أنَّ ما عَمِلوه كان تُزَيِّنُه لهم الشَّياطينُ[3].

٢- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تَشبيهٌ؛ حيث شبَّه أكابرَ المجرمينَ مِن أهْلِ مكَّةَ في الشِّرْك بأكابرِ المجرمينَ في أهْلِ القُرى في الأُمَم الأخرى[4].

- وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتراضٌ على سبيلِ الوَعدِ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، والوعيدِ للكَفَرةِ[5]، وقد جيء بصيغَةِ القَصْرِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَلْحَقُه أذًى ولا ضُرٌّ مِن صَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعِه، ويلحَقُ الضُّرُّ الماكرينَ؛ في الدُّنيا: بعذابِ القَتْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠)- يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦ - ٤٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٢).

والأَسْرِ، وفي الآخرة: بعذابِ النَّارِ إن لم يؤمِنوا؛ فالضُّرُّ انحصَرَ فيهم على طريقةِ القَصْرِ الإضافيِّ، وهو قَصْرُ قلبٍ(١).

- وفيه تسليةٌ لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ حالُه في أنْ كان رؤساءُ قومِه يُعادونَه كما كان في كلِّ قريةٍ مَن يعانِدُ الأنبياءَ، وفيه تقديمُ مَوعِدٍ بالنُّصْرَةِ عليهم(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ اسمَ الجلالةِ في قوله: ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ إيذانًا بعظيمِ ما اجترَؤوا عليه؛ لِعَماهم عمَّا للرُّسُلِ من الجلالِ الذي يخضَعُ له شوامِخُ الأنوفِ؛ أعادَها أيضًا تهويلًا للأَمْرِ، وتنبيهًا على ما هناك من عظيمِ القَدْرِ، فقال ردًّا عليهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ...﴾ الآية(٣).

- قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيه: استئنافٌ للرَّدِّ والإنكارِ عليهم بأنَّ النبوَّةَ ليست بالنَّسَبِ والمالِ، وإنَّما هي اصطِفاءٌ من اللهِ تَعالى؛ يخصُّ الله سبحانه وتعالى بها من يشاءُ مِن عباده، فيَجْتبي لرسالاتِه مَن عَلِمَ أنَّه يَصْلُح لها، وهو أعلَمُ بالمكانِ الذي يَضَعُها فيه منهم(٤).

وفيه: تعريضٌ بأنَّ أمثالَهم ليسوا بأهْلٍ لحملِ الرِّسالة(٥).

٤- قوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿لِيَمْكُرُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٤).

فِيهَا﴾ وهو وعيدٌ لهم على مَكْرِهم[١].

- وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ في قوله: ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: سيُصيبهم صَغارٌ، وإنَّما خُولِفَ مُقتَضى الظَّاهِرِ، فأُتِيَ بالموصولِ؛ للإشعارِ بأنَّ إصابةَ ما يُصيبُهم؛ لإجرامِهم المستَتْبِعِ لجميعِ الشُّرورِ والقبائحِ، أي: إنَّما أصابَهم صَغارٌ وعَذابٌ لإجرامِهم[٢].

- والسِّينُ في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾ للتَّأكيدِ[٣].

- وعَلَّقَ الإصابةَ بِمَن أجرَمَ؛ ليَعُمَّ الأكابِرَ وغَيرَهم[٤].

٥- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾

فيه إِتْباعُ الضِّيقِ بالحَرَجِ؛ لتأكيدِ معنى الضِّيقِ؛ لأنَّ في الحَرَجِ من معنى شِدَّةِ الضِّيقِ ما ليس في (ضَيِّق)[٥].

- وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ مُثِّلَ حالُ المُشرِك حين يُدْعَى إلى الإسلامِ، أو حين يخلو بنَفْسِه، فيتأمَّل في دعوةِ الإسلامِ، بحالِ الصَّاعِدِ؛ فإنَّ الصَّاعِدَ يَضِيقُ تنفُّسُه في الصُّعودِ، فشَبَّهَه مُبالغةً في ضِيقِ صَدْرِه بمَن يُزاوِلُ ما لا يَقدِرُ عليه؛ فإنَّ صُعودَ السماءِ مَثَلٌ فيما يَبعُدُ عن الاستطاعةِ، ونبَّه به على أنَّ الإيمان يمتنعُ منه كما يَمتنعُ الصُّعودُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢٢٠-٢٢١).

٦- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ لِمَا قَبْلَه؛ فلذلك فُصِلَ[١]، ووُضِعَ الموصولُ مَوْضِعَ المُضمَر في قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ جَعْلَه تعالى مُعَلَّلٌ بما في حَيِّزِ الصِّلَة من كمالِ نُبُوِّهم عن الإيمانِ، وإصرارِهم على الكُفْرِ[٢].

- وجيء بالمضارعِ في قوله: ﴿يَجْعَلُ﴾ لإفادةِ التجدُّدِ في المستقبلِ؛ أي: هذه سُنَّةُ اللهِ في كُلِّ من ينصَرِفُ عن الإيمانِ، ويُعْرِضُ عنه[٣].

٧- قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ تمثيلٌ لحالِ هَدْيِ القُرآنِ بالصِّراطِ المستقيمِ، الذي لا يُجْهِدُ مُتَّبِعَه، وتمثيلُ الإسلامِ بالصِّراطِ المستقيمِ يتضَمَّنُ تمثيلَ المسلمِ بالسَّالِك صِراطًا مستقيمًا[٤].

- وإضافَةُ الصِّراطِ إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ لتَعظيمِ شَأنِ المُضافِ، فيُعْلَم أنَّه خيرُ صراطٍ[٥].

- وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضميرِ الرَّسولِ في قولِه: ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ فيه: تشريفٌ للمُضافِ إليه، وترضيةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بما في هذا السَّنَنِ مِن بقاءِ بَعضِ النَّاسِ غَيْرَ مُتَّبِعينَ دِينَه[٦].

- وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حالٌ مِنْ ﴿صِرَاطُ﴾ مؤكِّدةٌ لمعنى إضافَتِه إلى اللهِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٢).

٨- قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ استئنافٌ، وفذلَكةٌ لِمَا تَقَدَّم[١].

٩- قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الجملةُ إمَّا مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الثَّناءَ عليهم بأنَّهم فُصِّلَت لهم الآياتُ، ويتَذَكَّرون بها؛ يثيرُ سؤالَ من يسألُ عن أثَرِ تَبْيينِ الآياتِ لهم، وتذَكُّرِهم بها، فقيل: لهم دارُ السَّلامِ، وإمَّا صِفَةٌ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢].

- والعدولُ عن إضافَةِ قَولِه: ﴿عِنْدَ﴾ لضَميرِ المتكَلِّم إلى إضافَتِه للاسْمِ الظَّاهِرِ في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ لقَصْدِ تشريفِهم بأنَّ هذه عطِيَّةُ مَن هو مولاهُم[٣].

- وقوله: ﴿دارُ السَّلامِ﴾ أي: دارُ الله، يعني الجنَّة؛ أضافَها إلى نَفْسِه تعظيمًا لها، أو دار السَّلامَة من كلِّ آفةٍ وكَدَرٍ[٤].

- وتقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ لإفادَةِ الاختصاصِ للقومِ الَّذين يذَّكَّرون لا لِغَيْرِهم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٣).

الآيات (١٢٨-١٣١)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَا مَعْشَرَ﴾: المعشَرُ: كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ، وأصْلُ (عشر): يدلُّ على مُداخَلَة ومخالَطَةٍ(١).

﴿مَثْوَاكُمْ﴾: أي: مَنْزِلُكم، وأصْل الثَّواء: الإقامةُ مع الاستقرارِ، يُقال: ثوَى يثوي ثواءً(٢).

﴿نُوَلِّي﴾: أي: نَجعلُ بعضَهم لبعضٍ وليًّا على الكُفرِ بالله، وأصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَليُّه(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤،٣٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

﴿يَقُصُّونَ﴾: يُخبِرونكم، والقَصَص: الأخبارُ المتتبَّعَةُ، والأثَرُ؛ وأصْلُ القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيءِ[١].

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أي: أصابتْ غِرَّتَهم، ونالَتْ منهم ما تريدُه، وخَدَعتْهم عن الأخْذِ بنَصيبِهم من الآخِرَةِ حتى أتتْهم المنِيَّةُ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقَظَة، وأصلُ ذلك من الغُرِّ، وهو الأثرُ الظاهر مِن الشَّيْءِ، وأَصْلُ (غرر) يدلُّ أيضًا على النُّقْصانِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ يَحْشُر اللهُ هؤلاء المشركينَ مع أوليائِهم مِن شَياطينِ الجِنِّ؛ فيقولُ اللهُ تعالى للجِنِّ: قد استكثَرْتُم من إضلالِ الإنسِ وإغوائِهم، وقال أولياءُ الجِنِّ مِنَ الإنْسِ: ربَّنا تمتَّعَ بعضُنا ببعضٍ؛ فالجنيُّ تمتَّعَ بطاعةِ الإنسيِّ له، وعبادَتِه وتعظيمِه، والإنسيُّ تمتَّعَ بخِدمةِ الجنيِّ له، وتلبيةِ بعض أغراضِه وشَهَواتِه، وبَلَغْنا الوقتَ الذي وَقَّتَّه لنا يا رَبَّنا. قال اللهُ لهم: إنَّ النَّارَ هي مُستَقَرُّكم، خالدينَ فيها إلَّا ما شاءَ الله؛ إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- حكيمٌ عليمٌ، وكذلك يُوَلِّي اللهُ جلَّ وعلا بعضَ الظَّالِمينَ بعضًا بما كانوا يَكْسِبونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه يقولُ يومئذٍ: يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ، ألَمْ يَأْتِكم رسُلٌ منكم يتلُونَ عليكم آياتي، ويُنْذِرونكم لقاءَ يومِكم هذا؟ قالوا: أَقْرَرْنا بأنَّها جاءَتنا فكذَّبْناها وجَحَدْناها، وبَيَّنَ تعالى أنَّ الحياةَ الدُّنيا غَرَّتْهم وخَدَعَتْهم، وشَهِدُوا على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ.

وأخبر أنَّ ذلك الإنذارَ والإعذارَ مِن قِبَل الرُّسُل في الدُّنيا واقِعٌ؛ مِن أجْلِ أنَّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤).

الله تعالى لم يكُنْ لِيُهْلِكَ القرى بسبَبِ كُفْرِها ومعاصِيها، مع كونِهم لم يُنَبَّهُوا برسولٍ ولا كتابٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ حالَ مَن يَتَمَسَّكُ بالصِّراط المستقيم؛ بَيَّنَ بَعْدَه حالَ من يكونُ بالضِّدِّ من ذلك؛ لِتكُونَ قِصَّةُ أهلِ الجنَّة مُرْدَفةً بقصَّةِ أهل النَّارِ، ولِيَكونَ الوعيدُ مذكورًا بعد الوعدِ(١).

وأيضًا لَمَّا اشتمَلَ سياقُ الآياتِ السَّابقةِ لهذه الآياتِ على وعيدٍ بما أعَدَّ اللهُ من العذابِ للمُجرمينَ، ووعْدٍ بالنَّعيم في دارِ السَّلامِ للمؤمنينَ في إثْرِ بيانِ أحوالِهم وأعمالِهم التي استحَقَّ بها كلٌّ منهما جزاءَه- رَبَطَ ذلك بحقيقةِ الجزاءِ في الآخِرَةِ على الكَسْبِ في الدُّنيا بعد النِّذارَةِ والبِشارة؛ فقَفَّى بذِكْر الحَشْرِ، وبعْضِ ما يكون في يوْمِه من الحِسابِ، وإقامةِ الحُجَّةِ على الكُفَّار(٢)، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

أي: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ يَحْشُرُ الله عزَّ وجلَّ هؤلاءِ المشركينَ مع أوليائِهم من الشَّياطينِ الَّذين كانوا يعبدونَهم في الدُّنيا، ويَعُوذون بهم ويُطيعُونهم، ويُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غرورًا؛ لِيُجادِلوا به المؤمنينَ، فيَجْمَعُهم سبحانه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٢٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسر المنار)) (٨/ ٥٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٠٦).

وتعالى جميعًا في موقِفِ القيامةِ(١).

ثم يقولُ الله تعالى مُوَبِّخًا للجِنِّ الَّذين أضَلُّوا الإنسَ، وزَيَّنوا لهم الشَّرَّ، وأزُّوهُم إلى المعاصِي:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾.

أي: قد استكثرتم أيُّها الشَّياطينُ من إضلالِ الإنسِ، وإغوائِهم، وصَدِّهم عن سبيلِ الله، فأَضْلَلْتُم منهم أعدادًا طائلةً(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٩-٢٣١).

قال الشنقيطيُّ: (والتحقيقُ: أنَّ الله يكلِّم الكفَّار كلامَ توبيخٍ وتقريعٍ، الذي هو من جنسِ العذابِ، كقولِه لَمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] لأنَّ هذا التكليمَ لهم ليس تكليمَ تشريفٍ، إنَّما هو تكليمُ توبيخٍ وتقريعٍ، وهو مِن أنواعِ عذابِه لهم، ولا مانعَ منه) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٢٩).

أي: وقال أولياءُ الجِنِّ مِن الإنْسِ، وهم الَّذين كانوا يتَّبِعون تشريعَ الشَّياطينِ لهم في الدُّنيا، أو يطاوِعُونهم فيما زَيَّنوا لهم من الكُفْرِ وأنواعِ المعاصي: يا رَبَّنا، قد تمتَّعَ وانتفَعَ بعضُنا ببعضٍ في الدُّنيا؛ فالجنيُّ يستمتِعُ بطاعةِ الإنسيِّ له وعبادَتِه، وتعظيمِه، واستعاذَتِه واستعانَتِه به، وإعانَةِ الإنسيِّ على إضلالِ النَّاسِ، والإفسادِ في الأرضِ؛ والإنسيُّ يتمتَّعُ بخدمة الجنيِّ له، وتلبيةِ بعضِ أغراضِه وشهواتِه[1].

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

أي: استمتَعَ بعْضُنا ببعضٍ أيَّامَ حياتِنا الدُّنيا إلى أنْ بَلَغْنا الوَقْتَ الذي وُقِّتَ لِمَوتِنا[2].

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: قال اللهُ لأولياءِ الجِنِّ مِنَ الإِنْسِ: نارُ جهنَّمَ هي المحلُّ الذي تقيمونَ فيه أبدًا، إلَّا من شاءَ الله عَدَمَ خُلودِه، وهم العصاةُ من المؤمنينَ الموحِّدينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٨٠-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

والقولُ بأنَّ الأجلَ هو الموتُ، هو اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٥٦)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ٨٤)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٢٤٤)، وهو قول السدِّيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦).

والقول بأنَّ الأجل هو البعثُ والقيامة، هو اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٢٣)، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٣)، وابنِ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٨-أ/ ٧٠).

وذهب ابنُ القيِّم إلى حملِ الآيةِ على كلا القولينِ فقال: (...﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناولُ أجلَ الموتِ، وأجلَ البعثِ. فكلاهما أجلٌ أجلَّه الله تعالى لعبادِه) ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٩) (٤/ ٣٥١-٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

وقيل في معنى الاستثناءِ هنا أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧١). =

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا الحُكمُ في قولِه تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مِن مُقتَضى حِكْمَته وعِلمِه- ناسَبَ ذلك خَتْمُ الآيةِ بقَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أنَّ عِلْمَه وَسِعَ الأشياءَ كُلَّها وعَمَّها، فحِكْمَتُه الغائيَّةُ شَمِلَت الأشياءَ وعَمَّتْها ووَسِعَتْها(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- حكيمٌ، يَضَعُ الأمورَ في مواضِعِها اللَّائقةِ، ويُوقِعُها في مواقِعِها الصَّحيحة، ومن ذلك أنَّه لا يُعَذِّبُ إلَّا مَن يستَحِقُّ، وقد وَسِعَ عِلْمُه وشَمِلَ الأشياءَ كُلَّها؛ ومن ذلك عِلمُه بالأشخاصِ والأحوالِ المستحِقَّة للعقابِ(٢).

= قال ابنُ عاشورٍ: (ولك أن تجعَلَ (ما) على هذا الوجهِ مَوصولةً، فإنَّها قد تُستعمَلُ للعاقِلِ بكثرةٍ. وإذا جُعِلَ قَولُه: ﴿خَالِدِينَ﴾ مِن جُملةِ المَقولِ في الحَشرِ، كان تأويلُ الآيةِ: أنَّ الاستثناءَ لا يُقصَدُ به إخراجُ أوقاتٍ ولا حالةٍ، وإنما هو كنايةٌ، يُقصَدُ منه أنَّ هذا الخُلودَ قَدَّرَه اللهُ تعالى، مُختارًا لا مُكرِهَ له عليه، إظهارًا لتمامِ القُدرةِ ومَحضِ الإرادةِ، كأنَّه يقولُ: لو شِئتُ لأبطَلْتُ ذلك. وقد يُعَضِّدُ هذا بأنَّ اللهَ ذَكَر نظيرَه في نعيمِ أهلِ الجَنَّةِ، في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٨] فانظُرْ كيف عَقَّبَ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في عِقابِ أهلِ الشَّقاوةِ، بقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾! وكيف عَقَّبَ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في نَعيمِ أهلِ السَّعادةِ بقَولِه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، فأبطَلَ ظاهِرَ الاستثناءِ بقَولِه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ فهذا معنى الكنايةِ بالاستثناءِ، ثمَّ المصيرُ بعد ذلك إلى الأدلَّةِ الدَّالةِ على أنَّ خُلودَ المُشركينَ غَيرُ مَخصوصٍ بزَمَنٍ ولا بحالٍ، ويكون هذا الاستثناءُ مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه) ((التحرير والتنوير)) (٨-أ/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٢-٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٢-٢٥٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه وَلَّى الكَفَرةَ من ظالِمِي الجنِّ، ظالِمِي الإنسِ، وسَلَّطَهم عليهم؛ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا عَمَلُه مع كلِّ ظالمٍ مِن أيِّ قبيلٍ كان، سواءٌ كان كافرًا أو لا(١).

وأيضًا لَمَّا حَكَم تعالى على الجنِّ والإنسِ أنَّ بعضَهم يتولَّى بعضًا؛ في قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ...﴾ بَيَّنَ أنَّ ذلك إنَّما يحصُلُ بتقديرِه وقضائِه سبحانه؛ فقال(٢):

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

قيل: المعنى: وكما جعَلْنا بعضَ هؤلاءِ المشركينَ من الجِنِّ والإِنْسِ أولياءَ، كذلك نولِّي كلَّ ظالمٍ ظالِمًا مِثلَه، يَؤُزُّه إلى الشَّرِّ، ويُزَهِّدُه في الخَيْرِ؛ بسببِ ما كانُوا يعملونَه منَ المعاصِي(٣).

وقيل: المعنى: وكما وَلَّيْنا هؤلاءِ الخاسرينَ من الإِنْسِ تلك الطَّائفةَ التي أغْوَتْهم من الجِنِّ فاستمتَعَ بعضُهم ببعضٍ، كذلك نفعَلُ بالظَّالمينَ، فنُسَلِّط بعضَهم على بعضٍ، ونُهْلِك بعضَهم ببعضٍ؛ جزاءً على ظُلْمِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٩).

(٣) واختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٥٩)، والواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧٥)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٣-٢٧٤). وهو مرويٌّ عن قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٨).

(٤) واختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٣٤٠). ورُوي نحوه عن ابنِ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٣-٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦-٢٦٠).

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا انقضت المحاورةُ السَّابقةُ وما أنتجَتْه من بغيضِ الموالاةِ والمجاورةِ، وكان حاصِلُها أنَّها موالاةُ مَن ضَرَّت مُوالاتُه؛ أتبَعَها سبحانه بمحاورةٍ أخرى حاصِلُها معاداةُ مَن ضَرَّت معاداتُه، فذَكَر كُفْرَهم به تعالى، وشهادَتَهم على أنفُسِهم بذلك(١)، فقال:

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾.

أي: يقولُ الله تعالى يومئذٍ: ألم يأتِكم أيُّها الإنسُ والجِنُّ رسلٌ منكم(٢) يقْرَؤونَ عليكم آياتي التي أُنْزِلَت، ويُبيِّنون لكم ما فيها من الأدلَّةِ على توحيدِ الله تعالى، وصِدْق رُسُلِه، وصِحَّة ما جاؤُوا به مِن عِنده، ويُبيِّنون ما فيها من أحكامٍ، ووعدٍ ووعيدٍ(٣).

﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾.

أي: ويحذِّرونكم الأهوالَ والعذابَ الواقِعَ في يومِكم هذا، وعقابي على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧١).

(٢) قال الشنقيطي: (الذي عليه جماهيرُ العلماء، خلفًا وسَلَفًا، أنَّ الرُّسُل جميعَهم إنَّما هم مِنَ الإنس، وإنَّما قال: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ لمجموع الإنسِ والجنِّ؛ نظرًا إلى أنَّ العرب تطلِقُ المجموع وتريد بَعْضَه. أي: مِن مجموعِكم الصَّادق بالإنْسِ دون الجنِّ. وهو كثيرٌ في القرآن، وفي كلام العرب) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٧-٢٧١).

كُفْرِكم وشِرْكِكم بي، ومعصيتِكم لي؛ كي تنتهوا عن ذلك[١].

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا وبَّخَهم الله هذا التوبيخَ، وقَرَّعَهم هذا التقريعَ، أقرُّوا نادمينَ حيث لا ينفَعُ النَّدَمُ؛ فقال الله تعالى عنهم[٢]:

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾.

أي: قالوا: أقْرَرْنا بأنَّ رُسُلَك قد أَتَتْنا بآياتِك، وحَذَّرَتْنا لقاءَ يومِنا هذا، فكَذَّبْناها، وجَحَدْنا رِسالَتَها، ولم نَتَّبِعْ آياتِك، ولم نؤمِنْ بها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١].

ثم بيَّن اللهُ تعالى السَّبَبَ الذي كذَّبوا به الرُّسُلَ، ولم يَعْتَنوا بالإنذارِ؛ فقال[٤]:

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وغَرَّتْ هؤلاءِ المشركينَ وأولياءَهم من الجِنِّ زينةُ الحياةِ الدنيا وزُخْرُفُها وشَهَواتُها، وطَلَبُ الرِّياسةِ فيها، والمنافسةُ عليها، فَرَضُوا واطمَأَنُّوا بها، وألْهَتْهم عن العَمَلِ للدَّارِ الآخِرةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وشَهِدَ هؤلاء المشركونَ في يومِ القيامة أنَّهم كانوا في الدُّنيا كافرينَ باللهِ تعالى وبِرُسُلِه؛ لتَتِمَّ حجَّةُ الله عليهم بإقرارِهم على أنفُسِهم بما يُوجِبُ عليهم عُقوبَتَه، ويَعْلَم حينئذ كلُّ أحدٍ، حتى هم أنفسُهم، عَدْلَ اللهِ تعالى فيهم[1].

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه ما عَذَّبَ الكفَّارَ إلَّا بعد أن بَعَثَ إليهم الأنبياءَ والرُّسُلَ؛ بَيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ هذا هو العدْلُ والحقُّ والواجِبُ[2]، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾.

أي: ذلك الإنذارُ والإعذارُ على ألْسِنَة الرُّسُلِ في دارِ الدُّنيا واقعٌ؛ من أجل أنَّ ربَّك- يا محمَّد- لم يكُنْ لِيُهْلِكَ القرى بكُفْرِها ومعاصِيها، والحالُ أنَّهم غافِلونَ، لم يُنبَّهوا برسولٍ ولا بكتابٍ، بل لابدَّ من إزالةِ الغَفْلَةِ أولًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزال الكُتُبِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٥).
قال الشنقيطي: (ونصَّ على شهادتهم في دار الدنيا بالكُفْرِ أيضًا؛ حيث قال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] وهذه الشهادةُ؛ قيل: هي شهادةُ لسانِ الحال، وقيل أيضًا: شهادةُ مَقالٍ) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

وقال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

الفَوائِد التربويَّة:

١- مِن سنَّة الله تعالى أنَّه يُولِّي كلَّ ظالمٍ ظالِمًا مِثْلَه؛ يَؤُزُّه إلى الشَّرِّ ويَحثُّه عليه، ويُزَهِّده في الخير ويُنَفِّرُه عنه، وذلك من عقوباتِ الله العظيمةِ، الشَّنيعِ أثرُها، البليغِ خَطَرُها، والذَّنبُ ذنبُ الظالمِ؛ فهو الذي أدخَلَ الضَّرَر على نفسِه، وعلى نَفسِه جَنَى؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

٢- ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ الرَّعِيَّةَ متى كانوا ظالمينَ؛ فالله تعالى يُسَلِّطُ عليهم ظالِمًا مِثْلَهم؛ فإنْ أرادوا أن يتخلَّصوا من ذلك الأميرِ الظَّالم، فلْيَتْركوا الظُّلْمَ[2].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المقصودُ من الآيةِ الاعتبارُ والموعظةُ، والتَّحذيرُ من الاغترارِ بولايةِ الظَّالمينَ، وتوَخِّي الأتْباعِ صلاحَ المتبوعينَ، وبيانُ سنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ في العالَمينَ[3].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيه الحَذَرُ من الاغترارِ بالحياةِ الدُّنيا واللَّذات الحاضرةِ؛ فإنَّما قال ذلك تحذيرًا للسَّامعينَ مثلَ حالِهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٩).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ اقتصَرَ على حكايةِ جوابِ الإنسِ؛ لأنَّ النَّاسَ المشركينَ هم المقصودُ مِنَ الموعِظَةِ بهذه الآيةِ(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لَمَّا كان من المقرَّر أنَّه لا تمامَ لِمُلك من يجِبُ عليه شيءٌ، ويَلْزَمُه بإيجابٍ أو إلزامِ غَيرِه، بحيث لا يَقْدِرُ على الانفكاكِ عنه؛ بَيَّنَ سبحانه أنَّ مُلْكَه ليس كذلك، بل هو على غايةِ الكَمالِ، لا يجِبُ عليه شيءٌ إلا ما أوجَبَه على نَفْسِه، بل كلُّ فِعْلِه جميلٌ، وجميعُ ما يبدو منه حَسَنٌ، فعَلَّقَ دوامَ عذابِهم على المشيئةِ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ يُفهَمُ منها كَونُ عَذابِ أهلِ النَّارِ غيرَ باقٍ بقاءً لا انقطاعَ له أبدًا، ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧]، وقولُه تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾[النبأ: ٢٣]، وقد جاءت آياتٌ تدُلُّ على أنَّ عذابَهم لا انقطاعَ له، كَقولِه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

والجوابُ عن هذا مِن أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ معناه: إلَّا مَن شاءَ اللهُ عَدَمَ خلودِه فيها مِن أهلِ الكبائرِ مِنَ المُوحِّدينَ، وقد ثبت في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ بَعضَ أهلِ النَّارِ يَخرُجونَ منها، وهم أهلُ الكبائرِ مِنَ المُوحِّدينَ، ونظيرُه في القُرآنِ: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٦٩)، وهذا على أحدِ الأوجهِ في الاستثناءِ.

الثاني: أنَّ المُدَّةَ التي استثناها اللهُ هي المُدَّةُ التي بين بَعثِهم مِن قُبورِهم واستقرارِهم في مَصيرِهم.

الثالث: أنَّ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ فيه إجمالٌ، وقد جاءت الآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ مُصَرِّحةً بأنَّهم خالدونَ فيها أبدًا، وظاهِرُها أنَّه خُلودٌ لا انقطاعَ له، والظُّهورُ مِن المُرَجِّحاتِ، فالظَّاهِرُ مُقَدَّمٌ على المُجمَلِ كما تقَرَّرَ في الأصولِ[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يدلُّ على تكليفِ الجِنِّ، وتعلُّقِ الأَمْرِ والنَّهيِ بهم، وكذلك تعلُّق الثَّوابِ والعقابِ بهم، كالإنْسِ[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يدلُّ أنَّه لا يُعَذَّبُ أحدٌ حتى يُبعَثَ إليه رسولٌ، فتَبْلُغه الرِّسالةُ، وتقوم الحُجَّة عليه، فمن لم تَبْلُغْه الرسالةُ جملةً لم يُعَذِّبْه رأسًا، ومن بلَغَتْه جملةً دون بعضِ التَّفصيلِ لم يُعَذِّبْه إلا على إنكارِ ما قامت عليه الحُجَّة الرِّساليَّةِ[3].

٦- قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ... وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ لَمَّا كان حالُ هؤلاء الجنِّ والإنْسِ في التمَرُّد على الله، ونَبْذ العَمَل الصَّالح ظِهْريًّا، والإعراضِ عن الإيمانِ؛ حالَ مَن لم يَطْرُقْ سَمْعَه أمرٌ بمعروفٍ ولا نهيٌ عن منكرٍ- جيءَ في تقريرِهم على بَعثةِ الرُّسُلِ إليهم بصيغَةِ الاستفهامِ عن نفيِ مجيءِ الرُّسُل إليهم، حتى إذا لم يَجِدوا لإنكارِ مجيءِ الرُّسُل مَساغًا، واعترفوا بمجيئهم؛ كان ذلك أحرى لأَخْذِهم بالعقابِ[4].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (١ / ٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٧٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٤٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥، ٧٦).

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ لَمَّا كان اللقاءُ يومَ الحَشْرِ يتضمَّنُ خيرًا لأهلِ الخيرِ، وشَرًّا لأهلِ الشَّرِّ، وكان هؤلاء المخاطَبون قد تمحَّضوا للشرِّ- جَعَلَ إخبارَ الرُّسُل إيَّاهم بلقاءِ ذلك اليومِ إنذارًا؛ لأنَّه الطَّرَفُ الذي تحقَّقَ فيهم مِن جملةِ إخبارِ الرُّسُل إيَّاهم ما في ذلك اليومِ وشَرِّه(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ كَرَّرَ ذِكْرَ شَهادَتِهم على أنفُسِهم؛ لاختلافِها باختلافِ المَشْهودِ به: فالأُولى: شهادَتُهم بتبليغِ الرُّسُل إليهم، والثَّانية: شهادَتُهم بكُفْرِهم(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ لا تَنافيَ بينه وبين الآياتِ التي تدلُّ على إنكارِهم؛ كقولِه تعالى حكايةً عن قولِهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لاحتمالِ أن يكونَ ذلك من طوائِفَ: طائفةٌ تَشهَدُ، وطائفة تُنكِرُ، أو من طائفةٍ واحدةٍ؛ لاختلافِ الأحوالِ ومواطِنِ القيامةِ في ذلك اليومِ المتطاوِلِ: فيُقِرُّون في بعضٍ، ويجحدونَ في بعضٍ، وذلكَ يدلُّ على شدَّةِ خَوفِهم، واضطرابِ أحوالِهم؛ فإنَّ مَنْ عَظُمَ خَوفُه كَثُرَ الاضطرابُ في كَلامِه(٣).

١٠- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه لا وجوبَ ولا تكليفَ قبل وُرودِ الشَّرْعِ(٤).

١١- قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ فيه شأنٌ عظيمٌ مِن شُؤونِ الله تعالى، وهو شَأْنُ عَدْلِه ورَحْمَتِه، ورضاه لعبادِه الخيرَ والصَّلاحَ، وكراهِيَته سوءَ أعمالِهم، وإظهارِه أثَرَ ربوبيَّتِه إيَّاهم؛ بهدايَتِهم إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٣٧).

سُبُلِ الخيرِ، وعَدَمِ مُباغَتَتِهم بالهلاكِ قبل التقَدُّمِ إليهم بالإنْذارِ والتَّنبيهِ(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ قرئ بنونِ العَظَمةِ على الالتفاتِ؛ لتهويلِ الأمرِ(٢)، وفيه: تأكيدٌ عامٌّ(٣).

٢- قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذف؛ إذ إنَّ الجملة مقولٌ لقولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه أسلوبُ الكلامِ، والتقديرُ: نقولُ أو قائلينَ(٤)، ونداؤهم نداءُ شهرةٍ وتوبيخٍ على رؤوسِ الأشهادِ(٥).

وفيه: تعريضٌ بتوبيخِ الإنسِ الَّذين اتَّبَعوهم وأَطاعُوهم، وأَفْرَطوا في مَرْضاتهم، ولم يسمَعوا مَن يدعوهم إلى نَبْذِ مُتابَعَتِهم(٦).

- وقوله: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، تقديرُه: منْ إضلالِ الإنس(٧)، وفيه: التوبيخُ والتقريعُ للجِنِّ والإنكارُ عليهم، أي: كان أكثرُ الإنسِ طَوْعًا لكم(٨).

٣- قوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ فيه: استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نَشَأَ من حكايةِ كَلامِهم؛ كأنَّه قيل: فماذا قالَ الله تعالى حينئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾(٩).

- وقوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ فيه: مجيءُ القولِ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٧).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).
(٩) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٥).

على تحقيقِ وُقوعِه، وهو مُستقبَلٌ؛ بقرينَةِ قولِه: ﴿يَحْشُرُهم﴾[1].

٤- قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مِن أشَدِّ الوعيدِ، مع تهكُّمٍ بالموعدِ؛ لخروجِه في صورةِ الاستثناءِ الذي فيه إطماعٌ[2].

٥- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيه: تذييلٌ للاعتراضِ، وتأكيدٌ للمقصودِ من المشيئةِ مِن جَعْل استحقاقِ الخلودِ في العذابِ مَنُوطًا بالمُوافاةِ على الشِّرْكِ[3].

٦- قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ هذا النِّداءُ أيضًا يومَ القيامَةِ، والهمزةُ الداخِلَةُ على نَفْي إتيانِ الرُّسُلِ في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ للإنكارِ التَّقريريِّ، وللتَّوبيخِ والتقريعِ[4]، حيث أعذَرَ اللهُ إليهم بإرسالِ الرُّسُلِ، فلم يَقْبَلوا منهم[5].

- وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فيه تبكيتُ المشركينَ، وتحسيرُهم على ما فَرَطَ منهم في الدُّنيا من عبادَةِ الجِنِّ، أو الالتجاءِ إليهم[6].

٧- قوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نَشَأَ من الكلامِ السَّابقِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك التَّوبيخِ الشَّديدِ؟ فقيل: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾[7].

٨- قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ اعتراضٌ لبيانِ ما أدَّاهم في الدُّنيا إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٢-٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٧-٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٦).

ارتكابِهم للقَبائِحِ التي ارتكَبوها، وألجَأَهم بعد ذلك في الآخِرَةِ إلى الاعترافِ بالكُفْرِ، واستيجابِ العذابِ[١].

٩- قوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ يحتملُ أن يكون استئنافَ إخبارٍ من الله تعالى بإقرارِهم على أنفُسِهم بالكُفْرِ[٢].

- قوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالِهم[٣].

١٠- قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، تهديدٌ وموعظةٌ، وعِبرةٌ بتفريطِ أهْلِ الضَّلالةِ في فائدةِ دعوةِ الرُّسُلِ، وتنبيهٌ لجدوى إرسالِ الرُّسُل إلى الأُمَمِ؛ ليُعِيدَ المشركونَ نظرًا في أَمْرِهم، وإنذارٌ باقترابِ نُزُولِ العذابِ بهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٠).

الآيات (١٣٢-١٣٥)

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾: أي: يأتِ بِخَلْقٍ وأُمَمٍ يَخْلُفونَ غيرَهم في الأرضِ، والخِلافةُ النِّيابةُ عن الغَيرِ؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأَصْلُ (خلف): مجيءُ شيءٍ بعدَ شيء يقومُ مقامَه[1].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: مكانِكم، أو مواضِعكم، أو ناحِيَتِكم، أو ما أنتم عليه[2].

﴿يُفْلِحُ﴾: أي: يظْفَرُ ويُدرِكُ بُغْيتَه؛ فأصل الفَلَاح: الظَّفَرُ، وإدراكُ البُغية، والبقاءُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ لكُلِّ النَّاسِ منازِلَ ومراتِبَ في الآخِرَةِ، يستحقُّونها بحَسَبِ أعمالِهم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ولا يخفى على اللهِ من أعمالِ البَشَرِ شيءٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

ثم خاطب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قائلًا له: وربُّك- يا مُحمَّدُ- هو الغنيُّ ذو الرَّحمةِ؛ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكم- أيُّها النَّاسُ- ويستخلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ، يعملونَ بطاعَتِه؛ كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ قومٍ آخرينَ كانوا قَبلَكم.

ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ ما يتوعَّدُ به عزَّ وجلَّ المشركينَ مِن العذابِ؛ فإنَّه آتٍ لا محالةَ، وما هم بمُعجزينَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُخبِرَ قَومَه مِن مُشْركي قريشٍ إذا دعاهم إلى اللهِ فلم يَنْقادُوا لدَعْوَتِه: أنْ يَعْمَلوا ما هم عامِلونَ على حالَتِهم التي هُم عليها، وارتَضَوْها لأنفُسِهم، وأنَّه عامِلٌ بما أمَرَه ربُّه، وأنَّهم سَوْفَ يعلمونَ عند نزولِ نِقْمةِ اللهِ بهم، أيُّهم أصابَ طريقَ الهُدى، فتكون له العاقبةُ الحسَنَةُ في الدُّنيا والآخرة؛ أهمُ المؤمنونَ، أم المشركونَ، فإنَّه لا يُفلِحُ الظَّالمونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا شَرَحَ تعالى أحوالَ أهلِ الثَّوابِ والدَّرَجاتِ، وأحوالَ أهلِ العقابِ والدَّرَكات، في الآياتِ السَّابقة؛ ذكر كلامًا كليًّا، فقال[1]:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾.

أي: ولكُلِّ النَّاسِ: كافرينَ ومُؤمنينَ، طائعينَ وعاصينَ؛ منازِلُ ومراتِبُ في الآخرةِ، يستحِقُّونها بحسَبِ أعمالِهم؛ يُبَلِّغُهم اللهُ تعالى إيَّاها، ويُثيبُهم بها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشَرٌّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤)، ((جامع رسائل)) لابن تيمية (١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩٨).

قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وكلُّ ما يعمَلُه النَّاسُ - يا مُحمَّدُ - لا يخفى على ربِّك؛ فهو يعلَمُ أعمالَهم، ويُحْصِيها عليهم، ويُثْبِتُها لهم عِنْدَه؛ ليُجازِيَهم بها يومَ القيامةِ، وذلك بحَسَب أعمالِهم ومقاصِدِهم من خيرٍ أو شرٍّ[1].

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى ثَوابَ أصحابِ الطَّاعاتِ، وعقابَ أصحابِ المعاصي والمحرَّمات، وذَكَرَ أنَّ لكلِّ قومٍ درجةً مخصوصةً، ومرتبةً مُعيَّنةً - بيَّنَ أنَّ تخصيصَ المُطيعينَ بالثَّوابِ، والمُذنبينَ بالعذابِ؛ ليس لأجْلِ أنَّه مُحتاجٌ إلى طاعةِ المُطيعينَ، أو ينتقِصُ بمعصيةِ المُذنبينَ، فطَلَبُ العبادةِ للائتمارِ والانتهاءِ ربَّما أوهَمَ الحاجَةَ إليها؛ لنَفْعٍ في الطَّاعَةِ، أو ضَرَرٍ يلحَقُه سبحانه من المعْصِيَةِ، وكان الإمهالُ مع المبارَزَة ربَّما ظُنَّ أنَّه عن عجزٍ، فقال تعالى مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا[2]:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾.

أي: وربُّك - يا مُحمَّد - غنيٌّ عن عبادِه، وعن أعمالِهم وعبادَتِهم إيَّاه؛ فلا تنفَعُه طاعةُ الطَّائعينَ، كما لا تَضُرُّه معصيةُ العاصينَ، وهم الفقراءُ المحتاجونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٥).

إليه؛ فلم يخْلُقْهم، ولم يأمُرْهم بما أمَرَهم به، وينْهَهم عمَّا نهاهم عنه؛ لحاجةٍ إليهم وإلى أعمالِهم، ولكنْ ليتَفَضَّلَ عليهم برَحْمَتِه، ويُثيبَهم على إحسانِهم إنْ أَحْسَنوا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّهُ قال: ((... يا عبادِي، إنَّكم لن تبلُغُوا ضُرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبْلُغوا نَفْعِي فتنفَعوني. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم؛ كانوا على أتقى قَلْبِ رجلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلْكي شيئًا. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم؛ كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلْكِي شيئًا...))[2].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

أي: إنْ يشَأْ يُذْهِبْكم- أيُّها النَّاسُ- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا خالَفْتُم أمْرَه، ويستخْلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ؛ يعملونَ بطاعَتِه، فهو قادِرٌ على ذلك سبحانه[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤-٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٠-٣٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٨٨).

الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾.

أي: كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ خَلْقٍ آخرينَ كانوا قبْلَكم؛ فكما أذْهَبَ القرونَ الأُولَى، وأتى بالتي بَعْدَها؛ كذلك هو قادرٌ على إذهابِكم، والإتيانِ بآخَرينَ(١).

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّ الله تعالى بعدَ أنْ أَنذَرَهم عذابَ الدُّنيا وهلاكَهم فيها؛ أنذَرَهم عذابَ الآخرةِ، على سُنَّةِ القرآنِ في الجمْعِ بينهما(٢)، فقال تعالى:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾.

أي: إنَّ الذي يُوعِدُكم به ربُّكم- أيُّها المشركون- من العذابِ والتَّنكيلِ على كُفْرِكم؛ واقعٌ بكم لا مَحالةَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٨).

قال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ يَحتمِل أن يكون مِن« أَوْعَدْت» في الشَّرِّ، والمصدر الإيعادِ. والمراد عذابُ الآخرة. ويحتَمِل أن يكون مِن« وَعَدْت» على أن يكون المرادُ السَّاعة التي في مجيئِها الخيرُ والشَّرُّ، فغُلِّبَ الخيرُ) ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٨٨).

وقال ابن عاشور: (ومِن بديعِ الفصاحةِ اختيارُ بنائِه للمجهول؛ ليصْلُحَ لفظُه لحال المؤمنين والمشركين، ولو بُنِيَ للمعلومِ لتَعَيَّن فيه أحدُ الأمرينِ: بأن يقال: إنَّ ما نَعِدُكم، أو إنَّ ما نُوعِدُكم، وهذا من بديعِ التوجيهِ المقصودِ منه أن يأخُذَ منه كلُّ فريقٍ من السَّامعينَ ما يليقُ بحالِه، ومعلومٌ أنَّ وعيدَ المشركينَ يَستلزِمُ وعدًا للمؤمنين، والمقصودُ الأهَمُّ هو وعيدُ المشركين؛ فلذلك عُقِّبَ الكلامُ بقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، فذلك كالتَّرشيحِ لأحد المحتَمَلينِ من الكلامِ الموجَّه) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٨).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

أي: ولن تُعجِزوا اللهَ تعالى هربًا منه في الأرضِ؛ فتَفُوتُوه، بل أنتم في قَبْضَتِه، وتحت قَهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَ فيكم ما يشاءُ مِن وَعيدِه[1].

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لقومِك مِن مُشرِكي قريشٍ إذا دعَوْتَهم إلى اللهِ، وبَيَّنْتَ ما لهم وما عليهم من حُقوقِه، فامتَنَعُوا من الانقيادِ لأمْرِه، واتَّبَعوا أهواءَهم، واستَمَرُّوا على شِرْكِهم: اعملوا- يا قومي- ما أنتم عامِلونَ، على حالَتِكم التي أنتم عليها، ورَضِيتُموها لأنفُسِكم؛ فإنِّي عامِلٌ ما أنا عامِلُه مِمَّا أَمَرَني به ربِّي، ومُتَّبِعٌ لمراضِيه؛ فاستَمِرُّوا على طريقِكم وناحِيَتِكم، إن كُنْتم تظنُّونَ أنَّكم على هُدًى، وأنا مستمِرٌّ على طريقَتي ومنهَجي، ولا يَضُرُّني تصميمُكم على ما أنتم عليه[2].

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

أي: فسوف تَعْلَمونَ- أيُّها الكُفَّارُ- عند نزولِ نِقْمةِ الله بكم: أيُّنا كان المحِقَّ في عَمَلِه، والمصيبَ طريقَ الهدى، فتكون له العاقبةُ الحَسَنَة في الدُّنيا والآخرةِ، أتكونُ لنا نحن المؤمنينَ، أو لكم أيُّها المشركونَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١-٩٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا ينجَحُ ولا يفوزُ بحاجَتِه عند الله، مَن عَمِلَ بخلافِ ما أَمَرَه به في الدُّنيا؛ فكُلُّ ظالمٍ وإن تَمَتَّع في الدُّنيا بما تمتَّعَ به، فنهايَتُه إلى زوالٍ واضمحلالٍ[1].

والمراد: ستكونُ عُقبى الدَّارِ للمُسلمينَ، لا لكم؛ لأنَّكم ظالِمونَ[2].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالمِ[3]، حتى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٣).
(٣) أي: يُمهِلُه ويؤخِّرُه حتى يكثُرَ منه الظُّلْمُ. والإملاءُ: الإمهالُ والتَّأخيرُ، وإطالةُ العُمُرِ؛ مأخوذٌ =

رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾))[١].

الفَوائد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ يبُثُّ التَّثبيتَ والطُّمأنينةَ والثِّقَةَ في قلوبِ العُصبَةِ المُسْلِمَة، التي تلْقَى العَنَت مِن كَيْد الشَّياطينِ ومَكْرِهم، ومِن أذى المجرمينَ وعدائِهم؛ فهؤلاء هم في قبضَةِ اللهِ، ضعافٌ حتى وهم يتجبَّرون في الأرضِ ويمكُرونَ[٢].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الجِنَّ يدخُلونَ الجنَّةَ ويُثابونَ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فيه أنَّ الخيرَ والشَّرَّ درجاتٌ؛ فالكُفْرُ والفُسوقُ والمعاصي درجاتٌ، كما أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ درجاتٌ[٤].

٣- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ غلَّب لفظَ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ بدلًا عن دَرَكاتٍ؛ لِنُكتةِ الإشعارِ ببِشارَةِ المؤمنينَ بعد نِذارَةِ المُشركينَ[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ ناسَبَ قولَه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ فقد كان يجوزُ أنْ يَظُنَّ ظانٌّ أنَّه وإن كان ذا الرَّحمةِ إلَّا أنَّ لرَحْمَتِه مَعْدِنًا مخصوصًا، وموضعًا مُعَيَّنًا؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه قادِرٌ على وضْعِ

= مِنَ المُلاوَةِ، وهي الحِينُ من الدَّهْرِ. ومنه (المَلِيُّ) الزَّمانُ الطَّويلُ، و(المَلَوانِ) اللَّيل والنَّهارُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٦٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٠٠).

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢١٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٨٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢١).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٤).

الرَّحمةِ في هذا الخَلْقِ، وقادِرٌ على أن يخلُقَ قومًا آخرينَ، ويضَعَ رَحْمَته فيهم، وعلى هذا الوجهِ يكون الاستغناءُ عن العالَمينَ أكملَ وأتمَّ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن بَطْشِ اللهِ في التَّعجيلِ بذلك[٢].

٦- وصْفُ قومٍ بـ ﴿آخَرِينَ﴾ للدَّلالةِ على المغايرةِ؛ أي: قَوم لَيْسُوا من قبائِلِ العَربِ، وذلك تنبيهٌ على عظيمِ قُدرةِ الله تعالى؛ أن يُنْشِئ أقوامًا من أقوامٍ يخالفُونَهم في اللُّغَة والعوائِدِ والمواطِنِ، وهذا كنايةٌ عن تباعُدِ العُصورِ، وتسلسُلِ الْمُنْشَآت؛ لأنَّ الاختلافَ بينَ الأُصولِ والفُروعِ لا يحدُثُ إلَّا في أزمنةٍ بعيدةٍ، فشتَّانَ بين أحوالِ قَومِ نوحٍ، وبين أحوالِ العَرَبِ المخاطَبينَ، وبين ذلك قرونٌ مختلفةٌ متباعِدَةٌ[٣].

٧- قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ في هذا النِّداءِ ضَرْبٌ من الاستمالةِ للكفَّار الَّذين خُوطِبوا بالدَّعوة أوَّلًا، بما يُذَكِّرُهم بأنَّهم قومُ الرَّسولِ الَّذين يحبُّهم، ويحرِصُ على خَيرِهم ومنفَعَتِهم، بباعِثِ الفِطرةِ والتَّربيةِ والمنافِعِ المشترَكَة، وقد كانتِ النَّعْرَةُ القوميَّةُ عند العَرَبِ أَقْوَى منها عند المَعروفِ حالُهم اليومَ مِن سائِرِ الأُممِ، فكان نداؤُهم بِقَوْلِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ جديرًا بأنْ يحرِّكَ هذه العاطِفَةَ في قُلوبِهم، فتَحْمِلَ المستعِدَّ على الإصغاءِ لِمَا يقولُ، والتأمُّلِ فيه[٤].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: فسوف تعرفونَ الفريقَ الذي تكونُ له

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٣).

العاقبةُ الحُسنى التي خَلَقَ اللهُ هذه الدارَ الدُّنيا لها، وهذا طريقٌ من الإنذارِ لطيفُ المسلكِ: فيه إنصافٌ في المقالِ، وأدبٌ حَسَنٌ مع تضمُّنِ شِدَّةِ الوعيدِ والوثوقِ بأنَّ المنذِرَ مُحِقٌّ، وأن المُنذَرَ مُبطِلٌ[(١)].

٩- قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يُوهِمُ أنَّ الكافِرَ ليست له عاقبةُ الدارِ، وذلك مُشكِلٌ، فكيف الجوابُ عنه؟ الجواب: العاقِبَةُ تكونُ على الكافِرِ، ولا تكون له كما يقال: له الكثرةُ ولهم الظَّفَرُ، وفي ضِدِّه يقال: عليكُمُ الكَثْرَةُ والظَّفَرُ[(٢)].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ احتراسٌ على قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾؛ للتنبيهِ على أنَّ الصَّالحينَ مِن أهْلِ القرى الغالِبِ على أهلِها الشِّرْكُ والظُّلْمُ؛ لا يُحرَمونَ جزاءَ صَلاحِهم[(٣)].

- قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيه: تعريضٌ بالوعيدِ للمُشْركينَ[(٤)].

٢- قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فيه: كنايةٌ عن غِناه تعالى عن إيمانِ المُشْركينَ وموالاتِهم، وكنايةٌ عن رَحمَتِه؛ إذ أمهَلَ المشركينَ، ولم يُعَجِّلْ لهم العذابَ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٥).

- وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظَّاهِرِ أن يقال: (وهو الغنيُّ ذو الرَّحمةِ)، فخُولِفَ مقتضى الظَّاهِرِ؛ لِمَا في اسمِ الرَّبِّ من دَلالةٍ على العِنايةِ بصلاحِ المربوبِ، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً بنَفْسِها، فتسيرُ مَسْرَى الأَمْثالِ والحِكَمِ[1].

- وفيه الحصرُ أو القصْرُ، أي: وربُّك هو الغنيُّ الكامِلُ الغِنى، وذو الرَّحْمَةِ الكاملةِ الشَّامِلَة، التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ[2].

٣- **قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾** فيه: استئنافٌ لتَهْديدِ المشركينَ الَّذين كانوا يُكَذِّبون الإنذارَ بعذابِ الإِهْلاكِ[3].

- وفيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ إنَّ مفعولَ: ﴿يَشَأْ﴾ محذوفٌ على طريقَتِه المألوفةِ في حذْفِ مفعولِ المشيئةِ[4].

- والسينُ والتَّاءُ في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ للتأكيدِ[5].

- وفيه: تعريضٌ بإهلاكِ المشركينَ، ونجاةِ المؤمنينَ من العذابِ[6].

- وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الجملةُ الشرطيَّةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لمَضْمونِ ما قَبْلَها مِنَ الغِنى والرَّحمةِ[7].

٤- **قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾** فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابًا عن أن يقولَ سائلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٧).

من الـمُشركينَ: إذا كنَّا قد أُمْهِلْنا وأُخِّرَ عنا الاستئصالُ، فقد أفْلَتْنا مِنَ الوعيدِ، ولعلَّه يَلْقاه أقوامٌ بَعْدَنا، فوَرَدَ قَوْلُه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾[1].

- والتأكيدُ بـ(إنَّ) مناسِبٌ لمقامِ المترَدِّدِ الطَّالبِ، وزيادةُ التأكيدِ بلامِ الابتداءِ في ﴿لَآتٍ﴾؛ لأنَّهم متوَغِّلونَ في إنكارِ تحقُّقِ ما أُوعِدُوا به من حصولِ الوعيدِ واستسخارِهم به[2].

- قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فيه: إيثارُ صيغةِ الفاعلِ (آتٍ) على المستقبَل (سيأتي)؛ للإيذانِ بكمالِ قُرْبِ الإتيانِ، وقال هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ ولم يقل: ﴿لواقِعٌ﴾؛ لبيان كمالِ سرعةِ وقوعِه، بتصويره بصورةِ طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ، حسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتينَ ذلك، وإن ركِبتُم في الهربِ متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ[3].

٥- قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ المرادُ منه بيانُ دوامِ انتفاءِ الإعجازِ، لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجازِ؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ كما تدلُّ على دوامِ الثُّبوتِ، تدلُّ بمعونَةِ المقامِ- إذا دخل عليها حرفُ النَّفيِ- على دوامِ الانتفاءِ، لا على انتفاءِ الدَّوامِ[4].

٦- قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ بعد قولِه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فإنَّ المقصودَ الأوَّلَ منه هو وعيدُ الـمُشركينَ، فأعقبَه بما تمحَّضَ لوعيدِهم: وهو الأمرُ المستعمَلُ في الإنذارِ والتَّهديدِ[5]، والتهديدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٠).

بصيغةِ الأمر مبالغةٌ في الوعيدِ(١).

- وفيه إيجاز بالحذفِ؛ حيث حُذِفَ مفعولُ﴿اعْمَلُوا﴾؛ لأنَّ الفعلَ نُزِّلَ منزلةَ اللازمِ؛ أي: اعملوا عَمَلَكُم المألوفَ الذي هو دَأْبُكم، وهو الإعراضُ والتَّكذيبُ بالحَقِّ(٢).

- قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانةُ كنايةٌ عن الحالَةِ؛ لأنَّ أحوالَ المرءِ تَظْهَر في مَكانِه ومَقَرِّه(٣).

- وفيه- مع النَّصيحةِ- تخويفٌ شديدٌ؛ لأنَّ تهديدَ الحاضِرِ على لسانِ الغيرِ مع الإعراضِ أشَدُّ من مواجَهَتِه بالتَّهديدِ(٤).

٧- **قوله**: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ متعلَّق ﴿عامِلٌ﴾ للتَّعميمِ مع الاخْتِصارِ(٥).

٨- **قوله**: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صريحٌ في التَّهديدِ؛ لأنَّ إخبارَهم بأنَّهم سَيَعْلمونَ يفيدُ أنَّه يعلَمُ وقوعَ ذلك لا محالةَ، وتصميمُه على أنَّه عامِلٌ على مكانَتِه، ومخالِفٌ لعَمَلِهم يدلُّ على أنَّه مُوقِنٌ بحُسْنِ عُقباه، وسوءِ عُقْباهم، ولولا ذلك لعَمِلَ عَمَلَهم؛ لأنَّ العاقِلَ لا يرضى الضُّرَّ لنَفْسِه، فدل قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ عِلْمَهم يقَعُ في المُستقَبلِ، وأمَّا هو فعالمٌ مِن الآن(٦).

- قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ حرفُ التَّنفيسِ مُرادٌ منه تأكيدُ الوُقوعِ؛ لأنَّ حَرْفَي التَّنفيسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٩٢).

يؤكِّدانِ المستقبَلَ، كما تؤكِّدُ (قد) الماضِيَ[١].

٩- قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه: تذييلٌ للوعيدِ يَتنَزَّل منزلةَ التَّعليلِ[٢]، والغَرَضُ منه بيانُ أنَّ قولَه: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديدٌ وتخويفٌ، لا أنَّه أمرٌ وطَلَبٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).

الآيات (١٣٦-١٤٠)

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ
بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ
(١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا
مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً
عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ
ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ
أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا
كَانُواْ مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿ذَرَأَ﴾: أَي خلَق؛ يُقالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ يذْرَؤُهُم ذَرْأً وَذَرْوًا: إذا خلَقَهُمْ، وأصْلُه من قولهم: ذَرَأْنا الأرضَ، أي: بَذَرْناها[١].

﴿الْحَرْثِ﴾: الزَّرع، والبَساتين والمَزارِع، وأصْلُه: إلقاءُ البَذْرِ في الأَرْضِ وتهيئتُها للزَّرعِ، والكَسبُ والجَمْعُ[٢].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٠ و ١/ ١٦٢).

﴿نَصِيبًا﴾: أي حظًّا وقِسْمًا وجُزْءًا، والنَّصيبُ: الحظُّ المنصوبُ، أي: المعَيَّنُ، وأَصْلُ (نصب): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواءٍ[1].

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: ليُهْلِكوهم، والرَّدى: الهلاكُ، وأَصْل (ردي) يَدُلُّ على رمْيٍ أو ترامٍ، وما أشبَهَ ذلك[2].

﴿حِجْرٌ﴾: أي حرامٌ، وَأَصْلُ (حجر): المنعُ والإحاطةُ على الشَّيءِ[3].

﴿خَالِصَةٌ﴾: أي: حَلالٌ أو خاصَّةٌ، وأَصْلُ (خلص): تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتهذِيبُه[4].

﴿سَفَهًا﴾: أي: جَهْلًا، وأصل السَّفهِ: الجَهْلُ، والخِفَّةُ في البَدنِ والعَقْلِ، والضَّعْفُ والحُمْقُ، واستُعمِلَ في خِفَّة النَّفسِ؛ لنُقصانِ العَقْلِ[5].

مُشكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾

﴿زَيَّنَ﴾: يُقْرَأ بفَتْحِ الزَّاي والياءِ على البناءِ للمعلوم، وفاعلُه: ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾، والمفعولُ ﴿قَتْلَ﴾ و﴿أَوْلَادِهم﴾ مجرورٌ بإضافةِ ﴿قَتْلَ﴾ إليه مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

ويُقرأ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾[1] بضَمِّ الزَّايِ، وكسْرِ الياءِ على البناءِ لِـما لم يُسَمَّ فاعِلُه. و﴿قَتْلُ﴾ بالرَّفع على أنَّه نائِبٌ عن الفاعِلِ، و﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه مفعولُ المَصْدرِ ﴿قَتْلُ﴾، و(شُرَكَائِهِمْ) بالجرِّ على إضافَةِ ﴿قَتْلُ﴾ إليه من إضافَةِ الْمَصدَرِ إلى فَاعِلِه، وقد فُصِلَ بينهما بالمفعولِ، والمَعْنى على هذه القراءةِ: أنَّ مُزيِّنًا زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركينَ أن يقتُلَ شركاؤُهم أولادَهم؛ وإسنادُ القتْلِ إلى الشُّركاءِ؛ إمَّا لأنَّ الشُّركاء سببُ القتلِ إذا كان القَتْلُ قِربانًا للأصنامِ، وإمَّا لأنَّ الَّذين شرَعوا لهم القَتْلَ هم القائمونَ بدِيانة الشِّركِ؛ مثل عمرِو بنِ لُحَيٍّ ومَن بَعدَه[2].

(١) وهذه قِراءةُ ابنِ عامرٍ - رحمه اللهُ تعالى - وهو أعلى القُرَّاءِ السَّبعَةِ سنَدًا، من كبارِ التَّابعينَ الذين أَخذُوا عن الصَّحَابة؛ كعثمانَ بنِ عفَّانَ، وأبي الدَّرداءِ، ومُعاوِيَةَ، وفضالة بنِ عبيدٍ، وهو مع ذلك عربيٌّ صريحٌ مِن صَميمِ العَرَب، وكلامُه في اللُّغةِ حجَّةٌ وقولُه دليلٌ؛ لأنَّه كان قبلَ أنْ يُوجَدَ اللَّحْنُ؛ فكيف وقد قرأ بما تلَقَّى، وتلَقَّنَ وسَمِعَ ورأى؟!

وهي قراءةٌ متواترةٌ صحيحةٌ، وموافِقَةٌ لرَسْمِ المصحَفِ الشَّامي الذي أرسله عثمانُ رضِي اللهُ عنه، ولقواعِدِ اللُّغَةِ العربيَّةِ نثرًا ونَظْمًا؛ وقد تجرَّأ بعضُ النحاة، وأنْكَرَ هذه القِراءةَ؛ لأنَّه فُصِل فيها بين المضافِ (قَتْلُ) والمضافِ إليه (شُرَكَائِهِمْ) بالمفعولِ (أَوْلَادَهُمْ)؛ ورُدَّ إِنْكارُهم هذا بما مضى، وبأنَّ العَرَبَ قد استعملَتْ ذلك كثيرًا في كلامِها؛ ومن ذلك قَوْلِهم: (هو غلامُ إنْ شاءَ اللهُ أخيكَ) يريدون: هو غلامُ أخيكَ؛ فَلَأنْ يُفْصَلَ بالمفردِ أسهَلُ. وسَمِعَ الكسائيُّ قَوْلَ بَعْضِهم: (إنَّ الشَّاةَ لَتَجْتَرُّ فتسمَعُ صوتَ واللهِ ربِّها) أي: صَوْتَ رَبِّها واللهِ، ففُصِلَ بالقَسَمِ، وهو في قُوَّةِ الجملةِ، وقال الشَّاعِرُ:

فَزَجَجْتُهَا بِمَزَجَّةٍ   زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِي مَزَادَهْ

والتقديرُ: زَجَّ أبي مَزَادَةَ القَلُوصَ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالقلوص، وهو مفعول. وعليه؛ فقراءةُ ابن عامرٍ صحيحةٌ من حيث اللُّغةُ، كما هي صحيحةٌ من حيثُ النَّقْلُ. ويُنظَرُ في أوجُهِ الاعتراضِ والجوابِ عنها: ((الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)) لأبي البركات الأنباري (٢/ ٣٤٩-٣٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦٢-١٧٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧١-٢٧٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٠-٥٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦١-١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ١٠٢).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المشركينَ جَعَلوا لله مِمَّا خَلَقَ من الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ جُزءًا، وجعلوا لشركائِهم جزءًا كذلك، فإنْ وَصَلَ شيءٌ مِمَّا خَصَّصُوه لآلِهَتِهم إلى ما جعلوه للهِ رَدُّوه إلى مَحَلِّه من نصيبِ آلِهَتِهم، وإنِ اختَلَطَ شيءٌ مِمَّا خَصَّصوه للهِ بما جَعَلُوه لآلِهَتِهم تركوه فلم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يهتمُّوا بذلك، ساءَ ما يحكمونَ!

كذلك زَيَّنَت الشَّياطينُ لكثيرٍ من المشركينَ قَتْلَ أولادِهم؛ ليُهْلِكوهم ويَخْلِطوا عليهم دينَهم، ولو شاء اللهُ ما فعلوا ذلك، ثم أمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يَدَعَهم وما يَفتَرونَ.

وقال هؤلاءِ المشركونَ: هذه الأنعامُ وهذا الزَّرعُ حرامٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يأكُلَ منه، إلَّا مَن أَذِنُوا له، وهذا بحَسَبِ ادِّعائِهم الذي لا مُستَنَدَ له ولا حُجَّةَ، وحَرَّمَ هؤلاءِ المشركونَ ظُهورَ بعضِ الأنعامِ فَلم يُحِلُّوا ركُوبَها، وبعضٌ من الأنعامِ لا يذكرونَ اسْمَ اللهِ عليها، سَيَجْزِيهم اللهُ بما كانوا يَفْتَرونَ.

وقال هؤلاءِ المشركونَ: ما في بُطُونِ هذه الأنعامِ مِن لَبَنٍ وأجِنَّةٍ؛ حلالٌ لذُكُورِنا، وحرامٌ على إناثِنا، هذا إن خَرَجَتِ الأجِنَّةُ أحياءً، وإن يَكُنْ ما في بُطونِها مَيْتَةً، فهو حلالُ الأَكْلِ للذُّكورِ والإناثِ، وهم شُرَكاءُ فيه، ثم توَعَّدَ اللهُ تعالى أنَّه سَيَجْزي هؤلاءِ المُفْتَرينَ عليه الكَذِبَ حين وَصَفُوا ما أحَلَّه بأنَّه حرامٌ، وما حَرَّمَه بأنَّه حلالٌ، وَنَسَبوا كَذِبَهم ذلك إلى اللهِ تعالى؛ إنَّه تعالى حكيمٌ عليمٌ.

ثم يخبِرُ تعالى أنَّه قد خَسِرَ هؤلاء المشركونَ الَّذين قَتَلُوا أولادَهم سَفَهًا بغيرِ عِلْمٍ، وحَرَّموا ما رَزَقَهم الله تعالى؛ كذبًا وافتراءً عليه، قد انحَرَفوا عن الطَّريقِ القويمِ، ولم يُوَفَّقوا للصَّوابِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى قُبْحَ طريقَتِهم في إنكارِهم البَعثَ والقيامةَ؛ ذَكَرَ عَقيبَه أنواعًا من جَهالاتِهم، ورَكاكاتِ أقْوالِهم؛ تنبيهًا على ضَعْفِ عقولِهم، وقِلَّة مَحْصولِهم، وتنفيرًا للعُقلاءِ عنِ الالتِفاتِ إلى كَلِماتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾.

أي: وجَعَلَ المشركونَ مِمَّا خَلَقَ الله مِنَ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ قِسْمًا وجُزءًا له تعالى، وجَعَلوا لشُرَكائِهم مع الله تعالى نصيبًا من ذلك، والحالُ أنَّ اللهَ تعالى هو الذي ذَرَأَه للعبادِ، وأوجَدَه رِزقًا، وهؤلاءِ الشُّركاءُ لم يرزُقُوهم، ولم يُوجِدوا لهم شيئًا من ذلك[2].

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾.

أي: فَإِنْ وَصَلَ شيءٌ مِمَّا جَعَلوه لآلِهَتِهم إلى ما جَعَلوه للهِ سبحانه؛ رَدُّوه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨-٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤).

قال ابن جرير: (وجَعَلوا مِثْلَه لشُرَكائهم، وهم أوثانُهم بإجماعٍ مِن أَهْلِ التَّأويلِ عليه) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣).

مَحَلِّه مع نصيبِ أَوْثانِهم، فحَفِظوه واعتَنَوْا به، وإن اختَلَطَ شيءٌ مِمَّا جَعَلوه للهِ تعالى بما جَعَلوه لآلِهَتِهم؛ تَرَكوه فيه ولم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يُبَالوا ويهتمُّوا بذلك(١).

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

أي: قد أساؤُوا في حُكْمِهم؛ إذ أَخَذُوا مِن نصيبِ اللهِ تعالى لِشُرَكائِهم، ولم يجْعَلوا له سبحانه شيئًا مِنْ نصيبِ شُرَكائِهم، فجَعَلوا ما للمَخْلوقِ يُجتهَدُ فيه ويُحفَظُ، أكثرَ مما يُفعَلُ بحقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه وخالِقُه، وكلُّ شيءٍ تحت قُدرَتِه ومَشيئَتِه، سبحانه وتعالى(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾.

أي: وكما حسَّنَت الشَّياطينُ لهؤلاءِ المشركينَ أن يَجْعَلوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ من الحَرْثِ والأنعامِ نصيبًا، كذلك حسَّنوا لهم قَتْلَ أولادِهم خَشيَةَ الإملاقِ، ووَأْدَ البناتِ خَشيةَ العارِ، وكلُّ هذا مِن خُدَعِ الشَّياطينِ، الَّذين يريدونَ أن يُهلِكوهم، وأن يَخْلِطوا عليهم دينَهم فيلتَبِس، فيَضِلُّوا ويَهْلِكوا بأفعالٍ في غايةِ القُبحِ؛ تُزيَّنُ لهم فتكونُ لديهم من الأمورِ الحَسَنة الجميلةِ، والخِصالِ الحميدَةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لَمَنَعَ هؤلاءِ المشركينَ، وحَالَ بينهم وبين قَتلِ أَوْلادِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى بحَسَبِ ما اقتضَتْه حِكْمَتُه، خلَّى بينهم وبين أفعالِهم، وخَذَلَهم عن الهُدى والحَقِّ، فأطاعوا الشَّياطينَ التي أغوَتْهم، وقتَلُوا أولادَهم. وكلُّ هذا واقعٌ بمشيئَتِه تعالى، وله الحِكمةُ التامَّةُ في ذلك، فدَعْهُم- يا مُحمَّدُ- وما يختلقونَ ويتقوَّلونَ على الله تعالى مِنَ الكذبِ، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإنَّهم لن يضُرُّوا اللهَ تعالى شيئًا؛ فسَيَحْكُمُ اللهُ بينك وبينهم؛ فهو لهم بالمِرْصادِ؛ يستدْرِجُهم، ويُمْهِلُهم[(١)].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

وقيل المعنى: ولو شاءَ الله تعالى لَمَنَع الشركاءَ عن تزيينِ القتلِ لأتباعِهم المشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٤-١٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى إقدامَهم على ما دلَّ النَّقلُ على قُبحِه- مع قبحِه في العَقْلِ- مِن قَتْلِ الأولادِ؛ أتبعَه إِحْجامَهم عما حَسَّنَه الشَّرْعُ مِن ذَبحِ بعضِ الأنعامِ لِنَفْعِهم، وضَمَّ إليه جملةً مِمَّا منعوا أنفُسَهم منه، ودانوا به لمجرَّدِ أهوائِهم[1]، فقال تعالى:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركونَ: هذه الأنعامُ وهذا الزَّرعُ حرامٌ لا يجوزُ أن يأكُلَ منه أحَدٌ، إلَّا مَنْ أذِنَّا له، وهذا بحَسَبِ أهوائِهم وادِّعائِهم الذي لا مُستَنَدَ له ولا حُجَّةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾.

أي: وحرَّم هؤلاءِ الجهلَةُ من المشركينَ ركوبَ ظُهُورِ بعضِ أنْعامِهم[3].

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾.

أي: وحرَّموا مِن أنعامِهم صِنفًا آخَرَ لا يَحجُّون عليها، ولا يَذْكُرونَ اسمَ الله عليها إنْ رَكِبوها، أو حَلَبُوها أو حَمَلوا عليها أو ذَبَحوها، وهذا كَذِبٌ منهم على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٧).

اللهِ تعالى؛ إذ لم يأذَنْ لهم بذلك[١].

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: سيُجازِيهم اللهُ عزَّ وجلَّ بسَبَبِ اختلاقِهم الكَذِبَ عليه، وتحريمِهم ما أحَلَّه سبحانه من الأَكْلِ والمنافِعِ[٢].

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركونَ: جميعُ ما في بُطونِ تلك الأنعامِ مِن لَبَنٍ وجَنينٍ، فهو حلالٌ لذُكُورِنا وحرامٌ على إناثِنا. هذا إذا خَرَجَت الأجِنَّةُ أحياءً[٣].

﴿وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

أي: وإنْ يكُنْ ما في بطونِ تلك الأنعامِ قد وُلِدَ مَيْتًا فهو حلالٌ للذُّكورِ والإناثِ، وهُم شُركاءُ في أكْلِه، لا يُحَرِّمونه على أَحَدٍ منهم[٤].

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢-٥٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٦-٥٨٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٨-٥٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

أي: سيجازي اللهُ تعالى هؤلاءِ المفترينَ عليه الكَذِبَ حين وَصَفُوا ما أحلَّه بأنَّه حرامٌ، ووَصَفوا ما حَرَّمَه بأنَّه حلالٌ، ونَسَبُوا كَذِبَهم في ذلك إلى اللهِ تعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه وقَدَرِه، ومن ذلك أنَّه حكيمٌ في مجازاةِ أولئك المُشْركينَ على قَوْلِهم الكَذِبَ عليه سبحانَه، حكيمٌ في إمهالِه لهم، وتمكينِهم ممَّا هم فيه مِن الضَّلالِ، وهو عليمٌ بأعمالِ عبادِه خَيْرِها وشَرِّها، ومن ذلك عِلْمُه بأولئك المُشْركينَ، وبما قالوه عليه وافْتَرَوه، وسَيَجْزِيهم على ذلك أتمَّ الجَزاءِ[2].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى- فيما تقَدَّمَ- قَتْلَهم أولادَهم، وتحريمَهم ما رَزَقَهم اللهُ، جَمَعَ هَذَينِ الأَمْرَينِ في هذه الآيةِ، وبَيَّنَ ما لَزِمَهم على هذا الحُكْمِ، وهو الخُسرانُ، والسَّفاهةُ، وعَدَمُ العِلْمِ، وتحريمُ ما رَزَقَهم اللهُ، والافتراءُ على اللهِ، والضَّلالُ، وعدمُ الاهتداءِ؛ فهذه أمورٌ سبْعَةٌ، وكلٌّ واحدٍ منها سببٌ تامٌّ في حُصُولِ الذَّمِّ[3]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦١).

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

أي: قد هَلَكَ هؤلاءِ المشركونَ الَّذين قَتَلوا أولادَهم، وحرَّموا ما أَحَلَّه اللهُ تعالى مِن أنعامِهم، وجَعَلَه رِزْقًا لهم، وخَسِروا في الدُّنيا والآخرةِ، ففي الدُّنيا خَسِروا أولادَهم بِقَتْلِهم، وَضَيَّقُوا عليهم في أموالِهم، بما حَرَّموا مِن أشياءَ ابْتَدَعوها، وفي الآخرةِ يَصيرونَ إلى شَرِّ المَنازِلِ بكَذِبِهم على اللَّه، وقد فَعَلوا ذلك جهالةً منهم، صادرةً عن نَقْصِ عقولٍ، وضَعْفِ أحلامٍ، وقِلَّةِ فَهْمٍ بعاجِلِ ضَرَرِ ذلك وآجِلِه؛ وذلك كَذِبًا عليه سبحانه وتعالى[١].

عن عياضٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((أَلَا إنَّ ربِّي أَمَرَني أنْ أُعلِّمَكم ما جَهِلْتُم، مِمَّا علَّمَني يومِي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خلقْتُ عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشَّياطينُ فاجْتالَتْهُم[٢] عن دِينِهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُم أنْ يُشْرِكوا بي ما لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا...)) الحديث[٣].

﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

أي: قد انحَرَفوا عن طريقِ الحَقِّ، ولم يكونوا موفَّقينَ للصَّوابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٠-٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٤-١١٥).

(٢) فاجْتالَتْهم: أي: اسْتَخَفَّتْهم، فجَالوا معهم في الضَّلال. يُقالُ: جال واجْتال: إذا ذهب وجاء. ومنه الجَوَلان في الحربِ، واجتال الشَّيءَ إذا ذَهَب به وساقَه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٥).

عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: ((إذا سرَّكَ أن تَعلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فاقرَأْ ما فوقَ الثَّلاثينَ ومِئَةٍ مِن سورةِ الأَنْعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قولِه ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾))[1].

الفوائدُ التربويَّة:

١- الغُلُوُّ يُخْرِجُ أصحابَه إلى أن يَجْعَلوا البَشَرَ مثلَ الإلهِ، بل أفضَلَ من الإلهِ في بعضِ الأمورِ، كما ذَكَرَ اللهُ عن المشركينَ؛ قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[2] [سورة الأنعام: ١٠٨].

٢- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ مِثْلُ هذا كثيرٌ؛ فالفاعِلُ للذَّنْبِ لو جَزَمَ بأنَّه يحصُلُ له به الضَّررُ الرَّاجِحُ لم يفعَلْه، لكنَّه يُزَيِّنُ له ما فيه من اللذَّةِ التي يظُنُّ أنَّها مصلحةٌ، ولا يَجْزِم بوقوعِ عُقوبتِه، بل يرجو العفْوَ بحَسَناتٍ أو توبةٍ، أو بعفوِ اللهِ ونحو ذلك، وهذا كلُّه مِن اتِّباعِ الظَّنِّ وما تهوى الأَنْفُسُ، ولو كان له عِلْمٌ كامِلٌ لَعَرَف به رُجْحانَ ضَرَرِ السَّيِّئة، فأوجَبَ له ذلك الخشيَةَ المانِعَةَ له من مُواقَعَتِها[3].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ...سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ عَدَّدَ تبارك وتعالى شيئًا مِن خُرافاتِهم؛ لِيُنَبِّه بذلك على ضلالِهم والحَذَرِ منهم، وأنَّ معارَضَةَ أمثالِ

(١) رواه البخاري (٣٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (٢/ ١٢٨).

هؤلاءِ السُّفَهاءِ للحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ؛ لا تقْدَحُ فيه أصلًا؛ فإنَّهم لا أهلِيَّةَ لهم في مقابَلَةِ الحَقِّ[١].

٢- الأصلُ في العباداتِ التَّوقيفُ، فلا يُشْرَعُ منها إلا ما شَرَعَه اللهُ تعالى؛ ولهذا ذَمَّ المشركينَ الَّذين شَرَعوا من الدِّينِ ما لم يأذَنْ به، وحَرَّموا ما لم يُحَرِّمْه؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ...﴾ إلى قَوْلِه: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فلا حَرامَ إلا ما حَرَّمَه اللهُ تعالى، ولا دِينَ إلَّا ما شَرَعَه[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ قَرَنَ الأوَّلَ بالزَّعْمِ الذي يُعَبَّر به غالبًا عن قَوْلِ الكَذِب والباطِلِ على ما فيه من البِرِّ والخيرِ دون الثاني الذي هو شَرٌّ محْضٌ؛ وذلك لمناسَبَةٍ حَسَنةٍ: أنَّ الأوَّلَ وحْده هو الذي يُمكِن أن يَسْتَحْسِنَه المؤمنُ أو العاقِلُ وإن لم يكُنْ مُؤْمِنًا، فاحْتِيجَ إلى قَرْنِه بكونِه زعمًا مُختَرَعًا لهم، لا دينًا مُشْتَرَعًا لله تعالى، فكان بهذا باطلًا في نَفْسِه، فوقَ كَوْنِه مقرونًا بالشِّرْكِ؛ إذ جَعَلوا مِثْلَه لِمَا اتَّخذوا للهِ من الأَنْدادِ[٣].

٤- في قَوْلِه تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ قد يستَشْكِلُ بعضُهم، فيقول: أليسَت جميعُ الأَشْياءِ لله، فكيف نُسِبُوا إلى الكَذِبِ في قولهم: هذا للهِ؟ الجواب: أنَّ إفرازَهم النَّصِيبينِ؛ نصيبًا لله ونصيبًا للشَّيطانِ هو الكَذِبُ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا... سَاءَ مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).

يَحۡكُمُونَ﴾ المقصودُ من حكايةِ أمثالِ هذه المذاهِبِ الفاسِدةِ أنْ يعرِفَ النَّاسُ قِلَّةَ عُقُولِ القائلينَ بهذه المذاهِبِ، وأنْ يصيرَ ذلك سببًا لتَحْقيرِهم في أعيُنِ العُقَلاءِ، وألَّا يَلْتفِتَ إلى كلامِهم أحدٌ البتَّةَ[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ سمَّى المُزَيِّنينَ لهم ذلك مِنْ شياطينِ الإنسِ- كالسَّدَنَة- أو الجنِّ؛ شُرَكاءَ، وإن لم يُسَمُّوهم هم آلهةً أو شُرَكاءَ؛ لأنَّهم أطاعوهم طاعةَ إذعانٍ دينيٍّ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، وهو خاصٌّ بالرَّبِّ المعبودِ[٢].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾، لَمَّا كان المُزَيِّن لخِسَّتِه أهلًا لِأَنْ لا يُقْبَلَ تزيينُه، ولا يُلْتَفَتَ إليه، فكان امتثالُ قولِه غريبًا، وكان الإقدامُ على فِعْلِ الأَمْرِ المُزَيَّنِ أشدَّ غرابةً- قدَّمَ قَوْلَه ﴿قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾ تنبيهًا على ذلك[٣].

٨- كلُّ من أطاعَ غيرَ الله في تشريعٍ مُخالِفٍ لِمَا شَرَعَه اللهُ؛ فقد أشْرَكَ به مع اللهِ، كما يدُلُّ لذلك قَوْلُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ فسمَّاهم شركاءَ لَمَّا أَطاعُوهم في قَتْلِ الأَوْلادِ[٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يدلُّ على أنَّ كلَّ ما فعَلَه المُشركونَ هو بِقَدَرِ اللهِ تبارك وتعالى[٥].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾، لَمَّا كان ذَمُّهم على مجرَّدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٥٨).

التَّحريمِ لا على كونِه من مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمَجْهولِ[(١)].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ استدَلَّ به مالكٌ رَحِمَه الله على أنَّه لا يجوزُ الوَقْفُ على أَوْلادِ الذُّكورِ دُونَ البَناتِ، وأنَّ ذلك الوَقْفَ يُفْسَخُ ولو بَعْدَ موتٍ؛ لأنَّ ذلك مِن فِعْلِ الجاهليَّةِ. واستدلَّ به بعضُ المالكيَّةِ على مِثْلِ ذلك في الهِبَةِ[(٢)].

١٢- فائدةُ تأنيثِ ﴿خَالِصَةٌ﴾ المُبالغةُ في خُلوصِ ما في بُطونِ الأنْعامِ الَّتي كانوا حَرَّمُوا ما في بُطونِها على أزواجِهم، لذُكورِهم دونَ إناثِهم، وذلك مِثْلُ قَولِهم: رجلٌ نسَّابَة وعلَّامةٌ، إذا أُريدَ بها المُبَالغةُ في وَصْفِ مَن كان ذلك مِن صِفَتِه، وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ فيه: تأخيرُ قولِه: ﴿نَصِيبًا﴾ عن المجرورينِ (لله- مما)؛ اهتمامًا بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[(٤)].

٢- قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه: مبالغةٌ في صَوْنِه من أن يُعطَى لِمَا للهِ؛ لأنَّه إذا كان لا يَصِلُ فهو لا يُتْرَكُ إذا وَصَلَ بالأَوْلى[(٥)].

٣- قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيه: استئنافٌ لإنْشاءِ ذَمِّ شرائِعِهم[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾

معنى اللام في قوله: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ إن كان التَّزيينُ مِنَ الشَّياطينِ؛ فهي على حقيقةِ التعليلِ، وإن كان من السَّدَنَة فعلى معنى الصَّيرورةِ[١].

٥- قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ذَرْهُمْ) أمرٌ فيه تهديدٌ ووعيدٌ[٢].

٦- قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الافتراءَ على الخالِقِ أمرٌ شنيعٌ عند جميعِ الخَلْقِ، فالإخبارُ به يُثيرُ سُؤالَ من يَسألُ عمَّا سيلقَوْنَه مِن جزاءِ افترائِهم، فأُجيبَ بأنَّ اللهَ سيجزيهم بما كانوا يَفْترونَ[٣].

- وقد أبهَمَ الجزاءَ للتَّهويلِ؛ لتَذْهَبَ النُّفوسُ كُلَّ مذهَبٍ مُمْكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإثمِ[٤]، وفيه: تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ[٥].

٧- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِين قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تذييلٌ جُعِلَ فذلكةً للكلامِ السَّابِقِ[٦].

٨- قوله: ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ فيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقِعِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (عليه)- لإظهار كَمالِ عُتوِّهم وطُغيانِهم[٧].

٩- قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لزيادةِ النِّداءِ على تحقُّقِ ضَلالِهم[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩١).
(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٥).

- فائدةُ قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ أنَّهم بعدما ضلُّوا، لم يهتدوا مرَّة أُخرى[1]، وهذا نهايةُ المبالغةِ في الذَّمِّ[2].

- زيادةُ قَوْلِه: ﴿كَانُوا﴾ هنا لتحقيقِ النَّفيِ؛ مثل موقِعِها مع لامِ الجُحُودِ[3].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٦).

الآيتان (١٤١-١٤٢)

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَنَّاتٍ﴾: أي: بَسَاتِينَ، جمْعُ جَنَّةٍ، وهي كلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ، يَستُرُ بأَشْجارِه الأَرْضَ، ومنه الجنَّةُ التي يصيرُ إليها المُسلِمونَ في الآخِرَةِ، وأَصْلُ (جنن): السَّتْرُ وَالتَّستُّرُ(١).

﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: أي: مَرْفوعاتٍ على مَا يَحمِلهَا، وهو مَا عَرَشَ النَّاسُ، وبَنَوْا له العريشَ من العنبِ، والعَرْشُ في الأَصْلِ: شيءٌ مسقَّفٌ(٢).

﴿أُكُلُهُ﴾: أي: ثَمَرُه، وَمَا يُؤْكَل مِنه، وسُمِّي الثمرُ أُكُلًا؛ لأنَّه يُؤْكَلُ، وأصْلُ (أكل): التَّنقُّصُ(٣).

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: أي: لا تُفْرِطوا، والسَّرَف: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يفعَلُه الإِنْسانُ، وأَصْلُه: تعدِّي الحَدِّ، والإِغْفالُ للشَّيءِ أَيْضًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، =

﴿حَمُولَةً﴾: الحَمُولةُ هي الكبيرةُ، كالإبلِ التي يُحمَلُ عليها الأثقالُ[1].

﴿وَفَرْشًا﴾: الفَرْشُ: صِغارُ الإبلِ التي لم تُدرِكْ أن يُحمَلَ عليها، وأصلُ (فرش): يَدُلُّ على تَمهيدِ الشَّيءِ، وبَسْطِه[2].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾

﴿حَمُولَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مَعْطوفةٌ على مَفعولِ ﴿أَنْشَأَ﴾، وهو ﴿جَنَّاتٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾، أي: وأنشَأَ منَ الأنعامِ حمولةً وفَرْشًا، مع ما أنشَأَ مِنَ الجنَّاتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشاتِ؛ فيكون العَطْفُ مِن قَبيلِ عَطْفِ المفرداتِ. ويجوزُ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ متعلِّقًا بفِعلٍ مُقَدَّرٍ تقديرُه: أنْشَأَ، و﴿حَمُولَةً﴾ مفعولًا به لهذا الفِعْلِ المُقَدَّرِ، وحينئذٍ تكون جملةُ (وَأَنْشَأَ) المقَدَّرة معطوفةً على جملة ﴿أَنْشَأَ﴾ السَّابِقِ في الآيةِ؛ فيكونُ العَطْفُ مِنْ قَبيلِ عَطْفِ الجُمَلِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه هو الذي خَلَقَ بساتين من أَشْجارٍ متنوِّعةٍ، ونباتاتٍ مختلفةٍ؛ منها ما له عروشٌ تُنشَرُ عليها، وتُعاوِنُها على النُّهوضِ، ومنها ما ليس لها عُرُوشٌ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٩٩).

فتَنبُت على ساقٍ، أو تَنْفرِشُ على الأَرْضِ، وأيضًا خَلَقَ اللهُ النَّخْلَ والزَّرعَ مختلفًا أُكُلُه، والزَّيتونَ والرُّمانَ مُتَشابهًا في شَجَرِه وورقِه، وغيرَ مُتَشابِهٍ في ثَمَرِه وطَعْمِه، وأمَرَهم جلَّ وعلا أن يَأْكُلوا مِن ثَمَره إذا أَثْمَرَ، وأن يُخرِجوا زكاتَه يومَ حَصادِه، ونهاهم عن الإِسْرافِ؛ فإنَّه تعالى لا يُحِبُّ من كان مُسْرِفًا.

ثم بيَّن تعالى أنَّه خَلَقَ من الأَنْعامِ ما يَصْلُحُ للحَمْلِ عليه كالإبِلِ، ومنها ما هو مهَيَّأٌ لغَيْرِ الحَمل كالغَنَم، وأمَرَهم سبحانه أن يَأْكُلوا مِمَّا رَزَقَهم سبحانه، وأباحَ لهم أكْلَه، ونهاهم أن يسلكوا طُرُقَ الشَّيطانِ؛ فإنَّه لهم عدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ﴾.

مناسَبَةُ الآيتينِ لِمَا قَبْلَهما:

أنَّ الله تعالى لَمَّا جعَلَ مدارَ هذا الكتابِ الشَّريفِ على تقريرِ التَّوحيدِ والنبوَّةِ والمَعَاد، وإثباتِ القَضاءِ والقَدَر، وأنَّه تبارَكَ وتعالى بالَغَ في تقريرِ هذه الأُصُولِ، ثُمَّ شَرَحَ أحوالَ السُّعَداءِ والأشْقياءِ، وانتقَلَ إلى تَهْجينِ طريقةِ مُنْكري البَعثِ، ونَبَّه على ضَعْفِ عُقُولهم، وتنفيرِ النَّاسِ عن الالْتِفاتِ إلى قَوْلِهم، والاغْتِرارِ بشُبُهاتهم- عاد بعدها إلى المقصودِ الأَصْليِّ، وهو إقامةُ الدَّلائلِ على تقريرِ التَّوحيدِ(١):

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ تعالى عنهم أنَّه حَرَّموا أشياءَ مِمَّا رَزَقَهم اللهُ، أخَذَ يذكُرُ تعالى ما امتَنَّ به عليهم مِنَ الرِّزقِ الذي تصرَّفوا فيه بغيرِ إذْنِه تعالى؛ افتراءً منهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٦٦).

عليه واختلاقًا، فذَكَرَ نوْعَيِ الرِّزقِ، وهما النباتيُّ والحيوانيُّ، فبدأ بالنباتيِّ؛ كما بدأ به في الآيةِ المشْبِهَة لهذا وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، واستطرَدَ منه إلى الحيوانيِّ؛ إذ كانوا قد حَرَّموا أشياءَ مِنَ النَّوعينِ، فقال[١]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾.

أي: وربُّكم- أيُّها النَّاسُ- هو الذي خَلَقَ وأوجَدَ بساتينَ تَحوي أنواعًا من الأَشْجارِ المتنوِّعةِ، والنباتاتِ المختلفَةِ، سواءٌ كانت لها عروشٌ تنتشِرُ عليها الأَشْجارُ، وأعمِدَةٌ تَرْفَعُها، وتُعاوِنُها على النُّهوضِ عن الأَرْضِ، أو كانت خاليةً من تلك العُروشِ، فيُنْبِتُها اللهُ تعالى على ساقٍ، أو تنفرِشُ منبسطةً على وَجْهِ الأَرْضِ[٢].

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ النَّخلَ والزَّرعَ، والحالُ أنَّ ما يخرُجُ منه ممَّا يُؤكَل من ثِمَارِه وحُبوبِه؛ أنواعٌ مختلفةٌ[٣].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الزَّيتونَ والرُّمَّان مُتشابهًا في مَنظرِ شَجَرِه ووَرَقِه، وغيرَ مُتشابِهٍ في شكلِ ثَمَرِه وطَعْمِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٦)، وينظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧-١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

مناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى كيفيَّةَ خَلْقِه لهذه الأَشْياءِ؛ ذَكَرَ ما هو المقصودُ الأصليُّ مِن خَلْقِها، وهو انتفاعُ المُكَلَّفينَ بها، فقال[1]:

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

أي: ولكم أنْ تأكُلوا مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والزُّروعِ عند إِثْمارِها وظُهُورِها[2].

﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

أي: وأَعْطُوا زكاةَ ما يخرُجُ مِنَ النَّخيلِ والزُّروعِ من الثِّمارِ والحُبوبِ يَوْمَ جَذاذِها وقَطْعِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧-١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَن قال: كان ذلك فرضًا فرَضه الله على المؤمنين في طعامِهم وثمارِهم التي تخرجُها زروعُهم وغروسُهم، ثم نسَخه الله بالصدقةِ المفروضةِ، والوظيفةِ المعلومةِ من العُشرِ ونصفِ العُشرِ) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقال آخرون: هذا كلُّه شيءٌ كان واجبًا، ثم نَسَخَه الله بالعُشْر ونِصْف العشر. حكاه ابن جريرٍ عن ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، وإبراهيم النخعي، والحسن، والسُّدِّي، وعطية العوفي. واختاره ابن جرير، رحمه الله. قلتُ: وفي تسميةِ هذا نسْخًا نظرٌ؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنَّه فصَّل بيانَه، وبيَّنَ مقدار المَخْرج وكميته. قالوا: وكان هذا في السَّنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٩)، وممن اختار هذا القولَ أيضًا، وهو أن هذه الآيةَ غيرُ منسوخةٍ، ولكنها مخصَّصة ومبيَّنة بآياتٍ أخرى، وبما يُبيِّنه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ابن عاشور في ((تفسيره)) (٨-أ/ ١٢٠-١٢٢).

وقال الشِّنقيطي: (قوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فيه للعلماء إشكالٌ- على أنَّه الزكاة- لأنَّه يوم الحصاد لم يكن تمرًا يابسًا، ولم يكن زبيبًا يابسًا، والزكَّاةُ إنما تُخرَجُ منه بعد أن يكون تمرًا يابسًا، أو =

وقد ذمَّ اللهُ تعالى الذي يَحصدون ولا يتصدَّقون، وقصَّ علينا سوءَ فعلِهم وانتقامَه منهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٤].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: ولا تَتجاوَزُوا حدَّ الاعْتِدالِ في الأَكْلِ؛ فاللهُ تعالى لا يُحبُّ كلَّ مَن كان مُسرِفًا في ذلك وفي غيرِه مِنَ الأَعْمالِ(١).

= زبيبًا يابسًا. قالوا: المرادُ بيومِ الحصاد: أنَّ المرادَ به عند حصادِه، ويُراد: أنَّ زمنَ الحصادِ قد يطُولُ إلى أنْ يَصِحَّ يُبْسُهُ من زبيبٍ وتمرٍ، ونحو ذلك، وهذا يُوجَدُ في كلامِ العرب، يقول: افعلْه عندَ كذا، ويُريدُ به الاتِّساعَ في الوقت، كما تقول: لقيتُ زيدًا سنةَ كذا، وتقول: لقيتُه في يوم أول منها، ويكون جميع السَّنة بعده لم تلقَه فيه، هذا يُمْكنُ في كلام العرب) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(١) اختار ابنُ كثير وابنُ عاشور والشنقيطيُّ هذا القَولَ، على أنَّ النهيَ متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ فيكونُ النَّهيُ عن الإسرافِ عائدًا إلى الأكْلِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣١-٣٣٢).
واختار الواحديُّ أنَّ المعنى: لا تُجاوِزوا الحَدَّ في الإعطاءِ بحيثُ تُبالِغونَ في إخراجِ ما يزيدُ على الواجبِ بما يضرُّ أنفُسَكم أو أَهْلِيكم. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٣٧٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٣).
واختار أبو حيان والسعديُّ حَمْلَ الآيةِ على كِلا المعنيَيْنِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).
وقال ابنُ جَريرٍ: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي، أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه نهى بِقَولِه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: ١٤١] عن جَميعِ معاني الإسرافِ، ولم يُخصِّصْ منها معنًى دون معنًى. وإذ كان ذلك كذلك، وكان الإسرافُ في كلامِ العَربِ: الإخطاءَ بإصابةِ الحَقِّ في العَطيَّةِ؛ إمَّا بتَجاوُزِ حَدِّه في الزِّيادةِ، وإمَّا بتَقصيرٍ عَن حَدِّه الواجِبِ- كان معلومًا أنَّ المُفَرِّقَ مالَه مُباراةً، والباذِلَه للنَّاسِ حتى أجحَفَت به عَطيَّتُه؛ مُسرِفٌ بتجاوُزِه حَدَّ اللهِ إلى ما [ليس] له، وكذلك =

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعن عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشْرَبوا، والْبَسوا وتصدَّقوا، في غيرِ إسرافٍ ولا مَخِيلةٍ))(١).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ كيفيَّةَ إنعامِه على عبادِه بالمَنافِعِ النباتيَّة؛ أتبَعَها بذِكْرِ إنعامِه عليهم بالمنافِعِ الحيوانيَّة؛ فقال(٢):

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ الأنعامِ ما هو مهيَّأٌ للحَملِ عليه؛ لكِبَرِه وارْتِفاعِه،

= المُقَصِّرُ في بَذلِه فيما ألزَمَه اللهُ بَذلَه فيه، وذلك كمَنْعِه ما ألزَمَه إيتاءَه منه أهلَ سُهمانِ الصَّدقةِ إذا وجَبَت فيه، أو مَنْعِه مَن ألزَمَه اللهُ نَفقَته مِن أهلِه وعيالِه ما ألزَمَه منها، وكذلك السُّلطانُ في أخذِه مِن رَعِيَّتِه ما لم يأذَنِ اللهُ بأخذِه. كلُّ هؤلاءِ فيما فعلوا من ذلك مُسرفونَ، داخلونَ في معنى مَن أتى ما نهى اللهُ عنه مِنَ الإسرافِ بقَولِه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: ١٤١] في عَطيَّتِكم مِن أموالِكم ما يُجحِفُ بكم؛ إذ كان ما قبلَه مِن الكلامِ أمرًا مِن اللهِ بإيتاءِ الواجِبِ فيه أهلَه يومَ حَصادِه، فإنَّ الآيةَ قد كانت تنزِلُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسببٍ خاصٍّ مِن الأمورِ، والحُكمُ بها على العامِّ، بل عامَّةُ آيِ القُرآنِ كذلك، فكذلك قَولُه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١٧-٦١٨).

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٦٠٥)، والنسائي (٢٥٥٩)، وأحمد (٦٦٩٥)، وعلقه البخاري في الصحيح (٧/ ١٤٠)
حسَّنَه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، والألباني في ((صحيح ابن ماجة)) (٢٩٢٠)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((تعليقه على مسند أحمد)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٥).

كالإبل، ومنها ما هو مهيَّأٌ لغَيْرِ الحَمْلِ؛ لصِغَرِه وقُرْبِه من الأرضِ، كالغَنَمِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٥-١٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٣-٣٣٧).

قال ابن كثيرٍ: (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحَمولةُ: ما تركبونَ، والفَرْش: ما تأكلونَ وتَحْلِبون، شاة لا تَحْمِل، تأكلونَ لَحْمَها، وتتَّخِذون مِن صُوفِها لحافًا وفَرْشًا. وهذا الذي قاله عبدُ الرحمنِ في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ حَسَنٌ؛ يشهَدُ له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩ - ٨٠]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠).

وقال ابنُ عاشور: (الفَرْشُ: اختُلِفَ في تفسيرِه في هذه الآيةِ؛ فقيل: الفَرْشُ ما لا يُطيقُ الحَمْلَ مِنَ الإبِلِ؛ أي: فهو يُركَبُ كما يُفرَشُ الفَرْشُ، وهذا قولُ الرَّاغِب. وقيل: الفَرْشُ: الصِّغارُ من الإبِلِ أو من الأنعامِ كُلِّها؛ لأنَّها قريبةٌ مِنَ الأرضِ، فهي كالفَرْشِ، وقيل: الفَرْشُ: ما يُذْبَحُ؛ لأنَّه يُفرَش على الأرضِ حين الذَّبحِ أو بَعْدَه؛ أي: فهو الضَّأنُ والمَعْزُ والبَقَرُ؛ لأنَّها تُذبَح. وفي «اللِّسان» عن أبي إسحاق: أجمَعَ أهلُ اللُّغَة على أنَّ الفَرْشَ هو صِغارُ الإبِلِ. زاد في «الكشَّاف»: «أو الفَرْش: ما يُنْسَجُ مِنْ وَبَرِه وصُوفِه وشَعَره الفَرْشُ» يريدُ أنَّه كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]. وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٥ - ٧] الآية، ولأنَّهم كانوا يَفْتَرِشون جلودَ الغَنَمِ والمَعْزِ للجُلُوسِ عليها.

ولفْظُ (فَرْشًا) صالحٌ لهذه المعاني كُلِّها، ومَحامِلُه كُلُّها مناسِبَةٌ للمَقامِ، فينبغي أن تكونَ مقصودةً من الآيَةِ، وكأنَّ لَفْظَ الفَرْشِ لا يُوازِنُه غيرُه في جَمْعِ هذه المعاني، وهذا من إعجازِ القُرآنِ مِن جانِبِ فَصاحَتِه، فالحَمُولةُ الإبِلُ خاصَّةً، والفَرْشُ يكونُ مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ على اختلافِ معاني اسْمِ الفَرْشِ الصَّالحةِ لكلِّ نَوعٍ مع ضَميمَتِه إلى كلمة (مِن) الصَّالحةِ للابتداءِ. فالمعنى: وأَنْشأَ من الأنعامِ ما تَحْمِلون عليه وتَرْكَبونه، وهو الإبِلُ الكبيرةُ، والإبِلُ الصَّغيرةُ، وما تأكلونَه، وهو البَقَرُ والغَنَم، وما هو فَرْشٌ لكم وهو ما يُجَزُّ منها، وجُلودُها) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٥-١٢٦).

وقال الشنقيطيُّ: (﴿حَمُولَةً﴾ أي: ما يَحْمِلون عليه أثقالَهم كالإبِل، وربَّما دَخَلَ البَقَرُ في بَعْضِ الأقطارِ.
=

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

أي: كُلُوا ممَّا أباحَه اللهُ تعالى لكم مِنَ الثِّمارِ والزُّروعِ والأَنْعامِ؛ فكُلُّها قد خَلَقَها اللهُ تعالى، وجَعَلَها رِزقًا لكم[1].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

أي: لا تَسْلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ، التي منها تحريمُ بعضِ ما رَزَقَكم اللهُ عزَّ وجلَّ،

= وقوله: ﴿وَفَرْشًا﴾ الفَرْشُ هنا فيه أقوالٌ متقارِبةٌ للعُلماءِ: حَكَى الفَرَّاءُ إجماعَ أَهْلِ اللُّغةِ على أنَّ الفَرْشَ صِغارُ الإِبِلِ، وهي الفُصْلانُ. وقال بعضُ العلماءِ: الفَرْشُ: الغَنَمُ.

والتَّحقيقُ: أنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ كلَّ ذلك، وأنَّ الأنعامَ منها رَكُوبةٌ كالإبِلِ، ومنها فَرْشٌ، وهو ما يُؤكَل، ويُشْرَبُ مِن لَبَنِه، مع أنَّه ليس صالحًا للرُّكُوب، فيدخُلُ في الفَرْشِ: الغَنَم، وفِصالُ الإبِلِ، وعَجاجيلُ البَقَر؛ لأنَّ وَلَدَ البَقَرَة يقال له: عِجْلٌ. ويُجمَع على: عَجاجِيلَ، على غير قياسٍ، فالغَنَمُ، وفِصالُ الإبِل، وعجاجيلُ البَقَر؛ كلُّها يَدْخُلُ في الفَرْشِ. قيل: وإنَّما سُمِّيَتْ هذه الصِّغارُ: (فَرْشًا) لقُرْبِها مِنَ الفِراشِ والمِهادِ الذي هو التُّراب؛ لأنَّها صغيرةٌ قِصارٌ قريبةٌ من الأَرْضِ. هكذا قالوا، واللهُ أعلَمُ.

وعلى كلِّ حالٍ؛ فجميعُ الأقوالِ راجِعَةٌ إلى أنَّ اللهَ أَنْشأَ الأنعامَ، وجَعَلَ فيها مِنَّةَ الرَّكوبِ والأَكْل. أمَّا قَوْلُ من قال: (فَرْشًا) فإنَّه لا يتناوَلُ إلَّا ما يُصْنَعُ منه الفِراشُ؛ كالضَّأنِ الذي يُصْنَعُ من صُوفِها الفِرَاشُ، والمَعْزِ الذي يُصْنَع من بعْضِ شَعَرِها الفِرَاش، ونحو ذلك، وأنَّ الفَرْشَ هو ما يستمِدُّه الخَلْقُ من جلودِ الأنعامِ، وأصوافِها، وأَشْعارِها، وأَوْبَارِها- كما يأتي في سُورةِ النَّحل- فهذا قولٌ غيرُ مُتَّجِه؛ لأنَّ المِنَّةَ تكون بمجَرَّدِ الأَصواف، والأَوْبار، والأَشْعار، والجُلُود، لا بنَفْسِ الأنعامِ، والمعروفُ في القُرآنِ- وإنْ ذُكِرَ المِنَّةُ بالأصوافِ والأوبارِ، والأشْعارِ والجُلُود في قولِه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ [النحل: ٨٠] وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الآية [النحل: ٨٠]؛ إلَّا أنَّ المرادَ هنا: الامتنانُ بها جميعًا، وأعْظَمُ أنواعِه: الأكْلُ منها، وهذا المعروفُ في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢] ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ؛ فتَبَيَّنَ أنَّ المِنَّة في الرَّكُوبِ وغَيْرِه من الأكْلِ، وغيرِ ذلك مِنَ النِّعَم؛ يعني: هذا الذي أَنْشَأَ لكم الأنعامَ- حَمُولَتَها وفَرْشَها- هو اللهُ جلَّ وعلا)) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٣٥-٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١).

كما اتَّبَعها المشْرِكونَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ فالشَّيطانُ لكم- أيُّها النَّاسُ- عدُوٌّ بيِّنٌ ظاهِرُ العَدَاوةِ، لا يأمُرُكم إلَّا بما فيه ضَرَرُكم وشقاؤُكم الأَبَدِيُّ(١).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ...﴾ فيه التَّذكيرُ بمِنَّةِ اللهِ تعالى على النَّاسِ بما أنشَأَ لهم في الأَرْضِ مِمَّا ينفَعُهم(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ من الإِسْرافِ، وهو مجاوزَةُ الحَدِّ، والاعتداءُ كذلك، وذلك إمَّا شرعيٌّ، كتَجَاوُزِ الحَلالِ من الطَّعامِ والشَّرابِ وما يتعلَّق بهما إلى الحَرامِ، وإمَّا فطريٌّ طَبَعِيٌّ، وهو تجاوُزُ حَدِّ الشِّبَعِ إلى البِطْنَةِ الضَّارَّة(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المقصودُ منه الزَّجرُ؛ لأنَّ كُلَّ مُكَلَّفٍ لا يحبُّه اللهُ تعالى فهو من أهْلِ النَّارِ؛ والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨] فدلَّ هذا على أنَّ كلَّ مَن أحَبَّه اللهُ فليس هو مِن أهْلِ النَّارِ، وذلك يُفيدُ مِن بعضِ الوُجوهِ أنَّ مَن لم يحِبَّه اللهُ فهو مِن أَهْلِ النَّارِ(٤).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى في آيةٍ سابقةٍ: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩] فأمَرَ تعالى هناك بالنَّظَرِ في أحوالِها والاستدلالِ بها على وجودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٢١-١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٥).

الصَّانِعِ الحكيمِ، وذَكَرَ في هذه الآيةِ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فأذِنَ في الانتفاعِ بها، وأَمَرَ بصرفِ جزءٍ منها إلى الفُقراءِ؛ فالذي حَصَل به الامتيازُ بين الآيتينِ: أنَّ هناك أَمَرَ بالاستدلالِ بها على الصَّانِعِ الحكيمِ، وهاهنا أَذِنَ في الانتفاعِ بها، وذلك تنبيهٌ على أنَّ الأمرَ بالاسْتِدلالِ بها على الصَّانِعِ الحكيم مُقَدَّمٌ على الإِذْنِ في الانتفاعِ بها؛ لأنَّ الحاصِلَ من الاستدلالِ بها سعادةٌ روحانيَّةٌ أبديَّة، والحاصِل من الانتفاعِ بهذه سعادةٌ جُسمانيَّةٌ سريعةُ الانقضاءِ، والأوَّلُ أَوْلى بالتقديمِ؛ فلهذا السَّبَبِ قَدَّمَ اللهُ تعالى الأمْرَ بالاسْتِدلالِ بها على الإِذْنِ بالانتفاعِ بها[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أُعيدَ في هذه الآيةِ غالبُ ما ذُكِرَ في نظيرَتِها المتقَدِّمَةِ في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، لكِنْ لَمَّا كان المقصودُ من الآيةِ الأُولى في التَّرتيبِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ...﴾ [الأنعام: ٩٩]، الاستدلالَ على أنَّه الصَّانِعُ، وأنَّه المنفرِدُ بالخَلْقِ، فكيف يُشْرِكونَ به غيرَه؛ ذَيَّلَها بِقَوْلِه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وعَطَفَ عليها قولَه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] الآيات، ولَمَّا كان المقصودُ من هذه: الامتنانَ وإبطالَ ما ينافي الامتنانَ؛ ذُيِّلَتْ هذه بِقَوْلِه: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ يُفيدُ أنَّ أوَّلَ وقتِ إباحةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

الأَكْلِ وَقْتَ إِطْلاعِ الشَّجَرِ الثَّمَرَ، والزَّرْعِ الحَبَّ؛ لئلَّا يُتَوَهَّم أنَّه لا يُباحُ إلَّا إذا أدرَكَ وأينَعَ؛ فشَجَرُ العِنَبِ يُنتفَعُ بثَمَرِه حِصْرِمًا فعِنَبًا فزَبيبًا، والنَّخْلُ يُؤكَلُ ثَمَرُه بُسْرًا فرُطَبًا فتَمْرًا، والقَمْحُ يُؤكَل حَبُّه فَرِيكًا قبل يُبْسِه، وأَكْلِه بُرًّا مَطبوخًا، أو طَحْنِه وجَعْلِه خُبْزًا[1].

٤- تمسَّكَ بعضُهم بِقَوْلِه: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ﴾ بأنَّ الأَصْلَ في المنافِعِ الإباحةُ والإطْلاقُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كُلُوا﴾ خطابٌ عامٌّ يتناوَلُ الكُلَّ، فصار هذا جاريًا مَجْرى قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2] [البقرة: ٢٩].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، استدَلَّ به مَن أوْجَبَ الزَّكاةَ في كلِّ زرْعٍ وثَمَرٍ؛ خصوصًا الزيتونَ والرُّمانَ المنصوصَ عليهما[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، تقديمُ ذِكْرِ الأَكلِ على التَّصدُّقِ؛ لبيانِ أنَّ رعايةَ النَّفْسِ متقدِّمةٌ على الغَيرِ، ولبيانِ أنَّ الابتداءَ بالنِّعمةِ كان مِن فَضْلِه تعالى قبلَ التَّكليفِ[4].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الاقترانَ لا يُفيدُ التَّسويةَ في الأَحْكام؛ فاللهُ تعالى قَرَنَ الأَكلَ- وليس بواجبٍ اتِّفاقًا- بالإيتاءِ المذكورِ، وهو واجِبٌ اتِّفاقًا[5].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فيه دليلٌ على وجوبِ الزَّكاةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٧٠).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).

الثِّمارِ، وأنَّه لا حَوْلَ لها، بل حَوْلُها حَصادُها في الزُّروعِ، وجَذاذُ النَّخيلِ، وأنَّه لا تتكَرَّرُ فيها الزَّكاةُ، لو مَكَثَت عند العبدِ أحوالًا كثيرةً، إذا كانت لغَيرِ التِّجارةِ؛ لأنَّ اللهَ لم يأمُرْ بالإخراجِ منه إلَّا وَقْتَ حَصادِه(١).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أمْرٌ بإيتاءِ حَقِّه يومَ الحصادِ؛ ليهتَمَّ به المُكَلَّفُ حينئذٍ؛ حتَّى لا يُؤَخِّرَه عن أوَّلِ وَقتٍ يُمكِنُ فيه الإيتاءُ(٢).

١٠- في قَوْلِه تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ اقتصَرَ على الأَمْرِ بالأَكْلِ؛ لأنَّه المقصودُ من السياقِ؛ إبطالًا لتحريمِ ما حَرَّموه على أنفُسِهم، وتمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فالأمرُ بالأَكْلِ هنا مستعمَلٌ في النَّهيِ عن ضِدِّه، وهو عَدَمُ الأَكْلِ مِن بَعْضِها؛ أي: لا تُحَرِّموا ما أُحِلَّ لكم منها؛ اتِّباعًا لتغريرِ الشَّيطانِ بالوَسْوسةِ لزُعَماءِ المُشْركينَ الَّذينَ سَنُّوا لهم تلك السُّنَنَ الباطِلَةَ، وليس المرادُ بالأمرِ الإباحةَ فقط(٣).

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ التعبيرُ بخُطُواتِ الشَّيطانِ يدلُّ على أنَّ شرائِعَه سريعةُ الاندراسِ، فلَوْلَا مزيدُ الاعتناءِ مِنَ الفَسَقَة بالتَّتبُّعِ في كلِّ خُطوةٍ حالَ تأثيرِها؛ لبادَرَ إليها المحوُ؛ لبُطلانِها في نَفْسِها، فلا أمْرَ مِنَ الله يُحييها، ولا كِتابَ يُبْقِيها(٤).

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ الظَّاهِرُ دخولُ قولِه: ﴿وَالنَّخْلَ﴾ وما بَعْدَه في قولِه: ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٣).

وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ فاندرَجَ في جنَّاتٍ، وخُصَّ بالذِّكرِ وجُرِّدَ؛ تعظيمًا لمنفَعَتِه، والامتِنانِ به[1].

- وتعريفُ المُسنَدِ في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ يفيدُ الاختصاصَ؛ أي: هو الذي أنشَأَ لا غيرُه، والمقصودُ مِن هذا الحَصْرِ إبطالُ أن يكونَ لغَيرِه حظٌّ فيها؛ لإبطالِ ما جَعَلوه مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ مِن نَصيبِ أنصابِهم؛ مع أنَّ اللهَ أنشَأَه[2].

٢- **قوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾** غيَّرَ أُسلوبَ الحِكايةِ عَن أحوالِ المُشْركينَ، فأقبَلَ على خطابِ المؤمنينَ بهذه المِنَّة وهذا الحُكْمِ، فهذه الجُمَلُ مُعترِضَةٌ، وهي تعريضٌ بتسفيهِ أحلامِ المُشركينَ؛ لِتَحريمِهم على أنفُسِهم ما مَنَّ اللهُ به عليهم[3].

- وتقديمُ المجرورِ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ على المفعولِ ﴿حَمُولَةً﴾ الذي هو أَوْلى بالتَّقديمِ في ترتيبِ المتَعَلِّقاتِ؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بأمْرِ الأَنعامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٢٥).

الآيتان (١٤٣-١٤٤)

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَصَّاكُمْ﴾: الوصيَّةُ: التقدُّمُ إلى الغَيرِ بما يَعمَلُ به، والوصيَّةُ مِن اللهِ هي الأمرُ المؤكَّدُ، والتَّوصيَةُ تُعرِبُ عن تأكيدِ الأَمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأَصْلُ (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيءٍ بشَيءٍ؛ يقال: وَطِئْنَا أرضًا واصِيةً، أي: إنَّ نَبْتَها متَّصِلٌ قد امتَلَأتْ منه، ومنه الوصِيَّة؛ كأنَّه كلامٌ يُوصَى؛ أي: يُوصَلُ[١].

مُشْكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾

﴿ثَمَانِيَةَ﴾: منصوبٌ، على أنَّه بدلٌ مِنْ ﴿حَمُولَةً وفَرْشًا﴾، أو بإضمارِ فِعلٍ؛ تقديرُه (أَنْشَأَ).

﴿اثْنَيْنِ﴾ منصوبٌ، وفي نَصْبِه وجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، والثاني: أنَّه منصوبٌ بـ (أَنْشَأَ) مُقدَّرًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٠-١٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه خَلَقَ من الأَنْعامِ ثمانِيَةَ أزواجٍ: مِنَ الضَّأنِ الذَّكَرَ والأُنثى، ومِنَ المَعْزِ كذلك الذَّكَرَ والأُنثى، ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لِمَن حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ، بتَحْريمهم بعضًا من الأَنْعامِ دونَ بعضٍ، أو بتَحْريمِهم بعضَ تلك الأَنعامِ على إناثِهم دونَ ذكورِهم؛ أمَرَه أن يُخاطِبَهم مُلزِمًا لهم بأنَّه لا فَرْقَ بين ما حَرَّموا وما أباحُوا: أَحَرَّمَ ربِّي الذَّكَرينِ: ذَكَرَ المَعْزِ والضَّأْنِ، أم حَرَّمَ الأُنْثَيين منهما، أم كان التَّحريمُ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنْثَيَينِ؟ وهم لا يقولونَ بواحدٍ من هذه الأقوالِ، فإذا كان ذلك كذلك فلِمَ حَرَّموا بَعْضًا منها، وأحَلُّوا بعضًا آخَرَ؟ وأَمَرَه تعالى أن يَطْلُبَ منهم إخبارَهُ بيقينٍ وعِلْمٍ عن الفَرْقِ بين ما حَرَّموا وأحَلُّوا إنْ كانوا صادقينَ.

ثم ذَكَرَ اللهُ بقيَّةَ الأَزْواجِ الثَّمانِيَةِ بعد أنْ ذَكَرَ أربعةً منها؛ فذَكَرَ هنا مِنَ الإبِلِ اثنينِ: الذَّكَرَ والأُنثى، ومن البَقَرِ اثنينِ كذلك: الذَّكَرَ والأنثى، ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعيدَ عليهم نَفْسَ الحُجَّة، فيقول لِمَن حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ، وذلك بتَحْريمهم بعضًا من الأنعامِ دون بعضٍ، أو بِتَحْريمِهم بعضَ تلك الأنعامِ على الإِناثِ دونَ الذُّكورِ؛ أَمَرَه أن يخاطِبَهم؛ مُلْزِمًا لهم بأنَّه لا فَرْقَ بين ما حَرَّموا وبين ما أباحوا: أَحَرَّمَ ربِّي الذَّكَرينِ: ذَكَرَ الإبِلِ والبَقَرِ، أم حَرَّمَ الأنثيين منهما، أمْ ما اشْتَمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنْثَيَينِ؟ وهم لا يقولونَ بواحدٍ من هذه الأَقْوالِ، فإذا كان ذلك كذلك، فلِمَ حَرَّموا بعضًا منها، وأَحَلُّوا بعضًا آخَرَ؟ أم أنَّهم كانوا شُهَداءَ حين وصَّاهم اللهُ بهذا الذي يتَقَوَّلونَه عليه؟ وهذا كذلك باطِلٌ، ثم أخبَرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أَشَدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ تعالى؛ لِيُضِلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلمٍ، واللهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ القَومَ الظَّالِمينَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيتينِ لِمَا قَبْلَهما:

أنَّ الله تعالى لَمَّا رَدَّ دِينَ المشركينَ وأثبَتَ دِينَه، وكانوا قد فَصَّلوا الحُرمةَ بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الآدميِّ وإناثِه؛ ألزَمَهم تفصيلَها بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الأنْعامِ وإناثِه، ففَصَّلَ أَمْرَها في أُسْلوبٍ أبانَ فيها أنَّ فِعْلَهم بعيدٌ من قانونِ الحكمةِ، فهو موضِعٌ للاستهزاءِ، وأهلٌ للتهَكُّمِ(١)، فقال تعالى:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ تعالى مِنَ الأنعامِ- التي امتنَّ بها على عبادِه، وجَعَلَها كلَّها حلالًا طيِّبًا- ثمانيةَ أزواجٍ، ومنها الذَّكَرُ والأنثى من الضَّأنِ والمعْزِ، فمِنَ الضَّأْنِ الكَبْشُ والنَّعجةُ، ومن المعْزِ التَّيْسُ والعَنْزُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الَّذينَ حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ، فيُحَرِّمونَ من الأَنْعامِ شيئًا دونَ شَيءٍ، أو يُحَرِّمونَ بَعْضَها على الإناثِ دُونَ الذُّكورِ، فقل مُلْزِمًا لهم بعَدَمِ وُجودِ الفَرْقِ بين ما أباحوا منها وما حَرَّموا: أحَرَّمَ اللهُ الذَّكرينِ؛ ذَكَرَ المعْزِ والضَّأنِ؟ فليس هذا قَوْلَكم، أم حَرَّمَ أُنثَيَيْهما؟ فليس هذا بِقَوْلِكم أيضًا. فلَسْتُم تقولونَ بتحريمِ الذُّكورِ الخُلَّصِ، ولا الإناثِ الخُلَّصِ من الضَّأْنِ والمَعْزِ. أم تُحَرِّمون ما اشتَمَلَت عليه أرحامُ أنثى الضَّأنِ وأنثى المَعْزِ، من غيرِ فَرْقٍ بين ذَكَرٍ وأنثى؟ فلستُم تقولونَ أيضًا بهذا القَولِ. فإذا كُنْتم لا تقولونَ بأحدِ هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ تَفريقَكم بينَ بعضِ الذُّكورِ وبَعْضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطُونِ الأنعامِ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بعضَه؛ تفريقٌ باطِلٌ[1]؟!

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: أخبِروني عن يقينٍ وعِلمٍ بصِحَّةِ هذا الذي حَرَّمْتُم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٧-٣٤٨).

قال الشِّنقيطيُّ: (تفريقُكم بين بَعضِ الذُّكورِ وبَعضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطونِ الأنعامِ؛ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بَعضَه، إن كانت العِلَّةُ في تحريمِ الذَّكَرِ الذُّكُورةَ، فكان اللَّازِمُ أن يَحرُمَ كلُّ ذَكَرٍ؛ لاطِّرادِ العِلَّةِ، وإن كانت الأنوثةَ لَزِمَ أن تَحرُمَ كُلُّ أنثى؛ لاطِّرادِ العلَّة، وإن كان كَونَه في البُطونِ- مُشتَمِلةً عليه الرَّحِمُ- لَزِمَ أن يَحرُمَ كُلُّ مولودٍ مِن ذَكَرٍ وأنثى، وكلُّ لَبَنٍ؛ لأنَّ الكُلَّ اشتمَلَت عليه الرَّحِمُ!!

فكأنَّه يقولُ: تفريقُكم هذا باطِلٌ؛ لأنَّه لو كانت العِلَّةُ الذُّكورةَ لَحَرُمَ ذَكَرُ الضَّأنِ والمَعزِ معًا، وأنثاهما كُلًّا، ولو كانت التَّخَلُّقَ في الرَّحِمِ لَحَرُمَ ما اشتمَلَت عليه الرَّحِمُ مُطلقًا، فلِمَ حَرَّمتُم بعضَ هذا، وحلَّلتُم بعضَ هذا؟! وما الفارِقُ بين ما حَلَّلتم وحَرَّمتُم؟) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٤٨).

وهذا الذي أَحْلَلْتم؛ ما وَجْهُ تحريمِكم لِهذا، وتحليلِكم لِذاك مع استواءِ الجميعِ؛ إن كنتم صادقينَ في دعواكم هذه[١]؟

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

انتقَلَ مِن تَوبيخِهم بنَفْيِ عِلْمِهم بذلك إلى تَوبيخِهم بنَفْيِ شَهادَتِهم؛ لأنَّ مُدْرَكَ الأشياءِ المعقولُ والمحسوسُ، فإذا انتفَيا فكيفَ يُحْكَم بتحليلٍ أو بتحريمٍ؟ وكيفيَّةُ انتفاءِ الشَّهادةِ منهم واضحةٌ، وكيفيَّةُ انتفاءِ العِلْمِ بالعَقْلِ أنَّ ذلك مستنِدٌ إلى الوَحْيِ، وكانوا لا يُصَدِّقونَ بالرُّسُلِ، ومع انتفاءِ هَذَينِ كانوا يقولون: إنَّ اللهَ حَرَّمَ كذا؛ افتراءً عليه[٢].

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: وخَلَقَ الله تعالى من الأنعام- التي امتنَّ بها على عبادِه، وجَعَلَها كُلَّها حلالًا طَيِّبًا- ثمانيةَ أزواجٍ، ومنها الذَّكَرُ والأُنثى من الإبلِ والبَقَر؛ فمن الإبلِ: الجَمَلُ والنَّاقة، ومن البَقَرِ: الثَّورُ والبَقَرة[٣].

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الَّذينَ حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٤، ٦٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٦).

فيُحَرِّمونَ من الأنعامِ شيئًا دون شيءٍ، أو يُحَرِّمونَ بَعْضَها على الإناثِ دُون الذُّكورِ، فقل مُلْزِمًا لهم بعَدَمِ وُجودِ الفَرْقِ بين ما أباحوا منها وحَرَّموا: أحَرَّمَ اللهُ الذَّكَرينِ؛ ذَكَرَ الإبِلِ والبَقَرِ؟ فليس هذا قَوْلَكم. أم حَرَّمَ أُنثَيَيْهما؟ فليس هذا بقَوْلِكم أيضًا. فلَسْتُم تقولونَ بتحريمِ الذُّكورِ الخُلَّصِ، ولا الإناثِ الخُلَّصِ من الإبِلِ والبَقَرِ. أم تُحَرِّمون ما اشتَمَلَت عليه أرحامُ أنثى الضَّأنِ وأنثى المَعْزِ، من غيرِ فَرْقٍ بين ذَكَرٍ وأنثى؟ فلستُم تقولونَ أيضًا بهذا القَولِ. فإذا كُنْتم لا تقولونَ بأحدِ هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ تَفريقَكم بينَ بعضِ الذُّكورِ وبَعْضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطُونِ الأنعامِ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بعضَه؛ تفريقٌ باطِلٌ[1].

فلَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى بُطلانَ قَوْلِهم وفسادَه، قال لهم قولًا لا حِيلةَ لهم في الخُروجِ مِن تَبِعَتِه؛ حيثُ أَمَرَ نَبِيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهؤلاءِ الجَهَلَةِ من المشركينَ الَّذين أَخْبَر عنهم في الآياتِ السَّابقة[2].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾.

أي: أم كنتم- أيُّها المشركونَ- حاضرينَ حين وصَّاكم الله تعالى بهذا الذي تقولونَ عليه سبحانه[3]؟ فهذا باطِلٌ أيضًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٥، ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٣) بيَّنَ اللهُ تعالى بُطلانَ قَولِهم هذا على طَريقةِ السَّبر والتقسيم، وهي حصرُ الأوصافِ في الأصلِ؛ للإبقاءِ على الصوابِ، وإلغاءِ الباطلِ منها، فالكفَّار لَمَّا حرَّموا ذكورَ الأنعامِ تارةً، وإناثَها أُخرى ردَّ عليهم بالسَّبر والتقسيمِ، وطريقُه: أنَّ علةَ الحرمةِ إمَّا الذُّكورة أو الأُنوثة، أو اشتمالُ الرَّحم عليهما، أو التعبدُ عن اللهِ، وذلك إمَّا بوحيٍ، أو إرسالِ رسولٍ، أو سماعِ كلامِه بلا واسطةٍ، فهذه وجوهُ التحريمِ لا غيرُ، فالأوَّل يستلزمُ حرمةَ جميعِ الذُّكور، والثاني: حرمةَ جميعِ الإناثِ، والثالث: حرمةَ الصنفين معًا، والأخذُ عن الله باطلٌ، ولم يدَّعوه، وكذلك بواسطةِ رسولٍ؛ لأنَّه لم يأتِ إليهم قبلَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذا بطَل الجميعُ ثبَت المدَّعى، وهو أنَّ ما قالوه افتراءٌ وضلالٌ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (ص: ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٩-٦٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٩).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: لا أَحَدَ أشدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَبَ على الله تعالى، بقَصْدِ إضلالِ عبادِ اللهِ عن سبيلِ الله بغيرِ بيِّنةٍ منه ولا بُرهانٍ(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ الظَّالِمينَ(٢)، ومِن جُمْلَتِهم مَنِ افترَى عليه الكَذِبَ، فأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْه سبحانَه(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ قيل: قدَّمَ الضَّأْنَ على المَعْزِ لغلاءِ ثَمَنِه، وطِيبِ لَحْمِه، وعِظَمِ الانتفاعِ بِصُوفِه(٤).

٢- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، تفصيلُ ما ذُكِرَ من الذُّكورِ والإناثِ وما في بُطونِها؛ للمبالغةِ في الرَّدِّ عليهم بإيرادِ الإنكارِ على كلِّ مادَّةٍ من موادِّ افترائِهم، فيَظْهَر للمُتفكِّرِ فيه منهم أنَّه لا وَجْهَ يُعْقَلُ لقَوْلِهم(٥).

٣- قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.... ﴾ لَمَّا كانوا قد حَرَّموا في الجاهليَّةِ بَعْضَ الغَنَم، ومنها ما يُسمَّى بالوصيلةِ، وبعض

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٢) قال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالى: ﴿واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]: (عمومٌ معناه الخصوصُ فيمَن حتَّم كفرُه وموافاتُه عليه، ويحتملُ أن يريدَ الإخبارَ عن أنَّ الظَّالمَ في ظُلمِه ليس على هدًى مِن الله، فتجيءُ الآيةُ عامةً تامةَ العمومِ) ((تفسير ابن عطية) (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٢٤-١٢٥).

الإبِلِ كالبَحِيرةِ والوَصيلةِ أيضًا، ولم يُحرِّموا بعضَ المَعْزِ ولا شيئًا من البَقَر، ناسَبَ أنْ يُؤتَى بهذا التقسيمِ قبل الاستدلالِ؛ تمهيدًا لتحَكُّمِهم إذ حَرَّموا بعضَ أفرادٍ من أنواعٍ، ولم يُحَرِّموا بعضًا مِن أنواعٍ أخرى، وأسبابُ التَّحريمِ المزعومةُ تتأتَّى في كلِّ نوعٍ؛ فهذا إبطالٌ إجماليٌّ لِمَا شَرَعُوه، وأنَّه ليس مِن دينِ الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1] [النساء: ٨٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ استدَلَّ به بعضُ المالكيَّةِ على أنَّ الضَّأْنَ والمَعْزَ صنفانِ لا يُجْمَعانِ في الزَّكاةِ، كما أنَّ الإِبِلَ والبَقَرَ كذلك[2].

٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ لَمَّا كانوا عاجزينَ عن الإنباءِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّهم حَرَّموا ما حرَّموه بجهالةٍ وسُوءِ عَقلٍ لا بِعِلْمٍ، وشأنُ مَن يتصَدَّى للتَّحريمِ والتَّحليلِ أن يكون ذا علمٍ[3].

٦- يُستفادُ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنَّه مِنَ الظُّلْمِ أنْ يُقْدِمَ أحَدٌ على الإفتاءِ في الدِّينِ ما لم يَكُنْ قد غَلَبَ على ظَنِّهِ أنَّه يُفْتي بالصَّوابِ الذي يُرضِي اللهَ، وذلك إنْ كان مجتهدًا فبالاستنادِ إلى الدَّليلِ الذي يَغْلِبُ على ظَنِّه مصادَفَتُه لمرادِ الله تعالى، وإن كان مُقَلِّدًا؛ فبالاستنادِ إلى ما يَغْلِبُ على ظَنِّه أنَّه مَذْهَبُ إمامِه الذي قَلَّدَه[4].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أمَرَه اللهُ تعالى أنْ يقولَ لهم تبكيتًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٣٥).

وإظهارًا لانقطاعِهم عن الجوابِ[1]: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، والهمزةُ في قَولِه: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ، وللتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيث نَسَبُوا ما حَرَّموه إلى اللهِ تعالى[2]، المقصودُ في الموضعينِ إبطالُ تحريمِ ما حَرَّمَ المشركونَ أَكْلَه، ونفيُ نِسبَةِ ذلك التَّحريمِ إلى الله تعالى[3].

٢- قوله: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقدْ فَصَلَ بهذه الجُملة المعتَرِضةِ بين المتعاطفَينِ على سَبيلِ التَّقريعِ لهم والتَّوبيخِ؛ حيثُ لم يَسْتَنِدوا في تَحريمِهم إلَّا إلى الكَذِبِ البَحْتِ والافتراءِ[4]، وفيه: تهكُّمٌ؛ لأنَّه لا يُطلَب تلقِّي عِلْمٍ منهم، وهذا التَّهكُّم تابعٌ لصورةِ الاستفهامِ وفرعٌ عنها[5].

- وفيه: تكريرٌ للإلزامِ، وتثنيةٌ للتَّبكيتِ والإفحامِ[6].

٣- قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ معنى الهمزةِ الإنكارُ والتَّوبيخُ[7]، وقد خَصَّ بالإنكارِ حالةَ المشاهَدَة، تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم[8].

- في قوله: ﴿وَصَّاكُمُ﴾ أُطْلِقَ الإيصاءُ على ما أَمَرَ اللهُ به؛ لأنَّ النَّاسَ لم يُشاهِدوا اللهَ حين فِعْلِهم ما يأمُرُهم به، فكان أَمْرُ اللهِ مؤكَّدًا، فعَبَّرَ عنه بالإيصاءِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣١-١٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).

تنبيهًا لهم على الاحترازِ مِنَ التَّفويتِ في أوامِرِ اللهِ[1].

٤- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بَعدَها على ما سَبَقَ من تَبكيتِهم، وإظهارِ كَذِبِهم وافْتِرائِهم[2].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه: تهديدٌ ووعيدٌ لهم إنْ لم يُقْلِعوا عمَّا هُم فيه؛ بأنَّ اللهَ يَحْرِمُهم التَّوفيقَ، ويَذَرُهم في غَيِّهم وعَمَهِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٦).

الآيات (١٤٥-١٤٧)

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿دَمًا مَسْفُوحًا﴾: أي سائلًا مصبوبًا مهراقًا، وأصْلُ السَّفْحِ: إراقةُ الشَّيءِ(١).

﴿رِجْسٌ﴾: أي: قَذَرٌ مُنْتِنٌ، وأَصْلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ، ومنه الرِّجْسُ: بمعنى القَذَر؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ(٢).

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: أي: ذُكِر عندَ ذبحِه غيرُ اسمِ الله، أو ما ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ وإنَّما قيلَ ذلك؛ لأنَّه يُذكَرُ عند ذَبْحِه غيرُ اسْمِ اللهِ فيُظْهَرُ ذلك، أو يُرفَع الصوتُ به، والإهلالُ: رَفْعُ الصَّوتِ عند رُؤيَةِ الهِلالِ، ثمَّ استُعْمِلَ لكلِّ صَوتٍ، وأَهَلَّ بالحَجِّ، أي: رَفَعَ صَوْتَه بالتَّلبِيَةِ، وأَصْلُ (هلل): يدلُّ على رَفْعِ صَوْتٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿اضْطُرَّ﴾: أُلجِئَ وأُحْوِجَ، وأصل الاضطرارِ: فِعلُ ما لا يَتهيَّأُ له الامتناعُ منه[١].

﴿غير بَاغٍ﴾: غيرَ طالبٍ ما ليْسَ له طَلَبُه[٢].

﴿وَلَا عَادٍ﴾: ولا ظالمٍ، والاعتداءُ: التَّجاوُزُ، ومُنافاةُ الالتئام[٣].

﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾: أَي: اليهودُ، وَيُقَال: كَانَت الْيَهُودُ تُنْسَبُ إِلَى يهوذاء بن يَعْقُوب، ويُقال هَادَ فُلان: إذا تحرَّى طريقةَ اليَهُودِ في الدِّينِ[٤].

﴿الْحَوَايَا﴾: الحَوَايَا: جمع حَوِيَّة، وهي الأمعاءُ، وأصله من: حَوَيْتُ كذا حَيًّا وحَوَايَةً، وأَصْلُ (حوي): جَمَعَ[٥].

﴿بِبَغْيِهِمْ﴾: بتَجاوُزِهم الحقَّ إلى الباطِل، وأصل البَغي: طلبُ الشَّيءِ، وجِنسٌ من الفَسَادِ، والظُّلْمُ، والترفُّع والعُلُوُّ، ومجاوزةُ المقْدار[٦].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١ - ٢٥٢).

قَولُه ﴿أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ في محلِّ نصبٍ على الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾، وهذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ لأنَّ المُستثنى كَوْنٌ مسبوكٌ من ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ وليس مَيْتةً، وذلك ليس مِن جِنْسِ الطَّعامِ، وقيل: هو استثناء متَّصِلٌ مِنْ عُمومِ الأكوانِ التي دلَّ عليها وقوعُ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ؛ أي: لا أجِدُ كائنًا مُحَرَّمًا إلَّا الكائِنَ مَيتةً.

﴿فِسْقًا﴾ منصوبٌ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾، وجُملةُ ﴿فَإِنَّه رِجْسٌ﴾ اعتراضٌ بينَ المُتعاطِفَينِ، والتقديرُ: إلَّا أنْ يَكونَ لَحْمَ خِنزيرٍ- فإنَّه رِجسٌ- أو إلَّا أنْ يكونَ فِسقًا[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾

﴿ذلك﴾: اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ، وفي مَحَلِّه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك. الثاني: الرَّفْعُ على أنَّه مبتدأٌ، والخبرُ ما بعده، والعائِدُ محذوفٌ، أي: ذلك جَزَيْناهُمُوه. الثالث: النَّصْبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ قُدِّمَ على عامِلِه؛ لأنَّ (جزى) يتعدَّى لاثنينِ، والتَّقديرُ: جزيناهم ذلكَ التحريمَ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهؤلاءِ المُشركينَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى افتراءً عليه: إنَّه لا يجِدُ فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليه شَيئًا مُحَرَّمًا أَكْلُه- مِمَّا زَعَمُوا أنَّ اللهَ حَرَّمَه- إلَّا أنْ يكونَ مَيْتةً أو دمًا مَسفوحًا، أو لَحْمَ خِنْزيرٍ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ خَبَث ونَجَسٌ مُستَقْذَر، وإلَّا أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٦-١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٠٧).

مِمَّا ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ فإنَّه خُروجٌ عن طاعَةِ اللهِ إلى مَعْصِيَته والكُفْرِ به، فمَنْ أَلْجَأَتْه الضَّرورةُ لأكْلِ إحدى هذه المُحَرَّماتِ، وهو غيرُ مريدٍ لِأكْلِها تلذُّذًا مِن غَيرِ اضْطرارٍ، ولا متجاوِزٍ ما أباحَه اللهُ منها، فهذا لا حَرَجَ عليه في الأكْلِ منها؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

وأخبَرَ تعالى أنَّهُ حَرَّمَ على اليهودِ أكْلَ كُلِّ حيوانٍ مِن ذَوِي الأظْفارِ، وحَرَّمَ عليهم شُحُومَ البَقَرِ والغَنَم، إلَّا ما عَلِقَ بِظَهْرَيْهما من الشُّحومِ؛ فإنَّها مُباحَةٌ لهم، وتُباحُ لهم أيضًا الشُّحومُ التي تَحمِلُها الأمعاءُ، وما جرى مَجراها مِمَّا كان مُدَوَّرًا في البَطْنِ؛ كالمَصَارِينِ ونحوها، وما اختَلَطَ مِنَ الشُّحومِ بالعِظامِ كشَحمِ الألْيةِ، ثم ذَكَرَ تعالى أنَّ ذلك التَّحريمَ والتَّضييقَ كان جزاءَ كُفْرِهم وظُلْمِهم، وأنَّه تعالى صادِقٌ في كُلِّ ما يقولُ ويفعلُ ويَحْكُمُ.

ثم خاطَبَ اللهُ تعالى نَبِيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: إنْ كَذَّبُوك فَقُلْ لهم: إنَّ رَبَّهُم ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطاعَه؛ فَلْيُسارِعوا إلى رَحْمَتِه بِفِعْلِ أَسْبابِها، كما أنَّ مِن رَحْمَتِه بهم إمهالَه لهم، وعدَمَ إعجالِهم بالعِقابِ، وأمَرَه أن يقولَ لهم أيضًا: إنَّ سَطْوَتَه تعالى ونَكالَه وعَذابَه لا يَرُدُّه شيءٌ عَنِ القَومِ المجْرمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى ذمَّ المشركينَ على ما حَرَّمُوا من الحلالِ، ونَسَبُوه إلى الله، وأبْطَلَ قَوْلَهم- أَمَرَ تعالى رَسُولَه أن يُبيِّنَ للنَّاسِ ما حَرَّمَه اللهُ عليهم؛ ليَعْلَموا

أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ فمَنْ نَسَبَ تحريمَه إلى الله تعالى فهو كاذِبٌ مُبْطِلٌ؛ لأنَّ التَّحريمَ لا يكون إلَّا مِن عِند اللهِ على لِسانِ رسولِه، فقال[1]:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّد- لهؤلاءِ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ افتراءً على اللهِ: لا أجِدُ فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليَّ شَيئًا مُحَرَّمًا على آكلٍ يأكُلُه مِمَّا تذكُرونَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَه[2].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((ماتَتْ شَاةٌ لسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ماتَتْ فلانةُ؛ يعني: الشَّاةَ، فقال: فَلَوْلا أَخَذْتُم مَسْكَها[3]، فقالَتْ: نَأْخُذُ مَسْكَ شاةٍ قد ماتَتْ؟ فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: إنَّما قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ فإنَّكم لا تَطْعَمونَه؛ إنْ تَدْبُغوه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (قيل: معناه: لا أجِدُ شيئًا ممَّا حَرَّمتم حرامًا سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجِدُ من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه. فعلى هذا يكونُ ما ورد من التَّحريماتِ بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديثِ الواردة، رافعًا لمفهوم هذه الآية. ومن النَّاسِ من يسمِّي ذلك نَسْخًا، والأكثرون من المتأخِّرينَ لا يُسَمُّونَه نسخًا؛ لأنَّه من بابِ رَفْعِ مباحِ الأَصْلِ، والله أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢). ويرى ابنُ تيميَّة أنَّها ليست منسوخةً. يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٥).

وقال القرطبيُّ: (الآيةُ مَكِّيَّةٌ، ولم يَكُنْ في الشَّريعة في ذلك الوَقْتِ مُحرَّمٌ غَيْرُ هذه الأشياءِ، ثُمَّ نزلَتْ سورةُ المائدَةِ بالمدينةِ، وزِيد في المحرَّماتِ؛ كالمنخَنِقَة والموقُوذةِ والمتَرَدِّيَةِ والنَّطيحةِ والخمرِ وغيرِ ذلك، وحَرَّم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه بالمدينةِ أكلَ كلِّ ذي نابٍ مِن السِّباعِ وكلِّ ذي مخلبٍ مِن الطَّير). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١٥).

(٣) المَسكُ- بفتحِ الميمِ-: الجِلْد؛ لأنَّه يُمسَكُ فيه الشَّيءُ إذا جُعِل سِقاءً. يُنظر: ((غريب الحديث)) للحربي (٢/ ٥٦٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٣١).

فَتَنْتَفِعوا به، فأَرْسَلَت إليها فسَلَخَتْ مَسْكَها فدَبَغَتْه فأَخَذَتْ منه قِرْبَةً حتى تَخَرَّقَتْ عندها))(١).

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾.

أي: إلَّا أن يكونَ المطعومُ مَيْتَةً، قد ماتَتْ بغيرِ ذكاةٍ شَرعيَّةٍ، أو دَمًا مُنْصَبًّا مُسالًا، كالذي يخرُجُ من الذَّبيحةِ عند ذَكاتِها(٢)، أو إلاَّ أن يكونَ لَحْمَ خِنزيرٍ- ويدخُل فيه شَحْمُه بالإجماعِ- فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، خَبَثٌ ونَجَسٌ ونَتَنٌ مُستقْذَرٌ(٣).

﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أي: لا أجِدُ أيضًا فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليَّ شَيئًا مُحَرَّمًا أكلُه- إضافة إلى ما سبق من كونِه مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ- إلَّا أن يكونَ مَذْبوحًا ذُبِحَ لغَيرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٢٧)، وأبو يعلى (٢٣٣٤)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٢٧١٣)، وابن حبان (١٢٨٠)، والطبراني (١١/ ٢٨٩) (١١٧٦٥).
صحَّح إسناده ابنُ جرير الطبري في ((مسند ابن عباس)) (٢/ ٧٩٩)، والنووي في ((المجموع)) (١/ ٢١٨)، وابن تيمية كما في ((نيل الأوطار)) للشوكاني (١/ ٧٧)، وصححه الذهبي في ((المهذب)) (١/ ٢٠)، وصحح إسناده ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ٣٧٠)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٨٣)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٣).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٦٨٦) بنحوه مختصرًا دون ذكرِ الآية؛ من حديث سودةَ بنت زمعة رضي الله عنها.

(٢) قال الشنقيطيُّ: (الدمُ المسفوح: هو الذي صُبَّ من شيءٍ حي، كفصدِ عِرقِ الدابةِ، أو جَرحها فيسيلُ منها دَمٌ، أو هو الذي يَسِيلُ عِنْدَ التَّذْكِيَةِ، كأن تُذْبَح فيَسِيل من عروقِها، أو عندَ العَقرِ كأن يرمِيَها بالنَّبلِ، فيسيل الدَّمُ، هذا هو الدَّمُ المسفوحُ) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
قال الشنقيطي: (واللهُ جلَّ وعلا كأنَّه علَّله، قال: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وقَدْ تَقَرَّر في الأصول، في مَسْلَكِ النَّصِّ، وفي مسلَكِ الإيماءِ والتَّنبيه: أنَّ الفاءَ مِن حُروفِ العِلَّةِ) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٧٩).

اللهِ، فذُكِرَ عليه غيرُ اسْمِه سبحانه؛ فإنَّه خروجٌ عن طاعَةِ الله تعالى إلى مَعْصِيَته والكُفْرِ به[١].

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فمَنْ ألجَأَتْه الضَّرورةُ إلى أكْلِ شَيءٍ مِن هذه المحَرَّماتِ الأربعةِ، بأنْ لم يكُنْ لَدَيه شَيءٌ حلالٌ يَطعَمُه، وخاف على نَفْسِه الموتَ فأكَلَ منها، غيرَ مُريدٍ التلذُّذَ بأكلِها، ولا عادٍ في أكْلِها بتجاوُزِ ما أباحَه اللهُ له، فيأكُلُ بِقَدْرِ ما يَدْفَعُ عنه الهلاكَ، ولا يأكُلُ زيادةً عن حاجَتِه؛ فمَنْ كانت هذه حالَه فلا حَرَجَ عليه في الأكْلِ منها حِينَئذٍ؛ فإنَّ رَبَّكَ غفورٌ لِما فَعَلَ من ذلك، يتجاوَزُ عنه ويرفَعُ الإثمَ عنه، ويستُرُ عليه بتَرْكِه عُقوبَتَه على ذلك، ولو شاءَ لَعَاقَبَه عليه، رحيمٌ بإباحَتِه أكْلَ ذلك عند الضَّرورةِ، ولو شاء لَحَرَّمه عليه[٢].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ جلَّ وعلا أشياءَ حَرَّمَها على هذه الأُمَّةِ على لِسانِ نَبِيِّه صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣١-٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٧-١٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٧-٣٨٠).
وليس المقصودُ في الآيةِ حصرَ المحرَّمات في هذه الأربعةِ، وإنما المقصودُ منها الردُّ على مزاعمِ المشركين، وذلك أنَّ الكفَّار- كما قال الشافعيُّ- لَمَّا حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّمه اللهُ، وكانوا على المضادَّةِ والمحادَّةِ، جاءت الآيةُ مُناقضةً لغرضِهم، فكأنَّه قال سبحانَه: لا حلالَ إلا ما حرَّمتموه، ولا حرامَ إلا ما أحْلَلْتموه. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠-٣٨٣).

عليه وسلَّم، وكان قد حَرَّمَها عليهم لمصالِحَ مَعْلُومةٍ عنده جلَّ وعلا؛ بيَّنَ أنَّهُ حَرَّمَ على اليهودِ بَعْضَ الأشياءِ؛ مؤاخذةً لهم، وجزاءً لهم باجْتِرامِهم السَّيِّئاتِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿طَاعِمٍ﴾- نَكِرَة في سياقِ النَّفْيِ- يعُمُّ كُلَّ طاعِمٍ مِن أهْلِ شَرْعِنا وغَيْرِهم، وكان سبحانَه قد حَرَّمَ على اليهودِ أشياءَ غيرَ ما تَقَدَّم؛ فذَكَرَها هنا؛ مُبَيِّنًا لإحاطَةِ عِلْمِه، وتكذيبًا لليهودِ في قَوْلِهم: لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ علينا شيئًا، إنَّما حَرَّمْنَا على أنفُسِنا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نَفْسِه[٢].

وقيل: إنَّ ذلك بيانٌ مِنَ اللهِ تعالى لِمَا حَرَّمَه على بني إسرائيلَ خاصَّةً- عقوبةً لهم لا على أنَّه مِنْ أُصُولِ شَرْعِه على ألسِنَةِ رُسُلِه قَبْلَهم أو بَعْدَهم- إلحاقًا بالمسْتَثْنى في الآيَةِ السَّابِقَةِ بالعَطْفِ عليه، فإنَّه بعد نَفْيِه تعالى تحريمَ أيِّ طعامٍ على أيِّ طاعِمٍ، استثنى من هذا العامِّ ما حَرَّمَه تحريمًا عامًّا مُؤَبَّدًا على غيرِ المضْطَرِّ، ثم ما حرَّمَه تحريمًا عارِضًا على قومٍ مُعَيَّنينَ لسببٍ خاصٍّ[٣].

وقيل: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ التَّحريمَ إنَّما يَستَنِدُ للوَحْيِ الإلهيِّ، أخْبرَ أنَّه حَرَّمَ على بعضِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ أشياءَ، كما حَرَّمَ على أهْلِ هذه المِلَّةِ أشياءَ مِمَّا ذكَرَها في الآيَةِ قَبْلُ؛ فالتَّحريمُ إنَّما هو راجِعٌ إلى الله تعالى في الأُمَمِ جَميعِها[٤]، فقال تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾.

أي: وحرَّمْنا على اليهودِ أكْلَ كُلِّ حيوانٍ مِنْ ذَواتِ الأَظْفارِ (أي مِمَّا له ظُفُرٌ في أُصْبُعِه)، كالنَّعامة والبَعيرِ والإِوَزِّ والبَطِّ[٥].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٨، ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾.

أي: وحَرَّمنا على اليهودِ شُحُومَ البَقَرِ والغَنَم[1].

عن جابرِ بنِ عبد اللهِ رضي الله عنه، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول عامَ الفَتْحِ، وهو بمكةَ: ((إنَّ اللهَ ورسولَه حرَّمَ بيعَ الخَمرِ والمَيْتةِ والخِنزيرِ والأَصْنامِ. فقيل: يا رسولَ اللهِ! أرأيتَ شُحُومَ المَيْتةِ؛ فإنَّهُ يُطْلَى بها السُّفُنُ، ويُدْهَنُ بها الجلودُ، ويَسْتَصْبِحُ بها الناسُ؟ فقال: لا؛ هو حرامٌ. ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عند ذلك: قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا حرَّمَ عليهم شُحُومَها؛ أَجْمَلوهُ[2] ثم باعوهُ، فأكَلُوا ثَمَنَه))[3].

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾.

أي: ما عدا ما عَلِقَ بِظَهْرِ البَقَرِ والغَنَم من الشُّحُومِ؛ فإنَّها مُباحةٌ لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ الشُّحومَ المحرَّمةَ عليهم مِن البَقَرِ والغَنَم مقصورةٌ على الثُّروب، وشحمِ الكُليتين.

والثُّروب: جمع ثَرْب؛ وهو الغِطَاءُ- الغِشاءُ- من الشَّحْمِ الرَّقيقِ الذي يغطي الجوفَ فيكون على الكَرِشِ والمصارِين، هذا وشَحمُ الكُلَى هو الحرامُ عليهم، أمَّا غيره فيدخُلُ في الاستِثناءاتِ الآتية) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٨٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وقد أباح اللهُ لليَهودِ أكْلَ لُحومِ البَقَرِ والغَنَم، وحَرَّمَ عليهم شُحومَهما إلَّا ما كان في الظَّهرِ. و﴿الْحَوَايَا﴾ معطوفٌ على ﴿ظُهُورُهُمَا﴾، فالمقصودُ العَطفُ على المُباحِ، لا على المُحَرَّم؛ أي: أو ما حَمَلَتِ الحوايا، وهي جَمعُ حَوِيَّةٍ، وهي الأكياسُ الشَّحميَّةُ التي تحوي الأمعاءَ. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو الشَّحمُ الذي يكونُ مُلتَفًّا على عَظمِ الحَيوانِ مِنَ السِّمَنِ، فهو مَعفُوٌّ عنه؛ لِعُسرِ تَجريدِه عن عَظمِه، والظَّاهِرُ أنَّ هذه الشُّحومَ كانت مُحرَّمةً عليهم بشريعةِ موسى عليه السَّلامُ) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٢).

(٢) أَجْمَلوهُ: أي أذابُوه، والضَّميرُ راجعٌ إلى الشَّحْمِ المفهومِ من الشُّحومِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٩٦).

(٣) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٩).

﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾.

أي: أو ما حَمَلَتْه الحوايا وهي الأمعاءُ، وما جرى مَجْرَاها مِنْ كُلِّ ما كان مُدَوَّرًا في البَطْنِ كالمَصَارِينِ ونحو ذلك، فالمتَعَلِّقُ بهذا من الشَّحْمِ لا يَحْرُمُ عليهم أيضًا[١].

﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾.

أي: وما اختَلَطَ من الشُّحُومِ بالعِظامِ، كشَحْمِ الأَلْيةِ وغيرِه؛ حلالٌ لهم أيضًا[٢].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

أي: ذلك التَّضييقُ والتَّحريمُ على اليَهودِ إنَّما فَعَلْناه بهم عقوبةً لهم؛ بسبَبِ كُفْرِهم، وظُلْمِهم، ومُخالَفَتِهم أوامِرَنا، وتَعَدِّيهم في حقوقِ اللهِ، وحُقوقِ عبادِه، وإنَّا لَصَادِقونَ في كُلِّ ما نقولُ ونفعَلُ ونَحْكُم به، ومن ذلك ما ذَكَرْنا مِن تَحْرِيمنا عليهم ما حَرَّمْنا، وما جَزَيْناهم به[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١).
وشحمُ الأَلْية داخلٌ فيما اختلط بعظم بالإجماع.
قال الواحديُّ: (﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: شحمَ الأليةِ في قول جميعِهم) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٥-٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١-٣٩٤).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

أي: فإنْ كَذَّبَك- يا مُحمَّدُ- مخالِفُوكَ مِنَ المُشْرِكينَ واليهودِ، وتمرَّدوا؛ فَقُلْ لهم ترغيبًا وتَرْهيبًا وجَمْعًا بين الوَعْدِ والوَعيدِ: ربُّكم الذي أنشَأَكُم وأوجَدَكُم، ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطَاعَهُ، فيَرْحَمُه ويُدْخِلُه جَنَّته؛ فسارِعُوا إلى رَحْمَتِه بأسبابِها، التي رَأْسُها تصديقُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما جاءَ به، وقد رَحِمَكُم ربُّكم؛ حيثُ أَمْهَلَكم، ولم يُعاجِلْكم بعُقُوبَتِه، وأَغْدَقَ عليكم نِعَمَه، وأنتم تُكذِّبونَ رُسُلَه، وتتمَرَّدونَ عليه[1].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: ولكِنْ سَطْوَتُه ونَكَالُه وعَذابُه، لا يَرُدُّه شَيءٌ عَنِ الَّذين اكتَسَبوا الذُّنوبَ العَظيمةَ، إذا أَحَلَّه عليهم؛ فاحذَرُوا الجرائِمَ الموصِلَةَ لعِقابِه، والتي أَعْظَمُها ورَأْسُها تكذيبُ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[2].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الظلمُ سببٌ للعُقوباتِ وتحريمِ بعضِ الطيِّباتِ، كما وقعَ لليهودِ، حيث قال سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلى قَوْلِه ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ فحَرَّم تعالى على اليَهودِ طائِفَةً من الطَّيِّباتِ، ولم يُحِلَّها لهم في حالٍ من الأحوالِ عقوبةً لهم، وفي ذلك أتَمُّ تحذيرٍ لهذه الأُمَّةِ مِنْ أنْ يَبْغُوا؛ فيُعاقَبُوا كما عُوقِبَ مَنَ قَبْلَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٣-٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٧-٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٩).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فقُلْ ربُّكم ذو رحمةٍ واسِعَةٍ بِمَنْ كان مؤمِنًا مِن عبادِه، وبِغَيْرِهم مِن خَلْقِه؛ فرَحْمَتُه تعالى تَسَعُ المُحْسِنَ والمُسِيءَ، وهو لا يَعْجَلُ على مَنِ استَحَقَّ العقابَ؛ حِلْمًا منه ورحمةً؛ فإنَّ بعضَهم قد يتُوبُ إلى الله تعالى. ولكِنَّ بأسَهُ شديدٌ لا يَرُدُّه عن المُجْرمينَ إلَّا حِلْمُه، وما قَدَّرَه مِن إمْهالِهم إلى أجَلٍ مَرْسومٍ؛ وهذا القَوْلُ فيه مِنَ الإطْماعِ في الرَّحمةِ بِقَدْرِ ما فيه مِنَ الإرْهابِ بالبَأْسِ، واللهُ الذي خَلَقَ قُلوبَ البَشَرِ يُخاطِبُها بهذا وذاك؛ لعَلَّها تهتَزُّ وتتلَقَّى وتستجيبُ(١).

٣- ينبغي ألَّا يغتَرَّ أحدٌ في سُوءِ أعمالِه وتحقيقِ ضَلالِه، بإمهالِ اللهِ تعالى له؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فلمَّا أخبَرَ عن رحْمَتِه، نوَّهَ بعظيمِ سَطْوَتِه(٢).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّه إنَّما حُرِّمَ مِنَ المَيْتَةِ أَكْلُها، وأنَّ جِلْدَها يَطْهُرُ بالدِّباغِ(٣).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ ظاهِرُ الآيةِ- مع عَطْفِ ما حَرَّمَ على بني إسرائيلَ عليها- أنَّ حَصْرَ مُحَرَّماتِ الأطعِمَةِ في الأنواعِ الأربعةِ أَصْلٌ من أصولِ شَرائِعِ جَميعِ رُسُلِ اللهِ تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٣١).

٣- تقييدُ الدَّمِ بـ (المَسْفُوح) للتَّنبيهِ على العَفْوِ عن الدَّمِ الذي يَنِزُّ مِنْ عُرُوقِ اللَّحْمِ عند طبْخِه؛ فإنَّه لا يُمْكِنُ الاحترازُ عنه[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، لم يَقُلْ: (أو خِنْزيرًا)؛ لِيُفيدَ تحريمَ لَحْمِه على كلِّ حالٍ سواءٌ ذُبِحَ أم لا، ولو قيل: (أو خِنزيرًا) لاحتمَلَ أنْ يُرادَ تحريمُ ما أُخِذَ منه حيًّا فقط[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ لَمَّا ذَكَرَ المحَرَّم لِعَيْنِه، ذَكَرَ المحَرَّم لعارِضٍ، فقال مبالغًا في النَّفْيِ عنه: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾، وهو ما ذُبِحَ لغَير اللهِ، وسَمَّاه اللهُ (فِسْقًا)، فجَعَلَه كأنَّه بِعَيْنِه هو عينُ الفِسْقِ الذي وَقَعَ النَّهيُ لأَجْلِه؛ وذلك لتَوَغُّلِه في الفِسْقِ[3].

٦- قوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ صفةٌ أو بيانٌ لـ﴿فِسْقًا﴾، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ تحريمَ ما أُهِلَّ لغَيرِ اللهِ به ليس لأنَّ لَحْمَه مُضِرٌّ؛ بل لأنَّ ذلك كُفْرٌ باللهِ[4].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ بُنِيَ للمَفعولِ؛ لأنَّ المعْتَبَر حصولُ الاضطرارِ، لا كَوْنُه مِن مُعَيَّنٍ[5].

٨- أُخِذَ مِنَ التَّعبيرِ بالاضطرارِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ حُرْمَةُ ما زادَ على سَدِّ الرَّمَقِ؛ لأنَّه حِينئذٍ لا يكونُ مُضْطَرًّا[6].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فيه رحمةُ اللهِ تعالى بهذه الأُمَّةِ؛ حيث أَحَلَّ لها الخبائِثَ عند الضَّرورةِ رحمةً بها، وأزال عنها في تلك الحالَةِ ضُرَّها[١].

١٠- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا...﴾لم يَذْكُرِ اللهُ تحريمَ لَحْمِ الخِنزيرِ، مع أنَّه مِمَّا شَمِلَه نصُّ التَّوراةِ؛ لأنَّه إنَّما ذَكَرَ هنا ما خُصُّوا بتحريمِه مِمَّا لم يُحَرَّمْ في الإسلامِ، أي: ما كان تحريمُه مُوَقَّتًا[٢].

١١- في قولِه: ﴿حَرَّمْنَا﴾ تكذيبُ اليَهودِ في قولِهم: إنَّ اللهَ لمْ يُحَرِّمْ علينا شيئًا، وإنَّما حَرَّمْنا على أنفُسِنا ما حَرَّمَه إسرائيلُ على نَفْسِه[٣].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ استدلَّ به الشَّافعيُّ على أنَّ مَن حَلفَ لا يأكُلُ الشَّحْمَ، حنَث بأكلِ ما على الظَّهْرِ؛ لأنَّه تعالى استثناه من جُملةِ الشُّحومِ[٤].

١٣- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ذُكِرَ في الجوابِ سَعَةُ رَحْمَتِه تعالى، مع أنَّ المَحَلَّ مَحَلُّ عقوبةٍ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أن يكونَ ذلك نفيًا للاغترارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِه في الاجتراءِ على مَعْصِيَتِه، وذلك أبلَغُ في التهديدِ؛ فمعناه: لا تغْتَرُّوا بسَعَةِ رَحْمَتِه، فإنَّه مع ذلك لا يُرَدُّ عذابُه عنكم[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٦).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٣).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٧٩).

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشَأَ عن إبطالِ تحريمِ ما حَرَّمَه المشركونَ؛ إذ يتوجَّهُ سؤالُ سائلٍ مِنَ المسلمينَ عن المحَرَّماتِ الثَّابتةِ؛ إذْ أُبْطِلَتِ المُحَرَّماتُ الباطِلَةُ[1].

- وفيه: مبالغةٌ في بيانِ انحصارِها في ذلك المذكورِ[2].

٢- تقديمُ المجرورِ على متعلِّقِه في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أي: عليهم لا على غَيرِهم من الأُمَمِ[3].

٣- قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الإضافةُ في قوله: ﴿شُحُومَهُمَا﴾ تدلُّ على تأكيدِ التَّخصيصِ والرَّبْطِ[4].

- وتقديمُ المجرورِ على عامِلِه في قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ للاهتمامِ ببيانِ ذلك[5]، ولبيانِ الحَصْرِ، فالمعنى: ومِنَ البَقَرِ والغَنَمِ- دون غَيْرِهما- حَرَّمْنا عليهم ما ذُكِرَ[6].

٤- قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ تذييلٌ يُبيِّنُ علَّةَ تحريمِ ما حُرِّمَ عليهم[7].

٥- قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تذييلٌ للجملةِ التي قبلها؛ قصدًا لتحقيقِ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ذلك[8]، وفيه: إخبارٌ يتضَمَّنُ التَّعريضَ بِكَذِبِهم في قولِهم: ما حَرَّمَ اللهُ علينا شَيئًا، وإنَّما اقتدَيْنا بإسرائيلَ فيما حَرَّمَ على نَفْسِه، ويتضَمَّنُ إدحاضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٤٤).

قَوْلِهم، ورَدَّه عليهم[١].

٦- قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ تفريعٌ على الكلامِ السَّابقِ الذي أبطَلَ تحريمَ ما حَرَّموه، ابتداءً مِن قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...﴾ الآيات[٢].

- وفي قوله: ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ تنبيهٌ لهم بأنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو إمهالٌ داخِلٌ في رَحمةِ اللهِ رحمةً مُؤَقَّتةً؛ لعلَّهم يُسلِمونَ. وعليه يكون معنى فِعْلِ: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ الاستمرارَ؛ أي: إنِ اسْتَمَرُّوا على التَّكذيبِ بعد هذه الحُجَجِ[٣].

- وأَتَتْ جُملةُ: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ اسميَّةً، وجملة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فعليَّةً؛ تنبيهًا على مبالغةِ سَعَةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ أدَلُّ على الثُّبوتِ والتَّوكيدِ مِنَ الفِعْليةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٩٦).

الآيات (١٤٨-١٥٠)

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْحُجَّةُ البَالِغةُ﴾: الحجةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، والدَّلالةُ المُبَيِّنةُ للمَحجَّة، والبالِغةُ: هي التي تبلغُ مرادَه في ثبوتِها على مَنْ احتجَّ بها عليه مِن خلقِه، وقطع عذرِه إذا انتهَتْ إليه، وأَصْلُ (حجج) يدلُّ على القَصْدِ؛ ومنه اشتُقَّت الحُجَّة؛ لأنَّها تُقْصَد، أو بها يُقْصَد الحقُّ المطلوبُ. وأَصْلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ[١].

﴿هَلُمَّ﴾ أَي: أقبِلْ، وهَلُمَّ دعاءٌ إلى الشَّيءِ، وقيل أَصْلُهَا: (هَلْ أَؤُمُّ)، كلامُ مَن يُريدُ إتيانَ الطَّعامِ، ثم كَثُرَتْ حتى تكَلَّم بها الدَّاعي، وتُستعمَلُ لازِمةً؛ نحو: هَلُمَّ إلَينا، أي: أَقبِلْ، ومتعَدِّيةً؛ نحو: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ، أي: أَحْضِرُوهُمْ[٢].

المعنى الإجمالي:

يخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أشْرَكوا سيقولونَ: لو أرادَ اللهُ، ما وَقَعَ منَّا ولا مِن آبائِنا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و(٢/ ٢٩- ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٠).

الشِّرْكُ، ولا حَرَّمْنا مِن شيءٍ، فلَمَّا لم يَفْعَلْ دَلَّ ذلك على رِضاه بذلك، ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ كَذَّبوا بنفْسِ الطَّريقةِ التي كَذَّب بها الَّذين مِن قَبْلِهم، والَّذين لم يَزَلِ التَّكذيبُ دَأْبَهم؛ حتى ذاقُوا بأْسَ الله، ثم أمَرَ اللهُ نَبِيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَ هؤلاءِ المُشركينَ: هل عِنْدَهم مِن عِلْمٍ يقينيٍّ بأنَّ اللهَ راضٍ عنهم؛ فلْيُظْهِروه ولْيُبَيِّنوه، ولْيَقُلْ لهم إنَّهم لا يَتَّبِعون إلَّا مُجَرَّدَ ظُنونٍ، وإنْ هم إلَّا يتَقَوَّلونَ على اللهِ الباطِلَ، ويَكْذِبونَ عليه فيما يَدَّعونَه. ولْيَقُلْ لهم: إنَّ للهِ الحُجَّةَ القاطِعَةَ؛ فلو أرادَ لهَداهُم أجمعينَ. ولْيَطْلُبْ منهم أن يُحْضِروا شُهداءَهم الَّذين يَشْهَدونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم هذا الذي حَرَّموه؛ افتراءً على الله، ونهاه تعالى أن يَشْهَدَ معهم إنْ شَهِدوا، كما نهاه أن يَتَّبِعَ أهواءَ الَّذين كذَّبُوا بآياتِ اللهِ، وكَفَروا باليومِ الآخِرِ، وهم مع ذلك يُشْرِكونَ باللهِ تعالى.

تفسيرُ الآيات:

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا حَكى اللهُ تعالى عن أهْلِ الجاهليَّةِ إقدامَهم على الحُكْمِ في دِينِه بغيرِ حُجَّةٍ ولا دليلٍ؛ حكى سبحانه شُبْهَةً يقولونَها؛ اعتذارًا عن كُلِّ ما يُقْدِمونَ عليه مِنَ الكُفْرِيَّاتِ، ثم أبْطَلَها فقال(١):

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾.

أي: سيقولُ المُشركونَ- احتجاجًا بالقَضاءِ والقَدَرِ على عَدَمِ إذْعانِهم للحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٢، ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).

لَمَّا تَبيَّنَ لهم-: لو أرادَ اللهُ- المطَّلِعُ على ما نحْنُ عليه مِنَ الشِّرْك، والتَّحريم لِمَا حَرَّمناه- أن نُؤْمِنَ به ونُفْرِدَه بالعبادَةِ، وأن نُحلِّل ما حَرَّمْنا؛ لفَعَلَ، ولَمَا جعَلْنا له شريكًا، ولا آباؤُنا مِن قبلِنا، ولا حرَّمنا ما نحرِّمُه مِن هذه الأشياءِ التي نحن على تحريمِها مقيمونَ؛ لأنَّه قادِرٌ على أنْ يُلهِمَنا الإيمانَ، أو يَحُولَ بيننا وبين الكُفْرِ والعِصيانِ، فلمَّا لم يفعَلْ دَلَّ على رضاه بما نحن عليه مُقيمونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩-٢٠].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾.

أي: كما كذَّب هؤلاءِ المشركونَ ما جئتَهم به- يا محمَّدُ- مِن عِنْد اللهِ؛ مِنَ النَّهْيِ عن عبادَةِ شيءٍ غيرِ الله تعالى، وتحريمِ غيرِ ما حرَّم اللهُ سبحانه؛ كذلك كذَّب مَن قَبْلَهم مِنَ فسقةِ الأُمَمِ الماضِيَةِ ما جاءَتْهم به أنبياؤُهم مِن آياتِ اللهِ، وواضحِ حُجَجِه، ولم يَزَلْ هذا التَّكذيبُ دَأْبَهم حتى أَحْلَلْنا بهم عقابَنا، فذاقوا طَعْمَ ألمِ العذابِ والنَّكالِ(٢).

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٠-٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٨-٤٢٩).

أي: قُلْ- يا محمَّد- لهؤلاءِ المشركينَ: هل عِندَكم مِن علْمٍ وبرهانٍ يقينيٍّ بأنَّ الله تعالى راضٍ عنكم فيما أنتم فيه؛ فتُظْهِروه وتبيِّنوه لنا[1]؟

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ: ما أنتم في ذلك كُلِّه إلَّا تتقوَّلونَ على اللهِ تعالى الباطِلَ، وتَكْذِبونَ عليه فيما ادَّعَيْتُموه وَفْقًا لظُنونٍ منكم، بغيرِ عِلمٍ، ولا بُرهانٍ يقينيٍّ[2].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ: فللَّهِ وَحْدَه الحُجَّةُ القاطِعَةُ التي تُظْهِرُ الحَقَّ، وتقطَعُ العُذْرَ؛ فلا تُبقِي لأحدٍ منهم عُذرًا[3].

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فلو شاءَ اللهُ تعالى هدايَتكم لوَفَّقكم أجمعينَ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولكِنَّه لم يَشَأْ ذلك، فخالَفَ بين خَلْقِه؛ فمنهم كافرٌ، ومنهم مؤمِنٌ[4].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨-٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢-٦٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى على الكُفَّارِ جميعَ أنواعِ حُجَجِهم؛ بَيَّنَ أنَّه ليس لهم على قَوْلِهم شهودٌ البتَّةَ[1]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المفْترينَ على ربِّهم، الزَّاعمينَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّموه: أحْضِروا شُهَداءَكم الَّذين يَشْهَدون على اللهِ أنَّه حَرَّمَ عليكم هذا الذي حَرَّمتُموه، وافترَيْتم فيه على اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾.

أي: فإنْ جاؤُوك- يا مُحمَّد- بِشُهَداءَ يَشْهَدون أنَّ الله حَرَّمَ ما يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَه عليهم؛ فلا تَشْهَدْ معهم؛ لأنَّهم كَذَبةٌ فَجَرةٌ، وشُهودُ زورٍ في شَهادَتِهم[3].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩).

أي: ولا تتَّبِعْ أهواءَ هؤلاءِ القَوْمِ الَّذين كذَّبوا بوَحْيِ الله تعالى وتَنْزيلِه في تحريمِ ما حَرَّمَ، وتحليلِ ما أحَلَّ، وكَفَروا باليومِ الآخِرِ، وهُم بالإضافةِ إلى ذلك يُشْرِكون به، فيَجْعلونَ له عديلًا ونظيرًا يُساوونَه به(١).

الفَوائد التربويَّة:

١- على العبدِ أن يَتَّبِعَ أمْرَ اللهِ تعالى، وليس له أن يتعَلَّقَ بمشيئتِه؛ فإنَّ مَشيئتَه لا تكون عُذرًا لأحدٍ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ فيه المُطالَبَةُ بالعِلْمِ، والذَّمُّ لِمَن يَتَّبِعُ الظَّنَّ، وما عنده عِلْمٌ؛ إذِ الظَّنُّ حَزْرٌ وتَخمينٌ، لا يُمكِنُ أن يستَقِرَّ عنده الحُكْمُ(٣).

٣- الإيمانُ بالآخرةِ- دارِ الجزاءِ- مانِعٌ مِنَ الاجتراءِ على الفُجُورِ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾(٤).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٤-١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩-٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٧).

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فيه ردٌّ على من احتَجَّ على تعطيلِ الأَمْرِ والنَّهْيِ بالقَدَرِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِنْ مُعْجِزاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه أخْبَرَ فيها عن أمرٍ غَيْبٍ، سيقولونَه في المستقبَلِ، ثم تحقَّقَ ذلك الغيبُ، ووَقَعَ كما قال، وطِبقًا لِمَا ذُكِرَ؛ وقد بيَّنه في (النحل) و (الزخرف)؛ حيث قال في (النحل): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فتحَقَّقَ ما قال أنَّهم سيقُولونَه[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لَمَّا وَصَفَهم بالتَّكذيبِ، أَتْبَعَه الوَصْفَ بعَدَمِ الإيمانِ، ودَلَّ بالنَّسَقِ بالواوِ على العَرَاقَةِ في كُلٍّ مِنَ الوَصْفينِ[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لو شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكنَا وَلَا آبَاؤُنا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ استئنافٌ رَجَعَ به الكلامُ إلى مجادَلَةِ المُشركينَ بَعْدَ أن اعترَضَ بِقَوْلِه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤]، وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ حيث قال: ﴿الَّذين أشركوا﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٦).

لزيادَةِ تفظيعِ أقوالِهم[١]. وتنصيصًا عليهم، وتبكيتًا لهم[٢].

- وقد قال هنا ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لو شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكنَا وَلَا آبَاؤُنا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، وقال في النحل: ﴿لَو شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيء﴾ فكَرَّرَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ مرَّتينِ، مع زيادةِ ﴿نَحْنُ﴾؛ لأنَّ الإشراك يدلُّ على إثباتِ شريكٍ لا يجوز إثباتُه، وعلى تحريمِ أشياءَ مِن دون الله، فلم يحتَجْ إلى ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ فحُذِفَ، وتبعَهُ في الحذفِ ﴿نَحْنُ﴾ طردًا للتَّخفيفِ. بخلافِ العبادةِ؛ فإنَّها غيرُ مستنكَرَةٍ، وإنَّما المستنكَرُ عبادةُ شيءٍ مع اللهِ، ولا يدلُّ لفظُها على تحريمِ شَيْءٍ، كما دلَّ عليه «أَشْرَك» فلم يكنْ بُدٌّ مِن تقييدِه بقَوْلِه: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، وناسَبَ استيفاءُ الكلامِ فيه زيادةَ «نحنُ» وظاهرٌ أنَّ زيادةَ ذِكْرِ التَّحريمِ في آية ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنَا﴾ تصريحٌ بما أفادَه لفْظُ «أَشْرَكْنا»[٣].

٢- قوله: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ إضافةُ البَأْسِ إلى ضميرِ الله تعالى؛ لتَعْظِيمه وتَهويلِه[٤].

٣- الاستفهامُ في قَوْلِه: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ على معنى التهَكُّمِ بهم، وهو إنكارٌ؛ أي: ليس عِنْدَكم مِن عِلْمٍ تَحْتَجُّونَ به فتُظْهِرونَه لنا، ما تَتَّبعونَ في دعاواكم إلَّا الظَّنَّ الكاذِبَ الفاسِدَ[٥]، فأَظْهَرَ لهم مِنَ القَوْلِ ما يُظْهِرُه المُعجَب بِكَلامِهم. وقرينةُ التهكُّمِ باديَةٌ؛ لأنَّه لا يُظَنُّ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنينَ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٩-١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٢).

يَطْلُبوا العِلْمَ مِنَ المشركينَ، كيف وهو يصارِحُهم بالتَّجهيلِ والتَّضليلِ صَباحَ مَسَاءَ[١]؟!

٤- قوله: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ؛ لأنَّها ابتداءُ كلامٍ بإضرابٍ عَنِ الكَلامِ الذي قَبْلَه، فبَعْدَ أنْ تَهَكَّم بهم؛ جَدَّ في جوابِهم، فقال: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾[٢].

٥- قوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن طَريقَةِ الجَدَلِ والمناظَرَةِ في إبطالِ زَعْمِهم، إلى إِبْطالِه بطريقةِ التَّبيينِ[٣].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ إضافَةُ الشُّهَداءِ إليهم تدُلُّ على أنَّهم غيرُهم، وهذا أمْرٌ على سبيلِ التَّعجيزِ، أي: لا يُوجَدُ مَن يَشْهَدُ بذلك شهادَةَ حَقٍّ؛ لأنَّها دَعْوى كاذِبَةٌ[٤]، وإضافَةُ الشُّهَداءِ إليهم ووَصْفُهم بـ(الَّذين) دليلٌ على أنَّهم مَعروفونَ مَوْسومونَ بنُصْرَةِ مَذْهَبِهم بالباطِلِ، ولو قال: (شُهَداء) من غيرِ إضافةٍ، لأَفْهَمَ أنَّ المَطْلوبَ مَنْ يَشْهَدُ بالحَقِّ، وليس كذلك؛ لأنَّه أُقِيمَ الدَّليلُ العَقليُّ على أنَّه لا حُجَّةَ لهم، وأنَّ الحُجَّةَ لله على خِلافِ ما ادَّعَوْه؛ فبَطَلَ قَطْعًا أنْ يكونَ أحَدٌ يَشْهَدُ على ذلك بِحَقٍّ[٥].

٦- قوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فيه: كِنَايَةٌ عن تَكذيبِهم؛ لأنَّ الذي يُصَدِّقُ أحدًا يُوافِقُه في قَوْلِه، فاستُعْمِلَ النَّهيُ عن موافَقَتِهم في لازِمِه، وهو التَّكذيبُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٤).

٧- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وُضِعَ المُظْهَر مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ لم يقُلْ: (ولا تتَّبِعْ أهواءَهم)؛ تعميمًا، وتعليقًا للحكمِ بالوصفِ، وللدَّلالةِ على أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعٌ الهَوى لا غيرُ، وأنَّ مُتَّبِعَ الحُجَّةِ لا يكون إلَّا مُصَدِّقًا بها[١].

٨- قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على المبتدأِ ﴿الْحُجَّةُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أي: للهِ لا لكم، ففُهِمَ منه أنَّ حُجَّتَهم داحِضَةٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥١).

الآيات (١٥١-١٥٣)

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِمْلَاقٍ﴾: فَقْرٍ وجُوعٍ، وأصلُ الإمْلاقِ: إتلافُ المَالِ حَتَّى يُحْوِجَ؛ يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، فهو مُملِق: إذا افتقَر، وقيل: اشتقاقُه مِن (المَلَقات)، وهي الحجارةُ العِظامُ الملسُ السُّود، وأملَق: لم يبقَ تحتَ يدِه إلَّا الجبالُ والصُّخورُ العظامُ التي لا يَقدِرُ أن يحصِّلَ منها شيئًا، وأصلُ (ملق) يَدُلُّ على تَجَرُّدٍ في الشَّيءِ ولِينٍ[1].

﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والفَحْشاءُ: ما عظُم قُبْحُه وفَحُشَ؛ مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مُستقْبَحٍ ومُسْتَشْنَعٍ؛ من قولٍ أو فِعْلٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣٨- ٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾: أي: يتناهَى في الثَّبَاتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلغُ مُنْتَهى شَبابه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأَصْلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وُسْعَهَا﴾: أي: طاقَتَها وقُدْرَتَها؛ فالوُسْعُ: الجِدَةُ والطَّاقةُ، وأَصْلُ (وسع): يدلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسْرِ[2].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾

﴿ما﴾: موصولةٌ بمعنى الذي في محلِّ نصبٍ؛ مفعولٌ به، والعائِدُ محذوفٌ؛ أي: الذي حرَّمَه. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ من بابِ التَّنازُعِ؛ فيجوز أن تتعلَّقَ بـ﴿حَرَّمَ﴾، أو بـ﴿أَتْلُ﴾.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾: فيه أوجُهٌ؛ الأول: أنَّ (أنْ) في قوله ﴿أَلَّا﴾ تَفْسيريَّة؛ لأنَّه تقدَّمها ما هو بمعنى القَوْلِ دون حُرُوفِه، وهو ﴿أَتْلُ﴾ و(لا) ناهِيَةٌ، و﴿تُشْرِكُوا﴾ مجزومٌ بها. الثاني: أنْ تكونَ (أنْ) مصدريَّةً ناصِبةً للفعلِ بعدَها، وهي وما في حيِّزها في محلِّ نَصْبٍ؛ بدَلٌ مِن ﴿مَا﴾، أو مِنَ العائِدِ المحذوف في ﴿حَرَّمَ﴾؛ إذ التقدير: ما حَرَّمَه، و(لا) على هذين الوجهينِ زائدةٌ؛ لئَلَّا يَفْسُدَ المعنى. الثالث: أنْ تكونَ (أن) النَّاصِبَة وما في حيِّزها منصوبةً على الإغراءِ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾، و (لا) نافِيَة، ويكون الكلامُ الأوَّلُ قد تمَّ عند قَوْلِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾، ثم ابتدَأَ فقال: عليكم أَلَّا تُشركوا، أي: الْزَموا ترْكَ الشِّرْكِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾: (أنَّ) واسمُها وخَبَرُها مصدرٌ مُؤوَّلٌ في مَحلِّ نصبٍ أو جَرٍّ على تَقديرِ لامِ لِلعِلَّةِ محذوفةٍ مُتعلِّقةٍ بالفعل ﴿اتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: ولأجْلِ استقامَتِه فاتَّبِعوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، أي: ولِأَنَّ المساجِدَ للهِ فلا تَدْعُوا مع اللهِ أحدًا، ويُقَوِّي هذا الوجهَ قراءةُ: ﴿وَإِنَّ هَذَا﴾ بِكَسْرِ الهَمزةِ على الاستئنافِ المفيد للتَّعليلِ. وقيل: إنَّ المَصْدَر المؤوَّل في محلِّ نصبٍ بالعَطْفِ على ﴿مَا﴾ في قَوْلِه: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾، أي: أَتْلُ ما حَرَّمَ، وأَتْلُ أنَّ هذا صِرَاطي. وقيل غيرُ ذلك[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

أَمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَطْلُبَ من هؤلاءِ المُشركينَ أن يُقبِلُوا إليه؛ ليُخْبِرَهم بما حَرَّمَه اللهُ عليهم يقينًا، وليس ظنًّا كقَوْلِهم على اللهِ الكَذِبَ، أَوْصاهم أَلَّا يُشْرِكوا به شيئًا، وأنْ يُحْسِنُوا إلى الوالِدَينِ، وألَّا يَقْتُلوا أولادَهم بسبَبِ الفَقْرِ؛ فإنَّ اللهَ هو من يَرْزُقُهم ويرزُقُ أَوْلادَهم، ونهاهم عَنْ قِربانِ الفَواحِشِ ما كان منها علانِيَةً أو كان سِرًّا، وألَّا يَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ عليهم قَتْلَها إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ الموجِبِ لقَتْلِها شَرْعًا، ذلك وصَّاهم به اللهُ تعالى؛ لعَلَّهُم يَعْقِلونَ.

ونَهاهم سُبحانَه وتَعالى عن قِرْبانِ مالِ اليَتيمِ إلَّا بِما يكونُ أَصْلَحَ له، حَتَّى يبْلُغَ أَشُدَّه فيَدْفَعُوا له مالَه، وأَمَرَهم بإيفاءِ الكَيْلِ والميزانِ بالعَدْلِ، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها، وأَمَرَهم تعالى بالعَدْلِ في القَوْلِ، ولو كان على ذي قَرابَةٍ، وأن

= (١/ ٥٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢١٣-٢١٨).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٣).

يُوْفُوا بعَهْدِ اللهِ تعالى، ذلك وَصَّاهم به تعالى؛ لعَلَّهم يتَذَكَّرونَ.

وبيَّنَ جلَّ وعلا أنَّ هذا الذي وصَّاهم به هو طريقُه القَويمُ، ودِينُه المُوصِلُ إليه، فلْيَتَّبِعْه العبادُ، ولا يَتَّبِعوا الطُّرُقَ المخالِفَةَ لهذا الطَّريقِ؛ فتُضِلَّهم عنه، ذَلِك وصَّاهم اللهُ به؛ لعَلَّهم يتَّقونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى فيما قَبْلَ هذه الآياتِ حُجَّتَه البالِغَةَ على المشركينَ الَّذين حَرَّموا على أنفُسِهم ما لم يُحَرِّمْه عليهم ربُّهُم، ودَحَضَ شُبْهَتَهم التي احتَجُّوا بها على شِرْكِهم به، وافترائِهم عليه؛ بَيَّنَ في هذه الآياتِ أُصُولَ المُحَرَّماتِ ومَجامِعَها في الأعمالِ والأقوالِ، وما يُقابِلُها من أصولِ الفَضائِلِ والبِرِّ[1]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: هلمُّوا وأَقْبِلوا أُخْبِرْكم بما حَرَّمَ ربُّكم عليكم حَقًّا، يَقينًا لا ظَنًّا، كَقَوْلِكم على اللهِ الكَذِبَ، بل وحيًا منه إليَّ، وتنزيلًا أنزَلَه عليَّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥-٤٥٠).

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

أي: أَوْصاكم ألَّا تُشْرِكوا بالله شيئًا مِن خَلْقِه لا قليلًا ولا كثيرًا، وأَوْصاكم وأَمَرَكم أن تُحْسِنوا إلى الوالدينِ إحسانًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أَوْصَى تعالى بِبِرِّ الآباءِ والأَجْدادِ؛ عَطَفَ على ذلك الإحسانَ إلى الأَبْناءِ والأَحْفادِ[2]. وأيضًا لَمَّا أوصى بالسَّبَبِ في الوجودِ: الوالِدَينِ، نهى عن التَّسَبُّب في الإعدامِ، وهو القَتْلُ، وبدأ بأشَدِّه: قتلِ الوَلَدِ[3]، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

أي: ولا تَقْتُلوا أَوْلادَكم ذُكورًا وإناثًا؛ بسَبَبِ فَقْرِكم الحاصِلِ، وضِيقِكم مِن رِزْقِهم؛ فقد تَكَفَّلْنا برِزْقِ الجَميعِ، فلَسْتُم الَّذينَ تَرْزُقونَ أَوْلادَكم، بل ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٦-٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٧).

أَنْفُسَكم؛ فليس عليكم إذَنْ منهم ضِيقٌ[(١)].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

أي: تَبَاعَدُوا عن ارْتِكابِ كُلِّ خَصْلةٍ سُوءٍ مُتَناهِيَةٍ في القُبْحِ مِنْ كُلِّ مَعصيَةٍ خَسِيسةٍ، واجْتَنِبوا مُقدِّماتِها ووسائِلَها المُوصِلَةَ إليها، سواءٌ كان ذلك عَلَنًا يراه النَّاسُ، أو سِرًّا مِن غَيْرِ اطِّلاعِهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن المُغيرَةِ بنِ شُعبَةَ، أنَّ سَعْدَ بنَ عُبادةَ قال: ((لو رأيتُ رَجُلًا مَعَ امرَأتي لضَرَبْتُه بالسَّيْفِ غيرَ مُصْفِحٍ[(٣)] عنه، فبَلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أتَعْجبونَ مِنَ غَيْرَةِ سعدٍ؟ فواللهِ! لَأنَا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني، من أجلِ غَيْرَةِ اللهِ حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغيَرُ مِنَ اللهِ...)) الحديث[(٤)].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٧-٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).
قال السعدي: (﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي: الذُّنوب العِظَام المُسْتَفْحِشَة، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: لا تَقرَبوا الظَّاهِرَ منها والخَفِيَّ، أو المتعَلِّق منها بالظَّاهِر، والمتعَلِّق بالقَلْبِ والباطن) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠).

(٣) مُصْفِح أي: غيرَ ضاربٍ بِصَفْحِ السَّيفِ؛ وهو جانِبُه، بل أضرِبُه بحَدِّه؛ مِن صَفْحِ السَّيفِ أي: عَرْضُه وحَدُّه، فالضَّارِبُ مُصفِحٌ. والسَّيفُ مُصفَحٌ؛ فمن فتَحَ (الفاء) جعله وصفًا للسَّيفِ حالًا منه، ومَن كَسَر جَعَلَه وصفًا للضَّارِبِ وحالًا عنه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٣١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢١٦٤).

(٤) رواه مسلم (١٤٩٩).

أي: ولا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ عليكم قَتْلَها؛ بأنْ جَعَلَها معصومةً مِن مؤمِنٍ أو كافرٍ معاهَدٍ أو ذِمِّيٍّ؛ فلا تَقْتُلوهَا إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ، المُوجِبَة لقَتْلِها شَرْعًا عندَ الله[1].

عن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسْلِمٍ، يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، إلَّا بإحْدى ثلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثيِّبُ الزَّاني، والمُفارِقُ لدِينِه، التَّارِكُ للجَماعةِ))[2].

وعن عبدالله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لم يَرَحْ[3] رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عامًا))[4].

وعن عرفَجَةَ بنِ أسعَدَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أتاكُم، وأَمْرُكُم جميعٌ على رجلٍ واحدٍ، يريدُ أن يَشُقَّ عصاكُم، أو يُفَرِّقَ جَماعَتَكُم، فاقتُلُوهُ[5]))[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦١-٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٨-٤٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) لم يَرَحْ: أي: لم يَشَمَّ رائحةَ الجنَّةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٧٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٥) قال الشِّنقيطي بعد أنْ ذَكَر نصوصًا لأفعالٍ يُقتَل أصحابُها، واختلافَ أهْلِ العِلم في العَمَل بها: (فهذه أشياءُ دَلَّتْ عليها نصوصٌ أُخَر اختَلَف فيها العلماءُ، فمَن يقول: إنَّ صاحِبَها يُقتل. يقول: هي داخِلَةٌ في قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. ومن يقول: إنَّ صاحِبَها لا يُقتَل. يقول: لم تَدْخُل في قَوْلِه: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لأنَّها عارَضَها ما هو أقوى منها، وهو حديثُ ابنِ مَسعودٍ المُتَّفَق عليه: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ...» الحديث) ((العذب النمير)) (٢/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٦) رواه مسلم (١٨٥٢).

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: هذه الأُمورُ المذكورةُ في الآيةِ قد عَهِدَ بها إليكم ربُّكم؛ لأَجْلِ أن تَعْقِلوا عنه وَصِيَّتَه هذه، فتَقُوموا بها(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا كان المالُ عَديلَ الرُّوحِ، مِن حيثُ إنَّه لا قِوامَ لها إلا به؛ ابتدَأَ هذه الآيةَ بالأموالِ بعد أنْ خَتَمَ الآيةَ التي قَبْلَها بالنَّهْيِ عن إزهاقِ الرُّوحِ، ولَمَّا كان أعظَمَ الأموالِ خَطَرًا وحُرْمَةً مالُ اليتيمِ؛ لِضَعْفِه، وقِلَّةِ ناصِرِه، ابتدأ به، فنَهَى عن قُرْبِه فضلًا عن أكْلِه أو شُرْبِه(٢)، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

أي: ولا تَقْرَبوا مالَ اليتيمِ إلَّا بما يكونُ أَصْلَحَ له وأنفَعَ؛ بالمحافَظَةِ عليه، وتَنْمِيَتِه وتَثْميرِه في الوُجوهِ المأمونةِ التي يَغْلِبُ على الظَّنِّ- بِحَسَبِ العادَةِ- أنْ لا خَسارةَ فيها، وذلك إلى وَقْتِ بُلوغِه، فإذا بَلَغَ وآنسْتُم منه رُشْدًا، وحُسْنَ تَصَرُّفٍ، فادْفَعُوا إليه مالَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٠٠-٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٢-٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٠٦-٥١٢).

فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: وأَوْفُوا الكَيْلَ والميزانَ، فلا تَبْخَسُوا النَّاسَ الكَيْلَ إذا كِلْتُموهم، ولا تَبْخَسُوهم الوَزْنَ إذا وَزَنْتُموهم، ولكِنْ أَوْفُوهم حُقُوقَهم تامَّةً بالعَدْلِ في الأَخْذِ والإِعْطاءِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَوْلُه: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ قد يَشُقُّ بعضَ الأحيانِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَفُوتُه أن يُوَفِّيَ الكَيلَ أو الوَزْنَ أحيانًا؛ أعقَبَ ذلك بقَوْلِه(٢):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

أي: مَنِ اجتَهَدَ في أداءِ الحَقِّ، وأَخَذَه بالعَدْلِ، وحَرَصَ على الإيفاءِ في الكَيْلِ والوَزْنِ، فأخطَأَ أو وَقَعَ منه نقْصٌ وتقصيرٌ بعد استفراغِ وُسْعِه، وبذْلِ جُهْدِه في ذلك؛ فلا حَرَجَ عليه(٣).

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٣-٥١٧).
(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٧).

وإذا حَكَمْتُم بين النَّاسِ فتكَلَّمْتُم، فقُولوا الحَقَّ بينهم، واعْدِلوا وأَنْصِفوا ولا تَجُوروا، ولو كان الذي يتَوَجَّهُ الحَقُّ والحُكْمُ عليه ذا قَرابَةٍ لكم[١].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

أي: وبوصيَّةِ اللهِ التي أَوْصاكم بها فأَوْفُوا، وذلك بطاعَتِه سبحانه فيما أَمَرَكم به، واجتنابِ ما نَهاكم عنه، سواء فيما يتعَلَّقُ بحقُوقِ اللهِ تعالى، أو بحُقُوقِ العبادِ[٢].

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: هذا[٣] الذي بيَّنَه لكم مِنَ الأَحْكامِ فأَمَرَكم به، ونهاكم عنه، عَهِدَ إليكم به لتَتَذَكَّروه وتَأْخُذوا به، وتتَذَكَّروا عواقِبَ أَمْرِكم، وخَطَأَ ما أنتم عليه، فتَنْزَجِروا عن ذلك، وتَقُوموا بأَحكامِ ربِّكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٧).
ومن المفسِّرين من عمَّمَ ذلك ولم يَقْصُرْهُ على الحُكْم كالشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٠-٥٢١).

(٣) ذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ الموصى به هنا عائدٌ إلى ما في هذه الآية والَّتي قبلها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٧).
وذهب ابن عاشور والشنقيطي إلى أنَّ المراد ما في هذه الآية فحسب. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).
قال ابنُ عاشور: (جاء مع هذه الوَصِيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المطالِبَ الأربعةَ =

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى في الآيتَيْنِ المُتَقَدِّمَتَينِ ما وَصَّى به؛ أجْمَلَ في آخِره إجمالًا يقتضي دُخولَ ما تقَدَّمَ فيه، ودخولَ سائِرِ الشَّريعةِ فيه؛ فقال[1]:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾.

أي: وهذا الذي وصَّاكم به رَبُّكم - أيُّها النَّاسُ - وأَمَرَكم بالوَفاءِ به، هو طريقُه ودِينُه المُوصِلُ إليه، وإلى دارِ كَرامَتِه؛ الذي ارْتَضاه لعبادِه، وجَعَلَه مختَصَرًا معتَدِلًا قويمًا لا اعْوِجاجَ به عن الحَقِّ، فاسْلُكوه[2].

عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عنه قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خطًّا ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ - قال يزَيدُ: مُتَفَرِّقةٌ - على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))[3].

= عُرِفَ بين العَرَبِ أنَّها محامِدُ، فالأمرُ بها والتحريضُ عليها تذكيرٌ بما عَرَفوه في شَأْنِها، ولَكِنَّهم تناسَوْه بغَلَبَةِ الهوى وغشاوَةِ الشِّرْك على قُلُوبِهم)) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

قال البزارُ في ((البحر الزخار)) (٥/ ٢٥١): وهذا الكلامُ قد رُوِيَ عن عبد الله من غيرِ وجه نحوه أو قريبًا منه، وقال ابن القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢): ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعوا الطُّرُقَ المخالِفَةَ لهذا الطَّريقِ؛ فتُضِلَّكم عنه، وتُفرِّقكم وتُشَتِّتكم عن طَريقِه، ودِينِه الذي شَرَعَه، وارْتَضاه لكم[1].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: هذا الذي أَمَرَكم به ربُّكم مِن اتِّباعِ سَبيلِه، ونهاكم عن اتِّباعِ غَيْرِه؛ عَهِدَ به إليكم؛ كي تَتَّقُوا اللهُ عزَّ وجلَّ[2].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قَوْلُ الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ لنبيِّه عليه السَّلامُ بأَنْ يَدْعُوَ المَعْنيِّينَ بالخِطابِ إلى سَماعِ تلاوةِ ما حَرَّمَ اللهُ تبارك وتعالى، وهكذا يجبُ على العُلماءِ أن يُبَلِّغوا النَّاسَ، ويُبَيِّنوا لهم ما حُرِّمَ عليهم مِمَّا أُحِلَّ[3].

٢- القاعدةُ التي يجبُ أن تقومَ أَوَّلًا قبل الدُّخُولِ في الأوامِرِ والنَّواهي، وقبْلَ الدُّخُولِ في التَّكاليفِ والفَرائِضِ: أن يَعْتَرِفَ النَّاسُ بربوبيَّةِ الله وَحْدَه لهم في حياتِهم؛ كما يَعْتَرفونَ بألوهِيَّتِه وَحْدَه في عقيدَتِهم، فلا يُشْرِكونَ معه تعالى أَحَدًا في ألوهِيَّتِه، ولا يُشْرِكونَ معه أحَدا في رُبُوبِيَّتِه كذلك؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[4].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يُرشِدُ إلى الإحْسانِ بهما إحْسانًا تامًّا كاملًا لا يَدَّخِرُ فيه وُسْعًا، وهذا يستلْزِمُ تَرْكَ الإساءَةِ وإن صَغُرَتْ، فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٢٩).

بالعُقوقِ المقابِلِ لغايةِ الإحسانِ، وهو مِن أكبَرِ كبائرِ المُحَرَّماتِ[١]؟

٤- الواجِبُ على الوالِدِ القيامُ بحَقِّ الوَلَدِ وتربيَتُه، والاتِّكالُ في أمْرِ الرِّزْقِ على اللهِ تعالى؛ فقد قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[٢].

٥- في قَوْلِه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقةٌ، وهي: أنَّ الإنسانَ إذا احترَزَ عن المعْصِيَةِ في الظَّاهِرِ، ولم يحتَرِزْ عنها في الباطِنِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّ احترازَه عنها ليسَ لأَجْلِ عبوديَّةِ اللهِ وطاعَتِه، ولكِنْ لأجْلِ الخَوْفِ من مذَمَّةِ النَّاسِ، وذلك باطِلٌ؛ لأنَّ من كان مَذَمَّةُ النَّاسِ عنده أعظَمَ وقْعًا من عقابِ اللهِ ونحوِه؛ فإنَّه يُخشَى عليه مِنَ الكُفْرِ؛ ومَنْ تَرَكَ المَعْصِيةَ ظاهرًا وباطنًا دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما تَرَكَها؛ تعظيمًا لِأَمْرِ اللهِ تعالى، وخَوفًا مِن عذابِه، ورغبةً في عبودِيَّتِه[٣].

٦- ليس على المُكَلَّفِ- المبنيِّ أمْرُه على العَجْزِ للضَّعْفِ- إلَّا الجُهدُ والوُسْعُ، وما وراءَ الوُسْعِ مَعْفُوٌّ عنه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يُرشِدُنا إلى العَدْلِ في القَوْلِ، سواءٌ في شَهادةٍ أو حُكمٍ على أحدٍ، ولو كان المَقولُ في حَقِّه ذلك القَوْلُ صاحِبَ قرابةٍ مِنَّا، فالعدْلُ واجِبٌ في الأقوالِ كما أنَّه واجِبٌ في الأفعالِ؛ لأنَّه هو الذي تَصْلُحُ به شُؤونُ النَّاسِ؛ فهو رُكْنُ العُمرانِ، وأَساسُ المُلْكِ، وقُطْبُ رَحَى النِّظامِ للبَشَرِ في جميعِ أُمُورِهم الاجتماعيَّة، فلا يجوزُ لمُؤْمِنٍ أن يحابِيَ فيه أحدًا لقرابَتِه ولا لِغَيْرِ ذلك[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٩).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ولم يقُلْ: ما حَرَّمَ اللهُ؛ لأنَّ الرَّبَّ هنا أنسَبُ؛ حيثُ إنَّ الرَّبَّ له مُطْلَقُ التَّصَرُّف في المربوبِ، والحكمُ عليه بما تَقْتضيه حِكْمَتُه[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، بدَأَ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءَةِ من الشِّرْكِ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّخلِّيَ عن الرَّذائِلِ يكونُ قبل التَّحلي بالفَضائِلِ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، قَرَنَ بالتَّوحيدِ البِرَّ بالوالِدَينِ؛ وذلك لمناسَبَةٍ حسنةٍ: أنَّه مِن بابِ شُكْرِ المُنْعِم، فبَعْدَ أنْ وَصَّى بأَوَّلِ واجِبٍ للمُنْعِمِ الأَوَّلِ المُوجِدِ مِنَ العَدَمِ؛ أتبَعَه ما لأَوَّلِ مُنْعِمٍ بعده بالتَّسبُّبِ في الوُجودِ، فنهى عن الإساءةِ إليهما في صورةِ الأَمْرِ بالإحسانِ بهما[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الإِحْسانُ يتعَدَّى بـ (الباء) و (إلى) فيُقال: أحْسَنَ به، وأحْسَنَ إليه، والأُولَى أبْلَغُ، فهُو بالوالِدَينِ وذِي القُرْبى أليَقُ؛ لأنَّ مَن أحْسَنْتَ بِه هو مَن يتَّصِلُ به بِرُّكَ وحُسْنُ مُعامَلَتِك، ويلتصِقُ به مباشرةً على مَقْرُبةٍ منك، وعَدَمِ انفصالٍ عنك[4].

٥- هذه الآياتُ تَدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا ينبغي له أنْ يَسْتَثْقِلَ كثرةَ الأولادِ؛ خوفًا من الجوعِ والفَقْرِ؛ لأنَّ خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ يرزُقُ الجميعَ، وهذه مِن أَوْضَحِ الآياتِ على أنَّ ما يَتلاعَبُ به الشَّيطانُ على من يَدْعُونَ إلى (تَحديد

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

النَّسْل)؛ أنَّه جَهْلٌ واقتفاءٌ- في الجملة- لأهل الجاهليَّة؛ فهم مُشْتَرِكونَ في العِلَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ بأنَّ أهل الجاهليَّةَ إنَّما قَتَلوهم مِن خَشْيَةِ الإملاقِ، وهؤلاء يُريدونَ تقليلَ عَدَدِهم مِن خَشْيَةِ الإملاقِ؛ فالعلَّة هي العلَّة، وكأنَّ قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لم يَطْرُقْ أسماعَهم أبدًا، فضمانُ خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ لأرزاقِ الجَميعِ، كأنَّهم لم يَسْمَعوه، وكأنَّهم في جاهليَّةٍ جَهْلاءَ، وظُلْمةٍ ظَلماءَ؛ لأنَّ اللهَ ضامِنٌ رِزْقَ الجَميعِ، وكُلَّما كَثُرَ النَّسْلُ، وكَثُرَت الأيدي العامِلَةُ كَثُرَ الإنتاجُ، وكَثُرَت خيراتُ الله وأرزاقُه؛ لأنَّ الله يُنْزِلُ رِزْقَه بعَدَدِ خَلْقِه، وصَرَّحَ بهذا، وهو لا يُخْلِفُ الميعادَ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

٦- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ بعدَ أن بدأ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءةِ مِن الشِّرك، وقَرَن به البرَّ، أولاه القتلَ الذي هو أكبرُ الكبائرِ بعدَ الشِّرك، وبدأه بقَتْلِ الوَلَدِ؛ لأنَّه أفحَشُ القَتْلِ، وأفحَشُ مِن مُطْلَقِه فِعْلُه خَوْفَ القِلَّةِ[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ عَظَّمَ أمْرَ الفواحِشِ بالنَّهْيِ عن قُرْبِها، فضلًا عن الغِشْيانِ؛ لأنَّها ذاتُ إغراءٍ وجاذِبيَّةٍ، فنهَى عن مجرَّدِ الاقترابِ؛ سدًّا للذَّرائِعِ، واتِّقاءً للجاذِبيَّة التي تَضْعُف معها الإرادةُ[3].

٨- قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ لم يَقُلْ: لا تَأْتُوا؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ نَهْيٌ عنها، وعمَّا يكون ذريعةً إليها؛ ولذلك حَرَّمَ على الرَّجُلِ أن ينْظُرَ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، وأنْ يَخْلُوَ بها، وأنْ تُسافِرَ المرأةُ بِلا مَحْرَمٍ؛ لأنَّ ذلك يُقَرِّبُ مِنَ الفَواحِشِ[4].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٧-٣١٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٣١).
(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٨).

٩- لا شكَّ أنَّ قَتْلَ النَّفْسِ التي حرَّمَ اللهُ؛ داخِلٌ في الفواحِشِ؛ إنْ فَعَلَه عَلَنًا أمامَ النَّاسِ فهو داخِلٌ فيما ظَهَرَ، وإن قَتَلَه غِيلَةً من حيثُ لا يراهُ النَّاسُ؛ فهو داخِلٌ فيما بطَنَ؛ لأنَّ قَتْلَ النَّفْسِ من الفواحِشِ، واللهُ جلَّ وعلا خصَّه مع أنَّه داخِلٌ في العُمومِ، وفي ذلك حِكْمتانِ:

الأولى: تفظيعُ القَتْلِ وتهويلُ أَمْرِه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: آية ٩٣].

الثانية: لأنَّه لا يتأتَّى الاستثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلَّا مِن القتلِ، لا مِن عمومِ الفواحشِ، فالقَتْلُ منه ما هو بِحَقٍّ، فلا بدَّ أن يُستَثْنى بقولِه: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] والاستثناءُ الذي هو ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لا يُمكِنُ حتى يُخرَجَ القَتْلُ من عمومِ الفَواحِشِ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ[1].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ خَتَمَ كُلَّ آيةٍ مِنَ الثَّلاثِ الآياتِ بالوَصِيَّةِ؛ وذلك لِيَكونَ آكَدَ في القَوْلِ؛ فيكونَ أَدْعَى للقَبُولِ[2].

١١- قولُه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ هذه الأُمورَ إذا التَزَمَ بها الإنسانُ، فهو عاقِلٌ رَشيدٌ، وإذا خالَفَها فهو سَفِيهٌ ليس بعاقِلٍ؛ وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآيَةُ خَمْسَ وصايا: الأولى: تَوحيدُ الله، الثانية: الإحسانُ بالوالدين، الثالثة: ألَّا نَقْتُلَ أَوْلادَنا، الرابعة: ألَّا نَقرَبَ الفواحِشَ، الخامسة: ألَّا نَقْتُلَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٩).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّه بحَسَبِ عَقْلِ العَبْدِ يكونُ قيامُه بما أَمَرَ اللهُ به(١).

١٣- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحُسْنُ هنا يشمَلُ: الحُسْنَ الدُّنيويَّ، والحُسْنَ الدِّينيَّ؛ فالحُسْنُ الدُّنيويُّ؛ كإذا لاحَ للوَلِيِّ تَصرُّفانِ أَحَدُهما أكثَرُ رِبحًا، فالواجِبُ عليه أن يأخُذَ بما هو أكثَرُ رِبحًا؛ لأنَّه أحْسَنُ، والحُسْنُ الدِّينيُّ مِثْلُ إذا لاح تَصَرُّفانِ أحَدُهما أكثَرُ رِبحًا، وفيه رِبًا، والآخَرُ أقَلُّ ربحًا، وهو أسْلَمُ مِنَ الرِّبا، فنُقَدِّمُ الأخيرَ؛ لأنَّ الحُسْنَ الشَّرعيَّ مُقَدَّمٌ على الحُسْنِ الدُّنيويِّ الماديِّ(٢).

١٤- قولُه تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اليَتيمَ- قبل بُلُوغِ الأَشُدِّ - مَحْجورٌ عليه، وأنَّ وَليَّه يتصَرَّفُ في مالِه بالأَحَظِّ، وأنَّ هذا الحَجْرَ ينتهي ببلوغِ الأَشُدِّ(٣).

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فيه تذكيرٌ لهم بالسَّخاءِ الذي يَتَمادَحون به؛ كأنَّه قيل لهم: أين سَخاؤُكم الذي تَتَنافَسونَ فيه؛ فهَلَّا تُظْهِرُونَه إذا كِلْتُم أو وَزَنْتُم؛ فتَزيدوا على العَدْلِ بأنْ تُوَفِّروا للمُكتالِ كَرَمًا؛ فضلًا عَنْ أن تَسْرِقوه حَقَّه. وهذا تنبيهٌ لهم على اختلالِ أَخْلاقِهم وعَدَمِ تَوازُنِها(٤).

١٦- قولُه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ استدلَّ الأُصوليُّونَ بهذا على أنَّ الله لا يكلِّفُ أحدًا ما لا يُطيقُ، وعلى أنَّ مَنِ اتَّقى اللهَ فيما أَمَرَ، وفَعَلَ ما يُمْكِنُه من ذلك، فلا حَرَجَ عليه فيما سِوَى ذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ خُصَّ العَدْلُ بالقَوْلِ، مع أنَّ الفِعْلَ إلى العدْلِ أحْوَجُ- فإنَّ الضَّرَرَ النَّاشِئَ مِنَ الجَوْرِ الفِعْليِّ أَقْوى مِنَ الضَّرَرِ النَّاشِئِ مِنَ الجَوْرِ القَوْليِّ- وذلك ليُعْلَمَ وُجوبُ العَدْلِ في الفِعْلِ بالأَوْلى، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[١] [الإسراء: ٢٣].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ وحَّدَ سبيلَه لأنَّه في نَفْسِه واحِدٌ، لا تعدُّدَ فيه، وجَمَعَ السُّبُلَ المخالِفَةَ؛ لأنَّها كثيرةٌ مُتَعَدِّدةٌ[٢].

١٩- في قَوْلِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ الرَّجاءَ للتَّقْوى؛ لأنَّ هذه السَّبيلَ تَحْتَوي على تَرْكِ المُحَرَّمات، وتَزيدُ بما تَحْتَوي عليه مِن فِعْلِ الصَّالحاتِ، فإذا اتَّبَعَها السَّالِكُ فقد صار مِنَ المُتَّقِينَ؛ أي: الَّذين اتَّصَفوا بالتَّقْوى بمعناها الشَّرعيِّ؛ كقَوْلِه تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] [البقرة: ٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِنْ إِبْطالِ تحريمِ مَا ادَّعَوْا تَحْريمَه مِنْ لُحُومِ الأَنْعامِ، إلى دَعْوَتِهم لِمَعْرِفَةِ المحرَّمات، التي عِلْمُها حَقٌّ، وهو أَحَقُّ بأَنْ يَعْلَمُوه مِمَّا اختَلَقُوا مِنِ افْتِرائِهم، ومَوَّهوا بجَدَلِهم[٤].

٢- قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وَضَعَه موضِعَ النَّهْيِ عن الإساءَةِ إليهما؛ للمبالغَةِ، وللدَّلالَةِ على أنَّ تَرْكَ الإساءَةِ في شَأْنِهما غيرُ كافٍ بخلافِ غَيْرِهما،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨١).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (١/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٤، ١٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٥٥).

وللإيذانِ بأنَّ الإساءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ، فيُحْتاجَ إلى التَّصريحِ بالنَّهْيِ عنها؛ لأنَّها خِلافُ ما تَقْتَضي الفِطْرَةُ السَّليمةُ، والآدابُ المَرْعِيَّة عِنْد جَميعِ الأُمَمِ، وإنَّما عَدَلَ عن النَّهْيِ عنِ الإساءَةِ إلى الأَمْرِ بالإحسانِ اعتناءً بالوالِدَينِ؛ لأنَّ اللهَ أرادَ بِرَّهُما، والبِرُّ إحسانٌ، والأَمْرُ به يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن الإساءَةِ إليهما بطَرِيقِ فَحْوى الخِطابِ[1].

٣- قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بدأ هنا جلَّ وعلا برِزْقِ الوالِدَينِ، وفي سورةِ الإسْراءِ بَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ، والحكمةُ في ذلك أنَّه قال هنا: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ فالإملاقُ حاصِلٌ، فبَدَأَ بِذِكْرِ رِزْقِ الوَالِدَينِ اللَّذَينِ أَمْلَقَا، أي: ولا تَقتُلوهم مِن فَقْرِكم الحاصِلِ؛ ولهذا قال تعالى بعدَها: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فبَدَأَ برزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه الأَهَمُّ هاهنا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: خشيةَ حُصُولِ فَقرٍ في الآجِلِ، فهما غَنِيَّانِ، لكن يَخْشَيَانِ الفَقْرَ، فبَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ قبلَ رِزْقِ الوَالِدَينِ؛ للاهتمامِ بهم، أي: لا تَخافوا مِن فَقْرِكم بِسَبَبِهم، فرِزْقُهم على الله[2].

- وفي قولِه ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: استئنافٌ مَسُوقٌ لتَعْليلِ النَّهْيِ عن قَتْلِهم، وإِبْطالِ سَبَبِيَّةِ ما اتَّخَذُوه سَبَبًا[3].

٤- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فيه: نَهْيٌ عن اقترافِ الآثامِ، وقد نهى عن القُرْبِ منها، وهو أبلَغُ في التَّحذيرِ مِنَ النَّهْيِ عن مُلابَسَتِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٤)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٩).

للمبالَغَةِ في الزَّجْرِ عنها[١].

٥- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيه: تَوجيهُ النَّهْيِ إلى قِرْبانِه؛ لِمَا مَرَّ مِنَ المُبالَغَةِ في النَّهْيِ عن أَكْلِه؛ ولإخراجِ القِرْبانِ النَّافعِ عن حُكْمِ النَّهْيِ بطريقِ الاستِثْناءِ[٢].

٦- قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولو كانَ ذَا قُرْبَى﴾ قوله: ﴿وَلَوْ﴾ وصْلِيَّةٌ تفيدُ المبالغَةَ في الحالِ التي مِنْ شَأْنِها أنْ يَظُنَّ السَّامِعُ عَدَمَ شُمُولِ الحُكْمِ إيَّاها؛ لاخْتِصَاصِها مِن بينِ بَقِيَّةِ الأَحْوالِ التي يَشْمَلُها الحُكْمُ[٣].

٧- قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على عامِلِه ﴿أَوْفُوا﴾؛ للاهتمامِ بِأَمْرِ العَهْدِ، وصَرْفِ ذِهْنِ السَّامِعِ عنده؛ ليتَقَرَّرَ في ذِهْنِه ما يَرِدُ بَعْدَه مِنَ الأَمْرِ بالوَفَاءِ[٤].

٨- قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ استئنافٌ جِيءَ به تجديدًا للعَهْدِ وتأكيدًا له[٥]، وقد كَرَّرَ التَّوْصِيَةَ على سَبيلِ التَّوْكِيدِ[٦].

- وقد خَتَمَ الآيَةَ الأُولى بِقَوْلِه: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، والثانيةَ بقولِه: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والثَّالثَةَ بِقَوْلِه: ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ وذلك لمناسبَةٍ حَسَنَةٍ؛ فالآيةُ الأولى اشتَمَلَتْ على خمسةِ أشياءَ عِظامٍ، والوصيَّةُ فيها أَبْلَغُ منها في غَيْرِها، فخَتَمَها بما في الإنسانِ مِن أَعْظَمِ السَّجَايا، وهو «العَقْل» الذي امتازَ به على سائِرِ الحيوانِ. والثانية: اشتَمَلَتْ على خَمْسَةِ أشياءَ يَقْبُحُ ارتكابُها، والوصيَّةُ فيها تَجْري

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٦٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٩- ٢٠١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٢).

مَجْرى الزَّجْر والوَعْظِ، فختَمَها بِقَوْلِه: ﴿تَذَكَّرونَ﴾ أي: تَتَّعِظونَ. والثالثة: اشتَمَلَتْ على ذِكْرِ الصِّراطِ المستقيم، والتَّحريضِ على اتِّباعِه واجتنابِ مُنافِيه، فختَمَها بالتَّقْوى التي هي مِلاكُ العَمَلِ، وخَيْرُ الزَّادِ[1].

وقيل: لعلَّ السَّبَبَ في ذلك أنَّ الخِلالَ الخَمْسَ المذكورةَ في الآيةِ الأُولى أمورٌ ظاهِرةٌ جليَّةٌ، يُدرِكُ العَقْلُ قُبْحَها شَرعًا؛ فأُتْبِعَت بترجِّي التعقُّلِ، لأنَّ السَّلامةَ منها لا تكونُ مع وضوحِ أَمْرِها إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى، في حين أنَّ الخَمْسَ التَّاليةَ لها خفيَّةٌ وغامضةٌ، لا بدَّ فيها مِنَ الاجتهادِ والفِكْرِ حتى يقِفَ المرءُ على موضِعِ الاعتدالِ فيها؛ إذ هي مما تُؤَثِّرُ فيه الشَّهواتُ والأهواءُ، وذلك مما يُعْمِي وَيُصِمُّ؛ ولذا أُتبِعَتْ برجاءِ التذكُّرِ؛ لأنَّ مَن تذكَّرَ أبصَرَ فعَقِلَ فامتَنَع، ولَمَّا كان مجموعُ هذه المُرتكَباتِ العَشْرِ ممَّا اتَّفقت عليه الشرائِعُ، ولم تُنسَخْ في ملَّةٍ مِنَ المِلَلِ، وأنَّ مَن أخَذَ بها كان سالكًا الصِّراطَ المستقيمَ الذي لا عِوَجَ فيه ولا أمْتَ- عَقَّبَ بقَوْلِه تعالى:﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾؛ إذ إنَّ الأمرَ فيه عامٌّ لكافَّةِ الخَلْقِ، ثمَّ قال تعالى:﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأتبَعَه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقد ترتَّبَ حاصلًا مِن مضمونِ الآياتِ الثلاثِ أنَّه مَن عَقِلَ وتذكَّرَ اتَّقى[2].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ١٧٤).

الآيات (١٥٤-١٥٩)

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿ تَمَامًا ﴾: أي: أتمَمْناه إتمامًا كامِلًا، جامِعًا لِجَميعِ مَا يُحتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَريعَتِه، وتَمامُ الشَّيءِ: انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يُحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، وأَصْلُ (تمم): دَلِيلُ الكَمالِ؛ يُقَالُ: تَمَّ الشَّيْءُ، إذَا كَمَلَ[1].

﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾: أي: تَبْيينًا، وأَصْلُ (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانَتِه عنه[2].

﴿ طَائِفَتَيْنِ ﴾: أي: جماعتَينِ، والطَّائِفَةُ: جماعةٌ من النَّاسِ، وأَصْلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

﴿دِرَاسَتِهِمْ﴾: أي: قِراءَتِهم الكُتُبَ وعِلمِهم بها، أو تِلاوَتِهم، وأَصْلُ (درس): يَدُلُّ عَلَى خَفَاءٍ وَخَفْضٍ وَعَفَاءٍ(١).

﴿بَيِّنَةٌ﴾: أي: بصيرةٌ ودَلالةٌ، ويقينٌ، وحُجَّةٌ وبُرهانٌ، وأَصْلُ (بين): يدلُّ على الانْكِشافِ(٢).

﴿وَصَدَفَ﴾: أي: أعْرَضَ، وعَدَل عَنِ الْحَقِّ، والصُّدُوف: الإعراضُ عن الشَّيءِ؛ يُقال: صَدَفَ عن الشَّيء، أي: أَعْرَضَ عنه إِعْراضًا شديدًا، يَجري مَجْرى الصَّدَفِ، أي: الميلِ في أرجُلِ البَعيرِ، وأَصْل (صدف) يدلُّ على المَيْلِ(٣).

﴿يَنْظُرُونَ﴾: أي: يَنْتَظِرونَ؛ فالنَّظَرُ يأتي بمعنى الانتظارِ، وأصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْته، كأنَّه يَنْظُر إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه(٤).

مشكلُ الإعراب:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾

- ﴿تمامًا﴾ منصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجُهٌ: أحدُها: أنْ يكونَ مفعولًا مِنْ أَجلِه؛ أي: لأَجْلِ تمامِ نِعْمَتِنا. الثاني: أن يكونَ مصدرًا في موضِعِ الحالِ: إمَّا مِن الكِتابِ: أي تامًّا، أو مِن (نا العَظَمةِ) في ﴿آتَيْنَا﴾؛ أي: مُتَمِّمينَ. الثالث: أن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٣)، (مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣١).

يكون مفعولًا مطلقًا نائبًا عن المَصدرِ؛ لأنَّه نَوعُه؛ أي: آتَيْنَاه إيتاءَ تمامٍ لا نُقصانٍ، أو لأنَّه اسمُ المَصدَرِ على تقديرِ آتيناه، أي: أتمَمْناه تمامًا[1].

- ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾: ﴿أَحْسَنَ﴾ بفتحِ النُّونِ: فِعْلٌ ماضٍ واقعٌ صلةً للموصولِ، وفاعِلُه ضميرٌ مستَتِرٌ يعودُ على ﴿مُوسَى﴾. وقيل: الضَّميرُ يَعودُ على كُلِّ مَن أحسَنَ، والموصولُ ﴿الَّذِي﴾ مرادٌ به الجِنْسُ. وقيل: ﴿الَّذِي﴾ هنا مصدريَّةٌ، وليسَتْ موصولةً، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعلٌ ماضٍ صِلَتُها، وفاعِلُ ﴿أَحْسَنَ﴾ ضميرٌ مُستتِرٌ يعودُ على ﴿موسى﴾؛ أَيْ: تمامًا على إحسانِ موسى بطاعَتِنا، وقيامِه بأمْرِنا ونَهْيِنا. وقُرِئ: (أَحْسَنُ) بضَمِّ النونِ على أنَّه اسْمٌ؛ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وجُملَتُه صِلَةٌ؛ أي: على الذي هو أحسَنُ، فحُذِفَ العائِدُ (هو). وقيل غيرُ ذلك[2].

٢- قوله تعالى:﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾

- ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾: ﴿نَفْسًا﴾ مفعولٌ به مُقَدَّمٌ منصوبٌ. ﴿إِيمَانُهَا﴾ فاعِلٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ، ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ نعتٌ لـ﴿نَفْسًا﴾[3].

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٣-٢٣٥).

قال أبو حيان- رحمه الله تعالى: (وجازَ الفَصلُ بالفاعِلِ بين الموصوفِ وصِفَتِه؛ لأنه ليس بأجنبيٍّ؛ إذ قد اشترك الموصوفُ- الذي هو المفعول- والفاعِلُ في العامِلِ، فعلى هذا يجوز: ضربَ هندًا غلامُها التَّميميَّةَ، ومَن جَعَلَ الجملةَ حالًا [مِنْ (ها) في ﴿إيمانِها﴾] أبعَدَ، ومَنْ =

المعنى الإجماليُّ:

يُخْبِرُ تعالى أنَّه آتى مُوسَى التوراةَ كاملةً، جامعةً لجميعِ ما يحتاجُ إليه في شريعتِه؛ جزاءً على إحسانِه في العملِ وطاعتِه، وإتمامًا لِنِعْمَتِه عليه، وتَوْضِيحًا لكلِّ شَيْءٍ يَحتاجُ إليه قَوْمُه مِنْ أَمْرِ دِينِهم، وهدايةً لهم، ورحمةً؛ وحتى يُؤْمِنوا بِلِقاءِ اللهِ تعالى يَوْمَ القِيامَةِ.

وبيَّن اللهُ تعالى أنَّه أَنْزَلَ هذا القرآنَ مُبارَكًا، فيه الخَيْرُ الكثيرُ، والعِلْمُ الغَزيرُ، وأَمَرَ العبادَ أَنْ يَتَّبِعوه، وأَنْ يَتَّقُوا رَبَّهم؛ لَعَلَّهم يُرْحَمونَ.

ثم أَخْبَرَ سبحانه أنَّه أَنْزَلَ هذا الكِتابَ قَطْعًا لحُجَّةِ مُشْرِكي قُرَيْشٍ، من أنْ يَحْتَجُّوا بأنَّ الكتابَ إنَّما أُنْزِلَ على طائِفَتينِ مِن قَبْلِهم: هم اليَهُودُ والنَّصارى، وهم لا عِلْمَ لهم به ولا معرفةَ، ولا يَفْقَهونَ اللِّسانَ الذي جاء به ولم يُؤْمَرُوا بما فيه. كذلك كانَ إنزالُه الكتابَ قَطْعًا لتَعَلُّلِهم من أنْ يقولوا: لو أنَّا أُنْزِلَ إلينا الكتابُ كما أُنْزِلَ على اليَهودِ والنَّصارى لكُنَّا أَهْدَى منهم؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه قد جاءَهم القُرآنُ حُجَّةً واضِحَةً بَيِّنَةً، وهُدًى لهم ورحمةً، وأَوْضَحَ أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ظُلْمًا مِمَّنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وأَعْرَضَ عنها بعد أنْ جَاءَتْه، وتَوَعَّدَ الَّذين يُعْرِضونَ عن آياتِه بأنَّ لهم سُوءَ العَذابِ؛ جزاءَ ذلك الإعراضِ.

فهل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشْركونَ إلَّا أن تَأْتِيَهم الملائِكَةُ فتَقْبِضَ أَرْواحَهُم على الكُفْرِ، أو يَأْتِيَهم اللهُ في مَوْقِفِ يومِ القِيامَةِ لفَصْلِ القَضاءِ بَيْنَ الخَلْقِ، أو أنْ تَطْلُعَ عليهم الشَّمْسُ من مَغْرِبها؛ فإنَّها إذا طَلَعَتْ مِن مَغْرِبها لا يَنْفَعُ أحَدًا الإيمانُ إذا لم يَكُنْ قد آمَنَ مِن قَبْلِ ذلك، ولا تُقْبَلُ توبةُ عاصٍ، ولا عَمَلٌ صالِحٌ مِن أَحَدٍ لم

= جَعَلَها مستأنفةً فهو أبعَدُ. [والقائِلُ بذلك أبو البقاءِ العكبريُّ في التِّبيانِ] (١/ ٥٥٢). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠).

يكن عامِلًا به قبلَ طُلُوعِها مِن مَغْرِبها، وأَمَرَ نَبِيَّهم أن يقولَ لهم: انْتَظِروا أحَدَ تلك الأشياءِ، ونحن مُنْتَظِرونَ كذلك.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الَّذين اختَلَفوا في دينِ الله وفارَقُوه، أو أَصْبَحوا فِرَقًا وأَحْزابًا؛ فإنَّ نَبِيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بَرِيءٌ منهم وممَّا هم فيه، إنَّما أَمْرُهم ومَصِيرُهم إلى اللهِ، ثم يُخْبِرُهم تعالى يومَ القيامَةِ بما عَمِلُوه في الدُّنيا، ويُجازِيهم عليه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لما ذكر الله تعالى الصِراطَ المُستقيم في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أتْبَعه بالحديثِ عن كتابِ موسَى عليه السلام تكملةً للحديثِ السَّابق عن هذا الصراطِ؛ للإيحاءِ بأنَّ هذا الصِّراطَ مُمْتَدٌّ مِن قَبْلُ في رسالاتِ الرُّسُل - عليهم الصَّلاة والسَّلام - وشرائِعِهم. وأقرَبُ شريعةٍ كانت شريعةَ موسى عليه السَّلامُ، وقد أعطاه اللهُ كتابًا فَصَّلَ فيه كُلَّ شَيءٍ، وجَعَلَه هُدًى ورحمةً(١)، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

أي: ثمَّ آتَيْنا مُوسى التَّوراةَ(٢) كاملةً جامعةً لجميعِ ما يُحتاجُ إليه في شريعتِه(٣)؛

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٣٦).
(٢) قال أبو حيان: (الكتابُ هنا التوراةُ بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٨-٣٦٩).

جزاءً على إِحْسانِه في العَمَلِ، وقيامِه بأوامِرِنا وطاعَتِنا، وتمامًا لنِعَمِنا عليه، وكمالًا لإِحْسانِنا إليه، زيادةً على ما أَنْعَمْنا به عليه مِنْ قبلُ(١).

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: وتبيينًا لكلِّ شيءٍ يحتاجُ قَوْمُه وأَتْباعُه إلى تَفْصيلِه مِن أَمْرِ دِينِهم؛ مِنَ الأحكامِ والعَقائِد وغيرِ ذلك(٢).

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

أي: وهدايةً لهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةً بهم، تَحْصُلُ لهم بها السَّعادةُ والنَّجاةُ من الضَّلالةِ(٣).

﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: آتَينا موسَى التَّوراةَ؛ كي يُؤمِنَ قَوْمُه بالبَعْثِ، ويُصدِّقوا بالثَّوابِ والعِقابِ؛ فيَسْتَعِدُّوا لذلك(٤).

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ الكُتُبَ رَحمةً منه- لأنَّ غايَتَها الدَّلالةُ على مُنْزِلِها، فتُمْتَثَل أوامِرُه، وتُتَّقَى مَناهيه وزَواجِرُه- بيَّنَ أنَّه لم يَخُصَّ تلك الأُمَمَ بذلك، بل أَنْزَلَ على هذه الأُمَّةِ كتابًا، ولم يَرْضَ لها كَوْنَه مثلَ تلك الكُتُبِ، بل جَعَلَه أَعْظَمَها بَرَكةً، وأَبْيَنَها دَلالةً(٥)، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٣-٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢٩).

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أَنْزَلناه إلى نَبِيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيه الخيرُ الكثيرُ، والعِلْمُ الغزيرُ، وهو الذي تُسْتَمَدُّ منه سائِرُ العلومِ، ويُمَيَّز به بين الحَسَنِ والقَبيحِ، والنَّافِعِ والضَّار، والباطِلِ والحَقِّ، فمن تَعَلَّمَهُ وعَمِلَ به؛ غَمَرَتْه الخيراتُ والبَرَكاتُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ(١).

﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾.

أي: فاجْعَلوه إمامًا تَتَّبِعونَه، وتَعْمَلونَ بما فيه- أيُّها النَّاسُ- فيما يأمُرُ به ويَنْهَى عنه، وابْنُوا أُصُولَ دِينِكم وفُرُوعَه عليه، واتَّقُوا اللهَ تعالى، فلا تُخالِفُوا أَمْرَه، ولا تَسْتَحِلُّوا مَحارِمَه؛ لتُرْحَموا، فتَنْجُوا مِنْ عَذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) ﴾.

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا ﴾.

أي: أَنْزَلْنا إليكم هذا الكِتابَ المُبارَكَ- يا كُفَّارَ قُريشٍ- قَطْعًا لحُجَّتِكم وعُذْرِكم؛ لِئَلَّا تَقُولوا: لم يُنَزَّلْ علينا كتابٌ فنَتَّبِعَه، ولم نُؤْمَرْ ولم نُنْهَ، فليس علينا حُجَّةٌ فيما نَأْتي ونَذَرُ؛ إذْ لم يَأْتِ مِنَ اللهِ كتابٌ ولا رسولٌ، وإنَّما الحُجَّةُ على طائِفَتَي اليهودِ والنَّصارَى اللَّتَينِ أُنْزِلَ عليهما التَّوراةُ والإنجيلُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٥-٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦-٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٣-٥٥٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

أي: والكُتُبُ التي أَنْزَلْتَها عليهم، ليس لَنا بها عِلْمٌ ولا مَعْرِفَةٌ؛ فلا ندري ما هي، ولا نَعْلَمُ ما يَقْرَؤون؟ فليس هو بِلِسانِنا؛ فنَفْهَمَ ما يقولونَ؛ فهم كانوا أَهْلَه دُوننا، ولم نُؤْمَرْ بما فيه(١).

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

أي: وقَطَعْنا تَعَلُّلَكم؛ لئلَّا تَقُولوا: لو أنَّا أُنْزِلَ علينا كتابٌ- كما أُنْزِلَ على اليَهُودِ والنَّصارى- لَكُنَّا أَشَدَّ منهم استقامةً على طريقِ الحَقِّ، واتِّباعًا للكِتابِ، وأَحْسَنَ عَمَلًا بما فيه(٢).

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أي: فقَدْ جاءَكم كتابٌ مِنَ اللهِ تعالى على لِسانِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بِلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ؛ حُجَّةٌ عليكم واضِحَةٌ بَيِّنَةٌ، فيه بيانٌ للحَقِّ، وفُرقانٌ بَينَ الصَّوابِ والخَطَأ، وهُدًى من الضَّلالَةِ، ورحمةٌ مِنَ اللهِ لِمَنْ عَمِلَ به واتَّبَعَه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٥).

تَحْصُلُ لهم بها السَّعادةُ في دُنياهم وأُخْراهم(١).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قامتْ عليهم الحجَّةُ، وبيَّن الله ما يُوجِب الانقيادَ لأحكامِ هذا القرآنِ، والإيمانَ بأخبارِه- حسُن وقوعُ تحذيرِ التقريرِ، وأنَّ مَن لم يرفعْ بهذا القرآن رأسًا، وكذَّب به، فإنَّه أظلمُ الظَّالمين(٢)، فقال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

أي: فمَنْ أَخْطأُ فِعْلًا، وأَشَدُّ تَجاوُزًا وعُدْوانًا مِمَّنْ كذَّبَ بِحُجَجِ اللهِ وأَدِلَّتِه، وأَعرضَ عنها بعدَ ما جاءَتْه، فلم يُؤمِنْ بها، وصَرفَ النَّاسَ وصَدَّهُم عنها؟

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

أي: سَيُجَازِي اللهُ تعالى الَّذين يُعْرِضونَ عن آياتِه، ويَصُدُّونَ النَّاسَ عنها؛ العذابَ السَّيِّئ، والعِقابَ الشَّديدَ(٣).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البقاعي)) (٧/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّه إنَّما أَنْزَلَ الكِتابَ؛ إزالَةً للعُذْرِ، وإزاحةً للعِلَّةِ؛ بَيَّنَ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ البتَّةَ، وشَرَحَ أحوالًا تُوجِبُ اليَأْسَ عَن دُخُولِهم في الإيمانِ، فقال(١):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

أي: هل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشْركونَ إلَّا أنْ تَأْتِيَهم الملائكَةُ بالمَوْتِ، فتَقْبِضَ أَرْواحَهم على الكُفْرِ، أو أنْ يَأْتِيَهم ربُّكَ- يا مُحمَّد- في مَوْقِفِ القِيامَةِ؛ لفَصْلِ القَضاءِ بَين العِبادِ، أو أنْ تَطلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبها(٢)؟

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

أي: إذا طَلَعَت الشَّمْسُ مِن مَغْرِبها، فلا يُقْبَلُ إيمانُ كافِرٍ، لم يَكُنْ مُؤْمِنًا من قَبْلِ طُلُوعِها، ولا تُقْبَلُ توبةٌ مِن عاصٍ، ولا يُقبَل عملٌ صالحٌ مِن أحَدٍ لم يكن عاملًا به قبل طُلوعِها(٣).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبِها، فإذا طَلَعَتْ فرآها النَّاسُ آمَنُوا أجمعونَ، فذلك حين: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٦٠-٥٦٢).

قال الرازيُّ: (أجمعوا على أنَّ المرادَ بهذه الآياتِ علاماتُ القيامةِ) ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣، ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧١، ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١-٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٨٩-٥٩٠).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ يومًا: ((أتَدْرُونَ أينَ تذهبُ هذهِ الشَّمسُ؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: إنَّ هذهِ الشَّمسَ تجري حتَّى تنتَهيَ تحتَ العَرْشِ فتخِرُّ ساجدةً، فلا تزالُ كذلِكَ حتَّى يقالَ لَها: ارتَفِعي، ارْجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتُصبحُ طالعةً مِنْ مَطلَعِها، ثمَّ تجري حتَّى تنتَهيَ إلى مستقَرِّها ذاك تحتَ العرشِ، فتخرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلِكَ حتَّى يقالَ لَها: ارتَفِعي، ارجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتَرْجِعُ فتُصْبِحُ طالعةً من مَطْلِعِها، ثمَّ تجري لا يستنكرُ النَّاسُ منها شيئًا، حتَّى تنتَهيَ إلى مُستقرِّها ذاكَ تحتَ العَرشِ، فيقالُ لَها: ارتفِعي، أَصبِحي طالعةً مِن مَغْرِبِكِ، فتُصْبِحُ طالعةً مِن مَغْرِبِها؛ فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَتَدْرُونَ متى ذاكُم؟ ذاكَ حينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾))(١).

﴿قُلِ انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء المشركينَ: انتَظِروا أنْ تَأتِيَكم الملائكةُ بالمَوتِ، فتَقبِضَ أَرْواحَكم، أو أنْ يَأْتِيَ رَبُّكَ لفَصْلِ القَضَاء في مَوْقِفِ القيامة، أو أَنْ يَأْتيَكم طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبها، فتُطوى صحائِفُ الأعمالِ، ولا يَنْفَعُكم إيمانُكم حينئذٍ إنْ آمَنْتُم، فتَعْلَمون حينئذٍ المُحِقَّ مِنَّا مِنَ المُبْطِلِ، وتَتَبَيَّنون عند ذلك مَنِ النَّاجي منَّا ومنكم، ومَنِ الهالكُ؟ إنَّا مُنتَظِرون ذلك، فيُجْزِل الله لنا ثَوابَه، ويُنْزِل بكم عَذابَه(٢).

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

---

(١) رواه مسلم (١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أنَّ صِراطَه مُستقيمٌ، ونَهَى عَنِ اتِّباعِ السُّبُلِ، وذَكَرَ مُوسى عليه السَّلامُ وما أُنْزَلَ عليه، وذَكَرَ القُرآنَ، وأَمَرَ باتِّباعِه، وذَكَرَ ما يَنْتَظِرُ الكُفَّارَ مِمَّا هو كائِنٌ بهم- انتَقَلَ إلى ذِكْرِ مَنِ اتَّبَعَ السُّبُلَ، فتَفَرَّقَت به عن سَبيلِ اللهِ؛ لِيُنَبِّهَ المؤمنينَ على الائتلافِ على الدِّينِ القَويمِ، ولِئَلَّا يَخْتَلِفوا كما اخْتَلَفَ مَنْ قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ، بَعْدَ أنْ كانوا مُتَّفِقينَ على الشَّرائِعِ التي بُعِثَ أَنْبياؤُهم بها[1]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿فَارَقُوا﴾ أي: زَايَلوا دِينَهم، وتَرَكوه، وانْصَرَفوا عنه[2].

٢- قراءَةُ ﴿فَرَّقُوا﴾ مِنَ التَّفْريقِ[3].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥١).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٧٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٢).
وفي القراءة بـ (فَارَقُوا) وجهٌ آخر أن (فاعَلَ) بمعنى (فَعَّل) نحو: ضاعَفْتُ الحساب وضعَّفْتُه. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥١).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير القرآن العظيم)) (٦/ ٣٢٦).

أي: إنَّ الَّذين اختلَفوا في دِينِ الله تعالى وفارَقُوه، أو تَشَتَّتوا فيه؛ فأَصْبَحوا فِرَقًا وأَحْزابًا وأَدْيانًا؛ كلٌّ منها يزعُمُ أنَّه الحَقُّ؛ تَبَعًا للأَهْواءِ والضَّلالاتِ- فأنت بريءٌ منهم، يا محمَّدُ، وممَّا هم فيه(١).

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٦].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ أَمْرَ هؤلاءِ- الَّذين فارَقوا دِينَهم وفرَّقوه، فكانوا فيه شِيَعًا- ومَصِيرَهم إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، ثمَّ يخبِرُهم سبحانه إذا جاؤُوه يومَ القيامَةِ بالَّذي كانوا يَعْمَلونه في الدُّنيا، فيَجِدُونَ كُلَّ ما عَمِلوه في كتابٍ، لا يُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أَحْصاها، ويُجازيهم بأَعْمالِهم(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠-٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠١-٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٧).

الفَوائِد التربويَّة:

١- القُرآنُ هُدًى ورحمةٌ؛ فعَلَيْنا اتِّباعُ ما هَدَى إليه، واتِّقاءُ ما نَهى عنه وحَذَّرَ؛ لِتكونَ رَحْمَتُه تعالى مرْجُوَّةً لنا في الدُّنيا والآخِرَة؛ فأكبَرُ سَبَبٍ لِنَيْلِ رَحمةِ اللهِ اتِّباعُ هذا القرآنِ، عِلْمًا وعملًا، قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فيه تَحْذيرُ المؤمنين مِن الإعْراضِ عن الأعمالِ الصَّالِحَةِ[٢].

٣- الإنسانُ يكتَسِبُ الخيرَ بإيمانِه؛ فالطَّاعَةُ والبِرُّ والتَّقْوى إنَّما تَنْفَعُ وتَنْمُو إذا كان مع العَبْدِ الإيمانُ، فإذا خلا القَلْبُ من الإيمانِ لم يَنْفَعْه شَيءٌ مِن ذلك؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا﴾[٣].

٤- قولُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الدِّينَ يَأْمُرُ بالاجْتِماعِ والائْتِلافِ، ويَنْهى عن التَّفَرُّقِ والاختلافِ في أهْلِ الدِّينِ، وفي سائِرِ مَسائِلِه الأُصُوليَّةِ والفروعِيَّة[٤]، فالله تعالى ذكر التفرُّقَ في سِياقِ الذَّمِّ، فيُؤْذِنُ ذلك بأنَّ اللهَ يُحَذِّرُ المُسلمينَ مِن ذلك[٥].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جَرَتِ العادَةُ أنَّ اللهَ يُنَوِّهُ بالتَّوراةِ والقُرآنِ معًا؛ لأنَّهما أعظَمُ الكُتُبِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٣).

المنزَّلة؛ لأنَّه قبل نُزُولِ القُرآنِ كانت التَّوراةُ أعْظَمَ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وأجمَعَها للأحكامِ؛ كما قال اللهُ: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، فلمَّا نَزَلَ القُرآنُ كان أشْمَلَ كتابٍ وأَعْظَمَه؛ لأنَّه جَمَعَ اللهُ فيه عُلُومَ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وزادَ فيه أَشْياءَ لم تُنْزَلْ على غيرِه؛ ولِذا لَمَّا نَزَلَت التَّوراةُ في قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ﴾ نوَّه بالقُرآنِ العَظيمِ بَعْدَه، فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ومِثْلُ هذا يَتكَرَّرُ في القُرآنِ، كقَوْلِه في التَّوراةِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] فأَتْبَعَ التَّنويهَ بالتَّوراةِ التَّنويهَ بالقُرآنِ؛ كَقَوْله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا﴾ يعني: القُرآنَ ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١٧] وكقَولِه: ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨] والجِنُّ الَّذين استَمَعوا القرآنَ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(١) [الأحقاف: ٣٠].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ لَمَّا أَمَرَ باتِّباعِ الكِتابِ، وكان الإنسانُ رُبَّما تَبِعَه في الظَّاهِرِ، أَمَرَ بإيقاعِ التَّقْوى المُصَحِّحةِ للباطِنِ إيقاعًا عامًّا؛ ولذلك حُذِفَ الضَّميرُ، فقال: ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي: ومع ذلك فأَوْقِعوا التَّقْوى(٢).

٣- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢٩).

إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ في هذه الآياتِ دليلٌ على أنَّ عِلْمَ القُرآنِ أَجَلُّ العُلومِ وأَبْرَكُها وأَوْسَعُها، وأنَّه به تَحْصُل الهِدايَةُ إلى الصِّراطِ المستقيمِ؛ هدايةً تامَّةً لا يُحتاجُ مَعَها إلى تَخَرُّصِ المتكَلِّمينَ، ولا إلى أَفْكارِ المتفَلْسِفينَ، ولا لغيرِ ذلك مِنْ عُلومِ الأَوَّلينِ والآخِرينَ[1].

٤- استُدِلَّ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ بقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: اليهودِ والنَّصارى؛ فتَبَيَّنَ أنَّه تعالى أَنْزَلَ القرآنَ؛ كراهةَ أنْ يَقُولوا ذلك، ومَنْعًا لأَنْ يَقُولوا ذلك، فلو كان قَدْ أُنْزِلَ على أكثَرَ مِنْ طَائِفتَينِ لكانَ هذا القَوْلُ كَذِبًا، فلا يحتاجُ إلى مانِعٍ مِن قَولِه[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، هذا التَّقْسيمُ والتَّنويعُ نَصٌّ صَريحٌ في معناه، فلا يَحْتَمِلُ تأويلَ إتيانِ الرَّبِّ جَلَّ جلالُه بإتيانِ مَلائِكَتِه أو آياتِه[3].

٦- في قَوْلِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ لَمَّا كان هذا وعيدًا للمُكَذِّبينَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُنتظَرًا، وهم يَنْتَظِرونَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَتْباعِهِ قَوارِعَ الدَّهْرِ ومَصائِبَ الأُمورِ؛ قال ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ فسَتَعْلمونَ أيُّنا أَحَقُّ بالأَمْنِ[4]؟

٧- قولُه تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فيه دليلٌ لمذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في إثباتِ الأفعالِ الاختياريَّةِ لِلَّهِ تعالى؛ كالاستواءِ والنُّزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).

والإتيانِ لله تبارك وتعالى؛ مِن غيرِ تشبيهٍ له بصِفاتِ المخْلوقينَ(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾، لا يُعارِضُه آيةُ سُورَةِ النِّساءِ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ لأنَّ مَحْمَلَ آيةِ النِّساءِ على تَعيينِ وَقْتِ فَواتِ التَّوبةِ بالنِّسبة للأَحْوالِ الخاصَّةِ بآحادِ النَّاسِ، ومَحْمَلَ آيةِ سُورَةِ الأنعامِ تَعْيينُ وَقْتِ فَواتِ التَّوبَةِ بالنِّسبَةِ إلى النَّاسِ كافَّةً، وهي حالةُ يأسِ النَّاسِ كُلِّهم مِنَ البَقَاءِ(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ يَنْفَعُ إذا كان إيمانًا بالغَيْبِ، وكان اختيارًا مِنَ العبدِ، فأمَّا إذا وُجِدَتِ الآياتُ صار الأَمْرُ شهادةً، ولم يَبْقَ للإيمانِ فائدةٌ؛ لأنَّه يُشْبِه الإيمانَ الضَّروريَّ، كإيمانِ الغَريقِ والحَريقِ ونَحْوِهما، مِمَّن إذا رأى الموتَ أقلَعَ عمَّا هو فيه(٣).

١٠- كُلُّ مُبتدِعٍ خالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وكَذَّبَ ببعْضِ ما جاءَ به مِنَ الحَقِّ، وابتَدَعَ من الباطِلِ ما لم تَشْرَعْه الرُّسُلُ - فالرَّسولُ بَريءٌ مِمَّا ابتَدَعَه وخالَفَه فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٠-١٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨١).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٣٧١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على عامِلِه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للاهتِمامِ بأَمْرِ البَعْثِ والجَزاءِ(١).

٢- قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

- تَنكير ﴿كِتَابٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: وهذا القرآنُ الذي يُتْلَى عليكم كِتابٌ عظيمُ القَدْرِ(٢).

- قدَّمَ الوصْفَ بالإنزالِ على الوصفِ بالبَرَكة؛ لأنَّ الكلامَ مع مَن يُنكِرُ رسالةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُنكِرُ إنزالَ الكتُبِ الإلهيَّةِ، وكونه مُباركًا عليهم هو وصفٌ حاصلٌ لهم منه، متراخٍ عن الإنزالِ؛ فلذلك تأخَّر الوصْفُ بالبَركة، وتقدَّم الوصفُ بالإنزالِ(٣).

- وكان الوَصْفُ بالفِعْلِ المُسنَد إلى نونِ العَظَمَةِ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَوْلى مِنَ الوَصْفِ بالاسْمِ؛ لِما يَدُلُّ الإسْنادُ إلى اللهِ تعالى مِنَ التَّعْظيمِ والتَّشريفِ، وليس ذلِك في الاسمِ لو كانَ التركيبُ (مُنزَلٌ)، أو (مُنْزَلٌ منَّا)(٤).

- في قَوْلِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَعْدٌ على اتِّباعِ القُرآنِ الكَريم، وتَعْريضٌ بالوعيدِ بِعَذابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ إنْ لم يَتَّبِعوه(٥).

٣- قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تنوين ﴿بَيِّنَةٌ﴾ للتفخيمِ، وفي التعرُّضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٤- ٦٩٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٦٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٩).

لوَصْفِ الربوبيَّة مع الإضافَةِ إلى ضَميرِهم في قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ مزيدُ تأكيدٍ لإيجابِ الاتِّباعِ(١).

٤- قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنوينُهما أيضًا للتفخيم؛ عبَّر عن القرآنِ بالبيِّنةِ؛ إيذانًا بكمالِ تَمَكُّنِهم مِن دِراسَتِه، ثمَّ بالهدى والرَّحمةِ؛ تنبيهًا على أنَّه مُشْتَمِلٌ على ما اشتَمَلَت عليه التَّوراةُ مِن هدايةِ النَّاسِ ورَحْمَتِهم(٢).

٥- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فيه: وَضْعُ الموصولِ مَوْضِعَ ضميرِهم بطريقِ الالتفاتِ؛ تنصيصًا على اتِّصافهم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وإشعارًا بعلَّةِ التَّحكيمِ، وإسقاطًا لهم عن رُتْبَةِ الخِطابِ، والمعنى إنكارُ أنْ يكونَ أحَدٌ أظْلَمَ مِمَّنْ فَعَلَ ذلك أو مُساويًا له(٣).

٦- قوله: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ فيه: وَضْعُ الموصولِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ- حيث لم يَقُلْ: سَنَجْزِيهم- لتَحقيقِ مَناطِ الجَزاءِ(٤).

٧- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (كَان) هنا مفيدةٌ لِلاسْتِمرارِ، أي: بِصَدْفِهم وإعراضِهم عن الآياتِ إعراضًا مُستمِرًّا(٥).

٨- قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ...﴾ ﴿هَلْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: ما يَنظُرون إلَّا أنْ تأتيَهم الملائكةُ...إلخ. والآية استئنافٌ بَيانيٌّ نشأ في قوله قَبْلَه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٣).

بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾، وهذا الاستئنافُ يَحتمِلُ الوعيدَ والتهديدَ، ويَحتمِلُ التَّهكُّمَ؛ فإنْ كان وعيدًا وتَهديدًا فهو ناشئٌ عن جملة: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾؛ لإثارتِه سُؤالَ سائلٍ يقول: متى يكون جزاؤُهم؟ فقيل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ...﴾.

وإنْ كان تَهكُّمًا بِهم على صَدْفِهم عن الآياتِ التي جاءتْهم، وتَطلُّعهم إلى آياتٍ أعظمَ منها في اعتقادِهم؛ فهو ناشئٌ عن جملة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ سائلٍ يقول: ماذا كانوا يَترقَّبون من الآياتِ فوقَ الآياتِ التي جاءتْهم؟ فقيل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ...﴾[1]!

٩- **قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾** التَّعبيرُ عنها بالبَعْضِ؛ للتَّهويلِ والتَّفْخيمِ[2].

- وإضافَةُ الآياتِ في الموضِعَينِ إلى اسْمِ الرَّبِّ في قَوْلِه: ﴿آيَاتِ رَبِّكَ﴾ مُنْبِئٌ عن المالِكِيَّة الكُلِّيَّة لذلك، وإضافَتُه إلى ضَمِيره صلَّى الله عليه وسلَّم للتَّشْريفِ[3].

١٠- **قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾** فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ تذكيرًا لهم بأنَّ الانتظارَ والتَّريُّثَ عن الإيمانِ وَخِيمُ العاقِبَةِ[4].

- قولُه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فيه: تَقديمُ المفعولِ في قوله: ﴿نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ ليَتِمَّ الإيجازُ في عَوْدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٣- ١٨٥)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٦).

الضَّمِيرِ[١]، ووَقَعَ في الكلام إيجازُ حَذْفٍ؛ اعتمادًا على القَرينةِ الواضِحَةِ. والتقديرُ: لا ينفَعُ نفسًا غيرَ مؤمنةٍ إيمانُها، أو نفسًا لم تكنْ كسَبَتْ خيرًا في إيمانِها مِن قَبْلُ كَسْبُها[٢].

١١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فيه: استئنافٌ لبيانِ أَحْوالِ أهْلِ الكِتابَيْنِ إِثْرَ بيانِ حَالِ المُشركينَ[٣]، وقد جاء الاستئناف عَقِبَ الوعيدِ كالنَّتيجَةِ والفَذْلكة[٤].

١٢- قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ[٥]، وصيغَةُ القَصْرِ؛ لقَلْبِ اعتقادِ السَّائِلِ المترَدِّد؛ أَيْ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولَا إلى غَيْره، وَهذا إِنْذارٌ شَدِيدٌ[٦]، وفيه تَعْزِيةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٧].

١٣- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ عَبَّرَ عن إظهارِه بالتَّنْبِئَة؛ لِمَا بيْنَهما مِنَ المُلابَسَةِ في أنَّهما سَببَانِ للعِلْمِ؛ تنبيهًا على أنَّهم كانوا جاهِلِينَ بحالِ ما ارْتكَبوه، غافِلِينَ عن سُوءِ عاقِبَتِه[٨].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٩٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥٠).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/٢٠٦).

الآيات (١٦٠-١٦٥)

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿ قِيَمًا ﴾: مُسْتقيمًا، أو ثابتًا، أو مُقَوِّمًا لأمورِ مَعاشِهِم ومَعادِهم، وأَصْلُ (قوم): يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[(١)].

﴿ مِلَّةَ ﴾: أي: دينَ، وطريقةَ، مشتقَّة من أَمْلَلْتُ (أي أَمْلَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموعٍ ومتلوٍّ؛ فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه؛ قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له؛ قيل: (دين)[(٢)].

﴿ وَنُسُكِى ﴾: وذَبْحي، والنُّسُكُ: العِبادةُ، والذَّبائِحُ، وأَصْلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى؛ ومنه قيل للعابِدِ: ناسِكٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

﴿رَبًّا﴾: الرَّبُّ: السيِّدُ، والمالِكُ، والمُصْلِح، والصَّاحِبُ، والمُرَبِّي، والخالِق، والمعبود، وأصْلُه: إصلاحُ الشَّيْءِ والقيامُ عليه(١).

﴿وِزْرَ﴾: الوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْب، والثِّقْلُ والحِمْل أيضًا، وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّيت الآثامُ أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مُثقِلةٌ(٢).

﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾: أي: سُكَّانَ الأرضِ، يَخلُفُ بَعضُكم بَعْضًا، واحِدُهم خَليفَة، والخِلافَةُ النِّيابةُ عن الغَير، خَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأَمْرِ عنه، وأَصْلُ (خلف): مجيءُ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه(٣).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي: لِيَختبرَكم ولِيَمتحنكم، ويكونُ البلاءُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأَصلُ (بلي) من الامتحانِ، وهو الاخْتبارُ(٤).

مُشْكِلُ الإِعْرابِ:

١- قوله ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾

قولُه تعالى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها﴾ إنَّما ذكَّر العددَ ﴿عَشْرُ﴾ مع أنَّ المَعْدودَ ﴿أَمْثال﴾ مذكَّر- والقاعدةُ أنَّ العَدَدَ من ثلاثةٍ إلى عشرةٍ يُخالِفُ المعدودَ في

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

التَّذكيرِ والتَّأنيثِ- فلم يَقُلْ: (عَشرَةُ)؛ وذلك لأوجهٍ؛ منها: أنَّ المذكَّرَ ﴿أَمْثَال﴾[١] اكتَسَبَ من المؤَنَّثِ ﴿ها﴾ التأنيثَ؛ فأُعْطِيَ حُكْمَ المؤَنَّث، ومنها: أنَّه راعَى الموصوفَ المَحذوفَ، والتقديرُ: فله عَشْرُ حَسَناتٍ أمثالِها، ثم حَذَفَ الموصوفُ (حَسَنات) وأقامَ صِفَتَه﴿أمثالها﴾ مقامَه؛ تاركًا العَدَدَ على حالِه[٢].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

﴿إلى صِرَاطٍ﴾: جارٌّ ومجرورٌ في مَحلِّ نَصْبٍ: مفعولٌ به ثانٍ لـ (هدى).

﴿دينًا﴾: منصوبٌ على أنَّه بدَلٌ مِنْ محلِّ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾؛ لأنَّه في مَحَلِّ نَصْبٍ.

﴿قِيَمًا﴾ نَعْتٌ لـ ﴿دِينًا﴾، والقِيَم: مصدرٌ بمعنى القيامِ، وُصِفَ به الدِّينُ مبالغةً؛ كقولنا: رجلٌ عَدْلٌ.

﴿مِلَّةَ﴾ مَنْصُوبةٌ على أنَّها بَدَلٌ مِنْ ﴿دينًا﴾[٣].

المعنى الإجمالي:

يخبِرُ تعالى أنَّه من جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ بالحَسَنةِ فله عَشْرُ أَمْثالِها، ومَن جاء بالسَّيِّئةِ فلا يُجْزَى إلَّا مِثْلَها، ولا أحَدَ يُظْلَمُ عند الله شيئًا.

ثم أَمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يُعْلِنَ قائِلًا: إنِّي هداني ربِّي إلى طريقٍ واضِحٍ قويمٍ؛ دينًا مستقيمًا قائمًا ثابتًا معتدِلًا، هو شريعةُ إبراهيمَ، المستقيمِ على الحَقِّ، والمائِلِ عن سُبُلِ الضَّلالةِ، وما كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِنَ المشركينَ.

---

(١) العِبرةُ في المعدودِ بِمُفْرَدِه، ومفرد (أمثال) (مَثَل) وهو مذكَّر.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٨).

قل- يا مُحمَّد: إنَّ صَلاتي وذَبْحي وحياتي ومَماتي لِلَّهِ وَحْدَه، لا شَرِيكَ له، وبِذَلك أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسْلمينَ. وقُل أيضًا لهؤلاءِ المُشركينَ: أَغيرَ اللهِ أَتَّخِذُ رَبًّا، وهو جَلَّ وعلا ربُّ كُلِّ شَيءٍ، وما يَكْسِبُ كُلُّ شَخصٍ من الآثامِ فهو عليه، لا يَتَعَدَّى إلى غَيْرِه شيءٌ منه، ولا تَحْمِل نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الآثامِ، بل كلٌّ يتحَمَّلُ ما ارتَكَبَه من إثْمٍ، ثمَّ إلى اللهِ مَرْجِعُ النَّاسِ أَجمعينَ فيُخْبِرُهم تعالى بما كانوا فيه يَخْتَلِفون.

وهو جلَّ وعلا الذي جَعَلَكم خلائِفَ في الأَرْضِ بعد أُمَمٍ أَهْلَكَهم، ورَفَعَ بَعْضَكم فَوْقَ بعضٍ دَرَجاتٍ؛ لِيَخْتَبِرَكم فيما مَنَحَكم مِن فَضْلِه، وأَوْلاكم مِن نِعَمِه، فيَنْظُرَ كيف تَعملونَ؟ إنَّ رَبَّك سريعُ العِقابِ، وإنَّه لَغفورٌ رحيمٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تعالى الخَلْقَ بسلوكِ صِراطِه المستقيمِ، ونَهاهم عنِ اتِّباعِ السُّبُل؛ لئَلَّا تَتَفَرَّقَ بهم عن سَبيلِه، ثم بَيَّنَ أنَّ بَعْضًا منهم لم يَمْتَثِلوا ذلك، بل اتَّبَعوا السُّبُلَ، فتَفَرَّقَت بهم عن سَبيلِه في قولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾- بيَّنَ أنَّه جلَّ وعلا بالنِّسبةِ إلى مَن عصاه، فاتَّبَعَ تلك السُّبُل الضَّالَّة، وبالنِّسبةِ إلى مَن أَطاعَه، فاتَّبَعَ ذلك الصِّراطَ المُستقيمَ، أنَّ مُعامَلَته للمُحسنينَ في غايةِ الإكرامِ والتَّمامِ والكَمالِ، وللمُسِيئينَ في غايةِ الإنصافِ والعَدالةِ(١).

وأيضًا على عادةِ القُرآنِ أنَّه إذا أَنْذَر أعقب الإنذارَ بِبشارةٍ لمَن لا يَحِقُّ عليه ذلك الإنذارُ، وإذا بَشَّر أعقب البشارَة بنذارةٍ لمَن يَتَّصِفُ بضِدِّ ما بُشِّرَ عليه- أنه

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٨).

لَمَّا أَنْذَرَ تعالى وحَذَّرَ من التَّرَيُّث في اكتسابِ الخَيرِ، قبل أن يأتِيَ بَعْضُ آياتِ الله القاهِرَةِ، بقَوْلِه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فحَدَّ لهم بذلك حَدًّا هو مِن مَظاهِرِ عَدْلِه، أَعْقَبَ ذلك بِبُشْرى مِن مظاهِرِ فَضْلِه وعَدْلِه، وهي الجزاءُ على الحَسَنَةِ بعَشْرِ أمثالها، والجزاءُ على السَّيِّئةِ بمِثْلِها[1].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

أي: مَنْ وَافَى ربَّه يومَ القيامَةِ بالخَصْلَةِ الحَسَنَةِ التي تُرْضِي اللهَ تعالى، والتي كان يَعْمَلُها في دارِ الدُّنيا؛ سواءٌ كانت حسنَةً قَوْليَّةً أو فِعْليَّةً، ظاهرةً أو باطنةً، متعلِّقةً بحَقِّ الله سبحانه أو حَقِّ خَلْقِه- فلَه مِنَ الثَّوابِ على أقَلِّ التَّقديراتِ عَشْرُ حَسَناتٍ؛ كُلُّ حَسَنَةٍ منها مِثْلُ حَسَنَتِه التي جاءَ بها[2].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

أي: ومَنْ وَافى رَبَّه سبحانه يَوْمَ القيامَةِ بالخَصْلَةِ السَّيِّئةِ التي تَسُوءُ صاحِبَها، فجَزاؤُه سَيِّئةٌ واحِدَةٌ مِثْلُها مِن غَيْرِ مُضاعَفَتِها عليه[3].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: والجميعُ لا يُظْلَمون، فلا يُزادُ في سيِّئاتِ المُسيءِ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٨-٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦-٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٩).

المُحْسِن، وهذا من تمامِ عَدْلِه سبحانَه وإحسانِه، فلا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ[١].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى انقِسامَ الخَلْقِ إلى مُهْتَدٍ وضَالٍّ، ومُفَرِّقينَ دِينَهم شِيَعًا ومُهْتدينَ- أَمَرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُصَرِّحَ عَلى رُؤُوسِ الأَشْهادِ أنَّه لم يَتَّبعِ السُّبُلَ الزَّائغَةَ، ولا الطُّرُقَ الضَّالَّةَ، وأنَّه على الهُدى المستقيمِ، والمَحَجَّة البيضاءِ التي هداه إليها رَبُّه؛ فقال سبحانه[٢]:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾.

أي: قُلْ مُعْلِنًا- يا مُحمَّدُ: إنَّني قد أَنْعَمَ عليَّ رَبِّي؛ بأَنْ أَرْشَدَني ووَفَّقَني لسُلُوكِ الطَّريقِ الواضِحِ القَويمِ، الذي لا اعْوِجاجَ فيه ولا انْحِرافَ[٣].

﴿دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

أي: هداني رَبِّي إلى صراطٍ مُستقيم، وهو دِينٌ قائمٌ ثابتٌ معتدلٌ، يتضَمَّنُ العقائِدَ النَّافِعَةَ، والأعمالَ الصَّالِحَةَ، والأَمْرَ بكُلِّ حَسَنٍ، والنهيَ عن كُلِّ قَبيحٍ، ألا وهو شريعةُ إبراهيمَ المستقيمِ على طَريقِ الحَقِّ، والمائِلِ عن طُرُقِ الضَّلالَةِ، مِن أديانِ أَهْلِ الانحرافِ؛ كاليَهودِ والنَّصارى، وما كان مِنَ المشركينَ باللهِ، صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٢-٦١٣).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٣-٦١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤-٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٤-٦١٨).

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لما عرَّفه ربُّه الدِّينَ المستقيمَ، عرَّفه كيف يقومُ به ويُؤَدِّيه[١]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

أي: قُلْ - يا مُحمَّد - للمشركينَ: إنَّ صلاتي وذَبْحي[٢]، وحياتي ووفاتي[٣]، كلُّ ذلك لله خالِقِ العالَمينَ ومَالِكِهم ومُدَبِّرِهم؛ فهو وَحْدَه المستحِقُّ لِأَنْ يُفْرَدَ له ذلك[٤].

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

أي: لا شَريكَ له في شيءٍ مِن ذلك مِنْ خَلْقِه، بل هو وحدَه الذي له الإخلاصُ في جميعِ ذلك كلِّه، وبذلك الإخلاصِ أَمَرَني ربِّي، وأنا عبدٌ مأمورٌ، عليَّ امتثالُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

(٢) واختار أنَّ النُّسك هنا بمعنى الذَّبح: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٠/ ٤٦)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٣٨١)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٨٢)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٢)، ونسبه الشنقيطيُّ لجمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((العذب النمير)) (٢/ ٦٢٧).
وقيل: النُّسك هنا أعمُّ، فهو بمعنى العبادةِ، ويدخلُ فيه الذبحُ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٢٧-٦٢٨).

(٣) اختلف المفسِّرون في معنى (مَحْيَايَ وَمَمَاتِي) على أقوال:
فقيل المعنى: أنَّ الذي يحييني ويميتني هو اللهُ تعالى، وأنَّه هو الذي يدبِّر أمري حيًّا وميتًا. وهو في الجملةِ اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٤٤)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٨٢)، وابنِ عثيمين في ((مجموع الفتاوى والرسائل)) (٩/ ٢٠٨).
وقيل: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي: ما أعملُه في حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أُوصي به بعدَ وفاتي. وهو اختيارُ القرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ١٥٢).
وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠١-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٣).

أَمْرِه، وأنا أوَّلُ المُقِرِّينَ المُذْعِنينَ الخاضِعينَ مِن هذه الأُمَّة لرَبِّه سبحانه[١].

عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ((كان إذا قام إلى الصَّلاةِ، قال: وجَّهتُ وَجْهِيَ للَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأَرضَ حنيفًا، وما أنا مِنَ المُشركينَ. إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي لله ربِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا من المسلِمينَ. اللهمَّ أنت الملِكُ، لا إلهَ إلَّا أنت، أنت رَبِّي، وأنا عبدُك، ظَلَمْتُ نَفْسي، واعترفتُ بذنبي، فاغْفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنت، واهْدِني لأَحْسَنِ الأخلاقِ، لا يَهْدي لأَحْسَنِها إلا أنت، واصْرِفْ عني سيِّئَها، لا يَصْرِفُ عني سيِّئَها إلَّا أنت، لبَّيك! وسعدَيك! والخيرُ كلُّه في يدَيك، والشرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركْتَ وتعالَيتَ، أستغْفِرُك وأتوبُ إليك))[٢].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أمَرَ تعالى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بالتوحيد المحضِ، وهو أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي..﴾ إلى قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ..﴾ أَمَرَه بأن يَذْكُرَ ما يجري مَجْرى الدَّليلِ على صِحَّةِ هذا التوحيدِ، فقال[٣]:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: قل - يا مُحمَّدُ - لهؤلاءِ المشركينَ: أَسِوَى اللهِ أتَّخِذُ ربًّا يَسُودُني ويَحْفَظُني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٢٩).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

ويَكْلَؤُني، ويُدَبِّرُ أمري، وهو خالِقُ ومالِكُ ومدَبِّرُ كُلِّ شيءٍ؟ والمعنى: لا يمكِنُ أن أفعَلَ ذلك، فأطلُبَ ربًّا غَيْرَه؛ فهو رَبُّ كُلِّ شيءٍ، وغيرُه مخلوقٌ مَربوبٌ مَملوكٌ له سبحانه وتعالى(١).

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾.

أي: ما يكسِبُه المرءُ من الآثامِ لا يتعَدَّى منه شيءٌ إلى غيره، فلا تَجْني نفسٌ ذنبًا إلَّا أُخِذَتْ به هي دونَ غيرها(٢).

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الآثامِ، بل كلٌّ يتحَمَّلُ آثامَ نَفْسِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٠-٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦-٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢).

قال ابنُ جرير: (وإنَّما يعني بذلك المشركينَ الذين أَمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقول هذا القَوْلَ لهم، يقول: قل لهم: إنَّا لَسْنَا مأخوذينَ بآثامِكم، وعليكم عقوبةُ إجرامِكم، ولنا جزاءُ أعمالِنا. وهذا كما أمَرَه اللهُ جلَّ ثناؤه في موضِعٍ آخَرَ؛ أن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]) ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨-٤٩). وإلى هذا ذهب ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٨-أ/ ٢٠٦-٢٠٧)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٦٣١).

قال السعدي: (كلٌّ عليه وِزرُ نفسِه، وإن كان أحدٌ قد تسبَّب في ضلالِ غيرِه ووِزرِه، فإنَّ عليه وزرَ التسبُّبِ مِن غيرِ أن ينقصَ مِن وزرِ المباشرِ شيءٌ). ((تفسير السعدي)) (٢٨٢).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ رجوعُكم- أيُّها النَّاسُ- إلى اللهِ تعالى وَحْدَه يومَ القيامَةِ، فيُخْبِرُكم فيه إخبارَ مُجازاةٍ بالذي كُنتم تختلفونَ فيه: مَن كانوا منكم شِيَعًا، وفرَّقوا دينَهم، واتَّبعوا الأهواءَ والضَّلالاتِ، ومن كانوا على الصِّراطِ المستقيمِ، مرجعُهُم جميعًا إلى اللهِ تعالى، فيُبيِّنُ الضَّالَّ من المهْتدِي، ويعامِلُهم بحَسَبِ ما كانوا عليه من هدًى وضلالٍ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩-٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢-٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٥).

قال ابن عاشور: (ثمَّ للترتيب الرُّتْبي. وهذا الكلامُ يحتمِلُ أن يكونَ مِن جملةِ القولِ المأمورِ به، فيكون تعقيبًا للمتاركَةِ بما فيه تهديدُهم ووعيدُهم، فكان موقع ثمَّ؛ لأنَّ هذا الخبَرَ أهَمّ. فالخطابُ في قوله: ﴿إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ خطابٌ للمُشركينَ، وكذلك الضَّميرانِ في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ والمعنى: بما كُنتُم فيه تختلفونَ مع المسلمينَ؛ لأنَّ الاختلافَ واقِعٌ بينهم وبين المُسلمينَ، وليس بينَ المُشركينَ في أنفُسِهم اختلاف. فأدمَجَ الوعيدَ بالوعيد. وقد جعلوا هذه الجملة مع التي قبلها آيةً واحدةً في المصاحف. ويَحتمِلُ أن يكون المقولُ قد انتهى عند قوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ فيكون قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئنافَ كلامٍ من الله تعالى خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وللمعاندينَ له. و﴿ثُمَّ﴾ صالحة للاستئنافِ؛ لأنَّ الاستئنافَ مُلائِمٌ للترتيب الرُّتْبي، والكلام وعيدٌ ووعد أيضًا، ولا ينافي ذلك أن تكونَ مع التي قبلها آيةً واحدةً) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٨).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: واللهُ تعالى أهْلَكَ مَن كان قَبْلَكم مِنَ الأُمَم، ثُمَّ أنشأكم مِن بَعْدِهم، فجَعَلَكم خلائِفَ في الأرْضِ، تَخْلُفونهم فيها، جيلًا بعدَ جيلٍ، وقرنًا بعدَ قَرْنٍ[١].

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾.

أي: وخالَفَ بين أَحْوالِكم، وفاوَتَ بينكم، فجَعَلَ بَعْضَكم فوقَ بعضٍ، في الأرزاقِ والأخلاقِ، والقوَّة والعافِيَة، والمَحاسِن والمساوِئ، والأشكالِ والألوانِ وغيرها، وله الحِكْمَةُ في ذلك[٢].

﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾.

أي: لِيَخْتَبِرَكم فيما خوَّلكم مِن فَضْلِه، ومَنَحَكم مِن نِعَمِه؛ فينظُرَ كيف تعملونَ[٣].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ[٤]، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها، فينظُر كيف تعملونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[٥].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الغالِبُ على فواصِلِ الآياتِ قَبْلَها هو التَّهديدَ؛ بَدَأَ بِقَوْله[٦]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠-٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥).

(٤) حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفَها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخضْرَواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- سريعٌ عقابُه لِمَن عَصاه، وخالَفَ رُسُلَه، وكذَّب بآياتِه(١).

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّه لساتِرٌ للذُّنوبِ، متجاوِزٌ عن العُيُوبِ لِمَن آمَنَ به، واتَّبَع رُسُلَه، وعَمِلَ صالحًا، وتاب، وإليه أناب، رحيمٌ به سبحانه(٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه أنَّ الجزاءَ على الأعمالِ في الآخِرَةِ يكون على السَّيِّئةِ بِمِثْلِها، وعلى الحَسَنةِ بعَشْرِ أمثالِها؛ فضلًا من الله ونعمةً، جل ثناؤه، وعَظُمَت نَعْماؤه، فيا خَسارةَ مَن غَلَبَت سيِّئاتُه حسناتِه المضاعَفَةَ(٣)!

٢- الإسلامُ دينُ التَّوحيدِ والإخلاصِ لله وَحْدَه في العبادَةِ، بالتجَرُّدِ الكامِلِ لله تعالى بكُلِّ خالِجَةٍ في القَلْبِ، وبكُلِّ حركةٍ في الحياة والممات، بالشَّعائِرِ التعبُّديَّة، وبالحياةِ الواقعيَّة، وبالمَماتِ وما وراءه؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إنَّه الإسلامُ الكامِلُ الذي لا يَسْتَبْقي في النَّفْسِ ولا في الحياةِ بَقِيَّةً لا يُعَبِّدُها للهِ تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٤٠-١٢٤١).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الدِّينَ لا بدَّ أنْ يُؤَدَّى مع الإخلاصِ، وأكَّدَه بقَوْلِه جلَّ وعلا: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّه لا يَكْفي في العباداتِ أن يُؤْتَى بها كيفَ كانت، بل يجبُ أنْ يُؤْتى بها مع تمامِ الإخلاصِ[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ موقِعُ هذه الآيةِ عَقِبَ قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه تذكيرٌ بالنِّعمةِ بعد الإنذارِ بِسَلْبِها، وتحريضٌ على تدارُكِ ما فات، وهو يَفْتَحُ أَعْيُنَهم للنَّظَرِ في عواقِبِ الأُمَمِ، وانقراضِها وبقائِها[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ فيه تذكيرٌ بنعمةٍ تتضَمَّنُ عبرَةً وموعظةً: وذلك أنَّه لَمَّا جَعَلَهم خلائِفَ غَيْرِهم فقد أنشَأَهم وأَوْجَدَهم على حينِ أَعْدَم غيرَهم، فهذه نعمةٌ؛ لأنَّه لو قَدَّرَ بقاءَ الأُمَم التي قَبْلَها لَمَا وُجِدَ هؤلاء، وفيه تذكيرٌ بعظيمِ صُنْعِ اللهِ ومِنَّتِه لاستدعاءِ الشُّكْرِ، والتَّحذيرِ مِنَ الكُفْرِ[3].

٦- أنَّ للهِ تعالى سُنَنًا في اسْتِخلافِ الأُمَم واختبارِهم بالنِّعَمِ والنِّقَم؛ ليُظْهِرَ أيُّهم أحسَنُ عملًا، فيترتَّبَ عليه الجزاءُ في الدَّارينِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فرَفَعَ بَعْضَهم فوقَ بعضٍ دَرَجاتٍ: في الخَلْقِ والخُلُقِ، والغِنى والفَقْر، والقُوَّةِ والضَّعْف، والعِلْمِ والجَهْلِ، والعِزِّ والذُّلِّ؛ ليَخْتَبِرَهم فيما أَعْطاهم، ليَظْهَرَ المطيعُ منهم والعاصي[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٢١-٢٢٢).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مُفَصِّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ في الآيةِ الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾(١) [النمل: ٨٩].

٢- قولُه تعالى في سورةِ النِّساءِ: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]، لم يُبَيِّنْ في هذه الآيةِ الكريمةِ أَقَلَّ ما تُضاعَفُ به الحسَنةُ ولا أكثَرَه، ولكِنَّه بَيَّنَ في هذا الموضِعِ من سورةِ الأنعامِ أنَّ أَقَلَّ ما تُضاعَفُ به عَشْرُ أمثالِها، وهو قولُه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾. وبَيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ المضاعَفَةَ ربَّما بَلَغَتْ سَبْعَمائةِ ضِعْفٍ إلى ما شاءَ الله، وهو قولُه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢) [البقرة: ٢٦١].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ مِن هنا يَتبَيَّن أنَّ ما يَجْرِي على أَلْسِنَةِ العامَّةِ: أنَّ السَّيِّئاتِ تُضاعَفُ في مكَّةَ كما تُضاعَفُ الحَسَناتُ؛ أنَّ ذلك الإطلاقَ لا يجوزُ؛ لأنَّ مُضاعَفَةَ السَّيِّئاتِ ممنوعةٌ قطعًا؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو نصٌّ صريحٌ قرآنيٌّ في أنَّ السَّيِّئاتِ لا تُضاعَفُ، ولكِنَّ السَّيِّئةَ في حَرَمِ مكَّةَ مثلًا تَعْظُمُ؛ لأنَّ السَّيِّئة تَعْظُم بِحَسَب عِظَمِ الزَّمانِ والمَكانِ، فإذا عَظُمَتِ السَّيئةُ عَظُمَ جَزاؤُها؛ لأنَّ الجَزاءَ بِحَسَبِ الذَّنْبِ: إذا عَظُمَ الذَّنْبُ عَظُمَ الجَزاءُ، وإذا صَغُرَ الذَّنْبُ صَغُرَ الجَزاءُ، فهو مِن عِظَمِ الذَّنْبِ؛ وعِظَمُ الجزاءِ يكونُ تبعًا لِعظَمِ الذَّنْبِ لا من المضاعَفَةِ؛ لأنَّ السَّيئاتِ لا تُضاعَفُ، ولكنَّها تَعْظُمُ، وتكونُ أكبَرَ في زمانٍ من زمانٍ، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

مَحلٍّ مِن مَحلٍّ؛ ولذا قال في حَرَمِ مكَّةَ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: آية ٢٥] وقال في الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٦] مع أنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ في غَيْرِهِنَّ حرامٌ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيه إيذانٌ بانتهاءِ السُّورَةِ؛ لأنَّ الواعِظَ والمُناظِرَ؛ إذا أَشْبَعَ الكلامَ في غَرَضِه، ثم أَخَذَ يُبَيِّنُ ما رَضِيَه لنَفْسِه وما قَرَّ عليه قَرارُه؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّه قد أَخَذَ يَطْوِي سِجِلَّ المُحاجَّةِ؛ ولذلك غَيَّرَ الأُسْلوبَ، فأَمَرَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَقولَ أشياءَ يُعْلِنُ بها أصولَ دِينِه، وتَكَرَّرَ الأمرُ بالقَوْلِ ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ تَنْويهًا بالمَقولِ[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، عبَّرَ بملَّةِ إبراهيمَ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام هو النبيُّ المُرسَل الذي أجمَعَ على الاعترافِ بفَضْلِه، وصِحَّة دِينِه، وحُسْنِ هَدْيِه؛ العَرَبُ ومَنْ حَوْلَهم؛ مِنْ أَهْلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، وكلٌّ يدَّعِي الاهتداءَ بِهُداه؛ ففي ذِكْرِه استمالةٌ للعَرَبِ، ثمَّ لأَهْلِ الكِتابِ إلى الإسلامِ؛ ببيانِ أنَّ أساسَه، وقواعِدَ عقائِدِه، ودعائِمَ فضائِلِه، هي ما كان عليه إبراهيمُ المتَّفَقُ على هُداه وجلالَتِه[٣].

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا عمومٌ، ثم خَصَّصَ سبحانه من ذلك أَشْرَفَ العباداتِ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ذَبْحي، وذلك لشَرَفِ هاتينِ العِبادَتَينِ وفَضْلِهما، ودلالَتِهما على مَحَبَّةِ اللهِ تعالى، وإخلاصِ الدِّينِ له، والتَّقَرُّبِ إليه بالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، وبالذَّبْح

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٢).

الذي هو بَذْلُ ما تُحِبُّه النَّفْسُ من المالِ؛ لِمَا هو أحَبُّ إليها، وهو الله تعالى، ومَن أَخْلَصَ في صلاتِه ونُسُكِه؛ استَلْزَمَ ذلك إخلاصَه لله في سائِرِ أعمالِه(١).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فيه عَدَمُ نفوذِ تَصْريفِ شخْصٍ على آخَرَ إلَّا ما قام عليه الدَّليلُ(٢).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يُبيِّنُ أنَّ الجزاءَ عند الله تعالى على الأعمالِ مبنيٌّ على عَدَمِ انتفاعِ أحدٍ أو مؤاخَذَتِه بعملِ غَيْرِه، وذلك مِمَّا يَهْدِمُ أساسَ الشِّرْكِ الذي هو الاتِّكالُ على الوُسَطاءِ بينَ اللهِ والنَّاسِ في غُفرانِ ذُنُوبِهم، وقضاءِ حاجَتِهم(٣).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أصلٌ في أنَّه لا يُؤخَذُ أحدٌ بِفِعْلِ أحَدٍ(٤)، وهي قاعدةٌ مِن أُصُولِ دِينِ الله تعالى الذي بَعَثَ به جميعَ رُسُلِه، وهي مِنْ أَعْظَمِ أركانِ الإصلاحِ للبَشَرِ في أفرادِهم وجَماعاتِهم؛ لأنَّها هادِمَةٌ لأساسِ الوَثَنِيَّة، وهاديَةٌ للبَشَرِ إلى ما تتوقَّفُ عليه سعادَتُهم الدُّنْيويَّة والأُخْرويَّة، (وهو عَمَلُهم)(٥).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ لا يُعارِضُه قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ فالآيةُ الأولى محمولةٌ على من لم يَتَسَبَّبْ في الفِعْلِ بِوَجْهٍ، وما عداها محمولٌ على من تَسَبَّبَ فيه بوجْهٍ؛ كالأَمْرِ به(٦).

١١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١١).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٧).
(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٨٢).

بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَظهَرُ أنَّ هذا دليلٌ على إمكانِ البَعْثِ، وعلى وُقُوعِه؛ لأنَّ الذي جَعَلَ بعضَ الأَجيالِ خلائِفَ لِمَا سَبَقَها، فعَمَروا الأَرْضَ جِيلًا بعدَ جيلٍ، لا يُعْجِزُه أن يَحْشُرَها جميعًا بعد انقضاءِ عالَمِ حياتِها الأُولى، ثمَّ إنَّ الذي دَبَّرَ ذلك وأتقَنَه لا يليقُ به ألَّا يُقيمَ بينهم ميزانَ الجزاءِ على ما صَنَعوا في الحياةِ الأُولى؛ لئلَّا يَذْهَبَ المعتَدُونَ والظَّالِمونَ فائزينَ بما جَنَوْا، وإذا كان يُقيمُ ميزانَ الجزاءِ على الظَّالِمينَ، فكيف يَتْرُك إثابَةَ المحسنينَ؟! وقد أشارَ إلى الشِّقِّ الأوَّلِ قَوْلُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ﴾، وأشار إلى الشِّقِّ الثَّاني قَوْلُه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتاكُمْ﴾. ولذلك أعقبه بتذييلِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

١٢- مناسبةُ ختمِ الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هو أنه لَمَّا كان الابتلاءُ يَظْهَرُ به المسيءُ والمحسِنُ، والطَّائِعُ والعاصي؛ لذا ذَكَرَ هذينِ الوَصْفَينِ، وخَتَمَ بهما[2].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، مُبَيِّنٌ لمقاديرِ أَجْزِيَةِ العاملينَ، وقد صُدِّرَ ببيانِ أجزِيَةِ المحسنينَ المدلولِ عليهم بذِكْرِ أضدادِهم[3]، والكلامُ تذييلٌ جامِعٌ لأحوالِ الفريقينِ اللَّذينِ اقتضاهما قَوْلُه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْرًا﴾. وهذا بيانٌ لبعْضِ الإجمالِ الذي في قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا...﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٥).

٢- قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ إنَّما قال في جانِبِ السَّيِّئةِ: ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بصيغةِ الحَصْرِ؛ لأجْلِ ما في صِيغَتِه مِن تَقْديمِ جانِبِ النَّفيِ، اهتمامًا به؛ لإظهارِ العَدْلِ الإلهيِّ؛ فالحَصْرُ حقيقيٌّ[1].

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن مجادَلَةِ المشركينَ، وما تَخَلَّلَها، إلى فَذْلَكَةِ ما أَمَرَ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم في هذا الشَّأنِ، غَلْقًا لبابِ المجادَلَةِ مع المُعْرِضينَ[2].

- وفيه: تصديرُ الجملةِ بقوله: ﴿إنني﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بِمَضْمونِها. والتعَرُّضُ لعُنوانِ الربوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضَميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِمَزيدِ تَشْريفِه[3].

- وقد أسنَدَ الهدايةَ إلى رَبِّه في قَوْلِه: ﴿هَدَانِي رَبِّي﴾ ليدُلَّ على اختصاصِه بعبادَتِه إيَّاه[4]، وتعريضًا بالمُشركينَ الَّذين أضَلَّهم أربابُهم، ولو وَحَّدُوا الرَّبَّ الحقيقَ بالعبادَةِ لهَداهم[5].

- وقوله: ﴿هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ شُبِّهَتْ هيئةُ الإرشادِ إلى الحَقِّ المبَلِّغِ إلى النَّجاة بهيئةِ مَنْ يَدُلُّ السَّائِرَ على الطَّريقِ المبَلِّغةِ للمقصودِ[6]، والمناسبةُ بين الهدايةِ وبَيْنَ الصِّراطِ تامَّةٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الهدايةِ التَّعريفُ بالطَّريقِ، وحقيقةَ الصِّراطِ الطَّريقُ الواسِعَةُ[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿قِيَمًا﴾ مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً؛ فهو وصْفٌ للدِّينِ بمصدَرِ القيامِ، المقصود به كفايةُ المصلحةِ(١).

٤- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استئنافٌ يتنَزَّلُ منزلةَ التفريعِ عن الأوَّلِ، إلَّا أنَّه استُؤْنِفَ للإشارَةِ إلى أنَّه غَرَضٌ مُستقِلٌّ مهِمٌّ في ذاتِه، وإن كان متفرِّعًا عن غيره، وحاصِلُ ما تضمَّنه هو الإخلاصُ لله في العبادَةِ(٢).

- وقيل افتُتِحَتْ جملةُ المقولِ بحرفِ التوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ للاهتمامِ بالخبَرِ ولتحقيقِه(٣).

- وجَعَلَ صلاتَه لله دون غيرِه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ تعريضًا بالمشركينَ؛ إذ كانوا يسجُدونَ للأصنامِ(٤).

٥- قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ للاهتمامِ بالمشارِ إليه(٥).

٦- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ استئنافٌ مفتَتَحٌ بالأمْرِ بالقَوْلِ، يتنَزَّلُ منزلةَ النتيجةِ لِمَا قبله(٦)، والاستفهامُ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ إنكارٌ عليهم؛ لأنَّهم يرغبونَ أن يَعترِفَ بربوبيَّةِ أصنامِهم(٧).

- وقد قُدِّمَ المفعولُ ﴿غَيْرَ﴾ على فِعْلِه ﴿أَبْغِي﴾؛ لأنَّه المقصودُ من الاستفهامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦).

الإنكاريِّ، لأنَّ محلَّ الإنكارِ هو أن يكونَ غيرُ الله يُبتغَى له ربًّا[١].

٧- قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جملةُ حالٍ، مؤكِّدةٌ للإنكارِ[٢].

٨- قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ على القولِ بأن هذا الكلامَ من جملةِ القَوْلِ المأمورِ به، فيكون تعقيبًا للمُتاركةِ بما فيه تهديدُهم ووعيدهم[٣].

- قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى الكُلِّ؛ لتأكيدِ الوَعْدِ، وتشديدِ الوعيد[٤].

٩- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ جاء قولُه: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ بلفظِ التَّعريفِ بالإضافةِ هنا، وقال في «فاطر» ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتَّنكيرِ؛ وذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ هنا تقَدَّمَها ما هو مِن سياقِ النِّعَم عليهم؛ من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فناسَبَ الخطابَ لهم في ذلك بلَفْظِ التَّعريفِ الدَّالِّ على أنَّهم خُلفاؤها المالكونَ لها، وفيه من التَّفخيمِ لهم ما ليس في آيةِ فاطِرٍ؛ لأنَّه ورد في آية فاطر نكرةً، فقال: خلائِفَ فيها، فليس فيه من التمَكُّنِ والتصَرُّفِ ما في قَوْلِه تعالى: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[٥].

١٠- قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فيه: الكنايةُ عن الشَّرَفِ والفَضْلِ، وهذا التفاوُتُ ليس ناشئًا عن عَجْزٍ عن المساواةِ بينهم، ولكنْ للابتلاءِ والامتحانِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣٠٣).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢٩١).

- وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه: تجريدُ الخطابِ لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، مع إضافَةِ اسمِ الرَّبِّ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لإبرازِ مزيدِ اللُّطْفِ به صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

١١- قَالَ سبحانه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بلامٍ واحدةٍ في كلمةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾، وقال في سورةِ الأعرافِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وإنَّه لَغَفُورٌ رحيمٌ﴾ باللَّامِ في الجملتينِ؛ لأنَّ ما هنا وَقَعَ بعد قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾؛ فأتى باللَّامِ المؤَكِّدة في الجملةِ الثَّانية فقط؛ ترجيحًا للغُفرانِ على سُرعةِ العِقابِ. وما هناك وَقَعَ بعد قَوْلِه: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فأتى باللَّامِ في الجُملَةِ الأولى؛ لمناسَبَةِ ما قبلها، وفي الثَّانيةِ تَبَعًا للَّامِ في الأولى[2].

وقيل: الفَرْقُ بينَ هذه الآيةِ وآيَةِ الأعرافِ- حيثُ أتى هناك باللَّامِ، فقال ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ دون ما هنا- أنَّ اللَّامَ تُفيدُ التَّوكيدَ، فأفادَتْ هناك تأكيدَ سُرعةِ العِقابِ؛ لأنَّ العِقابَ المذكورَ هناك عقابٌ عاجِلٌ، وهو عقابُ بني إسرائيلَ بالذُّلِّ والنِّقْمةِ، وأداءِ الجِزْيَةِ بعد المَسْخِ؛ لأنَّه في سِياقِ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فتأكيدُ السُّرعةِ أفادَ بيانَ التَّعجيلِ، وهو مناسِبٌ، بخلافِ العِقابِ المذكورِ هنا؛ فإنَّه آجِلٌ بدليلِ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فاكتفى فيه بتأكيدِ (إنَّ)، ولَمَّا اختُصَّتْ آيةُ الأعرافِ بزيادةِ العذابِ عاجلًا اختُصَّتْ بزيادةِ التَّأكيدِ لَفْظًا بـ «اللَّامِ»[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٦٥).

تمَّ بحمدِ الله المجلَّدُ الخامسُ

ويليه المجلَّدُ السَّادسُ، وأوَّلُه

تفسيرُ سورةِ الأعرافِ

الفهرس

الفهرس

سُورةِ الأنعام ٧
أسماءُ السُّورة..................... ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخصائِصُها ٧
بيانُ المَكيِّ والمَدنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ.................... ٨
موضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١ - ٣)..................... ١١
غريبُ الكَلِماتِ..................... ١١
المَعنَى الإجماليُّ..................... ١٢
تفسير الآيات ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة..................... ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١٦
بَلاغةُ الآياتِ....................... ٢١
الآيات (٤ - ٦) ٢٨
غريبُ الكَلِماتِ..................... ٢٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٩
المَعنَى الإجماليُّ..................... ٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّة..................... ٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٣٦
بَلاغةُ الآياتِ....................... ٣٩
الآيات (٧ - ١١) ٤٢
غريبُ الكَلِماتِ..................... ٤٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٣
المَعنَى الإجماليُّ..................... ٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة..................... ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٤٩
بَلاغةُ الآياتِ....................... ٥٤
الآيتان (١٢ - ١٣)................. ٥٧
غريبُ الكَلِماتِ..................... ٥٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٧
المَعنَى الإجماليُّ..................... ٥٧
تَفسيرُ الآيتين....................... ٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة..................... ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٦٢
بَلاغةُ الآيتينِ....................... ٦٥
الآيات (١٤ - ١٦)................. ٧١
غريبُ الكَلِماتِ..................... ٧١
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٢
المَعنَى الإجماليُّ..................... ٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة..................... ٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٧٨
بَلاغةُ الآياتِ....................... ٨٠
الآيات (١٧ - ١٩)................. ٨٤
غريبُ الكَلِماتِ..................... ٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٨٥

المَعنَى الإجماليُّ ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة........................ ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٩٣
بَلاغةُ الآياتِ........................ ٩٦
الآيات (٢٠ – ٢٤) ١٠١
غريبُ الكَلِماتِ........................ ١٠١
مُشكِلُ الإعرابِ ١٠٢
المَعنَى الإجماليُّ........................ ١٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة........................ ١٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١١٠
بَلاغةُ الآياتِ........................ ١١٤
الآيتان (٢٥-٢٦)........................ ١٢٠
غريبُ الكَلِماتِ........................ ١٢٠
المَعنَى الإجماليُّ........................ ١٢١
تَفسيرُ الآيتين........................ ١٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّة........................ ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١٢٦
بَلاغةُ الآيتينِ ١٢٨
الآيات (٢٧ – ٣٢)........................ ١٣٢
غريبُ الكَلِماتِ........................ ١٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ ١٣٣
المَعنَى الإجماليُّ........................ ١٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة........................ ١٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١٤٥
بَلاغةُ الآياتِ........................ ١٤٩
الآيات (٣٣ – ٣٥)........................ ١٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ١٦٠
المعنى الإجماليُّ........................ ١٦١
تفسيرُ الآياتِ ١٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ١٦٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٩
بلاغةُ الآياتِ........................ ١٧٥
الآيات (٣٦ – ٣٩)........................ ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ١٨٢
المعنى الإجماليُّ........................ ١٨٣
تفسيرُ الآياتِ ١٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ١٩٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩١
بلاغةُ الآياتِ........................ ١٩٥
الآيات (٤٠ – ٤٥)........................ ٢٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ٢٠٣
مُشْكِل الإعراب ٢٠٤
المعنى الإجماليُّ........................ ٢٠٥
تفسيرُ الآياتِ ٢٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ٢١٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٩
بلاغةُ الآياتِ........................ ٢٢٥
الآيات (٤٦ – ٥٠)........................ ٢٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ٢٣٢

المعنى الإجماليُّ ٢٣٣
تفسيرُ الآياتِ ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٤٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٢
الآيات (٥١ – ٥٥) ٢٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٣
مشكل الإعراب ٢٦٤
المعنى الإجماليُّ ٢٦٦
تفسيرُ الآياتِ ٢٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٧٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٣
الآيات (٥٦ – ٥٨) ٢٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٠
المعنى الإجماليُّ ٢٩٠
تفسيرُ الآياتِ ٢٩١
الفَوائِد التربويَّة ٢٩٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٩
الآيات (٥٩ – ٦٢) ٣٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٤
مشكل الإعراب ٣٠٥
المعنى الإجماليُّ ٣٠٥
تفسيرُ الآياتِ ٣٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣١٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٢١
الآيات (٦٣ – ٦٧) ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ ٣٢٧
تفسيرُ الآياتِ ٣٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٣٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٧
الآيات (٦٨ – ٧٠) ٣٤١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٤٢
المعنى الإجماليُّ ٣٤٣
تَفْسيرُ الآياتِ ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٤٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٥١
الآيات (٧١ – ٧٣) ٣٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٥
مشكل الإعراب ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ٣٥٦
تفسيرُ الآياتِ ٣٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٦١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٣
بلاغَةُ الآياتِ ٣٦٥
الآيات (٧٤ – ٧٩) ٣٧٠

غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٣٧٠
المعنى الإجماليُّ.............. ٣٧١
تفسيرُ الآياتِ ٣٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٣٨٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٠
بلاغَةُ الآياتِ.............. ٣٨٤
الآيات (٨٠ - ٨٣).............. ٣٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٣٨٨
مُشْكِلُ الإعرابِ ٣٨٩
المعنى الإجماليُّ.............. ٣٩٠
تفسيرُ الآياتِ ٣٩٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٣٩٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٥
بلاغَةُ الآياتِ.............. ٣٩٩
الآيات (٨٤ - ٩٠).............. ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ.............. ٤٠٧
تفسيرُ الآياتِ ٤٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٤١٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٧
بلاغَةُ الآياتِ.............. ٤٢٤
الآيتان (٩١-٩٢) ٤٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٤٢٩
المعنى الإجماليُّ.............. ٤٣٠
تفسيرُ الآيتينِ.............. ٤٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٤٣٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٥
بلاغَةُ الآيتينِ.............. ٤٣٧
الآيتان (٩٣-٩٤) ٤٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٤٤٢
مُشْكِلِ الإعرابِ ٤٤٣
المعنى الإجماليُّ.............. ٤٤٣
تفسيرُ الآيتينِ.............. ٤٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٤٤٩
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٠
بلاغَةُ الآيتينِ.............. ٤٥٢
الآيات (٩٥-٩٩).............. ٤٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٤٥٨
مُشْكِلِ الإعرابِ ٤٦٠
المعنى الإجماليُّ.............. ٤٦١
تفسيرُ الآياتِ ٤٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٤٧١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٢
بلاغَةُ الآياتِ.............. ٤٧٧
الآيات (١٠٠-١٠٣) ٤٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ.............. ٤٨٧
مُشْكِلِ الإعرابِ ٤٨٨
المعنى الإجماليُّ.............. ٤٨٨
تفسيرُ الآياتِ ٤٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٤٩٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩٤
بلاغَةُ الآياتِ.............. ٤٩٦

الآيات (١٠٤-١٠٧) ٥٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٥٠٣
المعنى الإجماليُّ.................... ٥٠٣
تفسيرُ الآيات ٥٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٥١٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١١
بلاغَةُ الآياتِ.................... ٥١٤
الآيات (١٠٨-١١٠) ٥١٦
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٥١٦
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥١٧
المعنى الإجماليُّ.................... ٥١٨
تفسيرُ الآياتِ ٥١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٥٢٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢٥
بلاغَةُ الآياتِ.................... ٥٢٨
الآيات (١١١-١١٣) ٥٣١
غريب الكلِمات.................. ٥٣١
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٣٢
المعنى الإجماليُّ.................... ٥٣٢
تفسيرُ الآياتِ ٥٣٣
الفَوائِد التربويَّة.................. ٥٤٠
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٤١
بلاغة الآيات.................... ٥٤٢
الآيات (١١٤-١١٧) ٥٤٦
غريب الكلِمات.................. ٥٤٦
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٤٦
المعنى الإجماليُّ.................... ٥٤٧
تفسيرُ الآياتِ ٥٤٨
الفوائدُ التربويَّة.................. ٥٥٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٥٣
بلاغة الآيات.................... ٥٥٣
الآيات (١١٨-١٢١) ٥٥٨
غريب الكلِمات.................. ٥٥٨
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٥٨
المعنى الإجماليُّ.................... ٥٥٩
تفسيرُ الآياتِ ٥٥٩
الفَوائِد التربويَّة.................. ٥٦٤
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٦٥
بلاغة الآيات.................... ٥٦٧
الآيات (١٢٢-١٢٧) ٥٧٠
غريب الكلِمات.................. ٥٧٠
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٧٢
المعنى الإجماليُّ.................... ٥٧٢
تفسيرُ الآياتِ ٥٧٣
الفَوائِد التربويَّة.................. ٥٨٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٨٣
بلاغة الآيات.................... ٥٨٨
الآيات (١٢٨-١٣١) ٥٩٤
غريب الكلِمات.................. ٥٩٤
المعنى الإجماليُّ.................... ٥٩٥
تفسيرُ الآياتِ ٥٩٦
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٠٤

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٠٥
بلاغة الآيات.................... ٦٠٨
الآيات (١٣٢-١٣٥) ٦١١
غريب الكلمات.................. ٦١١
المعنى الإجماليُّ................... ٦١١
تفسيرُ الآياتِ ٦١٢
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦١٨
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦١٨
بلاغة الآيات.................. ٦٢٠
الآيات (١٣٦-١٤٠) ٦٢٥
غريب الكلمات................ ٦٢٥
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٦٢٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٢٨
تفسيرُ الآياتِ ٦٢٩
الفوائدُ التربويَّة.................. ٦٣٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٣٦
بلاغة الآيات.................. ٦٣٩
الآيتان (١٤١-١٤٢) ٦٤٢
غريب الكلمات................ ٦٤٢
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٦٤٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٤٣
تفسيرُ الآيتين.................. ٦٤٤
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٥١
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٥١
بلاغة الآيتين ٦٥٤
الآيتان (١٤٣-١٤٤) ٦٥٦
غريب الكلمات.................. ٦٥٦
مُشْكِلُ الإعرابِ ٦٥٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٥٧
تفسيرُ الآيتين.................. ٦٥٨
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٦٢
بلاغة الآيتين ٦٦٣
الآيات (١٤٥-١٤٧) ٦٦٦
غريب الكلمات.................. ٦٦٦
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٦٦٧
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٦٨
تفسيرُ الآياتِ ٦٦٩
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٧٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٧٧
بلاغة الآيات.................. ٦٧٩
الآيات (١٤٨-١٥٠) ٦٨٢
غريب الكلمات.................. ٦٨٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٨٢
تفسيرُ الآياتِ ٦٨٣
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٨٧
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٨٧
بلاغة الآيات.................. ٦٨٨
الآيات (١٥١-١٥٣) ٦٩٢
غريب الكلمات.................. ٦٩٢
مُشْكِلُ الإعرابِ ٦٩٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٩٤
تفسيرُ الآياتِ ٦٩٥

الفَوائِد التربويَّة................ ٧٠٣
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٧٠٥
بلاغة الآيات.................. ٧٠٩
الآيات (١٥٤-١٥٩) ٧١٣
غريب الكلمات................ ٧١٣
مشكلُ الإعرابِ ٧١٤
المعنى الإجماليُّ................ ٧١٦
تفسيرُ الآياتِ ٧١٧
الفَوائِد التربويَّة................ ٧٢٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٧٢٦
بلاغة الآيات.................. ٧٣٠
الآيات (١٦٠-١٦٥) ٧٣٤
غريب الكلمات................ ٧٣٤
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٧٣٥
المعنى الإجماليُّ................ ٧٣٦
تفسيرُ الآياتِ ٧٣٧
الفَوائِد التربويَّة................ ٧٤٥
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٧٤٧
بلاغة الآيات.................. ٧٥٠